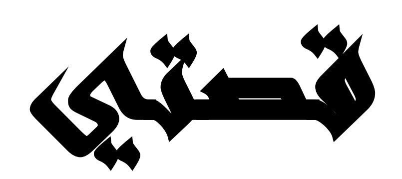


سمير القنطار

رواية وثائقية:

حسان الزين

حكايات اشتراكية

المحتويات

إلى الأسرى في سجون العدو الإسرائيلي أحياءً وشهداء.

إلى الذين قدّموا دماءهم وحياتهم في سبيل حريّة الأسرى، لا سيّما مجاهدي المقاومة الإسلاميّة وصاحب الوعد الصادق سماحة السيّد حسن نصر الله.

إلى روحَيْ أبي وأختي سناء اللذين غادرانا دون أن أكحّل عيني برؤيتهما.

إلى عائلتي التي انتظرت بصبر وكانت معي دائماً.

إلى أم جبر التي تحمل قسمات وجهها حقبة معاناة طويلة، أنا أحد عناوينها.

إلى زوجتي زينب، أنيسة روحي بعد الحريّة، ورفيقة دربي.

سمير القنطار

إلى أستاذي ورفيقي جوزف سماحة، محاولة لتجديد موعد لم يكتمل. شكراً.

حسّان الزين

لست نيرون

سجن هداريم، ١٢ تموز/ يوليو ٢٠٠٦.

استيقظتُ باكراً قبل بدء جولة العدّ اليوميّة. ذهني صافٍ وكأنّه لا كوكبَ ولا شيء فيه. قمتُ بحركاتي الآليّة الصباحيّة. نزلتُ من سريري الموجود كطبقة ثانية فوق سرير زميلي في الزنزانة، محمد أبو جاموس. أحبّ أن يكون سريري عالياً كأنه طائرٌ مرتفع عن أرض الزنزانة والسجن. يتيح لي ذلك توفير عالمٍ خاصّ بي. أفكّر بهدوء وأقرأ وأستمعُ إلى الراديو وأشاهد التلفزيون... أشعر بأنني في عليّتي وأرى العالم من حولي.

شرعتُ أغسل وجهي وأسناني فوق المغسلة المكشوفة قرب الحمام في الزنزانة. اقتربَ مني أبو جاموس ليخبرني أنه مكتوب، في شريط الأخبار على التلفزيون، أنَّ ثمّة اشتباكات على الحدود اللبنانية مع فلسطين المحتلة. لم آخذ أو أعطِ معه. سمعتُ ولم أقل كلمة أو أُظهر أيّ ردّة فعل. قلتُ في نفسي إنها عملية في مزارع شبعا رداً على ما يحصل في قطاع غزّة. فالوضع هناك صعب، وإسرائيل تقوم بأعمال انتقامية منذ أُسر الجندي جلعاد شاليط قبل ١٩ يوماً (في ٢٥ حزيران/ يونيو ٢٠٠٦)، والمقاومة الإسلاميّة في لبنان تتضامن مع الفلسطينيين وربّما تقوم بعمل عسكري لتخفيف الضغط عنهم وتشتيت الجبهة الإسرائيلية. فكّرتُ في هذا واستبعدتُ أيّ عملية أسر لجنود إسرائيليين، مع أنني سمعتُ من يومين، من صديقي الصحافي إبراهيم الأمين، عبر الهاتف بطريقة مشفّرة، توقّعاً بتنفيذ المقاومة الإسلاميّة عملية أسر. والحقيقة أن إبراهيم لم يكن يفشي لي سرّاً، بل مجرّد توقّع، وقد فكّرت أنه يماشي رغبتي في تنفيذ تلك العملية. فبصراحة، منذ تنفيذ حركة «حماس» عملية أسر شاليط، وأنا أسأل نفسي لماذا لم تنفّذ المقاومة الإسلاميّة

مثل هذه العملية. والسيّد حسن نصر الله، الأمين العام لحزب الله، لم يكفّ عن تكرار وعده بذلك، ولا سيما منذ رفضَ الإسرائيليون إطلاق سراحي ضمن عملية التبادل السابقة مع المقاومة، وأطلق فيها سراح الشيخ عبد الكريم عبيد وأبو علي الديراني وأنور ياسين وآخرين (٢٩/ ١/ ٢٠٠٤). والمقاومة كما أعرف وكما يقول السيّد حسن، مستعدّة لذلك. لا أخفي أنني شعرتُ بالغيرة، لكن غلبها الفرح بنجاح «حماس» في تنفيذ عملية متقنة كهذه، واستطاعت إخفاء شاليط رغم الأعمال العسكرية والأمنية الإسرائيلية.

جلستُ على كرسي صغير في زنزانتي أحتسي قهوتي، وأتابع التلفزيون. لا جديد على ما قاله أبو جاموس. بعد قليل وصلني مرسال من رفيق لي في السجن، عبد الناصر عيسى، من قيادات «حماس»، نزيل زنزانة مجاورة، يخبرني أنّه سمع بتنفيذ حزب الله عملية أسر.

كهرباء عبرت جسدي، كما لو أني استيقظتُ الآن لا قبل ساعات. نقلت محطة التلفزيون إلى القناة الإسرائيلية «العاشرة»، فهي عادة تأتي بأخبار عاجلة ومهمّة. وجدتُ في أسفل الشاشة عبارة: «اشتباكات على طول الحدود اللبنانية، ويبدو أن حزب الله يخطط للقيام بأمرٍ ما». جملةٌ ملغّزة ملغومة كالعادة، تقول ولا تقول الحقيقة كاملة. بدأ الفأر يلعب في عبّي. انتقلتُ، لأجمع الخبر، إلى القناة الإسرائيلية «الثانية». الأمر نفسه: «اشتباكات على طول الحدود مع لبنان ويبدو أن حزب الله يريد أن يقوم بعمل ما». هنا أيضاً جملة ناقصة. شعرتُ بأنها تخفي أكثر ممّا تبوح، وفي الوقت نفسه تمهّد لقول أمور أخرى وإبراز أجزاء من البازل. هذه اللعبة الإسرائيلية باتت مكشوفة لديّ بعد ٢٨ سنة من الاعتقال خبرتُ فيها، من الداخل، أساليبهم في إدارة الحروب الإعلامية وفي التفاوض والتحقيق. ارتسمتْ في داخلي ابتسامة هازئة تحدس أمراً ما مفرحاً لي وللمقاومة ومؤلماً للإسرائيليين. تفاؤل خافت لم أقمعه بل رحتُ أبحث عن خبرٍ يغذّيه أو يطابقه ويترجمه. وزاد من شعوري هذا تفسيري لعبارة «يبدو أن حزب الله يخطط لأمرٍ ما». هل مِنْ أحدٍ يكتب في الأخبار مثل هذا؟ هذا يعني أن أمراً ما قد حصل وإسرائيل تمهّد لإعلانه، لكن القرار في صدده لم يؤخذ بعد. فالتقليد في إسرائيل يفرض على الإعلام الالتزام بالبيانات الرسمية الصادرة عن الجيش. والجيش لا يعلن كل ما يحصل في لحظته، بل يمهّد لذلك وفق إدارته المعركة ميدانياً ويأخذ بالحسبان الرأي العام.

ففي الوقت الذي لا يريد فيه أن يصدم مواطنيه، لا يحوّلهم ضغطاً عليه، وبالتالي يغدو مضطراً إلى إعلامهم بكل شيء. الجيش يلعب لعبة حذرة مع الرأي العام المتطلّب إعلامياً والخائف أيضاً.

وأنا الآن في دائرة الرأي العام الإسرائيلي، إذ أتلقّى من خلال الإعلام الإسرائيلي، لكني في الموقع الآخر، العدو. هكذا، أغدو في مثل هذه الحالات، كجاسوس يبحث عن معلوماته. وتفاقم نهمي لمعرفة الحقيقة. أغرتني فكرة أن أتصل بأحد في بيروت، شقيقي بسام، أو الحاج المنسّق بيني وبين السيّد حسن نصر الله، لكن ذلك مستحيل في هذا الوضع. الخطوط قد تكون مراقبة فيُكشف أمر هاتفي السرّي. وأصلاً، يصعب عليّ سحبه من مخبئه الآن مع احتمال دهم السجن وتفتيشه. كبحتُ هذه الرغبة، وهي في الحقيقة رغبة في معرفة ما يجري أكثر منها مغامرة. عند هذا، تركّز اهتمامي على التلفزيون كوسيلة وحيدة لجمع المعلومات.

مرّت ساعة تقريباً، صارت العاشرة، وفي الأيام العادية لا يقطعون البث ويتحوّلون إلى الأخبار، كما يفعلون اليوم، لكن ما يُقال على الشاشات لا يتجاوز تلك العبارة اليتيمة: «يبدو أن حزب الله يمهّد لأمرٍ ما»!

ماذا أفعل؟ لا شكّ في أن أمراً ما قد حصل! ازداد اقتناعي بذلك. وأنا أنقل التلفزيون بين القنوات الإسرائيلية، ثَبَتُّ قليلاً على «العاشرة»، أوقفتني عندها صورة المراسل ألون بن دافيد، يقدّم تقريراً عمّا يجري على الحدود اللبنانية. لفتتني عبارة قالها: «يبدو أن حزب الله نفّذ عملية استراتيجية».

دَفْقٌ من الماء البارد غمر روحي. شعرتُ بأنني غطستُ في بحر صور. ورحتُ أعوم. قلتُ لنفسي:

«خلص. وقعوا!. فالشباب، في المقاومة، لا ينفّذون إلاّ عملية أسر، ولا شيءَ آخر».

كرّرتُ:

«أكلوها». واطمأننت.

عملية استراتيجية؟ عبارة ترنّ في رأسي. عملية استراتيجية، أدرينالين يعبر حواسي كلّها. أريد أن أعرف بعد. أريد أن أفهم ماذا يجري. لكن يقيناً حطّ في قلبي. وضعتُ يديّ في جيبيْ بنطلون الجينز، كأني أمسكُ بكفّي شيئاً ما ثميناً، أو سريّاً، كي لا يأخذه أو يعرف به أحد. باتت كفّاي قبضتين، وكلما شددتُ أصابعي

القصيرة تحرّكت قسمات وجهي كما لو أنها مربوطة بخيوطٍ موصولة بالأصابع وتحاول أن ترسم ابتسامة، أو تمهّد لذلك. وما زلتُ مشدوداً إلى التلفزيون. روني دانييل على القناة «الثانية» يقول:

— «بدأ حزب الله عمليات استفزازية على الحدود، واضطرّ الجيش إلى الرد».

يمهّدون للإخبار عن العملية... يفرشون الطريق للصدمة. حتى الآن لا بيانَ رسمياً عن الجيش. وما دام الأمر كذلك، ممنوعٌ على الإعلام أن يستند إلى مصادر خارجية. فكّرتُ في هذا، وأنا أراوغ انتظاري.

خبط قويّ على الحائط من الزنزانة الملاصقة أعادني إلى الواقع. اقتربتُ من الحائط لجهة الباب ورددتُ عليه، فطلب إليّ أحدهم أن أشاهد قناة «الجزيرة». نقلتُ التلفزيون إليها فوجدتُ مكتوباً في أسفل الشاشة خبراً عاجلاً:

— «حزب الله يأسر جنديين إسرائيليين».

— «خلص، مشي الحال!»، فرحت. رفعت يديّ وشكرت الله. أعدتُ يديّ إلى جيبيْ بنطلوني: «صار الموضوع في يدي». خرجتُ من الزنزانة إلى الممر. رآني شرطي سعيداً، يبدو أنني لم أخفِ ابتهاجي، أو هو الشرطي الذي بادر إلى سؤالي عمّا يحصل جعلني أفرح وأظهر ذلك بقولي له:

— «شبابنا سحبوا لكم اثنين». وضحكت.

ردّ:

— «ماذا؟».

كرّرت:

— «شبابنا في المقاومة سحبوا لكم اثنين».

سأل:

— «من المقاومة؟».

قلت:

— «المقاومة الإسلامية، حزب الله في لبنان، سحب لكم جنديين، الآن، ليخرجني من هنا».

لم يصدّق، لم يأخذ الموضوع جديّاً. انسحب إلى مكاتب إدارة السجن. هناك عندهم محطة إخبارية مشفّرة اسمها "YES"، قويّة، تأتي بأخبار دقيقة. أعرف من

اللحظة الأولى أنه سينسحب ليشاهد تلك المحطة ويتأكّد. لعلّي حرّضته ليفعل ذلك، وإذا لم يعد يتأكد لي الأمر، فيما يعود إذا لم يكن الخبر صحيحاً ويريد أن يغيظني وينفي ما قلته له.

وغاب.

صار الشباب، السجناء معي، يهنئونني ويقبّلونني علناً أمام الحراس الإسرائيليين، في الممر وفي الزنزانة.

لم يكبح الإسرائيليون هذه الفرحة عندما قطعوا بثّ المحطات العربية التي تصل إلينا. تركوا العبرية فقط. فقطع بث تلك القنوات يعني لنا أن أمراً ما خطيراً واستراتيجياً قد حصل ويريدون أن يمنعوا عنّا أخباره ويقنّنوها بما يقدمونه هم لنا.

لكن القناة «العاشرة» التي نشاهدها ولم يوقفوها لكونها عبرية، راحت تنقل عن قناة «المنار». نقلت بيان المقاومة وصوراً لي. سمعتُ أن اسم العملية إطلاق سراح سمير القنطار ورفاقه من السجون الإسرائيلية.

ارتحت.

«انتهى المشوار». لم أغنِّ هذا لكن صداه صدح في رأسي.

صوت شقيقي بسّام وأمّي عبر إذاعة «النور» جذبني إلى سريري لأسمع قرب الراديو. استلقيتُ كأني في بيتنا، في عبيه. أخذتني الإذاعة إلى ألفة قديمة، بعيدة. فرحُ تلك الأصوات لفّني.

الآن، وسط هذا اليوم التموزي، ثمّة دفءٌ وثمّة هواءٌ أتنشّقه. هواءٌ جبلي مع نسمات بحرية، وأصواتٌ ووجوهٌ كثيرة.

«شكراً سماحة السيّد. شكراً أيها المقاومون الأبطال». رحتُ أكرّر وأنا أنظر إلى سقف زنزانتي القريب من وجهي، وأرى السماء. كانت صافية، وزادها وضوحاً اعتراف الجيش الإسرائيلي بالعملية وأسر الجنديين، رغم أن العبارة الإسرائيلية الرسمية كانت: «فُقِدَ جنديان ويبدو أن حزب الله أسرهما».

فتح هذا الكلام المزاد الإعلامي والتحريضي في إسرائيل: «كيف وصل حزب الله إلى هذه المرحلة، يخطف فيها أولادنا ويعبر حدود دولتنا... يجب أن نقضي عليه!».

وما نفع أن يقطعوا عنّا بثّ القنوات العربية، وها هم يتجرّعون السمّ وينقلون

المؤتمر الصحافي للسيّد حسن نصر الله، ويترجمونه مباشرة إلى العبرية! بل توجّه إليّ وإلى رفاقي السجناء. صوته وهو يحدّثني سمعته يخترق السجن وإسرائيل كلها. قال:

«إنكم أصبحتم عند خط الحريّة. هذا يوم سمير القنطار ويحيى سكاف ونسيم نسر». واختصر اسم العملية (إطلاق سراح سمير القنطار ورفاقه من السجون الإسرائيلية) في كلمتين: الوعد الصادق. وقال:

«أصلاً، الوعد لمَن؟ لسمير القنطار ورفاقه!»، وتوجّه بالشكر إلى «المجاهدين الأبطال الذين نفّذوا العمليّة ووفوا بالوعد، ولذلك سمّيت عمليّتهم الوعد الصادق».

ونقطة على السطر.

استفزّهم السيّد. جنّنهم.

آثرتُ في هذه اللحظة متابعةَ برنامج «مساء جديد» مع مقدّمه البارز في إسرائيل دان مرغاليت، على القناة «الأولى». أحسستُ أنه يوضح توجّهات الرأي العام. فقد استضاف أشخاصاً منفعلين راحوا يحرّضون الحكومة على الحرب، واتفقوا على أنه إذا لم نقم بحرب من أجل الجنديين يجب أن نقوم بها رداً على كلام حسن نصر الله:

«إذا أردتم حرباً فسنذهب إلى النهاية، وإذا أتى العالم كلّه فلن يأخذ الجنديين من دون إطلاق سراح سمير القنطار ورفاقه».

وقد أغفلوا كلامه:

«هدفنا مما جرى صباحاً هو أسر جنود إسرائيليين لنبادل بهم، نحن لا نريد التصعيد في الجنوب وهذه ليست نيّتنا، لا نريد أخذ لبنان ولا المنطقة إلى الحرب، وقد حصل اتصال معنا من قوات الطوارئ الدولية التي أبلغتنا أن هناك مسعى لوقف إطلاق النار، فهل أنتم جاهزون؟».

وتقرّر أن تجتمع الحكومة الإسرائيليّة عند الثامنة مساءً. سيطر عليّ الحذر والترقّب. كرةُ ثلج ردّة الفعل بدأت تكبر وتتدحرج. صرتُ أفكّر بالخطوة التالية التي ستقوم بها إسرائيل. وبقيتُ أستبعد الحرب لكون إسرائيل غير مستعدّة لها وحكومتها الحالية ليس فيها عسكريون، ومسألة الجنديين يمكن حلّها بالتفاوض والتبادل، كما حصل مع عمليّة أسر الجنود الإسرائيليين الثلاثة، في تشرين الأول ٢٠٠٠. لكن ردّة الفعل لا محالة ستحصل، وتوقّعتها موضعيّة، قصفاً هنا، واغتيالاً وخطفاً هناك.

وهي كانت قد بدأت منذ تنفيذ المقاومة العملية، في خراج بلدة عيتا الشعب. فقد قصفت القوّات الإسرائيليّة عدداً من البلدات الجنوبيّة لقطع الطريق على انسحاب عناصر المقاومة. وعند الحادية عشرة صباحاً بدأت الطائرات الإسرائيليّة تستهدف جسوراً تربط المناطق الجنوبية بعضها ببعض وبالأجزاء الأخرى في لبنان. وقصفت الكثير من الطرقات والقرى. عرفت بهذه الأعمال مساءً.

وصُرّح باسمَيْ الجنديين الأسيرين: إيهود غولدفاسر وإلداد ريغف.

إلى أن انتهى اجتماع الحكومة الإسرائيلية وأعلنت الحرب على لبنان وحزب الله في إطار «المواجهة الكبرى» لتحقيق هدفين: الأول ضربة مؤلمة لحزب الله والبنى التحتيّة اللبنانيّة في الساعات والأيّام القريبة. والثاني إبعاد حزب الله عن الحدود بجهد عسكري ودبلوماسي على الصعيد الدولي. وأطلقت إسرائيل على حربها هذه تسمية «الجزاء المناسب».

عندها، بدأت أجواء الحرب ترتسم.

توجّستُ شرّاً، وكذلك السجناء الآخرون. كلّهم عبّروا لي عن ذلك. تشاءموا. وتحدّثوا عن حقد إسرائيل وممارساتها في فلسطين ولبنان. شخصياً، لم أخف. كنتُ مطمئناً، وقلتُ لا حكومةَ في العالم تأخذ قراراً بالحرب في ساعة أو ساعتين إلاّ تكون غافلة عن نتائج الحرب. لا حربَ تُتّخذ بهذا النحو تحت ضغط التحريض الإعلامي.

قلت لشباب يساجلونني:

— «ستأكلها إسرائيل وتخسر!».

واستمرّت أكثرية الشباب على رأيها، قالوا:

— «هذه حرب كسر عظم».

ورددتُ:

— «أعرف أن هناك نيّة بالقضاء على المقاومة، وعدّة الشغل اللبنانية موجودة وجاهزة، لكن المقاومة لن تنكسر».

وقفت عند هذا الحدّ، أحجمت عن القول إن حزب الله ليس الفصائل الفلسطينية المحاصرة في غزّة. فحزب الله ليس محاصراً ويمتلك القدرة والدراية والسلاح المطلوب للمواجهة. لم أقل ما أفكر فيه حرصاً على مشاعر الشباب

الفلسطينيين، فربما يحسَبون أن الأمر مزايدة عليهم، أو تبجّح وتعالٍ هما أصلاً ليسا في التفكير والحسبان. لكنّها الحقيقة التي يعرفها الجميع. فحزب الله حتى ولو لم يكن يتوقّع ردّة الفعل الإسرائيليّة فإنه أجاد الاستعداد لها.

وقلت للشباب:

- «العالم كلّه يعرف أن ليس في الحكومة الإسرائيليّة الحالية عسكريون، كلهم أغرار. رئيسها إيهود أولمرت ووزير الدفاع عمير بيرتس عديما التجربة العسكريّة وتوّاقان لتحقيق انتصارات سريعة لبناء زعامتيهما. وقيادة الجيش تجريبيّة، رئيس الأركان دان حالوتس ورئيس شعبة الاستخبارات عاموس يادلين وصلا إلى منصبيهما من سلاح الجو حيث القدرة الناريّة الهائلة والتسليم القدري بإمكانيّات التكنولوجيا. وقيادة الأركان من جيل من القادة، يستخفّ بالعدو ويبالغ في تقدير قوّة الذات. أمّا المجتمع الإسرائيلي فقد بات أشدّ ميلاً إلى الاستهلاكيّة وإلى الرفاه، وأكثر غربيّة وأقلّ أيديولوجيّة».

لكنَّ رأيي هذا الذي قلته للشباب في حواراتنا لم يضعف موجة التشاؤم العارمة. وبصراحة، وأنا أساجل الشباب وأتابع التلفزيون، القنوات العبرية، وإذاعة النور، قلقتُ على المقاومة ولبنان. لكنه لم يكن قلقاً من نتائج الحرب بل من الأعمال العسكريّة والأمنيّة التي يمكن أن تقوم بها إسرائيل، وخصوصاً في بدايتها. ألقيتُ نظرة عبر باب الزنزانة على الممر لأعرف حركة الحراس. وانسحبتُ إلى سريري أحرسُ ما أفكّر فيه وما سأقوم به. ورحتُ أُنصتُ لأي حركة للشرطة في الممر. استلقيتُ كأنني نائم. أسهم ذلك في هدوء الزنزانة. واختفت الأصوات من الخارج. اكتفيتُ بصوتٍ خافت، همس، من الراديو، أسمع إذاعة النور. حافظتُ على هذا الوضع بعض الوقت، لأتأكد من حركة الشرطة. الدهم والتفتيش قد يحصلان في أيّ لحظة، خصوصاً في مثل هذه الظروف. لم أسمح لنفسي بأن تطمئن إلى أن انشغال إسرائيل بأجواء الحرب يمنع الشرطة من الدهم والتفتيش أو أيّ عمل آخر. والهاتف أغلى ما عندي، في سجني هذا، في هذه الأثناء. هو صلتي الوحيدة بالعالم وأطمئن من خلاله على المقاومة ولبنان وأهلي وأعرف الأخبار. قلقٌ إضافيّ جعلني أبالغ في الحيطة والحذر. أنصت للخارج وعيني على الباب، أحاول أن أرصد أي حركة في الممر. هدوء، سكون.

عند الحادية عشرة، سحبتُ الهاتف من مخبئه واتصلتُ بالحاج، المنسّق بيني

وبين السيّد حسن نصر الله. أخفيتُ الهاتف وفمي بكفّي كي يتبدّد صوتي وهمستُ له ودعوته إلى الحذر والتنبّه:

– «ربما تلجأ إسرائيل، بدايةً وقبل الحرب، إلى خطف كوادر من المقاومة لتغيير ميزان القوى وتعديله وإمساكها بأوراق للتبادل بالجنديين».

رد مطمئناً:

– «لا يهمّك، الجميع محتاط وكل شيء تمام».

حمّلته تحياتي للسيّد والشباب الذين نفّذوا العملية والمقاومين كافة وودّعته.

استمررتُ أتابع إذاعة النور. وشعرتُ بأن اتصالي هذا أشبه بعملية استطلاع لإمكان استعمال الهاتف. دفعني هذا إلى عدم التردّد في الضغط على أرقام شقيقي بسام. كانت معنوياته مرتفعة. أخبرني أن الأهل بخير وسعداء. تواعدنا على الصبر. واتفقنا على أنه إذا بادرت إسرائيل إلى الحرب تكون قد ارتكبت حماقة.

لم أنم. بقيت ساهراً مع إذاعة النور. أسمع الأناشيد الحماسيّة والدينيّة. أقرأ القرآن وأدعو الله أن يحمي لبنان والمقاومة ويفك أسر كلّ معتقل. وتخلل هذه الأمسية أخبار عن الحرب وبيانات للمقاومة تعلن فيها تدميرها ثلاث دبابات وقصفها مرابض مدفعيّة إسرائيليّة في الجولان السوري المحتل. سمعت تحيّة المرشد العام للإخوان المسلمين في مصر محمد مهدي عاكف للمقاومة الإسلاميّة، قائلاً: «استطاع حزب الله بإمكانياته العسكريّة المتواضعة بالقياس إلى إمكانيّات الجيوش النظاميّة أن يحقّق ما لم تقم به حكومات عربيّة عدّة، اكتفت بالصمت تجاه ما يحدث من مذابح لإخواننا الفلسطينيين». طمأنني هذا على أن الشارع العربي مع المقاومة.

ما إن طلع النهار حتّى خرجت من السرير كأنه هو وحده الزنزانة. أعددت القهوة وأنا أستمع إلى الأخبار عبر الراديو، بصوت خافت كي لا أوقظ رفيقيّ في الزنزانة، لراحتهما وكي لا ندخل في سجال نحن في غنى عنه.

الحَرُّ شديد وأنا أكاد أختنق. فمن مساء أمس، بل منذ أعلنت العمليّة، وأنا أتمنى لو كنتُ حرّاً لا لشيء إلاّ لأكون مع المقاومين. وأعلنَت وزارة الدفاع الإسرائيليّة أنها تعتزم قصف طريق بيروت - دمشق استكمالاً للحصار المفروض

على لبنان. أزعجني الخبر وفكّرت أن هذا لتأليب اللبنانيين على المقاومة. وحسبت أنَّ قطعَ الطريق تلك يهدف أيضاً إلى منع وصول الأسلحة إلى المقاومة، لكن الشباب مستعدّون، قلت لنفسي. وتمادت إسرائيل في تدمير الجسور. وقصفت مطار رياق. لماذا مطار رياق الذي لا يستعمله إلا الجيش اللبناني؟ وقصفت خزّانات الوقود في مطار بيروت. وارتكبت المجازر ضد المدنيين في الجنوب. ولم يهدأ لي بال إلاّ عندما ردّت المقاومة بقصف صاروخي لمركز التزلّج الإسرائيلي عند أطراف مزارع شبعا ومراكز عسكريّة في شمال فلسطين.

عندها قلت للشباب:

— «انظروا، ها هي المقاومة تردّ، وستواصل ردّها التدريجي، وسوف تحافظ على قدراتها ولا تستنفدها في ضربة واحدة، وخلص».

فجأة، مرَّ بقربي شاب فلسطيني في السجن، متوتّر يكلّم نفسه. استوقفته وسألته ما به. استدار وأشار بيده إلى شرطي في أول الممر:

— «انظر إليه كم هو سعيد، منتعش، كأنّه يريد أن يغيظنا بأنه يقتلنا ويدمّرنا».

سألته إذا ما قال له الشرطيّ كلمة مزعجة أو تجادلا.

أجاب:

— «لم يحصل شيء، لكنه وزملاءه يتعمّدون إبراز ابتهاجهم، في ملامحهم وفي تعابير وجوههم».

قلت:

— «وأنت، يمكنك أن تفعل ذلك».

وانسحب من دون أن يرد، لكنّ رأسه كان مطأطأً.

وسط انهماكي في متابعة الأخبار العسكريّة الحربيّة فاجأني وليد جنبلاط. أوعز إلى المسؤولين في حزبه ومنطقة الجبل وجوب توفير الأمكنة اللازمة للعائلات النازحة من الجنوب والضاحية الجنوبيّة لبيروت. لم أستسغ هذا الموقف الإنساني في ظاهره. فكّرت أنه للفصل بين المقاومة وجمهورها. فأنا لا أستطيع أن أنسى مواقف جنبلاط تجاه المقاومة و«سلاح الغدر»، بحسب تعبيره. وهو في الحلف المناهض للمقاومة. وسيّدته السعودية حمّلت اليوم المقاومة «المسؤوليّة الكاملة» عن

تصرّفاتها «غير المسؤولة» ودعتها إلى إنهاء الأزمة التي أحدثتها، مطالبة بالتفرقة بين «المقاومة الشرعيّة والمغامرات غير المحسوبة».

– «لكن معليش»، كرّرت، «أن يفعل هذا أفضل من لا شيء».

حرّضني موقف جنبلاط هذا لأتصل بشقيقي بسام لأستوضح الأمر وأعرف ماذا يجري في الجبل. خطّه مقفل. قلقت. عاودت الاتصال، فتكرّر الصوتُ الذي يعلن أن الرقم المطلوب خارج الخدمة.

... وأخيراً، بسّام على السمع. ردَّ. أخبرني أن خطّه كان مقفلاً لأنه كان مشاركاً في برنامج «بالعربي» مع جيزيل خوري. لم أعرف ذلك لأن قناة «العربيّة» من ضمن القنوات التي قطع بثّها إلينا أمس.

كما تأخر بسام في الرد عليّ، كذلك حصل معه في الحلقة، تأخر في الانضمام إليها لأسباب تتعلق بالحذر في الانتقال إلى الاستديو أثناء الحرب. قالت جيزيل إنني كنتُ أراسلها، والحقيقة أنني راسلتها مرة واحدة معزّياً بزوجها سمير قصير. مهّدت بالتذكير بهذه الحالة الإنسانيّة لتصوّرني لا أقبل بالحرب من أجل حرّيتي. كأنني أنا مقتنع بأن الحرب بسببي. وبدأت أسئلتها لبسام عن شعور عائلة القنطار التي نُفّذت العملية لتحرير ابنها، كما قالت. فقلَب بسام السؤال داعياً إلى النظر في الخسائر التي تقع في إسرائيل لا الاكتفاء بالتدمير والقتل اللذين تمارسهما إسرائيل في لبنان. وعند استفسارها عن المدّة التي أمضيتها في السجن، تحدّث سمير فرنجية عن المفقودين اللبنانيين في السجون السورية. تدخّل بسام وقال إن بين القوى التي يتحدث باسمها فرنجية جهات تتحمّل مسؤولية مباشرة عن عشرات المفقودين، وهم أهلنا وناسنا. أضاف بسّام إنه عندما نتحدث عن مفقودين في السجون السورية يجب أن نحكي عن أسرى ومفقودين في السجون الإسرائيلية، خُطفوا على أيدي الميليشيات اللبنانية. وقال:

– «لا أحد يلعب بعواطفنا، ويشتغل علينا بالسياسة».

وتوجّه إلى سمير فرنجية:

– «لو كنتَ نائباً في البرلمان الإسرائيلي وأنا مواطن إسرائيلي أو شقيقي رون أراد لا أعتقد أنه كان يمكنك أن تتحدث بهذه الطريقة».

وعادت جيزيل وسألت بسّام:

– «لو عرف سمير القنطار أن تحريره سيكون بهذه الكلفة الغالية، فهل كان وافق على العملية؟»

أجاب بسام:

– «يجب عدم ربط الأثمان التي يضطر لبنان حالياً إلى دفعها، بقضية الأسرى. إسرائيل استغلّت هذه الحالة». وذكّر بما حصل في موضوع الأسرى الإسرائيليين الثلاثة عام ٢٠٠٠، ومعهم اقتيد عقيد في الاحتياط، ولم تقم إسرائيل بهذه الحملة. واستند إلى تقرير صحافي فرنسي يكشف أن الهجمة الإسرائيلية هذه مخطّطة سابقاً وتحصل بإشارة أميركية واضحة لإعادة خلط الأوراق في إيران وسوريا ولبنان والمنطقة.

كأن سمير فرنجية تراجع، أو هو سيَّس الموضوع وتجاوز المسألة الشخصية التي ركّزت عليها جيزيل. قال:

– «مسألة الأسرى تخطّاها حجم الرد الإسرائيلي على لبنان ودخلنا مرحلة جديدة ليس لها علاقة بالتفاوض، وبما يقال عن السياسة الإسرائيلية العدوانية». واستغرب القول إن الرد الإسرائيلي لم يكن متوقّعاً.

كان هذا ردّاً على بسام ومنطق المدافعين عن المقاومة. لكن سرعان ما وقع فرنجية ومَن ينطق باسمهم في التناقض. فقد قال إن عملية المقاومة مرتبطة بالملف النووي الإيراني.

قال بسّام لي، وهو يتذكّر وقائع الحلقة والحوار:

– «هذا تناقض، فساعةً يحكون عن أن العملية لتحرير سمير القنطار ورفاقه، ولبنان لا يجب أن يدفع ثمن حرية شخص، وساعةً يتحدثون عن أن حزب الله قصد من خلال العملية استدراج الحرب وردّة الفعل الإسرائيلية لتخفيف الضغط عن إيران المحاصَرة بسبب ملفّها النووي».

ابتسمتُ كي لا أضحكَ بصوتٍ عالٍ مع بسام. الفرح بيننا متعادل، لكني، في هذه اللحظة، شعرتُ بأن سعادتي مجروحة بتحميلي ذنب الحرب الإسرائيلية على لبنان. لم أستطع نسيان هذا. غرقتُ في تفكير أسود. آلمتني شخصنة الموضوع تارةً وتسييسه تارة أخرى. كيف يطالبون بالمفقودين والأسرى اللبنانيين ويستغنون عني؟ أحياتي وحياة أيّ مقاوم لبناني ضد إسرائيل رخيصة إلى هذا الحد؟ والأهم، أنهم يفعلون هذا في لعبة بهلوانية بائسة تبرّئ إسرائيل وترتعب أمامها. فتحميلي ذنب

الحرب أشبه بتحميل إسرائيل الجنديين الأسيرين مسؤوليتها. لكن إسرائيل لا تفعل هذا. لا تفكّر فيه، بل تقول إنها تخوض حرباً لأجل تحريرهما. وأنا أسير منذ ٢٨ سنة، لا من يومين، وأسرتُ من أجل قضية. لم أُسجن لأني سرقتُ أو ارتكبتُ جريمة. أُسرتُ وأنا أنفّذ مهمتي في الصراع مع العدو. وإسرائيل في كل عمليات التبادل رفضت إطلاق سراحي. تريد أن نطبّق قانونها ومشيئتها علينا، وغير ذلك نُحمَّلُ الذنب، تارةً بالجملة وأخرى بالمفرّق. والأسوأ أن نفكّر كما تريد لنا أن نفعل، وفق قواعدها.

المسألة ليست شخصية، لماذا يفعلون هذا؟!

آلمني الوضع. أساءتني تلك الرغبة في رميي وتركي وإهمالي. وجرحني استغباء العقول والناس وتصوير أن لا صراع بيننا وبين إسرائيل، وكأن الحرب بدأت الآن... ولأجلي. هذا تنصّل كامل لا من الصراع وحسب، بل من مسؤولية بناء أوطان قوية ومحترمة.

لا أخفي، وأنا أسمع منطق التنصّل هذا، أن الذاكرة عادت بي إلى وقوفي في المحكمة الإسرائيلية.

انسحبت إلى سريري لأخلو بنفسي. حاولت الاسترخاء ورغبت في بعض النوم لأطرد تلك الأفكار وأصفّي ذهني، لكنّي لم أستطع التحرّر من الاستنفار العصبي الذي يسيطر عليّ. تأكدّتُ من خلوّ الممر من الشرطة. تردّدتُ في الاتصال بالحاج، المنسّق بيني وبين السيّد نصر الله، رغم رغبتي في ذلك. ضغطتُ على أرقام صديق في جنوب لبنان، من خارج بيئة المقاومة. فعلتُ ذلك لأستعين بصديق، كما يقول جورج قرداحي، ولأسمع رأياً مختلفاً عن رأيي ورأي مَن يحمّلون المقاومة مسؤولية الحرب ويحمّلونني أنا ذنبها. وجدت معنويّاته في مستوى الأرض، أو أعلى بقليل، ويلوم المقاومة على تنفيذها العمليّة وإعطائها ذريعة للحرب. ومع أنه أكد وقوفه مع المقاومة، إلاّ أني أخذتُ قراري بألاّ أعاود الاتصال بأحد. فأنا الآن مثل داعية لا عمل له. كرهتُ هذا. وكرهتُ أن أبدو في موقع المدافع عن أمر يفيدني، مثل نيرون. كلا لست نيرون. أنا سمير القنطار، فدائي عربي من أجل تحرير فلسطين، وبناء أوطان لأبنائها. وفوق هذا أثق بالمقاومة والمقاومين، إنهم صادقون وقد فعلوا ما لم يفعله أحد قبلهم.

ضاقت بيَ الدنيا. أمسكتُ بقميصي فوق صدري وشددته لأمزّقه. كان قطنيّاً

فمطّ في يدي. أحسستُ أن هذا القميص الهزيل الذي رغبتُ في تمزيقه مثل المقاومة، صمد وعاد فوق صدري وجسدي. هدأت.

في اليوم الثالث للحرب، ما زلتُ أتألّم رغم اطمئناني إلى أن المقاومة ستصمد وتواجه وترد. إسرائيل تراجعت قليلاً، وأعادت القيادة العسكرية صوغ أهداف أكثر تواضعاً مما أعلنته في بداية حربها. صار هدفها إجبار الحكومة اللبنانيّة على تنفيذ القرار ١٥٥٩. أين الأسيران اللذان قالت إن حربها هي من أجل إعادتهما؟ سألت نفسي.

بدا عليّ التوتّر أثناء النهار، «حائص» أتابع الأخبار عبر التلفزيون وإذاعة النور. سألني أبو جاموس غير مرّة ما بي، وإذا ما كنتُ خائفاً ممّا يحصل في لبنان. نفيتُ بكلماتٍ قليلة وطمأنته إلى أن معنوياتي عالية وثقتي بالمقاومة أعلى. لم يعد يساجلني، صار أقرب للمتابع مع بعض التشاؤم والقلق. الشباب الآخرون كانوا يعلنون مواقفهم أكثر، ويقولون ما يفكّرون فيه بصوتٍ عالٍ. متشائمون وخائفون. والسجّانون كما حالهم في مثل حالات الحرب والتوتر، يقلّصون تعاملهم معنا، والآن هم شبه مختفين. وإذا ما التقيتُ أحداً منهم، لأمرٍ ما، في الممر أو في المكاتب لإنجاز غايةٍ ما، يتحدّثون بأقلّ ما يمكن، وغالباً يشيحون بوجوههم عنّي وعن زملائي. كأنهم يرون أن أي احتكاك يشعل السجن ويوتّر الجوّ فيه.

مساءً، توجّهتُ إلى إدارة السجن لأحلّ مشكلة عالقة لا يمكن الشباب القيام بها. فرغم انهماكي بمتابعة أخبار الحرب، لم أترك هموم السجن، لا يمكنني ذلك، وإن كان الشباب خفّفوا من مراجعتي في كل صغيرة وكبيرة. هناك، في مكاتب الإدارة، قال لي شرطي إن منزل حسن نصر الله قد دُمّر نهائياً ويُعتقد أنه كان فيه. لم أُظهر أيّ ردّ فعل، كبحتُ مشاعر القلق التي اعتملت في داخلي. حافظتُ على رباطة جأشي ورغبتُ في أن أهزأ به بالقول إن السيّد حسن غيّر عنوانه واستأجر شقّة أخرى لكنه لم يخبركم. عدلتُ عن فكرتي كي لا أدخل معه في سجال. طلبتُ منه ألاّ يغيّر الموضوع بهدف عدم حلّ المشكلة. اختصرتُ الأمر إلى أقصى الدرجات وانسحبتُ لأشاهد التلفزيون في زنزانتي. ولم يتأخّر الردّ: أطلَّ السيّد حسن عبر قناة «المنار» وإذاعة «النور» مبدّداً الشك في أمر إصابته. أنا تابعته عبر إذاعة «النور».

والذروة كانت حين دعا إلى النظر إلى عرض البحر. استجبت له واندفعتُ في حركة عفوية نحو باب الزنزانة كأني أرى تلك البارجة، «حانيت»، التي استُهدفت مباشرة في تلك اللحظة أمام شواطئ بيروت. وقفزتُ في الزنزانة مبتهجاً. نظرت عبر الباب بحثاً عن ذاك الشرطي، لأنظر إليه وينظر إليّ وحسب. لا كلام أقوله له الآن. نظرة فقط، كفيلة بأن تكون كذاك الصاروخ الذي أشعل «حانيت».

ضجّ السجنُ ابتهاجاً.

— «مبروك».

«مبروك»، صرخة تتعالى من أبواب الزنازين.

وعاندت إسرائيل الحقيقة بأن قالت وسائل إعلامها إن أسلحة خفيفة أطلقت على البارجة وأصيبت بأضرار طفيفة. لكن الصور التي عُرضت كذّبت هذا، فاضطر الجيش الإسرائيلي، عند العاشرة والنصف تقريباً، إلى إصدار بيان رسمي اعترف فيه بأن البارجة أصيبت بأضرار فادحة واشتعلت فيها النيران، وهناك قتلى ومفقودون.

انتعش الشباب في السجن، وقلت: بدأ النصر وعلى كل المستويات. سقطت أسطورة الجيش الذي يكذّب ويقول ما يشاء. صار مرغماً على الاعتراف تحت ضغط الصورة.

ومع ذلك صرتُ لا أكتفي بالخبر عبر التلفزيونات الإسرائيلية، اعتمدتُ أكثر إذاعة النور. والصورة دائماً الحَكَم. أعلن الجيش أنه أمسك كميّة من الأسلحة للمقاومة، وعُرضت صور لبعض بنادق الصيد و«كلاشنيكوف»، فقلت للشباب:

— «هذه الأسلحة موجودة في كل بيت، إذا وصلوا إلى هذه الحالة يعني أن الوضع جيّد. أين الصور التي كانوا يأتون بها لصناديق الأسلحة المكدّسة والصواريخ أيام الثورة الفلسطينية؟».

ولأن إسرائيل تتنصّت على الكثير من الخطوط، صرتُ أختصر في الاتصال، لكني لم أشأ أن أوقف الاتصالات نهائياً، فمنها أعرف بعض التفاصيل والأخبار. واليوم، تحدثتُ إلى جوزف سماحة. أخبرني أين وصل الإعداد لجريدة «الأخبار». سألته عن رأيه في ما يجري. قدّم لي قراءة سياسية للحرب والمنطقة، قال إنها محطة أخرى لفشل المشروع الأميركي - الإسرائيلي للشرق الأوسط الجديد. وأكّد ثقته بالمقاومة. أضاف إن إسرائيل شنّت الحرب باستسهال هزيمة حزب الله، وبشعور خفيّ بالاستعلاء على المحيط العربي، لكن النتائج خلاف ذلك. فإسرائيل

الجاهزة لمواجهة الدول العربية مجتمعة تتخبّط بحثاً عن سبيل للانتصار على جزء صغير من قوّة مستعدّة للقتال. وهذا ما خلق المفارقة في فهم معنى الانتصار. إسرائيل ترى في أيّ شيء دون النصر الحاسم على حزب الله هزيمة لها، لأنها ترفض مبدأ التعادل. وحزب الله يرى في منع إسرائيل من تحقيق النصر انتصاراً لا مثيل له. وختم كلامه كعادته بمزحة ساخراً ممّن يقولون إن الحرب بسببي وإن حريّتي لا تستحق تدمير لبنان. قال:

— «سيطلبون منك أن تكتب بيان اعتذار عن الحرب». وضحك ضحكته المبحوحة الهازئة المفتوحة على العقل.

نمنا، في اليوم الرابع، على أخبار المجازر الإسرائيلية والاستمرار في تدمير البنى التحتية. وصباحاً، في اليوم الخامس، أيقظني أبو جاموس:

— «قم، قصفت المقاومة حيفا!».

ووجدتُ على التلفزيون نقلاً مباشراً من محطة القطارات، يقول إن ثمانية قتلى سقطوا وجُرح العشرات.

— «يا سلام، هذا الشغل»، قلت. وانقلب الوضع في السجن، من التشاؤم إلى التفاؤل. وأطلّ السيّد حسن للمرة الثانية منذ بدء الحرب عبر كلمة مسجّلة، وأعلن صراحةً أن «تحييد المصانع الكيميائية والبتروكيميائية في حيفا، وهي تحت مرمى صواريخنا، هو حرص على عدم دفع الأمور إلى المجهول، وعلى أن يكون هذا السلاح سلاح ردع، وهو ليس سلاح انتقام».

وتجدّدت ثقة الشباب بما أقوله لهم. صاروا يسألونني عمّا سيجري بعد، وأنا أنقل إليهم في النهار، باختصار، ما أسمعه في اتصالاتي الليلية، من دون أن أبوح لهم بأمر اتصالاتي.

بعد أسبوع، عند الخامسة من صباح اليوم الثامن للحرب، اقتحمت قوّة خاصّة غرفتي. أيقظونا. استفسرتُ عمّا يجري، فردّ الضابط:

— «تفتيش».

يحملون معهم عدّة شغل كاملة لفكّ كل شيء. لم أفكر إلاّ في الهاتف، فأنا

أخبّئه في مكان داخل الزنزانة بسيط جداً ولا يحتاج إلى عدّة. اخترتُ هذا المخبأ لبساطته. فالأماكن الصعبة يُبحث عنها وهي أكثر خطراً. وقد سبق أن اكتشفوا مرات عدّة مخابئ بُذلت جهودٌ لبنائها. لذا، فكّرتُ أن أضعه تحت عيونهم ومع ذلك لا يرونه. كما يختبئ السارق قرب مركز الشرطة، أو فيه حتى. قطعة بلاستيك صغيرة، إذا ما رفعوها، وربما يضعون أيديهم عليها، يجدونه. قلت في نفسي مع بدء التفتيش:

«خلص، وجدوه. وسأُعْزَل عقاباً، والآن أنا في أمسّ الحاجة إلى التواصل مع العالم».

رفضت الشرطة أن أبقى أنا ممثلاً لزنزانتنا أثناء تفتيشها. فبعد نضال وإضرابات توصّلنا معهم إلى اتفاق على أن يبقى ممثّل لكل زنزانة يراقب أثناء التفتيش كي لا يُسرق شيءٌ. رفضوا بقائي لاعتقادهم أنني سأعترض على همجيّتهم في التفتيش، وربما لاعتقادهم أن لديّ هاتفاً وقد أشوّش عليهم أثناء البحث.

أخرجوني من الزنزانة فوجدتُ أنهم اختاروا، إلى زنزانتنا، أربع زنازين أخرى هي زنازين قيادات السجن. التقيتُ في الممر بمروان البرغوثي وعبد الناصر عيسى وتوفيق أبو نعيم.

عندما اجتمعنا، مروان وعبد الناصر وتوفيق وأنا في الساحة، سأل بعضنا بعضاً عمّا يبحثون عنه. شككنا في احتمال وصول خبر إليهم بوجود هواتف لدينا.

توجّهت، في الساحة، إلى حيث نضع حراماً لنجلس عليه أثناء الفورة. جلستُ أدعو ونمت. أحلى شيء النوم في هذه الظروف. وزميلي في الزنزانة، جاد الله كنعان، استغرب ذلك. قال لي:

– «ألا تعرف أن في زنزانتنا هاتفاً، وفي أي لحظة يمكن أن يكتشفوه؟».

المهم، تركني في حالي، رغم توتره. وبعد ساعة تقريباً، استدعى أحد الحراس مروان ورفيقه في الزنزانة، إذ انتهت عملية تفتيشها. ثم نادوا على عبد الناصر ورفيقه، وبعدهما على توفيق ورفيقه. بقيت زنزانتنا، ما زال التفتيش فيها جارياً. أَخْ! اكتشفوا الهاتف، قلنا، لكني بقيتُ هادئاً مستلقياً، أغفو أحياناً.

طلع النهار، وبعد ساعات دعونا إلى الدخول. ورحتُ أنظر في وجوه الضباط، أتفرّسها، أريد أن أعرف هل اكتشفوا الهاتف أم لا.

قال أحدهم:

– «صباح الخير سمير». نطقها ببرودة وبلهجة عادية. قلت في نفسي: «الظاهر

أنهم لم يجدوه». وواصلتُ المشي حتى باب زنزانتي. دخلت فكاد زميلي، أبو جاموس، الذي بقي يمثّلنا، يضحك لأنهم لم يكتشفوا الهاتف رغم بساطة مخبئه. عاجلته بإيماءة التزام الصمت. الضباط ما زالوا في الممر قرب الزنزانة، وأيّ حركة، ولو ضحكة صغيرة، قد تلفت الانتباه وتفضحنا. ولمّا ابتعدوا، وفرغ القسم منهم، روى أبو جاموس لي ما جرى. قال إنه في اللحظة التي وصل فيها الجندي إلى سريري وشرع في فك قطع البلاستيك الموجودة في أعلى أعمدته الأربعة، أمره ضابط بالخروج إلى الممر وفك اللمبات هناك. ففي أحد تلك الأعمدة أخبّئ التلفون، بعدما حشوته بإسفنج جمعته من الفرش والمخدات. حينذاك، حسِبَ أبو جاموس أن ساعة الحقيقة قد حلّت، ولا سيما أنه في عمليات التفتيش الكبيرة يفكّون قطع البلاستيك تلك. وعلمتُ أنهم فتحوها في الزنازين الأخرى، إلاّ في زنزانتي. فارتفع نبضي. قلت لنفسي: «لن يتذكّروا أنهم لم يفتحوها في زنزانتي، ويحسَبون أنهم فلّوا القملة». وقفتُ في باب زنزانتي وطلبت من أحد الحراس أن يأتيني بمدير السجن. وصَدَفَ أن جاء في هذه اللحظة، فسألته:

— «كيف تفتّشون الزنازين بهذه الطريقة؟».

وصار يهدّئني، قال:

— «إنهم ليسوا من حرّاسنا، بل من خارج السجن. مدير السجون يرسلهم لا نحن. ولا نعرف بهم إلاّ حين يصلون. هم وحدة مركزية معهم صلاحية الدخول إلى السجون كلها».

أوحيتُ له أنني اقتنعت بما قال. تركته يغادر مطمئناً. والشابان معي يضحكان:

— «فوق حقّو دقّو. شو نازل طالع فيهم، دعهم مبسوطين».

قلت:

— «ليفهموا أننا متضايقون من الموضوع».

ومرّت القصّة.

عدنا إلى أجواء الحرب.

شعرت بحماسة وثقة غريبتين وأنا أقرأ، صباح يوم الجمعة الثاني من الحرب، أي في اليوم العاشر منها، مقالة ناحوم برنيع في «يديعوت أحرنوت». حملت

الجريدة وتوجّهت إلى زنزانة مروان البرغوثي. وقفتُ خارجها. تبادلنا عبر الشبّاك ابتسامة التواطؤ على سرّ لم يُكشَف. ورفعت في وجهه الجريدة كمن يشهر وثيقة في وجه شخص يخالفه الرأي، رغم أن موقف مروان مع المقاومة لكنه متخوّف من هزيمتها وألاّ تنتهي الأمور لمصلحتها. سبق أن تحدّثنا حديثاً عابراً في زحمة متابعتنا الأخبار الميدانيّة للحرب. قلت له:

– «خذ اقرأ ناحوم برنيع. يقول «اهرب أولمرت، اهرب!» من لبنان والحرب عليه. لقد جال مع الجنود الإسرائيليين على الحدود ودخل إلى حيث أمكن جيش الاحتلال أن يتوغّل في الأراضي اللبنانية، ورأى ما رآه».

قرأ مروان المقالة بسرعة. وأنا أقرأ في وجهه ردّ فعله. كان بين الصدمة والتوقّع، كمن يقول إنني أعرف هذا ويفرحني لكن العبرة في النهاية والنتائج، ولا ينبغي أن يغرينا أو ينيّمنا على حرير.

سألته:

– «أنت كقائد عسكري ماذا تفسّر صمود المقاومة في الميدان وتصاعد ردّها وارتفاع عدد الصواريخ وقدرتها على تحديد الأهداف وإصابتها؟».

ردَّ:

– «ممتاز، دليل سيطرة وقدرة تحكّم، وحفاظ على القوّة الأساسية في أماكنها».

– «كُسر التابو، وما عاد في إمكانهم إخفاء الخسارة أو صعوبة سحق المقاومة والانتصار عليها».

لم يكن همّي في الحوار أن أؤكد أن حزب الله انتصر. كان همّي أن أقول إن المقاومة عموماً لا تُهزم إلا إذا أرادت هي ذلك. فلا احتلال الأراضي يعني أن المقاومة هُزمت ولا التدمير يعني الانتصار. المقاومة ليست جيشاً نظامياً، المهم أن تتخفى وتحافظ على قدراتها وتباغت وتهاجم وتكبّد العدو الخسائر وتربكه. كنت أحدّثه شخصيّاً، وأوجّه الرسائل له تحديداً. وهو جاملني من دون أن يتراجع عن مخاوفه.

وزّعت المقالة على الشباب الذين يتقنون العبرية واحداً واحداً، وأحلت من لا يعرف العبرية عليها وعلى من قرأها. عنت لي أنها فتحت الباب أمام قراءة تجربة الحرب الخاسرة. فبعدها بدأ الكلام عن أداء الجيش وعن موت الجنود بالعشرات،

وعندهم موت جندي أقسى من موت عشرة مواطنين. وارتفع الصوت من الهاربين إلى الملاجئ الذين لم تُقدَّم لهم خدمات كما يجب.

أعادوا القنوات العربية التي قطعوها في أول الحرب، هكذا، من دون أن نطالب نحن بذلك. قطعوا الأمل من ضبط الأخبار، وربما تحسّبوا، في البداية، لأيّ تحرّك تضامني منّا مع لبنان.

وسط تعدّد القنوات ومصادر الأخبار، صار الشباب في السجن ببورصة المعنويات، ساعة صعوداً وساعة هبوطاً بحسب الأخبار. إذا شاهدوا القناة الإسرائيلية، أُحبطوا، ومتى شاهدوا القنوات العربية، «الجزيرة»، تفاءلوا وتحمّسوا. وصار واحد يروح وآخر يأتي ويسألني ماذا سيحصل أو أين تقع مارون الراس التي حاول الإسرائيليون التوغّل فيها وسقط منهم سبعة جنود وجرح عشرون ودُمّرت ثلاث دبابات لهم؟

— «عند الحدود مباشرةً، قرب مستعمرة «أفيفيم» التي وصل إليها المقاومون وأمطروا الجنود الإسرائيليين بوابل من القذائف والصواريخ وقتلوا منهم العديد»، أجيبه.

أو: «كيف تمكنت المقاومة من ترك الإسرائيليين ينامون مقتنعين بأنهم احتلوا بنت جبيل ومارون الراس، ثمّ هاجمتهم صباحاً وفتكت بهم؟ أو كيف تنصب لهم الكمائن في عيترون؟ أو ماذا تعني مرحلة ما بعد حيفا ووصول صاروخ «خيبر واحد» إلى مدينة العفّولة؟ ومع هذه الأسئلة عن إنجازات المقاومة أخبار المجازر المتنقّلة والقصف والتدمير».

في منتصف الحرب تقريباً استُدعينا أنا ومروان البرغوثي وتوفيق أبو نعيم إلى مكتب إدارة السجن. كانت في انتظارنا مسؤولة الاستخبارات في مديرية السجون، اسمها بيتي، قصيرة ونحيفة وترتدي بنطلوناً وقميصاً مدنيين يزيدان من شكلها الذكوري. تحدّثت عن الوضع الفلسطيني وحركة حماس التي «تعرّض الفلسطينيين للخطر ولا يمكن أن تخفي شاليط أكثر من ذلك». وشرعت تتكلّم عن الحرب على

لبنان. تركتها تعرض تصوّرها منطلقةً من أن المسألة مسألة أيّام وينتهي حزب الله، ودخلت عليها. قلت:

— «ستفشلون في حربكم وتُهزمون ولن تنهوا حزب الله أو تدمّروا قدراته الدفاعية، وستنسحبون من لبنان مهزومين ومذلولين».

وأخرجتُ لها سيناريوهات المستنقع اللبناني:

— «لن تستطيعوا دخول بلدة والحفاظ عليها. الميركافا ستتبهدل وسلاح الطيران سيفقد الكثير من فاعليته، إلا القدرة على التدمير وقتل المدنيين كما تفعلون الآن».

اغتاظت وردّت موحيةً أنها مستغربة موقفي:

— «أنت تقول هذا؟ أنت تعرفنا، وتعرف أننا لا نُهزم!».

أغمضت عينيّ ثم فتحتهما وتركتهما ناعستين، ورحت أخفض رأسي وأرجعه، وأنا أجيبها:

— «أعرفكم وأعرف جماعتنا، نحن لا نُهزم».

ومروان ينظر إليَّ فرحاً، وذروة ما ابتهج به عبارتي: «سيلعب المقاومون بكم أتاري». ضحك بقدر ما كانت هي مغتاظة، إلى درجة أنها أنهت الحديث بسرعة.

أثناء عودتنا إلى القسم قال لي مروان:

— «أسمعتَها كلاماً لن تسمعه في حياتها».

وراح مروان الذي يتجمّع حوله الشباب، يروي ما قلته، وخصوصاً قصة الأتاري. وذَهبت مثلاً. صارت على كل لسان في السجن. باتت عنوان المعنويات المرتفعة والأخبار الميدانية المفرحة.

في اليوم الثاني والعشرين، نقلت وسائل الإعلام الإسرائيلية خبر اختطاف أربعة أشخاص من بينهم حسن نصر الله، في الإنزال على مستشفى «دار الحكمة» في بعلبك. هرعتُ إلى إذاعة النور، حتى ورد خبر اختطاف أولئك المواطنين. وقالت الإذاعة إن حسن نصر الله ذاك هو مواطن عادي يعمل في تجارة الخضار، أو بلاّط.

فرحة الإسرائيليين بالخبر هذا، دفعت بضباط إلى الممر في حركة استفزازية لإغاظتنا، قالوا لي:

- «خطفنا حسن نصر الله».

رددتُ عليهم:

- «لا تفرحوا، هذا ليس السيّد حسن».

نظر بعضهم إلى بعض مصدومين حائرين وأجابوا:

- «إذا لم يكن السيّد حسن فهو قريبه ومن قيادة حزب الله».

وبعد عرض بطولات على الشاشات، تخلّلته مقابلة مع قائد العملية الذي روى قصّة الإنزال وأن الهدف هو خطف الشيخ محمد يزبك، طلع مراسل القناة الثانية، روني دانييل، وسخَّف الموضوع. حكى ما قلته للضباط في الصباح. فصار هؤلاء يصدّقون ما أقوله، ويسألونني عن الأخبار. فمن عادة الإعلام الإسرائيلي أن يكتفي، في النهار، بالقول إن هناك اشتباكات في لبنان، وهناك مصابين، لا يصرّح بعدد القتلى ولا يدخل في التفاصيل، وفي المساء تُمرَّر المعلومات. فصار الضباط والحراس لا ينتظرون حتى المساء، يقصدونني في النهار لمعرفة الأخبار. وأنا أبثّ عليهم ما تقوله إذاعة النور: استدرجتْ المقاومة مجموعة من الاستخبارات العسكرية إلى داخل منزل وفجّرته. دمّرت المقاومة سفينة «ساعر أربعة ونصف» مقابل شواطئ صور. تدمير دبابة «ميركافا» في الطيبة وأخرى في مارون الراس. نحو ١٥٠ صاروخاً في أقل من ساعة على المستعمرات... والسيّد حسن سيقصف تل أبيب إذا قُصفت بيروت. وهكذا. وردّة فعلهم كانت تأفّفاً من الحرب:

- «تسه تسه، فليوقفوها!».

اليوم الثلاثون. كنتُ عائداً إلى زنزانتي، عند السادسة والنصف مساءً، قبل نصف ساعة من إقفال الأبواب، دعاني السجين عاطف مرعي، من حماس، لأشاهد على التلفزيون صوراً لأرتال من الدبابات الإسرائيلية تنتظر عند الحدود. سمعنا معاً المراسل العسكري يقول:

- «الآن، بدأت الحرب».

علّق مرعي:

- «داخلون بقوّات كبيرة. الأمور ستتغيّر».

ضحكتُ وقلت:

– «انتظر حتى الصباح، سيلعب المقاومون فيهم أتاري. لماذا أنتم متوتّرون؟».

وفي الصباح بدأت الأخبار والصور تتوالى. كان يوماً مشؤوماً أسود في تاريخ الجيش الإسرائيلي. التوغّلات البريّة فشلت في غير محور، الطيبة ومرجعيون وسهل الخيام... وقتلت المقاومة ١٨ ضابطاً وجنديّاً إسرائيليّاً، والميركافا تشرشحت: دُمرت خمس عشرة واحدة في سهل الخيام ومرجعيون ومحاور أمامية. أخ ما أروعَ هذا اليوم! لو لم يشرب العميد في قوى الأمن الداخلي عدنان داوود الشاي مع الضباط الإسرائيليين في ثكنة مرجعيون، فيما عناصره الأربعمئة دروع بشرية.

ازداد إحباط القيادة الإسرائيلية، وبات هدفها الأول من الحرب التدمير والمجازر. وفي المقابل حافظت المقاومة على قوتها وسيطرتها على الميدان، تهاجم هنا وتصدّ توغّلاً هناك، تُسقط طائرة مروحية هنالك، وتواصل قصفها المستعمرات والمدن. وإسرائيل مضطرة إلى الاعتراف بعدد القتلى من جنودها، وبالجملة...

بعد الحرب التي انتهت بمجزرة الميركافا في سهل الخيام - مرجعيون ووادي الحجير، أكثر من خمسين منها دُمّرت، مرّت «بيتي» في القسم وكنتُ مع مجموعة من الشباب نتحدث، أشاحت بنظرها عني، بالتأكيد متذكّرةً كل ما قلته لها. ناديت عليها:

– «بيتي».

استدارت نحوي:

– «ماذا؟».

سألتها:

– «كيف الأتاري؟».

وأكملَتْ طريقها من دون أيّ كلمة، على وقع ضحكاتنا.

على شاطئ نهاريا

بيروت، ٢٠/ ٤/ ١٩٧٩.

ذاهبٌ إلى فلسطين. كلّما فكّرت بهذا تتسارع دقّات قلبي وأبتسم كأنني أمام كاميرا أقرأ وصيّتي. أحلم بالوصول إلى فلسطين. منذ عرفتُ بعمليّة الخالصة، أوّل عملية استشهادية في تاريخ الثورة الفلسطينية المعاصرة، وأنا أفكّر في هذا. لحظة لا أنساها. أذهلتني العمليّة ومنفّذوها الثلاثة، ما زلتُ أذكر أسماءهم: منير المغربي، أحمد الشيخ محمودي، ياسين موسى فزاغ الموزاني. اندفعتُ بعدها وانتسبتُ إلى الجبهة الشعبيّة - القيادة العامّة التي تنتمي إليها المجموعة المنفّذة. خليّة تسلّلت من لبنان إلى فلسطين المحتلة، استطاعت صباح ١١ نيسان/ أبريل ١٩٧٤، الوصول إلى مستعمرة كريات شمونة، الخالصة، في شمال فلسطين، اقتحمت مدرسة فوجدتها فارغة فانتقلت إلى بناية مجاورة واحتجزت من فيهما رهائن. وطالبت بإطلاق سراح مئة أسير فلسطيني على رأسهم كوزو أوكاموتو، وفدائيّات في مقدّمهنّ عايدة عيسى من غزّة، والفدائيون الجرحى حسب أقدميتهم في الأسر منذ عام ١٩٦٦. فخّخ الشباب الثلاثة البناء بعبوات ناسفة. وزّعوا على الرهائن منشورات بالعربية والعبرية ترفض الاحتلال. اشتبكوا مع الجيش الإسرائيلي الذي رفض التفاوض. قاتلوا حتى الرصاصة الأخيرة بحوزتهم، وفجّروا العبوات. استشهد الفدائيون الثلاثة وقُتل ١٨ إسرائيلياً وجُرح ١٥.

لكنّي لم أبقَ في الجبهة الشعبيّة القيادة العامّة، انسحبت منها وانضممت إلى جبهة التحرير الفلسطينيّة التي أسّسها طلعت يعقوب وأبوالعبّاس بعدما انشقّا عن القيادة العامّة.

قبل نحو سنة وثلاثة أشهر، في ٣١/ ١/ ١٩٧٨، حين قصدت فلسطين مع رفيقين من الجبهة، ناصر الدين الجاري أبو النصر وأبو شادي، عبر الأردن، مُنعتُ

واعتُقلتُ لمدّة ١١ شهراً في عمّان، قبل أن أُرحَّل إلى لبنان، في ٢٥/ ١٢/ ١٩٧٨. هناك، أخبرني أحد شركائي في الزنزانة بعمليّة دلال المغربي، في ١١/ ٣/ ١٩٧٨ بتل أبيب. مشهد دلال ترفع العلم الفلسطيني وتؤدّي النشيد الوطني في الباص مع الرهائن الإسرائيليين أشعلني حماسة. تخيّلت نفسي معها نقترب من اقتحام النادي الريفي (Country Club). قلت أنا التالي. سأكرّر محاولتي وسأصل إلى أرض فلسطين.

وبعد أيام وصل إلينا خبر الاجتياح الإسرائيلي للجنوب اللبناني (في ١٤/ ٣/ ١٩٧٨). كان أحد السجناء يخفي راديو صغيراً في زنزانته. رسمت خريطة الجنوب على الحائط، استخدمتُ ما أمكن من معرفتي لتلك المنطقة. ورحتُ على مدى أسبوع، مع توالي الأخبار وتواترها بين السجناء، أكتب أعداد الشهداء والجرحى والمدن والقرى المدمّرة. لكني لم أتمكن من إحصاء جميع الشهداء، ١١٦٨ غالبيتهم العظمى من المدنيين العُزّل، في عملية زَعمت إسرائيل أنها لن تلحق الأذى بالسكان. القصف العشوائي على ١٣٠ مدينة وبلدة وقرية، في بنت جبيل ومرجعيون وصور والنبطية في مساحة ٢٠٢٠ كيلومتراً مربعاً، أقل بقليل من ربع مساحة لبنان، وتقول إنها لن تؤذي السكان. وأكثر ما بقي في ذاكرتي وآلمني إعدامها ٢٩ شخصاً في بركة كونين (بنت جبيل)، وذبحها وقتلها بالرصاص ٥٠ عجوزاً في الخيام، هم مَن بقي من أهالي البلدة، وقتلها ٧٦ شخصاً غالبيتهم من كبار السن، لجأوا إلى مسجد في العباسية قرب صور ظنّاً منهم أن إسرائيل تأخذ في الاعتبار حرمة المكان، وإغارتها بالطائرات الأميركية أف ١٥ على عائلات من القرى الحدودية نزحت إلى عدلون القريبة من صيدا، وقتلت ١٧ طفلاً وأمّاً.

اقترب الموعد. ارتديتُ ثياباً جديدة. جاكيت خضراء قصيرة وقميص بيج ضيّق وبنطلون أخضر تشارلستون. لو نظرتُ في المرآة، وهذه ليست من عاداتي، لكنتُ بدوت فتىً يستعدّ لموعده الأوّل مع فتاة أحلامه.

استدعيت عبر جهاز اللاسلكي شباب المجموعة. هم في أحد البيوت العديدة للجبهة في الأبنية القريبة. فالمنطقة، الفاكهاني، حيث نحن، تشبه الثكنة العسكرية للمنظمات الفلسطينية. على مقربة منّا أحد مقارّ أبو عمّار، وفي جواره مقرّ للجبهة الشعبية، وآخر للديموقراطية. . . الخ.

وصل الشباب بسرعة إلى مقرّ العمليّات المركزيّة للجبهة الواقع تحت الأرض. فوجئوا بثيابي. انتبهتُ من خلال نظراتهم إلى أنّهم تذكّروا ما سبق أن قلته لهم، إنّها مخصّصة للعمليّة. وقد اقترب ماجد منّي وربّت كتفي، مردداً:

— «أيوا يا عريس»، موحياً أنه عرف بأن موعد العملية قد حان. قصد، كما كنّا نقول، أن فلسطين العروس والاستشهاد عرس. لا أحد حتى تلك الساعة ممّن نفّذوا عمليات فدائيّة في فلسطين المحتلّة عبر لبنان تمكّن من العودة.

ورددت عليه مبرّراً أناقتي العابرة:

— «لا ثيابَ أخرى لديّ لألبسها». فحتّى اللحظة لا أريد إخبارهم بأننا متوجّهون لتنفيذ العملية.

ورغم أننا أنهينا الاستعدادات قبل أيّام قلت لهم:

— «سنقوم بتدريب إضافي».

مع ذلك فَرِحَ الشباب، بدا عليهم ذلك من دون أن يضيفوا كلمةً على ما قاله ماجد. الحكي ممنوع، وتحرّكي بسرعة حال دون أيّ تراخٍ أو جوّ تعبيري وعاطفي.

انطلقنا بسيّارة رفيق لنا في الجبهة وضعت يدي عليها كأنها ملكي. قدت بسرعة على الطريق الساحلية، جنوباً. فالطريق الساحليّة بين بيروت والحدود مع فلسطين، مروراً بصيدا وصور، يسهل رصد الحركة عليها. وإن كانت تحت سيطرة التنظيمات الفلسطينيّة إلاّ أنَّ إسرائيل تعرف ما يجري عليها وقادرة على تنفيذ ما تريده هناك.

توجّهنا إلى قاعدة عسكرية للجبهة في بلدة العيشية القريبة من الحدود مع فلسطين. كانت خالية من أهلها ومدمّرة بفعل القصف اليومي عليها من مدافع المليشيات المتعاملة مع إسرائيل. فقبل أيّام من وصولنا إليها قُتل فيها وفي أرنون المجاورة لها ٢٣ مواطناً وجُرح ٣٦ بينهم عجزة ونساء وأطفال.

أطلنا طريقنا ومررنا بالعيشيّة تمويهاً، كي نبدو، إذا ما كنّا ملاحقين، كأنّنا متوجّهون إلى قاعدة عسكريّة للجبهة، ولا سيما أنّ المنطقة كانت متوتّرة عسكريّاً. فمنذ أعلن الضابط في الجيش اللبناني، سعد حدّاد، دولته الموالية لإسرائيل على بعض القرى الحدودية، في ٢٦/ ٣/ ١٩٧٩، لم تهدأ محاولاته توسعة نطاقها وتدمير القرى المحيطة وتهجير أهلها ومن يرفض تأييده والانضمام إلى مليشياته.

أمضينا وقتاً قصيراً هناك، قبل أن نبدأ رحلتنا إلى الساحل الغربي عبر القرى وطرقاتها الضيّقة المتعرّجة.

الصمت في السيّارة سيّد الموقف، وكأننا كلّنا نتبادل حديثاً صامتاً عن العملية. التفكير فيها كان يأتي إليّ ثم أشعر بأنني مرّرته لرفيق آخر، كما لو أننا نلعب الكرة. والابتسامات والنظرات لا تخفي قلقاً أو توتّر الانطلاق، بل كأننا جميعاً نشعر بأننا بتنا على أرض فلسطين وسط المعركة ولا مجال للكلام وإضاعة الوقت. الجميع مستنفرون والعيون هناك خلف الحدود، والأيدي على الزناد.

وصلنا إلى قاعدة للجبهة في البرغلية شمالي صور. محطة قصيرة بقي فيها الشباب بالسيّارة كي لا يجري حديث بينهم وبين أحد. ثم مشينا جنوباً على الطريق الساحليّة في اتجاه الحدود مع فلسطين. وقبل أن نصل إلى رأس البيّاضة حيث أوّل حاجز لقوات الطوارئ الدولية التي استقرّت في المنطقة بعد الاجتياح الإسرائيلي في آذار ١٩٧٨، دخلنا في درب زراعية ضيّقة. بعد دقائق وصلنا إلى نقطة التجمّع المتفق عليها. لا أحد يعرفها إلاّ أنا وأبو العبّاس، نائب الأمين العام للجبهة والمسؤول العسكري. فهي ليست موقعاً عسكريّاً بل مجرّد بستان.

اخترنا هذا المكان لكونه قريباً من الحدود ومن مقرّ لقوات الطوارئ الدولية. لم نتوسّل حمايتنا بل تمويهاً. فمنذ وصلت هذه القوّات إلى الحدود اللبنانيّة مع فلسطين، لم تتوقّف اعتداءات ميليشيات حدّاد عليها. والهدف ترويضها وعدم تطبيق القرار الدولي ٤٢٥ الذي يقضي بانسحاب جيش الاحتلال الإسرائيلي من الأراضي اللبنانيّة.

وجدنا أبو العبّاس هناك. ينتظرنا في ظل أشجار الليمون. فأيقن الشباب أنها ساعة الصفر للانطلاق.

نظر كلٌّ منّا إلى الآخرين كمَن يريد أن يتأكد من أمر أو يؤكّده. نظرات تشبه نظرات الافتراق مع وعد باللقاء بعد حين. طلبتُ من الشباب أن يأخذ كلّ منهم ما له وما تدرّب على استعماله، في الأشهر الماضية. سحب كلٌّ منّا جعبته وارتداها فزنّرَت الصدر والظهر. حملتُ أنا كلاشنيكوف وأحد عشر مخزناً وعشر قنابل يدوية ورشاشاً كاتماً للصوت له ثلاثة مخازن ومسدساً. وماجد حمل «آر.بي.جي» وتسع قذائف وكلاشنيكوف وثلاثة مخازن وأربع قنابل يدوية ومسدّساً. ومحمد علي أخذ كلاشنيكوف يرمي قذائف مضادّة للدروع والأفراد وأحد عشر مخزناً وعشر قذائف

للدروع ومثلها للأفراد ومسدّساً. أما أبو أسعد فله رشاش «بي.كا.سي» و١٥٠٠ طلقة ومسدّس.

اجتمعنا ليلتقط مصوّر الإعلام الحربي للجبهة، أبو جورج، صوراً لنا. أخذها لنا في وضعيات مختلفة، تارةً ونحن واقفون وأخرى كنّا مقرفصين. هذه عادة درجت عليها المنظّمات الفلسطينيّة، لإعلان مسؤوليّاتها عن العمليّات كي لا تنفيها إسرائيل أو يتبنّاها تنظيمٌ آخر. وتُرفق تلك الصور بوصيّات يكتبها الفدائيّون إلى أسرهم والأمة يؤكّدون فيها خيارهم الحر في المقاومة والاستشهاد. وأنا والرفاق في المجموعة كتبناها وأودعناها القيادة لتنشرها مع بيان العمليّة وخبرها.

انضمّ إلينا أبو العبّاس. وقف في مواجهتنا وخبط كفّه بالأخرى فبدا كأنه يدعونا إلى أمر بعد إنجاز الاستعداد له:

— «ستنطلقون اليوم لتنفيذ عمليتكم، عملية القائد جمال عبد الناصر، على أرض فلسطين، ردّاً على اتفاق الذلّ الإسرائيلي - المصري المنفرد المسمّى كامب ديفيد، وتأكيداً لاستمرار ثورتنا حتى النصر وتحرير كامل تراب فلسطين، وانتقاماً لأبناء شعبنا الذين يُشرَّدون ويُقتَلون يومياً وسط صمتٍ عربيّ مريب».

وسألني مَن أختار ليكون مساعداً لي، فأشرتُ إلى ماجد.

لم أضحك أو أفكّر في ذلك، رغم أن المشهد كوميدي بعض الشيء. كأنّه مشهد يختار فيه ابن أباه ليكون الأبُ ابناً للابن. فماجد الأطول بيننا يكبرني بسبع سنوات (١٩٥٥)، وأبو أسعد باثنتي عشرة سنة، ومحمد علي بسنتين، وأنا الأقصر قامة بينهم. لا أعرف ما الذي جعلني قائداً للمجموعة. اندفاعي للقتال ربّما، فهذا ظاهرٌ عليّ في تصرفاتي وحياتي الخالية من أيّ اهتمام أو بُعدٍ آخر. وخياري أن أكون في تنظيم فلسطيني، جبهة التحرير الفلسطينيّة، يفسّر ذلك. لقد جذبني الخطاب الثوري للجبهة الجديدة، وقيادتُها وعناصرُها من جيل الشباب المتأثّر بنكسة ١٩٦٧، ومتحمّس ليمسك البندقية كثورة وشعوب لا كجيوش نظاميّة. فأَن يهمل فتى لبناني مثلي الأحزاب المحليّة يعني أن اهتماماته خارج مشاريع تلك الأحزاب وسياساتها. وكان لي أصدقاء أعضاء في تلك الأحزاب، خصوصاً من ضيعتنا، ورافقتهم غير مرّة إلى مواقع عسكرية لأحزابهم، لكنّي أحسست أن القتال هذا لعبٌ وإضاعةٌ للوقت. وسلوكي في الجبهة يفصح أن لا هدفَ لي إلاّ مقاتلة العدو في فلسطين. وبعد موافقة القيادة على طلبي الانضمام إلى الوحدة التاسعة، الخاصّة

بالعمليات الفدائية داخل فلسطين، وترقيتي إلى رتبة ملازم، بِتُّ تحت مجهر القيادة، وتوطّدت صداقتي مع أبو العبّاس الذي صار مثالي الأعلى. وهو يتعامل معي بودٍّ وثقة ويجاهر بأنه يراهن عليّ ويتوقّع مني الكثير. وغالباً ما كان يكرّر أنني أمتلكُ روحَ القائد الميداني الصادق والمندفع.

هذا وجهٌ من وجوه قَدَري، مشيتُ إليه ببراءة وحبّ كفيلين بألاّ أفكر إلاّ بالاستشهاد.

ومن بين الشباب وأبو العباس مشيتُ في اتجاه شجرة ليمون، استلقيتُ تحتها. نمتُ نحو ساعة ونصف. أهو التعبُ أم هي الرغبة في الراحة استعداداً للرحلة ما جعلني أنام وأغفو عميقاً فوق التراب، لا أدري. لعله للسببين معاً.

أيقظني أحد شباب الحماية عند الثامنة إلاّ ربعاً، وأخبرني:

— «الزورق جاهز».

اجتمعنا، عناصر المجموعة، حيث كانت التُقطتْ لنا الصور. فهناك تتوزّع أشجار الليمون لتشكّل ما يشبه ساحة صغيرة.

تفقّدتُ الشباب وأسلحتهم واحداً واحداً، وخطونا خطوات قليلة لنصل إلى الزورق. عند الشاطئ الرملي الصغير كان يقف بعض المسؤولين العسكريّين في الجبهة وأبو العبّاس وأبو نضال، المشرف السياسي في الجبهة، الذي اقترح علينا في إحدى جلسات التثقيف السياسي أن تحمل العملية اسم جمال عبد الناصر. كان ذلك في اليوم الذي وقِّعت فيه اتفاقيّة كامب ديفيد، في ٢٦/٣/١٩٧٩. صافحانا وتمنّيا لنا النصر. وصعدنا إلى الزورق المطاطي، سالنجر بريطاني الصنع، عسكري، مؤخّرته على شكل مسمارين، يتّسع لستّة أفراد، وله موتور «ياماها» ٥٥ حصاناً زدنا من قوّته، وفيه مجذافان ومصفاة لسحب المياه أتوماتيكياً، وقد أضفنا إليه مقعدين ثبّتناهما بالأرضيّة الخشبيّة.

جلستُ خلفَ المقود وجلس بجانبي رفيق واثنان خلفنا. دَفَعَنا شباب الحماية قليلاً في البحر لكي يغدو في إمكاننا إنزال الموتور في المياه فلا يصطدم بالأرض.

انطلقنا عند الثامنة مساءً.

نعرف أن الزوارق الإسرائيلية تجوب البحر ولا تتوانى عن دخول المياه الإقليمية اللبنانية. أخذنا حذرنا فلم نسرع كثيراً كي لا ترسم المياه خلفنا أمواجاً تلفت الأنظار. وبعد ساعتين من المسير المتأنّي صار الزورق يتوقف قليلاً ويمشي قليلاً. فاجأني ذلك وحيّرني. الموتور شغّال، لماذا التوقّف؟ أين المشكلة؟ صرتُ أوزّع انتباهي على البحر تارةً وعلى الزورق تارة. فتحتُ جهاز اللاسلكي لأتواصل مع أبو العبّاس. لكن كيف سأقول له إن الزورق تعطّل، فشيفرة الرموز المتّفق عليها بيننا لا تتضمّن رمزاً يعني أن هناك عطلاً ميكانيكيّاً. الرموز الموجودة تعني الأماكن التي نعبرها وتعبّر عن الظروف الميدانيّة العسكريّة، كأن نضغط ٦ مرات لنقول إننا وصلنا إلى رأس الناقورة، وكبستين لنقول إن هناك خطر اشتباك مع دورية إسرائيلية. ماذا أفعل؟ ومع تكرار ضغطاتي على الجهاز، راح أبو العبّاس يسألني إذا ما كنّا اشتبكنا مع إحدى الدوريات. وأنا لا أريد الإجابة بالكلام، فهذا عندما نشتبك، وقبله ممنوع، ونحن لم نشتبك. تفاقمت الحيرة. وفي النهاية اضطررتُ إلى الحكي، وقلت له ما يجري معنا. فاقترح عليّ تغيير «البوجيّة»، فرددتُ أن الموتور يعمل بشكل عادي لكنه لا يدفع الزورق. وبعد أخذ ورد طلب أبو العبّاس أن نعود إلى حيث انطلقنا. لكن كيف يمشي الزورق؟ استدرنا عائدين، وما إن انطلق الزورق حتى استدرتُ في اتجاه فلسطين، لكنه عاد وتوقّف. استدرنا نحو لبنان، فانطلق الزورق، وظننتُ مجدّداً أنه تعافى، فعدتُ واستدرتُ في اتجاه فلسطين، لكنه غيّر رأيه وتوقّف. فقرّرتُ العودة نهائيّاً حتى لو مشى وانتهت المشكلة.

رجعنا.

هذه المرّة الثانية التي تحصل فيها مفاجأة. المرّة الأولى أثناء الاستطلاع، إذ اكتشفتُ وسط البحر أنني نسيتُ الدفتر الذي يجب أن أسجّل عليه الملاحظات. أمسكتُ كيساً نضع فيه بعض المعلّبات ورحت أكتب عليه. وحينما عدنا سألني أبو العبّاس عن الدفتر، سحبت له الكيس فإذا هو كاكي وقد استعملت قلم رصاص فلم تظهر الكلمات واضحة. اعتمدت على ذاكرتي لأستعيد التفاصيل وتمّ إعادة الاستطلاع. ولمتُ نفسي لأن هذه أخطاء لا يجوز أن يرتكبها محترفون، لكن الأمر لم يثبط عزيمتي أو يشكّكني في نفسي وفي نجاح العملية. ازداد إصراري وقلت لا يتعلّم الإنسان إلاّ من كيسه، وأنا وجدت كيسي.

عندما وصلنا ونزلنا من الزورق أمرتُ الشباب ألاّ يمسّوا شيئاً. في الحقيقة لم

أستبعد أي عمل تخريبي، لكن من دون مبالغة أو اتهام أحد، ولا سيما أننا لم نلتقِ بدورية إسرائيلية ولم نلاحظ حركة زوارق إسرائيلية غريبة. وعندما فكّرت في هذا تراجعت أسهم احتمال العمل التخريبي، إلاّ إذا كان التخريب للتخريب وليس تآمراً مع العدو، أي مجرّد غيرة في التنظيم أو من تنظيمات أخرى. وهذا مستبعد، ليس ادعاءً بأن جبهتنا الفلسطينية عموماً ملائكة، بل لأن لا أحد يعرف بعمليتنا، إلاّ مَن له علاقة بها.

استدعيتُ الميكانيكي، الذي كان موجوداً مع مجموعات الحماية. راح تحت ضوء القمر يبحث عن العطل أمام نظري ونظر أبو العبّاس. لم يَطُل عمله، فميكانيكيّة الزورق بسيطة، إذ اكتشف أن كابل البولاد الذي يوصل الموتور بقبضة السرعة التي يمسك بها السائق يفلت من فرزته في أسفل القبضة.

هدأ بالي رغم الضيق الذي سبّبه رجوعنا من منتصف الطريق. نظرت إلى الساعة في يدي وأنا أسأل نفسي هل نحن قادرون بعد مرور هذا الوقت على استئناف المهمة. فعاجلني أبو العبّاس ملاحِظاً ذلك مجيباً بأن الوقت قد مرّ وما بقي من الليل ليس كافياً للوصول وتنفيذ العملية، والأفضل أن ننسحب ونرتاح ونحدّد موعد العملية لاحقاً.

— «سنعود، سنعود»، قلت لأبو العبّاس على مسمع من الشباب. ولم أخفِ كم نحن بحاجة معنويّة إلى العمليّة.

فتح أبو العبّاس باب سيّارته الفيات ليقود هو ودعاني إلى الركوب في الخلف مع أحد عناصر المجموعة. انضمّ إلينا، بجانبه، مرافقه، وانطلق موكبنا نحو بيروت. نمتُ وأيقظوني عندما وصلنا إلى الفاكهاني. ومن لهفتي للنوم لم أفكّر إلاّ في الوصول إلى السرير، والنوم حتّى بثيابي الجديدة التي تبلّلت واتّسخت.

ظهراً، أيقظنا رنين الهاتف. أخبرني المتّصل أن أبو العبّاس يدعونا إلى الغداء. وأرسل مرافقه لاصطحابنا إلى بيته، في حيّ السبيل في الطريق الجديدة القريب من الفاكهاني. كانت زوجته الأولى، سامية صابونجي، قد أعدّت لنا الطعام. ونحن إلى المائدة قرّرنا أن ننفّذ العملية اليوم. آثرنا ذلك منعاً لتسرّب خبر العملية.

عدنا إلى مقرّ العمليات المركزية للجبهة. بقينا معاً متوارين في جوّ معقّم كي لا نلفت الانتباه، ولا سيما أن حولنا مقارّ للتنظيمات الفلسطينية ويُرجّح أن يكون هناك عملاء لإسرائيل. وعند الخامسة عصراً جاءت سيارات لتقلّنا إلى حيث كنا أمس.

مررنا بمحاذاة المدينة الرياضية التي دمّرتها إسرائيل بالغارات المتكرّرة لطائراتها. انطلقنا على الطريق الساحليّة جنوباً.

كان المشهد في نقطة التجمّع ليبدو هو نفسه كما أمس لو لم نلاحظ، منذ وصولنا، حركة كثيفة للزوارق الإسرائيلية ترافقها قنابل مضيئة. والطائرات الإسرائيليّة تعبر فوقنا تغير على مدن الجنوب وقراه. أخذنا حذرنا واستعددنا لأيّ طارئ. لكن مع مرور الوقت شعرنا بأن لا شيء يستدعي تغيير موعد العملية. جهّز شباب الحماية الزورق وتأكدتُ من توزيع الأسلحة على عناصر المجموعة وفق الخطّة دون أي تعديل.

العاشرة ليلاً، صافحنا أبو العبّاس مع نظرات تستبطن تساؤلات عن المهمّة وما إذا كانت ستجري على خير ما يرام، لا سيما أنّ تغييراتٍ عدّة طرأت عليها. ففي البداية كانت الخطّة أن نعبر بزورق خشبي كبير وعلى بُعد ٨٠ ميلاً من السواحل الفلسطينيّة ننزل منها إلى زورق مطّاطي نتوجّه فيه إلى فلسطين. وجهّزنا زورقاً خشبياً كبيراً، وتدرّبنا على تلك الخطّة، إلاّ أننا عدلنا عن ذلك بعد استطلاعات عدّة عرفنا من خلالها أن الإسرائيليين يراقبون عمق البحر بكثافة أكثر من الشواطئ. قرّرنا أن نعبر من الأراضي اللبنانية بمحاذاة الساحل. وفي أثناء استطلاعاتنا تلك، قُبضَ على مجموعتين لحركة فتح كانتا تحاولان العبور بحراً.

الآن، بعد ساعتين من المسير، نقترب من رأس الناقورة. هناك رادار إسرائيلي. جعلت الزورق يسير بهدوء وبطء بين الصخور على بعد ٥٠ متراً من الشاطئ. لقد حفظنا المنطقة في استطلاعَينا اللذين سبقا العملية. صارت ذبذبات الرادار تمر من فوق رؤوسنا. جعلناها كذلك لأنها إذا ما ضربت بنا أو بأيّ جسم غريب ترتدّ وتكشفنا. كان الزورق طيّعاً مثل الزورق الذي تدرّبنا به ومررنا فيه مرتين من هنا. وما إن تجاوزنا رأس الناقورة حتى بان لنا ساحل فلسطين مشعشعاً بالأضواء. أمامنا مدينة حيفا تدخل في البحر، رأساً. حزنتُ لأنها محتلة ولأن جمالها ينعم به غير أصحابها. لم أترك نفسي لسحر فلسطين، خصوصاً أن دوريات إسرائيلية ظهرت قريبة منّا. وكانت كثيفة كأننا وقعنا في وسطها فجأة. ومع انطلاق زورقين من حيفا في اتجاهنا تكثّفت أضواء البروجكتورات من الدوريات القريبة نحو

الشاطئ حيث نحن. وصرنا كلّما توجّهت البروجكتورات الكاشفة علينا ننحني في الزورق الواطئ العائم في البحر كمخدّة تحت رأس نائم. وكان الزورق يُضاء إلى درجة أن يشاهد بعضنا وجوه بعض. اقتربَت تلك الزوارق منّا إلى درجة رأيتُ الجنود عليها وسمعتهم يتحدثون بالعبرية التي لم أكن أتقنها. لم أفهم ماذا يقولون. كلّ ما فكّرتُ فيه أنهم لا يستطيعون الاقتراب منّا أكثر لأن زوارقهم كبيرة ولا يمكنها دخول منطقة صخرية شاطئية.

طالت رحلتنا على هذه الحال. نسير حين تُطفَأ البروجكتورات، ونتوقّف حين تُضاء وتُوجّه نحونا. لم تقذفنا الأمواج بعيداً من هدفنا، كما حصل مع مجموعة دلال المغربي. فقد بقي زورقاها المطّاطيان في عرض البحر ثلاث ليالٍ، حتّى استطاعت الوصول إلى الشاطئ في منطقة غير مأهولة.

حين وصلنا إلى شاطئ مدينة نهاريا، أخبرتُ الشباب أنها هدفنا لأن فيها ثكنات عسكرية ضخمة والضبّاط والجنود يسكنون فيها بكثافة. قبل هذا لم يكونوا على علم بوجهتنا.

طلبتُ من مساعدي ماجد أنْ يقفز بدون سلاحه من الزورق إلى الصخور. اخترنا منطقة صخرية لنخفي الزورق وكي لا نُبلّل إذا ما كان الشاطئ رملياً.

أمسك ماجد الواقف على الصخور بالزورق، وقفزتُ أنا وربطنا الزورق بإحدى الصخور. ساعدتُ ماجد ليلبس جعبته وناولته سلاحه، وهو قام بالدور ذاته. تبعنا الرفيقان الآخران.

تجهّزنا وانطلقنا نحو المدينة. في محاذاة الشاطئ تمرّ طريق ترابيّة بجانبها رصيف عليه أشجار سرو، وخلف الأشجار شارع داخليّ في المدينة. لم أصدّق أنني في فلسطين. هذه أوّل مرّة أدوس فيها الأرض المحتلة. في الاستطلاعَين بقينا في الزورق ولم نصل إلى فلسطين. قلتُ للشباب:

— «لستُ مستوعباً أننا وصلنا».

وهم كذلك. كنّا متفاجئين مبتهجين.

تسلّلنا الشارع واحداً واحداً. وهناك قلت:

— «أريدُ أن أتأكد إذا ما كانت لوحة تلك السيّارة صفراء». فلوحات السيّارات في إسرائيل صفراء بينما عندنا في لبنان سوداء وحمراء للعمومية. اقتربتُ من سيّارة

الفولسفاغن كأني أمازح نفسي. ابتسمتُ حين كانت اللوحة كما توقّعتْ. استهبلت الجيش الذي جمعوه من أنحاء العالم وسلّحوه أفضل تسليح وتسللنا بغفلةٍ منه.

الشارع حيث ننتشر الآن لا يستمر مع الطريق الترابية المستقيمة التي ترافق الشاطئ، بل يفترق عنها نحو الشرق على شكل زاوية ٤٥ درجة. بعد المفترق، جنوبي الشارع، غابة ترافق الطريق الترابية والشاطئ. وعند الزاوية، شرقي الشارع وشماله، أي داخل الحيّ حيث نحن، فيلا صغيرة مسوَّرة بدرابزين خشبي وبابها في جهتها الخلفية التي تطل على الحي. وبجانب الباب كاراج مفتوح تُركَن فيه سيارتان، الفولسفاغن ذات اللوحة الصفراء واحدة منهما. وعلى بُعد عشرين متراً تقريباً من هذه الفيلا شمالاً فيلا أخرى. وما بين الفيلاتين، حيث نحن، طريق ترابية تنطلق من الشارع شرقاً وتفضي بعد مئة متر تقريباً إلى بناية من ثلاث طبقات. خطّتنا هي أن نكمن لسيارة عسكريّة أو للشرطة وننقضّ عليها ونقتل مَن فيها، على طريقة الإنزالات الإسرائيلية التي نَصبت مرات عدة كمائن في الأراضي اللبنانية واغتالت عدداً من قيادات المقاومة الفلسطينية. ثم نتقدّم إلى أحد الأبنية نصفّي مَن فيه ونأسر اثنين ونعود بهما لنجري تبادلاً بهما مقابل الأسرى الفلسطينيين في السجون الإسرائيليّة. هذا الهاجس كان هدفاً مباشراً لعمليّتنا ولدى التنظيمات الفلسطينيّة كلّها. فقبل نحو شهر، في ١٦/ ٣/ ١٩٧٩، استطاعت الجبهة الشعبيّة القيادة العامّة إجراء عمليّة تبادل، أطلق عليها اسم النورس. مقابل جندي إسرائيلي أسرته أثناء الاجتياح الإسرائيلي للجنوب، اسمه أبراهام عميرام، حرّرت ٧٩ فدائياً، عاد معظمهم إلى لبنان والبعض الآخر بقي في فلسطين.

وزّعتُ الشباب بشكل كمّاشة تُحكِم السيطرة على الشارع. فتحتُ الجهاز وأخبرت أبو العبّاس، باختصار، أننا وصلنا وسنتقدم للتنفيذ. ردّ عليّ باختصار متمنياً النصر والتوفيق.

انتظرنا ربع ساعة ولم تمرّ سيارة. فكّرتُ أن أرمي قنبلة يدوية وصَلْيَة نار على أحد الأبنية لتأتي النجدة. ثمّ اخترتُ أن أقوم بحركة يشعر بها سكان الفيلا القريبة، عند الزاوية، فيرتابون ويستدعون هم الشرطة أو حرس السواحل. اقتربتُ من الباب ورحتُ أضرب عليه بيدي بقوّة. وجاءني عبر الانترفون صوت امرأة تتحدث العبرية.

التزمتُ الصمت مواصلاً الطرق على الباب بقوّة. وحرصت على ألا يراني أحد مسلّحاً. والشباب مختفون في مواقعهم خلف الأشجار. خمس دقائق لا أكثر، أتت من المفترق الشرقي للشارع سيارة للشرطة مسرعة. يبدو أن سكان الفيلا استدعوا الشرطة. توقّفَت السيّارة فجأة عند الزاوية قرب الفيلا، وفتح السائق الباب ليترجّل. باغتها ماجد بقذيفة «آر.بي.جي»، ومحمد علي بقذيفة «إينيرغا»، وأبو أسعد صلاها بالـ«بي.كا.سي»، وفتحت أنا النار عليها بالكلاشنيكوف. لا حركة فيها، ولا رصاصة انطلقت منها. اقتربتُ منها وكانت لا تزال تغلي وتطقطق. «نكزت» الشرطي بجانب السائق بفوهة بندقيتي، فلم يتحرك، بقي ساقطاً فوق «التابلوه». السائق مرميّ جثّة هامدة على الطريق وساقاه معلّقتان بالسيارة. نظرتُ إلى المقعد الخلفي، لا أحد. ولمع في وجهي ضوء سيارة آتية من الشارع الشرقي باتجاهنا. انطلقت نحوها فتوقفَتْ فجأة، وقفز مَن فيها وهربوا نحو الغابة، لحقتُ بهم برشقات من الكلاشنيكوف. اختفوا تاركين الجيب، الأخضر.

عدتُ مسرعاً إلى الشباب. سألني محمد علي:

— «ماذا يحصل؟».

قلت:

— «لا أريد أن نضيّع الوقت».

صرتُ مندفعاً للهجوم على البناية وفق الخطّة.

توجّهنا عبر الطريق الترابية إلى البناية. وأنا أقفز من فوق سورها السلكي نبح كلب وهجم نحوي، فأرديته مستعملاً الرشاش الألماني، شبيغن، المكتوم الصوت. استخدمته لأن المخزن الأول للكلاشنيكوف قد فرغ على السيارتين، ولم أكن بدّلته بعد. وتقدمتُ تاركاً الكلب ينازع الموت. أطلق ماجد قذيفتي «أر. بي. جي» نحو البناية من مسافة قريبة. تجنّبنا الحجارة المتساقطة علينا. وعبرنا ممراً ضيقاً، شمالي البناية، يُفضي إلى مدخلها في واجهتها الرئيسية الشرقية. هناك، عند المدخل، ساحة مبلّطة مثل البراندا، لا سياج أو سور. تقدّمنا نحو المدخل بتشكيل عسكري يحمي كل منّا الآخرين ومستعداً لأي مفاجأة. وجدت باب المدخل مفتوحاً وسمعتُ صراخاً ودبيباً داخل البناية. أوقفتُ محمد علي وأبو أسعد في موقعين يبعد كلّ منهما عن الآخر خمسة أمتار بحيث يطلان على الشارع ويكشفان الزوايا كلها. طلبت منهما منع أيّ اقتحام للبناية، وأشرتُ لماجد أن يرافقني. في الأثناء، بدّلت

المخزن الفارغ للكلاشنيكوف بآخر ممتلئ. ووضع ماجد الـ«آر.بي.جي» خلف ظهره وحمل الكلاشنيكوف. الضجيج في البناية يزداد، وخبطُ أبواب متتالٍ. حركة غير طبيعية. قلت، إنهم يحاولون الهرب، أو يهربون من الشبابيك.

صعدنا إلى الطبقة الثالثة، الأعلى، وهمستُ لماجد:

— «نستعمل القنابل اليدوية والكلاشنَيْن. نمشّط البيوت، أنا غرفة وأنت غرفة».

اقتحمنا البيت. نرمي الرصاص في الغرف المفتوحة، ونعالج الغرف المقفلة بالقنابل.

ونزلنا إلى الطابق الثاني. الباب مغلق. دفعه ماجد بقدمه، فانفتح هشّاً. مشّطنا الصالون الواسع بالرصاص، لم أجد أحداً خلف الكنبات. واندفع ماجد نحو ممر يفضي إلى غرف النوم. صرختُ له:

— «لا تسرع، طهِّر أمامك».

— «لا يوجد أحد»، أجابني. ووقف في مواجهة باب مغلق، وبدلاً من أن يدفعه بقدمه ويرمي قنبلة يدوية إلى الغرفة، فتح الباب بيده واقفاً في مواجهته.

سمعتُ صوت طلقتين. ظننتُ أن ماجد أطلقهما، لكنه أنَّ وقال لي:

— «قوّسوني».

التفتُّ إليه لأجده، بقامته الطويلة مرمياً على الأرض. هو الخطأ لحظة. اندفعتُ نحوه فإذا برصاصتين تنطلقان من الغرفة وتصيبان حافة الباب. تراجعتُ وفتحت قنبلة يدوية ورميتها إلى الغرفة، ووقفتُ في مواجهة الباب مطلقاً الرصاص نحو داخل الغرفة. ثوانٍ انقشع فيها الغبار لأرى رجلاً بالبيجاما مرمياً على الأرض وسط بقعة من الدماء تتّسع، وقد أفلت مسدسه من يده على السرير. أضفت بضع رصاصات لأتأكد من موته.

انحنيتُ فوق ماجد. حكيت معه، دعوته إلى النهوض لمتابعة المهمّة. لا جواب. هززته. لا أمل. أصيب بطلقتين في جبهته.

غضبٌ مجسّد في مقاتل مات رفيقه بين يديه، وما زال لديه الكثير من الرصاص والقنابل، واحتمالات النجاة صفر. ازداد شعوري بالسباق مع الوقت، فالأكيد أن قوات جيش الاحتلال في طريقها لمحاصرتنا. تركتُ ماجد في مكانه ومعه قلبي.

توجّهتُ إلى المدخل. قبل أن أصل إلى الباب، صرختُ لمحمد علي طالباً منه أن ينضم إليّ. أخبرته وأبو أسعد أن ماجد قد استُشهد.

سبقته في مدخل البناية هابطاً بضع درجات ووقفتُ قرب باب حديد مفتوح يبدو أنه لملجأ، فالداخل مُعْتِم مريب وتصدر منه أصوات تشي بأنّ ثمّة محاولات للاختباء. شرعتُ أجهّز قنبلة يدوية F1 وطلبت منه تجهيز اثنتين مثلها.

قال:

— «نريد أسرى، من أين نأتي بهم؟».

— «هناك المزيد في البناية، لكن هذا الملجأ لن ندخله، لا نعرف ما فيه».

همستُ له:

— «أنا أدفع الباب وأنت ترمي القنبلتين وتتراجع إلى الخلف، ثم أنا أرمي القنبلة وأتراجع». هو قبلي لأن معه قنبلتين، فإذا تأخّر برمي واحدة تحصل مشكلة.

نفّذنا، ودفَعَنا دويّ القنابل إلى الخلف. ثم استجمعتُ قواي وألحقتُ القنابل برشق من الكلاشنيكوف.

سمعتُ أنيناً وازدادت العتمة في الملجأ. دعوتُ محمد علي إلى الهجوم على البيت الباقي، في الطبقة الأولى. مشّطنا الغرفة الأولى. فتحتُ باب الغرفة الثانية، وقبل أن أبدأ إطلاق النار، وخلفي محمد علي يستعدّ لرمي قنبلة، رأيتُ شابّاً نحيلاً يقف أمامي ويرفع يديه، ويكلّمني بالعبرية والإنكليزيّة. بسرعة، أشرت لمحمد علي بأن يجمد. أمسكتُ بالرجل ودفعته ليخرج معنا، أسيراً. أفلت منّي وأمسك بطفلته التي لم نكن لاحظنا وجودها. حاولتُ نزعها منه لتركها، لكنه احتضنها وأحكم عليها. حاولتُ مجدداً فأصرّ.

وجود الطفلة في حضن أبيها بدّد غضبي وعدتُ إلى الخطة التي تقضي بأسر شخصين. لا أعرف لماذا فعل ذلك، خوفاً عليها ربّما، أو ليحتمي بها ونرأف به فلا نقتله، لا أعرف. لم أفكّر في البحث عن بقيّة أسرته، رغم أنني شعرت بأنّه تقاسم وزوجته أولادهما، ليختبئ كلٌّ منهما في ناحية. أعرف هذه الحيلة التي يلجأ إليها الأهل في الحروب، كي لا تموت الأسرة كلها معاً. ما فكّرتُ به في تلك اللحظة هو أن العملية استنفدت منّا ثلث ساعة، ما يساعد الإسرائيليين على محاصرتنا. وأنا لا أريد أن نقع في قبضتهم ومرماهم قبل الوصول إلى الشاطئ والزورق.

شعرتُ بأنه يحاول تأخيرنا. وكذلك محمد علي الذي حسم تردّدي:

— «لنأخذهما معنا».

أشرتُ إلى الرجل بأن يخرج معنا. تراجع قليلاً. ضربته على ظهره بكتف الكلاشنيكوف. انصاع ومشى بيننا.

تناهى إلينا صوت رصاص من الخارج. لا هو من أبو أسعد عند المدخل، ولا يُطلق في اتجاه البناية. تذكّرتُ أنني سمعتُ مثله حين كنّا، أنا ومحمد علي، نمشّط الطبقة الأولى.

طمأننا أبو أسعد الواقف عند باب المدخل أن لا شيء في الخارج.

سألته عن الرصاص الغزير الذي نسمع أصواته، ردّ:

— «بعيد».

وهو كذلك. الظاهر أنّه حين سُمع دويّ قذائفنا أمسك كل مَن في هذه المدينة ما لديهم من أسلحة، وراحوا يطلقون النار عشوائياً، لحماية بيوتهم وأحيائهم. ما سبّب، وهذا ما فكّرتُ فيه، ارتباك الشرطة وتضييع مكاننا، وبالتالي تأخّر أيّ قوّة عسكرية تبحث عنّا في الوصول إلينا. رغم ذلك، أخذنا حذرنا في الانسحاب نحو الشاطئ.

طلبتُ من أبو أسعد أن يمشي أولاً، في مقدمتنا لجهة اليسار. سلاحه، الـ «بي.كا.سي»، قادر بسرعة على معالجة أي مفاجأة ويطلق قوّة نار مناسبة لفتح الطريق أمامنا. الـ «بي.كا.سي» في مثل حالتنا أفضل من «الكلاشنيكوف» والـ «إينيرغا».

ومشى محمد علي، لجهة اليمين، ثم الرجل الرهينة وابنته، وخلفهم أنا لأحمي المؤخرة وأرى أمامنا بشكل أفضل.

خرجنا من الجهة الشماليّة. توجّهنا على الطريق الترابية نحو الشارع، الفيلا عند الزاوية على يسارنا. عبرنا الشارع. وما إن بدأنا نعبر الطريق الترابية التي ترافق الشاطئ، حتى أُطلقت في اتجاهنا النار، من جهة الغابة جنوباً. يبدو أن الجنود الذين فرّوا من جيب حرس الحدود نحو الغابة بقوا هناك وهم يطلقون النار علينا الآن. رددنا عليهم، ودفعت الرهينة ليخفّ في المشي. فهو حين وجد أن هناك مَن يطلق النار علينا، تفاءل وفكّر في الفرار، أو لعلّه خاف من أن يُصاب. الرصاص الكثيف نحونا كان يستهدفه وابنته معنا. أسرعنا الخطى نحو الصخور. تمترسنا خلفها.

قلت لأبو أسعد ومحمد علي:

— «تقريباً، لن نتمكن من الرجوع إلى لبنان. لن يتركونا ننجو. سيبذلون جهدهم ليقتلونا أو يأسرونا، كما فعلوا مع مجموعة دلال المغربي، ولن يهتمّوا لأسراهم. سنقاومهم حتّى الرصاصة الأخيرة».

اتخذنا تحت الرصاص الكثيف علينا مواقع متقاربة. أبو أسعد لجهة الجنوب، ومحمد علي في الوسط، وأنا من جهة الشمال. بين الصخور فتحات وشقوق نطلق منها النار، لكنها أيضاً ثُغرٌ تكشفنا للعدو. الرجل خلفنا على الصخور التي تصل إليها الأمواج قرب الزورق. أوعزتُ لأبو أسعد ومحمد علي أن نخلع الجُعَب التي نحملها على ظهورنا ونضعها أمامنا. ما زال معنا كمية ذخائر تمكّننا من تكبيدهم الكثير من الخسائر. أنا، بقيت معي أربع قنابل يدوية وستة مخازن للكلاشنيكوف والرشاش الكاتم والمسدس، وأبو أسعد لم يطلق من الـ«بي.كا.سي» إلاّ القليل، ومحمد علي استخدم قنبلتين يدويّتين وقذيفة «إينيرغا» والقليل من رصاص الكلاشنيكوف.

فجأة، توقف الرصاص علينا، وراحوا من جهة الجنوب يحدّثوننا بالعربية عبر مكبّر للصوت:

— «اسمعونا منيح، نحن نراكم، كاشفينكم. أمامكم خياران: إمّا أن تموتوا الآن أو تحافظوا على الرهائن وتستسلموا!».

عندما انتهوا من هذا قلت لأبو أسعد ومحمد علي:

— «ولا حركة أو نَفَس. أريد أن يقتربوا منّا».

وكرّروا عبر مكبّر الصوت:

— «نحكي معكم مرة أخرى. اسمعونا منيح. أمامكم خياران: إمّا أن تموتوا الآن أو تحافظوا على الرهائن وتستسلموا!».

لم نرد. ومع النداء الثالث رميتُ صلية من الكلاشنيكوف. سكتوا.

بعد قليل فُتح مكبّر الصوت وخرجت منه «وشّة» قويّة، أعقبها المتحدّث نفسه:

— «اسمعونا منيح. سنقدّم لكم عرضاً. نحن نعطيكم كلمة. سلّمونا الرهائن ونضمن لكم أن تعودوا إلى بلدكم من دون أن يتعرّض لكم أحد».

فطلبتُ من محمد علي أن يرمي في اتجاههم قذيفة مضادة للأفراد. نفّذ. وتبعته برشق من الكلاشنيكوف.

أُطفئت أضواء الأبنية كلها، وأمطرونا بالقذائف الخفيفة والرصاص. وراح أبو أسعد يطلق الرصاص من الـ«بي. كا. سي» بغزارة. أمرته ألاّ يرد بعشوائية:

— «يريدوننا أن نفرغ ذخيرتنا بسرعة».

ردّ عليّ:

— «رأيتُ جسماً يتحرك في اتجاهنا».

قلت:

— «ارمِ على الأهداف فقط».

فجأة وقف الرهينة، وقد ترك ابنته ولا أعرف أين صارت، وراح يتكلم بالعبرية بصوتٍ عالٍ ليسمعوه. لم أفهم ما قاله، لعلّه يكشف لهم وضعيتنا وعددنا. وجّهت نحوه بندقيتي فسكت وانحنى.

توقّف إطلاق النار من جهة الشمال، ليُفتَح بغزارة من الجنوب والشرق. رصاصٌ مثل المطر، وضربونا بقذيفة «إينيرغا»، انفجرت قرب محمد علي.

توجّستُ من صمت جهة الشمال. فهمتُ القصّة، قال لهم الرهينة أن يأتوا من هذه الجهة. طلبتُ من أبو أسعد أن يتعامل مع النيران من جهته. أريد لهم أن يظنوا أن ذخيرتنا بدأت تنفد وأننا غير متحسّبين لما يخطّطون له. فتحوا علينا النار من الجنوب.

أطلقوا قذائف مضيئة فوقنا فتحوّل الليل نهاراً. تركناهم ينفّذون ما يحلو لهم. أركّز تفكيري على جهة الشمال الصامتة. أتوقّع أن يأتوا منها. وأبو أسعد ومحمد علي يتعاملان مع إطلاق النار من جهتيهما بروِيّة: ردودٌ مُقنّنة على أهدافٍ محدّدة.

لمحتُ من الشمال رجلين يتسلّلان نحونا. تأكّد حدسي وتفكيري في أن الرهينة لا يستنجد بهم وحسب بل يرشدهم. تركتهما، وأشرتُ لمحمد علي ألاّ يتحرك. يقتربان. يقتربان منحنيين ويُنزلان أقدامهما بخفّة، وبندقيتاهما في أيديهما نحونا. توقّف إطلاق الرصاص من جهة الجنوب. تجاوز الرجلان الطريق الرملية وتسلّقا الصخور. باتا على بُعد أربعة أمتار منّي. تركتهما ليقتربا كي أواجههما. هذه مجابهة. أردتها كذلك.

أُطلقت قنبلة مضيئة وحينما رأى الرهينة الرجلين كلّمهما بالعبرية. في الأثناء وقفتُ في مواجهتهما، رأيتُ وجهاً أبيض وشعراً أشقر فوق قامة طويلة وعلى كتفيه نجوم، والجندي خلفه حاول أن يتراجع ويهرب. فوجئا بي وبرصاصاتي نحوهما.

سقطا أمامي. ونزلتُ خلف صخرتي كما كنت. لقد شاهد محاصِرونا ما حصل.

وانهمر الرصاص والقذائف علينا من الجهات كلّها، شمالاً وشرقاً وجنوباً، جهنم وفُتح بابها. لا أُبالغ. لم أستطع رفع رأسي. أنظر إليهم من شقوق بين الصخور.

بعد موجة غضبهم هذه، وقف الرهينة يلوّح لهم بشكل جنوني ويصرخ وينوح. شعرت أنّ ابنته أُصيبت. تأكدتُ من أنه هو مَن قال لهم أن يأتوا من جهة الشمال. وقد خاب أمله وفشلت خطته حين رأى الضابط والجندي يسقطان أمامه. فكّرت أن مغامرتهم بضابط وجندي لإنقاذه يعني أنه رجل مهم بالنسبة إليهم.

أطلقت النار عليه.

كأنما انتهت مرحلة وبدأت أخرى.

وبدأت تحلّق فوقنا طائرة هليكوبتر. لم تطلق علينا النار، ونحن لم نفعل، وأصلاً لا سلاح ضد الطائرات معنا. تُراقبنا وتحصينا وتعطي إحداثيات عنّا للقوات التي تحاصرنا.

أشعلت القنابل المضيئة سماءَ المنطقة. مع هدوء تقطعه بين الحين والآخر رشقات كثيفة من رشّاشاتهم. وعندما انطفأت السماء فوقنا توقّعت هجوماً. دقائق وتحرّك ببطء في اتجاهنا نَسَق من الجنود يطلقون النار، يغطيّه نسقٌ ثابت خلفه بنيران كثيفة. وقد تمركز بعض القناصة على الأبنية المحيطة بالشاطئ. تركنا المهاجمين ليصلوا إلى وسط الطريق الرملية. ورغم أننا لم نرهم بوضوح إلا أننا وجّهنا رشاشاتنا صوب فوّهات البنادق التي تصدر منها النيران. تشتّت النسق وتراجع المهاجمون.

أصابت شظيّة جبهة أبو أسعد. سألته أن يعالج إصابته بالإسعافات الأوّليّة الموجودة معه، فطمأنني أن الجرح ليس خطراً.

قبل أن يبدأ الهجوم التالي رفعتُ نفسي لأرى ماذا يعدّون وإذا ما تقدّموا خلسةً نحو الطريق الرملية، فرموا علينا رشقات كثيفة. أُصبتُ بطلقتين في ذراعي اليسرى.

عدتُ إلى جلستي بين الصخور وكأنني في بانيو. رأيتُ خوذة جندي فوق سطح أحد الأبنية، يرمي في اتجاهنا الرصاص قنصاً. ساعدتني فوهة بندقيته التي اشتعلت حين أطلق النار عليّ في تحديد مكانه. وجّهتُ إليه بندقيتي وأصبته، أو على الأقل أسكتّه. لم يكرّرها.

ليس وضعي مريحاً ولكنه يساعدني على إطلاق النار. أبو أسعد إلى يميني، الدم يغطي وجهه وعينيه. سها قليلاً، فانفتحت ثغرة من بين الصخور عنده. أُصبت ثانيةً تحت إبطي.

طلبتُ من أبو أسعد أن ينتبه للثغرة التي أُصبت من خلالها، فأجابني بأنه غيّر «شرشور» الـ«بي. كا. سي».

تثاقلت حركتي. لكنني عاندتُ حالتي لأشارك في صدِّ الهجوم التالي الذي بدأوه. اقتربوا من جهتي لسحب الضابط والجندي المرميّين على بعد أمتار منّي. فرميتُ عليهم قنبلة يدوية كانت كفيلة بضعضعتهم وانسحابهم. وأُصبتُ للمرة الثالثة من ثغرة أبو أسعد. فرجعتُ ونبّهته أن يغطي منطقته أفضل. هذه الإصابة في ظهري أصعب من سابقتيها. النزف يزداد. صرتُ أشعر بجسمي يبرد.

الهليكوبتر تحلّق.

أعطيتُ القنبلة اليدوية الباقية معي لمحمد علي، إذ بِتُّ عاجزاً عن رميها. يدي اليسرى بالكاد تتحرّك.

راهنوا على نفاد ذخيرتنا. ونحن نردّ بالحد الأدنى. أصيب محمد علي بكتفه. عرضتُ عليه أن أساعده، لكنه أكد أنه ما زال قادراً على القتال.

في أثناء هجومهم الرابع، توقّف محمد علي عن إطلاق النار. صرختُ له أن يواصل الرمي، فأخبرني أبو أسعد أنه استُشهِد. التفتُّ إليه لأجد رأسه فوق الصخرة ينزف.

تضاعف وجع ظهري، أحسستُ شيئاً ما غريباً استقرّ فيه، يسار العمود الفقري. صرتُ أشعر بأن الجروح تبرد وتغدو أكثر إيلاماً. تقيّأت قليلاً وارتفعت حرارتي.

رآني أبو أسعد على حالي هذه، فحلف بالله أنه يقوم بأفضل ما يمكنه القيام به. أخبرني أنّه ركّب الـ«شرشور» الأخير في الـ«بي. كا. سي.». لاحظت زوغاناً في عينيه.

فرغ الكلاشنيكوف في يدي من الرصاص، فرحت أبحث في المخازن الفارغة أمامي عن واحد يحتوي على بعضها. فبعد إصابتي الثالثة عدتُ لا أرمي المخازن الفارغة إلى البحر، وأجمعها أمامي. وجدتُ واحداً يحتوي بضع رصاصات. ركّبته في بندقيتي. في الأثناء، همدوا قليلاً. قلت لأبو أسعد:

— «حاول أن تستمر حتى آخر الذخيرة، اترك رصاصاً لآخر الهجوم».

— «لكنهم لا يتقدّمون»، أجابني.

بدأوا هجومهم الخامس. يريدون أن ينفّذوه قبل طلوع الضوء. لكن بزوغ الفجر قد بدأ، وقد أعاننا ذلك على رؤيتهم. قلتُ لأبو أسعد:

— «دعهم يتقدّموا فوق الطريق الرملية».

تركناهم ليصلوا إلينا. جهّزتُ نفسي للمواجهة. تحرّكتُ قليلاً متألماً أنزف منزعجاً من قعدتي بين الصخور. قلتُ سأقف أمامهم. طلبتُ من أبو أسعد التزام الصمت:

— «مثّل أنّكَ ميّت!».

ورحتُ أخاطبه بصوتٍ هامس وهو يكرّر لي أنه لا يفهم ماذا أقول.

استجمعتُ قواي، وعندما وصلوا إلى الصخور أوقفوا إطلاق النار. لعلّهم خدعوا أنفسهم بأن حسبوا أننا متنا، أو فعلوا ذلك كي لا يرتدّ رصاصهم عليهم. فجأةً، وقفتُ وأطلقت ما أمكنني مما بقي في مخزن الكلاشنيكوف. لم أُصِب الجندي في مواجهتي. كان أسرع مني وأصابني. رأيتُ الدم يفرّ من صدري ووقعتُ وسقَطَت البندقية من يدي. غبت عن الوعي.

كأنني في حلم.

رائحة نتنة حادّة أيقظتني. رذاذ كريه يُرش على منخري ووجهي، يستفزّني كأن ليستعيدني بالقوة من الموت. لم أستطع إزاحة رأسي الثقيل. أحدهم يمسك بي، وآخر يقف على قدمي، ومجموعة من الضباط والجنود حولي. شعرت بجسدي عارياً على حمالة إسعاف عسكرية. فتحت جفنيّ منهكاً ومخدراً، ثم أغمضتهما، فعاجلني حامل البخاخة برشة طويلة لم أفلت منها. فتحت عينيّ كي لا يكررها.

ما زلنا على الشاطئ. إبرٌ في معصمي الأيمن، رفعت يدي لأكتشف أنّهم يمدّونني بالدم. وقد ألصقوا الجروح دون علاجها. تذكرتها مع ألم خفيف، كأنّي تذكّرت الألم أكثر مما تألّمت.

أحدهم يسألني:

— «كم واحداً أنتم؟».

لم أجب. فكرّر السؤال.

بدأت أستوعب ما يجري. جندي يحمل سترتي، عثر على ورقة في جيبها. حملها مبتهجاً وركض بها، كما لو أنه عثر على كنز ثمين يُرقّى بسببه إلى رتبة لواء. تذكّرت أنها فاتورة من مطعم، حيث تغدّينا أنا وشباب المجموعة، قبل أيام. كان عليّ أن أسلمها إلى ماليّة الجبهة.

— «كم واحداً أنتم»، مرة ثالثة، وبعدها:

— «أين جماعتك؟».

تجاهلت هذا السؤال، وقلت:

— «أربعة».

— «من قائد المجموعة؟».

— «ماجد»، أجبت. قلت ماجد لأني متأكد من أنه استُشهد.

— «من ماجد؟».

— «استُشهد في البناية»، رددت، وهو صدقني، ربما لأني صغير. ارتحت. بدأت أستعيد نشاطي.

— «أين ينتظرونكم؟ من أي سفينة نزلتم؟».

— «لم نأتِ بسفينة».

— «أين ينتظرونكم؟».

— «لا أعرف. ماجد قائد المجموعة».

— «ما اسمك؟».

— «سمير القنطار»، خلص، وقعت في الأسر، لا حاجة بعد لاسمي الحركي المستعار، نبيل.

طلبوا منّي أن أقف. أخذوني إلى بناء قريب، مكاتب للشرطة ربما. ضمدوا لي الجروح وأعطوني ثياباً ليست لي. وراحوا يضربونني ويركّزون على الجروح، ويكرّرون أسئلتهم:

— «أين كنتم ستأخذون الرهائن؟ أين ينتظرونكم؟».

— «لا أعرف».

بعد قليل أتى أحدهم وهمس في أذن من يحقّق معي، فسألني المحقّق:

— «أنت اسمك نبيل؟».

— «نعم».

— «أنت قائد المجموعة»، أضاف صارماً وفي لهجته تأنيب على كذبي. هزّ رأسه وتمتم:

— «ستعترف، ستعترف».

عرفت أن أبو أسعد ما زال حيّاً، ويظن أنني استُشهدت، فاعترف بأنني قائد المجموعة.

بدأت حربهم معي. جدّدوا ضربي واللعب بجروحي في ظهري وتحت إبطي.

اشتعلت غضباً، انتفضت. استعدت وعيي. لعلّهم أعطوني منشطات مع الدم. نشطوني أكثر من اللزوم.

يشتمونني، أرد. يخيفونني، أعاند وأواجه وأسخر.

أمسكوا بي ووضعوني في سيّارة ونقلوني إلى الشاطئ. كانوا متعجّلين كأنّهم يريدون إنهاء المهمّة بسرعة. أجبروني على مجاراتهم بالسرعة، وأنا منهك.

أوقفوني أمام جثّة محمد علي، وسألوني ما اسمه:

— «الشهيد مهنّا المؤيّد».

لم أرَ أبو أسعد (أحمد الأبرص) على الشاطئ. كان هناك صحافيون ومصوّرو تلفزيون، لم يقترب أحد منهم منّي. أوقفني ضابط ليسألني بعربيّة كاملة، ما اسمي:

— «سمير القنطار».

— «عائلة القنطار دروز، يعني أنت درزي»، ولكمني على وجهي.

عرفت أنه عربي بصقت في وجهه. لكمني.

أخذوني مشياً إلى البناية، دللتهم على ماجد.

— «الشهيد عبد المجيد أصلان».

أعادوني إلى المكاتب وعادوا إلى النغمة القديمة:

— «إلى أين كنتم ستأخذون الأسرى؟».

لا جواب، يبدو عليّ التعب والإنهاك، لكني أغلي من الداخل. انقباض روحي لأني وقعت في الأسر، ممزوج بسعادة عميقة بتنفيذنا العملية. وقد أظهرت ذلك لهم بالسخرية منهم ومن هجماتهم عليّ بالأسلحة. أحدهم كرّر وضعه رصاصة في بيت النار والاقتراب ببندقيته من وجهي، وأنا أهزأ به ضاحكاً:

— «أين كنت أثناء المعركة؟».
شتمتهم وشتموني.
— «ستعترف، ستعترف»، قالوا مراراً، وتوعّدوني، تحت التعذيب، بتعذيب أقسى.

مرّت ساعتان على هذه الحال. أردت مرور الوقت، رغم ثقتي بأنني لن أعترف أين ينتظرنا أبو العبّاس ومجموعات الحماية، في منطقة البقبوق شمالي مدينة صور. لا أحد غيري وغير أبو العبّاس يعرف.

وهو سيعرف الآن أننا استُشهدنا أو أُسرنا وسيخلي المكان.

يئسوا من إمكان اعترافي بأي شيء. عصبوا عينيّ وربطوا يدي إلى الخلف بعصبة بلاستيك، شدّوها بعنف. وشرعوا يضربونني. أبرحوني ضرباً وهم يأخذونني إلى طائرة هليكوبتر.

في الجو أُغمي عليّ مرتين، أيقظوني فيهما بدلق المياه على رأسي.

طرت، حلّقت في سماء فلسطين.

هديّة في رئتي

وهم يدفعونني لأنزل من الطائرة، عاودني ألم الجروح. ضرباتهم على ظهري ويديّ كانت إصابات تتجدّد. رصاصات تخترق اللحم وتعبث به. لذَّهُم ذلك. شعرتُ بهذا وهم يُكثرون من الضربات. وضغط مروحيّة الطائرة جعلني بين أيديهم، وأنا مكبّل اليدين والقدمين، مثل كيس رمل يتدرّبون به، يدفعونه فيعود ويرتدّ نحوهم ليقع مجدداً فريسة لكماتهم.

ارتحتُ منهم في سيارة تنقلني إلى حيث لا أعرف، لكن الرحلة لم تستمر أكثر من خمس دقائق. توقّفت السيّارة فجأة فتدحرجت مثل طابة في مؤخّرتها.

يومٌ رياضيّ بالنسبة إليهم.

فتحوا باب السيّارة بعنف ليصدموني. كانوا مستعجلين في الانقضاض عليّ، ليوحوا بأن لا راحة لي بين أيديهم. انتشلوني من السيّارة كما لو أننا في عراك ليتابعوا لكمي. مشينا خطوات قبل أن يوقفوني ويفكّوا العصبة عن عينيّ. وجدتُ، في مواجهتي، رجلاً سميناً مكرشاً متوسّط الطول شعر رأسه ولحيته أحمر مصبوغ ويضع قلنسوة على رأسه. حرص من اللحظة الأولى على أن يُظهر لي أنه ينتظرني منذ زمن، وأن له عندي ثأراً كبيراً. خلفه يقف رجلان، واحد منهما يقلّده في الإيماءات والإيحاءات. رسالته الصامتة لي هي أنني وقعتُ بين يديْ الرجل الخطأ.

سألني الرجل الأحمر، بلكنة عربية سلسة نوعاً ما، عن اسمي، وقبل أن أُجيب، عاجلني بلكمة على وجهي. أمرني أن أخلع الثياب التي ألبسوني إيّاها في البناء قبل إعادتي إلى الشاطئ.

فكّوا الرباط عن يدي. وأنا أُبعد الثياب عن جسدي أحسستُ برطوبة سميكة تغلّف جلدي. أشاروا إليّ أن أنام على طاولة مستطيلة. وقال لي الرجل الذي كان يماهي بحركاته الرجل الأحمر، بلهجة متهكّمة:

— «أنا طبيب، أريد أن أعالجك وأريك كم أنا شاطر».
سأله الرجل الثالث بعربيّة مكسّرة ثم بالعبريّة:
— «أُحضِر البنج؟». عرفت أنه مساعده.

وافقه الطبيب في البداية، فتحرّك المساعد بوظيفيّة حياديّة في اتجاه خزانة الأدوية، ثم عاد الطبيب وأوقفه. نظر إليّ وقال مبتسماً هازئاً:

— «لا، لا، لا داعي، هو قبضاي ويتحمّل من دون بنج».

وراح يحدّثه ومَن تجمّع من رجال في الغرفة بالعربية. فعل ذلك لكي أفهم أنا وحدي ما يقوله، إذ كان يتوجّه إليهم، بين جملةٍ وأخرى، بالعبرية، كأنه يترجم.

قال الطبيب بأسلوب من يروي قصّة أمام أطفال:

— «الآن سنجري له عمليات، وعليكم أن تقفوا حوله وتساعدوني في إمساكه».

التفّوا حولي، وقلبوني على الطاولة. وجهي لجهة الأرض. هذا أحكم الإمساك برأسي مغرقاً كفّيه بشعري الجَعِد الذي امتزج فيه العرق بالدم، وذاك قبض على زندي، وآخر أمسك بقدميّ... وهكذا. ثبّتوني. ومَن لا دور له وقف يتفرّج.

الربو يضيّق الخناق، يجثم فوق صدري. أتنفّس بصعوبة.

بدأ يحفر في ظهري. لا أراه، أحسّ بما يقوم به، وأتألّم. ولكي يوقِفوا صراخي أغلقوا فمي بقماشة، وواصل الطبيب عمله. حفرٌ وألمٌ. حفرٌ وألمٌ وأنّاتٌ مكبوتة وضحكاتٌ متبادلة في ما بينهم.

توقّف واقترب من وجهي يحمل بملقط كتلة حديد معجونة مضغوطة عليها نتفٌ من لحمي والدمُ يقطر منها، وحدّثني بلهجة متمسكنة:

— «انظر كم نحن رحماء، نستعمل رصاصاً لا يقتل».

وبطريقته في الترجمة، قال لمساعديه بعدما وضعوا الشاش وألصقوا الجرح:

— «اقلبوه!».

ثم تراجع وطلب إليهم أن يعيدوني كما كنت. وهم ينفّذون كأني فرّوج فوق نار. في الأثناء، أدّى دور الحائر، أيختار الجرح تحت إبطي ليعمل به أم الجرح في يدي أم الجرح في صدري. أخذ وقته.

توقّف عن الحديث بالعربية، حتى ازداد نزفي، فانهال عليّ بالسُباب. كان وهو يبحث في يديّ عن شريان ليمدّني بالدم لا يشكّ الإبرة بل يطعنني بها. بغضبٍ

مغلّف بابتسامة ينظر إليّ ويباغتني بطعنة، وقبل أن يتأكد مما إن كانت الإبرة وصلت إلى شريان أم لا، يسحبها ويطعنني بعد، كأنه يقول لي أقتلك وأقتلك لكن لن تموت بل أضاعف ألمك.

أهمل نزف ظهري وشرع يحفر في يدي. من كثرة الألم لم أشعر بألم إضافي. كنت في ذروة الألم. وهو مرتاح على وضعه. ينقّب بحثاً عن شيء، أحسستُ مراراً أنه أمسك به، لكنه تركه يضيع ليحفر أكثر.

سحب الرصاصتين من يدي ووضع مساعده الشاش على الجرح وألصقه. وبدأ الحفر تحت إبطي. بُعدٌ آخر للألم. مشهدٌ مسرحيّ حيّ كامل للألم والقسوة، مع ترجمة فورية.

قلبوني على ظهري. الجروح مفتوحة على الطاولة، تحفّ بها. شرع الطبيب يعمل في الجرح بصدري لجهة اليسار، وسّعه قدر الإمكان. أمام عيني، أدخل فيه ملقطاً، وأتبعه بآلة مثل النربيش في مقدمته قسطل حديد على شكل فوهة. أصرّ على إيصالها حتى الرئة. في عمق الجرح، جسمٌ حديديّ يتحرّك ويفتك باللحم. ذروة جديدة من الألم دفعتني لأنتفض. خبطتُ، لبطتُ، تحرّرتُ من قبضاتهم، وهم غاضبون يتمتمون بلغتهم ويضربونني. بسرعة، أغلق الملقط داخل الجرح وسحب تلك الآلة الضخمة التي تشبه الإبرة الطبيّة. نظرتُ إلى الطبيب كأنني سأنقضّ عليه، لكنّي عجزت فجأة عن أي حركة. أوقف المشهد، وأنا لا أدري ماذا فعل. منهكاً أشعر بدوار بقيتُ على الطاولة. ربع ساعة مرّ تقريباً. الجنود جامدون في أماكنهم، إلى أن بدأ الطبيب يسحب الملقط بهدوء ليستأنف ألمي. وكمَن يفاجئ شخصاً آخر بسرّ جميل، أخبرني:

– «تركت الرصاصة في مكانها ذكرى من الإسرائيليين، في الرئة قرب القلب».

حاك الجرح بثلاث قطب كبيرة وغطّاه بشاش وألصقه. غيّر الشاش واللصاق فوق الجروح الأخرى، الواسعة لحماً ممزّقاً.

جولة أخرى من التعذيب بدأت مع البحث مجدّداً بالإبرة عن شريان ليمدّوني بالدم. لكنها أهون، ربما لأني تجاوزت الخط الأحمر من الوجع وباتت يدي شبه مخدّرة، وربما لأن مساعد الطبيب هو مَن قام بها.

غفوت. أيقظوني. انشغلوا عنّي. حاولتُ أن أهرب من الألم بالنوم.

أيقظوني. ضربوني. مرّ وقت طويل على هذه الحال. الوجع يحتلّ جسدي وروحي ممزّقة لأني وقعتُ في الأسر. هذا الألم كان أقوى من ألم الجروح والتعذيب. وما بين هذين الألمين كنتُ أتألم متفاجئاً بأن طبيباً في الخمسينيات من عمره يفعل هذا.

مساءً، أحضروا لي ثياباً عسكرية. أنزلوني عن الطاولة وطلبوا إليّ أن ألبسها. لم أقوَ. ضحكوا، وراحوا هم يلبسونني إيّاها. كدتُ أقع مرات عدّة بين أيديهم وهم يشدّون بها أكثر من اللزوم، كما لو أنهم يعبئونني في كيس. يتحدثون بالعبرية ويضحكون. بعدما انتهوا من إقفال أزرار القميص وضعوا كيساً أسود على رأسي وقالوا إنه سيبقى كذلك دائماً.

صَعُبَ عليهم تكبيل يديّ خلف ظهري. الجروح كبيرة والشاش واللصقات ضخمة كي تشرب الدم النازف، مثل كتل من القماش وقد أُلصقت عشوائياً. اضطرّوا إلى وضع الكلبشة في يديّ إلى الأمام. مشيتُ معهم حافياً مكبّل القدمين، ومرّروني فوق حجارة حادّة حتى أوقفوني. أحدهم رفع الكيس، كان الرجل الأحمر. بدا لي برتقالياً ونحن في غرفة أخرى نظيفة قياساً بغرفة المسلخ تلك التي امتلأت أرضيتها والطاولة بدمائي وبالشاش. فكّرتُ أنه من بولندا.

الحلبة له الآن. لكمات على الوجه والجروح وأسئلة عن المجموعة وتدريبها ومتى كُوِّنت. وبعد هذه الجولة، رفع كُمَّيْ قميصه وسألني عمّا إذا كانت هناك مجموعات أخرى ستلحق بنا. نفيت أي معرفة لي بالأمر، وأساساً يجري الإعداد لهذا بسريّة كاملة. . . ورغم ذلك، أكدّتُ له أن الفدائيين سيواصلون المجيء إلى أرضهم حتى التحرير والنصر. أبدى استغراباً كيف أن درزيّاً يقاتل من أجل فلسطين. أجبته بأن الدروز عرب وفلسطين عربية. غضب. لم يعد ذاك المحقّق الذي يوحي بأنه يسيطر على مجريات الأمور. صار معي في حلبة نزاع نتساوى فيها، هو غاضب وأنا عنيد. ومع ازدياد عنفه شعرتُ بأنني جعلته تحت وطأة العجز عن التحقيق معي وانتزاع أيّ اعتراف. حتى حين كان يوقظني من إغماءاتي المتكرّرة كنتُ أستأنف معه الصراع من حيث توقّف. وإذا سمّيتُ أيام التحقيق، أضع فوق هذا اليوم، الأول، عنوان: يوم الشتائم. شتمني وشتمته وشتمني وشتمته حتى أشعرته بعبث المحاولات والكلام عموماً. غذّيتُ غضبه باليأس. ورفعتُ منسوب الكلام ومستواه إلى الإيمان وفلسطين. بالتأكيد، كانت أسناني أكثر ما يبرز من وجهي في وجهه.

أحبطتّه حتى أمر بإخراجي من الغرفة والكيس على رأسي. جرّوني وعلّقوني

من يديّ المكبّلتين إلى حائط، بالكاد تلامس قدماي الأرض. وأبقوني في هذا الوضع من منتصف الليل حتى الصباح. عرفتُ أنه الصباح من العصافير وأشعّة الشمس. فالحرارة اختلفت نحو الدفء بعد ليلٍ بارد، رغم أن لكمات العابرين منهم كانت تحرّك الدم في عروقي. أما إطفاء السجائر في كفّي فلم يكن يدفئني أبداً.

جاءني جنود ضربوني وشتموا، ثم فكّوني عن الحائط. اصطحبوني إلى غرفة التحقيق. هناك، ألقوا بي على مقعد خشبي طويل، وربطوني به في وضع النائم، وراحوا يضربونني بنربيش على كامل جسمي. نزفت جروحي المفتوحة، فركّزوا على الرأس. كرّروا مراتٍ معدودة أسئلة أمس عمّا إذا كانت مجموعات أخرى ستلحق بنا. قرفص الرجل الأحمر بجانبي، أمسك بشعري ورفع رأسي، أخبرني أنه يعرف بمحاولتي الدخول إلى فلسطين لتنفيذ عملية في بيسان، وأنني سُجنتُ أحد عشر شهراً في الأردن.

لم أُجِب عن أيّ سؤال. التعذيب كافٍ كي أعاند وأغضب وأكره وأخرس كأن لا لسان لي، أو أنه لـ«إطلاق النار» فحسب. ولم أستَعِن أبداً بإيماني وقناعاتي، كانا في مكانٍ ناءٍ في تفكيري وروحي. والإغماء والإرهاق أيضاً كانا كفيلين بألاّ تكتمل أيّ عبارة في رأسي وعلى لساني، إلاّ طلبي الماء لأشرب والشتائم التي أردّها إليهم مع كرهٍ مطمئن.

أعادوني إلى الحائط، وعادوا إلى اللّكم وإطفاء السجائر في كفّي.

بعد ساعات، في اليوم الثاني، حلقوا شعري وتركوا خصلة في مقدمة الرأس.

خمسة أيام استمرّ هذا الروتين غير المملّ، ولا سيما أنني بدأتُ أهلوس. عشتُ مع تخيّلاتي التي استعادت الكثير من ذاكرتي. شاهدتُ وحادثتُ رفاقاً كانوا معي في بيروت. رأيتُ حولي، مرّات عديدة، رفاقي في المجموعة، وناديتهم بأسمائهم، وسألتهم لماذا لا يفكّونني. طلبتُ منهم أن يفعلوا ذلك.

ومراراً حضرت صورُ أبي وأمي وإخوتي. لكني كنتُ أنأى برأسي من تحت هذا الشلال كمَن لا يريد أن يفكر بأمر عاطفي يُضعفه أو يُحزنه.

يداي المربوطتان إلى الأعلى كانتا أكثر ما يعيدني إلى الواقع والأرض التي تلامسها أصابع قدميّ المكبّلين. كنتُ أنتظر بفارغ الصبر أن يأخذوني إلى غرفة التحقيق لأرتاح من هذه الوضعية، ومن الكلبشات التي حفرت جروحاً في معصميّ.

في اليوم الخامس، صرتُ كتلةً زرقاء مثل قطعة حديد في الهواء وتحت الشمس. أدخلوني زنزانة معتمة ورفعوا الكيس عن رأسي. نصف متر مربّع مطليّة بالأحمر وبابها خشبي رمادي. وهناك سطل بلاستيك له غطاء، لقضاء الحاجات البشرية. قطعة الإسفنج العارية الصغيرة المنسوبة خطأً إلى الفراش، وإبريق الماء البلاستيك دفعاني مع سماعي صوت إغلاق الباب إلى الارتماء أرضاً وحمل الإبريق متسائلاً عمّا إذا كان مملوءاً ماءً. للحظة توقّعتُ أن يكون فارغاً ديكوراً ولتعذيبي. شربت.

روّضت العتمة نظري. حدّقتُ في الباب، في أعلاه فتحة لا تتجاوز ستة سنتيمترات عمودياً وعشرة أفقياً مغلقة من الخارج، ومثلها أو أكبر بقليل فتحة أخرى في الأسفل. لم تمر دقيقة حتى غرقت في النوم مكبّل اليدين والقدمين.

أتنفّس بصعوبة. أشعر بأنّني أشد النفس من الرئة، كأنّي أنتزعها هي من مكانها.

حلمت. استعدت تفاصيل العملية كلّها. واستيقظت مراراً مع ضرباتهم على الباب، ولا يتوقفون حتى أُسمعهم صوتي ويتأكدوا من أنني لستُ نائماً.

صباحاً، فتحوا الباب واقترب أحدهم مني ووضع الكيس على رأسي. اصطحبوني في اتجاه غرفة التحقيق. عرفت ذلك خلال الطريق، من الحجارة التي تجرح قدميّ المكبّلتين. رفعوا الكيس. شدّني أحدهم من خصلة الشعر الباقية في مقدمة رأسي، وأجلسني بمرافقة زملائه على المقعد وغادروا. بقي الرجل الأحمر خلف الطاولة. رحتُ أحدّق بصور الأسلحة المعلّقة على الجدران. وبدأ يشتم. مددتُ يديّ المكبّلتين فوق الطاولة وأمسكتُ بمصباح، وبحركةٍ خاطفة ضربته بكل قوّتي وغضبي على رأسه. طارت القلنسوة، وبدأ ينزف. الدم غطّى وجهه ولحيته المصبوغة. نهض وأبعدني عنه، وضغط زرّاً مخفيّاً في جهته من الطاولة. وأثناء تفاديه ضربة ثانية منّي دخل جنود الغرفة وانهالوا عليّ بالضرب، سقطتُ أرضاً ولم أعد أذكر شيئاً.

عندما استيقظتُ في العيادة سحبوني إلى الخارج وربطوني إلى الحائط. أحضروا جنزيراً في طرفيه خشبتان، مثل التي يستعملها لاعبو الكاراتيه وراحوا يضربونني بها ويقلّدون بروس لي وصوته.

أخذوني مجدّداً إلى غرفة العيادة، ليس لمعالجة نوبة الربو والتهاب الرئة، بل

ليلعب الطبيب بجروحي. أدخل أصابعه فيها، «لأعرف ما هو عيار الرصاصة التي أصبناك بها».

تركوني معلّقاً إلى الحائط، مع زيارات متقطّعة تتخلّلها لكماتٍ وإطفاء سجائر.

مساءً، أعادوني إلى غرفة التحقيق.

الرجل الأحمر مضمّداً، لكن كرشه مازال بحجمه الضخم. قال لي:

— «قتلتَ ستة يهود وتريد قتل السابع؟».

فوجئت ولم أُظهر له انزعاجي من ضآلة الرقم. كنتُ أتوقع أكثر.

تابع كلامه:

— «وُلدتَ مجرماً. وأنا سأعلّمك كيف تمدّ يديك عليّ».

أتى بجنود أجلسوني أرضاً وأمسكوا بي. وضع سماعتين في أذني وضغط زرّاً في آلة مثل الراديو. ضجّت أذناي بصفيرٍ عالٍ مركّز كتيارٍ كهربائي. أغمي علي. أيقظوني.

يبدو أن الصفير لم يرقه. أتي بمكبّرات صوت وأرسل في أذني صافرة إنذار، تصاعدت في رأسي حتى أُغمي عليّ مجدّداً.

ربطوني إلى الحائط. الرئة تنبض ألماً، تتحرّك مثل صوص مذبوح. نفسي يضيق.

في اليوم التالي أخذوني إلى غرفة الطبيب، فأعاد مشهد اطمئنانه على الجروح. لكنّه غيّر الشاش واللاصق.

بعد يومين معلّقاً إلى الحائط والكيس على رأسي، مكبّل القدمين، جاءني رجل يتكلّم العربية بطلاقة، لكنه ليس عربيّاً. سألني:

— «كيف يعاملونك يا صديق؟».

لم أُجِبْ.

— «أيضربك أحد؟».

لم أردّ عليه.

قال:

— «أنا مسؤول المعسكر، يحقّ لك أن تشكو لي».

أبقيتُ وجهي، داخل الكيس، إلى جهة الحائط كما لو أنني لا أريد النظر إليه، وسألته ساخراً:

— «ماذا ترى؟».
— «قُل لي!».
— «إذا كنتُ آتياً لتسخر منّي فلا صبرَ لي على ذلك».
— «أتعرف أن جيش الدفاع قصف بيتكم في عبيه ومات أهلك؟ أنا أواسيك يا صديقي».
— «لا أصدقك إلاّ إذا أخذتني لأرى».
بصراحة، لم أستبعد احتمال أن يكون ذلك صحيحاً. حزنتُ بشدّة، لكني لم أشعر بالضعف، بل على العكس انتابتني رغبة في الانتقام.
— «من هنا لن تخرج»، ردّ.
سألته:
— «ما اسمك؟».
— «فريد».
— «اسمع يا فريد، إذا كان ما تقوله صحيحاً فإن ما فعلتُه في نهاريا سيكون مزحة».
تعمَّد إظهار ضحكة مصطنعة، صاخبة، لم يوقفها إلاّ ليقول:
— «تعرف ماذا سنفعل بك؟ تعرف أن هذه الأيام عيد النبي شعيب؟».
— «ما هو عيد النبي شعيب؟».
— «ولوّ؟ عيد الدروز، ٢٥ نيسان مرّ قبل أيام».
— «طيّب».
— «أتعرف ماذا طلب الشيوخ الدروز؟ طلبوا إعدامك، والحكومة الإسرائيلية استجابت لهم، وسوف تُعدَم بعدما نخلص منك هنا».
لم يفاجئني. سكتُّ. بدا أن الكلام بيننا انتهى، أو بالأحرى أوصل إليّ ما يريد قوله. وختم وهو ينسحب:
— «في كل حال، إذا ضربك أحد قل لهم أريد فريد، وأنا أعالج الأمر».
نفسي يضيق. نوبة ربو خانقة هبّت عواصفها قبل مجيء فريد. وجد هذا المرض الذي عاندته طوال عمري حليفاً الآن، الرئة الملتهبة. تآمرا علي. شعرت بأن القفص الصدري يضيق ويضغط إلى الأسفل. حاولت أن أرتفع قليلاً عن الأرض لأتنفّس أفضل. آلمتني الجروح في معصمي داخل الكلبشة. ونجحت في أخذ

نفسٍ. رحت بعده أحاول التنفّس بهدوء ليستقرّ وضعي. لا أريد أن يكتشفوا أمر الربو، فيستغلّوه.

نمت، في تلك الليلة، في الزنزانة ويدايّ مكبّلتان إلى الخلف. العتمة تخنق تنفّسي اللاهث. صباحاً، طرق جنود الباب، وطلبوا إليّ أن أستدير إلى الحائط. فتحوا الباب ودخلوا. فك أحدهم الكلبشة ووضعها في يدي إلى الأمام. تركوا صحناً بلاستيكيّاً (لمرّة واحدة) فيه حبّتا زيتون وقطعة خبز عفنة وما لا يتجاوز حجم الملعقة من المربّى.

بعد قليل حدّثني جندي عبر الباب. طلب إليّ أن أستدير نحو الحائط وأضع الكيس على رأسي. وبعدما تأكّد عبر الطاقة الصغيرة، أنني نفّذت، فتح الباب وكبّل يديّ إلى الخلف. فمنذ ضربتُ الرجل الأحمر صاروا، إن لم أكن معلقاً إلى الحائط أو أثناء الأكل في الزنزانة، يكبّلون يديّ إلى الخلف.

الطريق نفسها، فوق الحجارة، إلى غرفة التحقيق.

الرجل الأحمر مبتسماً:

— «أنا أبوزكن لأن لحيتي حمراء»، قالها كأنه يمزح ويعرّف صديقه بنفسه.

وانهمرَ الحبّ فجأة في تلك الغرفة. أكمل المسلسل رجل أربعيني سمين متوسّط الطول وأصلع مع شيب ما بقي من شعر في مقدّمة رأسه، يقف بجانب أبوزكن. سألني:

— «أتعرف مَن أنا؟».

أحسستُ من صيغة سؤاله بأنه فريد. ففي لقائنا السابق كرّر عبارة «أتعرف؟» مرّات. وقبل أن أجيب بنعم أو لا، هزّ رأسه وفتح عينيه:

— «فريد».

بدا كأنه ينتظر مني أن أنطق باسمه، مثل أبٍ يعلّم ابنه النطق.

طلب إليّ أبوزكن أن أجلس:

— «لن نضربك اليوم».

تركته يحدّق بي ورحتُ أنظر مبتسماً إلى الطاولة. لا مصباح ولا هاتف، رغم أن يديّ مربوطتان إلى الخلف. زاد ذلك من فرحتي المرسومة على وجهي ولا سيما في عينيّ. بدا ذلك تذكيراً فجّاً منّي بالمصباح وبضربي له.

تخيّلته يتفقّد بيده الجرح في جبهته.

ما إن أكمل أبوزكن عبارته: «نريد أن نتفاهم معك»، حتى اقترب فريد مني ووقف بجانبي، ثم تراجع قليلاً هرباً من الرائحة التي تفوح منّي. وتسلّم الحديث بلهجة الناصح المشفق:

— «اسمع يا سمير، أنت شاب صغير تعذّبتَ بما فيه الكفاية، وقتلتَ منّا ودمّرنا أهلك، وأحرقنا الدنيا. الآن، لا نريد منك إلاّ أمراً واحداً، هو أن تطلّ على التلفزيون، وهناك صحافيّون يوجّهون إليك بعض الأسئلة التي نعرفها نحن، ونحن نُفهمك الأجوبة. إذا وافقت ينتهي التعذيب والسبّ».

مشهد مسرحي نفّرني من البداية، وهزأتُ به في قرارة نفسي.

استفسرتُ بلهجة المهتم، لكن من دون تمثيل، دورَ الموافق:

— «ما هي الأسئلة؟».

— «يسألونك عن تنظيمك فتحكي أنه غرّر بك ووعدك بأن يساعد أسرتك ماديّاً».

— «لكن الوضع المادي لأسرتي لا يحتاج إلى مساعدة».

— «لا تناقش».

توقّف عن الكلام للحظة ونظره إلى الأرض. ورغم ملامح تأثّره برائحتي وقف بجانبي كأنه ليخلق جوّ نزهة على الشاطئ. استأنف الحديث:

— «قل إنّهم طلبوا منك قتل الأبرياء والأطفال، وإنك نادم على ما فعلت وتطلب الرحمة من دولة إسرائيل. وسيسألونك عن قادتك، فتقول إنهم يعيشون مرفّهين في الفنادق ويملكون أفخر السيارات ويتعاطون المخدّرات وكل يوم لهم بنات جدد. وسيسألونك عن أنور السادات واتفاقيات كامب ديفيد، فتقول إنه شجاع ويريد مصلحة العرب والفلسطينيين، وتناشده أن ينقذ الشباب الصغار أمثالك الذين يُرسَلون إلى الموت لتحصل قياداتهم على الأموال من الدول العربية. وسيسألونك عن سعد حداد. تناشده أن يتدخل للتخفيف عنك لأنك نادم. وتطلب من اللبنانيين تأييده لأنه الأكثر حرصاً على حماية لبنان وشعبه من عبث الفلسطينيين».

وبأسلوب المطمئِن على أن المهمّة سهلة، كأنني قلقٌ من صعوبة أدائها التمثيلي، همس لي:

— «لا تخف، سنضع أمامك ورقة صغيرة مكتوبة فيها الإجابات، تساعدك».

وسألني:

— «شو؟».

قلت:

— «أطلّ على التلفزيون، ولكن أحكي ما أريده».

ردّ:

— «شو بدّك تحكي؟».

نظرتُ إلى أبوزكن وقلت:

— «ما قلته لك في اليوم الأوّل».

أخذ فريد مسافة مني لا أعرف إذا كانت تعبرها رائحتي، وسألني مثل أستاذ في مدرسة:

— «ألا تريد أن تلتزم بما نقوله لك؟».

— «لا».

— «لا تريد أن تصبح آدميّاً؟».

— «مَن قال لك إنني لستُ آدميّاً؟».

اقترب مني فريد، سحب من علبة السجائر واحدة وسألني:

— «تدخّن؟».

— «لا».

— «نحضر لك ما تشربه؟». ومشى نحو الطاولة وضغط على الزرّ الذي استعمله أبوزكن في المرّة الماضية. مجدّداً، نظرت إلى أبوزكن وابتسمت.

أحضر جندي عصيراً في أكواب بلاستيك.

سألني فريد:

— «نفكّ يديك لتشرب؟».

— «لا أريد أن أشرب».

ردّ بمظهر اللين:

— «لا تريد أن تأخذ وتعطي معنا! سنتركك ساعة، فكّر فيها، وإذا كنتَ إيجابياً فسنكون كما وعدناك. أما إذا رفضت...».

وسكت، لا يريد أن ينطق بتهديد كي لا يقطع شعرة معاوية، لكنه يرسله واضحاً.

أخذوني إلى الزنزانة. رفعوا الكيس عن رأسي.

ساعة هادئة. جعلتها كذلك لأعيد ترتيب جبهتي. لم أفكر في عرضهم ولا في ردّة فعلهم وما سيفعلونه بي ومتى أعلن لهم رفضي عرضهم. لا يهمّني. ما يهمّني هو ألاّ أكون سلاحاً في حربهم الإعلامية هذه. لستُ مَن يفعل ذلك. فكّرتُ مليّاً في هذا.

عندما أعدتُ أمام فريد الموقف الذي كرّرتُه مراراً في الزنزانة، أظهر مفاجأته، وأعاد عليّ السؤال:

— «لا تريد أن تغيّر موقفك؟».

— «لا».

— «أنت عنيد ولا ينفع معك إلاّ العصا».

عندها لم يتردّد في استدعاء الجنود، فدخل عدد منهم الغرفة وراحوا يشدّونني من خصلة شعري ويضربونني. تذكّرت تمثيلهم أمام الكاميرات بجثّة الشهيدة دلال المغربي. ربطوني إلى المقعد الطويل، واستأنفوا جَلْدي بالنربيش.

فكّوني عن المقعد، ووضعوا الكيس على رأسي، وأبدلوا ربط يديّ من الخلف إلى الأمام. قلتُ في نفسي جاء دور تعليقي إلى الحائط. وهذا ما كان. استأنف الجنود ضربي وإطفاء السجائر في كفّي.

بعد ساعات مرّت طويلة، أخذوني إلى غرفة الطبيب. وسارع هذا إلى نزع الشاش واللاصق عن الجروح. وفريد يحدّثه بالعربية لأفهم أنا:

— «لا تعمل له شيئاً. اتركه يموت».

وسألني:

— «نعطيك دواءً لتموت؟».

أراد الإيحاء بأن الموت أفضل من وضعي وممّا سيفعلونه بي. لم أُجِب.

أعادوني عارياً وبلا شاش ولاصق فوق الجروح إلى الحائط، علّقوني نحو ساعة. الذباب أيضاً انضمَّ إلى الجنود في نكء جروحي والعبث بها.

بعدها، جاء فريد، بقي بعيداً نحو خطوتين مني تجنّباً للرائحة. أخبرني أنهم سيعيدونني إلى العيادة ثم أُترَك لليلة واحدة أفكّر فيها بعرضهم:

— «وغداً نعود».

أرغبُ في النوم. لم أسمعه، ولم أكترث لما فعلوه في العيادة كما يسمّون غرفة التعذيب، المسلخ. أريد أن أنام لأستعيد نشاطي.

صباحاً، وجدتُ شخصاً ثالثاً بنيته رياضيّة مع أبو زكن وفريد، ينتظرونني بكامل استعدادهم، وأنا كذلك. سألني الثالث:

— «أتعرف مَن أنا؟». وأضاف من دون أن أبدي أيّ تعبير كأنه شريط كاسيت يعمل وحده:

— «أنا الجنجي، ألم يحكِ لك المخرّبون عني؟ اسألهم عن الجنجي. لا أحد من القبضايات مرّ من تحت يدي وبقي قبضاي».

وأكمل فريد الشوط:

— «سنسلّمك إلى الجنجي، أنت لا تفهم إلاّ لغته. وعندما تقتنع بعرضنا لك، قل له وهو يخبرنا».

أتابع النظر إلى الجنجي، أنتظِر أن تُطلق صافرة البداية وتبدأ المعركة.

غادر فريد، وبقي الجنجي وأبوزكن وعدد من الجنود.

بدأ الجنجي بلكمة قويّة على وجهي. وقعتُ أرضاً. يداي مربوطتان إلى الخلف. رفعوني من خصلة شعري ولكمني الجنجي مجدداً. وكلما وقعتُ رفعوني ولكمني الجنجي. عادوا إلى مكبرات الصوت وتلك الصافرة التي لا تتوقف. أُغمي عليّ مرّات، وأيقظوني بالماء وكرّروا الصافرة.

وضعوا الكيس الأسود على رأسي. ربطوا يديّ إلى الأمام ورفعوهما. جرّوني لأقف في مواجهة حائط. طلبوا مني أن ألامسه بأصابع كفّي. لم أعرف أنه لوحٌ كهربائيّ يوصلون إليه التيار ويجذب كفّي لتلتصقا به. ومتى أُفلتت يداي أقع أرضاً. كرّروا هذا مرّات عدّة.

بين جولة كهربائيّة وأخرى كانوا يسيّرونني من دون هدف إلى أن أفقد الإحساس بالمكان. اشتغلوا بي لساعات. لم يهدأوا. يرتاحون عندما أنزف، إذ يرسلونني إلى العيادة. هناك يضعون لي دماً ولا يتركونني أغفو. ورغم ذلك كنتُ أستريح في العيادة.

ربطوني إلى الحائط.

وفي اليوم التالي أخذوني إلى غرفة التحقيق، لم يكن الجنجي هناك. وجدتُ أبوزكن وفريد الذي وعدني بالندم. وأردف:

– «سأريك أمراً يُفهمك ما معنى أن تنفّذ ما قلناه لك وتوافق على اقتراحنا».

بعدما مشيتُ معهم مكبّل القدمين ويداي إلى الخلف، أوقفوني ورفعوا الكيس عن رأسي. واجهتُ باب زنزانة. فتحوا الطاقة في أعلاه. أطلَّ رجلٌ يحمل سيجارة متوسط الطول ولحيته نابتة قليلاً. قال لي:

– «أنا محمد عفيفي. أرسلتني فتح في عملية. ضَحِكَ عليّ أبو جهاد الوزير وتركتُ أهلي، وها هو ومَنْ معه في الخارج مبسوطون. كلّهم تجار مخدّرات. فيا أخ، أنا مثلك تعذّبتُ في البداية، ولكن بعدها اهتمّ بي الأستاذ فريد. وها أنا في زنزانة واسعة ولديّ سرير. أطللتُ على التلفزيون وحكيت الحقيقة. الحياة لا تستاهل، فاستجب للأستاذ فريد».

لم أنطق بكلمة، ولم أُفاجأ. المشهد سخيف ولا يقنع طفلاً. حتى عندما دعاني إلى أن أرى ما حلّ بجسدي، لم أُشِحْ نظري عنه. كنتُ أحدّق به وأعبّر له عن عدم تصديقي ما يتفوّه به واحتقاري له وإشفاقي عليه.

وجدها فريد فرصة، فأرسل جندياً لإحضار مرآة كبيرة. حملها في مواجهتي. لم أعرف نفسي. عيناي منتفختان ووجهي أزرق متورّم تغطّيه الجروح والتقرّحات كأنني نجوت من مخالب حيوان مفترس.

سألني فريد بأسلوب يوحي بأنّني عذّبتُ نفسي بنفسي وأنال عقاب تعنّتي ورفضي:

– «أرأيت ما أنت عليه؟».

– «نعم»، خرجت منّي بعفوية، لكنّي لم أقصد ما عناه هو. فكّرتُ أنهم مَن فعل هذا، لأنني أقاوم. وقلتُ لنفسي إن هذا الوجه الذي فعلوا به ما فعلوه لن يطلّ على الشاشة ويقول كلاماً غير الحقيقة وقناعاتي.

سمعتُ فريد ينصحني بأن أفكّر، وهو يشير إلى الجندي بإعادة الكيس فوق رأسي. لم أشعر بالحجارة تحت قدميّ في طريق العودة إلى غرفة التحقيق. دستُ عليها لكنني تذكّرت ذلك في ما بعد، ولم أحسّ بها في حينه. تخيّلتُ أنني أبصق وأنا أستعيد وجه ذاك الرجل.

– «أتوافق على ما قلناه لك، أم لا؟»، سألني فريد.

أجبته جازماً مع تحريك رأسي يمنةً ويسرى كأنْ لأُريه ما حلّ به:

– «كما قلتُ لك سابقاً!».

— «أنا سحبتُ يدي منك. وهم سيفعلون ما يريدون بك».

قلت في نفسي:

«يئسوا، أو هربوا من رائحتي».

جولة جديدة من التحقيق، ومحطّات التعذيب ذاتها. روتين مملّ، وإن بدأ بمفاجأة محاولتهم إلصاق تهمة قتل الطفلة بي. فبركوا قصّة أنني ضربتها بالمسدّس وسحلت رأسها على الصخور. يريدونني أن أتبنّى ذلك وأعترف به رسمياً، بل سعوا إلى أن أصدّقه. وأنا أجيب:

— «أنتم قتلتموها برصاصكم وقذائفكم».

لا جملة أخرى على لساني طوال عشرة أيام مع الطبيب وأبوزكن والجنود.

حتى قال لي أبوزكن:

— «ربّما صديقك قتلها!».

هزئتُ من ذلك. وتأكّد لي شعوري بأنهم يريدون إلقاء هذا القميص الوسخ على أحدنا، أنا أو أبو أسعد. وبالتأكيد، يستعملون الأسلوب ذاته مع أبو أسعد. رفضت. كما دافعت عن نفسي، كذلك فعلت مع أبو أسعد والحقيقة. لا أفكّر في رمي التهمة عن نفسي، على أبو أسعد. ولا أريد لهم أن يفتنوا بيني وبين أبو أسعد، ونتبادل الاتهامات، وكلٌّ يرمي على الآخر ما لم يفعله، يقيناً. وبقيتُ على موقفي هذا بعدما قال لي أبوزكن إن أبو أسعد اعترف بأنني مَن قتل الطفلة.

صباح اليوم العاشر، كرّروا السيناريو ذاته. أصرّوا على أنني قتلتُ الطفلة وباعتراف أبو أسعد. وأنا أعدتُ ما قلته سابقاً.

جاؤوا بأبو أسعد إلى غرفة التحقيق مكبّل القدمين واليدين إلى الإمام. لا يعرف أنني موجود في الغرفة خلف الستارة، وأنني حيّ أصلاً. كانت المرة الأولى التي أسمع فيها صوته منذ العملية.

سألوه:

— «مَن قتل الطفلة؟».

قال:

— «سمير».

– «كيف؟».

– «بالمسدّس على رأسها»، قال وأخرجوه.

لا أعرف إذا كان عليّ أن أتكلّم معه حين كان يكذب ويدلي بما أملوه عليه. لم أشأ إحراجه وتصعيب الاعتراف في وجهه. شعرتُ بأنني وحدي في الجبهة، ولم أفكّر في تغيير المعادلة. المهم، الدفاع ورفض هذه الكذبة، ولا يهمّ كلامه الذي أدلى به تحت التعذيب وظناً منه أنني ميت. رصاص طائش لا يقدّم ولا يؤخّر.

– «شو؟»، سألني أبو زكن.

– «كذب»، أجبتُ دون تردّد.

– «اعترف أمامك».

– «أنتم عذّبتموه وأجبرتموه على ذلك».

من غرفة التحقيق إلى الحائط، ومنه إلى العيادة، ثم إلى التحقيق. طلبَ إليّ أبو زكن أن أكتب إفادة بأنّني لم أقتل الطفلة. كتبتُ. غادر، وعاد حاملاً ورقة مكتوباً عليها بالعربية. عرضها أمامي وقال:

– «هذه إفادتك بأنك قتلت الطفلة وسنعتمدها في المحكمة».

رددت:

– «لم أكتبها».

– «مثل خطّك».

تقدّمتُ قليلاً لأنظر إليها، موحياً أنني أدقّق في ما إذا كان الخط يشبه خطي. أردتُ أن أسخر منه:

– «كلا»، قلتُ كمَن يقول لشخص ما لا أريد أن ألعب معك لأنك مملّ واللعب معك مضجر.

أقفلوا الموضوع.

جولة تعذيب أخرى بلا تحقيق. يأتون صباحاً، يقرعون باب الزنزانة، يطلبون مني أن أستدير إلى الحائط وظهري إلى الباب، يدخلون، يضعون الكيس على

رأسي، يفكّون يديّ من الخلف ويربطونهما إلى الأمام، يضربونني، ويخرجونني ليعلّقوني إلى الحائط. ومساءً يعيدونني إلى الزنزانة. يأخذون الإبريق البلاستيك الأخضر، يضعونه أمام كلب ليشرب منه، ويعيدونه إلى الزنزانة. لا خيار أمامي.

الجروح تلتهب ورائحتها تختلط مع رائحة العرق. لم آلفها، كنت أنساها أحياناً.

أسبوعان على هذه الحال. وفجأةً، أتوا إلى الزنزانة، قاموا بالإجراءات العادية، وأخذوني إلى غرفة التحقيق. خمسة محققين ومعهم أبوزكن وفريد.

قال لي أبوزكن:

— «اجلس». وأشار إليّ بيده أن أبقى بعيداً فلا تخترق رائحتي أنوف الضيوف.

جلسوا جميعاً. حدستُ أمراً خطيراً من هذه الجَمْعة، ولم يَطُل انتظاري. بادرني أبوزكن:

— «ما قصّة الطائرة التي تريد أن تفجّرها فوق إسرائيل؟».

ذُهلت، بل صُعِقت، وبدا عليّ الارتباك. لم أستطع منع ذلك. ازداد ارتباكي مع انشغالي بالتفكير كيف عرفوا، ولا يعرف بأمرها إلاّ أبو العبّاس وأنا ورفيق واحد في بيروت كان سيرافقني وشاب في إحدى الدول الأوروبية وآخر في فنزويلا ووسيط بين هذا وأبو العبّاس. وأنا لا أعرف أيّاً من هؤلاء الرفاق، وأعتقد أن أيّاً منهم لا يعرف الآخرين. وعندما نوقش أمرها في اللجنة المركزية للجبهة أُلغيت وتقرّر تركيز العمل في اتجاه الأراضي المحتلة، فلسطين. هذا هو افتراقنا عن الفصائل الأخرى التي تعمل في الخارج. ومبرّرنا أننا جبهة تحرير فلسطين لا استهداف المصالح الإسرائيليّة والغربيّة في العالم.

رغم ذلك نفيتُ أي علم لي بالأمر. نفيتُ وأنا أشعر بأن الصدمة واضحة عليّ. وزادهم هذا إلحاحاً. كرّروا أنهم متأكدون. والضباط يحدّقون بي.

سألت:

— «أيّ طائرة؟».

رد فريد:

— «الطائرة من فنزويلا وجوازات سفر مزوّرة وتأتون عبر أوروبا إلى إسرائيل وتفجّرونها فوق تل أبيب».

— «ليس صحيحاً».

قال فريد:

— «صحيح. وأنت في الوحدة التاسعة بالجبهة. وقد اختاروك وأعدّوا لأوّل عملية لك لأنها تناسبك. والمتفجرات كنتم ستتسلّمونها في مطار في أوروبا عبارة عن حزام خفيف».

معلومات دقيقة. صدمني وصولها إليهم. حاولتُ أن أؤدّي دور المفاجأ بقصّة مختَرَعة. بدوت ممثلاً رديئاً.

أصرّوا أكثر وعاندتُ وأنا شارد أحاول أن أتذكّر وأحلّل مَن عرف بالعملية، مَن يمكن أن يكون قد أخبرهم. لم أفلح.

نهرني أبوزكن وسألني:

— «أيّ دولة أوروبية؟ مَن هما الشابان اللذان كانا ينتظرانك في أوروبا وفنزويلا؟».

— «لا أعرف شيئاً عمّا تقولونه».

أمر أبوزكن بإخراجي. نفذوا الحركة ذاتها في نقل الكلبشة حول يديّ من الخلف إلى الأمام، وأخذوني مُكيّس الرأس إلى الحائط، ربطوني إليه. ما زلتُ مشغولاً بالتفكير كيف عرفوا.

ربع ساعة تقريباً، أعادوني بعدها إلى التحقيق.

قال فريد:

— «ما قلناه صحيح، وسنريك أنه صحيح».

أضاف أبوزكن:

— «ما قصّة مطعم الشموع؟».

— «نعم».

— «الآن صرت تحكي صح»، قال فريد.

— «هذا مطعم»، علّقتُ بعفويّة مَن لا يعرف أكثر. وفي الحقيقة، اكتفيتُ بهذا لأعِيد فريد إلى المربّع الأوّل، ليس بغاية النفي وحسب، بل لينطق هو بما لديه. وحصل، قال كمَن يكشف ورقة ممّا لديه على طاولة اللعب:

— «اجتمعت أنت وأبو العبّاس وآخرين في مطعم الشموع لترتيب هذه العمليّة».

فهمت. المعلومات التي لديهم لا تتجاوز ما قالوه. لا يعرفون أكثر من خبريّة أن أبو العباس يخطّط لعمليّة من هذا النوع. فلا مرّة اجتمعت وأبو العبّاس لهذا الغرض إلاّ في مقر القيادة. ويسمّون مطعم الشموع الآن لكونه قريباً جداً من مقر الجبهة في الفاكهاني، والجميع يعرف أنّنا نتردّد عليه.

بردت أعصابي. وهم أبدوا ضيقاً من عنادي ونفيي. تململ الضيوف في مقاعدهم. اقترب فريد منّي كأن لينهي أمراً. حدّق بي، يفكّر، ربّما في ما سيفعله بي ومعي.

هزّ رأسه:

— «أنت تكذب!»، بلهجة جازمة.

— «كلا، لا أكذب. ما تقوله كذبٌ لا أساس له».

— «كلا، له أساس»، ردّ فريد وأعلن أنه سينسحب ويتركني لأبوزكن. غادر مع الضباط الخمسة. ما زال مصرّاً على أداء دور الطيّب الذي لا يعذبني ولا يعرف بأمر تعذيبي.

أخرجوني مكيّس الرأس من غرفة التحقيق. أضافوا، في تلك اللحظة، إلى قائمة أساليب التعذيب طريقة جديدة. يمسك بذراعي جنديان ويمشيان، تارةً يمرّرانني مكبّل القدمين حافياً على عشب برّي، وتارة ينزلانني في حفرة مملوءة حجارة، ثم يسرعان ويدفعانني إلى حائط. يصطدم به رأسي وجسدي، وإذا لم أرتدّ، أسقط أرضاً مثل كيس مملوء حصى أو إسمنتاً.

ربطوني إلى الحائط. ضربوني. وليوم كامل راح مَن يدخن ولا يدخن في المعسكر يطفئ السجائر في كفّي، وبهدوء وبطء كاملين. الجروح صارت حفراً. التهبت.

جاء فريد:

— «شو، وجد الشباب منافض!».

لم أردّ.

وكرّر سؤاله عن الطائرة ومطعم الشموع.

تواصل هذا المسلسل عشرة أيام. يأخذونني فيها إلى الزنزانة ويتركونني أنام ساعتين فقط، ويعيدونني إلى باحة الركض والارتطام بالحائط وغرفتَي التعذيب والتحقيق. . . وإلى الحائط.

أُنهكتْ. وبقيتُ أنفي:

– «كذب، كذب». كرّرتها آلاف المرات حتى بيني وبين نفسي. اعتمدتُ هذه التقنية في مواجهة التحقيق، وقد تعلّمتها من تجربتي في السجن بالأردن. هناك هَمَسَ لي معتقلون بعِبرة أنه إذا فتحتَ باباً لا يُقفَل، بل يُفضي إلى أبواب أخرى لا تُقفَل أيضاً.

اليوم ٦ حزيران (يونيو). ما زلتُ أعدّ الأيام التي أمضيها هنا. تاريخي لم يبدأ اليوم، أو قبل شهر ونصف. وجروحي لم تبدأ مع الإصابات. تاريخها منذ أخبرني أبي أن الإسرائيليين احتلّوا فلسطين وطردوا شعبها. كنت، في العاشرة من عمري، معه في السيّارة ببيروت، ومررنا بجانب مخيّم صبرا. صدمتني البيوت التنك هناك، لا أراها بهذا الوضوح حين أنظر إلى بيروت من بيتنا في عبيه. سألته عنها وعمّن يسكن فيها، قال إنّهم الفلسطينيّون الذي شرّدتهم إسرائيل. مذّاك صرتُ مثل طفل وُلد بلا أسرة ولا عائلة. أبي صار مثل صديقي، هو طيّب إلى درجة الصداقة مع ابنه المتمرّد. وأنا لم أصدّق أن المدارس أقفلت بسبب الحرب حتى أسرعت إلى حمل السلاح. كنت مستعجلاً لأغدو فدائيّاً لا جنديّاً في أي جيش عربي. هجرتُ الكتب والدفاتر التي كنتُ أرسم عليها خريطة فلسطين وعلمها، وتحتهما اسم «الشهيد سمير القنطار». خطّي كان جميلاً وأُنمّقه أكثر حين أخطّ تلك العبارة الفخمة الساحرة. مع غيرها، كنتُ أكتب بسرعة. أفسدَتْ خطي مُدرّسة اللغة العربية التي كرهتْ حجمه الكبير. عنّفتني مراتٍ ومرات حتى صرتُ أكتب من دون اكتراث بجماليّة أو وضوح.

لم أكره المدرسة والأساتذة، كنتُ أحبّ مَن يحدّثوننا بالسياسة في الصفّ. وربّما هذا ما أبقاني حتى الصف الأوّل المتوسط. معظم الأساتذة، ولا سيما من الذكور، كانوا منخرطين في الأحزاب اليسارية اللبنانية. ويردّدون أمامنا عبارات ضخمة فضفاضة مثل الماركسية والطبقات والثورات والإمبرياليّة والأوطان والصهيونية والاحتلال. عبارات تقيم في رأسي وتحفر في قلبي طابعاً واحداً: فلسطين.

جميلة طاولتي في الصف وقد جعلتها شجرتي التي حفرت عليها شعاراتٍ وبنادقَ.

جسدي جرحٌ واحد، لا يلتئم. التعذيب لا ينفك يعيده إلى البداية ويرهق جسمي وقدرته على المقاومة والتجدّد.

الربو والرئة الملتهبة يخنقانني.

جاء الجنود، كالعادة منذ خمسة عشر يوماً، طرقوا باب الزنزانة. نهضتُ واستدرتُ إلى الحائط، نفّذ الجنود بسرعة الإجراءات اليومية. الملل متبادل. والكرهُ يتضاعف بيننا مع احتكاكهم بي، في تصرّفاتهم وفي سلوكي. كانت هذه أكثر لحظة اطمأننتُ فيها أنني سأخرج من السجن وأعود إلى بلدي وعملي. لم أقنع نفسي بهذا. أمرٌ ما في داخلي، سرٌّ، يقينٌ، خاطبني. فكّرتُ في الأيام الماضية بهذا، لكن اليوم أتى من مكان غير لساني المرّ.

أخذوني إلى غرفة التحقيق. صرتُ أعرف الطريق. بقي فريد خلف الطاولة ومعه جنديان أو ثلاثة. بادرني بالسؤال:

— «احزر إلى أين ستذهب اليوم؟».

— «أنت قل!».

— «لا، أنت قل»، شبه ممازح.

قلت ضاحكاً:

— «إلى البيت؟». لم أحسَب أن الأمر سيكون بهذه السهولة والسرعة. كانت مجرّد سخرية لم يستجب لها:

— «لا يا حبيبي، إلى البيت لن ترجع أبداً».

هززتُ كتفي.

— «ستذهب إلى الصليب الأحمر. العالم وأهلك يحسَبونك ميّتاً، ونحن بمبادرة إنسانية سنأخذك إلى الصليب الأحمر».

مبادرة إنسانية قال! حدّثتُ نفسي. فالاتفاقية بين الصليب الأحمر وإسرائيل هي أن يلتقي الأسيرُ وفد الصليب بعد أربعة عشر يوماً لا بعد شهر ونصف، ومع تعذيب. ورغم أنني أردتُ أن أدحض كذبته بأن العالم وأهلي يحسبون أنني ميت، لم أسأله ماذا كان يفعل الصحافيّون على الشاطئ عندما صوّروني، أهم منظر وحسب في دولتهم الديموقراطية هذه؟ أحجمتُ عن الجدال معه. فهو في هذه اللحظة يحاول ممارسة عنجهيّة ويعرف أنه خسر معي، ولم يعد تعذيبهم لي للتحقيق

بل لأكره مبادئي، ولم أفعل. لن اتخلّى عن دوري. تركته يفكّر كما يشاء. لعلّه أحسّ بما يدور في خاطري، وقد بات يعرفني. قال محاولاً أن يؤدّي دور مَن يملي شروطاً:

— «لكن، إذا فتحتَ فمك بكلمة وحكيتَ عمّا جرى معك هنا تكون آخر مرة تلتقي وفد الصليب الأحمر، ولن نعيدك لتراه كل أسبوعين».

لم أرد عليه.

— «أحذّرك»، ورفع سبابته في وجهي.

أخذوني، في المبنى ذاته، ورفعوا الكيس عن رأسي في زاوية تشبه الممر المغلق. هناك يوجد ما يمكن اعتباره، في ظروفي، حمّاماً. هذه أوّل مرّة أرى فيها حمّاماً ومياهاً، غير الإبريق الذي أتقاسمه مع الكلب. أظهرتُ فرحتي. لا يمكن أن يغيظوني ويتراجعوا عن قرارهم بالسماح لي بالاستحمام، فاليوم سأقابل وفد الصليب الأحمر، ولا يمكن أن يتركوني أقابله بهذه الحال المزرية ومع هذه الرائحة القاتلة.

حلقوا خصلة الشعر المتبقية في مقدمة رأسي.

فكّوا الكلبشة الحديد التي تربط يديّ إلى الخلف. ولم يتركوني أظن أنني سأستحمّ من دونها، أقفلوها على يدي إلى الأمام. أوقفوني تحت القسطل مباشرة وفتحوا المياه. نزلت ساخنة كسكين على رأسي. خرجتُ بسرعة من تحتها، دفعوني إليها. لم يتوقفوا عن الضحك. صرتُ أنا وحدي أقف تحت المياه الساخنة قليلاً، وأبتعد عنها قليلاً، والطقس حار. سأستحمّ يعني سأستحمّ. حتى ولو سخّنوا المياه عمداً لتحرقني.

انتهيتُ ولم أستعمل صابوناً أو شامبو، لم يعطوني أيّاً منهما أصلاً. حسبتُ أن هذا أفضل للجروح وأقل وطأة. أحسستُ أن الجروح لانت قليلاً.

أعطوني بدلة عسكرية من بالة الجيش الإسرائيلي. همّني أنها نظيفة.

أعادوني إلى الزنزانة ويداي مكبّلتان إلى الخلف.

يوم نظيفٌ في تاريخي، ٦ حزيران/ يونيو.

بعد نصف ساعة، فتحوا الباب وأوثقوا يديّ إلى الأمام، واصطحبوني معهم. رفعوا الكيس عن رأسي في غرفة معتمة. رأيتُ عناصرَ من الشرطة العسكرية. تولّى هؤلاء وضع كلبشتين جديدتين في قدميّ ويداي إلى الأمام، بعدما فكّ القديمتين

جنود المعسكر. وربط شرطيٌ عصبةً على عينيّ. ووضعوا كيساً على رأسي. كيس جديد رائحته كريهة. زاد الكيس والرائحة، من تعثّر تنفّسي.

مشّوني خطوات معدودة، ليعودوا ويصطحبوني في اتجاه باب حديد سمعتُ صريرَ فتحه. أدخلوني في صندوق سيارة، ثم حشروني داخل الصندوق في قفصٍ لا يمكنني أن أقف فيه أو أمد قدمي. وجاؤوا بأسير وزجّوه معي. خمّنتُ أنه أبو أسعد. لم أحكِ معه، وهو لم يفعل. انطلقنا وبدأ الجنديان الموجودان معنا في الصندوق يمد كلّ منهما عصا عبر القفص ويضربان بهما. شتمناهما، فعرف كلٌّ منّا الآخر. تبادلنا الأسئلة كلٌّ عن صحّة الآخر وأخباره. وردّدنا على ضرب الجنديين لنا بالشتائم. لو كانت الظروف أفضل لكنّا ضحكنا.

حميَ داخل السيارة، وخصوصاً أرضها الحديد المضلّعة. صارت مثل الفرن.

رحلة ساعتين، لم نتوقّف، أنا وأبو أسعد، عن التقلّب فوق الصفيح الساخن.

أوقفونا إلى حائط. رفعوا الكيس عن رأسي وفكّوا العصبة. تسليم وتسلُّم من الشرطة العسكرية التابعة للجيش إلى حرّاس السجن. وجدتُ نفسي في ممرّ على جانبيه تصطفّ زنازين. وهناك أشخاص بثياب بنيّة تشبه ملابس عمال الميكانيك، يتحرّكون حولنا بلا أغلال. أخذوني إلى زاوية، تحت درج، وأعطاني شرطي من حرس السجن ثياباً بنيّة تشبه التي يرتديها هؤلاء. عرفت أنّهم سجناء.

قال الشرطي:

– «البسها وابقَ هنا، لا تتحرّك»، وغادر.

سمعتُ أحدهم يصرخ:

– «يا أخ، يا أخ!».

انتبهتُ إلى أنه يناديني. أحدهم يطلّ من شباك زنزانة. سألني:

– «من أين أنت؟».

– «من لبنان».

– «كيف وأين أمسكوا بك؟».

– «في نهاريا».

– «أنتم نفّذتم عملية نهاريا البحرية؟ الله يحيّيكم يا أبطال!».

فوجئتُ. التفتُّ حولي خجِلاً نوعاً ما من أن يسمعه السجناء الآخرون في الزنازين.

سألته:

— «مَن أنت؟».

— «أنا من هنا، من غزّة، معتقل. هنا سجن غزة التابع للاستخبارات الإسرائيلية. هذا قسم للتحقيق».

— «هنا غزّة!»، قلت متفاجئاً. للأماكن في فلسطين أسماء، حتى المعسكر الذي أُعذّب فيه، لكنّي لا أعرفه.

تمنّيتُ أن أبقى هنا، ولا أُرجع إلى المعسكر. وبعفويّة واطمئنان لا يخفيان الرغبة، سألته:

— «نحن، يتركوننا هنا؟».

نفى أيّ علم له. وعرض عليّ سيجارة من اثنتين معه:

— «اطلب من السجّان أن يشعل لي ولك؟».

— «لا أدخّن».

أخذني شرطي بصمت إلى زنزانة وأقفل الباب عليّ وحدي. فرشة! ارتميتُ فوقها، ورحتُ أتنشّق الهواء الداخل من الشباك الصغير، في أعلى الحائط. قدماي ممدودتان. لم أصدّق. كدتُ أغفو. ولم يتوقّف النعيم، أغدقوا عليّ بصحن فيه سمكة صغيرة وقليل من البطاطا المسلوقة... وكوب ماء. رائع. يريدون أن يغذّوني ويسمّنوني قبل أن ألتقي وفد الصليب الأحمر بدقائق.

تمنّيتُ مجدداً أن يبقوني هنا.

تركوني ساعة حرّاً بلا كلبشات.

مرّرني الشرطي بعدها بجانب مطبخ. رائحة طعام ذكّرتني بمطابخ مقار الجبهة ومعسكراتها. ثم عبر ساحة، وأنا آنسُ بالمساجين الذين أراهم حولي.

أدخلني غرفة مكشوفة للخارج عبر الزجاج. وقف رجلان طويلان أشقران يضعان على صدريهما شارة الصليب الأحمر الدولي. اطمأننت. وساعَدتْ على ذلك ألفةُ وجهيهما، ولباقتهما في ملاقاتي.

— «أنا فيكتور كوهار، مندوب الصليب الأحمر الدولي من سويسرا».

يتكلّم العربية بلهجة غزّاوية.

— «أعمل منذ مدة هنا»، أفاضَ في التعريف عن نفسه.

ومدّ يده في اتجاه الرجل الآخر:

— «هذا زميلي طبيب، يجب أن يكشف عليك».

تابع فيكتور:

— «جئتُ لأطمئنّ عليك، وأعرف وضعك، وأطمئن أهلك عنك».

ملهوفاً سألتُ عن أهلي:

— «قالوا لي إنهم قصفوا بيتنا وقتلوهم».

— «هذا غير صحيح».

تنفّستُ وهو يكملِ عبارته:

— «هم بخير وينتظرون أن يسمعوا أخبارك».

يبدو أن أهلي قد استفسروا عنّي لدى الصليب الأحمر، فكّرتُ بهذا.

— «يمكنك أن ترسل رسالة شفهية لهم. ممنوع أن تكتب رسالة ما دمت في التحقيق. نحن نكتب ما تقوله لنا ونرسله. أخبار عائليّة فقط».

أشار إليّ الطبيب أن أخلع ثيابي. جسمي أزرق. وضع الطبيب كفّه على فمه. عيناه خلف نظّارته شاشتان كبيرتان أرى من خلالهما صدمته. شرع برفع الشاش عن جروحي، وانهمرت دموعه. نوبةُ بكاءٍ لم تتوقّف. كأنه يخبر كثيرين بما يراه. يشهقُ ويتبادل مع فيكتور الكلام بالفرنسية، وأنا لا أفهم ما يقولانه. فيكتور المذهول أيضاً يترجم لي قدر الإمكان. بدا عليه أنه يقمع تأثّره لوقف بكاء زميله وليؤدّي وظيفته... يكتب ما يمليه عليه الطبيب.

سألني فيكتور:

— «ما سبب هذه الجروح».

حكيتُ له ما حصل معي في المعسكر. كل شيء. لم أنسَ صغيرة ولا كبيرة. وهو يكتب والطبيب يفحص الجروح، وليس مجهّزاً بأدوات طبّية، معه شاش ولاصق وحسب.

حكى فيكتور مع الطبيب وسألني:

— «أتريد أن تقدّم شكوى؟».

أجبتُ دون تردّد:

— «طبعاً».

وشرح لي:

– «نقدّمها إلى وزارة الدفاع، رئاسة الأركان، ممنوع أن يفعلوا هذا معك».

كرّرت:

– «نعم أريد أن أقدم شكوى، إذا كان القانون يتيح ذلك». ممَّ أخاف وعلى ماذا؟ فكّرت. القصة في المعسكر والتحقيق خربانة. . . وفريد وأبوزكن ومَن معهما ملّوا مني. وربما لديهم غيري.

ترجم لي المحضر بالعربية. وقبل أن يعرضه عليّ للتوقيع، قال:

– «أنت حرّ، لك الحق في أن تطلب المحضر والشكوى مكتوبين بالعربية، لكن إنجاز هذا يحتاج إلى أيام. أقوم بهذا إذا أردت».

– «اكتب ما رأيته وما رويتُه لك، وتصرَّف، لا حاجةَ إلى أن أقرأ من بعدك».

نظرت إلى الطبيب، ابتسمت ووقّعتُ على المحضر مبتهجاً.

أعادوني إلى الزنزانة. استلقيتُ على الفرشة أتنشّق هواء غزّة. يبدو أن الآن دور أبو أسعد في لقاء وفد الصليب الأحمر.

بعد نصف ساعة أرجعوا الشريط. من الزنزانة إلى الزاوية تحت الدرج، استعادوا الثياب البنيّة وألبسوني البدلة العسكرية، إلى الحائط والعصبة والكيس والكلبشتين، فالسيارة وضربات الجنديين لمنعي وأبو أسعد من تبادل الحديث. الضربات كانت أقوى ومتواصلة. . .

عدنا إلى المعسكر.

تسليم وتسلُّم من الشرطة العسكرية إلى حرّاس المعسكر. هؤلاء عبّروا عن اشتياق لضربنا.

تركونا ثلاث ساعات أو أربعاً إلى الحائط، تفصل بيني وبين أبو أسعد أمتار قليلة. وقد نشطوا في العبور من هناك، والكل يضرب ويشتم. كنت أسمع أنين أبو أسعد وصراخه وهو يُضرب. حتى أخذوني إلى الزنزانة.

في منتصف الليل مرّروا لي عبر الفتحة في أسفل الباب صحناً فيه برش جزر وخبز. أكلتُ الخبز.

نمت.

صباحاً، إلى التحقيق. فريد في الانتظار، متشوّق لمعرفة ما حصل معي، وتحديداً ماذا قلت لوفد الصليب الأحمر. ماطلتُ لأغيظه:

– «سألوني عن أحوالي».

أردتُ أن يشعر بأنه حتى معرفة ما حصل مع وفد الصليب الأحمر تحتاج إلى تحقيق. راوغت راغباً في مصارحته بما قمت به، لكن بالقطّارة. كلمة كلمة.

– «وماذا قلت له؟».

– «لِمَ أنت مستعجل؟ ستعرف غداً لأنني قدّمتُ شكوى بكم!».

فوجئ:

– «قدّمتَ شكوى ضدّنا؟»، وهزّ رأسه متمتماً متوعّداً.

أتوقّع ردّة فعله، وأدركُ أنه سيعرف متى وصلت الشكوى إلى رئاسة الأركان، لكنّي أردتُ أن أعلن له ذلك بنفسي:

– «حكيتُ كل شيء فعلتموه بي».

– «فلينفعك هذا. لن يساعدك أحد. وستبقى هنا تُضرَب. وأقول لك، سأرسلك مجدداً إليهم، كل أسبوعين. وأنت اشكُ لهم حتّى تشبع. ولنرَ إذا كان شيء سيتغيّر».

يعرف أن لا خيار لديه. فقد التقيتُ وفد الصليب الأحمر، ولم يعد يمكنه ألاّ يرسلني للقائه مجدّداً. عندها سيسأل الصليب الأحمر عنّي، وسيخمّن أنني متّ تحت التعذيب.

وبما يشبه التقديم لعرض مسرحي، قال فريد:

– «والآن، سأطلب أن يضربوك، فاشكُ لمَن تشاء، قل فريد ضربني وأمر بتعذيبي».

ضغط على الزر في الطاولة. دخل جنود، حكى معهم بالعبرية فوضعوا الكيس على رأسي.

أخرجوني إلى الباحة وانهالوا عليّ بالضرب. انضمّ الجنجي إليهم. تولّى أمر لكمي ورفعي عن الأرض ولكمي مجدّداً. الجنود حولنا حلقة ضحك ورفس.

تركوني بجانب حائط لا أقدر على الحراك أو الوقوف. تجدّد ألم الجروح، وأكثرها في معصميّ تحت الكلبشة.

ودخلنا روتيناً محطّته الرئيسية نقلي إلى سجن غزّة ولقاء وفد الصليب الأحمر. وما بين اللقاء والآخر، يخرجونني من الزنزانة، يضربونني. أحسّ بأنهم يفرغون حنقهم فيّ.

نحو عشر مرات التقيتُ وفد الصليب الأحمر. مللتْ. لا جدوى من ذلك، حتى الطبيب لم يأتِ إلاّ في المرّة الأولى، اكتفى بالكشف والبكاء. أقدّر له ذلك، لكن ماذا يفعل زميل له مهندس وليس في يده إلاّ أن يكتب التقارير ويدعوني إلى التحمُّل والصبر، كما لو أنني بناية أو حجر.

طلبتُ إلى الموفد:

— «احكِ لي ماذا يجري في السياسة في لبنان!».

ردّ:

— «الرئيس الياس سركيس يروح إلى دمشق ويعود منها».

— «فاجأتني! هذا عادي وليس جديداً، ويمكن أي إنسان أن يتوقّعه من دون أن يقوله له أحد»، قلت له ضاحكاً. ولتجنُّب أن أبدو ساخراً، أضفت:

— «قل لي ماذا يجري، في السياسة».

— «ممنوع علينا أن نتكلم في السياسة».

— «ومَن يسمعك؟ احكِ!».

— «لا يمكنني».

— «أنا آتي من هناك إلى هنا، ساعتان ونصف، على الأقل أفدني بشيء».

ضحك. وكأنّ لسان حاله أنه يوافقني الرأي... ولكن هذا أفضل من لا شيء:

— «قدِّم شكوى!»، قال بشيء من السخرية المهذّبة والعفويّة الوظيفيّة الداعية إلى الالتزام بالقانون المتاح.

طلبتُ إليه أن يحدّثني ماذا كُتب في الصحف الإسرائيلية عن عمليتنا.

ردّ بسرعة أنني كنتُ فيها وأعرف أكثر منه عنها.

ألححتُ موضحاً أنني أريد أن أعرف ما قالوه هم في إعلامهم.

قلب شفته السفلى وأغرق رأسه بين كتفيه.

قلت له:

— «اسمع أستاذ جاد، ما نفع هذه اللقاءات. كل مرّة تأتي إليّ برسالة شفهية من أهلي، وتنقل إليّ اسم أحد إخوتي وكأنّك تعرّفني إليهم وتذكّرني بهم. أنا آتي إلى هنا، وأتحمّل مشقّة الانتقال ولهيب السيارة وضرب الجنود لي طوال الطريق. الأفضل أن أبقى هناك».

ردّ:

– «نحكي معهم ليغيّروا».

– «وماذا يغيّرون؟ ماذا غيّرت الشكوى التي تقدمتُ بها عبركم؟».

– «نحن أوصلناها إلى رئاسة الأركان وقيادة الجيش، لكن نحن مقيّدون. الإسرائيليون يربّحوننا مئة جميل، ولم يسمحوا لنا بالعمل إلاّ بعد جهد جهيد معهم».

– «ليس ذنبي. ولستُ ملزماً أن أعطيك صك براءة بأنك تعمل لأجلي وأنت لا تفعل شيئاً».

حاوَل تهدئتي:

– «هناك أمور نحسّنها، ونعمل في أمور أخرى».

– «لماذا تعذّبوننا وتأتون بنا إلى هنا من آخر الدنيا؟».

– «نحن نلتزم الاتفاق لأنه يساعد السجين».

– «صحيح، لكن لا شيء يتحسّن».

بهدوء، راح يشرح لي الإجراءات التي تسبق المحاكمة، ويطمئنني إلى أنهم سينقلونني قريباً إلى سجن أوسع مع سجناء آخرين:

– «لن تبقى حيث أنت! ربما تطول المدّة قليلاً، لكن ستُنقل».

أخبرته أنهم لا يحقّقون معي، وأنهم يكتفون بضربي وتعذيبي. تحمّس، أو ربّما حاول طمأنتي:

– «ما دام الأمر كذلك، فسنضغط لنخرجك من المعسكر».

واستدرك:

– «سنرى».

مرّة جديدة عدنا إلى لقاء وفد الصليب الأحمر. في القفص داخل السيّارة اقترحتُ على أبو أسعد أن تكون هذه آخر مرة نأتي فيها. وافق، فطلبتُ إليه أن يخبر وفد الصليب الأحمر.

وأنا فعلت. أطلعني الموفد، جاد، على أن الصليب الأحمر تلقّى رسالة من رئاسة الأركان تؤكد أننا سنُنقل قريباً من معسكر الاستخبارات، وأن إجراءات

المحكمة ستبدأ. وهمس لي أن العمل جارٍ لنقلنا إلى مكان احتجاز في انتظار المحكمة.

– «لكن إذا اضطررت إلى المجيء مرة أخرى بعد فليكن. ونحن سنقوم بالواجب»، ختم متمنّياً محاولاً إقناعي.

هززت رأسي موافقاً على مضض.

بعد أسبوع، أخذوني مكبّل القدمين واليدين، مكيّس الرأس إلى الحمام ذاته. تركوني أستحم. المياه ساخنة أيضاً. فهمتُ أنه حان وقت إخراجي من هنا. وتأكد لي ذلك حين أعادوا إليّ ثيابي التي نزعوها عني على الشاطئ، ومعها الحذاء.

القميص ممزّق والدم قد يبس عليه. ارتديتُ البنطلون. فضفاض عليّ ولا يعلق فوق خصري. عقدته. ضحكوا من المشهد. وأخذوني إلى غرفة التحقيق كأنّني لعبة بين أيديهم. هناك أوقفني فريد فوق ميزان. صُدِمَ مع الجنود وفرحوا وهيّصوا حين أظهر لهم أنني أزن ٤٥ كيلوغراماً.

أحاول أن أتذكر اسم طبيب الصليب الأحمر. نسيته. أهو فيكتور لم ينطق به، أم إنّ صورة الطبيب وهو يبكي عليّ محت اسمه وصوت فيكتور من المشهد؟

دولة إسرائيل ضد سمير القنطار

أنا وأبو أسعد في القفص داخل صندوق السيارة. رحلة هادئة وإن كنّا لا نعرف إلى أين، ولا نرى ما حولنا. الكيسان فوق رأسينا، والكلبشتان في أيدينا إلى الخلف.

تبادلنا الحديث بين حين وآخر. لم يضربنا الجنديان الموجودان معنا بهراوتيهما. مشغولان عن حديثنا الذي لا يفهمانه بحديثٍ لم نفهمه.

بعد ثلاث ساعات تمهّلت السيارة وعبرت باباً حديدياً، سمعتُ هديره وهو يُفتح. تخيّلت جنديين يجرّان درفتيه الكبيرتين. مستسلماً للجندي يمسك بذراعي، مشيتُ مثل ضرير مكبّل القدمين. رفعوا الكيس عن رأسي فوجدتُ شرطة مدنية حولي في غرفة. وفيما يفكّ أحدهم الكلبشتين من يديّ وقدميّ، سألني آخر يحمل دفتراً:

— «ما اسمك؟». وكتب.

سحبَ من مغلّف ورقي ساعة يدي وسألني ما إن كانت لي. فرحتُ حين رأيتها، ولو مهشّمة، وحاولتُ النظر إليها لأعرف إن كانت ما تزال تعمل. انتظرتُ أن يعرض عليّ البوصلة التي كنتُ أضعها مثل ساعة في يمناي، لكنه لم يفعل. سُرقت. أعطاني وصلاً بأن الساعة في الأمانات.

أخذوني محرّراً من الكيس والكلبشتين إلى زنزانة كبيرة. أخبرني شرطيّ أن في إمكاني تنظيف السطل الموجود في الزنزانة لقضاء الحاجة، لمرّة واحدة كل يوم. الإقامة طويلة هنا إذاً. جلستُ على الفرشة. أفكّر في أني لم أرَ محكمة في بلدي، ولم أدخل مخفراً للشرطة أو سجناً. كل هذا كأنه غائب في لبنان. وها أنا سأمثل أمام محكمة غريبة، في دولة عدوي وبقانونه. انقبضَتْ نفسي، صرتُ في مرحلة رمادية مثل جدران هذه الزنزانة. وفكّرتُ أن نفسيتي الآن مثل هذا الغروب الحار. تركتُ جسدي يرتاح.

مرّروا لي صحناً من تحت باب الزنزانة. فضّلتُ أن أبقى ممدّداً.

سمعتُ صوت أبو أسعد يناديني من زنزانة ملاصقة. لم يعرف هو أيضاً أين نحن. نزيلُ إحدى الزنازين تدخّل وأخبرنا أننا في سجن الجلمة، وأن فيه، معنا، موقوفين مدنيين وجنائيين عرباً ويهوداً.

نصحَنا النزيل في الزنزانة المجاورة بأن نطلب إحدى المحاميتين ليئا تسيمل وفيليتسيا لانغر، لتدافع عنّا. الأولى في التجمع الشيوعي الثوري التروتسكي الذي يدعو إلى دولة واحدة للبروليتاريا من الفلسطينيين والإسرائيليين، وتدافع عن الفدائيين الفلسطينيين؛ والثانية عضو في الحزب الشيوعي الإسرائيلي الذي يقول بدولتين واحدة للفلسطينيين وأخرى للإسرائيليين، وتدافع عن المعتقلين السياسيين والإداريين.

أبو أسعد متشوّق لمعرفة ما سيجري معنا. تنامى قلقي من هذه المسرحية الخاصة بإسرائيل. فالمحكمة بالنسبة إليهم لتأكيد أنهم دولة وأن لديهم قانوناً. هنا، شعرتُ بأنهم سيقسون علينا لنكون عبرةً للآخرين بألاّ يأتوا مثلنا. تذكّرتُ ما قاله أبو زكن من أنني قتلتُ ستة إسرائيليين من بينهم الطفلة التي لا أتذكّر وجهها ولم تقع عيناي على عينيها ولم أمسّها إلاّ لأنتزعها من بين يدي والدها وأتركها في البيت. انتبهتُ إلى أنني لم أرَ أمّها ولا امرأةً في البناية. ولم تُقتل واحدة منهن. ورحتُ أحصي مَن قُتل في العملية: الشرطيان في السيارة، الرجل الذي قَتَل ماجد، الأسير الذي كنتُ نسيته لو اختبأ خلف الصخور مع ابنته، والضابط والجندي خلفه اللذان باغتّهما متسللين من جهة الشمال أثناء المعركة على الشاطئ. إذاً، يحسبون أن الطفلة هي القتيل السادس ويدّعون أنني قتلتها. لن أقبل، قلت لنفسي. لم أقتلها. لا أنفي شيئاً فعلته، فلو كنتُ فعلت لاعترفت وقبلت وتحمّلت مسؤوليّته على قسوته. لن أقبل أن تُلصق بي تهمة قتلها. هم قتلوها، ويغتنمونها فرصة ليبرّئوا أنفسهم وليصوّروني قاتل أطفال. والثانية أهم بالنسبة إليهم، إذ يمكنهم القول إنها قُتلت أثناء المعركة، بالخطأ. لكنهم يريدون أن يلصقوها بي لأبدو همجياً مثل العرب الآخرين كما يصوِّروننا. هذه معركتي مع الكَذَبة. يريدون أن يصوّروني مثل مجرم يقتل أطفالاً بلا سبب، مريض، مهووس، بلا قيم. والمحكمة محكمتهم والقانون قانونهم، يحاكموننا كأنهم مَن ينفّذ عدل السماء على الأرض، وما تُجمِع عليه البشرية والأخلاق الإنسانية.

قلتُ هذا لأبو أسعد. شعرتُ بأننا ما زلنا في المعركة، خلف الصخور، وأدعوه ليأخذ حذره من جهته.

نمنا، كلٌّ في زنزانته، قبيل الفجر.

صباحاً، أحضروا لي صحناً من البطاطا المسلوقة وطلبوا إليّ أن أستعدّ. بعد وقت يَسمَح لنا بتناول الطعام، أتوا، وضعوا كيساً فوق رأسي والكلبشتين في قدميّ ويديّ إلى الأمام، وساروا بنا. داخل المبنى ذاته رفعوا الكيس عن رأسي في غرفة متواضعة مجهّزة لتبدو قاعة محكمة. تجلس قاضية مسنّة وراء مكتب وخلفها على الحائط صور هرتزل وغولدا مائير وبن غوريون ورئيس الدولة إسحاق نافون ورئيس الوزراء مناحيم بيغن. وعلى جانبيها منصّتان على كل منهما علم إسرائيل. وإلى يميني يجلس ضابط خلف طاولة.

سألتنا القاضية إن كان معنا محام.

— «نريد أن نرسل طلبنا إلى المحاميتين ليئا تسيمل وفيليتسيا لانغر».

ردّت بأن علينا حين نعود إلى السجن أن نطلب الاستمارة المخصصة لهذا الغرض ونرسلها إليهما.

وقف الضابط وطلب تمديد توقيفنا حتى يتم إعداد لائحة الاتهام، وإلى يساري رجل، عربي على ما يبدو، يترجم فوراً. القاضية، في مواجهتي، تسمع وتهز رأسها بين حين وآخر. . . ومع انتهاء الضابط من دوره أَمَرَتْ بتمديد احتجازنا.

إلى الزنزانة نفسها والحديث عبر الباب مع أبو أسعد، حتى الفجر. كنا مصدومين لعدم وجود تلك الاستمارة.

أسبوع في الجلمة نقلنا بعده إلى سجن عكا. في الساعات الأولى لنا هنا، توقّعت ممازحاً نفسي، أن يأتوا إلينا بفلافل. رائحتها لم تفارق أنفي. هذه عكا أم الفلافل. أساساً، الفلافل ليست مفيدة في حالتي الصحيّة. الرئة لا تنفكّ تذكّرني بأنّها معتلّة وأكاد أختنق منها، بلا فلافل.

في اليوم التالي، وضعوا الكيسين فوق رأسي ورأس أبو أسعد، وأوثقونا معاً، يدي اليسرى إلى يمناه، وكذلك قدمانا. ويمناي موثقة إلى يد يسرى لشرطي إسرائيلي، والأمر نفسه مع أبو أسعد. ضحكتُ من المشهد. هزئتُ من الشرطيين إلى يميني ويسار أبو أسعد. وضحكتُ أكثر حين تخيّلتُ الشرطيين يضعان كلبشتين في قدميهما معنا. السجّان ليس أفضل حالاً من السجين. حكمة القَدَر.

مشينا. ورغبتُ في أن يتعثّر أحدنا فنقع نحن الأربعة.

صعدنا درجاً إلى الطابق الثاني. فكّوا الكلبشات ورفعوا الكيسين وأدخلونا قاعة محكمة. أبعدوا أبو أسعد عنّي، جعلوني أتقدّمه بنحو خطوتين. عرّف القاضي عن نفسه بالعربية. فارس فلاح. درزي، القَدَر مرّة أخرى. وعلى جانبيه محقّقان ملامحهما إسرائيليّة. تليا عليّ بالعبرية لائحة الاتهام. قتلتَ المرحوم فلاناً، والمرحوم فلاناً... وصل الأمر إلى الطفلة. سألني القاضي بالعربيّة رأيي فأجبته أن هذا كذب:

— «أنتم قتلتموها». أردتُ ألاّ أفصله عن دولته، وأن أضعه مع العدو الكاذب في موقع واحد. فهم رسالتي التي لم أشأ منها رحمته وتأنيب ضميره العربي، بل توضيح الخريطة والحدود بيننا. وهو لم يتردّد في اتخاذ موقعه الوظيفي والصراعي. ردّ كمَن يكذّبني:

— «ألستم أنتم مَن قتلها؟». وعلى الوتيرة ذاتها موحياً أنه غير مصدّق ما أقوله، أضاف:

— «التحقيقات كلّها، والجنائية منها، تؤكد أنكم مَن قتلها».

— «غير صحيح».

أشار إلى أبو أسعد وقال:

— «صاحبك!».

فرددتُ مع ابتسامة هازئة:

— «غير صحيح، أنتم قتلتموها». وفكّرتُ أنهم ما زالوا في الحفرة نفسها التي أوقعوا أنفسهم فيها، يبحثون عن ضحيّة.

عاد إلى استراتيجية التحقيق ذاتها:

— «كيف تنفي وصاحبك موقِّع على أنك مَن قتل الطفلة؟».

— «صديقي لم يوقِّع!».

ردّ غاضباً:

— «لا تتكلّم باسمه، هو يتكلّم عن نفسه».

قلت واثقاً:

— «لم أقتل الطفلة ولن أعترف بأمر لم أفعله، أنتم قتلتموها. نحن كنّا مشغولين عنها وهي بعيدة عنّا. أنا أقول إنني قتلت أباها. ألا يعني هذا لك شيئاً؟

أقرّ بما فعلتُ ولا أقبل أن أعترف بما لم أقم به. لم أرضخ للتعذيب ولا يمكن لأي تحقيق تجرونه أنتم أن يجعلني أوافق عليه وأقتنع بما أنا متأكد أنه لم يحصل. لو متُّ كان يمكن لكم أن تنفدوا بكذبتكم، أما وأنا حيّ فهذا مستحيل».

أمر بإبعادي، واستدعى أبو أسعد ليتقدم نحوه. سأله:

— «أنت اعترفتَ بأن صديقك قتل الطفلة».

— «صحيح، لكني اعترفتُ تحت التعذيب. ضربوني كثيراً ولم يدعوني أنام. سمير لم يقتل الطفلة، ولا أنا فعلت، قُتلت بالرصاص والقذائف التي أمطرتنا بشكل جنوني».

طوى أبو أسعد في هذه اللحظة صفحة التحقيق. استعاد نفسه.

قال القاضي موجّهاً الكلام إليّ:

— «ما الذي يختلف إذا اعترفتَ بأنك قتلت الطفلة، فأنتَ أتيتَ وقتلتَ غيرها. أنتم الفدائيين لا تفرق معكم، تريدون قتلنا جميعاً».

لم أجب. أحدّق به. يحلق لحيته بعناية فائقة، ويرد شعره إلى الخلف مع مثبّت. يبدو خارجاً الآن من صالون الحلاقة. فكّرت أنّه حريص على انتزاع موقع في مجتمعه من خلال وظيفته. كرّر ما قاله وعيناه لا تخطئان عيني. أكّد أنه يسألني أنا.

رددتُ أنه ليس دوري، فسمح لي بالإجابة كمَن يخرق التقليد بغاية إنهاء أمر. قلت:

— «لو قتلتها أو قتلتك، لاعترفت. أتكلم بصراحة. أنا لم أقتل الطفلة. أقتلها كبيرة إذا حاربتني».

ردّ كمَن وجد كنزاً:

— «ها أنت تقول كانت ستكبر وتحاربكم، فاعتبر نفسك قتلتها. وهذه المسألة بطولة بالنسبة إليكم».

— «أنحن في سوق، أهكذا تجري الأمور؟ أنا لم أقل كانت ستكبر وتحاربني، قلت إذا حاربتني. قتل المدنيين ليس بطولة كما تدّعي. ونحن إذا قُتل مدنيّون في عمليّاتنا فلأنه لا خيار لنا. أنتم تقتلون مدنيّيكم. في عمليّة دلال المغربي أنتم قتلتم المدنيين الإسرائيليين، ويوميّاً تقتلون المدنيين العرب، في فلسطين ولبنان».

— «لكنّكم أتيتم وقتلتم مدنيين!»، ردّ مع إيماءات توحي أنه أفحمني.

— «جئنا لنقتل عسكريين، ونعرف أنه في نهاريا يعيش الكثير منهم، إمكانيّاتنا محدودة لا يمكننا أن نستهدف العسكريين من دون إصابة المدنيين، بينما أنتم يمكنكم ذلك ولا تفعلون».

صارت القضية عندي مبدئية. ليس من أجل الطفلة التي كان يمكنني أن أقتلها في بيتها وآخذ والدها وحده، ولم أفعل. أنا لا أقتل طفلاً، مستحيل. المسألة الآن بالنسبة إليّ هي التعدّي عليّ وتغيير الحقيقة بالكذب.

فجأةً صار القاضي مثل أبٍ نصوح. اجتهد لإقناعي بالقبول كي تمشي المحاكمة، وهي ستمشي مهما قلت، أكّد مراراً:

— «أرِحْ نفسك وأرحنا».

— «مَن يمسك بك، روح ارتاح!»، سخرتُ منه.

— «هذا أفضل لك»، قال كأنه يهمس بأذني.

— «مستحيل».

— «خفّف عن نفسك، مرّرها، لن تزيد أو تنقص لك شيئاً».

— «ها أنت تقولها، لن تزيد أو تُنقص»، قلتُ مبتسماً، وقد أقرّ بأنني أقول الحقيقة لكنه يريد أن ينهي الموضوع. بات صريحاً بأنه يريد إلصاق التهمة بي، وجلّ ما يسعى إليه هو أن أقبل وليس الحقيقة. أقسى ما في البيروقراطية هذه الدعوة الرخيصة للقبول بهدف أن تمشي العملية. ونحن لسنا في مكتب إدارة حكومية يجري فيه التواطؤ على مخالفة أو فساد. أنا الآن فدائي عربي في محاكمة إسرائيلية، والقاضي عربي في ذروة إخلاصه لخيانته، قبل أن يكون مخلصاً لوظيفة تافهة. ويدعوني إلى التواطؤ معه. لن أفعل هذا أيضاً، لن أكون شريكاً لعربي في أن يكون كلباً في دولة إسرائيل.

معركة أخرى خضتها معه، وأفهمته بشكل غير مباشر أبعادها، وهو يهرب من ذلك، بقسوة أحياناً وبودٍّ أحياناً. حتى ملَّ وقال لي:

— «ستُعدَم، ستُعدَم، يسنّون قانوناً لإعدامك، فاقبل».

— «لن أقبل».

بضجرٍ يفوق مللِه جزمتُ له بأنني سأبقى على موقفي وأنه شريك في الكذبة وليس قاضياً:

— «أتعرف، لو لم أقتل الشرطيين في السيارة والرجل في البناية، وذاك الضابط ومعه الجندي، لا أقول إنني قتلتهم، لكني قاتلتهم وقتلتهم. ورميتُ قنبلة إلى الملجأ، وأمرتُ برمي قنبلتين معها، أتعرف ماذا يعني هذا ويمكن أن يكون هناك أولاد؟ أما أن تدّعوا أنني قتلتُ الطفلة على الشاطئ، وأنا لم أفعل، فلم ولن أقول».

— «المحكمة تُقرّر»، قال القاضي مشيراً بيده لإخراجنا.

أعادونا كما أخذونا إلى سجن عكا. يومان بين النوم والوقوف إلى الباب كأنه شرفة، وتبادل الحديث مع أبو أسعد. استعاد ثقته بنفسه معي. وأنا لم أعاتبه أو أبدي له عداءً أو نفوراً. تفهّمتُ وما زلتُ أتفهّم وضعه، فالتحقيق والتعذيب كانا قاسيين. حتى ونحن قريبان في السيارة أثناء نقلنا إلى سجن الجلمة ثم إلى هنا في سجن عكا، كنّا نتحدث عن المحكمة. لم نذكر أبداً التحقيق. تجنّبناه. وكان ذلك كفيلاً بأن يعني أنني نسيت ولست غاضباً منه. ومن ناحيته، كان ذلك يعني دافعاً لثبات موقفه والتفكير بنا معاً. وقد عبّر لي مراراً أننا معاً أقوى، ويشعر بالطمأنينة.

— «نحن محاصَرون، في داخل العدو، والعملية مستمرّة»، أجبته، ولم أبالغ. هذا شعوري.

في اليوم الثالث، أطلَّ من طاقة باب الزنزانة ضابط أسمر نحيف. رأيتُ النجوم على كتفيه وهو ينحني ليغدو وجهه على مستوى الطاقة. أحسستُ أنه يطلّ من دبّابة. عرَّفَ عن نفسه بأنه عايزرا، يهودي مصري. ويحكي العربية بلهجة مصرية:

— «اسمع يا سمير، نحن نريد أن تنتهي المحكمة بسرعة. وأنت تعرف، لدينا جيش وشرطة لا يرحمان. المحكمة ستمشي. وإذا لم تقل إنك قتلتَ الطفلة فستستمر المحاكمة سنة أو أكثر، وسيظلّون يجرجرون بك، مع ضرب وتعذيب. ارتح في سجن مثل أصحابك. ما هذا الموضوع الذي تتوقّف عنده، سواء قتلتَ الطفلة أو لم تفعل، خلص. مرّر هذا الموضوع. وأنت جئتَ وقتلتَ غيرها، أتتوقّف عندها؟»

أعاد عليّ ما قاله القاضي، كما لو أنه كان حاضراً في تلك الجلسة. وأنا كرّرتُ ما قلتُه، من دون أن أعرف ما إذا كان يفعل ذلك بمبادرة فردية أو مُرسلاً.

بعد أيام، وكنا قد أُعدنا إلى سجن الجلمة لقربه من محكمة حيفا المركزيّة، أحضر لي شرطيّ لائحة الاتهام. طلب إليّ أن أوقّع على وصل استلامها. لم يقرأها لي. فهمتُ منها عبارة في أعلاها: «دولة إسرائيل ضد سمير القنطار».

تشوّقتُ لمعرفة مضمونها. توقّعتُ أن يدرجوا فيها قضية الطفلة. سألتُ شرطيّاً، شابّاً درزيّاً، أن يترجمها لي. أمسك بها وقرأ:

— «دولة إسرائيل ضد سمير القنطار»، وتوقّف.

— «أعرف هذا، أكمِل»، قلتُ له.

— «أأقرأ لك خمس عشرة صفحة؟ غداً تطلب منهم في المحكمة ترجمتها لك»، وأرجعها إليّ من دون أن يخفي قرفه من هذه المهمة التي لا تعنيه.

بعد أيام، في ٣/ ١١/ ١٩٧٩، نقلتنا الشرطة المدنيّة إلى المحكمة في حيفا. أجلسونا، أنا وأبو أسعد، وعلى جانبينا حارسان، في مساحة تشبه الممر إلى يمين القاعة. يفصلنا عن القاعة حيث المقاعد المخصصة للحضور درابزون خشبي يرتفع نحو ثلاثة أرباع المتر، أو أقل. وفي مقابلنا منصّة الشهود، ترتفع عن مساحتنا بقليل، وأدنى من منصّة القضاة، المرتفعة في وسط الحائط، بيننا وبين منصّة الشهود.

فتحوا الباب، إلى يميننا، في مواجهة منصّة القضاة. فاندفع عبرها الصحافيون مثل نهر كسر سدّاً. توجّهوا نحونا يلتقطون الصور. رحنا أنا وأبو أسعد نرفع شارة النصر.

ومع إبعاد الشرطة هؤلاء عنّا لإخراجهم من القاعة، اقترب مني رجل في الأربعين من عمره، سمين متوسّط الطول. لم يتوقف عن تحريك الكرافات حول رقبته الممتلئة المندلقة فوق ياقة قميصه. وفيما يشعر بأنها تخنقه يحاول ترتيبها. هزئتُ من شكله، ولم أخفِ سخريتي منه حين قال:

— «أنا سليمان سليمان، عربي ابن عربي، كلّفتني المحكمة أن أدافع عنكم».

رددت:

— «لكن نحن نريد محامياً آخر».

— «مَن؟».

— «ليئا تسيمل، أو فيليتسيا لانغر».

— «أرسلا إليهما طلبكما، لكن المحكمة الآن ستنطلق وتحتاجان إلى محامٍ معكما».

— «نقبل، لكن لن تتفوّه بكلمة واحدة، وإلاّ أسمعتُكَ كلاماً قاسياً».

— «كيف هذا، أنا أريد أن أدافع عنكما وأنت تتعامل معي هكذا؟».

— «أنت تقول إن المحكمة لا تمشي إلاّ بوجود محامٍ معنا. هذه وظيفتك. أنت موجود لتمشي المحكمة لا لتدافع عنّا».

نظرَ إلى أبو أسعد ليخلخل جبهتنا:

— «أنت موافق على ما يقوله؟».

— «نعم».

انسحب مصدوماً. جلس في مقدمة الحضور بجانب امرأة ثم عاد إلينا. قال هذه المدعي العام ليلي تسيفسكي، على ما أذكر.

سألته لماذا نحاكَم في محكمة مدنية لا عسكرية؟ فحكى كأنه يفشي سرّاً، لم يتوقف عن الالتفات يمنةً ويسرى، وأحياناً خلفه:

— «حصلت مشكلة. رئيس الأركان، رفائيل إيتان، يصرّ على أن تجري لكما محاكمة عسكرية تصدر حكماً بإعدامكما، وسيوقّعه هو بسرعة، وإذا وقّع يُنفَّذ. لكن وزير الأديان، يوسف بورغ، ووزير العدل، موشي نيسيم، متديّنان، ويرفضان هذا الأمر لأنه غير جائز دينياً. هذا أوقع الحكومة في مشكلة، فمن ناحية سنّت الحكومة المصغّرة قانوناً لتجيز إعدامكما، وربما لترضي الجيش، ومن ناحية أخرى هي عاجزة عن تنفيذه بسبب الاعتراض الديني ورغبتها في عدم إحراج مصر التي وقّعت معها اتفاقية كامب ديفيد. والأجهزة الأمنية نصحت بعدم تنفيذ حكم الإعدام لكونه يشجع الفدائيين ولا يردعهم، إذا كان هؤلاء يحسبون حساباً للأسر فإن الإعدام يريحهم. فعرضت الحكومة أن تصدر المحكمة العسكرية حكماً بإعدامكما، ولكن لا يُنفّذ، إلاّ أن رئيس الأركان رفض وأعلن أنه سينفّذ. ولكي يخرجوا من هذه الأزمة حُوِّلتما إلى المحكمة المركزية حيث يوقّع رئيس الدولة على حكمها وهو يتماشى مع رغبة الحكومة».

— «هذا يعني أنه لن يصدر حكم بإعدامنا»، قلت لأبو أسعد وأنا أفكر بأن هذه «الشوربة» القانونية والسياسية هي سبب تأخر وصولنا إلى المحكمة. لكني عدتُ وفكّرت في نفوذ الجيش وتوقّعتُ أن يصدر حكم بإعدامنا. تكرّرت في رأسي عبارة بن غوريون أن كل الدول تملك جيوشاً لكن في إسرائيل هناك جيش يملك دولة. وهذا ما جعل الحكومة تنصاع للجيش وتسنّ القانون لإعدامنا.

أدخلوا الجمهور. نساءٌ ورجالٌ، يبدو أنهم أهالي القتلى والجرحى. اندفعوا نحونا. رفعنا علامة النصر بأيدينا المكلبشة معاً. وقف حراس المحكمة بيننا وراحوا

يبعدونهم عنّا. ملامحهم وشتائمهم كانت توحي إليّ أنهم سـ«ينتفوننا» لو وصلوا إلينا.

صرخة من ناحية المنصّة الرئيسية تعلن دخول القضاة. لكنها لم تهدّئ الجوّ. حاول الجمهور مجدداً اختراق الحراس. جلس القضاة الثلاثة في مقاعدهم وأعلن رئيسهم أنه سيُخرِج كلّ مَن يُحدِث جلبة وضجيجاً. جلسنا أنا وأبو أسعد. تمتمات خافتة تعبر القاعة.

انطلقت المحكمة وشرع المدعي العام بتلاوة لائحة الاتهام، وهناك رجل مسنّ يترجم بقربنا. ومع كل عبارة يهوج الجمهور بعباراتٍ تشبه السباب والشتائم. يسكتهم القاضي وتتتابع لائحة الاتهام.

طلب القاضي المتهم رقم ١، سمير القنطار، مَن هو؟

أجبت:

– «أنا»، وبقيتُ جالساً. تعمّدتُ ذلك. لا أريد الوقوف أمام قاضٍ إسرائيلي. صحيح أنني وقفتُ قبل ذلك لكن لم يكن لديّ خيار الجلوس، ولم يكن هناك جمهور هائج.

قال القاضي مغتاظاً إنّ عليّ الوقوف لمخاطبته وتأكيد هويتي.

بهدوء رددت:

– «أنت تسمعني وأنا جالس».

أمر بإخراجي من المحكمة وهاج الجمهور. لا أعرف إذا كان مرحّباً أم معترضاً.

فكّ شرطي الكلبشة التي تجمع يدي مع يد أبو أسعد، من يد أبو أسعد، وأقفلها على يده هو. مشينا نحو الباب المخصّص لنا. سألني القاضي لماذا لا أريد قول اسمي ألستُ سمير القنطار؟ فرددت:

– «نعم، اسمي سمير القنطار».

فطلب إعادتي إلى مكاني. تحايل عليّ لأنطق باسمي وأنا واقف. عملها بي هذا المحتال الخبير. يمكن القول واحد/ صفر حتى الآن في الأداء. استفزّني، ورغم ذلك ابتسمتُ معجباً بنباهته. ووعدتُ نفسي بأن أكون أكثر حذراً واستعداداً.

قلت:

– «لا أريد العودة، أريد أن أخرج».

تراجع قليلاً في مقعده رافعاً كتفيه ورأسه. فكّر، ربما في أنني أعترض على تحايله، وأحاول معادلته بهدف. أمر بإخراجي واضعاً حداً للجولة الأولى. أعتقد أنه أخذ وقته للتفكير في كيفية إعادتي إلى المباراة.

أوقفوني في الممر مكلبشاً مع شرطي. كثافة الحرّاس لم تمنع أصوات المتظاهرين خارج المحكمة من الوصول إلينا.

في قاعة المحكمة دعا القاضي أبو أسعد للامتثال أمامه. بقي جالساً وهو يجيب أن اسمه أحمد الأبرص. أمر القاضي بإخراجه وكرّر معه الحركة ذاتها، لكن أبو أسعد لم يرد عليه. واصل خروجه من القاعة. استفاد من خطئي ولم يكرّره.

ضحكنا حين أخبرني.

لحق بنا المترجم إلى الممر:

— «أُجّلت المحكمة إلى موعد يُحدّد لاحقاً».

حدّق بي بنظرة محايدة كأنه يتذكر:

— «أعطى القاضي ملاحظة أنه ممنوع عليك المجيء إلى المحكمة بهذا القميص العسكري».

— «في المرّة المقبلة أفتح خزانتي وأختار ثياباً مدنيّة كالتي أتيتُ بها إلى نهاريا»، قلت ساخراً.

المتظاهرون محتشدون عند مدخل المحكمة. رمونا بالحجارة وشتموا. أوصلنا الحرّاس إلى السيارة بصعوبة.

عند مدخل سجن الرملة للموقوفين، في ١٩٧٩/١١/٦، يقف ضابط في مديريّة السجون بكل جديّة يسحب ساعتي من ظرف في يده ويسألني إن كانت لي. أكدتُ ذلك وتركَها في الأمانات. كرّر عليّ، وهو يكتب، أننا بتنا تحت ملاك وحراسة مديرية السجون العامة في إسرائيل، وممتلكاتك الساعة. تابع:

— «أنت الآن تخضع لقوانين السجن، يعرّفك بها الضابط الأصغر. عليك أن تلتزم وإلاّ تُفرض عليك لائحة عقوبات».

طلب إليّ أن أخلع ثيابي. تفتيش عارٍ انتهى بأخذهم القميص العسكري

وحذائي القديم وإعطائي كنزة صفراء وبنطلونين وحذاءً رياضياً. أحضروا أبو أسعد وعبروا بنا ممراً طويلاً وثلاثة أبواب، آخرها لزنزانة. أول ما رأيته فيها حافة مُدّت فوقها فرشة، مثل سرير. وبعدما دخلناها أنا وأبو أسعد شاهدتُ سريراً آخر ومغسلة. في زنزانتي مغسلة! أغلقوا الباب وابتعدوا. أمسكتُ الكوبين والملعقتين والصحنين البلاستيك كأنني في متجر. وقبل أن نستريح استجبتُ لنداء نزيلٍ آخر، في الزنزانة المقابلة. بين زنزانتينا ممرّ بعرض متر ونصف فقط. موجوعاً من رئتي، اقتربتُ من الباب، ونصفه الأعلى شبك، رأيته بشكل أوضح. شاب أسمر طويل. سألني مَن نكون. ولم يفاجأ بنا. كان يعرف بعمليتنا وأننا أُسرنا وسنخضع للمحاكمة.

بثقة وصوت عالٍ قال:

— «أنا حسين العطار، عراقي من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، عمليات الخارج، مع وديع حداد».

أحسستُ أنه لا يخفي شيئاً. يجاهر بانتمائه وهويته. طمأنني. وراح يحكي لنا عن شريكه في الزنزانة:

— «بهائي، جاء من إيران وهم يريدون أن يبعدوه ولم تقبل به أي دولة. لا يحكي مع أحد، يبقى صامتاً».

— «كيف تعيش معه؟»، سألته بعفوية كأنه اختاره.

ضحك:

— «لم يجدوا مكاناً له فوضعوه معي. يعتبرونني أقل خطورة منكما. أنتما يعتبرونكما خطرين فيتركونكما معاً».

يبدو أن حسين ملّ معه، ويبحث عمَّن يتبادل معه الحديث. وقد وجدنا. أبدى اطلاعاً على أمور السجن ومرتاحاً على وضعه. دفعني هذا إلى السؤال متى اعتُقل؟

— «قبل ٥ سنوات في كينيا. ذهبنا إلى هناك في عملية، هدفها إسقاط طائرة عال إسرائيلية بصاروخ سام ٧. خدّرنا الكينيون وسلمونا إلى الإسرائيليين. كنّا خمسة، أنا وإبراهيم توفيق ومحمد المقوصي وهما معنا في السجن في قسم آخر بالطبقة الثانية. فصلونا بعضنا عن بعض. وألمانيان: بريجيتا وتوماس. أخفونا ولم يعترفوا بنا حتى السنة الماضية. طلبت ألمانيا مواطِنَيها وتسلّمتهما وبقينا نحن لا دول لنا تطالب بنا».

أشار إلى الزنزانة المجاورة له، إلى يساره، وقال إن فيها الشيخ يعقوب قرّش، «أول خطيب في المسجد الأقصى يتحدث عن الاحتلال ويتحدّاه ويدعو إلى مقاومته. اعتقلوه بتهمة الانتماء إلى حركة فتح. ومعه شاب فلسطيني».

وجد حسين نفسه في حفلة وضعنا في أجواء السجن.

— «نتسلّى»، قلت له لأشجعه على الاستمرار.

أخبرنا أن في الزنزانة المجاورة لنا شابين من قلقيلية قتلا شرطيّاً إسرائيلياً ويخضعان للمحاكمة.

زاد حسين على تعريفنا بالموجودين في الزنازين حولنا، بالقول إن السجناء يخرجون يوميّاً إلى الباحة، ويمكثون هناك ساعة. وتوقّع أن يخرجونا وحدنا، أنا وأبو أسعد، بعد الآخرين.

لا أعرف ما كنّا لنفعل من دون حسين. لم أقل له هذا. لا أتقن المجاملة، وعلاقتنا لم تحتج إليها. ولكونه أقدم منّا في السجن، وأكبر منّا سنّاً، تبنّانا في الشؤون كلّها داخل السجن. بادر في اليوم التالي إلى شراء طابع بريدي، يُسمح له بذلك، وكتب رسالة باسمنا إلى المحامية ليئا تسيمل، طلبنا فيها أن تدافع عنّا في المحكمة. وإذ عرف أن أبو أسعد يدخّن راح ينظّم عمليات تهريب، صار مع سجناء آخرين يضعون علب سجائر «سيلون» في مزراب يُنزل مياه الأمطار من السطح إلى الباحة. وأنا وأبو أسعد نأخذها بغفلة من الحراس. ولكونه يعرف أننا لا نستطيع شراء الشاي، مثل السجناء الآخرين مرّة في الشهر، رغم أن الصليب الأحمر الدولي يخصّص لنا راتباً شهرياً زهيداً، صار يضع مع علبة السجائر شاياً وسكّراً. ومرّة وضع علبة سجائر «عمر» التي كانت تُشترى، بينما كان كل سجين يحصل يوميّاً على أربع سجائر «سيلون» مجّاناً يوميّاً.

استمر الوضع على هذه الحال، أبو أسعد يدخن وأنا أشرب الشاي الذي أعدّه مع المياه الساخنة من حنفية المغسلة، لأسبوعين، فقد أمطرت وأسقطت المياه من المزراب علبة السجائر وحلّلت الشاي. كشف أمرنا الحراس الذين يتفقّدون الباحة قبل أن يأخذونا إليها.

— «تفضّلوا، يا أخ سمير وأخ أبو أسعد لنشرب الشاي، خمر المؤمنين، معاً»، صرخ الشيخ يعقوب قرّش من زنزانته، وأتبعها بضحكة شاركناه فيها نحن وحسين، كلّ من زنزانته. يمازحنا بالتذكير بانكشاف أمر الشاي وعلبة السجائر. هذه المرّة

الوحيدة التي ذُكرت فيها خدمات حسين والآخرين لنا. الجميع سكت عنها كأنها واجب وبديهة قبل أن تكون سرّاً. والشيخ يعقوب قصد من خلال التذكير بها السخرية من السجن وحال الاعتقال. عَنَت لي مزحة الشيخ تحيّة رمزية إلى حسين والآخرين، لمحاولاتهم دمجنا رغم عزلتنا وكوننا جديدين. ومثّلت إشارة إلى التضامن والاحتضان. الصوت الأبوي للشيخ احتضنني وأشعرني بأنني أسمع خطبه في المسجد الأقصى وهو يحيّي الفدائيين أينما كانوا. صار وهو يعبر من أمام زنزانتنا خارجاً مع آخرين إلى الباحة كأنّه يأخذني إلى شوارع القدس. كنتُ أنتظره يومياً عند باب الزنزانة لأراه كي لا يذهب من دوني.

عاد حسين من الباحة. أخبرنا أن الإسرائيليين اعتقلوا بسام الشكعة، رئيس بلدية نابلس، وأنه معنا في السجن. . . وأن الأسرى قرّروا تنفيذ إضراب عن الطعام تضامناً معه، غداً.

— «نحن مستعدون»، قلنا أنا وأبو أسعد.

هذا أول تحرك نشهده في السجن، وبديهي أن نشارك فيه. شرحنا لحسين.

— «نعيد لهم غداً الوجبات الثلاث كاملة، قبل أن نتسلمها».

أتي الممرّض، كحاله يوميّاً، وسألنا من خارج الباب ما إذا كنّا نريد منه شيئاً. ماذا يفعل هذا مع الرئة الملتهبة! تركته يتابع تفقّده الزنازين.

صباحاً، لم يتسلم المضربون الطعام. ومع وصول الشرطي الموزّع إلى زنزانتنا أكدنا التزامنا الإضراب. كرّر عرضه الطعام علينا.

أول مرة أرى فيها السجان يصر علينا أن نأكل. ونحن أصررنا.

بعد قليل، جاء الجنود ودخلوا زنزانتنا. سألونا كيف نُضرِب عن الطعام. أخذونا معهم. في الطريق هدّدونا بالضرب والأكل رغماً عنّا. اختارونا أنا وأبو أسعد من بين الجميع، ليضربونا. اكتفوا بمنع الآخرين من النزول إلى الباحة. ضربونا بالهراوات حتى تفتّحت جروحي. لم يتوقفوا إلاّ بتردّد بعدما رأوا الدم على قميصي، ولا سيما من الجرح تحت إبطي. أعادونا جرّاً إلى الزنزانة. تبعهم، بعد وقت، ممرض. عاين الجروح ووضع يوداً وغادر.

فهمتُ سبب حرصهم على صحّتي عندما اصطحبونا في اليوم التالي إلى غرفة

ووجدنا في انتظارنا المحامي سليمان سليمان. ما زال مرتبكاً بكرافاته وشعره الكثيف، مع خصل شيب متطايرة. دعوته إلى فكّها والراحة منها:

– «لا تليق بك، أنت محامٍ ليس إلاّ، لا تقدّم ولا تؤخّر».

أنا أسخر منه وهو يضحك. عيناه الصغيرتان تختفيان أكثر خلف جفنيه المتورّمين.

المفاجأة لم تكن هذا الموظف، بل بسام الشكعة. أعرفه من الصور، أشهر رئيس بلدية في فلسطين المحتلة. يجلس إلى طاولة ومعه امرأة خمسينية. أردتُ أن أتأكّد من الأمر، سألت المحامي.

– «تريد أن تحكي معه»، سألني في مبادرة حسن نيّة. نهض بتثاقل حاملاً كرشه المدلّى فوق حزامه وبنطلونه. توجّه إلى الشكعة:

– «هذان الشابان منفّذا عملية نهاريا». وأنا أتابعه بنظري، كان مفاخراً بما قمنا به أكثر منّا نحن الخجولين في مقعدينا.

– «أنا محاميهما»، قال، فيما بسام الشكعة أهمله وتوجّه نحونا مصافحاً مقبّلاً. احتضننا طويلاً.

قدّمَنا الشكعة إلى المرأة وأخبرنا أنها المحامية فيليتسيا لانغر. مفاجأة أخرى هذا اليوم:

ملهوفاً غير مصدّق، قلت:

– «أبحث عنكِ وعن ليئا تسيمل منذ شهرين».

نظرتْ إلى المحامي كأنها خجِلة منه، أو من عدم اكتراثي به. استدركْتُ:

– «المحكمة عيّنته».

أخفت ارتباكها بابتسامة، وعاجلتني بالكلام بلغة عربية واضحة:

– «بعدما أنتهي من الأستاذ بسام آتي إليكم».

عدنا إلى طاولتنا. سحب سليمان من محفظته الضخمة أوراقاً، قال إنها وثائق التحقيقات. وسألنا:

– «أتريدانني أن أتكلم في الجلسة المقبلة؟».

كرّرنا موقفنا بجعله صورة وحاجة للمحكمة كي تمشي. حاول أن يتكلّم، رفعتُ سبّابتي في وجهه مع «هسّ» سمعها بسام الشكعة وفيليتسيا لانغر. ضحك.

في المحكمة رضي بالإهانة، وهنا، مع وجود بسام الشكعة والمحامية فيليتسيا لانغر، لن يعترض أو يحرد. رجل حسّاس، قلت لنفسي. ورغبتُ في أن أسأله هل يعرف الفرق بين البصاق والمطر.

لم يطل استعراضه لدوره أنه محامٍ. نهضتْ فيليتسيا لانغر وحملت كرسيها وجالستنا، بجانبه، مقابلنا أنا وأبو أسعد. بقي بسام الشكعة في مكانه. يبدو أنه أنهى معها بسرعة بحث ملفاته وطلب إليها الانضمام إلينا. فضّلنا على نفسه، مخافةَ أن ينتهي الوقت المخصّص للمحامين ولا نحادثها. أومأت له بتحية. ابتسم كأنه يتمنى لنا التوفيق.

بادرَتْ بالكلام:

– «أنا معكم، لكن صعب عليّ أن أستلم قضايا فدائيين شاركوا في قتل إسرائيليين مدنيين. أؤيّد حقوق الفلسطينيين وأرفض استعمال العنف. ورغم ذلك أعاني من ضغوط الأجهزة الأمنيّة والمتعصّبين. زميلتي ليئا تسيمل تدافع عن الفدائيين. أنا أدافع عن المعتقلين السياسيين والإداريين، فلسطينيين وعرباً وإسرائيليين».

لم تدعنا نفكر أنها تنسحب بتهذيب من الدفاع عنّا، فسَّرَتْ موقفها:

– «أنا مستعدة أن آتي إلى المحكمة مع المحامي سليمان سليمان، وأساعده، إذا هو طلب مني ذلك».

كمَن يسمع ولا يحكي دعوتُ سليمان إلى أن يطلب منها ذلك.

– «أهلاً وسهلاً، أنا جاهز لتساعديني»، قال.

توجّهت إليّ وسألتني إذا كنّا نريد أن توصل طلبنا إلى ليئا تسيمل. وأكّدتُ تخوّفها من عجز هذه من تلبية الدعوة:

– «مشغولة الآن بالدفاع عن اثنين من منفّذي عملية دلال المغربي، ولا أدري إذا كانت قادرة على المشاركة، في وقت واحد، في الدفاع عن عمليتين هزّتا إسرائيل».

رغم وعدها بأن تنضم إلينا في المحكمة أُحْبِطت. نقلتُ هذا الإحباط إلى أبو أسعد.

حين عدنا إلى الزنزانة حاول حسين العطار رفع عزيمتنا:

— «ها أنا يدافع عني محامٍ عيّنته المحكمة وأقابله هناك. حالكم أفضل من حالي، أنا لا يأتي لزيارتي حتى».

— «يا ليت سليمان لا يزورنا، خذه إذا أردت، يلعنه ويلعن شوفته»، قلنا لحسين.

لو كنّا نريده لما جاء. أتى لكي يبقى محامينا ويحافظ على وظيفته.

ليلاً، فتّشوا الزنزانة. لا شيء فيها أصلاً، غير الكوبين والصحنين والملعقتين، لكنهم لم يتركوا شيئاً في مكانه. ربما بحثاً عن علبة تبغ أو شاي... أو مجرد إزعاج.

افتتاحية الجلسة الثانية من المحاكمة عادية.

لفتتني امرأة تجلس في مقدمة الحضور، لم تنفك تحدّق بنا بكره وغضب. سألتُ سليمان سليمان عنها. أجاب:

— «هي زوجة عالم الذرّة داني هاران، الذي قُتل وابنته في العمليّة. وهي كانت في البيت مع ابنتها الصغرى مختبئتين منكم. وقد وضعت يدها على فم ابنتها كي لا يصدر عنها صوت وتكتشفوا أمرهما. فاختنقت الطفلة وماتت بين يديها».

آلمني ذلك. بالتأكيد لو رأيتهما لتركتهما، وربما أعطيت هذه المرأة ابنتها الأخرى.

تجنّبت النظر إليها كي لا تبدو نظرة تشفٍّ وتحدٍّ أو شفقة. تفهّمت وضعها كأم وزوجة خسرت أسرتها. وتذكّرت نساءً فلسطينيّات ولبنانيّات ثكالى مثلها. ردّات الفعل نفسها أينما كان: الحقد.

فجأةً رجل معوّق محروق الوجه واليدين يتوجّه إلى منصّة الشهود. لم يتوقف عن التحديق بنا والتمتمة. غاضب وملامحه تشي بأنه يسب. وصل على كرسيّه المدولب إلى المنصّة وضبطوا له المايكروفون. أريد أن أعرف مَن هو. رحتُ أستعرض مَن التقيناهم في العملية. سألت أبو أسعد إذا كان يذكره. لم تدم حيرتنا طويلاً. سرد أنه كان بجانب السائق في دورية الشرطة التي استدعتها أسرة سيلع التي تقيم في الفيلا عند الزاوية:

— «قالوا لنا إن هناك حركة غريبة في الحي».

وحكى كيف أصيبت سيارته.

— «كيف نجا هذا؟»، همستُ لأبو أسعد.

ردّ مصدوماً:

— «أنا رأيتك تتفقّده، ولم يتحرّك، بقي مرميّاً على تابلوه السيارة».

— «لم يتنفّس آنذاك»، قلت.

ولم أعد أسمع ما قاله. يا ليت محضر الجلسة معي. انتبهت وهم يبعدونه عن المنصّة، بقرار من القاضي. فهو لم يتوقف عن شتمنا وتهديدنا، قال لي أبو أسعد.

اعتلت المنصّة امرأة، روت أنها قفزت، عبر الشباك في الطبقة الثانية، هرباً منّا، وقد انكسرت ساقها.

انتظرتُ أن تعتلي زوجة عالم الذرّة منصّة الشهود. لم يحصل.

صعدت إلى المنصّة امرأة ثانية قفزت أيضاً من الشباك، لكنّها لم تصب بأذى. حمدَت ربّها أنها سقطت على العشب.

عندها، شعرتُ بأن القصّة ستطول.

ما إن نزلت من المنصّة حتى قلت للقاضي:

— «قدر الإمكان قلّصوا عدد هؤلاء الشهود».

— «هذه إجراءات المحكمة».

— «ماذا تريدون أن تعرفوا؟ العملية نحن نفّذناها، وسيارة الشرطة نحن ضربناها بقذيفة إينيرغا وأخرى من الآر.بي.جي. وأمطرناها بالرصاص، فلا تعذّبوا الشرطي وتأتوا به ليشهد. أما أن هذه خافت وتلك قفزت، فما حاجتنا إليها!».

غضب القاضي:

— «نحن نعرف ماذا نفعل!».

استدعى خبير سلاح. قدّم تشخيصاً لأنواع أسلحتنا.

مهّد هذا ليصعد إلى المنصّة ضابط آخر راح يعرض أين أُطلقت القذائف وعلى ماذا، وأين رُميَتْ القنابل ومَن استهدفتْ، ومَن قُتل بسلاح من ومن جُرح بسلاح من. قال إن الطفلة قتلت بمسدسي.

قاطعته وسألت:

— «أيّ مسدس؟».

– «هذا التشخيص المخبري يثبت أنها ضُربت بآلةٍ حادّة، وتبيّن أنه مسدّسك. وجدت شعرة من رأسها على مسدسك».

– «هذا كلام فارغ».

خيّر القاضي الجمهور، الذي استنفر وراح يشوّش، بين الهدوء أو الخروج من القاعة.

جاء دور الدفاع. وقف المحامي سليمان سليمان وأعلن أننا نرفض مرافعته عنّا. ونطلب أن ندافع بأنفسنا عن أنفسنا.

رد القاضي موافقاً:

– «تفضّل سمير القنطار، لكن عليك أن ترافع وأنت واقف. لا يمكنك أن تفعل وأنت جالس».

ما زلتُ جالساً:

– «لا مشكلة إذا كنت أرافع، فأنا لا أجيبك. إذا سألتني أجلس».

– «ممنوع أن أسألك ولا تقف، ولا أن تجيب وأنت جالس».

– «لا أريد أن أحكي معك وأنا أقف. أريد أن أحكي واقفاً وحدي».

اقترح:

– «عندي حلّ وسط. إذا كنتَ لن تجيب وأنت واقف، فأنا أسأل محاميك وهو يقف ويسألك ويجيبني وهو واقف. لا أحد يجيبني من دون أن يقف».

– «لا اعتراض»، رددت عليه. هذه وظيفة سليمان سليمان، ساعي بريد صوتي يقف لسيّده ووليّ نعمته.

سأل القاضي، متوجّهاً إلى سليمان الواقف:

– «أيريد أن يتكلّم؟».

سألني سليمان، ونقل جوابي. ثم نقل سماح القاضي لي بالكلام.

وقفت:

– «شرّدتُمْ الشعب الفلسطيني من أرضه وأقمتم دولتكم. ولم تكتفوا بذلك، بل أنتم تطاردونه وتقتلونه بطائراتكم وأسلحتكم الفتّاكة...».

اعترضت النيابة على كلامي السياسي، فأومأ القاضي بيده أن أسرع.

لم أستجب:

— «الشعب الفلسطيني يحاول أن يستعيد حقّه ووطنه. وأنا كمواطن عربي قضيتي المركزية هي فلسطين»...

هاج الجمهور. أخرج القاضي من القاعة بعض مَن ضجّوا بصخب ورآهم.

— «وجدتُ من واجبي أن أقوم بهذه العملية».

استجاب القاضي مرة أخرى لاعتراض النيابة. حرّك القلم في يده إشارة تأفّف وطلب الاستعجال.

رويتُ العملية وكرّرتُ تكذيبي قصتهم المفبركة عن قتلي الطفلة. قلت:

— «أنتم اخترعتم هذه الحكاية لتظهرونا كوحوش».

ضجّت القاعة بشتائم الجمهور. أعلن القاضي نهاية الجلسة وأن الاستماع سيكون لأبو أسعد في المرة المقبلة.

ما زال حسين ينقل لنا الأخبار التي يسمعها عبر الراديو المتاح له لكونه موقوفاً. الشيخ يعقوب قرّش لديه راديو آخر. صرخ حسين من زنزانته يخبرنا أنّ الاتحاد السوفياتي بدأ غزو جارته أفغانستان، في ١٩٧٩/١٢/٢٥. وانضم الشيخ يعقوب إلينا، كأن ليحول دون أي انجراف في تأييد الاتحاد السوفياتي أو تعبير عن فرحة:

— «الاحتلال احتلال، أياً كان المحتل ومهما كانت ذريعته، حماية حدوده أو مواجهة خصمه. لا بلاد ترتاح وتكون حرّة وتتطوّر تحت الاحتلال».

لم أساجله، ولم أشعر بحماسة لذلك، كنت أترك هامشاً للأسباب السياسيّة التي دفعت الاتحاد السوفياتي إلى مثل هذه الخطوة. ثمّ تبدّد هذا التفكير، إذ خضّتني تلك الكلمات، طالعة من نفسٍ تعاني الأمر ذاته حتّى باتت لا تُخدع بأيديولوجيا أو أي قناع آخر. وسألت نفسي كيف تدعم الدولة الاشتراكيّة الأولى حركات المقاومة والتحرّر في كوبا وفلسطين وتحتل جارتها الضعيفة، أفغانستان. شعرت بأنّ باباً انفتح في وعيي وتفكيري.

من اللحظة الأولى في الجلسة التالية، حين دخل هذا الضابط وعلى رأسه بيريه حمراء، وأنا أشعر بأنني سبق أن رأيت وجهه. سألت أبو أسعد عنه. لا يعرفه.

رجلٌ أشقر لا يصلح ليكون جاسوساً في بيروت، لأكون لمحته هناك، مَن هو إذاً؟ هل كان بين المحققين؟ سألت نفسي وأبو أسعد. لم تسعفني ذاكرتي.

أول ما طلبه القاضي خروج الجمهور، ومنه زوجة عالم الذرّة داني هاران:

— «جلسة سريّة لدواعٍ أمنية».

أغلقوا الأبواب.

نقل إلينا المحامي سليمان قرار المحكمة، بصيغة السؤال، فاستفسرت منه إذا كان موقفنا يقدّم أو يؤخر. أكد أنه شكلي. رددت أن لا فرق عندنا بين جلسة سريّة وجلسة علنية.

صعد الضابط ذاك بقامته الطويلة وأناقته العسكرية إلى منصّة الشهود:

— «العميد يوسف تساحور».

لا يعني الاسم لي شيئاً. حتى اللحظة لم أحفظ من أسماء الإسرائيليين، باستثناء قادتهم السياسيين والعسكريين البارزين، إلاّ أسماء أبو زكن وفريد والجنجي وفلاح وعايزرا وليئا تسيمل وفيليتسيا لانغر. ومن أسماء قتلى العملية اسم داني هاران الذي أخذناه وابنته عينات إلى الشاطئ... بقي هذا الاسم في رأسي، إذ فوجئتُ بأنه عالِم ذرّة. وعندها تذكّرتُ أن هناك علامات، في البناية، تدلّ على أنه رجل مهم، فعلى مدخل بيته عُلّقت كاميرا. وتوقّعتُ أن يأتوا بأشرطة منها.

تابعتُ تساحور باهتمام.

— «قائد الجبهة الشمالية الداخليّة وقطاعها الساحلي. قدتُ حصار المخرّبين على الشاطئ. وقد تسللتُ برفقة جندي إليهم من جهة الشمال. وصلنا إلى الصخور، وفجأةً وقف مخرّب قصير القامة وأطلق النار علينا. الجندي أصيب في رقبته فمات، وأنا أصبت بثلاث طلقات في صدري. وبقيت أنزف لوقت طويل. حاول الجنود سحبي لكن المخربين بقوا يطلقون الرصاص والقذائف ويرمون القنابل. لا أعرف كيف نجوت».

لم أصدّق. ثلاث رصاصات في صدره وسقط أمامي وما زال حيّاً! لعلّه كان يرتدي سترة واقية ضد الرصاص.

مشدوهاً التفتُّ إلى أبو أسعد. لم تكن صدمته أقل من حالي.

سأله القاضي:

— «أتعرف مَن أطلق عليك الرصاص؟».

- «طبعاً، هذا المخرب بالكنزة الصفراء، سمير القنطار».

سألني القاضي:

- «صحيح».

- «نعم»، وبقيتُ جالساً.

- «قف وأنت تجيبني».

- «خلص سألتني وقلت».

ملَّ من السجال معي حول الوقوف والجلوس. تركني.

انسحب تساحور من المنصّة والقاعة عبر الباب المخصّص للقضاة. سمح القاضي بإعادة الجمهور والصحافيين. بعدما هدأوا في مقاعدهم، طُلب إلى أبو أسعد الإدلاء بشهادته:

- «القضية الفلسطينية عربية ومحقّة، لقد شُرّد الشعب وأقيمت على أرضه دولة احتلال... ونحن كشعب سوري مع هذه القضية ومع هذا الشعب المظلوم والمكافح. وأنا شاركتُ في العملية الفدائية انطلاقاً من قناعاتي ومسؤوليتي. جئنا إلى أرض فلسطين نقاتل المحتل ولكي نأخذ أسرى ونبادلهم بمعتقلينا في السجون الإسرائيلية. حميتُ البناية أثناء اقتحامها، وانسحبنا منها إلى الشاطئ، وحوصرنا وواجهنا الهجمات المتتالية علينا. وأثناء المعركة قُتلت الطفلة. لم يقتلها سمير. كنّا مشغولين عنها، ولم نعرف أصلاً أين وضعها أبوها».

- «أنت اعترفتَ بأن سمير القنطار قتلها»، قال القاضي صارماً.

- «انتزعوا مني اعترافاً كاذباً تحت التعذيب، وكنتُ في حالة نفسية وجسدية صعبة للغاية. ضربوني حتى الإغماء ولم يتركوني أنام لأيام طويلة. أخذوا مني هذا الكلام وكنتُ في غير وعيي. لم أكن أدري ما أقول. الآن، في كامل وعيي وخياري أتراجع عما نُسب إليّ. وأنتم كمحكمة عليكم الأخذ بالاعتبار ما تعرّضنا له، والظروف التي كنّا فيها، وكيف انتُزعت مني الأقوال».

انتهت الجلسة.

أعادونا إلى سجن الجلمة القريب، ثم إلى سجن التوقيف في الرملة. بقينا هناك في زنزانتين متجاورتين، حتى ٢٨/ ١/ ١٩٨٠، يوم الجلسة الختامية.

القاعة محتشدة بالجمهور والصحافيين. أيدينا بقيت مرفوعة نرسم بها شارة

النصر. بحثتُ عن تساحور بين الجمهور فلم أجده. زوجة عالِم الذرّة داني هاران في مقدمة الجالسين. نظرتها هي نفسها.

بدأ القضاة يتلون حيثيّات الحكم. استدعيتُ سليمان سليمان لأسأله عمّا إذا كان يحق لنا أن نتكلم الآن. توقف القاضي عن الكلام حين رأى سليمان متجهاً نحوي. وانتظر أن ينقل سيلمان سؤالاً منّي أو ما إلى ذلك. أجاب القاضي أننا سنُعطى حق الكلام بعد انتهاء الحكم، أما قبل ذلك فيمكننا الكلام إذا كنّا نريد طلب استرحام.

أكّدتُ أننا لا نسعى إلى ذلك، بل نريد التعليق على الحكم.

— «بعد الحكم»، جاء رد القاضي.

في هذه الجلسة، وبما أنها الأخيرة وليئا تسيمل لم تحضر لتدافع عنّا، ولا جاءت فيليتسيا لانغر لتساعد المحامي سليمان، كما وعدتنا، أعطيتُ المحامي بعض الحرية.

صدر الحكم:

— «يستحقّان الإعدام على ما فعلاه مع رفيقيهما، ولكن الحكم هو: سمير القنطار خمسة مؤبدات، أي ٤٩٥ سنة مؤبدات لقتل خمسة مواطنين، و٤٧ لتسبّبه بجرح اثني عشر مواطناً وعسكرياً، ما مجموعه ٥٤٢ سنة ونصف».

لم أهتم بأن الحكم يقول إنني قتلت خمسة لا ستة، وما إذا كانت الطفلة ضمن هؤلاء الخمسة أم أن المحكمة تراجعت عن الكذبة. ولم أهتم بالسنوات السبع والأربعين الإضافيّة الكافية وحدها لانتهاء حياتي في السجن. حيّرتني الستة أشهر. لَمَ هي؟

قلتُ للمترجم أن ينقل سؤالي:

— «أهي طوابع؟».

لم يفهم القاضي هذه السخرية اللبنانية. شرحتُ للمترجم:

— «عندنا في لبنان عندما يأخذ أحدهم أكثر من السعر، عمولة، نسمّي ذلك طوابع».

جُنّ القاضي:

— «أنت تسخر من المحكمة. وأنا آمر بإخراجك من القاعة».

قلت:

— «لم أسمع بقيّة الحكم بعد».

— «أخرجوه»، صرخ غاضباً.

جمدت المحكمة. لم أسمع من القاعة، وأنا في الممر قريب من بابها، صوتاً إلاّ ضجيج الجمهور بين حين وآخر. كان يبدو لي ضجيج اعتراض على توقّف المحاكمة وانتظاري.

أعادوني بعد نصف ساعة.

استأنف القاضي الجلسة، سارعتُ إلى القول:

— «لن أدعك تكمل قبل أن تُفهمني لماذا الستة أشهر، هذا حقّي».

كنتُ جالساً.

رد وقد باءت بالفشل محاولاته تجاوز الأمر:

— «لأنك دخلت أرض إسرائيل بشكل غير شرعي».

— «المرّة المقبلة سأمرُّ على رأس الناقورة وآخذ تأشيرة دخول من شرطة الحدود الفلسطينية».

«فرط» القاضي. عبّر أنه لم يلتقِ في حياته المهنيّة بمتهم وقح مثلي.

طلب إبعادي عن القاعة.

توقّفتْ المحكمة مرّة أخرى.

احتجّ أبو أسعد مطالباً بحقّه في سماع الحكم عليه. رد القاضي طالباً إليه الانتظار. روى لي أبو أسعد هذا، وحكى أن القضاة أيضاً غادروا القاعة.

نحو ساعة أو أقل بقليل بقيتُ جالساً على مقعد في الممر بين عدد كبير من الحراس.

أدخلوني مجدّداً.

نقل لي المترجم عن القاضي:

— «اقعد، هذه آخر جلسة ولا نريد مشاكل، خلص».

تكاد ضحكتي تنفجر.

استعجل القاضي تلاوة الحكم وأعطاني حق الرد.

— «أتوجّه إلى الرأي العام. لا أكترث للحكم، خمسة مؤبّدات أو تسعة لا فرق عندي. أنا سعيد لأنني جئت إلى هذه الأرض، فلسطين. وأنا مؤمن بأنه سيأتي

يوم ويستعيد الشعب الفلسطيني أرضه وهويته وحقه في هذا البلد. وتعليقاً على هذا الحكم، إذا كنتَ تتوقّع أن دولة إسرائيل ستستمر على قيد الحياة لخمسة مؤبدات و٤٧ سنة ونصف، فأنتَ مخطئ وواهم».

«وصلت» مع القاضي إلى الذروة. توتّرَ وراحَ يؤنّبني لأني جعلتُ محكمته منصّة سياسيّة:

— «دولة إسرائيل ستبقى إلى الأبد».

أمر بإخراجي نهائياً. انضمّ إليّ أبو أسعد، أوقفه الحراس. تلا القاضي عليه الحكم المطابق لحكمي ولم يفسح له المجال ليدافع عن نفسه.

«زوندا» وشهيدان

ما إن أخبرني السجين الذي يتحرّك في الممر أن أسيرَي عملية دلال المغربي، حسين فياض وخالد أبو إصبع، موجودان في الزنزانة المقابلة، حتى ناديتُ عليهما.

رفعتُ صوتي قدر الإمكان ليسمعاني. فالأبواب هنا، في سجن الرملة للمحكومين، الطاقة في أعلاها تبقى مغلقة، تُفتح من الخارج، على خلاف أبواب سجن الرملة للموقوفين. هناك شبّاك شبك في النصف الأعلى، وكنتُ أرى من خلاله حسين العطّار والشيخ يعقوب قرّش.

لم يستجب حسين وخالد لندائي الأوّل. سمعتُ التصاقَ أجساد بباب حديد، وتبادلَ حديثٍ يصل إلينا كوشوشات. كرّرتُ المحاولة وعرّفتُ بنفسي وبأبو أسعد. ردّا عليَّ. تبادلنا التحيّات كما لو أننا نعرف بعضنا بعضاً.

سألانا عن المحاكمة والأحكام. وعرفنا منهما أنّ كلاً منهما حكم بالسجن مدى الحياة. وبسرعة استفسرتُ عن كوزو أوكوموتو وصحّته. كان السجين الذي يتحرّك في الممر أخبرنا أنه موجود هنا في زنزانة مجاورة وأنه لا يتكلم مع أحد.

— «لديه مشاكل نفسية، مصدوم، من التعذيب»، قال حسين أو خالد.

أحسستُ أنهما لا يريدان الحديث عن وضعه بصوتٍ عالٍ فيسمع المساجين الآخرون. بعد الجملة المقتضبة عن كوزو أخبرانا أنّ هذه السرايا التي بُنيت أيّام الانتداب البريطاني (١٩٣٤) واحتلّها الجيش الإسرائيلي عام ١٩٤٨، حُوّلت عام ١٩٦٧ سجناً مركزيّاً للجنائيّين الإسرائيليين والأسرى العرب.

نحن هنا، كما أخبرنا حسين وخالد، لستة أشهر فقط، قبل أن نُنقل إلى سجن آخر للفلسطينيين والعرب. أسفتُ على كوزو وفكّرتُ أنهم عاملوه بوحشية لكونه يابانياً متضامناً مع القضية الفلسطينية. ورغم أن اسمه الحركي كان أحمد، ورفيقاه

في عملية الهجوم على مطار اللد، اللذان استُشهدا، ياسويوكي ياسودا كان اسمه صلاح، وتسويوشي أوكودايرا، باسم، إلاّ أن الإسرائيليين نظروا إليهم كيابانيين. ولا أعتقد أن كوزو ورفيقيه أرادوا من خلال الأسماء الحركية إخفاء هويتهم القومية، فإلى وضوح هيئاتهم، هم أعضاء في الجيش الأحمر الياباني. لقد أرادوا من الأسماء تأكيد ارتباطهم بالقضية الفلسطينية. ورغم أمميّة عقيدتهم، احترموا لغة فلسطين. لعلّ الإسرائيليين استحضروا، بعد مرور أربعين سنة على الحرب العالمية الثانية، تحالف اليابان مع ألمانيا وهتلر، وقسوا عليه انتقاماً.

نمتُ وأنا أفكّر في هذا. أيقظني، بعد ساعات، اقتحام حرس السجن الغرفة وتفتيشها. أزعجوا خالد وحسين أيضاً، فيما صراخٌ هستيريّ يخرج غاضباً متألّماً من زنزانةٍ مجاورة. اعتقدنا أنا وأبو أسعد أنه كوزو.

غادرني النوم. بقيت في فراشي. ضيقُ مساحة الزنزانة وارتفاع سقفها يجعلانها تبدو كبئر عميقة. الرطوبة تزيد من هذا الإحساس.

في اليوم التالي، جاءنا شرطيّان من حرس السجن. فتحا باب زنزانتنا وأخذانا أنا وأبو أسعد. عبر الممر في الطابق ذاته، الثاني من السجن، نظرتُ إلى أبواب الزنازين كلّها. فرغم أنّها مغلقة كنت أتمنّى أن أرى كوزو. وفي آخر الممر باب يُفتح على باحة بحجم غرفة. كانت ما يشبه الشرفة قبل أن تُسيّج بالحديد وتغدو قفصاً. استفزّتني رائحة المجاري. وسألت نفسي وأبو أسعد كيف يمكن لعَشرة سجناء أن يتحرّكوا فيها حين يُخرجون دفعة واحدة إلى هنا! جذبتني أشجار موزّعة في المحيط، خارج أسوار السجن، نرى أجزاءً منها. شعرت وأنا أتنفّس بأنّني أستقبل نسمات الهواء التي ترسلها إليّ.

بعدنا أحضر الشرطيّان شابّين أسمرين هيئتهما فلسطينيّة. أدركنا أنّهما حسين وخالد. وهما عرفانا أيضاً.

الاثنان من جيلي، يكبرانني بسنوات. يتكلّمان بلهجة فلسطينيّة، وإن كان على لسان خالد أثر من لهجة أهل الكويت، حيث ولد ونشأ. تذكّر حسين، حين رآني، رفيقهما، يحيى سكاف، الملقّب أبو جلال، لبناني، وقد قالا إنّه استُشهد في العملية. رفع حسين رأسه ليرى إلى خالد الأطول منه، وسأله إذا كان مصيباً في ما يقول. وافقه. كان ذلك عتبةً للحديث عن عمليتهما. وأنا متشوّقٌ للاطلاع على التفاصيل العسكرية. رويا كيف انقلب أحد زورقَي مجموعتهما في البحر الهائج.

وقد غرق اثنان منهم، خالد عبد الفتاح يوسف من طولكرم، وعبد الرؤوف عبد السلام علي، يمني من صنعاء.

— «خياركم أن تأتوا من لبنان بمحاذاة الشاطئ كان أفضل من خيارنا العبور بباخرة ننزل منها إلى زورقين ننتقل بهما إلى فلسطين»، قال حسين وهزّ خالد رأسه.

— «لا تحزنوا، فقد اجتاحوا الجنوب اللبناني بحجّة عمليّتكم، كأنكم انطلقتم مثلنا من صور»، مازحهما أبو أسعد.

لم أدَع الضحك يبدّد عليّ سماعي قصتهما. سألتهما عمّا حصل بعد وصول مجموعتهما إلى البر.

— «خطفنا باصاً للركاب وأجبرناه على التوجّه إلى تل أبيب. هدفنا نادٍ (Country club) يجتمع فيه ضباط ومسؤولون إسرائيليّون على المدخل الشمالي لتل أبيب، واقتحامه لأخذ من فيه رهائن. نتفاوض عليهم لتحرير أكبر عدد ممكن من الأسرى الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية. وليأخذونا بعدما يتحرر الأسرى سجناء أو شهداء. أعلنت دلال هذا للركاب المصدومين بوجود فدائيين بينهم، لكنهم لا يفهمون العربية، لغة هذه الأرض، كما قالت دلال.

أخرجت دلال علم فلسطين وعلّقته في الباص وهي تردّد نشيد فلسطين «بلادي... بلادي... بلادي... لكِ حبّي وفؤادي/ فلسطينُ يا أرضَ الجدود... إليكِ لا بدّ أن نعود».

تناوب خالد وحسين على متابعة الحكاية:

— «استطعنا خطف باصٍ ثانٍ نقلنا ركّابه إلى الباص الأوّل. ووضِعَتْ في الطريق وحداتٌ من مئات الجنود، لكننا تجاوزنا ثلاثة حواجز، قتلنا عدداً كبيراً منهم. ووصلنا إلى مشارف تل أبيب، حيث اصطدمنا بالعشرات منهم مختبئين في دباباتهم وعلى الأبنية. أطلقوا النار علينا. توقّف الباص قبل الاصطدام بمدرّعة. أمرَتْ دلال إحدى الرهائن، أعتقد أنّها من أصول يمنيّة أو مغربيّة، أن تهدّئ الركّاب. لكنَّ القوّة المحاصِرة أعلنت عبر مكبّرٍ للصوت أنها لا تفاوض المخرّبين وعلينا الاستسلام».

التفتنا أنا وأبو أسعد في الوقت نفسه كلٌّ إلى الآخر، وقلنا في الوقت نفسه:

— «يحملون المايكروفون قبل البنادق».

ضحكنا.

تابع حسين:

— «اشتبكنا معهم، وقد أطلقوا الرصاص والقذائف على الباص من دون اكتراث بالرهائن. ولم يتمكنوا من اقتحامه بالنار إلاّ بعد استشهاد دلال ومعظم أفراد المجموعة. أبو الرمز وقف في مواجهتهم، ظنوا أنه يستسلم لهم، لكنه فاجأهم بإطلاق النار عليهم وقتل مجموعة واستشهد».

شردَ حسين وهو يتذكّر العقيد إيهود باراك يسأله بعد أسره جريحاً مَن قائد المجموعة؟

روى حسين بملامح النادم:

— «أشرتُ إلى الشهيدة دلال. كانت قائدة جديرة». وبقي ملتفتاً إلى جهة كأنها شاشة يرى من خلالها أشياء خاصة.

قرأتُ الكثير في وجهه الأسمر. صار وجهه شاشتنا.

قال:

— «منذ البداية، خصوصاً منذ أُصيب أبو هزّاع، محمود أبو منيف، قائد المجموعة، بدوار، وهي قائد المجموعة. جميعنا تصرّفنا باعتبارها هي القائد. لو رأيتماها وهي تخطب بالرهائن، كانوا الخصم والحكم في آن واحد. توجَّهَت إلى الضمير الإنساني. ولا أعتقد أن من يفكّر من الرهائن مرتين يبقى كما كان. ومن لم يتأثّر منهم بكلام دلال لا بد يسأل نفسه كيف جاءهم الرصاص من جيشهم الذي يُفترض أنه يحميهم، لكنه لم يكترث بهم، بل قتلهم. معظم القتلى الإسرائيليّين، السبعة والثلاثين، من المدنيين، وكلّهم قتلوا برصاص الجيش الإسرائيلي».

وخالد كان مثلنا، أنا وأبو أسعد، يسمع ويرى للمرة الأولى. لكنه يعرف ما فعله باراك بجثّة دلال، وشدّها من شعرها أمام الكاميرات. ماذا كان يعني من شدّ شعرها الذي قصّت منه ملامح الأنوثة، أجّلتها ما دام عليها واجب وطني؟ أراد نزعه ليتخفّى به ويقصد بيروت ليغتال أحد قادة المقاومة، كما فعل في عملية اغتيال كمال عدوان وكمال ناصر وأبو يوسف النجار؟ يريد إعلان انتصاره على الفدائيين والقول إنهم جثث في يده؟ لم يحقق غايته. كانت دلال جزءاً من الأرض، مثل شجرة أو صخرة، وهو يمثّل الاحتلال والاستبداد.

مرّت الساعة في الباحة بسرعة. أعادونا إلى الزنزانتين.

كنتُ متعباً كأني عائد من معركة أو تعذيب. كتفاي حمل ثقيل على ظهري، ورئتي تئنّ مثل طفل جائع موجوع. استلقيت على الفرشة. لو أنام.

حضر الحارس وطلب إلينا مرافقته إلى غرفة المحامين. استعذت من الشيطان:

— «سنلتقي بسليمان سليمان الآن، وسيكون مرتدياً الكرافات التي لا يعرف كيف يتعامل معها، ولا تليق به أصلاً»، همستُ لأبو أسعد.

تابعنا سيرنا باشمئزاز.

لكننا لم نجده في غرفة المحامين. أشار إلينا الحارس بالذهاب إلى طاولة تجلس إليها امرأة نحيفة، في بداية العقد الخامس من العمر. شقراء ما زالت تحفظ شيئاً من جمال شبابها.

— «أنا المحامية ليئا تسيمل»، قالت وهي تمد يدها لمصافحتي.

ابتسمت. فرحت لاهتمامها بنا ومجيئها لمقابلتنا رغم أن المحاكمة انتهت.

— «وصلتني رسالتكما قبل أيّام، بعد انتهاء المحاكمة»، بدأت كلامها، وهي تجلس، كأن لتزيل أيّ سوء فهم أو عتب من جانبنا لتخلّفها عن الدفاع عنّا في المحكمة. ووضعت الرسالة فوق الطاولة، لتجعلنا نقرأ تاريخ تسلّمها مختوماً.

فوجئت، لا بحبسهم الرسالة، بل بتأكيدها أنه لو وصلتها الرسالة قبل المحاكمة أو في أثنائها لحضرت ورافعت عنّا.

— «أحببتُ أن أتعرّف إليكما، وأنا معكما دائماً»، قالت.

هززتُ رأسي. ارتحت لها. شعرتُ بأنها صادقة مع قناعاتها. لمستُ لديها هدوءاً ومصالحة مع الذات.

— «أنا أؤمن بدولة واحدة للعرب والإسرائيليين. أناهض العنصرية. ونناضل من أجل مصالح البروليتاريا. نواجه صعوبات كبيرة في مواجهة الآلة الدعائية الكبيرة التي تحكم إسرائيل».

أعجبتني لكنتها وهي تتكلّم العربيّة بتكسُّر، لكن بقدرة على التعبير، وببساطة. رغبتُ في أن تتحدّث أكثر. وهي بدت مستعدّة للبقاء حتى نهاية الوقت المتاح. كنتُ وهي تعرّفني بتنظيمها التروتسكي، حريصاً على ألاّ أقاطعها، مثل طفل يستمع إلى قصّة مشوّقة.

ترددتُ في سؤالها عن حجم تنظيمها وتأثيره في المجتمع الإسرائيلي. توقّعتُ إجابة بأنه تنظيم نخبوي. واحترتُ ماذا أقول إذا ما توقّفت عن الكلام.

بعد أيام أخبرنا حسين أن جندياً، عربياً آدمياً، هرّب له راديو.

— «ماذا يجري في فلسطين ولبنان؟»، سألته هامساً.

— «أمس قصفت إسرائيل المخيمات وقرى في الجنوب».

سكت ونظر إليّ مبتسماً:

— «وعدني أن يهرّب لكما راديو أيضاً، لكن علينا الانتظار لأيام».

تذكّرتُ وعدَ أبي بإبدال التلفزيون القديم، الأبيض والأسود، بآخر ملون. وفي آخر مرّة قصدت بيتنا قبل العمليّة وجدته أتى بزيارة من السعوديّة حيث كان يعمل، وحمل معه واحداً. رأيت وجه أبي وسمعت صوته خافتاً. شعرتُ بأنني لا أتذكّره بل أشاهده الآن حزيناً قلقاً عليّ. بدا عليه التعب وأن عمراً مرّ عليه قاسياً. أحسستُ به يحنو عليّ كما كان يسألني عن صحتي، مع الربو. منذ عدت لا أراه كثيراً، منخرطاً في الجبهة قبل العملية بسنوات، هجرني الربو. كأن ثمّة علاقة بين الربو والطفولة. وأنا كرهتُ الربو، إلى بشاعته كمرض، لكونه سبباً لدعوة أبي إلى أن أستكين وأرتاح. رفضتُ أن يكون المرض مغناطيس أبي وعطفه ومبرّراً للاستقالة من أي دور تجاه فلسطين. كنتُ أخفي الربو ونوباته عن أبي. أردتُ دائماً أن يراني رجلاً معافى. وهو كان حنوناً يطلب إليّ ألاّ أستعجل في «الكَبَر». ومع حماستي لحمل السلاح أرادني أن أبقى طفلاً، حتى ولو أكابد الربو.

تعبت. بإرادة كاملة تذكّرتُ وجع رئتي. هذا جرح أواجهه وحدي، ولا يعرف به أبي وأهلي. رغبتُ في ألاّ يعرفوا أنني جريح ومريض. اطمأننتُ لهذه الفكرة. هم يفكرون بأنني أسير، وهذا كافٍ. وأنا أرتقي لأكون هذا وحسب، كي لا يغوصوا بهذه التفاصيل. أردتهم في الخارج، بعيدين من عالمي. لا أريد شفقة. ربو العلاقات الشفقة. أسير، معتقل، هذا أنا، واحدٌ من كثيرين، مثل كثيرين.

ليلاً، فتح حارس طاقة الباب ونادى علي. ناولني مجموعة أوراق صفراء خشنة. رسائل! واحدة من أبي وثلاث من أختي سناء. استفزّني توسيخها بدعسات حذاء عسكري وآثار بصاق. يبدو أن ضابطاً أو جنديّاً تعمّد إضافة رسالة حقد

وغضب إليها. الرقيب ربّما من فعلَ ذلك، إذ غُطّيت بالطلاء الأبيض عبارات وكلمات في رسائل أختي. رسالة أبي مرّت من دون تشويه. اكتفى أبي بتمنّي أن تصل كلماته إليّ وأكون بخير، وطمأنني علي أمّي وإخوتي. قرأتها مرّات عدّة ووضعتها بجانبي على الفرشة، كأن أبي وأختي يستلقيان بقربي. غفوت.

مرّت أيام. ونحن في الباحة، التصق بي حسين ناظراً إلى الأسفل. سحب من تحت قميصه راديو صغيراً. غمزني وأشار إليّ أن أخفيه فوراً تحت قميصي. فاجأتني سرعة تهريبه. قبل سنوات، في منتصف عام ١٩٦٨، هنا، خاض الأسرى الفلسطينيون إضراباً مفتوحاً عن الطعام ليُسمح لهم بإدخال أقلام ودفاتر، وأنا الآن أمسك براديو. فكّرتُ أنه كان في إمكانهم الحصول على الدفاتر والأقلام بالطريقة ذاتها التي هُرِّب بها راديو لحسين وخالد ثم واحد آخر لي ولأبو أسعد. لكنهم أرادوا أن يحصلوا عليها علناً كحق. وأكّد هذا الرأي حسين متذكّراً إضراباً آخر، هنا أيضاً، في الشتاء مطلع العام نفسه، طالب فيه الأسرى بوقف الاعتداء الجسدي عليهم ونقلهم من البركسات التي كانت تغرق بمياه الأمطار وتدخلها مياه المجاري.

تساءلنا لماذا طالب الأسرى بالدفاتر والأقلام. كان ذلك بمثابة تمرين، إذ تذكّرت قول الشيخ يعقوب قرّش إن الأسرى الفلسطينيين يعلّمون أنفسهم اللغة العبرية. يكتبون ما يسمعونه من الحراس ويحفظونه. ودعانا أنا وأبو أسعد إلى فعل ذلك حين نحصل على دفتر وقلم. وقال إن أكثر كتاب يُقرأ في السجن هو «ألف كلمة بالعبرية». ليس بهدف معرفة العدو وحسب بل للتعلُّم. اطلبوا العلم ولو في السجن. عبارة قالها الشيخ في صيغة المزاح كمَن يحمّل كلامه البسيط حكمة ورسالة مشفّرة.

تشوّقتُ للانتقال إلى سجن آخر أنضمّ فيه إلى الأسرى. قلت إنه إذا بقينا هنا، أربعة أسرى عرب وكوزو أوكاموتو، فلن نقدر على المطالبة بشيء ولن نكون ضمن حركة مطالبة بأيّ شيء.

مازحنا حسين بالقول إنه إذا بقينا نحن في سجن الرملة فسيهرب السجناء الجنائيون الإسرائيليون. فهؤلاء تمرّدوا سنة ١٩٧٠ مطالبين بفصلهم عن الأسرى الفلسطينيين والعرب الذين كانوا قد بدأوا ينظّمون وجودهم وحركتهم.

شعر حسين وخالد وأبو أسعد بأنني يائس ولا أفكر بالخروج من السجن. رددتُ عليهم أنني مثلهم أرغب في الحرية وفي عملية تبادل. فالإسرائيليون لن يخرجونا ولم يُخرِجوا قبلنا أسيراً إلاّ في عملية تبادل. وروى حسين وخالد أول عملية تبادل حقّقتها حركتهما فتح:

– «تسللت مجموعة فدائيّة عبر لبنان وخطفت حارساً (شموئيل روزنفيسر) من مستعمرة المطلّة. أُجبرت إسرائيل على المبادلة بمحمود حجازي الذي أُسِر أثناء قيادته مجموعة فدائيّة تسلّلت عبر الأردن ونفّذت عمليّة عسكريّة في فلسطين. حُكم عليه بالإعدام وخُفض إلى المؤبّد. وتحرّر في عام ١٩٧١ بعد خمس سنوات من الأسر».

لم يحبطنا هذا الكلام، لكنه واجَهنا مع الواقع. واقع أننا أسرى وأملنا بالحرية معقود على مَن هم في الخارج. وكان لسان حالنا يقول إن الوقت ما زال باكراً لهذا. الأمور هذه لا تحصل بين ليلة وضحاها. كوزو في السجن منذ عام ١٩٧٢، وبالتأكيد هناك أسرى سبقوه وما زالوا في السجون.

قبل أن تنتهي الساعة في الباحة التي باتت تشبه الاجتماع الحزبي، اتفقنا على أن نحاول إخراج كوزو معنا في المرّة المقبلة. تولّى حسين المهمّة.

استمعنا لليلة كاملة إلى إذاعتَي مونت كارلو وفلسطين الثورة. وفي اليوم التالي، فرحنا بكوزو معنا في الباحة. انضمّ إلينا مكبّل القدمين، مثلنا. بدا لنا طفلاً بالكاد يمشي. ولديه من الكلام الذي لا يعرف نطقه الكثير. الابتسامة البريئة التي يوزّعها علينا تعوّض. اللقاء معه حصّة لتعلُّم لغة الابتسام. كل وجوه تلك الناحية من آسيا رأيتها على وجهه، تارةً ابتسامة ترحيب وتعارف، وأخرى ابتسامة تقول إنني أعرفكم وأنتم رفاقي آخذ نَفَساً بكم. وأقسى الابتسامات تلك التي تبوح بأن التعذيب أعاده جنيناً بلا رحم وطفلاً بلا أم تعلّمه الحياة والنطق والأكل. التعذيب محا ذاكرته البشرية، جعله صفحة بيضاء لم يعد يُكتب عليها شيء. كأنهم سعوا لإبطال مفاعيل الأقلام والدفاتر التي طالب بها الأسرى. ليس صدفة أنه في سجن الرملة.

سكوته المَرضي بقدر ما يربكنا يدفعنا تحت تأثير الإحساس بالذنب إلى الحديث معه، لتسليته على الأقل، وانتشاله مما هو فيه بالأمنية.

ليلاً، تفاقم التهاب الرئة. ضاق تنفّسي حتى الاختناق. ارتميتُ في فراشي

وتعرّق جسدي. أثناء المرور الروتيني للممرض بجانب زنزانتنا وسؤاله من خلف الباب إذا كنّا نريد شيئاً، طلب إليه أبو أسعد الدخول ومعاينتي. غاب بعض الوقت وعاد مع شرطيين. فتحوا الباب ودخل الممرّض. عاينني وانسحب. أغلقوا الباب وبقي الشرطيان خلفه في الممر. بعد قليل عاد الممرض وأخذوني إلى مستشفى السجن. صُدمتُ حين رأيت المرضى السجناء وقد أوثقت أيديهم وأقدامهم بالأسرّة. عالجوني بحقن المسكّن وأعادوني إلى الزنزانة. نمت بعد دقائق.

١٠/ ٧/ ١٩٨٠ موعد انتهاء عبورنا، أنا وأبو أسعد، من سجن الرملة. أخبرنا الضابط قبل ليلة أننا سنُنقَل أنا إلى سجن بئرالسبع، وأحمد إلى عسقلان. حين نُقل، قبل عشرة أيام، حسين إلى بئرالسبع وخالد إلى عسقلان، أدركنا، أنا وأبو أسعد، أن مصيرنا الافتراق. درَّبنا ذلك على تقبُّل الفكرة. وقبل أن نعرف قرار فصلنا رحنا، من دون أن نقصد، نتحدّث كما لو أن كلاً منّا سيُرسَل إلى سجن بعيداً من الآخر. وحين أخبرنا الضابط نظر كلٌّ منّا إلى الآخر نظرة تؤكد التوقّع أكثر منها نظرة وداعٍ أو حزن. تساوى في تلك الأيام، ولا سيما في الساعات الأخيرة، غياب أيّ سببٍ للفرح مع محاصرة الحزن وتبديده. لا مجال للضعف. الحزن ترف. ومشاعر الصداقة، في مثل ظروفنا، أسهل ما يمكن تأجيله وتحويله إلى ذكرى. فنحن الاثنين ذاهبان إلى مصير واحد مجهول وإلى سجنين لا نعرفهما ولا نعرف مَن فيهما. عدم وجود خيار لكلينا في أيّ شيءٍ يبدّد مبرّر أيّ مشاعر ويُفرغ حتى كلمات المجاملة من المعنى. تغدو غير مسموعة، وإذا ما سُمعت، تستدعي الابتسام كتعويذة عفوية لطرد شياطين الكذب. لذا، كنّا في معظم الوقت صامتين، كأننا ننتظر مريضاً في غرفة العناية الفائقة. وفي لحظات كنت أشعر بأن كلامنا يشبه قراءة وصيّة المريض.

صباحاً، أخذوا ملابس السجن البنيّة، وأعادوا إلينا ثيابنا المدنيّة. ارتديناها. دسستُ في جيب بنطلوني رسائل أبي وأختي. «كلبشوا» قدمي كلّ منّا ويديه. أخرجونا وأوقفونا بجانب باصٍ وشاحنتين مقفلتين، يسمّى هذا النوع «بوكس». حزّرني أبو أسعد ما إذا كنّا سنُنقل في الباص أم في السيّارتين. لم يسأل لأجيب، بل لنضحك، لنسخر من كوننا أسيرَين مكبّلين إلى درجة المبالغة. ووجود سيارتين دليل

على أن كلاً منّا سيُنقل بواحدة. درجة الخطورة التي نُصَّنف بها تجعل من المستحيل نقلنا بغير السيارة «البوكس».

وضعوا كيسين فوق رأسينا، ودفعونا كلّ إلى سيارة.

في غرفة مدخل سجن بئر السبع سُئلتُ عمّا إن كانت ساعتي لي، وأُبقيَت في الأمانات. صارت بالنسبة إليّ مثل بيغ بن، أراها إيذاناً بدخول سجن جديد.

سلّموني ثياباً مخصّصة للسجن. أخذوا ملابسي المدنيّة. جاء ضابط استخبارات وفي يده ملف. جلس خلف المكتب وأشار إليّ أن أجلس في مواجهته. فتح الملف وهو يحدّق بي. قال من دون أن يقرأ:

— «أنت في سجن مركزي، لا نريد مشاكل وتحريضاً. القوانين صارمة».

— «أنا كالآخرين، ما يسري عليهم يسري عليّ».

خفض رأسه. عيناه لا تركّزان على كلمة أو سطر. يحاول أن يوحي أنه يقرأ في الملف:

— «مَن يعمل معنا مشاكل نكسر رأسه!». رفع رأسه فجأةً ليرى ردّة فعلي.

— «ومَن يعمل معي مشاكل أكسر رأسه»، رددت.

أقفل الملف ورفعه في وجهي:

— «اسمع يا سمير، يُفترض ألاّ تكون هنا، بل في العزل. عليّ أن أعيدك إلى حيث أتيت، لكن سأعطيك فرصة وأنت حرّ. إذا «ضبطت» معك حسناً، وإذا لا، فسأنقلك من القسم إلى قسم زنازين العزل».

كان مثل أبو زكن حين هاجمتُه بـ«الغلوب»، ومثل فريد قبل أن أذهب للّقاء الأول مع وفد الصليب الأحمر وراح يهدّدني بعدم إرسالي مرّة أخرى إذا قلتُ ما يفعلونه بي في المعتقل.

تأكدّتُ أن قرار وجودي هنا أو عدمه ليس في يد هذا الضابط. رددت:

— «لا تقتربوا مني إذاً».

وقفنا عند هذا الحد من وضع شروط اللعبة.

اصطحبني شرطي إلى قسم يتوزّع فيه كل سجينين في زنزانة. شريكي يوسف أبو طعيمة من غزّة استقبلني وعرّفني على بعض الموجودين في القسم. أحدهم

أهداني فرشاة أسنان. ومشى معي أبو طعيمة إلى مغسلة القسم التي فيها أربع حنفيات وتجاور أربعة حمامات. سألتُ أبو طعيمة عن سر الرقم ٤. ضحك وأضاف أن السجن حين بُنيَ عام ١٩٧٠ كان يتألف من أربع غرف، مساحة كل واحدة منها ٣٢ متراً × ٨، فإذا قسمنا ٣٢ على ٨ النتيجة ٤. وبالرغم من أننا ضحكنا إلاّ أن تفكيري بقي مشغولاً بهذا اللغز الهندسي أو الأمني... وربما الديني.

سماع الأسرى عن عمليتنا ومعرفتهم أننا أُسرنا سهّلا عليّ دخول أجواء السجن. في الباحة، راح كل مَن التقيناهم يرحّبون بي ويعرّف كلّ منهم عن نفسه ربطاً باسم التنظيم الذي ينتمي إليه والتهمة الموجّهة إليه ومدّة السجن.

مازحني أبو طعيمة بأن مجموع سنوات سجن الموجودين في القسم أقل من السنوات التي حُكمتُ بها:

– «لكن إذا كنتَ عاقلاً فقد يُطلق سراحك بعد ثلاثة أرباع مدّة العقوبة».

وراح يجري عملية حسابية:

– «أي بعد ٤٠٧ سنوات ونصف».

بعدما عدنا إلى الزنزانة. أتى شاب يوزّع المياه الساخنة لنعدّ بها الشاي. وفي خلسة من الشرطي الذي يرافقه سلّم أبو طعيمة رسالة. ما إن أُغلق الباب، حتى عاجل إلى قراءتها وأعطاني إيّاها.

– «يبدأ الإضراب عن الطعام المتّفق عليه، الأحد في ١٤ تموز/يوليو، بعد أربعة أيام». توقّفت عن القراءة وحدّثت أبو طعيمة:

– «قلت لك إن في الرقم ٤ سرّاً».

أجابني بسرعة:

– «لا تنسَ سنة النكبة وإعلان دولة إسرائيل على أرض فلسطين، ١٩٤٨».

ضحكنا وتابعت قراءة الرسالة:

– «الأسير الجديد، الرفيق سمير القنطار، معفى من المشاركة فيه، بسبب إصابته وجروحه وضعف جسده».

أزعجتني الرسالة. طلبتُ من أبو طعيمة ورقة وقلماً. سحب أنبوب قلم حبر من حيث يخبّئه في فرشته. كتبتُ رسالة إلى لجنة القسم طلبتُ فيها التراجع عن قرار إعفائي من المشاركة بالإضراب.

لم يعفِ أبو طعيمة نفسه من مهمّة إقناعي. حدّثني عن التدريب والاستعداد اللذين يسبقان الإضراب. ذكّرني بأنّني لم أخضع لهما. تكفّلت هذه المفاجأة بإرباكي. رمى الطابة إلى ملعبي. لا أعرف إذا كان تعمّد ذلك، أم هي رمية من غير رامٍ. ورغم اكتشافي أنني غير مستعدّ لمثل هذه المفاجأة في الحوار، بقيتُ على موقفي. دعاني إلى رؤية جسدي المصاب ونحوله... وذكّرني بضيق تنفّسي والتهاب الرئة. ندمتُ لأني بحتُ له بمرضي. توّج هجومه بالقول إنني صحيّاً غير مستعدّ حتّى للتدريب.

جلستُ على الفرشة أعيد ترتيب أفكاري. سألتُ نفسي ما هو التدريب الذي يخضع له واحد في مثل حالتي، اختبرَ البقاء أيّاماً من دون طعام وشراب، وصمدَ في وجه التعذيب. كرّرتُ ما فكّرت فيه عليه، وسألته:

— «ما هو التدريب، أو بالأحرى، لماذا التدريب؟».

— «ليتمكّن المضرب من تحمّل الجوع ومواجهة الضغوط والمغريات».

— «إذاً، المهم الإرادة؟».

تفرّس في وجهي وابتسامتي وقرأ منهما أنه قال ما أردت سماعه، وأن يقوله هو.

وقفتُ كما لو أني قفزت إلى حلبة رقص. انحنيتُ في اتجاهه. قلت وعيناي مفتوحتان إلى الأقصى:

— «الإنسان الحرّ في بيته، الذي يأكل ما يشاء ويغذّي نفسه، لا يُضرب عن الطعام بلا سبب. يُضرب عن الطعام مَن لا سلاح لديه إلاّ جسده. الطعام ليس سلاحاً إلاّ في يد السجّان والظالم. وحين يرفضه الأسير يقول إن هناك شيئاً أهمّ، وإنني لستُ عبداً له وللسجّان، ولن أقبل أن أبادل حياتي وحقوقي وأهدافي في الحياة بالطعام، مهما كان نوعه وحجمه. يقول الأسير إنني أفدي نفسي للآخرين، لشركائي في القضية، للوطن. الإضراب ليس نزهة، ولا هدفاً بحدّ ذاته. وكل أسير سواءٌ أكان مريضاً أم جريحاً، إذا ما قرّر الإضراب عن الطعام، هو عرضة للمرض والاستشهاد. الرهان على الإرادة لا على قدرة الجسد».

وافقني الرأي، فلسفيّاً، كما قال، وبقي على التزامه قرار اللجنة. وأنا تقدّمتُ أكثر نحو المشاركة:

— «لن أفتح على حسابي، أنا أنضمّ إليكم».

– «عندنا شغل غيرك، خارج السجن»، قال راجياً.
– «ليقم كلٌّ منّا بدوره!».
نمنا.

ردُّ لجنة القسم نقله إليّ أبو طعيمة سريعاً، في صباح اليوم التالي:
– «أنت جريح ونحيل والإضراب سيكون قاسياً عليك. لا نقبل أن تستشهد، وليس مضموناً أن يعالجوك إذا تدهورت صحّتك...».
أوقفته عن الكلام:
– «هذا الموضوع عندي. لا يمكنني ألاّ أشارك في مثل هذا التحرّك».
– «لن يعاتبك أحد إذا لم تشارك، أنت معذور».
نهضتُ من الفرشة. قلتُ وأنا أذرع الزنزانة جيئةً وذهاباً:
– «لا يهمّني كلام أحد. أنا لا أشارك كي لا يُقال عنّي كلمة سوء. أشارك لأني مقتنع وراغب».
نهض أبو طعيمة لكي لا أبقى وحدي واقفاً. فالوضع وأنا أتحرّك بتوتّر في الزنزانة الضيّقة أرهقه. قال هذا ودعاني إلى الهدوء:
– «المرضى والمسنّون ومَن لا يقدرون جسدياً وإرادياً على الإضراب مُعفَون. الإضراب ليس إلزامياً. فمَن يدخله مستحيل عليه الانسحاب قبل إعلان اللجنة فك الإضراب وتحقيق المطالب. فذلك يتسبّب بإضعاف الإضراب والمضربين، ويترتّب عليه عقاب مادّي ومعنويّ».
استفزّني كلامه:
– «أنتم لا تعرفونني».
لفّ يمناه فوق كتفيّ ومشى معي خطوتين:
– «صحيح أننا لا نعرفك، ولكن ليس هذا هو سبب دعوتنا لك بأن تعفي نفسك من الإضراب، السبب هو صحتك. أول شهيد في الإضرابات، عام ١٩٧٠، عبد القادر أبو الفحم، استشهد لأنه كان مصاباً بطلقات عدة، مثلك. فهو اعتقل في ١٩٦٩ ودخل الإضراب قبل أن يتعافى. ربما إذا ما تدهورت صحتك يضطر المضربون إلى وقف إضرابهم أو يتركونك تستشهد. وهذا صعب».

أرجعتُ رأسي إلى الخلف ونظرتُ إليه كأنْ لأراه جيّداً:
— «لا تحمّلني مسؤولية هذا الذنب!».
يئس من إمكانية إقناعي:
— «عنيد»، قال كأنه يشتمني.
ضحكتُ من استسلامه، على الأقل الآن. فكّرت أنَّ إمكانيّة تليين موقفه قائمة. اطمأننت أنّني فتحت ثغرةً في قرار اللجنة.
أثناء الاستراحة، في الباحة، أو الفورة بلغة السجناء، غاب أبو طعيمة. أدركتُ أنه يجتمع إلى اللجنة لإطلاعها على موقفي... والإضراب بعد ثلاثة أيام.
وقعت عيني على محمد عفيفي الذي أخذني إليه فريد في معتقلي الأوّل أثناء التحقيق معي. غضبت واحتقرته. تذكّرت وجهه من خلف باب زنزانته وهو ينصحني أن أقبل بالظهور على شاشة التلفزيون الإسرائيلي لأنتقد قيادتي وقيادة منظّمة التحرير التي ترسلنا إلى الموت وهي تعيش في النعيم.
اقترب منّي. بقيت في مكاني. في المرّة الماضية رأيته في سجن الرملة للموقوفين. أطل علينا من شبّاك زنزانته المطل على الباحة حيث كنت أنا وأحمد، ولم نتكلّم.
بادر بسؤالي عن صحّتي وأخباري، وكأنّ شيئاً لم يكن، يريد محو ذاكرتي ومسامحته من دون أن نحكي في الموضوع. حدّقت به بقسوة:
— «ألا تخجل من نفسك؟».
حاول تبرير موقفه.
عاجلته:
— «أستاذ فريد اهتم بي، وأبو جهاد غرّر بي».
ارتبك. سكت.
قلت:
— «لا تحكِ معي ولا أي كلمة. كنت في المعتقل نفسه وذقت المر، ولم أقبل أن أفعل ما فعلته أنت، بل حاولت أن تقنعني بذلك. ابتعد عنّي ولا تحاول الاقتراب منّي يوماً».
ابتعد مطأطئ الرأس.
لم يكذّب أبو طعيمة توقّعاتي. ما إن عاد حتى أكد أن اللجنة تشدّد على التزامي

عدم المشاركة في الإضراب. كرّرتُ له قراري. دعوته إلى إقفال الموضوع.

حاولتُ القفز معه إلى أهداف الإضراب. رمقني بنظرة تمنُّع وإعلان أنه يكشف مبتغاي:

— «على مَن تلعب؟»، سألني مازحاً ولفّ يمناه حول كتفي. يبدو أنها عادته، أو أنه يسعى إلى إشعاري بالطمأنينة وبأنه يعرف أكثر مني في أمور السجن، وبالتالي يعود إلى نغمة عدم مشاركتي في الإضراب. ماشيته. وها هو يهمس في أذني:

— «نضع أهدافاً عليا وحدّاً أدنى، نطالب بالأهداف وإذا تحقّق الحد الأدنى نستطيع وقف الإضراب إذا عجزنا بالمفاوضات عن تحقيق المزيد. الشعار تحسين أوضاع السجن: أسرّة، كتب، أقلام ودفاتر، تنظيم زيارات الأهل مرّة شهريّاً لكل أسير، إدخال أكواب زجاجيّة إلى الزنازين...».

رغم التقدم هذه الخطوة، عاد أبو طعيمة ليلاً إلى طلب عدم مشاركتي في الإضراب. لا بدّ أن اللجنة مصرّة وهو ينفّذ تعليماتها.

أردتُ امتصاص حماسته:

— «حين يحل موعد الإضراب لكلّ حادث حديث».

أحسَّ بمراوغتي:

— «موتك، وموت أيّ أسير، يفرح الإسرائيليين، ونحن لا نريد ذلك».

— «أتظن أنني أريد الانتحار؟ بالعكس، أنا أريد المواجهة ومقاومة السجن والسجّان».

ابتسم وسكت. شرَد. وبين حين وآخر ينظر إليّ ويبتسم. أثّرت هذه العبارة فيه.

استحضرتُ رغبتي في معرفة السجن وظروفه وأسباب الإضراب لإخراج أبو طعيمة من النفق الذي دفعته إليه.

استفسرته عمّا ورد في الرسالة الأولى من اللجنة إليه حول السجن الجديد القاسي في صحراء النقب.

نهض كمَن يمشي أثناء نومه. وصل إلى زاوية الزنزانة. بدأ يحفر بأصابعه في الحائط. اقتلع قشرة صغيرة وسحب ورقة ملفوفة مثل سيجارة. عاد بها وحين انتهى من فكّها بين أصابعه كمَن يعدّ مالاً، مدّ يده في اتجاهي. مكتوب في الرسالة:

«قامت إدارة مصلحة السجون الإسرائيلية بنقل مئة مناضل فلسطيني من مختلف السجون الإسرائيلية ممَّن تعتبرهم النواة الصلبة، والذين يتصدّرون ويتزعّمون الحركة

الأسيرة، إلى سجن نفحة. أنزلونا من «البوسطة» اثنين اثنين، وكانت مجموعات من الجنود تصطف على الجانبين ومعهم كلاب بوليسية، وكانوا يصرخون فينا وكلابهم تحاول الهجوم علينا، وطلبوا منا أن نخلع ملابسنا، وعندما بقينا في ملابسنا الداخلية، أصروا على خلعها فرفضنا، حاولوا خلعها بالقوة. هنا، صرخ لنا الأسرى الذين سبقونا الى الساحة بضرورة الخلع وعدم التصادم معهم الآن. بعد الخلع قاموا برش أجسادنا بالبودرة قالوا إنّها لمكافحة القمل. وعندما وصلنا الى الساحة عراة كان منظراً مضحكاً مبكياً. الكل يحاول ستر عورته بيديه. السجن يفتقر إلى كل مقوّمات الحياة البشرية، هناك عقارب وأفاعٍ وحشرات، والطعام قليل ورديء، والقمع والتفتيش والاستفزاز سلوك مستمر من إدارة السجن والسجانين».

لم أعرف من أي أسير في نفحة هذه الرسالة، ولا كيف وصلت إلى أبو طعيمة. لم أسأل كي لا أضع نفسي في موقع المتطفّل الذي يسعى لمعرفة أكثر ممّا يباح له. وأصلاً، القصة مؤلمة بما يكفي ليصمت القارئ ويفكّر بأولئك الأشخاص.

لفّ أبو طعيمة الورقة وأعادها إلى الحفرة. غطّاها بمعجون أسنان.

جاء دور قسمنا في الخروج إلى الباحة. هناك تعاوَنَ مع أبو طعيمة عددٌ من الأسرى لإقناعي بعدم المشاركة. بدأ الحوار بعبارات مثل يا أخونا، يا عزيزنا، يا كريمنا، وانتهى بالتأكيد أن القرار ليس في يدي، رغم أنه لمصلحتي. وتمنّوا عليّ أنه في صبيحة الإضراب، عندما يسأل الحراس عن المضربين ليبقوا في الزنازين، الانتقال مع غير المضربين إلى أقسام أخرى.

عشية الإضراب، دخلت من بين قضبان شبّاك الزنزانة قطّة سوداء. مشى أبو طعيمة نحو صحن يضعه في الزاوية ويغطّيه. رمى قطعة لحم على الأرض وانحنى فوق القطّة يداعبها. فهمت أن ثمّة أمراً ما يجري. فكّ خيطاً حول رقبة القطة معلّقاً به كيسٌ صغير.

فوجئت. أفرحتني القطة. شعرتُ بأن ثمّة أسراراً كثيرة يخفيها السجناء، وأنني بدأتُ أكتشفها. صرتُ فيها.

سحب أبو طعيمة من الكيس ورقة، ورمى قطعة لحم أخرى للقطة. مكافأة.

— «هذه رسالة وجّهها الأسرى هناك»، قال وراح يقرأ بصوت أسمعه:

«يا أهلنا، يا شعبنا في الوطن المحتل. يا أيها الإنسان أينما كنت في كل مكان، أنقذوا أرواحنا فنحن نُقتل عمداً مع سبق الإصرار بحربة ما يسمّى القانون.

ثلاثة عشر عاماً، ونحن نطلب ونطلب ونطلب تحسين شروط حياتنا، وأن نعامل بالشروط نفسها التي ينالها أي سجين يهودي عادي مهما كانت تهمته أو الجريمة التي ارتكبها. إلا أننا لم ننل في أي من معتقلاتنا الأمنية، حتى الآن، هذا المطلب العادي والبسيط. مع العلم بأن مدير السجون، حاييم ليفي، قد صرح في بداية هذا العام أن أوضاع السجون الخاصة باليهود مأسوية وكارثية.

إذا كنا نطالب بالمساواة مع أوضاع يصفها مدير السجون نفسه بالمأسوية والكارثية إذن ما هي أوضاعنا؟

لقد قدمنا في ٢ أيار سنة ١٩٨٠ إلى هذا المعتقل لنرى العجب العجاب، بنايتان في كل منهما عدد من الزنازين صممت كل منها لقتل الإنسان جسدياً ومعنوياً. من أول نظرة تبرز واضحة جلية حقيقة العقليات الحاقدة التي صممت وأسهمت في تشييد هذا المعتقل. مَن يصدق أننا في قلب الصحراء بعيداً عن كل عمران، إلا أن الهواء الذي يشاء حظه التعس أن يدخل الزنزانة ليس له منفذ كما يجب للخروج! لا توجد نوافذ للزنزانة التي يعيش فيها ١٠ أسرى. لقد استعاضوا عن النوافذ بستة خروم في كل زنزانة مساحتها مجتمعة لا تزيد عن نصف متر مربع، وهي تقع بالقرب من السقف، أي لا نستطيع أن نرى من خلالها أي شيء، ولا تسمح بإدخال الضوء، ما يستلزم الإنارة بالكهرباء طيلة النهار. وباب الزنزانة من الصفيح مغلق بالكامل، وفيه نافذة صغيرة ٢٠×٢٠ سنتمتراً ثلاثة قضبان سمك كل منها سنتمتران، وهذه النافذة لا تفتح إلا في النهار وتغلق في الليل، حتى في أيام الحر الخانق، ما يجعل الزنزانة حيِّزَ ضغطٍ عنيف، وتصبح أتوناً ملتهباً. لا تفتح هذه النافذة الصغيرة، والسبب كما يدّعون، أمني! وعملية فتحها ١٢ ساعة قد تمت بعد طلوع الروح وتدخل هيئة محايدة.

حضر البريغادير دكتور كوهين مدير الشؤون الصحية بمصلحة السجون لزيارة المعتقل ودار معه حديث نقتطف منه:

لا باب من القضبان لكي تتنفس الزنزانة بل باب صفيح مغلق بالكامل، نافذة تغلق بالليل، أكل في الغرفة نفسها على الأرض حتى بدون قطعة مشمع. ١٣ سنة ننام على الأرض، الأمراض توطنت وأزمنت، أكل درجة رابعة، ولأولادكم درجة أولى.

باختصار شروط لاإنسانية، شروط أدنى من شروط الحفاظ على حياة الإنسان حتى وإن كان هذا الإنسان فلسطينياً. كيف تسمح بذلك وأنت المسؤول الصحي الأول؟

ردَّ: الشروط من فوق.

قلنا له: أعطونا شروط السكن التي تعطى لأبقاركم في زرائب الكيبوتسات، من هواء ونور ورؤية.

جاء وفد كبير من أعضاء الكنيست لزيارة المعتقل ودخلوا إحدى الغرف. ودار حديث فإذا بمدير السجون لا يجد كلمة يصفنا بها أمام أعضاء الكنيست إلا كلمة كلاب. وعندما يواجه وفد الكنيست بأن الشروط السكنية والحياتية في المعتقل غير إنسانية وهي موضوعة فقط لقتل الإنسان يجيب: خليك سبع يا سبع.

أما أعضاء وفد الكنيست فعندما احتججنا أمامهم تطاير الشرر من عيونهم وأجابونا: كان عليكم أن تفكروا بهذا قبل مجيئكم.

من يصدق أن القانون هنا هو أن من يخرج منا للإدارة يكبل بالحديد وتُعصبُ عيناه، مأساة، مؤامرة تفوح منها رائحة الحقد على الإنسان، عملية قتل.

بهذه الشروط قررنا أن نعلن إضراباً مفتوحاً عن الطعام لمساواتنا بشروط سكن السجين اليهودي. . ستصلكم رسالتنا هذه ونكون قد أعلنا إضرابنا، إن عددنا دون المئة، إننا مجموعة قليلة العدد، إلا أننا نعلن أننا نطرق هذا الباب وهو سلاحنا الأخير بعد نفاد كل الوسائل القانونية مع إدارة المعتقل أو بواسطة الهيئة الدولية الوحيدة التي تأتي للمعتقل، ولما كان لا بد من مواجهة أقدارنا وأن نتحمل مسؤولية ذلك، ولما كنا نعرف حقيقة بعدنا النائي وقدرة العدو على التسويف والمماطلة بل والكذب والافتراء على موقفنا هذا، فإننا نضع بين أيديكم هذه الوثيقة لتتحملوا معنا دوركم ومسؤوليتكم.

نعم لآلام الجوع، لا لآلام الركوع، حقاً، حقاً، الجوع لا للركوع. سيصلكم هذا البيان وهو موجّه لكل منكم بالاسم لتكونوا معنا، نطالبكم بالتحرك معنا، فهذا حقنا عليكم، إضرابنا المفتوح عن الطعام يزداد قوة بوقوفكم معنا، إنه سلاحنا الأخير، إننا في الزاوية لم نلجأ لآلام الجوع القاسية لأنها ترف، نعلم مدى المعاناة، إلا أننا لا نملك البديل.

معتقل نفحة الصحراوي.

الرابع من تموز ١٩٨٠».

بعد البيان المكتوب بخطٍ صغير على ورقة لا تتجاوز حجم الكف، أعطاني أبو طعيمة ورقة صغيرة. كانت في جيبه هذه المرّة. قرأتُ فيها التوجيهات السياسية التعبوية عن أهمية الإضراب، والتعليمات العملية: عدم تناول الطعام، إخراج كل طعام موجود في الزنزانة ليؤخذ كي لا تتركه الإدارة بهدف كسر الإضراب والادعاء بأن لا إضراب، عدم الانصياع لضغوط الإدارة، عدم التحدّث معها ومع السجّانين في شؤون الإضراب، فهذا من مهمّة ممثّل القسم واللجنة معه. . . وأخيراً الالتزام بقرارات اللجنة في خصوص مصير الإضراب وساعة إعلان انتهائه.

— «هذ تعميم تعطيني إيّاه، وليس ذاك الذي يطلب إليّ عدم المشاركة»، قلتُ لأبو طعيمة.

ابتسمَ وبقي هادئاً. لكنه عاجلني بالقول إن قراءتي التعميم لا تعني مشاركتي في الإضراب.

سكتُّ. لا أريد أن أدخل معه في سجال لا يُقدّم ولا يؤخّر. ولعلّه فهم إشارتي وصار موقناً من خياري.

أيقظني أبو طعيمة قبل أن يأتي الحراس. فهمتُ منه أنه فعل ذلك كي لا يُحدِث جلبة أمامهم. السجال في أمور الإضراب والسجناء عموماً يجب ألا يعرف السجانون به.

رددتُ عليه:

— «لم تحزر يا صاحبي!». وبرّأته من أي مسؤولية تترتّب على مشاركتي في الإضراب. عاد إلى فرشته قلقاً. مرّت لحظات بدا عليه أنه يصوغ كلاماً ليقوله لي، ويتراجع تحت وطأة الشعور باليأس. تركته.

أخبرتُ الحراس أنني مضرب. بقيت واقفاً بجانب الباب أنظر من شبّاكه الصغير إلى الممر.

حمل الحرّاسُ وعددٌ من السجناء أكياس الطعام التي وضعناها عند أبواب الزنازين، وغادروا القسم. صدى إقفال الباب تردّد بين الجدران واستقرّ في رأسي. ما زال في ذاكرتي.

استأنفتُ نومي. الإضراب فرصة للنوم، والنوم فرصة للهرب من أوجاعي

وتعبي. نمتُ ونمت، وأستيقظ لأعود وأنام. أَمَلُّ من النوم، أو هو النوم يملّ مني. أنهَض، أُحادِث أبو طعيمة فلا يجيب. أكرّر الكلام، فيدعوني إلى النوم:

– «لا أريد الحديث لأنه يستهلك طاقتنا»، يجيب باقتضاب.

القسم كلّه هادئ... ولا حركة أو صوت يدلّ على حياة.

سحب أبو طعيمة من حفرة أخرى في الحائط أوراقاً عدّة. عرض عليّ أن أقرأها وأتسلّى.

قصائد مكتوبة بخط اليد. شرح لي أنّها نُقلت عن الراديو. صرت وأنا أقرأ قصيدتي «منشوراتٌ فدائيّة على جُدران إسرائيل» و«طريق واحد»، أسمع صوت الشاعر نزار قبّاني. كانت المرّة الأولى التي أعرف أنه كتب في السياسة ولفلسطين. صورته عندي كشاعر المرأة والحب.

جلستُ في فراشي أشاهد أبو طعيمة يكتب في ورقة صغيرة تقريراً عن الإضراب كي يرسله إلى اللجنة الوطنيّة.

– «كيف ستنادي القطّة لتحمّلها ولا طعام تعطيها إيّاه؟»، سألته.

– «نبقى نناديها حتى تأتي. تظن أن لدينا طعاماً فتأتي».

أشفقتُ عليها، وفكّرت، ماذا لو بقيت في الأقسام حيث يوجد طعام.

– «يا أخي، خلّينا نجرّب». قال بتململ مَن لا يريد الكلام من أصله، فكيف بهذه الافتراضات اليائسة.

لم يطل انتظار القطّة. ساعة تقريباً. أتت عبر الشبّاك والجوع واضح عليها، أو أنا رأيتها كذلك. بدت لي كأنها تدرك أنها تعمل بالسخرة، ولا خيار لها.

دسّ أبو طعيمة الرسالة في الكيس المربوط حول رقبتها وغادرت.

معدتي تهمس، تصرخ، تذكّرني باللحم المشوي، بالكفتة، بالبطاطا المقليّة، بحلويات من صيدا. أقرأ القصائد والرسائل. أضجر، أجبر نفسي على المتابعة، أضجر. أتذكّر نفسي تلميذاً ملّ من تكرار الدروس قبل الامتحان. أنهض، أحاول أن أتسلى بفحص القدرة على اكتشاف حفر أبو طعيمة في الحائط. كعالِم آثار أشغل نفسي بمحاولة معرفة متى طُلي بالأبيض... وكيف عَتق حتّى بات أصفر. أعود إلى فرشتي.

أنام.

بدأ شهر رمضان. أتخيّل موائدَ وأُسراً تجتمع حولها. أهرب من هذه الصور وروائحها. أشرب القليل من الماء وأنام.

أربعة أيام مرّت على هذه الحال. أكلّم أبو طعيمة لأسمع صوته وحسب، لأتأكد من أنه مازال يتكلم. مازحته مراراً بهذه العبارة. وأنا أبدو، برغم العبارات القليلة التي أقولها، كطفلٍ يكلّم أباه المشغول عنه، ولا يجيب.

في اليوم الخامس للإضراب قُبض على القطّة. ساقها الحراس، إلى حفرة في الباحة، أحضروا باطوناً ورَموه فوقها. وأدوها. فعلوا هذا في زاوية تطل عليها بضع زنازين لنراه. ومن يرَ يخبر من لم يرَ. كان يمكنهم إطلاق سراحها وإبعادها، لكنهم تعمّدوا قتلها. لم يظهروا رحمة على حيوان ضعيف أليف. حسبوها واحداً منّا، كائناً من هذه الأرض. أغاظهم أنها شاركت معنا في استغبائهم وانتمت إلينا. جاسوساً اعتبروها. وعاقبوها لأنهم تركوها تدخل بيننا وتتجوّل دون رقيب. لعلّهم استدرجوها بقطعة لحم، وهي تخدم المضربين عن الطعام وليست مضربة.

الأسرى في الزنازين الأخرى المطلّة مثل زنزانتا على الباحة يصرخون:

— «يقتلون القطّة، يقتلون القطّة».

اختلط الاستنكار مع رغبة إخبار مَن لا يرى. المشهد بسيط إلى درجة أنه يَمثل من دون شرح. قاسٍ. لم نصدّق أنا وأبو طعيمة ما نشاهده. معظم الأسرى، الذين رأوا والذين لم يروا، شعروا بأنهم في كابوس. والسجانون أرادوا لنا أن نفسّره، ونُسقِط التفسير علينا. نحن القطّة ونحن الموؤودون. هذه هي الرسالة، والقطّة التي ماتت جائعة ضحية.

اشتغلت الأسئلة في رأسي وعلى لساني: كيف عرفوا بأمرها. راقبوها وقبضوا عليها متلبّسة، أم أن أحداً ما وشى بها؟

وأبو طعيمة صامت تبوح ملامحه بأنّه يتألّم لاستخدامها في المعركة.

أخبرني أن البعض يجزم بأن ثمّة كاميرات موزّعة في زوايا السجن ترصدنا طوال الوقت وتلتقط كل حركة نقوم بها.

جلستُ منهكاً. شعرتُ بوجعٍ في جسدي كلّه، في مفاصلي خصوصاً. ألمٌ غريب، لا هو في الرئة ولا في أيّ جرحٍ آخر، فهذه التأمت وبقيت أوشاماً محفورةً في الجلد، بلونٍ أغمق. تجعلني حين أراها أفكّر أن بشرتي تحتوي ألوان شعوبٍ عدّة، صفراء وسمراء. الألم يتعمّم على جسدي كلّه، ويتسلّل إلى روحي. أحسسته

ألماً زائراً من شخصٍ آخر. كأنّني أتلقّاه من أحدهم. تذكّرتُ أهلي. نهضت من فراشي. مشيت في الزنزانة. لم أثبت في مكان. الألم يطاردني كشبح.

أنِسْتُ لأبو طعيمة يكلّمني. استغربَ صمتي العميق. خافَ أن يكون المرض قسا عليّ. وحين طمأنته أنني لا أشكو من شيء، ضحك من مغادرتي رغبة الكلام. راح يُضحكني تحت وطأة الذنب. اتّهمَ نفسه بإضجاري. تردّدتُ في البوح له بمشاعري وقلقي على أهلي. خفتُ أن يهزأ من إحساسي بمرض أحدهم. وأحجمت عن نقل القلق على الأهل إليه. له أهلٌ هو أيضاً، لا يراهم ولا يطمئن عليهم.

همس لي بضرورة الحذر مرجّحاً وجود عملاء بيننا.

— «بين المضربين؟»، سألت متفاجئاً.

— «ربّما، ما المانع؟»، وتوعَّدَهم بالقصاص بعد الإضراب:

— «لا نريد فتح الجبهات علينا الآن. نعرفهم».

— «تعرفونهم!»، سألت مصدوماً. واستفسرتُ منه كيف تركوهم، ولِمَ؟

— «لسنا متأكدين، نشكّ في عدد من السجناء، ضِعاف النفوس ويبثّون الإحباط بين السجناء».

لا أعرفُ عمَّن يتكلّم. ولم أسأل. فأنا لم أختلط بالسجناء كافة. ورحتُ أفكّر ماذا ينال العميل في السجن. الكلب سجين وليس حرّاً. ولن يمنحوه حريّةً مقابل تعامله. وماذا سيفعل حين يُطلَق سراحه؟ بالتأكيد سيواصل تعامله.

أحسُّ بالعطش وبكره للماء في الوقت نفسه. أمِن أحدٍ يكره الماء؟ أخاصمه فحسب. أحاول أن أنام، لا أقدر. أشعر بنعاس وتعب شديدين ولا أنام. النومُ هجرني كما يفرّ من إنسانٍ قلِق. حال أبو طعيمة مثل حالي. حدّثني كأنّه يهذي. قال إن القيادات في الخارج عرفت بالإضراب قبل بدئه واستطاعت تحريك الصحافة الأجنبيّة التي أرسلت مندوبين إلى سجن نفحة. وهذا يساعد في إلقاء الضوء والضغط على إسرائيل. لكنّه بدا متوجّساً. سألته ممَّ يقلق. أجاب بأن التجارب مع الصحافة الأجنبيّة لا تبشّر بالخير. لا تقسو على إسرائيل ولا تحرجها. بالكاد تحكي عن حقوق الإنسان ومثل هذه الشعارات.

صباح اليوم التالي، السابع للإضراب، جاء الحراس إلى الزنزانة وأخذوني:

— «أنتَ منقول».

منقول، ولا قدرة لي على الوقوف؟ الألم يزعزع مفاصلي. كُتلٌ من الإبر تتجوّل في بدني وتتكاثر حيث تمر. دوارٌ، كأنّي منفصل عن عالمي المتطلّب. عليّ تنفيذ الحياة.

لم يقبلوا أن يصرّحوا لي إلى أين. توقّعت أن أُرحّل إلى نفحة. ربّما تمنّيت هذا لأكون في مقدّمة المعركة. لكن، حينَ صرنا في المدخل، أخبروني أن وجهتنا عسقلان.

ذكّرني الانتقال مكبّلاً، بزيارات سجن غزّة ولقاء وفد الصليب الأحمر. بل تلك أهون، رغم أنها في مثل هذه الأيام الصيفية الحارّة من العام الماضي.

يسير الباص ببطء، لكن السائق يضغط بقوّة على الفرامل عند المطبّات، ما يجعلني مثل طابة. قلبي كتلة هواء مضغوط يلكمها الشيطان. لا قدرةَ لي على التقاطها أو التقاط فكرة تبدأ في رأسي وتُجهَض في الوقت نفسه.

أسمع لهاثي كما لو أنه يصدر من جسدٍ آخر.

أدخلوني زنزانة. لم يستبدلوا ثيابي بملابس السجن. هذه تجربة الانتقال الأولى لي، منذ فرزي إلى سجن بئر السبع، وفي إضراب. لا يمكن أن أتوقّع الإجراء التالي. بقيتُ أنتظر. فتح ضابط الباب وسألني إذا ما كنتُ مضرباً عن الطعام. أكّدتُ له ذلك. ردّ بأنه لن يدخلني السجن إلاّ إذا أكلتُ وانسحبتُ من الإضراب. رفضت. أكّدتُ التزامي قرار اللجنة في بئر السبع حتى أغدو داخل سجن عسقلان فأصيرُ تحت قيادة لجنته.

غادر. انتبهتُ إلى أنهم نقلوني لأتعب وأضعف وأفكّ إضرابي. لا سبب آخر، قلتُ لنفسي. فأنا كنتُ جديداً في بئر السبع، ولم أنضمّ إلى الأسرى وتنظيمهم بعد.

حجّة عودته إلى الزنزانة كانت مرضي وجراحي. نفيتُ أيّ مرضٍ أو تعب. وهو يرى كم أخدعه:

— «هذا ليس شأنك!»، قلت صارماً. لا أريده أن يدخل من هذا الباب. لا ليبدو إنسانيّاً ولا ليضغط عليّ. وهم في الأساس يخافون من تدهور صحّة المريض إذا كان مضرباً.

يئس.

استبدلوا ثيابي بملابس السجن، واصطحبوني إلى المهجع ١٧ القسم د. غرفة واسعة عالية السقف ككل الأبنية التي شُيّدت أيام الانتداب البريطاني. الفرش تنتشر على المساحة كلّها. بالكاد يوجد ممرّات ضيّقة بينها. والنزلاء يتحلّقون مجموعات بعضهم حول بعض. شممتُ رائحة دخان. استغرب الشباب ضعف جسدي وإصراري على المشاركة والاستمرار بالإضراب. اقترب أحدهم مني، مبتسماً. وراح يتفقّدني بنظره. دار حولي وسألني إذا كان الحراس رحّبوا بي بالتشريفة؟

ـ «ما هي التشريفة؟»، استفسرت ضاحكاً وسط ابتهاج المتحلّقين حولي.

ـ «هكذا يستقبلون الأسرى الجدد. ألم يصطفّوا طابورين عبر المدخل وينهالوا عليك بالهراوات؟»، قال غير مصدّق.

ـ «لو فعلوا، لكان زمَطَ من بين هراواتهم كمَن يعبر بين نقاط المطر»، صرخ أحدهم من بعيد. فهم الجميع أنه يقصد نحولي وصغر حجمي. ضحكة واحدة كباقة ورد جُمعَت من الموجودين كافّة.

خجلتُ وهم يرحّبون بي. أفاضوا بمديح عمليتنا وأشخاصنا. فوجئت بهشام عبد الرازق يقول إن مناحيم بيغن، رئيس وزراء إسرائيل، توعّدني بانتقام لم يخترعه الشيطان. احتضنني وقال:

ـ «هؤلاء الأبطال جعلوا نهاريا تختبئ في الملاجئ أيّاماً».

ـ «هل الملاجئ لنا وحدنا؟!»، علّق غير واحد من الأسرى.

وارتحتُ حين بدأ إخراجي من دائرة الضوء. أرشدني أحدهم إلى فرشة شاغرة. كانت لأحد الأسرى، وقد غادر مع بداية الإضراب إلى قسمٍ جُمع فيه غير المضربين.

أخبرني هشام أن السجناء كافّة في نفحة يشاركون في الإضراب، المرضى وكبار السنّ قبل الشباب والمتعافين. تذكّرت أنّ أبو طعيمة لم يقل لي هذه المعلومة، ولعلّه لم يكن يعرف بها. تمنّيت لو كنت أعرفها في سجالي معه.

استفسرتُ عن نسبة المضربين هنا. هشام نفسه أجابني:

ـ «٧٠ إلى ٧٥ في المئة من الأسرى، ونحن هنا ١٧ مضرباً».

حدستُ أنه قيادي. لفتتني في هذه اللحظة آثار الحروق على يديه ووجهه ورقبته. مازال الوقت باكراً، وصداقتنا بالكاد في أوّلها، لأسأل ما إذا كانت الندوب

من إصابة في عملية. ارتحتُ لهدوئه وبدا لي على صلةٍ بالخارج. كان متوجّساً قلقاً على المضربين في نفحة:

— «يتعرّضون لضغوط كبيرة تضاف إلى ظروفهم القاسية. كلّ عشرة أسرى بينهم أربعة مرضى. لم ينشئ الإسرائيليون ذاك السجن ليفاوضوا مع الأسرى فيه، بل لِيكسروهم ويدمّروا الحركة الأسيرة عموماً».

لم يخفِ كلامه الصريح أنه يُبقي احتمال الزيادة في القسوة مفتوحاً. بدا مطمئناً إلى صمود المضربين، قال:

— «حتى الساعة لم يفاوضوهم أو يفاوضونا. يحضّرون لأمرٍ ما».

اكتفيتُ بما حدّثني به. تجربتي مع أبو طعيمة والتعب من الإضراب أبقياني صامتاً أجيب ولا أسأل. جسدي مثل باب خشبي عتيق في بيت مهجور. مفاصلي تُصدر أصواتاً أسمعها وحدي، مثل ضجيج.

تمكنتُ في أيامي الأولى بعسقلان من جمع صورة عن السجن المؤلّف من خمسة أقسام: أ، ب، ج، ح، ود حيث نحن، وقسم زنازين شمالاً، وجناح خاص بالشاباك للتحقيق مع الأسرى. لم يبدأ كذلك. تنامى منذ تسلّمته مديرية السجون عام ١٩٦٨ وافتتحته مطلع عام ١٩٦٩. كان الأكثر قسوة.

الأيام تمرّ ببطء. أهرب من أوجاعي وتعبي بالانضمام إلى حلقات الأسرى والإنصات للقصص. قال لي أحدهم إن هذا ليس الإضراب الأول هنا. في عام ١٩٧٠ نفّذ الأسرى إضراباً استمرّ ٣٠ يوماً واستشهد فيه عبد القادر أبو الفحم. وبعده بعام إضراب آخر استمرّ ٢٠ يوماً. وفي عام ١٩٧٦ إضراب على مدى ٦٠ يوماً. أما الإضراب الذي حمل إليّ مفاجأة، فهو عن العمل عام ١٩٧٧. فقد أوقف الأسرى مهزلة تشغيلهم في صناعة شبك تمويه للدبابات الإسرائيلية.

عاد هشام من حيث كان غائباً. جلس كلُّ مَن في الزنزانة حوله. كنتُ آخر المنضمّين. تعبان أمشي مثل السكران. رأسه دائرّي مثل حبّة خوخ وشفتاه مشدودتان إلى أسنانه. رغبتي في معرفة قصّته تتفاقم، مع تفاقم خجلي من السؤال وتردّدي. أؤجّل هذه المهمّة إلى ما بعد الإضراب.

صُدِمنا بسقوط أول شهيد في الإضراب، علي الجعفري.

صحوتُ كما لو أنّي استيقظت الآن.

روى هشام أن الإسرائيليين نقلوا ٢٦ أسيراً من نفحة إلى سجن الرملة. وهناك

راحوا، بإشراف وزير الأديان والشرطة والسجون يوسف بورغ وحضوره شخصياً، يضغطون على الأسرى ليفكّوا الإضراب ويأكلوا بالقوّة. يُدخِلون أنبوباً مطّاطيّاً، اسمه «زوندا» باللغة العبرية، في فم الأسير ويسكبون فيه الحليب مخلوطاً مع الملح. وقبل أن يسحبوه بسرعة يضغطونه ويحرّكونه في كل اتجاه. والشهيد علي الجعفري جُرِحَتْ معدته بالأنبوب أثناء إدخاله من فمه وإخراجه وتسلّل السائل إلى رئتيه. وهناك جرحى في حالة خطرة، منهم راسم حلاوة وإسحاق مراغة.

شُغل الجمع بالحديث عن الشهيد والجريحين، يعرفونهم شخصياً. تلاشى الشباب، هذا يستند إلى الحائط وذاك قرفص يبكي. جذبهم هشام بالتأكيد على استمرار الإضراب.

— «علينا رفع المطالب»، قال أحدهم.

أشار هشام بيده بما يوحي بضرورة التريّث:

— «أرسلنا إلى الإدارة مذكّرة طالبنا فيها بوقف تعذيب الأسرى وكرّرنا المطالب. أكّدنا أن الإضراب لن يتوقّف».

— «هذا ليس كافياً»، ردّ أحدهم وراح يلتفت إلى الموجودين في الزنزانة، كأنه يستفتيهم أو يدعوهم إلى موافاته وموافقته.

كرّر هشام دعوته إلى الهدوء والتفكير بعقل بارد:

— «علينا انتظار إخواننا في الخارج. إنهم يستعدّون لتحرّكات تضامنية. والآن مع استشهاد علي سيتحرّكون بسرعة أكبر».

بحنكةٍ نقل هشام حماسة الشباب إلى الخارج. جعلهم يفكّرون في ما هو أبعد من غضبهم. كأنه لا يريد أن يغيّر في أهداف الإضراب تحسّباً لأي تطوّرات، وخوفاً من المبالغة التي تسبّب الإحباط إذا ما فشل الإضراب أو بقيت مديرية السجون على موقفها.

نُظّمت في السجن احتفالات تأبين. في كل مهجع وزنزانة احتفال، وكلمات تشدّد على الاستمرار في الإضراب حتى تحقيق المطالب.

تفاعل النقاش حول الموقف الواجب اتخاذه ردّاً على استشهاد الجعفري في الأيّام التالية، بين الأسرى كافّة، في زنزانتنا والزنازين الأخرى. وأنا أُنصتُ لكلّ مَن يدلي بدلوه. ترنّ في رأسي عبارة أبو طعيمة أن العملاء يبثّون روح التشاؤم بين الأسرى.

ليلاً، انتظرتُ حتى يخلو هشام بنفسه. اقتربتُ منه وحدّثته عن هاجس العملاء في بئر السبع. أجابني بأن الهاجس موجود في كل مكان:

— «في السنتين الماضيتين كُشف عدد من العملاء هنا، فاضطّرت الإدارة، في السنة الماضية، إلى تخصيص قسم لهم، قسم العار. جمعتهم فيه، انفضحوا، ما عادت تستفيد منهم، إلاّ مع الأسرى الجدد، يستدرجونهم إلى اعترافات، أو يحبطونهم».

نَفَّسَ استنفاري.

عرفَ أحد الأسرى غير المضربين من أسرته التي أتت لزيارته باستشهاد راسم حلاوة. راحَ كلّ أسير يصل إليه الخبر ويمكنه الوقوف على شباك، يصرخ ليبلغ مَن يصل إليه الصوت. أصواتٌ تتعالى تنعاه. تليها أصوات تعلن الانضمام إلى الإضراب. يعرف الجميع أن هذا غير وارد، لكنها الحماسة.

احتفالات تأبين لحلاوة، مع ذكرى الثالث للجعفري. وسرت بين الأسرى، في مهجعنا، مقولة أن الجعفري وحلاوة استُشهدا في اليوم نفسه، لكن مديريّة السجون لم تعلن ذلك خوفاً من ردّة فعلنا وفي الضفّة وغزّة ومنظّمات حقوق الإنسان.

مدّتنا المأساة بشعور أننا بدأنا الإضراب اليوم. حتى جسديّاً عدنا نشيطين. أنعشتنا أكثر أخبار التظاهرات في الضفة الغربية وغزّة وانتشار خبر الإضراب إعلامياً. ثم وصلنا خبر صمود المريض إسحاق مراغة الذي عرفت المحامية ليئا تسيمل بقصّته، وقصّة أسرى سجن نفحة و«زوندا». نشطت وحرّكت مؤسسات حقوقية ومجموعات سياسيّة في أراضي الـ٤٨. بدأ العدّ العكسي للإضراب. التفاؤل سيّد الموقف. شخصيّاً، نسيتُ الطعام من أصله.

استدعت إدارة السجن لجنة عسقلان لمفاوضتها. ردّت بأن المفاوضات تجري مع لجنة نفحة. وما تقرّره تلتزم به السجون كلّها. قويَ موقفنا أكثر.

واجتماع ثانٍ، خلال يومين، طلبت فيه الإدارة من اللجنة إنهاء الإضراب... ما دامت الحكومة شكّلت لجنة، اسمها «كنت» (KENT)، لـ«فحص تحسين ظروف الأسرى في نفحة».

— «كيف نفكّ الإضراب والمفاوضات لم تبدأ. ينتهي الإضراب مع الموافقة على المطالب».

ردّت اللجنة، كما كتبت في التقرير الذي وزّعته على الأسرى. وذكّرت فيه بضرورة الالتزام بالإضراب وقواعده.

صار الإسرائيليون في موقف حرج. من جهة مضطرّون إلى معالجة المصابين والتفاوض معهم، ومن جهة أخرى الإضراب مستمرّ ويخافون من تدهور صحّة أحد المضربين.

نشطت حركة المفاوضات:

— «أخبار طيّبة»، يكتفي هشام بالرد على من يسأله. الكتمان تقليد متّبع كي لا تضعف المعنويّات، ويغدو الأسرى يقبلون بأي كلام تقوله الإدارة لإنهاء الإضراب.

عدت أنام بكثافة. أتذكّر القطة وأنام. لا قدرة لي على التركيز والتفكير. لا أرى بوضوح. جسدي يذوي، يذوب، ورئتي تئنّ.

ظهيرة اليوم الثالث والثلاثين، في ١٦/٨/١٩٨٠، جاءت لجنة السجن إلى الممر. اجتمع الأسرى في مهجعنا عند الباب، كأن المهجع انقلب ودفعنا كلّنا إلى زاوية واحدة. أخبرتنا اللجنة أن الإضراب انتهى وحقّق مطالبه في ما يخصّ سجن نفحة، وتم الاتفاق على سلسلة مطالب فوق الحد الأدنى.

كلّ واحدٍ منّا احتضن مَن بجانبه وهنأه.

حاول بعض الأسرى السؤال عمّا تحقّق. ردّت اللجنة بأن لا وقت لديها الآن للإفاضة في الكلام، عليها أن تجول على السجن كلّه لتبشير الأسرى بالنتيجة الإيجابيّة وانتهاء الإضراب.

— «ستصل إليكم المعلومات كلّها مكتوبة في ما بعد»، سمعتُ أحد أعضاء اللجنة يرد.

هذا أوّل انتصارٍ للأسرى أشهده.

انتهى سجن نفحة الذي بُنيَ لكسر الحركة الأسيرة وقيادتها. هذا هدف الإضراب. هذه أكثر عبارة تكرّرت في ذاك النهار. ربّما أكثر من مبروك وعبارات التهاني.

واشتعلت السجائر. مهرجان دخان عمّ المكان. هربتُ إلى شباك المهجع، لأتنفّس هواءً نقيّاً. منعتُ نفسي من أي تفكير بما هو خارج السجن. شغلتُ نفسي بالنظر إلى السور حول السجن، المرتفع نحو ستّة أمتار. لفتني برج المراقبة. حاولتُ أن أرى ما يراه الحارس فيه. لا شيء.

بدأت ضجّة القسم تخفت، أو هي تحوّلت من الفرحة بنهاية الإضراب إلى الاستعداد لعيد الفطر، غداً. راح الشباب يتناوبون على الذهاب جماعات إلى الحمام، تأتي واحدة وتذهب أخرى. حملت المنشفة وانضممتُ إليهم.

وزِّعت علينا صحون الشوربة لتليين المعدة.

نمت. بعض الأسرى يسهرون يتسامرون. ينتظرون زيارات الأسر غداً.

أحببت أن أحلم.

حين جاء، في صباح اليوم التالي، أحد الحراس وصرخ «اسفيرا»، أي جولة العدّ الصباحية، كان الجميع قد استيقظوا واستعدّوا لتناول الخضار المسلوقة.

خرجنا إلى الباحة. هناك، وفيما جلس نحو مئتي أسير، من قسمنا وأقسام أخرى، جاء شيخ مندوب من الحاكم العسكري الإسرائيلي لغزّة وخطب بنا خطبة العيد. راح يدعونا إلى التزام القانون والخنوع للإسرائيلي الذي يريد العيش بسلام. لم أصدّق ما يحصل وما أسمع. ولم تقنعني الإجابة التي تكرّرتْ على لسان عدد من الشباب:

— «كلمة وتمر».

بحثتُ عن الشيخ محمد أبو طير، رجل محترم من القدس، أسيرٌ معنا. حين وجدته قلت له:

— «في الإضراب المقبل علينا المطالبة بوقف هذه المسخرة».

«العصافير» وبيروت

غاضباً أطلَّ حارسٌ من أصول إثيوبيّة على شبّاك زنزانة في قسمنا، في سجن عسقلان. رمى ورقةً إلى الزنزانة صارخاً:

– «الممر ليس مزبلة لكم».

فوجئ الشباب في الزنزانة بهذه الحركة. لم يرمِ أحدٌ منهم ورقة إلى الممر. فهم منذ تناولوا العشاء قبل نصف ساعة، يجلسون في الفراش يتحدثون بعضهم إلى بعض، وواحدٌ منهم مشدود إلى كتاب. قفز عدد منهم نحو الورقة. أمسك أحدهم بها ووقفوا جميعاً، تحلّقوا ليقرأوا ما فيها:

– «يعيدون تنظيم اللجان. لديّ أخبار مهمّة. يجب أن نلتقي».

حدّق كلّ منهم في وجوه الآخرين كأنه ينظر في المرآة، يبحث عن شيء يعرفه. الصدمة تعبر رؤوسهم كطلقات في الاتجاهات كلها وبلا أهداف.

– «رسالة إلى الإدارة»، هذى أحدهم.

نظروا حولهم. تفقّدوا أنفسهم. انتبهوا إلى أنهم ينقصون واحداً. هو إذاً، رمى الرسالة من شبّاك الحمّام، وظن الحارس أنها ورقة تافهة والسجناء يرمون نفاياتهم إلى الممر.

اندفع أحدهم نحو باب الحمّام. أمسك الآخرون به، همسوا له بالتريّث. ما زالوا حائرين ماذا يفعلون. فكّر أحدهم بصوتٍ عالٍ في احتمال أن يصرخ العميل عبر شبّاك الحمّام، فيأتي الحراس لنجدته. اقترح أن يتركوه حتّى يخرج فيقبضوا عليه.

فُتح باب الحمّام وخرج المتهم. صُدم بالجميع ينتظرونه. فاجأه أحدهم بكمّ فمه بيده وإجلاسه أرضاً. سألوه ماذا كان يفعل في الحمّام! فهم.

في الممر، ارتاب الحارس من الضجّة في الزنزانة. أسرع نحو الإدارة. أخبر

الضابط المناوب بما حصل معه. أجرى الضابط اتصالاً بمدير السجن، وآخر بضابط الاستخبارات.

الضابط يسمع عبر الهاتف وينظر إلى الحارس بحنق ينضح تعالياً واستغباءً.

شعر الحارس بأنه ارتكب خطأً لم يفهمه. تهدّلت كتفاه كجندي مهزوم. رغب في الانسحاب والهرب من التوبيخ. فكّر في العودة إلى الممر.

أعاد الضابط السمّاعة إلى الهاتف بقوّة. عيناه المشتعلتان لم تفارقا الحارس. ملامح وجهه كلّها تتحرّك حول فكّيه المنقضّين كلٌّ على الآخر كأنهما حيوانان في معركة شرسة. خرج الضابط من خلف مكتبه نحو الحارس، أمسك بياقة قميصه من الخلف. جعله يستدير نحوه. ألصق وجهه بوجهه متوعّداً آمراً:

— «اجمع زملاءك ووافوني بعتادكم إلى باب القسم يا غبي، حسابك في ما بعد».

دفعه نحو الباب.

اقتحموا القسم. توجّهوا إلى باب الزنزانة. فتحوه ودخلوا الزنزانة بحركة عسكرية طالبين من الأسرى الاستدارة نحو الجدران ووضع أيديهم خلف الرؤوس. ركض العميل من بينهم إلى الباب وغادر القسم دون انتظار الحراس. سأل الضابط الأسرى عن الرسالة. لا أحد يجيب. اختفت. كرّر الضابط السؤال. لا رد. أقنع نفسه بأنّه لن يحصل عليها وبأنّها ليست ذات أهميّة، وهو أتى لتهريب العميل. أشار إلى الحراس بالانسحاب.

قُطعَت الكهرباء عن الزنازين قبل موعدها اليومي، العاشرة ليلاً، بنحو نصف ساعة.

وبدأ الأسرى يذيعون عبر الشبابيك والأبواب ما حصل.

لم أقوَ على النهوض من الفرشة لأقترب من الشبّاك وأسمع. أنصَتُّ إلى ما يتناقله رفاقي في الزنزانة. رئتي تضج في جسدي وتنهكه. أشعر بأنَّ ما في صدري وأحشائي كتلة واحدة مثل صخرة، وتنفّسي حبالٌ تحاول اقتلاعها من حيث هي عالقة، وتشد ظهري من الخصر فوق كتفي.

الاستلقاء في الفرشة يخنقني. أجلس لأتنفّس. هواءٌ بارد يقصدني فجأة وينساني كأنه يوزّع نفسه على مَن في الزنزانة بالتساوي.

غفوتُ مرهقاً من التعب.

صباحاً، أثناء الفورة، تمشّيت في الباحة مع إسماعيل دبج. يتأبط كتاباً وينحني قليلاً، بقامته المتوسّطة الطول، كي يصل صوته الخفيض إليّ. روى قصّة عمليّته على رأس مجموعة من الجبهة الشعبيّة القيادة العامة:

— «انطلقنا من دمشق وأُسرت في عام ١٩٦٩ في الجولان لا في فلسطين»، ختم مبتسماً. ومشى نظري فوق وجهه الأسمر كأنّه يتسلّق أنفه الطويل، استقرّ في عينيه. فيهما حكمة لا تخفى.

استأذنني لينسحب.

— «ابقَ. سعيد بك وبحديثك».

أصرّ على الرحيل مؤكّداً أن عليه مهمّة ينجزها.

مشى بين الأسرى. بدت لي ساقاه أخفَّ من ظهره المثقل.

جاءني إلى الباحة هشام عبد الرازق ومعه ثلاثة من أعضاء اللجنة الوطنية في السجن: زاهر الأفغاني (جبهة التحرير العربية) وغازي أبو جياب (الجبهة الشعبية) وزياد نخّالة (قوات التحرير الشعبيّة). شرعوا بالحديث عن جهودهم لإعادة تنظيم الأسرى، وانتخاب اللجان.

هذا يقول: «تنظيم الأسرى ضرورة». وذاك يزيد: «الإسرائيليون يريدون لنا أن نعود إلى ما كنّا عليه قبل سنوات، شرذمة وخلافات شخصية وعشائرية ومناطقية وبلا أي مشاعر وقيم وطنية». وثالث يضيف: «ها أنت ترى ظاهرة العملاء، فهؤلاء لا ينقلون أخبارنا وحسب، بل إن دورهم توتير الأجواء وافتعال المشاكل وبثّ الخلافات، ليتمكن الإسرائيليون من إنهاء القضية وتفتيت الناس وإضعاف التنظيمات».

فكّرتُ وأنا أسمع، في أن الإضراب كان لوقف هذه الأجواء ولتنظيم الأسرى، أكثر ممّا هو لتحقيق مطالب معيشيّة.

رافق زياد نخّالة تفكيري، أو تقاطع معه، قائلاً إن الإضراب في الأساس كان لإسقاط المخطّط ودوره التدميري لقيادة الحركة الأسيرة، ثم تأتي المطالب المعيشيّة الأخرى التي على الحركة تحقيقها.

انتهى من عبارته هذه، وسكت، كأنه ينتظر منّي أن أتكلّم. أنا شاردٌ فيه. لحيةٌ وشعر أسودان كثيفان وعينان صغيرتان غارقتان بهالتين معتمتين. ملامح ليست من التعابير التي يُعرف بها الإخوان المسلمون. أقلّ تكلّفاً وأقرب إلى اليسارية. للحظة،

أحببتُ أن أسأله عن تنظيمه، قوّات التحرير الشعبيّة، وعقيدته وخطابه. لكن، ليس الوقت لهذا، قلتُ لنفسي.

أعدتُ اهتمامي إلى الآخرين. تجوّلتُ بنظري عليهم كأَنْ لأذكّر نفسي بوجوههم، أو لأؤكّد لهم أنني أسمعهم.

أخبرني هشام أن أعضاء اللجنة يفكّرون في ضمّي إليهم.

كرّرتُ جولة النظر عليهم. هزّوا رؤوسهم جميعاً كتعبيرٍ عن جماعيّة القرار وحماسة كلّ واحد منهم له، وكدعوة لي إلى الموافقة.

شعرت بأنّهم حولي، وأنا في وسط دائرة مقفلة. قلت:

— «أنا مريض وتعبٌ وجديد على الأسر وعلى هذا السجن، ولا أتقن العبرية، وأعضاء اللجنة يجب أن يكونوا ممَّن اختبروا حياة الأسر والسجن والتعامل مع الإدارة والأسرى».

لم يتردّدوا في الإيماء بحركات تهوّن ما أقوله.

سألتهم على أي أساس سأكون في اللجنة التي تضم ممثلين للتنظيمات، بينما أنا وأبو أسعد فقط من جبهتنا في السجن.

سارع هشام إلى الرد، موحياً إلى أنه يفهم أسباب تحفّظي:

— «نحن نمثّل حركاتنا وجبهاتنا، وأنت كذلك، وهناك اعتبارات خاصّة».

فوجئتُ إيجاباً بهذه العبارة. رغبتُ في استيضاحه عن الاعتبارات الخاصّة، لكني خجلتُ من أن أبدو طامعاً في مديح أو ما شابه.

ربَّتَ كتفي:

— «أنت من لبنان، بيروت عزيزة على قلوبنا».

بدا ممازحاً أكثر منه جادّاً. وأكّد لي ذلك قولاً متذكّراً أنه عاش في بيروت ودرس في الجامعة العربية:

— «أقمتُ في الفاكهاني ثلاث سنوات. رحتُ طالباً وعدتُ فدائيّاً. هناك انتسبتُ إلى الثورة وحركة فتح. تركتُ كل شيء وعدتُ إلى غزّة لأنفّذ عملية، لكن قدري كان أن انفجرت العبوة التي أحملها قبل الوصول إلى الهدف، فلم يُصب أحد غيري».

سكتَ متذكّراً بصمت قصصاً كثيرة. قرأتُ في وجهه اشتياقاً لأماكن وأصدقاء وحياة بعيدة.

فضضنا اللقاء مع اتفاق على اجتماع ثانٍ قريب، وحتى موعده فرصة لي للتفكير. أثقلني حجم المسؤولية. شعرت بأنها بداية مشوار طويل. عدتُ إلى الزنزانة بحركة ثقيلة وبطيئة جداً. كان الأسرى كافة، بالرغم من عودتهم إلى الزنازين من الفورة التي تريحهم وتعرّضهم للهواء والشمس، أسرع منّي كما لو أنهم ذاهبون إلى أعمالهم.

ارتميتُ في فرشتي. أسندتُ ظهري إلى الحائط البارد. أمسكتُ الكتاب الضخم بجلدته السميكة السوداء، «النزعات الماديّة في الفلسفة العربية الإسلاميّة» لحسين مروّة. استأنفتُ القراءة من حيث توقّفتُ أمس. جاهدتُ لأستوعب ما يقوله، فأنا متشوّق لمعرفة تلك اللحظة التأسيسيّة في الفكر والتاريخ العربيين الإسلاميين، لكن الكتاب صعب، إمّا هو معقّد وإمّا أنا تعبان ومشوّش التفكير وبحاجة إلى قراءات تمهيدية.

أقفلتُ الكتاب، صفق بين كفّي. أحسست بأنني أصافحه مودّعاً للقاء لاحق.

حان وقت الغداء. وزّعوا الطعام علينا في الزنزانة. أكلتُ واستلقيت. كذلك فعل العديد من الأسرى.

مساءً، في وقت الفورة، حملت الكتاب إلى المكتبة، في الباحة، وأبدلته برواية «الجريمة والعقاب» لدوستويفسكي.

شرعتُ أقرأ. . . بمتعة. أحببتُ سلاسة السرد ورسم ملامح الشخصيّات والدخول عميقاً في عوالمها النفسيّة.

التفكير في المهمّة الجديدة لا يفارقني. عبارة هشام عن الأسباب الخاصة محرّضي للبحث عن أبعاد أخرى. كوني من جبهة في منظمة التحرير الاحتمال الرقم واحد. كلّما فكّرتُ في هذا استندتُ إلى قول هشام والآخرين إن عدم وجود الشيخ محمد أبو طير في اللجنة هو لكونه غير منظَّم ومن تيارٍ إسلاميّ لا يعترف بمنظّمة التحرير. الاحتمال الثاني هو أنني قائد مجموعة أتت من لبنان وصمدتُ في التحقيق والتعذيب ومحكوم ٥٤٢ سنة، أي إنّني باقٍ في السجن لمدة طويلة. فتح هذا الأمر تفكيري على أبعاد عدّة. فالحركة الأسيرة، في هذه اللحظة، بحاجة إلى دم جديد. . . ومنظّم، مواكب للثورة في حراكها السياسي والتنظيمي. وبرغم مزاح هشام أنني من لبنان، إلاّ أنني فكّرتُ أن في كلامه بعض الجديّة. لم يخالط هذا التفكير أيّ تفسير أنه يفصل بين اللبناني والفلسطيني. فهو والآخرون يؤمنون بأن

فلسطين قضية العرب جميعاً، ويدركون معنى أن ينضمَّ عربيٌّ إلى تنظيم يناضل من أجل تحرير فلسطين. ولطالما كان في السجون الإسرائيلية عرب وشاركوا بفاعلية في الحركة الأسيرة. ووجود واحد مثلي آتٍ من لبنان ضمن الحركة الأسيرة دليل على وحدة النضال وإشارة رمزية إلى لبنان وبيروت.

أخذني هذا إلى بيروت. تذكّرتُ ما مررت به من شوارع وأحياء. انتبهت إلى أنني لم أجُلْها كلّها. كانت بالنسبة إليّ مكاناً للإقامة أو العبور. أقصد شارع الحمرا مع رفاقي بين حين وآخر، ونرتاد مقهى الويمبي. لم أتنزّه على كورنيش البحر. وكنتُ كلّما مررتُ مسرعاً بقرب صخرة الروشة هزئتُ من المنتحرين العشّاق. شعوري في بيروت كان دائماً أنها في معركة، في حرب، مقسّمة، مقطّعة الأوصال. الأبنية مدمّرة أو تنتظر الدمار، وما يُصاب فيها يُترَك أو يُرمَّم على عجلٍ لحاجته لا للحياة الطبيعية للبشر والحجر. ربما هي كذلك في ذاكرتي وأحاسيسي لكوني أقمتُ فيها إبّان الحرب ولم أعرفها جيّداً قبل ذلك. لا ذاكرةَ لي فيها إلاّ كفدائيّ يعيش حياةً عسكريّة. الأبنية بالنسبة إليّ متاريس، أقيسها بالحجم وبالتصاقها بالأبنية الأخرى. مؤسفٌ هذا وليس شاعريّاً، لكن هذه ذاكرتي التي لا تحفظ إلاّ صور الناس يتحصّنون ويختبئون، وإذا ما خرجوا إلى الشوارع فلإنجاز عمل اضطراري أو للانتقال... ودائماً بسرعة كأَنْ للهرب من أمرٍ حصل أو ممّا سيحصل.

لم تمرّ أيّام كثيرة. جاءتني بيروت في الحلم كأنها تنقلب على ما لديّ من صورٍ قاسية وتذكّرني بنفسها. استعرضتْ شوارع وأحياء وأبنية مررتُ بها ولم أكترث لجمالها ولتفاصيل الحياة فيها. رأيتُ نفسي من فوق، أقود سيارة رفيقي وأتسلّق المقود لأنظر إلى السماء والشمس. الطقس ربيعي وخصل شعري تتطاير. توقّفتُ عند امرأةٍ تسقي نباتات على شرفة منزلها في بناية.

أحببتُ هذا الحلم وأنا نائم، ورغبتُ في متابعته واستمراره بعدما استيقظت.

بقيتُ لوقتٍ طويل أفكّر في تلك المرأة التي لا أعرفها. صرتُ مستيقظاً أتخيّلها، أو أتوسّل الخيال لأراها أكثر. شاهدتها تمسح الشرفة وتدلق الماء من إبريقٍ لا يفرغ، تجعل العالم نديّاً ومنعشاً. ومرّة أخرى تخيّلتها تلصق زجاج باب الشرفة المكسور. وحين تختفي وأعجز عن تخيُّلها أفكّر في أنها تهتم بأسرتها وبنباتات أخرى في الداخل.

صباحاً، وزّعوا علينا جريدة «الأنباء» التي تصدرها مديرية الاستخبارات يوميّاً ما عدا السبت. هذه أوّل مرّة أمسك بها. بدايةً، فكّرتُ أن اختيار هذا الاسم هو بهدف مطابقته اسم جريدة الحزب التقدمي الاشتراكي، لكن عدت وفكّرت أنّ المقصود هو الادعاء بأنّهم يقدّمون الأنباء، الأنباء فحسب من دون تدخّل.

تحمّستُ للاطلاع عليها لمعرفة ماذا يكتبون فيها. مقالات بعضها موقّع بأسماء عربية وأخرى إسرائيلية. وهذا مقصود لجعل الأسرى يفكّرون بإمكانية الشراكة. وتقارير تحكي عن القوّة العسكرية الإسرائيلية واتفاقية كامب ديفيد وما تجنيه للشعبين المصري والإسرائيلي. وتحقيق من جنوب لبنان يتحدّث فيه مواطنون عن تجاوزات المخرّبين الفلسطينيين وقمعهم الأهالي... والأموال الكثيرة التي يصرفها القادة الفلسطينيون في حياتهم المترفة في القصور والسيارات المكيّفة ومع النساء.

غضبتُ. خفتُ من تأثير هذه الدعاية على الأسرى ولا سيما أبناء غزّة والضفّة الذين لم يذهبوا إلى لبنان، ويمكن أن يصدّقوا أن الترف والفساد عامّان ومنتشران.

وقفتُ، في الباحة، بين مجموعة من قسمنا وقسم آخر، وقلتُ مستغرباً:

– «كيف نقرأ هذه الهرطقة؟».

ابتسموا جميعاً.

– «ماذا نفعل؟»، ردّ أحدهم.

– نتسلّى. قال ثانٍ.

– «ليس كل ما نقرأه نصدّقه ونقتنع به»، انزعج ثالث معتقداً أنّني أتّهمه بالتلقي الأعمى وأستخفّ بعقله ووطنيته.

نفيتُ أن أكون قاصداً هذا:

– «أنا جديد هنا. خفتُ من تأثير هذا الكلام. المعركة ليست بيننا، بل بيننا وبينهم. كيف نتركهم يوزّعون هذه الجريدة وما فيها من أفكار مسمومة؟».

– «وماذا نفعل، هم يوزّعونها ونحن نأخذها، ويمكننا أن نستعملها في الحمّام».

– «حتى إنها تسمّم في الحمّام»، علّق أحدهم ممازحاً ليغيّر الجوّ ويزيح التوتّر.

جاء المردوان، الأسير الذي ننتدبه للعمل في الممر خدمةً للأسرى في القسم، إلى باب زنزانتنا. نظر حوله متفقّداً المحيط. تأكّد من ابتعاد الحرّاس. صبَّ لي القليل من الماء الساخن للشاي، ومرّر لي ورقة. فتحتها. رسالةٌ من اللجنة الوطنيّة تعلن انضمامي إليها، موقّعة من أعضائها كافّة.

في اليوم التالي، أثناء بحثي عن إسماعيل دبج في الباحة، اقترب زاهر منّي ومشينا معاً. بدأ أعضاء اللجنة واحداً واحداً، هشام، زياد وغازي، يتسلّلون وينضمّون إلينا. لم يأتِ الرفيقان الآخران في اللجنة، خالد الأطرش (جبهة النضال الشعبي) وممثّل الجبهة الديموقراطيّة.

— «لا يمكنك التنصّل. لدينا شغل كثير!»، خاطبني زاهر بلهجة غادرت الإقناع إلى الصرامة والقدريّة.

— «فلنعقد اجتماعنا الأوّل، ما دمنا معاً»، قال زياد الذي يتكلّم كمن يخرج من بيته لقضاء حاجة، ثمّ يعود إليه ويغلق الباب خلفه. يذكّرني هدوؤه بكبار السن.

نظر الشباب حولنا ليتأكّدوا من أنَّ أحداً لا يلاحظ اجتماعنا.

قال هشام:

— «غالباً، ما تعقد اللجنة اجتماعاتها في الباحة أثناء الفورة. ما يقتضي أن يكون الأعضاءُ في القسم ذاته. وإذا كان هذا أو ذاك من الأعضاء في قسم آخر يتعقّد عمل اللجنة، ونُضطر إلى التواصل عبر الرسائل. وذاك شاقٌ ويستنفد الكثير من الطاقة والوقت».

رددت:

— «أعرف هذا وقد شكّل سبباً إضافيّاً لموافقتي على الانضمام إلى اللجنة». أحسست أنّ عليّ تسهيل العمل.

من اللحظة الأولى للاجتماع حضر شبح العملاء. بادر غازي بحيويّة:

— «العملاء كثيرون، كلّ يوم، أو أيام قليلة، نحن أمام وقائع جديدة، وعلينا التصرّف. أوّلاً علينا الاتفاق على أن كل تنظيم يتولّى عمليّة تنظيف جسده، وأي تنظيم لديه معلومات عن تعاون أحد أعضاء تنظيم آخر مع الاستخبارات عليه أن يخبر تنظيم المتّهم، كي يعالج تنظيمه ملفّه».

لم يعارض أحدٌ هذه الفكرة، فهي شبه معتمدة، ما جعل الأمر أشبه بتأكيد

التعاون واستمرار العمل لكشف العملاء. انتظار هشام غازي لينتهي من الكلام حفّز النقاش، بدا أن لديه أمراً آخر يجب أن يقوله ولديه وجهة نظر حوله:

– «علينا التريّث في معالجة هذه القضيّة، وإذا كان التعاون ضروريّاً فإن بتّ الأمور يجب أن يكون مشتركاً. لا يمكن أن نترك كل تنظيم يحكم كيفما يشاء، هذا يفسح في المجال للارتجال والشلليّة».

حمّست هذه المداخلة زاهر الذي كان مسترخياً حتى اللحظة. استقام في جلسته وقال:

– «مسؤولية التنظيمات أن تنظف نفسها وتحمي جسمها وأعضاءها، لكن القرار هو من مسؤوليّة اللجنة الوطنيّة. فاللجنة مسؤولة عن السجن».

التفت إلى الحاضرين واحداً واحداً، وقبضته مشدودة. حدّق في غازي وزياد. شعرت بأنّه متّفق مع هشام على هذه الآليّة، وأخذني تفكيري إلى احتمال وجود اختلاف في وجهات النظر بينه وبين هشام من جهة وغازي وزياد من جهة أخرى.

تبدّد هذا الانطباع مع موافقة غازي وزياد على هذه القاعدة. قال غازي بعدما التفت إلى زياد كأنّه يتلو ما سبق أن اتّفقا عليه:

– «على كل تنظيم أن يدير نفسه، ولا يتدخّل أحد في شؤونه الخاصّة. وإذا ما كان عنصر ما من أي تنظيم مشكوكاً في تعامله أو ثابتاً عليه التعامل، يعاقبه تنظيمه بعلم اللجنة وموافقتها، ولا يحق للجنة أن تعاقب أي عنصر في أي تنظيم من دون قرار هذا التنظيم».

دعا هشام إلى النظر إلى الموضوع من زاوية أخرى:

– «لدينا الآن في سجن غزّة مشكلة خطيرة وطنيّاً. المحقّقون الإسرائيليّون يجبِرون الأسرى على توقيع أوراق بيضاء يملأونها في ما بعد باعترافات كاذبة بأن الأسرى يتعاونون معهم. هذه مشكلة على اللجنة الوطنيّة في سجن غزّة معالجتها. الموضوع ليس خاصّاً بهذا التنظيم أو ذاك».

بقيت ساكتاً. هم يعرفون بهذا الموضوع أكثر منّي. رغبت في سماع آرائهم واقتراحاتهم الطالعة من خبراتهم وتواصلهم مع السجون الأخرى. أصغيت لزاهر:

– «لنقترح على اللجنة الوطنيّة هناك أن تُصدر بياناً تؤكّد فيه أن ليس كل من أُجبرَ على توقيع ورقة بيضاء هو عميل. وتدعو اللجنة من وقّع إلى إخبارها كي تحميه من الضغوط الإسرائيليّة ومن شيوع التهمة».

– «أنا موافق»، سارع هشام.

— «لنتريّث أيّها الشباب. ربّما يستغلّ عملاء متورّطون هذا الأمر ويدّعون أنّهم ممّن وقّعوا»، كبحهما زياد.

انتفض غازي:

— «لا يمكن أن نغطّي كلّ الذين ضعفوا ووقّعوا».

صمت الجميع.

اقترحتُ عليهم تنظيم اللجنة والأسرى في الأقسام والزنازين. سألتهم كيف تنسّق التنظيمات وتقوم اللجنة الوطنية بدورها إن لم ننظّم أنفسنا؟ وفكّرتُ بصوتٍ عالٍ في العملاء الذين تهرّبهم الإدارة إلى قسم العار. قلت:

— «هؤلاء لم ينتظروا أن يعاقبهم هذا التنظيم أو ذاك، ويشكّلون الآن خطراً على الأسرى ولا سيما الجدد، الذين يضعونهم معهم لسحب معلومات واعترافات منهم».

— «العصافير»، قال زاهر ليخبرني أن هذا لقبهم.

علّق غازي بحدّة:

— «الصراصير».

ضحكنا جميعاً كأننا إزاء رسم كاريكاتوري.

اتفقنا على أن يقدّم كل تنظيم تصوّره عن توزُّع الأقسام والزنازين، وحجم مشاركته في اللجان.

الهدف العاجل من هذا الإجراء عدم تحويل مسألة العملاء إلى فوضى تفسح المجال للتعجّل في الأحكام والانتقامات الغامضة. والغاية الثانية هي تحقيق المطالب المعيشيّة التي اتُّفق عليها مع الإدارة لإنهاء الإضراب. فحتّى الساعة كنّا نلمس مماطلة وتسويفاً في تنفيذ تلك المطالب. والحجّة هي أن دورنا سيأتي بعد تحسين أوضاع الأسرى في سجن نفحة.

في الاجتماع التالي، بعد أيام، أنجزنا قائمة بالمناقلات التي نريدها لتقديمها إلى الإدارة. ففي الإضراب الأخير استطعنا تحقيق مطلب حق اللجنة في نقل من تشاء من الأسرى بين الأقسام والزنازين، مرّة كل شهر.

تولّى هشام إيصال الرسالة بمقترحنا إلى اللجنة الوطنيّة في سجن غزّة، مع توصية بتحرّي الدقّة كي لا يتسلّل عملاء ويدّعون أنّهم أجبروا على توقيع تلك الأوراق البيضاء.

بدأنا إعادة تنظيم اللجان في الأقسام والزنازين.

استجابت الإدارة ونفذّت القائمة الشهريّة التي تقدّمنا بها، لكنّها حلَّلَت ما نقوم به وشعرَتْ بمساوئه عليها. أعادت مديرية السجون مديراً أسبقَ للسجن، ديسترفيلد، من تقاعده إلى وظيفته القديمة. أخبرت الإدارة ممثّل الأسرى بالقرار بغية إرباكنا وبثّ الرعب بين الأسرى. فهذا المدير من أقسى مَن تعاقبوا على إدارة السجن، «كان يلعّب الأسرى على أصابعه»، كما قال كلّ مَن عايش مرحلته. زرع العملاء بكثافة داخل الأقسام والزنازين. ويتذكّر الجميع أنه مرّة ضرب أسيراً بمكواةٍ على رأسه وقتله لأنها تعطّلت أثناء عمله. ففي عهده كان الأسرى يُشغّلون بحياكة ثياب الحراس وغسلها وكيّها.

— «عيّنوه لإعادة السجن كما كان أوائل السبعينيات، وليفتّت الأسرى ويقمع الحركة الأسيرة»، قال هشام، في اجتماع اللجنة الذي عقدناه بنحو طارئ.

ناقشنا الموقف وأصدرنا تعميماً طلبنا فيه التماسك وتجنّب الصدام، حتى نعرف ما سيقوم به المدير الجديد. أبقينا أنفسنا في حال جهوزيّة وطوارئ... تركنا احتمال إعلان إضراب مفاجئ خياراً مفتوحاً، بالرغم من إدراكنا أن الأسرى غير مستعدين لذلك والتنظيمات مشغولة بالعملاء.

جاء ديسترفيلد إلى السجن. جال على الأقسام. أحسسنا جميعاً بصدمته من عدم اكتراثنا به، والخوف أمامه ومنه، وإظهار الطاعة له. بعض الأسرى لم يخفِ ابتهاجه بذلك والتعبير عن السخرية منه. تعامل الجميع معه كشبحٍ متقاعد، لا حاجة إلى مهاجمته انتقاماً على ما فعله سابقاً.

صار يدخل الأقسام والزنازين وكأنه يبحث عن أسير واحد يرتعد أمامه أو حتّى يرحّب به. وصل إلى الباحة، وكلّما دخل بين مجموعة أهملته وواصلت مشيها أو حديثها ازداد غيظه، حتى غادر ممتلئاً حقداً ووعيداً.

أنعشت هذه المواجهة الصامتة الأسرى. وفي أجوائها اجتمعت اللجنة الوطنيّة لوضع اللمسات الأخيرة على برنامج الاحتفال بذكرى تأسيس حركة فتح، في أول كانون الثاني/ يناير، غداً.

زفر زاهر فَرحاً بحلول مناسبة فتح في أجواء تضامنيّة ومعنويّات عالية:

— «جاءت في وقتها»، قال بنشوة من يشعر بأن الحظَّ حليفه.

— «أنا في فتح وليس أنت»، فاجأه هشام، واحتضنه وسط ضحكة عالية فجّرها

الحاضرون، بما في ذلك زاهر. فحماسته إلى تمتين عصب الأسرى وإشاعة قيم العمل السياسي والوطني، جعلته يبدو كأم العروس، كما قال له هشام.

عند السابعة من مساء اليوم التالي، انطلق الاحتفال وفي لحظة واحدة، في الأقسام والزنازين كلها. وقفنا ننشد:

«فدائي فدائي فدائي

يا شعبي يا شعب الصمود

بلادي بلادي بلادي

يا أرضي يا أرض الخلود».

وأثناء تلاوة البيانات المعدّة رمى الحرّاس في الأقسام والزنازين قنابل الغاز. لففتُ زندي حول وجهي. وجدتُ الغالبية يخلعون الكنزات ويتكمّمون بها ويعقدونها خلف الرؤوس. فعلتُ مثلهم. استعددنا لأيّ هجوم من الحرّاس، أو من قوّة إضافية تُستقدم إلى السجن.

تكاثر الحرّاس في الممرّ، وراحوا يهدّدون بهراواتهم إذا ما واصلنا الاحتفال.

أُغميَ على عدد منّا. حناجر متفرّقة تكرّر النشيد. والجميع، في الزنازين كلّها، اندفعنا إلى الأبواب، مع صرخات تدعو الحرّاس إلى الابتعاد والخروج من الممرّات.

انسحبوا، وعلا التصفيق.

تولّى عدد من الأسرى الحراسة تحسّباً لعملية دهم.

صباحاً، أخرجوا قسمنا إلى الباحة. ومثلما هي العادة استؤنف الاحتفال بالنشيد. تلا هشام بياناً.

استنفر الحرّاس، لكنهم لم يتجرّأوا على مهاجمتنا. خافوا من نشوب معركة في باحة تجمع نحو مئة أسير، وفي لحظةٍ عاطفيّة مشحونة بمشاعر التحدي.

كذلك فعل القسم الذي أعقبنا في الباحة. والقسم الثالث. فقرّرت الإدارة أنْ لا خروجَ للأقسام الأخرى إلى الباحة في هذا اليوم. احتفلت الأقسام الممنوعة من الخروج إلى الباحة في الزنازين... ورموا عليها قنابل الغاز.

عند السادسة والنصف من صباح أحد أيام الشهر الثاني من عام ١٩٨١، بالتزامن مع جولة العدّ، وصلت إلى السجن قواتٌ كبيرة مدجّجة بالأسلحة

والهراوات والتروس. توزّع عناصرها في الباحة وحول الأقسام وفي الممرّات وعند المداخل. ركّبوا خراطيم المياه. استعدّوا للاقتحام والمواجهة. فُتحت مكبّرات الصوت. أُبلغنا أن الإدارة ستجري مناقلات للأسرى داخل السجن. وطُلب من كل أسير يرِد اسمه أن يحمل أغراضه ويخرج من زنزانته وقسمه إلى الباحة. وهناك سيُقال له إلى أيّ قسم وزنزانة سيُفرز.

ضجّ الأسرى اعتراضاً، وراحت تتنامى بينهم الدعوة إلى المواجهة.

رحنا، أعضاء اللجنة الوطنية ولجان الأقسام والزنازين، نتشاور على عجل، عبر الشبابيك. وأكثر عبارة تردّدت في تلك اللحظات تقول إن الإسرائيليين انزعجوا من تنظيم الأسرى حركتهم وكشف هذا العدد من العملاء ومحاكمتهم وفرار قسم منهم. برغم ذلك، اتفقنا على أن أيّ صدام سيضعف الحركة ويشرذمها ويعيدها إلى الصفر. آثرنا الحفاظ على قدراتنا والتكيُّف مع التطوّرات، في الأقل، لتتّضح معالم المرحلة التالية.

قلنا للجميع إن مَن يرد اسمه يخرج إلى الباحة من دون مشاكل. استطعنا تهدئة الأجواء.

بدأوا يُخرجون المتديّنين. الشيخ محمد أبو طير وإخوانه. هؤلاء، «المنفلشون» كما يُسمَّون، استقالوا في السجون من تنظيمات منظمة التحرير وحاولوا أن يؤسّسوا تياراً فطلبت إليهم التنظيمات ألاّ يفعلوا هذا في السجن، بل في الخارج وعندما يتحرّرون.

فرزوهم إلى القسم «أ»، في الطبقة الأولى. يوفّرون لهم بيئة خاصّة، يشجّعونهم على التبلور، كحالة مستقلّة عنّا ومختلفة معنا، لزيادة التناقضات بين الأسرى.

توجّسنا حين جاء دورنا. بدأوا باستدعاء «الرؤوس الحامية»: هشام، زاهر، زياد، غازي. . . وآخرين ممَّن أمضوا سنوات في السجن ويمارسون أدواراً قياديّة. عندما يرد اسم أيّ واحد، يحمل أغراضه ويتوجّه إلى الباحة. حاول الحرّاس تفتيشنا وانتزاع بعض الأغراض ولا سيما الكتب. رفضنا بهدوء، فاستطعنا إنقاذ بعضها. شخصيّاً كنتُ متحمّساً لمتابعة قراءة كتاب «في التناقض» لمهدي عامل، الذي كنتُ قرأتُ منه صفحات قليلة. بقي معي.

في الباحة اجتمعنا، لكننا لا نستطيع أن نتكلم بعضنا مع بعض. ننتظر ونراقب.

نقلوا هشام وزياد وزاهر وغازي وآخرين إلى قسم الزنازين.

ثم استدعوا عدداً من أسرى القسم «ب». أفرغوا لنا أماكن فيه وأرسلونا إليه. أنا إلى الزنزانة ٦. تبعني منصور ثابت وموسى جمعة الناجي الوحيد من عمليّة فندق سافوي في تل أبيب ٩/ ٣/ ١٩٧٥، بتنا ستّة عشر أسيراً. وكل زنزانة تمتلئ يُقفل بابها.

بعد الانتهاء من فرز القسم «ج»، ومع فرز الباقين على القسمين «د» و«ح» ساد شعور بأن التصنيف جرى على أساس طبقي معنوي يجعل نزلاء القسم «د» أدنى من نزلاء القسمين «ب» و«ج»، ونزلاء القسم «ح» في الأدنى. هدفت الإدارة من خلال هذا إلى عزل القادة وتفتيت الأسرى وإيجاد مجموعة منّا ترضى بما يُقدّم لها وتضعف أمام المغريات... وهذه المجموعة وضعت في القسم «ح».

أحسّ الأسرى الذين نقلوا إلى ذاك القسم بالإهانة والإذلال. ولكي ينفوا صفة الضعف عن أنفسهم، راحوا يتصدّون للإدارة.

قصدتُ، أثناء الفورة، مجموعة قياديّة في حركة فتح. اتفقنا على تأليف لجنة طوارئ. وتولّوا هم الاتصال بالآخرين ليختار كلّ تنظيم ممثلاً بدلاً من أعضاء اللجنة الوطنية الذين نقلوا إلى قسم الزنازين.

بعد أيام، وأنا في الزنزانة أنهي بشغف حزين كتاباً لإميل توما عن فلسطين، وقفَ حارسان على باب زنزانتي وطلبا إليّ جمع أغراضي.

— «إلى أين؟»، سألتهما.

لا جواب. ودّعتُ رفاقي في الزنزانة. حسبتُ أنني سأُنقل إلى سجن آخر، أو إلى قسم آخر. لكن المفاجأة كانت بسيري خطوات قليلة، إلى الزنزانة ٩ في القسم ذاته.

ياالله، لم تتحقّق لي أمنية قبل ذلك. أنا وإسماعيل دبج في زنزانة واحدة.

صافحت الشباب الستّة عشر الآخرين وعادوا إلى حلقتهم.

أمسك إسماعيل بيدي وأجلسني أرضاً. وقبل أن يستقر بجانبي، مدح كتاباً عن التوراة يقرأه.

— «بالعبريّة»، قال هازّاً رأسه ليؤكّد معلومة قالها لي سابقاً.

أضاف بحماسة:

– «سأعلّمك اللغة العبريّة. العبرية شخصية جديدة، عليك أن تفكّر فيها وفق قواعدها لا وفق العربية. تتعلّمها لتعرف عدوّك وتُفْهِمه موقفك. وإلى أن يقبل الإسرائيليّون إحضار كتب بالعبرية تُحصّل ثقافتك عبر الكتب العربية. وحتى ذاك الزمن تستعدّ بإتقان العبريّة».

جعلتْ هذه الكلمات تعلُّمَ اللغة العبرية مهمّة نضالية عليّ تنفيذها. وضاعفَ استنفاري وجهدي همسه أن الإسرائيليين الذين عليّ الإفادة من وجودي أسيراً بينهم، حريصون على ألاّ يتركونا نتعلّم اللغة العبرية. استفسرتُ منه ما إذا كان هذا موقفاً متعصّباً عنصرياً منهم. رجّح ذلك وأكّد أنهم لا يريدوننا أن نتعلّم شيئاً، أيّ شيء.

باب آخر للتحدّي فتحه إسماعيل أمامي. وأخذ بيدي لولوجه. صار يحدّثني، في الزنزانة، في الباحة، بالعبريّة. وأنا أستغل كلمة من هنا أو من هناك لا أفهمها كي نسترسل في حوار عن التاريخ أو السياسة أو العسكر أو الفلسفة أو الحركة الأسيرة.

وسط هذا، جاء ضابط وضع الكلبشة في معصمي واصطحبني معه. مشينا إلى مكاتب الإدارة. أدخلني مكتباً وجدت فيه امرأة شقراء أميركية الهيئة، ومعها فريق تصوير تلفزيوني ورجل آخر. وقفتْ لمصافحتي:

– «باربرا نيومن مراسلة قناة ABC».

وهو:

– «إيهود يعري مراسل الشؤون العربيّة في القناة الأولى الإسرائيليّة».

ترجم لي طلبها أن تُجري معي مقابلة. سألتها عبره عن ماذا.

– «عنك وعن عمليّة نهاريا وبعض العناوين السياسيّة الراهنة».

فكّرت أنها لا يمكن أن تصل إلى هنا لتقابل «مجرماً» خطيراً، وفق الدعاية الإسرائيليّة والثقافة الأميركيّة، لو لم تكن على صلة بأعلى القيادات الأمنية في إسرائيل، وربما في بلدها. سألت نفسي ماذا تريد؟ صورة فتى مخرّب أتى من لبنان ليقتل المدنيين والأطفال.

قالت لي هازئة:

– «لماذا أنت متوتر؟».

لم تقصد أنني توتّرت الآن انفعالاً وخجلاً، بل القول إن شخصيتي عصبيّة. قلت، قبل أن أتلفّظ بأي كلمة، إنها صنّفتني، وكأنها تريد لي أن أظهر عنيفاً. لم أجبها، وقد رطنت بالانكليزية مع يعري أكثر ممّا تكلمت معي. قال لي في انتظار أن نجهز نحن وفريق التصوير:

— «أنا صديق الشيخ بشير الجميّل، أذهب دائماً إلى منزل عائلته في بكفيّا».

لم أجبه. ارتسمت على وجهي ملامح الاشمئزاز من هذا الكلام، من فكرة أن يكون إسرائيلي صديقَ لبناني وأن يزوره في قريته وبيته كأن لا صراع بين لبنان والعرب من جهة والكيان الصهيوني من جهة أخرى.

بدأنا المقابلة. حاولت قدر الإمكان أن أُجيب بسرعة وكما أفكّر بصراحة وحدّة.

سألتني عن أنور السادات. رددت أنّه خائن.

— «ياسر عرفات؟».

— «نعتبره قائدنا رغم اعتراضنا على أفكاره السياسيّة».

— «سعد حدّاد؟».

— «يجب أن يُقتل لأنه خائن لوطنه».

لم تخفِ ملامح استغرابها من مواقفي.

سألتني ماذا أفعل إذا ما أُطلق سراحي؟

— «سأنفّذ عمليّة فدائيّة جديدة».

— «وتقتل فيها مدنيّين؟».

— «لسنا هواة قتل، لكنّني سأقتل كل من يعترض عودة الشعب الفلسطيني إلى أرضه»، أجبتها وكأنّي أريد أن أُسمع الشعب الأميركي كلّه.

رفض الأسرى في القسم «ح» ما عرضته الإدارة عليهم من زيادة الوقت الذي يمضونه في الباحة، ومضاعفة المبلغ الذي يمكنهم أن يشتروا به من الدكان وتنويع السلع التي يمكنهم الحصول عليها. وغير مرّة رَفض هذا وذاك منهم تلبية دعوة الإدارة إلى اللقاء. ردّوا عليها بأن هناك لجنة تمثّلهم، ولا يتحدّثون إلى الإدارة إلاّ عبرها، ولا يقبَلون بمكتسبات، هي رشى، لا ينالها الأسرى كافّة.

تتواتر هذه الأخبار وغيرها عبر الشبابيك. وبرغم الإعجاب سرت شائعة تقول إنَّ القسم «ح» خالٍ من العملاء، على قاعدة أنَّ الضعفاء ليسوا بحاجة إلى جواسيس. انتشرت هذه المقولة على شكل مزاح عندما لاحظ أحدهم أن أسيراً يكثر من هذا المزاح في قسمنا، في الزنزانة ٩، يطلب كثيراً الذهاب إلى العيادة مدّعياً أنه مصاب بالقرحة. وقبض عليه زميل له يهمل طعامه المخصّص للمرضى ويأكل خلسةً طعاماً يُنصَح لمرضى القرحة تجنّبه. سأله لماذا يفعل هذا فردّ مدّعي المرض بأنه مشتاقٌ للطعام العادي ويرغب في تذوّقه.

— «لكنكَ التهمتَ الصحن كلّه ولم تتذوّقه فحسب. وهذا كفيلٌ بإصابتك بنوبة قاتلة»، ردّ عليه.

لم يبدّد جواب مدّعي المرض شكوك السائل. وفي اليوم نفسه أخبر المسؤول الأمني في تنظيمهما. اتفقا على وضعه تحت المراقبة. وشاهداه مرّة يسرق قدّاحة زميل له ويخفيها في أغراض زميل آخر. ثم راح يهمس في أذن صاحب القدّاحة بأن زميله الذي دسّ القدّاحة بين أغراضه، وهو من تنظيم آخر، سرقها.

دفعَتْ هذه الحادثة المسؤول الأمني إلى كتابة رسالة إلى مسؤول تنظيمه عضو لجنة الطوارئ. وطلب من المردوان نقلها. وعاد المردوان بالجواب مكتوباً: أطلب من أخوين تثق بهما أن يبقيا معك، وحقّق مع المتّهم.

وحصلَتْ المفاجأة، أثناء التحقيق معه، اقتحمت قوّة مدجّجة بالغاز والهروات القسم والزنزانة وهرّبته بعدما اعترف بتعامله مع الإسرائيليين. لم تتوقّف المفاجآت بالنسبة إليّ هنا، فالعميل هذا هو نفسه الذي حاول الشجار معي لمناسبة حديثي عن جريدة «الأنباء».

عندها قرّرت لجنة الطوارئ، بناءً على توصية المسؤولين الأمنيين في التنظيمات، وقف هذه الشائعة ومراقبة تداولها. فبينما نريد إعطاء معنويات للأسرى في القسم «ح»، لا نريد إراحة العملاء إذا ما كانوا فيه، ولا نريد بثّ الشكوك في الأقسام الأخرى وتأطير عملية البحث عن العملاء بمزحة قد تكون مضلِّلة.

رأيتُ الضابط سليم، وفي يده البريد، يأتي إلى الباحة. لم أعره اهتماماً. واصلتُ حواري مع مجموعة شباب من زنزانة أخرى. اجتمع حوله أسرى. بدأ

توزيع الرسائل. صرخ باسمي ونظر إليّ، كأنه منزعج لعدم وقوفي بقربه، كما لو أنني أعرف أنَّ لي رسالة وأزعجه عدم اكتراثي. جعلني تصرّفه هذا وكرهي له بسبب تعليقاته المسيئة على الرسائل وتغطيته عبارات لا تروقه، أتباطأ في السير نحوه. رمقني مستاءً. وحين صرتُ بجانبه اكتشفتُ أنه وضع رسالتي في آخر بريده. رسالتان ثلاث وباتت رسالتي وحيدة بين يديه. سألني وعلامات الكره على وجهه:

— «ألا تريدها؟».

سحبتها من يده ولم أجبه.

سألته وقد بتنا وحدنا:

— «معك الطلاء الذي تغطي فيه ما لا يعجبك برسائلنا؟».

— «نعم».

— «امحُ وجهكَ البشع إذاً». تركته ومشيتُ طارداً صورته من رأسي، ولم أسمع تمتماته.

هذا خط أبي، أعرفه. من الأسطر الأولى يمهّد لقول أمر مزعج. رغبتُ في قراءة الأسطر الأخيرة. التاريخ: ٢٣/ ٤/ ١٩٨٠. كُتبت الرسالة قبل نحو سنة. قرأت بسرعة... سناء، أختي سناء، توفّيت! توفّيت بعد سنة ويوم من اعتقالي. يا للقدر. امتلأتْ عيناي فجأةً بالدمع. غير مصدّق أعدتُ قراءة العبارة. لا أرى في الرسالة غيرها. كيف ماتت؟ رأسي يسأل وقلبي يُعْتصر. سكتة دماغيّة. آخ. لم تحتمل فكرة اعتقالي. كنتُ أعرف هذا. ما أقساني. كنتُ أشعر بحبّها، تبكي لفراقي وكلّما عدتُ إلى البيت ترجوني ألاّ أغادر. وأنا أبتسم واحتضنها وأقبّلها وأعدها بالعودة، بالعودة قريباً. وهي تنظر إليّ غير مصدّقة كلامي. كلّ مرّة ودّعتها كانت ترتجف وتقول لي: أشعر بأنّك لن تعود. وأنا أجعلها تتراجع وتقبل تركي أغادر. وهي تبكي، وأنسحب بسرعة كي لا أبكي أمامها.

كيف لم أنتبه لصعوبة فراقي عليها؟ كيف وعدتها وخنتها؟ أكيد سامحتني لكذبتي البيضاء هذه. متُّ أمامها عشرات المرّات، وفي غيابي عنها كنتُ أموت وهي ترتعب لغيابي وفراقي. وكانت كلّما عدتُ إليها لا تصدّق وقوفي أمامها. تتفقّدني كأم تتحرّى إذا ما جُرح ابنها أثناء اللعب. كيف ربّيت لعنادي وجهاً آخر، حدّاً آخر؟ ذروة القسوة في فراقها الآن، في اعتقادي أنني روّضتُ حبّها لي، وفي تجاهلي انعكاسات غيابي. لم أتخيَّل للحظة أن قتالي ثم احتجازي سيسبّبان هذا. لم

أتخيَّل أن هذا يحصل مع البشر: أختٌ تموت لفراق شقيقها. كانت هذه قصّة خياليّة، مستحيلة واقعيّاً بالنسبة إليّ. وحصلت معي. معي ومع أختي.

في أحد أيّام الشهر السابع من عام ١٩٨١، رُحّلتُ مع مجموعة من الأسرى إلى سجن بئر السبع. أثناء انتقالنا بالبوكس لم تفارقني عبارةُ مناحيم بيغن، في كتابه «التمرّد»، التي تنصح بعدم ترك الأسير يستقر.

من اللحظة الأولى لدخولي القسم ٦ في سجن بئر السبع انشغلتُ باستطلاع الأجواء. مروري قبل نحو سنة على هذا السجن ساعدني على تبديد مشاعر الغربة. فأكثر ما يسيطر على الأسير حين يُنقل إلى سجن آخر هو هذه الأحاسيس. وأنا أردتُ تجاوزها لكي أستقرّ، كأني في تحدٍّ مع بيغن وعبارته اللعينة تلك. فكّرتُ أنه لا ينتجها إلاّ عقلٌ خبيثٌ وقاسٍ.

وجدتُ سجن بئر السبع متغيّراً. صنّفوه قبل أيّام كما فعلوا معنا في سجن عسقلان قبل خمسة أشهر. نقلوا الأسرى من أقسام المهاجع الكبيرة، ويضم كل واحد منها سبعين شخصاً، إلى أقسام الزنازين الصغيرة، التي كانت للمدنيين. الزنازين الجديدة نوعان، فئة تتّسع كلّ واحدة منها لثمانية أسرى وأخرى لاثنين.

روى لي أحد الأسرى المواجهة مع القوات الضخمة التي استُقدمت واقتحمت السجن لتنفيذ عمليّة الفرز. التحم الأسرى داخل الأقسام والمهاجع مع الجنود. في كل مهجع سبعون رجلاً يتعاركون مع الجنود المدجّجين بالغاز والهراوات. انهالوا عليهم بالضرب بأيديهم وبأيّ شيء وصلوا إليه. صار الجنود يهربون من بينهم ويحاولون الخروج من المهاجع، فيعيدهم مَن وقف من الأسرى عند الأبواب، يمنعون أيضاً الجنود الإضافيين من اقتحام المهاجع. ولم يستطع الإسرائيليون السيطرة على الوضع إلاّ بعدما أحضروا خراطيم المياه ورموا قنابل الغاز. وشُغلوا بسحب جنودهم.

استدعت الإدارة لجنة الحوار المنتدبة من اللجنة الوطنيّة وأخبرتها أنها ستستعمل القوّة إذا لم يُسمح لها بإنجاز المهمّة.

ردّت اللجنة بأنّ فرز الأسرى على هذا النحو، ومن دون التنسيق معها، يُخالف الاتفاق الذي تمّ التوصّل إليه لإنهاء الإضراب.

فتح مدير السجن جارور مكتبه، وقال لأعضاء اللجنة:
— «الاتفاق هنا، في الجارور. الآن مرحلة جديدة».

لم يرُقْني أن أبقى قارئاً وحسب. والأسرى في قسمي لا يبدون اهتماماً بتنظيم حركتهم. انقطع المنتمون بينهم عن قيادتهم، وغالبيّتهم من المتلقّين أكثر ممّا هم مبادرون. لمستُ هذا من دون أن أحاول تنظيم أي شيء. اكتفيتُ على مدى خمسة أشهر بتكرار القول بضرورة تنظيم أنفسنا وأهمية ذلك في القضية عموماً وفي النضال من أجل تحسين ظروفنا. لم أتجاوز ذلك لإحساسي بأنني سأفشل وأُصَدّ تحت شعار أنهم منظّمون وأنني لستُ من تنظيمهم. تجنّبتُ إحراج نفسي وإظهار شقاق بيني وبين الآخرين.

برغم ذلك اعتبرتني الإدارة خطراً على القسم. نقلتني في الشهر الثاني من عام ١٩٨٢ إلى قسم «الرؤوس الحامية»، ٩، غرفة غالبيّة نزلائها من الجبهة الشعبية، حلمي موسى، عبد العزيز أبو القراية، جلال حافظ. وهم يعرفونني بالاسم.

أعجبني الجوّ. شباب منتمون، منظّمون.

انجذبت متحمّساً إلى إيقاعهم: يبدأ نهارنا صباحاً، في الخروج إلى الباحة، ثم نعود إلى الزنزانة. أقيم في فرشتي ساعات أقرأ كتاباً أو أمرّس نفسي على القراءة باللغة العبريّة مطالعاً صحيفتي «يديعوت أحرونوت» و«معاريف» اللتين حقّق الإضراب الماضي مطلب حق الأسر في الاشتراك بهما وإدخالهما إلى السجن. وبعد خروجنا بعد الظهر إلى الباحة نعود عند الرابعة والنصف، نتناول العشاء ونتفرّغ للنقاش وقراءة الصحيفتين والكتب.

التقيتُ في الباحة بزياد نخّالة. هو أيضاً نُقِلَ قبل أشهر من عسقلان. عرّفني إلى أعضاء اللجنة الوطنية في هذا السجن، بئر السبع. جميعهم في هذا القسم: محمّد دهمان (الجبهة الشعبيّة)، نبيل قبلان (جبهة النضال الشعبي)، عبد الفتّاح سعادة (فتح)، أبو درويش (الصاعقة)، وحافظ أبو عباية (الجبهة الديموقراطيّة).

بعد أيّام وصلتني رسالة ضمّي إلى اللجنة، موقّعة منهم جميعاً.

لم أبدِ حماسة للأمر. والسبب هو أنّني لا ألمس بوضوح مهمّات اللجنة. لكنّي مؤمن بضرورة وجودها، سياسيّاً وتنظيميّاً.

أعطاني الشباب نشرة إخبارية مكتوبة بالعربيّة نقلاً عن الإذاعة. ففي أحد جدران زنزانتنا كنّا نخبّئ راديو. حصل عليه الشباب، قبل وصولي، من السجناء الجنائيّين. ففي المطبخ، يلتقي الأسرى مع السجناء الجنائيين، وهناك تجري المقايضات. حصل الشباب من السجناء أيضاً على الاسمنت، مقابل علب سجائر. عندها حفر الشباب في الحائط حفرة بحجم صندوق الجبنة الدائري، وكانوا جبلوا الاسمنت وصبّوه في الصندوق فارغاً، مكوّنين غطاءً للمخبأ. وضعوا الغطاء في الحفرة وكحّلوا التشقّقات المحيطة. وصاروا يضعون الراديو في المخبأ، ويقفلونه بالغطاء الإسمنتي. ويسحبونه متى يشاؤون.

لم أفاجأ حين قرأتُ، في النشرة، تصريحات لقادة منظمة التحرير، أبو عمّار وجورج حبش وآخرين، يجزمون بأن إسرائيل تستعدّ لشنّ عدوان على لبنان. الأمر بديهيّ لكثرة الحديث عنه. والوضع بين إسرائيل والمقاومة الفلسطينيّة هدنة. وقبل أيّام، في ٢٠/ ٥/ ١٩٨٢، سمعت ضمن النشرات الإخبارية الإسرائيلية التي تُذاع علينا عبر مكبّرات الصوت، وزير الخارجيّة الأميركي ألكسندر هيغ، يقول إنه «حان الوقت للقيام بعمل منسّق لدعم سيادة لبنان على أرضه ودعم حكومة مركزيّة قويّة قادرة على إنشاء مجتمع حرٍّ مفتوح».

فكّرت أننا مقبلون على شهر حزيران/ يونيو. توقّعتُ أن يكون موعد الحرب، وتوافقتُ في جلسة النقاش المسائيّة، مع الآخرين على ذلك. بدأنا نتساءل ما علينا القيام به. وتبادلنا فكرة تشجيع التنظيمات على تأمين الراديوهات ومخابئ لها.

اقترح أحد الرفاق، كي لا نقع عرضة للتخبّط الإعلامي، بين إذاعات الثورة وإسرائيل ومونتي كارلو، تأليف لجان في القسم كلّه معنيّة برصد الأخبار وتوزيعها مكتوبة بشكل يومي على الزنازين الأربع عشرة. والأمر نفسه حصل في الأقسام الأخرى.

شُغلنا على مدى جلسات عدّة في الحوار بكيفيّة كتابة تلك الأخبار، وأيّ أخبار ننشر! أنكتفي بالجيّدة للثورة والتي ترفع المعنويات، أم الأنباء كلّها التي ترِد عبر الإذاعات عموماً؟ وخلصنا إلى نشر الأخبار كلّها مع الإشارة إلى مصدرها كي يتبيّن الأسرى الخبر الدقيق من المُبالَغ فيه أو الكاذب.

ظهيرة الثالث من حزيران/ يونيو فُتِحَتْ مكبّرات الصوت في الزنازين لإذاعة نشرة الأخبار الإسرائيليّة. وردَ أن السفير الإسرائيلي في لندن، شلومو أرغوف، قد

أصيب بجروح خطرة جرّاء محاولة اغتياله، وأنّ الشباب الثلاثة الذين نفّذوا العمليّة قد قُبض عليهم وأُصيب أحدهم أثناء مطاردته.

راوح تلقّي الخبر بين الترحيب والصمت، حتّى بدأ، في اليوم التالي، الجمعة ٤/٦/١٩٨٢، الرد العسكري الإسرائيلي في لبنان، قصفاً وغارات جويّة على بيروت والجنوب.

— «ستغتنم إسرائيل الفرصة لشن عدوانها على الفدائيين ولبنان». تكرّرت هذه العبارة على غير لسان من المؤيّدين للعمليّة والرافضين لها. ورأى كثيرون أن مَن قام بهذه العملية، إنْ لم يكن عميلاً للأميركيين والإسرائيليين، فهو غبي.

شخصيّاً، تحفّظتُ على هذا التخوين، وفي داخلي قبول لقتل السياسيّين والعسكريّين والأمنيّين الإسرائيليين عموماً.

— «ابحث عن الفاعل تجده إسرائيل أو أبو نضال»، قِيلت هذه العبارة مراراً، من دون أن يكون صاحبها خائفاً من الحرب، بل يعني أن العمليّة لمصلحة إسرائيل.

وانقسمنا بين مؤيّد لهذا الرأي وقائل بأن أبو نضال قد يكون مُتطرفاً ومغامراً إلاّ أنه ليس عميلاً.

— «وكيف تفسّرون أن تُنفّذ العمليّة عشيّة ٦ حزيران؟»، يردّ علينا الفريق الآخر.

— «العمليّات يجب أن تكون في كل يوم. حزيران مناسبة لتجديد الثورة وتأكيد الاستمرار في خط الكفاح المسلّح. وإسرائيل لا تنتظر ذريعة كي تشنّ حروبها».

انتقلَ هذا الخلاف إلى اللجنة المكلّفة صوغ بيان في شأن الاعتداءات الإسرائيليّة والعمليّة والظروف الدقيقة التي تمر بها الثورة الفلسطينيّة. لم يتّفق أعضاؤها على تأييد العملية، وإنْ أجمعوا على تأكيد الحق في مقاومة أيّ عدوان. وإذ استبعدوا النقطة الخلافية عادوا وانقسموا حول ما إذا كانوا سيبدأون البيان بعبارة «بسم الله الرحمن الرحيم» أم لا. ممثّلو التنظيمات اليسارية قالوا إنه بيان مشترك وليس صادراً عن تنظيم إسلامي. وممثّل فتح أصرّ على تلك العبارة.

طار البيان.

هنا، دفتر يوميّاتي أثناء الاجتياح، استطعت تهريبه عبر رفيق لي من الضفّة الغربيّة، ونقلته أسرته إلى أهلي في لبنان:

عدتُ من الباحة، في صباح الجمعة ٤ حزيران، إلى الزنزانة. اختليتُ بنفسي لأتابع قراءة رواية «كيف سقينا الفولاذ» لنيكولاي أستروفسكي. مشدودٌ لأحداثها ومعجبٌ بشخصية بطلها، الفتى بافل. يذكّرني تمرّده بصباي. ووجدتُ في تنامي شخصيّته وسيرته ما يشبه حالي، وإنْ اختلفت بيئته عن ظروفي وواقعي. بالرغم من ذلك، غفوتُ وأنا أقرأ. حلمتُ أنني مع رفاقي في المجموعة نمرّ بالسيارة بجانب المدينة الرياضية. فجأةً بدأت الطائرات الإسرائيلية تغير عليها وتقصف.

أيقظني حلمي موسى وصوت الإذاعة الإسرائيلية يخرج إلينا عبر مكبّر الصوت:

— «في هذه الأثناء، تقصف الطائرات الإسرائيلية مواقع المخرّبين في لبنان، والقوات البريّة تستعدّ للهجوم».

نهضتُ من فراشي كأَنْ لأحمل بندقيتي. سقط الكتاب على الأرض، فاستيقظتُ متذكّراً الحلم. تشوّشتُ واحترت في أمري، أكنت أثناء نومي أسمع الإذاعة ودماغي يترجم صوراً، أم أنا حلمتُ لكوني قلقاً وأفكّر في الموضوع منذ فترة؟

انضممتُ إلى الشباب يستمعون إلى الراديوهات وقد سحبوها من مخبئها. نظرتُ إلى باب الزنزانة فوجدتُ شابّين يراقبان الممرّ ليخبرانا إذا ما جاء الحراس.

بدأ المكلّفون رصد الأخبار الكتابة.

أذاعت مونتي كارلو أن طائرة إسرائيلية أصيبت وسقطت بين أرنون وكفرتبنيت، وأن طيّارها، أهارون أحيعاز، مفقود ويُعتقَد أن قوّة تابعة لحركة فتح قد أسرته.

هاج الأسرى، في القسم كلّه، فأدركنا أن الجميع سحب الراديوهات من مخابئها ليستمع إلى الأخبار. عمَّت فرحة وتفاؤل بالتبادل.

بعد قليل:

«كبسة يا شباب، تفتيش»، صراخٌ من الممر يحذّرنا إخفاء الراديوهات والأوراق التي نكتب عليها الأخبار.

استجبنا قبل أن يدهم الحراس الزنزانة ويبدأوا التفتيش. يبحثون عن الراديوهات، ولهم تجربة في العثور على المخابئ. لذلك كانوا يدقّقون في الجدران. تحرّوها من الأسفل حتى السقف. عثروا في زنزانة أخرى على راديو قبل أن يتمكن الشباب من إعادته إلى المخبأ.

نبّهنا هذا، من دون أن نقول، إلى ضرورة إخفاء الفرحة في المرّات المقبلة. توقّع منّا كثيرون، من بينهم أنا، مفاجآت كثيرة من هذا النوع. فإيماني كان أن الثورة جهّزت نفسها لحرب عصابات طويلة الأمد، وإذا ما دخل الجيش الإسرائيلي منطقة، ولا سيما المدن، مثل صور وصيدا والنبطيّة، فستُشنّ عليه هجمات لن تتركه يستقرّ أو يرتاح. قلتُ لزملائي:

— «الناس كلّهم مدرّبون والسلاح منتشر بكثافة».

الأحد ٦ حزيران، طوى صفحة الأسير الإسرائيلي والتبادل، بات تفكيرنا في الاجتياح. بدأ. الصاعقة التي ضربتنا جميعاً جاءت من الإذاعات كلّها، لا من الإسرائيليّة وحسب. مستشار الحكومة الإسرائيليّة، داني ماريدور، تلا عند الحادية عشرة قبل الظهر، بيان الحكومة بعد جلسة طارئة، وأعلن بدء عملية سلامة الجليل.

القوّات الإسرائيليّة تتقدّم على ستّة محاور، في القطاعات الشرقي والأوسط والغربي... تنفّذ إنزالات في رأس العين والبرج الشمالي والبص، تحاصر مدينة صور ومخيّم الرشيديّة.

احترقتُ غيظاً. هذا ثاني اجتياح يحصل وأكون فيه أسيراً. في المرّة الأولى كنت أسيراً في الأردن. أسئلة الشباب معي في الزنزانة والقسم، عن تلك المناطق وجغرافيتها، أخذتني إليها. صرتُ أتنقّل فيها، أرى المقاتلين والناس. رأيتُ قلعة الشقيف تُدكّ بقصف الطائرات والمدفعية وتواصل المقاومة. تقدّم الإسرائيليين أفرغ سريعاً الروح المعنوية من الأسرى. الصدمة بادية على الجميع. فكّرتُ أن هذا يحصل معنا، فكيف بالفدائيين الذين فقدوا الاتصال بقادتهم وغرف عملياتهم. انتقلت إليّ عدوى الضياع، أو فقدان البوصلة. تارةً أشعر بأنني مع المقاتلين والناس تحت القصف والنار، وأخرى أرى نفسي خلف الإسرائيليين في تقدّمهم. صارت الجغرافيا عندي اتجاهات وحسب، وكلّها مفتوحة إلى المجهول. وغير مرّة أجبرتُ نفسي على استعادة عقلي من تشتّته. صرتُ أضجر من ضجّة الشباب وحيرتهم ومتابعاتهم الأخبار، وأضجر من نفسي في عزلتي وعجزي. عادتني لحظات الإصابة فوق صخور شاطئ نهاريا. دارت بيَ الدنيا مراراً، وأحسستُ أنني جريح متروك وسط حقل من الشوك البرّي. وجهي إلى الأعلى، والسماء صفراء كانفجارٍ يتمدّد حول ضوءٍ أحسَبُ أنّه الشمس.

— «الإسرائيليون عبروا صيدا»، قال لي أحد رفاقي الأسرى، وما عدتُ أذكر

مَن هو. سمعتُ صوته وحسب، وصوته يتكرّر في رأسي. غرفة العمليات في صيدا، قيادة القوّات المشتركة الفلسطينية - اللبنانية هناك. أين هي الآن؟ لستُ وحدي مَن يسأل. الشباب مفجوعون كمَن تُرك فجأة. الإحساس بالخيانة بدأ يطفو. نتعلّق بخبر إصابة دبابة إسرائيلية في منطقة سبق أن قيل إن القوات الإسرائيلية تجاوزتها، ثم بخبر مواجهة في السعديات. أين السعديات؟ قبل بيروت بقليل، أجيب. وأشاهد بيروت محاصرة. الصدمة تتّسع مع رقعة العمليات العسكرية، برّاً وبحراً وجوّاً. بات الإسرائيليون في الشوف. وعَدْتُ نفسي، ومَن يسألني، بمواجهات هناك. قلتُ التضاريس تساعد على المقاومة، وتعطيل دبابة وسط الطريق يؤثر على التقدّم ويعوقه. تذكّرت دروب الجبل، وصلت إلى بلدتي عبيه. قلقت على أهلي من الحرب أو من انتقام إسرائيلي. طردت هذه الفكرة من رأسي.

هالني سقوط الشوف الأعلى. تكرّرت في ذاكرتي أغنية مارسيل خليفة: جبل الباروك، كأني أسمعها من شريط كاسيت يتعثّر، أو كما لو أن مارسيل يغني ويبكي.

يومان وقد بات نصف لبنان تحت الاحتلال. مَن يصدّق؟

تحرّكت كتلة النواب الشيوعيين في إسرائيل اعتراضاً على الاجتياح، وعُقدت جلسة في الكنيست. العرب ما زالوا صامتين. سمعتُ أحد الأسرى يقول غير مصدّق. أيّ عرب؟ رددتُ كأني أصرخ في وجه كذبة. فتحوا مكبّر الصوت في الممر. سمعت هذا البوم:

— «بيغن يدعو حافظ الأسد إلى إعطاء أوامره للجيش السوري بعدم التعرّض للجنود الإسرائيليين».

— «لن تقف سوريا مكتوفة الأيدي»، رددتُ على مَن قال إنها ستفعل ولن تقاتل. لم أكرّر هذا الموقف إلاّ لليلة واحدة. قصفت الطائرات الإسرائيلية بطاريات سورية لصواريخ «سام ٦» في سهل البقاع خلال معركة جوية. قالت دمشق إنها أسقطت خلالها ٢٦ طائرة إسرائيلية فيما قالت تل أبيب إنها أسقطت ٢٢ طائرة سورية. وبالتزامن دارت معركة بريّة بين الإسرائيليين والجيش السوري في البقاع الغربي والجبل. توقّف التقدّم في عين زحلتا. وتجدّدت المعارك في الدامور وخلدة.

نقلت نشرة اليوم تصريحاً لجورج حبش يقول فيه إن «التطوّرات تشكّل بدايةَ حفر قبر إسرائيل إذا عرفنا كيف نمارس الحرب الشعبيّة».

أفرحني هذا، ورأيتُ فيه إشارة انطلاق مقاومة تعتمد أسلوب حرب العصابات في المناطق التي احتُلت، ما يربك الخطوط الخلفية للإسرائيليين. دعوت الشباب إلى رصد أخبار عن ذلك.

لكن الخبر السعيد لم يأتِ من هذه الجبهة. جاء من المعارك جنوبي بيروت، قرب الدامور. أعلن ناطق عسكري إسرائيلي، في ١١/٦/١٩٨٢، مقتل نائب رئيس الأركان الإسرائيلي، الجنرال يوكتيئيل آدم. وأُعلن أيضاً وقف لإطلاق النار.

جمعَنا، في الزنزانة، خبرُ اعتراض أصغر قائد لواء في الجيش الإسرائيلي، إيلي غيباع، على دخول بيروت. شخصياً اهتممتُ بالمعاني الميدانية. قلتُ قبل أن تكتمل حلقتنا جلوساً على الأرض:

— «هذا يعني أن الفدائيين صامدون ويكبّدون الجيش الإسرائيلي خسائر».

تلقّف حلمي موسى ما أقوله، ودعا كعادته إلى النظر إلى إسرائيل لقراءة دلالات حركة العقيد غيباع وحجمها وارتداداتها:

— «صحيح أن هذه سابقة، أثناء الحرب يعصي ضابط في هذا المستوى، والآمال المستقبلية معقودة عليه، أوامر قيادته والسلطة السياسية، لكنها ليست حالة اعتراض على الاجتياح».

شعرتُ بأنه يردّ على كلام غيري ويستكمل سجالاً قديماً.

تحمَّس عبد العزيز أبو القراية، وأكد، بما يشبه تكرار موقف سابق، رهانه على أن هذه الحركة ستفتح الباب أمام احتجاج على الاجتياح والخسائر.

تدخّل جلال حافظ:

— «لا يمكن أن تسمّي حركة العقيد غيباع اعتراضاً على الاجتياح، وهي لم تأتِ من المجتمع أو من الأحزاب».

رفعتُ يدي لأحجز دوراً في سجال بدأ يسخن. وما إن سكتوا ناظرين إليّ، حتى قلت:

— «نحن إزاء حركة عصيان عسكري ولسبب ميداني. العقيد غيباع هذا لا يريد أن يخسر من جنوده. تبدأ الحركة السياسية عندما يرفض لأنه لا يريد قتل المدنيين، أو عندما تتحرّك الأحزاب والجمعيّات. وحتى الآن هذا محدود جداً. لذا، الصمود هو الأساس، هو ما يفتح ثغرة في جدار الإجماع الإسرائيلي. الخسائر بين الجنود هي ما يصدم ويجعل المجتمع يفكّر».

وضع عبد العزيز أبو القراية كفّه فوق كتفي، إشارة إلى أنه يريد الكلام. شعرتُ، قبل أن يدلي بدلوه، بأنه يؤيّد موقفي، قال:

— «صمود المقاومة في بيروت يغيّر المعادلة. إذا كان الاجتياح أمراً سهلاً على الجيش الإسرائيلي ومن دون خسائر فلن يعترض أحد داخل إسرائيل، ولن يسأل أحد شارون لماذا تجاوز الأربعين كيلومتراً التي كان مقرّراً دخول جيشه إليها».

سارع حلمي إلى الرد:

— «أتصدّقون هذه الكذبة؟ أتصدّقون أن إسرائيل دخلت لبنان لتُبعد الفلسطينيين وحلفاءهم ٤٠ كيلومتراً فقط؟ وكيف تُبقي هذه المنطقة نظيفة؟ إنها تريد إخراج الفدائيّين من لبنان والوصول إلى بيروت وتنصيب بشير الجميّل رئيساً للجمهورية. هدفها نظام لبناني حليف لها».

— «صحيح»، قلنا أنا وعبد العزيز. وأضفت:

— «لهذا ليس أمامنا إلاّ الصمود، لإفشال هذا المخطّط».

استأنف حلمي:

— «لا أنفي أهمية الصمود. وهو الرد الطبيعي على الاجتياح والحد الأدنى دفاعاً عن النفس. أنا أقول إن إقدام إسرائيل على حربٍ هذه أهدافها يعني أنها مستعدّة وقد هيّأت مجتمعها وقواها السياسية لقبول جزء كبير من الحرب وكلفتها، وقادرة على استيعاب أية حالة مثل حركة العقيد غيباع وجعلها أمراً إدارياً داخل المؤسسة العسكرية. بل إن اللعنة السياسية والاجتماعية ستُصَبُّ عليه».

احتلّت القوات الإسرائيلية (١٣/ ٦) بقيادة وزير الدفاع آرييل شارون بعبدا وتمركزت في محيط القصر الجمهوري. وتقدَّمت في اتجاه الضاحية وبيروت اللتين تشرف عليهما بعبدا. ساورتني شكوك حول المقاومة. بحثتُ عن النشرة التي ورد فيها تصريح حبش. قرأتُ «إذا عرفنا كيف نمارس الحرب الشعبيّة». أدركتُ أن ذلك ليس إشارة انطلاق بل كلام معنوي وأمنية.

جلستُ أرضاً، كمَن خسر كل شيء. رأسي بين كفيّ. رغبتُ في أن أخرج من ثيابي. ضاقت بي نفسي والجدران. أحسستُ بعوارض الربو ومرض الرئة، لكني لستُ موجوعاً. شعرتُ بأنني في فرنٍ ويكاد يغمى عليّ. اختفت الأصوات من

حولي. صرتُ أرى الشباب يتجمعون ويتبادلون الحديث كأنهم خلف زجاج.

فتحوا الأبواب لنخرج إلى الباحة. رفعتُ جسدي لأمشي مع الشباب. سرت ساهياً. وهناك جلست. لا قدرةَ لديّ على الكلام مع أحد. أزعجني ذلك. خفتُ من أن أسبّب إحباطاً. لكن لم يكترث أحد. الجميع في حال مثل حالي.

زهو الحرّاس يستفزّ. يتحرّكون بنشاط واعتداد، وبين حين وآخر يضحكون عمداً بصوتٍ مرتفع كدويّ انفجار وسط الليل. لا حديث بين مجموعات الأسرى في الباحة سوى ذلك. الجميع حنق ومضغوط. رغبتُ في البقاء وحدي. تردّدتُ في الانسحاب إلى الزنزانة خوفاً من وقوع صدام هنا، ولا أكون حاضراً. سأشعر بأنني هربتُ من المعركة إذا ما حصل ذلك. بقيتُ وشاركت مجموعة بجانبي الحديث. هم سألوني عمّا إذا كان الفدائيون متحصّنين جيّداً في بيروت. لمستُ قلقاً في سؤالهم وتعابيرهم. خفتُ أن أؤدّي دور المخادع. بقيتُ جالساً على بعد متر منهم. احترتُ من أين أبدأ في إجابتي:

— «بيروت مدينة. والفدائيّون بنوا فيها وحولها تحصينات. الأبنية والركام متاريس المقاتلين. لكن لا أسلحة ثقيلة. بينما الإسرائيليون يستعملون الطيران الحربي والبوارج والدبابات والمدافع».

ازداد القلق على وجوه السامعين.

سارعتُ إلى القول إن الروح القتالية عالية عند الفدائيين، وبيروت آخر معقل يدافعون عنه:

— «مستحيل أن يدخلها الإسرائيليون كما فعلوا مع المناطق الأخرى».

لم تعالج هذه العبارات الفجوة الكبيرة التي تحدثها أخبار الميدان. حدّق أحدهم بي وقال كأن لي وحدي:

— «استدعى بيغن العقيد غيياع واجتمع به في القدس. وسُرّح من الجيش».

— «هذا متوقّع»، علّق أحدهم.

سكتُّ. لو تنتهي الفورة الآن.

عدتُ إلى الزنزانة وارتميتُ في فرشتي.

صورة جذبتني إلى صحيفة «الأنباء». تحرّكتُ نحوها غير مصدّق ما أرى. وليد جنبلاط يستقبل شيمون بيريز، زعيم حزب العمل المعارض؟ هالني الخبر، وليس خبراً يمكن تكذيبه. الصورة برهان.

«رحم الله كمال جنبلاط»، كرّرت. هذه ليست صدفة، كان بيريز مارّاً بجانب قصر المختارة فطرق الباب ودخل واجتمع إلى جنبلاط. الاجتماع مدبّر... والصحافيون موجودون. يا الله، قائد الحركة الوطنية مع بيريز؟

الصورةُ انطبعت في رأسي. أُغمض عينيّ أراها، أفتحهما أفكّر فيها... تؤلمني.

اطمأنّ الشباب إلى خلوّ الممر والقسم من الحرّاس. سحبوا الراديو وبدأوا يرصدون الإذاعات. اقتربتُ منهم وسمعنا خبر سقوط صلية صواريخ على مستعمرة كريات شمونة. انتعشت. أحسستُ أن الشباب بدأوا العمل خلف خطوط الاحتلال. لا يقولون، من خلال الصواريخ، إن حرب العصابات بدأت وحسب، بل إن أهداف الاحتلال، وعلى رأسها سلامة الجليل، لن تتحقّق. وهذه صواريخنا تنطلق من الجنوب المحتل إلى المستعمرات.

ظهيرة ١٧ منه، سمعنا عبر إذاعة الثورة رسالة أبو عمار إلى جماهير الشعبين اللبناني والفلسطيني. قال إن «بيروت ستكون مقبرة للغزاة». بالرغم من تفكيري أن ثمّة تراجعاً إلى خطّ دفاعي جديد، هو بيروت، إلاّ أنني لمستُ في كلامه شيئاً من الواقعية. تراجع توقّعي أيضاً لولادة مقاومة شعبيّة... قريباً.

استعدتُ تواصلي مع الآخرين هرباً من نفسي. فُكَّت عقدة لساني... قليلاً. والجميع مشدود إلى سير المعارك، حول بيروت، في الجبل. احتلال عاليه وبحمدون وسوق الغرب والقماطية (٢٤/٦). الطائرات الإسرائيلية تنثر مناشير فوق بيروت تدعو السكان إلى استغلال وقف إطلاق النار وإنقاذ حياتهم بالخروج من العاصمة عبر طرق محددة (٢٧/٦). مؤتمر صحافي لشارون في فندق ألكسندر في الأشرفية عقر دار الكتائب (٢/٧). آخ، آلمني هذا، لبنانيون مع الاحتلال، مع هذا الاجتياح. لم يفاجئني ذلك. متيقّن منه، وقد رأيت صور بشير الجميّل مع بيغن في تل أبيب في صحيفتي «يديعوت أحرونوت» و«معاريف». للحظة شعرتُ بالخجل، لم أفكّر يوماً على نحو قومي لبناني، لكن اليوم مجروح جرحاً لا يمكنني تركه ينزف.

في هذه الظروف، وسط الحرب، عدتُ أقرأ مهدي عامل. فكّرت أنه مصيب في نظريّته عن البرجوازيّة التي تفعل كلَّ شيء، الطائفيّة، الخيانة، كلّ شيء لتجديد نفسها ونظامها. احتواني العالم الذي يبنيه. يطابق كلامه، لا سيّما في مثل هذه

الظروف، الواقع ويظهّره بشكل واضح وحاد. لا يفرز الناس إلى طبقات وحسب، بل يحدّد لكلّ واحد، وفق انتمائه الطبقي والأيديولوجي، إلى أين يسير ويتّجه. وهذا أعجبني به. لم أرَ فيه مفكّراً لبنانيّاً بل مثقفاً عربيّاً ينظر إلى حركة التحرّر الوطني العربيّة ككل. والموقف من القضيّة الفلسطينيّة معياري في فكره وتحليله. وانتماؤه إلى الحزب الشيوعي اللبناني انتماء إلى حزب الطبقة العاملة التي عليها قيادة حركة التحرّر الوطني، أكثر منه انتماءً إلى حزب لبناني.

نمنا على المؤتمر الصحافي لشارون في بيروت واستيقظنا (٣/ ٧) على عبور عضو الكنيست السابق زعيم حزب شيلي، أوري أفنيري، خطوط التماس حول بيروت ولقائه أبو عمار. أزعجني اللقاء والمزاح الذي أجراه أبو عمار، المحاصَر، مع عينات سرغوستي، إحدى الصحافيتين الإسرائيليتين اللتين ترافقان أفنيري وتعملان في مجلته. سألَته واحدة منهما هل يقبل الزواج بامرأة يهودية، فرحّب، وأكد أنه يحب السلام.

قلت، وسط الزنزانة ونحن نستمع إلى الراديو، باشمئزاز:

— «أهكذا تحلّ القضية الفلسطينية، على طريقة العرب، والمصاهرة بين العشائر؟».

ذُهل رفاقي في الزنزانة. توقّفوا عن أعمالهم ونظروا إليّ، بين استنكار وتساؤل عن سبب مفاجأتي وغضبي.

— «إنه مزاح»، حاول جلال حافظ تهدئتي. وقد بدا عليه أنه من رأيي لكنه يستوعب الموقف، أضاف:

— «هذا أسلوب أبو عمار».

رددتُ بمستوى أقل من الغضب:

— «وسط الحرب، والمقاتلون يدافعون عن آخر معقل، ويموتون؟».

ذكّى موقفي من البرجوازية «اللبنانية» لقاء وليد جنبلاط مع بشير الجميّل في القصر الجمهوري ببعبدا (١٧/ ٧). قلت: رحمَ الله كمال جنبلاط، مرّة أخرى.

لم أخوّن وليد جنبلاط برغم خروجه من المعركة. حسبتُ أنه يساوم، لكني سألتُ على ماذا، ولماذا، ومن أجل مَن؟

— «ترشّح بشير الجميّل لرئاسة الجمهورية» (٧/٢٤)، أخبرني رفيق لي في الزنزانة.

— «مفهومة»، رددتُ باقتضاب. ليس تفكيري هنا. فمن أهداف الاجتياح إيصاله إلى سدّة الرئاسة. والنواب كافة، باستثناء نجاح واكيم وزاهر الخطيب، سينتخبونه. لا أتوقّع منهم غير هذا. ما يهمّني الآن هو المعركة في بيروت. وقد بدأ شبح خروج منظمة التحرير الفلسطينية يخيّم. تشاءمت من الزيارات المكوكيّة للمبعوث الأميركي فيليب حبيب.

استوقفتني المعارك حول مطار بيروت والضاحية الجنوبية. أحزاب لبنانية، ولا سيما الشيوعي وحركة أمل، تصمد وتكبّد الإسرائيليين خسائر. لم يرقَ هذا إلى الرهان على اللبنانيين وحدهم. لكنه بصيص أمل ينمو. برغم ذلك قلتُ إذا انسحب الفدائيون من بيروت انتهوا وتشرّدوا وخسروا أرضاً ينطلقون منها، وخسر اللبنانيون الوطنيون سنداً.

مساء ٨/١٠ فُتح مكبّر الصوت في الممر. أنا مستلقٍ في فراشي. أعلن مجلس الوزراء الإسرائيلي بعد جلسة طارئة موافقته «من حيث المبدأ» على المشروع الذي قدّمه فيليب حبيب لإخراج الفدائيين الفلسطينيين والجيش السوري من بيروت ولبنان كلّه.

سألت:

— «لماذا يفاوض أبو عمار لو أن هذا لن يحصل؟».

تفاقم إحباطي وإحباط الكثير من الشباب لكن بعضهم برّر:

— «ماذا يفعل؟ الحكومة اللبنانية وافقت (٨/١٨) على مغادرة المقاتلين الفلسطينيين بيروت، وعلى طلب استقدام قوات متعدّدة الجنسيّات. وأعلن الرئيس الأميركي رونالد ريغان موافقته على ذلك وقبوله إرسال قوات أميركية».

«بيروت مقبرة الغزاة»، صدى يتردّد في رأسي.

سلّم الفلسطينيون، في بيروت (٨/٢٠)، الطيّار أهارون أحيعاز والجندي رام هاروش، ومعهما جثث جنود إسرائيليين قتلوا في اجتياح ١٩٧٨.

— «هذه إشارة للرحيل»، قلتُ للشباب معي في الزنزانة.

لاذَ كلٌّ منّا بصمته. الجميع فكّر في أنّ حلمَ التبادل بهذين الرهينتين قد تبدّد.

العتمة قاسية حولنا، والصمت يشحن المجهول بأسئلة لا أجوبةَ لها. همسَ أحدنا:

– «لكنْ مع فتح والقيادة العامّة أسرى آخرون».

لم يبدُ أنانياً يفكّر في نفسه كأسير قلق على البقاء هنا إلى أجلٍ غير مسمّى، فيما الثورة في لحظة مصيرية وقد تفقد أرضاً محاذية لفلسطين. الجميع كان يتساءل عن الثمن الذي قبضته أو سدّدته الثورة مقابل تسليم هذين الأسيرين ومعهما الجثث، وكان يمكن أن يخرج عدد منّا مقابلهم. الشعور العام هو أننا، نحن الأسرى، ليس مَن يُتبادَل بهم مقابل الأسرى الإسرائيليين. وهذا ما برّر كلام رفيقنا. كأنه قصد أننا ما زلنا في أي عملية تبادل أخرى. لكن الآن وقت لمصير الثورة، وإطلاق سراح الأسيرين الإسرائيليين مقابل هذا.

– «لماذا أُطلقا؟»، سألتُ متشكّكاً منتقداً الفاعل.

– «ليُسمح للفدائيين بالخروج من بيروت!»، ردّ عليّ واحد.

– «أهذا مطلب؟ أظن أن البقاء في بيروت هو المطلب وليس الخروج منها»، رددتُ غاضباً. ووافقني الرأي عدد من الرفاق.

– «ربّما هناك سبب نجهله»، أجابني هو نفسه بصوتٍ متردّد خَجِل غير واثق.

– «هذا تبرير»، قاطعناه جازمين، وأنا أفكّر أن الهزيمة حصلت فلماذا هذا الثمن المجاني. أحسستُ أنني سأغضب إذا ما سمعتُ أكثر وقلت بعد. آثرتُ الابتعاد والانسحاب إلى فراشي.

ساد تململ صامت.

بدأ الرحيل. ٨/٢١: أبحرت من مرفأ بيروت الباخرة القبرصية سول جورجيوس وعلى متنها ٣٩٧ مقاتلاً. . . ومن قبرص إلى الأردن والعراق. ٨/٢٢: ٩٨٢ مقاتلاً إلى تونس. ٨/٢٣: ٧٠٠ مقاتل وانتخاب بشير الجميّل رئيساً. ٨/٢٤: الدفعة الرابعة، ٧٥٠ مقاتلاً إلى صنعاء. ٨/٢٥: دفعتان، ٩٦٠ مقاتلاً. ٨/٢٦: إلى قبرص ٧٨٦ مقاتلاً وإلى طرطوس ١٨٦ . ٨/٢٧: غادرت برّاً إلى دمشق دفعة من ١٥٠٠ عنصر من جيش التحرير الفلسطيني. ٨/٢٩: برّاً إلى دمشق ١٢٨٠، وبحراً إلى طرطوس ٥٧٠ مقاتلاً. ٨/٣٠: «أنا راحل غير أنّ قلبي سيظلّ في بيروت، ولسوف أستمر في النضال وكل الدروب تؤدي إلى فلسطين. أما إقامتي في لبنان فكانت مرحلة في معركة»، صوت أبو عمار يصدح في الزنزانة.

اختفت السياسة وأخبار الميدان فجأة من بيننا. عدنا لا نتكلّم كثيراً، إلاّ في هذا الأمر أو ذاك من يومياتنا وشؤوننا. نتحرّكُ، ونمارس حياتنا كأشباح، كمخدّرين. كائنات نموذجيّة بالنسبة إلى الإسرائيليين.

أحمل الكتاب، الضجر يسبق القراءة، أعيده إلى جانب الفرشة. يتكرّر هذا المشهد مرات في اليوم الواحد.

صباح ٩/١٤، وقبل أن يُفتح مكبّر الصوت لنشرة الأخبار، أيقظتني حركة قلِقة في الزنزانة. الشباب يتحرّكون بخفّة. وقد سحبوا الراديو من المخبأ، ويتحلّقون حوله. لا بد أنّ ثمة أمراً ما خطيراً حصل ويسعون وراء خبره. اتجه جلال حافظ نحوي مسرعاً خفيفاً، كي لا يصدر صوتاً. فاجأتني ابتسامته الغامرة قريباً من وجهي:

— «اغتالوا بشير الجميّل»، وانسحب.

لحقتُ به مبتهجاً:

— «تأكّدتم من ذلك؟»، سألت راغباً في أن يجزموا لي.

هزّوا رؤوسهم منصتين، وقد انضمّ إلينا كلّ مَن في الزنزانة. اقتربتُ من الراديو كأنني أسمع بعينيّ. الجميع كذلك، وبين حين وآخر يمرّر أحدنا نظرة إلى الآخرين.

صوت المذيع في مونتي كارلو يؤكد حدوث انفجار في مقر حزب الكتائب في الأشرفيّة أثناء وجود رئيس الجمهورية المنتخب بشير الجميّل. . . والبحث جارٍ عنه، وسط ذهول وتضارب المعلومات حول مصيره.

رجفَ قلبي خوفاً من بقائه حيّاً. ثم، ما عدتُ أفكّر فيه. اطمأننتُ إلى أن الفيلم لم ينته، وأن إسرائيل وبشير لم يقضيا علينا.

— «هذه بداية أخرى»، خرج صوتي راقصاً، مثل كرات صابون من لعبة على فم طفل.

— «إذا كنّا انهزمنا، فإنهم لم ينتصروا»، قال جلال حافظ.

أمضيت نهاراً أيلوليّاً كأنني في ظل شجرة الصنوبر التي زرعها جَدّي، علي، في حديقة بيتنا في عبيه.

غاب الزهو والاعتداد اللذان كانا على ملامح الحرّاس. انتقلا إلينا. والارتباك واضح في إعلامهم. نشرة الأخبار الصباحيّة أكّدت مقتل بشير الجميّل وعمّمت مسؤولية اغتياله على منظمة التحرير وسوريا وحلفائهما اللبنانيين.

قلت:

— «ليس مهمّاً مَن قتله، المهم أنه مات، والمشروع الإسرائيلي في لبنان تلقّى ضربة قاسية».

والسؤال عن الجهة الفاعلة يتكرّر. الجميع راغب في الإحساس بأن خروج منظمة التحرير من بيروت لا يعني أن لا مجموعات لها بقيت وما زالت تعمل وستواصل فعلها. وأنا مقتنع بذلك، سواء أكانت هي المنفّذة أم لا.

طمأنينة بدأت تنمو في داخلي.

فجأةً، وأنا أستحمّ انخفض ضغط دمي. انقبض قلبي. شعرتُ بأن أمراً سيّئاً حصل أو سيحصل. خفتُ على أبي.

عدتُ إلى الزنزانة. قرأتُ حتى نمت.

بعد العدّ الصباحي، عدتُ إلى فرشتي. تابعتُ القراءة. فُتح مكبّر الصوت:

— «قوات جيش الدفاع الإسرائيلي تنتشر في بيروت».

لم أسمع. أردتُ ألاّ أسمع. قلت لنفسي هذا متوقّع بعدما فرغت بيروت من المقاتلين. تريد إسرائيل أن تكسب لقب مَن احتلّ عاصمة عربية. لكن الأمور لن تمر بهذه السهولة. صوت همس في رأسي. وبقيت روحي منقبضة.

الوقت يمر ببطء كأنه ليس لي ولنا. الحرّ يودّعنا بتردّد. الخريف يبدأ هذه الأيام. أيكون أفضل من الصيف!

سحب الشباب، بعد فورة المساء، الراديو. أخبروني أن جورج حاوي ومحسن إبراهيم أعلنا انطلاقة جبهة المقاومة الوطنية اللبنانيّة ضد الاحتلال الإسرائيلي. بقيتُ جالساً في فرشتي.

صراخٌ يتعالى من شبابيك السجن.

اقترب رفاقي في الزنزانة من الشبّاك. سمِعوا. التفتَ إليّ حلمي:

— «مجزرة في مخيمي صبرا وشاتيلا. دخل عملاء إسرائيل وقتلوا كل مَن فيهما... مئات».

وبدأ البكاء.

التبادل القاسي

أشعلت أولى سجائري.

– «يا شباب، لا يجوز نقل خلافات التنظيمات في الخارج إلى السجن. خلص»، قلت لرفاقي في اجتماع اللجنة الوطنية في بئر السبع. لا نجتمع، لأي سبب، إلا يشدّوننا إلى تلك الانقسامات، التي تتفاقم وتتوالى منذ خروج منظّمة التحرير من بيروت.

استأنف عبد الفتاح سعادة، ممثل حركة فتح، سجاله مع محمد دهمان، ممثل الجبهة الشعبيّة:

– «أنتم من خرج عن الإجماع الوطني ووحدة منظمة التحرير».

اعترض محمد:

– «أي إجماع، لا تلعب على الكلام، لم تتركوا أحداً في المنظّمة، قيادتك استفردت بالقرار، ولا تتحاور مع شركائها في المنظّمة، لا في القرارات الوطنيّة المصيريّة ولا في الشؤون الصغرى».

– «حلفاؤكم السوريّون قاتلونا وطردونا من طرابلس»، ردّ عبد الفتّاح.

– «وماذا تفعلون في طرابلس؟ تحرّرون فلسطين من هناك أم تتحدّون السوريين وتشترون مشكلاً معهم؟».

– «وهل لبنان لسوريا؟»، سأل عبد الفتّاح.

– «وهل هو لك؟».

– «ليس لنا ولا لها، نتصارع على أرضه وأنتم حالفتموها لإخراجنا».

تركتهما يقولان ما سبق أن كرّراه في هذا الاجتماع، وفي أيّ لقاء. دعوتهما إلى العودة كما كنّا موحّدين عندما استُشهد إسحاق مراغة، قبل أشهر في ١٦/ ١١/ ١٩٨٣، متأثّراً بالأمراض والجروح التي سبّبها تعذيبه بـ«زوندا» في

إضراب ١٩٨٠. آنذاك، وضع الجميع الخلافات السياسيّة التنظيميّة جانباً وتصرّفنا كفريق واحد. رفاقه في الجبهة الشعبيّة كانوا يواسون أبناء فتح باستشهاده. ومناصرو شقيقه أبو موسى، زعيم فتح الانتفاضة، فعلوا الأمر نفسه.

بقيا مستنفرين. قلت قلقاً:

— «إضافة إلى فوضى ظاهرة معاقبة العملاء، إسرائيل ربما تدخل في أي لحظة من هذا الباب، ربما تقتل أسيراً تريد التخلّص منه، وتدّعي أننا من فعل. الخلافات فرصة لتحمي عملاءها الموجودين في التنظيمات وخارجها. من يدري، في هذه الأجواء، ربما هذا التنظيم أو ذاك يعدم شخصاً بريئاً من التعامل مع إسرائيل، بل ربّما إسرائيل تدسّ وتحرّض عليه».

انتهى وقت الفورة الذي يمكننا الاجتماع فيه. لم نتوصّل إلى اتفاق. كرّرت عليهم ضرورة أن تبقى الخلافات ضمن الحوار، وتحييد شؤون الأسرى والسجن قدر الإمكان عن التوتر.

لبنان. لبنان أكثر كلمة تتردّد على مسمعي وفي رأسي. لعلّي صرتُ أنتبه إليها الآن، وتُحدث وقعاً. تَغيّر معناها. كانت مكاناً ولدت في جبله ومعبراً نحو فلسطين. صارت تعني لي أمراً آخر، جزءاً من وطني، جزءاً عزيزاً. حين وقع الاجتياح الإسرائيلي، قبل أكثر من عام ونصف، كان لبنان ذاك المكان الموقت للمقاومة الفلسطينية. لكن منذ انطلقت المقاومة الوطنية اللبنانية تغيّرت الصورة. خروج المقاومة الفلسطينية ونهوض أحزاب لبنانية، ولا سيما حركة أمل والحزب الشيوعي، بمقاومة الاحتلال، فرض نفسه على تفكيري ومشاعري. كبرت تلك الأحزاب في عيني وقلبي بعدما كنت لا أحسب لها حساباً وأرى إليها كتنظيمات محدودة، معظمها حمل السلاح الفلسطيني. حتى إنني لم أكترث بمشروع الحركة الوطنية، بقيادة كمال جنبلاط، لتغيير النظام. كنتُ لا أهتم بهذا كلّه، وأعتبره كلاماً سياسياً للاستهلاك اللبناني، فالأولويّة لتحرير فلسطين. وما زلتُ أؤمن بأن لا حريّة لأيّ بلد عربي قبل تحرير فلسطين. ما زالت مقاومة إسرائيل، بالنسبة إليّ، شرط حريّة العرب، إلى درجة أنه إذا انهارت إسرائيل وزالت من دون مقاومة فليس مضموناً حدوث تغيير في أنظمتنا ومجتمعاتنا.

انطلاقة المقاومة الوطنية اللبنانية، هي ما أحضر لبنان إلى مسمعي وعقلي ووجداني. بات لهذا الاسم رنين. اقتحام استشهادي(*) بسيارته المفخّخة مقر القيادة العسكرية الإسرائيلية في صور، ١١/ ١١/ ١٩٨٢، واقتحام استشهادي مجهول بسيارة بيك آب مفخّخة مقر الحاكم العسكري الإسرائيلي في مدرسة الشجرة في صور أيضاً، ٤/ ١١/ ١٩٨٣، جعلاني أتذكّر تلك المناطق كمجتمعات وناس لا كممر وحسب. وذاك الفتى في الثالثة عشرة، نزيه القبرصلي، الذي هاجم وحيداً ببندقية كلاشنيكوف في ١٨/ ١/ ١٩٨٤، دورية إسرائيلية قرب القلعة البحرية في صيدا وسقوطه شهيداً، أحيا فيَّ وطناً وشعباً كأني كنتُ لا أعرفهما. قلت لا يفعل ذلك فتى إلاّ إذا كان من بيت ومن مجتمع مقاومة الاحتلال الإسرائيلي في دمهما. ومثله استشهاديّا صور.

والشباب معي في الزنزانة، وفي السجن عموماً، كانوا يكتشفون لبنان واللبنانيين. انشددنا إلى انتفاضتَي ٦ شباط في بيروت، والجبل في ١٤ منه على حكم أمين الجميّل. واكبنا عبر إذاعة صوت الجبل، الناطقة بلسان الحزب التقدمي الاشتراكي، تلك الأحداث، ومقاومة القوات المتعدّدة الجنسيّة التي استقدمت بارجتها الشهيرة، نيوجرسي، إلى الشاطئ اللبناني.

وقد انعكس هذا إيجاباً علينا. ارتفعت المعنويات على إيقاع سقوط اتفاق ١٧ أيار بين جمهورية أمين الجميّل والاحتلال الإسرائيلي. وكتبت في نشرتنا الداخلية مقالاً يحكي عن تلقّي مشروع أسرلة لبنان ضربة. . . وربما هزيمة. احتفيت فيه بعودة وليد جنبلاط إلى المكان الذي يليق بابن كمال جنبلاط.

وصلت إلينا، في اللجنة الوطنية، معلومات عن تحضير مديرية السجون عمليّة نقل لعدد كبير منّا إلى سجن آخر. اتفقنا على الاستعداد لكل احتمال.

بعد أيام، حضرت قوّة كبيرة إلى السجن. استدعت الإدارة ممثلينا، علي جدّة ومسلم الدّاودي، وأخبرتهما ببدء عملية نقلنا إلى سجن جنيد، في نابلس. وحذّره المدير من أيّ اعتراض:

— «سنستعمل القوّة إذا عصيتم أوامرنا».

(*) أعلنت المقاومة الإسلاميّة عام ١٩٨٥ أنه أحمد قصير.

تردّدتْ أصوات معترضة متسائلة، لكن كون الانتقال جماعيّاً احتواها وخفّف منها.

– «ينقلوننا إلى سجن أفضل، خمس نجوم، لراحتنا»، انتشرت هذه العبارة الساخرة بسرعة البرق. باتت على كل لسان تقريباً.

بدأوا إخراجنا مجموعات. اختاروا كل مجموعة من الأقسام كلّها لتقليص احتمالات التنسيق أو تدبير أمرٍ ما. عند الباب كلبشونا، كل أسيرين معاً.

– «ما هذه الرحلة وأيدينا وأقدامنا مكلبشة؟»، قال رفيق لا أعرفه أوقفه حظه، أو حظي، بجانبي. وكرّرها ليُفهمني أنه يهزأ وأنه من النوع الذي يتحدّى بيأس.

أصعدونا إلى البوسطات. ليست البوسطات التي غنّت لها فيروز، بل صناديق حديديّة كبيرة، تتخلّل جنباتها فتحات صغيرة بالكاد نرى منها السماء. تتسع الواحدة منها لـ ١٥ شخصاً، لكنّهم حشرونا كلّ ٣٥ أسيراً في واحدة.

انطلقنا. طوال الطريق بقينا واقفين، أثناء السير نتمايل يساراً ويميناً، وإذ تتوقف البوسطة أو تتباطأ سرعتها، نرتمي بعضنا فوق بعض إلى الأمام أو إلى الخلف.

حوّلوا بئر السبع سجناً للمدنيين. وافتتحوا بنا، في ١٤/ ٧/ ١٩٨٤، سجن جنيد في مدينة نابلس. كان مستشفى قبل عام ١٩٦٧. كنت قد سمعتُ وقرأت عن السجن الجديد، لكن لم نكن نتوقع أن نُنقَل إليه، ولا سيما نحن الأسرى العرب. نحن يجب أن نبقى في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ لكوننا حوكمنا هناك ولسنا فلسطينيين. لكنّ الأهم من هذا هو أنَّهم نقلوا الغزّاويين منّا إلى سجنَي نفحة وعسقلان. وكان ذلك بالنسبة إلينا، إشارة مخيفة لفصل غزّة عن الضفّة وتقسيم الشعب الفلسطيني.

هالنا وضع السجن الجديد. كلّ ما ناضلنا وأضربنا لأجله غير موجود. شعرنا بأنّنا انتقلنا إلى مكان قبل تجهيزه، أو أنّنا مهجّرون بالكاد لدينا فراش وأغطية.

بدأت السخرية:

«ليس لدينا شيء لكن أعطونا أبواباً كهربائية وكاميرات مراقبة في الممرّات».

«الهراوات في أيدي الحرّاس تعمل على الكهرباء».

«أبواب العيادة لا تفتح إلاّ مرّة واحدة في الأسبوع».

«الطبيب مبرمج ليعطي دواءً واحداً فقط. تعاني من وجعٍ في الرأس، أو من البواسير، لك أكامول».

وسط هذا، عاجلنا إلى إنشاء لجنة طوارئ في السجن. رفاقي في اللجنة الوطنية لسجن بئر السبع، فُرِزوا إلى سجون أخرى. الانتقال خلط الأوراق، وعُلِّقت الانقسامات التنظيميّة.

أيام وتجاوز التوتّر النكات إلى الغضب. لم تقبل الإدارة طلبنا أن يوزّع الطعام أكثر من أسير واحد لكلِّ قسم. ما جعلنا، مع كل وجبة، ننتظر ساعات حتى يتمكّن الأسير من الوصول إلى الزنازين كلّها، وكل واحدة تتّسع لعشرة أسرى.

وحصل ما كان متوقّعاً، أثناء انتظارنا وجبة الغداء ضجّ الشباب. بدأ الخبط على الأبواب. تصاعد وراح كل مَن يسمعه يفعل الأمر نفسه، وترافق مع صراخ عند الأبواب، ونداءات عبر الشبابيك تدعو إلى المواجهة. ورغم أن كل مبنى يضم ثلاثة أقسام كل قسم في طابق، وكل مبنى يبعد عن المباني الأخرى مسافة، إلاّ أن الصراخ والنداءات وصلت إلى الأقسام كلّها وانضمّ الجميع إلى الاعتراض.

أُطلقت صافرات الإنذار واقتحم الحرّاس المكمّمون الأقسام. وقعت المواجهة. تعاركنا معهم في الممرّات، وحين عجزوا عن تفريقنا وقمعنا، رشّوا الغاز، انسحبوا إلى خارج الممرّات والأقسام ورموا قنابل الغاز.

«هراواتهم ليست كهربائية»، راح بعضنا يغنّي بصوت عال.

أصرّت الإدارة على موقفها. شرعنا بالإعداد لإضراب مفتوح عن الطعام. صغنا خطّة العمل ووضعنا مجموعة مطالب: تحسين ظروف الحياة في سجن جنيد وجعله مثل السجون الأخرى؛ السماح بالراديوهات والتلفزيونات والوكمنات والساعات؛ سماع القرآن؛ السماح بتسلّم ملابس وبيّاضات من الأهل؛ تحسين الطعام والعلاج الطبي؛ السماح للأسير بأن يزور زنزانة غير التي يقيم فيها، لساعتين يوميّاً؛ بقاء أسير من كل زنزانة ممثلاً لزملائه في أثناء عمليّات التفتيش... الخ.

حمّلت اللجنة الوطنيّة المرضى، الذين يُنقلون إلى مستشفى سجن الرملة، رسائل على شكل كبسولات مغلّفة بالنايلون يبتلعها الأسرى ويخرجونها في المستشفى حيث يسلّمونها إلى مرضى آخرين من السجون الأخرى، يبتلعونها

ويخرجونها حين يعودون إلى سجونهم. وتضمّنت الرسائل تقريراً عن أوضاعنا وخطّة الإضراب وموعده، في ١٣/ ٩/ ١٩٨٤. وأُطلع المحامون على التحرّك وكُلِّف الثقات منهم نقل الخبر إلى التنظيمات في الخارج وإلى السجون الأخرى زيادة في التأكيد تحسّباً من عدم وصول الرسائل.

بعد ثلاثة أيام، في ١٣/ ٨/ ١٩٨٤، نقلوني أنا ومجموعة من الأسرى العرب إلى سجن عسقلان. فقد اكتشفوا أنّ الأسرى العرب يجب أن يبقوا في السجون داخل أراضي ١٩٤٨.

اتصلتُ سريعاً باللجنة الوطنيّة. أخبرت أعضاءها أن سجن جنيد بدأ الاستعداد لإضراب، موعده في ١٣/ ٩/ ١٩٨٤. انطلقنا في التحضيرات. استعرتُ كتاب «فلسفتنا» لمحمد باقر الصدر. أخذته مندفعاً للاطلاع على نقد الماركسيّة وسجال الآخرين معها.

صبيحة ذاك اليوم أخرج الأسرى، في السجون الأربعة، كل ما لديهم من طعام في الزنازين إلى الممرّات.

سأل الحرّاس كلّ واحدٍ منّا إذا كان مضرباً. أكدتُ لهم إضرابي. نقلوا غير المضربين إلى أقسام أخرى.

فوجئَتْ الإدارة... فمديرية السجون... فوزارة الشرطة. لقد فعلوا ما فعلوه لتشتيت الحركة الأسيرة وإعادة خلط الأسرى كورق اللعب، وسحبوا معظم المكاسب، ولا سيما في سجن جنيد، لهذه الغاية، مراهنين على أن التنظيمات الفلسطينية في الخارج والداخل منقسمة على نفسها منذ خروج منظّمة التحرير من بيروت. وقد فاقم إحباط الأسرى وتشتتهم عمليّة التبادل بين إسرائيل وحركة فتح، في ٢٣/ ١١/ ١٩٨٣، إذ لم يُحرّر من السجون الإسرائيليّة إلا ٦٥ أسيراً، بالرغم من أن عدد الجنود الإسرائيليين الأسرى لدى فتح كانوا ستّة. ما سبّب خيبة أمل لم أسمع قبلها فلسطينيّاً، بل فتحاويّاً، يشتم ياسر عرفات، رئيس حركة فتح. فقد اعتُبِر أنه فضّل معتقلي أنصار في الجنوب اللبناني، وعددهم ٤٧٠٠ فلسطيني ولبناني، على أسرى الداخل، رغم أن احتمال إفراج إسرائيل عن معتقلي أنصار أقوى بكثير من احتمال أن تُفرج عن أسرى الداخل، ولا سيما الذين يخضعون للمحاكمة

وتصدر بحقّهم أحكام عالية. فمعظم من أُفرج عنهم كانوا مدنيّين، فيما نُقل العسكريّون إلى سجن عتليت داخل فلسطين المحتلّة.

بهدوء ممزوج مع طمأنينة صافية، جلستُ أقرأ. جذبتني سلاسة «فلسفتنا» وأفكاره ولغته البسيطة كأنه حديث شفهي طويل.

لم أنتبه لمرور الوقت. فاجأتني العتمة وقد بدأت النهارات تقصر. أوقفتُ القراءة ونمت. وما إن استيقظت، في اليوم التالي، حتى عدتُ إلى القراءة. قليلاً، كنتُ، حين أصحو، أفكّر في الكتاب وكأني أراجع ما قرأته أمس. مرَّ اليوم التالي من دون كلمة مع أحد. وهم صامتون بين القراءة والنوم. السجن هادئ. . . في لحظات كثيرة شعرتُ بأننا كائنات في عالم المُثُل. افتقدتُ السيطرة على الإحساس بالمسافات. لم تتقلّص الأشياء أو تتضخّم وحسب، بل صرتُ أحسّ بأن عالمنا خيالات من دون مادّة. ولم أعد أرى جدراناً، وفقدتُ حاسّة اللمس، أو لم أعد أحسّ بها. لم يعد ما أراه أمامي بل في رأسي وأنا في داخله. أراه يتموّج.

أنِسْتُ لهذا واستسلمتُ له.

السجن هادئ. كأنّ الطمأنينة من المقبل كلمة سرّ معمّمة. في اليوم الرابع للإضراب، شُكِّلت في الضفّة الغربيّة وغزّة لجنة لقيادة الفعاليات التضامنيّة معنا.

أواصل القراءة مثل راكب قطار يدرك تماماً إلى أين يتّجه.

كنتُ نائماً حين سمعت صوتاً من أحد شبابيك الزنازين يعلن أن وزير الشرطة بدأ مفاوضاته مع الأسرى في سجن جنيد.

فكّرتُ أن الحكومة الجديدة (من الشهر الخامس)، لكونها حكومة وحدة بين حزبي العمل والليكود، اللذين اتفقا على أن يترأسها شيمون بيريز أولاً لسنتين ثم إسحاق شامير لسنتين أخريين، تريد أن تهدّئ الأجواء. وتذكّرتُ أن وزير الشرطة حاييم بارليف، الذي اشتهر ببنائه خط بارليف في عام ١٩٦٨ بمحاذاة قناة السويس وأشرف على غارات الطائرات الإسرائيلية على العمق المصري ومجازر أبو زعبل وبحر البقر وقتل عشرات المدنيين من نساء وأطفال، هو من حزب العمل. لكن مدير السجون، موردخاي فرات هايمر، من الحزب الوطني، المفدال. هنا، توقّعت ألا تسير الأمور بسلاسة.

في اليوم الرابع عشر أخبرَت الإدارة ممثّلنا، غازي أبو جياب، أن اتفاقاً قد حصل مع اللجنة الوطنيّة في جنيد، وانتهى الإضراب.

قصّة وقف الإضراب وصلتنا بعد أيام في رسالة من اللجنة الوطنية في جنيد:

«فاجأنا وزير الشرطة، بارليف، بموافقته على المطالب في الجلسة الأولى للتفاوض. وأثناء تلك الجلسة بدأ الخلاف بينه وبين مدير السجون الذي همس لبارليف بأن إعطاءنا تلك المطالب يشكّل خطراً أمنيّاً».

أخبرتنا إدارة سجن نفحة، الذي نُقلتُ إليه بعد فترة من انتهاء الإضراب، أن المدير الجديد للسجون، رافي سويسة، سيزور السجن ويرغب في لقاء ممثّلي الأسرى، هشام عبد الرازق الموجود في زنزانة مقابل زنزانتي، وأنا ورفيقي في الزنزانة عمر القاسم، القيادي في الجبهة الديموقراطيّة الأسير منذ ٢٨/ ١٠/ ١٩٦٨، أثناء قيادته مجموعة تسلّلت عبر الأردن ونفّذت عمليّة في الأراضي المحتلّة.

اتفقنا على ضرورة اجتماع اللجنة الوطنية قبل لقاء سويسة.

في اليوم التالي، عدنا من الباحة إلى زنزانتنا، تبعنا هشام وسليم زريعي ومحمد صليبي. متشوّقاً إلى انطلاقة الاجتماع، بادر هشام:

– «إبعاد الوزير بارليف المدير السابق للسجون، هايمر، وتعيين مدير جديد من حزب العمل، رافي سويسة، يعني أن السياسة الجديدة هي التهدئة. ويبدو أن الوزير جاد في تنفيذ ما اتفقنا عليه معه لوقف الإضراب».

أكد عمر موافقته على هذا التحليل. مسح العرق عن جبينه. نظر إلى كلّ منّا وقال:

– «علينا انتظار ما سيقوله المدير الجديد. فإذا كان إيجابياً نكون إيجابيين من دون مبالغة وندعوه إلى تنفيذ ما اتُّفقَ عليه».

أعجبتني هذه الدوزنة للتعامل مع المدير الجديد. راقني أن أكون مع أسرى مخضرمين خاضوا العديد من التحركات والإضرابات والمفاوضات.

قلتُ:

– «علينا أن نُفهمهم أن إيجابيتنا مشروطة بإيجابيّتهم وبتنفيذ الاتفاق، والموضوع الصحي امتحان رئيسي».

نظر إليّ عمر معبّراً عن فرحته بموقفي. أنهينا الاجتماع كَمَن يتهيّأ لدخول قاعة الامتحان.

جاء سويسة بثيابه المدنيّة وابتسامة عريضة، إلى زنزانتنا. تبعه هشام وسليم ومحمد. بقينا واقفين وسط الأسرّة.

بادر سويسة إلى الحديث عن رغبته هو والوزير في تحسين ظروف عيشنا وفي التهدئة. طلب منّا صراحة ألا نضع عراقيل في طريق تنفيذ ما اتُّفقَ عليه. لم ينظر أيّ منّا، عمر وهشام ومحمد وسليم وأنا، بعضنا إلى بعض. فكّرتُ أن هذا أفضل كي لا نبدو مفاجئين أو نُشعِر سويسة بأنه يعطي أكثر ممّا نتوقّع. عاجله عمر بالتذكير بما اتُّفق عليه ولم ينفّذ بعد:

– «العلاج ما زال على حاله. ممرّض واحد لثمانين أسيراً، ودواء واحد للأمراض كلّها. نحن بحاجة إلى أطبّاء وعيادات لتشخيص الأمراض ومعالجتها بالأدوية المناسبة».

سويسة يهزّ رأسه موافقاً ومدير السجن جامد شاخص العينين إلينا.

تابع عمر:

– «لم نحصل حتى الساعة على التلفزيون».

شعر سويسة بأننا جادّون في الحصول على المطالب كلّها التي اتُّفق عليها وبأننا ننظر إلى نصفي الكأس، الملآن والفارغ. رفع يده إشارة إلى أنه يعرف ما سيقوله عمر. أضاف:

– «أنا متفهّم لأوضاعكم»، ولاذ بنفسه. شعرتُ أنه تذكّر حزناً شخصياً. نظرتُ إلى عمر وهشام، قرأتُ في ملامح وجهيهما معرفةَ سرّ خاص بسويسة ويحسّان به الآن، ويراعيانه بلحظة صمت.

عندما خرج سويسة من زنزانتنا همس عمر في أذني:

– «لسويسة ابن سجين في فرنسا»، وغمزني. أراد بهذه العبارة أن يفسّر لي حزن سويسة وربما سبب تفهّمه لوضعنا، كما قال سويسة. اللياقة هي ما جعل عمر يصمت في مواجهة سويسة، وهي ما جعله لا يهمس لي بالعربية حين كان سويسة بيننا.

أخذتني لحظة تفهّم الألم الشخصي لسويسة إلى أبي. استعدتُ رسائله التي

يكتبها لي من لبنان، وقد عاد من السعودية واستقرّ بين بيروت وعبيه. بات لا يقوى على العمل منذ أُسرت، وتوفّيت أختي. تذكّرت تمنّيه بأن يكون فرَجي قريباً، وتذكّرت العبارة التي خطّها الضابط سليم، موزّع البريد ومراقبه، تعليقاً على التمنّي: «عندما تنبت لك أجنحة». غضبت، ومن دون تردّد قلت لهشام وعمر ومحمد وسليم:

— «أتمنى ألاّ يكون سويسة يحكي من عنده متأثّراً بأموره الشخصية، ولا يفعل شيئاً، أو لا يقدر على فعل شيء، إذا ما كنّا حَسَني النيّة ولم نشكّك في أقواله».

ابتسم عمر متوجّساً، ورد هشام:

— «الحق الكذّاب على باب داره».

علمنا أن الإسرائيليين أحضروا إلى سجننا معوّقاً لا يقدر إلاّ على تحريك رأسه.

— «الشيخ أحمد ياسين، من الإخوان المسلمين في غزّة»، قال لنا هشام بأسف.

استغربتُ اعتقال رجل بهذه الحال الصحيّة، حتى ولو كان ناشطاً ويحرّض على الاحتلال. سجنه الجسدي أقسى من السجن، قلت لنفسي، وسألت مَن يعينه هنا بعيداً من أسرته. وإذا ما وجد متطوّعاً يحترمه ويقدّره، ويخدمه قناعةً بأنه يعمل ثواباً لله، ماذا يريدون منه؟ يضعونه في الإقامة الجبريّة أهوَن!

وتخيّلته في غرفة التحقيق. سألت نفسي كيف عذّبوه، كيف لهم قلب بتعذيب إنسان في حال مثل حاله؟ أكيد حقّقوا معه وعذّبوه. لديهم أساليب كثيرة للتعذيب، وليس بالضرورة جسديّة دائماً. رجلٌ مثل هذا كرامته جزء من جسده، وبرغم عدم قدرته على الحركة ينشط ضد الاحتلال.

تشوّقتُ لرؤيته.

من اللحظة الأولى لخروجنا إلى الباحة، رحتُ أبحث عنه. لمحته من بعيد على كرسي مدولب، يساعده شاب لتسييره. لاحظتُ الأسرى يقتربون منه لإلقاء التحيّة عليه، وهو يبتسم، بل كأنّ الابتسامة من ملامح وجهه المحاط بمنديل أبيض. شعرتُ بأنه راضٍ بحاله. فكّرتُ أن هذا من إيمانه، إذ يعتقد أن إعاقته قَدَر وحكمة

إلهيّة. عادتني صوره المتخيّلة في غرفة التحقيق. أحسستُ أنه قابَل إجراءات اعتقاله ثم التحقيق معه بهذه الابتسامة التي تبدو ساخرة. قلتُ أكيد فكّر المحقّقون بهذا، وأربكتهم ابتسامته التي لا يمكنهم محوها.

اقتربتُ منه، ألقيت عليه التحيّة. ردّها بصوت مبحوح وكأنه لفتى واثق. أشعرني الصوت بأنه لشخصٍ آخر يتموّه في هذا الجسد، كأنّ روحاً وعقلاً يعيشان في العمق، ويتكلّمان.

وجدت ابتسامة ترتسم على وجهي تترجم فكرة أنّ اعتقاله ذروة إقرار الاحتلال بفشله، وأن إيداعه السجن سخرية القدر من الأسر، وأن التحقيق معه تعذيب للمحقّق.

حالته الصحيّة دفعتنا إلى المطالبة بنقله إلى سجن قريب من مستشفى. أصررنا على ذلك. فاستجابت الإدارة ونُقل إلى عسقلان.

أنهينا إعداد العدد الجديد من مجلة «نفحة الثورة». أمسك عمر بالأوراق وقال:

— «غداً نعطيها للشباب كي ينسخوها».

بدا لي حزيناً ومتوتراً، على عكسي وبخلاف المزاج العام في السجن. نهض عن الأرض وانسحب إلى سريره. لم يمسك الدفتر الذي يكتب فيه يومياً مقالات للتثقيف. جلس مثقلاً بتفكير يائس، أو هكذا فسّرت هيئته.

اقتربتُ منه لأسأله ما به، فهو عادة شفاف وصريح ومستعد لمناقشة الأمور الشخصية، من دون تكلّف وقيود. فواحد مثله، وفي موقعه، لا يقبل أن يطّلع على شؤون الآخرين ومشاكلهم وينأى بأموره الخاصة، رغم أنه يبدو بعد ١٦ سنة في السجن بلا حياة خاصة، ولا سيما أنه أعزب.

لم يتركني أسأل. أحسّ بقلقي عليه. بادرني إلى الكلام:

— «وصلتنا رسالة من دمشق أن هناك عملية تبادل قريباً».

ابتسمت:

— «مبروك، هذا يجب أن يفرحك لا أن يقلقك».

لم يغادره القلق. بقيت ملامحه جامدة. تردّد في الكلام. مرّر كفّه فوق ذقنه

العريضة التي تتقدم وجهه، ثم رفع كفّه إلى صدغه كمَن يطمئن إلى رأسه أو الشعر فوقه. قال:

— «أتعتقد أنني سأخرج من السجن وأعود إلى القدس؟».

سمعتُ في صوته جواباً سلبيّاً بصيغة السؤال. أربكني. لم أعرف سبيلاً إلى الرد. أضاف:

— «خطأ أن أكلّمك وأنقل إليك قلقي، لكني أشعر بأنني لن أخرج من السجن إلاّ محمولاً».

ارتجف قلبي. فلتت ملامح وجهي من السيطرة، أو عدت لا أفهمها. غالبت لساني ونطقت:

— «لماذا تفكّر في هذا، هل تقول الرسالة إنك غير مشمول في التبادل؟».

— «لا، الرسالة تفيد بأن هناك عملية تبادل فقط».

— «إذاً لماذا تفكّر في هذا، أسمعتَ شيئاً آخر؟».

— «لا أدري، هذا شعوري».

فكّرتُ أنه يعرف شيئاً ولا يريد مصارحتي به. راجعتُ هذه الفكرة في رأسي، وارتدّت عليّ. سألت نفسي: «أنا مشمول في التبادل؟ أعليّ أن أقلق أنا أيضاً؟ أهو عمر قلق عليّ أيضاً ولا يريد قول ذلك صراحة؟».

نظرتُ إليه كمَن يكتشف حلاً للغز. وكرّرت عليه الأسئلة ذاتها. وهو كرّر نفيه معرفة أيّ شيء.

لم يقنعني. تبدّد التفكير في أنه يعرف أمراً ما في خصوصي، لكن القلق ازداد لديّ. قلتُ لنفسي: «إذا كان عمر الموجود في السجن منذ ١٦ سنة سيبقى، فكيف أنا الذي لم أقضِ إلاّ ستّ سنوات؟».

عاد عمر إلى شروده، كتمثال شمع. حتى لونه بدا أصفر. جفنا عينيه كجناحين مسترخيان فيما بؤبؤاهما مثل حجرين عسليين لا ينظر من خلالهما.

مشكلتي أهون من مشكلته. قارنتُ بيننا وشعرتُ بأنني بدأت أقنع نفسي بفكرة البقاء في السجن.

سمعته يعود من صمته:

— «إذا لم يشملنا هذا التبادل، لا نعرف متى نخرج. هذه آخر مجموعة من الجنود الإسرائيليين مع الثورة. ولا نعرف متى يؤسر جنود آخرون، ولا أين. كان

معنا، في الجبهة الديموقراطية، أسير اسمه سمير أسعد، درزي في الجيش الإسرائيلي، لكنه قُتل في غارة إسرائيلية على مواقع الجبهة في طرابلس بلبنان».

انتبهت إلى أن المقاومة الوطنية اللبنانية تنفّذ عمليات عسكرية ضد الاحتلال لكنها لا تأسر، وربما لا تضع ذلك في أولويّاتها.

تضاعف قلقي، وتضاعف أكثر عندما لاحظتُ أن عمر شملني معه في قلقه.

عدت إلى فراشي.

بعد أيام، كنتُ في الباحة، جاءني رفيق في زنزانة أخرى، مبتهجاً:

— «كان أهلي في دمشق، وأكدت لهم القيادة العامة أنني مشمول في عملية التبادل، وأنت وعمر أيضاً».

سألته مَن مِن القيادة العامّة، أحمد جبريل؟

هزّ رأسه. كرّرتُ سؤالي فجزم بأنه جبريل. للحظة شعرتُ بأنه يقول ذلك لطمأنتي. لكنه بذل جهداً لإقناعي.

مشيتُ وإيّاه بحثاً عن عمر. وجدناه وكرّر الرفيق لعمر ما قاله لي، لكن هذه المرّة لم يقل القيادة العامة، بل أحمد جبريل، حسماً لتجدّد السجال نفسه مع عمر.

بقي عمر صامتاً.

صباح أحد أيام أيار/مايو، جاء وفد من الصليب الأحمر. استدعى مجموعة من الأسرى، اختيرت أسماؤهم من الخارج. فهمنا أن القيادة العامة التي تُجري عملية التبادل مع الإسرائيليين، هي مَن عيّنهم. عمر وأنا وهشام، أعضاء اللجنة الوطنية في السجن، لسنا في لجنة التبادل. نظرنا أنا وعمر كلّ إلى الآخر، كأن بدأنا نلمس ما يذكّي حدسنا. بقينا صامِتَين، نتناوب بين حين وآخر على الاقتراب من باب الزنزانة انتظاراً لمعرفة آخر الأخبار.

عادت لجنة التبادل من اجتماعها مع وفد الصليب الأحمر، في مكتب خاص، خارج الأقسام.

ضجّت الزنازين. الجميع يسأل أعضاء لجنة التبادل عبر طاقات أبواب الزنازين عمّا يجري.

فتح الحراس أبواب الزنازين. لحظات وبتنا كلّنا في الممر. ثمانون أسيراً يبحث كل منّا عن حقيقة ما يجري.

أُخرجنا إلى الباحة.

اختير عمر ليقرأ الأسماء، ربما لإتقانه اللغة الانكليزية. قبل الأسماء تلا بياناً مِوقّعاً من الجبهة الشعبية - القيادة العامة، يبارك الحرية والنصر للأسرى الذين سيُفرج عنهم، ويتعهّد للأسرى الذين سيبقون في السجن أن الجبهة ستعمل لإطلاق سراحهم في المستقبل. استغربنا ذلك، واستغربنا وجود شعار الجبهة في أعلى البيان المرفق مع قائمة الأسرى الموقّعة من الصليب الأحمر. وعرفنا أن من الشروط التي فرضتها الجبهة إذاعة بيانها في السجون حيث تجري عملية التبادل. هذه سابقة. أعرب الأسرى عن تقديرها.

بدأ عمر يتلو الأسماء. وكل مَن يرد اسمه يبارك له المحيطون به. وبعد كل اسم أنتظر أن يرد اسم عمر، أو هشام، أو سليم زريعي السجين منذ ١٧ سنة، أو أنا. لم يقرأ اسمه بين المحرّرين. لم يجده. كنتُ أنظر إليه وهو يقرأ القائمة، وينظر إلى كل مَن يرد اسمه ويبتسم له. قرأ ثمانية وخمسين اسماً... وبقيت حتى الأخير أتوقّع أن يرد اسمه. لم يحصل. لعلّه قرأ الأسماء كلّها في جولة سريعة بنظره على الأوراق بين يديه، قبل أن يتلوها، ولم يجد اسمه. ولعلّه كرّر المحاولة، أو بحث عن اسمِي واسمَي هشام وسليم. وعرف قبل الجميع أنها غير مدرجة، وواصل التلاوة، وواصل الابتسام في وجوه المحرّرين كي لا يشعروا بشيء، ولا ينتابهم الذنب وتنغّص فرحتهم. هذا عمر. مَن يعرفه يدرك أنه سيفعل ذلك.

تذكّرت قصّةً تُروى عنه: أخذه الإسرائيليّون من سجنه. ربطوه في مقدّمة ملالّة أثناء محاصرتهم مجموعة من جبهته، الديموقراطيّة، أتت عبر لبنان لتنفيذ عمليّة في مستعمرة معالوت بفلسطين المحتلّة، في ١٥/ ٥/ ١٩٧٤. اقتحمت مدرسة للشبيبة المحاربة، احتجزت من فيها وطالبت بإطلاق سراح ٢٠ أسيراً في مقدمهم عمر. أعطاه الجنود الإسرائيليّون ميكروفوناً وطلبوا منه أن يعرّف عن نفسه ويدعو المقاتلين إلى الاستسلام. وجّه الميكروفون نحو الشباب وخاطبهم:

«أنا عمر القاسم، أطلب منكم أن تنفّذوا ما أتيتم لأجله، فلا تخونوا وطنكم وثقةَ قيادتكم وشعبكم بكم».

سمع الإسرائيليّون ما يقوله. تركوه مربوطاً إلى الملالّة وخاضوا المعركة مع الفدائيين.

لم يصدّق أحد أن اسم عمر لم يرد، أنه لم يلفظ اسمه. كبح المحرّرون مشاعرهم. جُرحت فرحتهم. أُثقلت حرّيتهم. أعطى الأوراق لأحد أعضاء وفد

الصليب الأحمر، كأن ليطوي صفحة الأسماء. تقدّم بيننا. مشى مبتسماً. بارك للمحرّرين واحداً واحداً. لم يقبل أن ينطق أيّ منهم بكلمة عنه أو يعبّر عن حزنه، لكونه لم يخرج.

«سيأتي دورنا، مبروك لنا الحريّة».

كرّرها ثمانياً وخمسين مرّة وأكثر.

— «يا ليته لم يقرأ الأسماء، ويا ليت اسمي لم يرد ولم يخرج من فمه»، قال لي رفيقنا في الزنزانة نبيل قبلاني، من الضفّة الغربيّة. وانتبه إلى أنه يكلّمني أنا، الباقي في الأسر. سكت بين الاعتذار ومضاعفة الشعور بالحزن. وابتعد عني.

وأنا ذاهل كيف حصل هذا. أكانت رسائل التطمين كذباً أم مبالغة، أهناك خطأ؟

اثنان وعشرون أسيراً، أنا وعمر بينهم، يكرّرون الأسئلة ذاتها، داخل الرؤوس وعلى الألسن. ووفد الصليب الأحمر يكرّر، لمَن يراجعه بحثاً عن اسمه:

— «هذه هي القائمة».

— «أرجوك ابحث عن اسمي!».

— «غير موجود».

— «أهناك قوائم أخرى؟».

— «لا ندري».

شرعت الإدارة، لأسباب استخباريّة توثيقيّة تصوّر من شملتهم عمليّة التبادل، وتأخذ بصماتهم. وباشر أعضاء لجنة التبادل ووفد الصليب الأحمر، الذين خُصّص لهم مكتب خارج الأقسام، إنجاز معاملات الإفراج. فصار الأسير يخرج من أمام كاميرا الإدارة وينضم إلى طابور أمام مكتب الصليب الأحمر واللجنة. يسأله مسؤول لجنة التبادل إلى أين يريد الذهاب: إلى غزّة، الضفّة، أراضي ١٩٤٨ أم إلى الخارج؟ مَن يختار الخارج يوقّع على تعهّد يتحمّل بموجبه مسؤولية قراره، ويُعطى بطاقة خضراء. ومَن يقرّر العودة إلى سكنه في فلسطين يُعطى بطاقة برتقالية.

ومَن ينتهي من هذه الإجراءات، يأخذونه إلى قسم أفرغوه خصيصاً للمحرّرين. حشروهم. ثمانية وخمسون رجلاً في خمس زنازين، كلّ واحدة بالكاد تتّسع لثمانية، بات فيها نحو اثني عشر. بينما أنا وعمر وحدنا في زنزانتنا، وهشام وسليم كلّ في زنزانة.

– «أحبّ الحياة وأتشوّق للحريّة، لكني أتمنى أن تتحرّر أنت، مازلتَ شاباً»، قال لي عمر برباطة جأش.

منعتُ دمعتي من الوصول إلى عينيّ. احترق فمي. من دقائق وجدتُ نفسي أحدّثه لأواسيه، وإذا به هو يواسيني. فكّرت أن عليّ إخراجه من الضيق، فإذا بي أنا في الضيق. درت حول نفسي. هدّأتُ نفسي. سألته:

– «ما رأيك، لماذا لم يخرجونا أنا وأنت وهشام وسليم؟».

– «لا أدري»، أجاب بسرعة.

– «هناك أسباب».

نظر إليّ فجأة:

– «هناك المئات، مثل حالي وحالك وحال هشام وسليم، ٦٠٠ أسير محكوم بالمؤبد شملهم التبادل. لماذا استُبعدنا؟».

– «لا بدّ أن الإسرائيليين رفضوا إخراجنا».

– «أتمنى أن يكون الإسرائيليون مَن فعل ذلك، ولسنا نحن الفلسطينيين».

شعرتُ بأنه يقول ذلك أخلاقيّاً وليهوّن على نفسه البقاء في السجن. رغم ذلك انتابني شعور بأنه يتوجّس من أن يكون للانقسامات التنظيمية دور في ذلك.

ولم أصدّق، بعد أيام، ما قاله لي عمر من أن المحامي زاره وأخبره أن أحمد جبريل رفض شخصيّاً شموله بعملية التبادل.

قال مصدوماً وعيناه زائغتان:

– «لا أصدّق أن قائداً كبيراً مثل أحمد جبريل يريد الثأر مني بعد أكثر من ١٧ سنة أمضيت ١٦ منها في السجن».

– «ما القصّة بينكما؟»، سألته.

– «كنّا معاً في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. حين انشقّ هو على رأس القيادة العامة عام ١٩٦٨، حاول أخذ مخزن سلاح للجبهة في منطقة الشونة شمال الأردن. أنا كنتُ مسؤولاً عن المخزن ورفضت تسليمه له، إذ اعتبرت أنه منشق، والمخزن للجبهة. وبعد سنة انشققنا نحن وأسّسنا الجبهة الديموقراطيّة».

توقّفَ قليلاً، ثم تمتم كمَن يطرد شيطاناً:

– «لا أظن أنه ينتقم مني، لا أظن».

هالني ما أسمع. لم أصدّق أن قائداً سياسياً وعسكرياً يجري عملية تبادل بهذا الحجم، يحرّر ١١٥٠ أسيراً، ويتوقّف عند حادثة تنظيمية ومع شخص مثل عمر.

كأن عمر أراد تأكيد نفيه نظرية الثأر، قال لي إنه سأل المحامي:

— «لماذا لم يخرج سمير وهشام وسليم؟ أبينهم وبين أبو جهاد ثأر؟».

وردّ عليه المحامي بأن القيادة العامة قالت إن إسرائيل استبعدت ٣٦ أسيراً محكومين أحكاماً عالية، وسعت الجبهة لشملهم في التبادل وأوقفت التفاوض لمدة طويلة لهذا السبب، لكنها لم توفّق إلاّ إلى تقليص العدد من ٣٦ إلى ١٦.

أجابه عمر بأنه قد يكون بين أولئك الـ١٦.

راجعتُ تفكيري. سألته:

— «مَن هم الـ٣٦ ومَن هم الـ١٦؟».

دقّقنا معاً في الأسماء. ذكرنا أشخاصاً محكومين بسنوات قليلة لكنهم بقوا في الأسر، وأشخاصاً ممَّن تصنّفهم إسرائيل «الملطخة أيديهم بدماء الإسرائيليين»، لكنّهم شُمِلوا بالتبادل.

نظر عمر إليّ. انتظرت أن يتكلّم. بقي صامتاً متردّداً. شعرت بأنّه يمتنع عن قول سرٍّ ما لديه، يخصّني أنا. هززت رأسي مشجّعاً. تأفّف كمن يعترف مكرهاً:

— «لم يجعلك الإسرائيليّون إبليسهم ليتركوك حرّاً بعد ست سنوات من أسرك. نسيت أنّ مناحيم بيغن، رئيس وزرائهم، قال أثناء تشييع قتلى عمليّتكم: «في خصوص سمير القنطار نفكّر في انتقام لم يخترعه الشيطان». والدليل على هذا أنّهم أفرجوا عن رفيقك في العمليّة أحمد الأبرص. أنا بحاجة إلى ثورة جديدة لتحرّرني وأنت بحاجة إلى أسر جيش كامل ليتمّ التبادل بك».

للحظة، كان لعبارته وقع اليأس. لكنّنا عدنا وأحسسنا بأنّنا إزاء رسم كاريكاتوري. ضحكنا.

غيّر عمر رأيه وصدّق حكاية فيتو أحمد جبريل، حين وصلت إليه رسالة شفهيّة من رفاقه في الجبهة الديموقراطية. تقول الرسالة إن الأمين العام للجبهة، نايف حواتمة، حاول جهده مع جبريل لضم اسم عمر إلى قائمة الأسرى الذين يطالب بتحريرهم، لكنه لم يستطع إقناعه. فأحمد جبريل لم يسامحه على ما قاله مرّة في الإذاعة بحق القيادة العامة وأحمد جبريل.

سألت عمر عمّا قاله في الإذاعة. همس لي بأنه بعد معارك الأغوار قال إن أحمد جبريل سحب القسم الأكبر من قواته ولم يشارك بفاعليّة في المعركة.

— «هذه وجهة نظر وليست خيانة. لم تظهر على الشاشة الإسرائيليّة وتشتم القادة الفلسطينيين والثورة عموماً، ثم يُطالب بك القادة الفلسطينيّون، كما فعلوا مع محمد عفيفي، الذي نصحني بأن أتعقّل وأقبل أن أظهر على شاشة إسرائيل وأحكي ضد الثورة. وها هو يُطلق سراحه. أخبرنا بذلك أسرى عسقلان حيث كان».

نهار ١٩/ ٥/ ١٩٨٥، بدأ نقل الأسرى إلى سجن عسقلان.

أوردت إذاعة إسرائيل للمرة الأولى خبر عملية التبادل.

انشددنا أنا وعمر، في الزنزانة، إلى صوت وزير الدفاع الإسرائيلي، إسحاق رابين، عبر الراديو، يعقد مؤتمراً صحافياً.

هنّأ الشعب الإسرائيلي بعودة الجنود الثلاثة الذين أسرت فتح اثنين منهم في بحمدون وسلّمتهما إلى الجبهة الشعبية - القيادة العامة التي أسرت الثالث في معركة السلطان يعقوب في البقاع الغربي بلبنان ١١/ ٦/ ١٩٨٢. قال باعتداد:

«رفضنا إطلاق سراح مجموعة من القَتَلة في مقدّمهم سمير القنطار».

الهروب

أركضُ بجانب عمر، في الباحة، وأفكّر بضرورة تدبير عملية فرار. «يجب أن أخرج من هنا». عبارة تتكرّر في رأسي على إيقاع لهاثي. أنظر إلى عمر أراه شارداً، أهو منغمس في الرياضة أم يفكّر في أمر ما، في الخروج من هنا، في الفرار؟

أعيد وجهي إلى الأمام. أهمّ بمحادثته من دون تحريك شفتيّ، وبصوتٍ منخفض أشبه باللهاث كي لا يلاحظ أحد، لكنني أتردّد وأسكت. أكرّر الحركة ذاتها، وأسأله:

— «أتفكّر في الهرب من هنا؟».

يلتفت نحوي. يحدّق بي مصعوقاً، عيناه تقفزان من وجهه. يقول:

— «أفكّر في هذا. كيف عرفت أنني أفكّر به، هل قلتُ كلمة تبوح بذلك؟».

بدا لي وهو ينهمر عليّ بأسئلته أنه لا يكترث بسؤالي عن عملية الفرار، بل قلق ممّا إذا كان قال كلمة فضحت ما يفكّر فيه. كأنه خائف من أن يكون تفكيره في الفرار قد وصل إلى حد مَرَضي بات معه يكلّم نفسه أو يفكّر بصوت مرتفع.

ابتسمتُ وطمأنته إلى أن شيئاً لم يبدر منه:

— «أنا أسألك. أنا أفكّر في الموضوع، وأريد رأيك. سواء شاركت معي أم لا. أنا أثق بك».

تقاسمنا نظرة سريعة قبل أن نعيد وجهينا إلى الأمام ونواصل الركض كما لو أننا في طابور عسكري. تجاوزنا النيّة والتأكيد أننا نشترك في التفكير بالفرار.

سألني:

— «ألديكَ خطّة».

نظرتُ نحوه وقد فوجئت بسرعته منتبهاً إلى أن علينا فعلاً تدبير خطّة.

بقيتُ صامتاً.

التفتَ نحوي مبتسماً:

– «نحن كالتنظيمات الفلسطينيّة التي قالت، خصوصاً بعد هزيمة ١٩٦٧، إنها ماركسيّة قبل أن تعرف الماديّة التاريخيّة والاشتراكيّة ومدى مواءمتهما للواقع... وما إذا كانت التنظيمات وأعضاؤها حقّاً ماركسيّين».

غرق في الضحك، واستدرك:

– «واختلفَتْ التنظيمات إذا كانت لينينيّة أم ماويّة».

تذكّرت حادثة حصلت أمامي في السجن، قاطعت ضحكنا:

– «مرّة واحد من الخليل، نسيت اسمه، كبير في السن، تشاجر مع مسؤوله في فتح، فوقف في وسط الممر وصرخ: عليّ الطلاق رح علّق صليب وصير ماركسي».

مساءً، حملتُ دفتر تعلُّم اللغة العبرية. ناديتُ الحارس. طلبت منه فتح باب الزنزانة لي لزيارة الشباب في زنزانة أخرى. استجاب. رافقني حتى سلّمني للحارس في القسم الذي أقصده. دخلتُ زنزانة الشباب، كلّهم جدد أتوا بهم من سجن غزّة. قبل أن أبدأ تعليمهم اللغة العبريّة، وقد جلسنا أرضاً على شكل دائرة، قلت:

– «كل إنسان يفكّر في الجنس ويرغب فيه. نحن في السجن، في حالة استثنائية قهريّة. علينا أن نسيطر على مشاعرنا لا لشيء إلاّ لأن السجّان، العدو، يستغل هذا، لإذلالنا».

انهال الشباب بعضهم على بعض بالضحك. هذا يشير إلى رفيقه بسبابته، ويقول:

– «الكلام موجّه إليك».

وذاك يقول لآخر:

– «كي تتوقّف عن التفكير في النسوان».

وما إن هدأوا حتّى لفتني حَبّ الشباب يملأ وجوه عدد منهم.

وجدوني جادّاً. سكتوا.

آثرتُ أن أربط كلامي بالواقع. كأني أغلقتُ كتاب «آداب الحياة» لكمال جنبلاط ووضعته جانباً. استأنفت حديثي:

– «لا شك في أنّكم تعلمون أن معظم حالات التعامل، في السجن وفي

الخارج، ناتجة عن الابتزاز والضغط. يدفعون عميلاً من العصافير ليمارس اللواط، مثلاً، مع أسير يفكّر في الجنس، ثم يقولون للأسير إننا نعلم بما فعلته مع فلان، أو لدينا دليل عليه، صور مثلاً، وإذا لم تتعامل معنا نفضحك. الجنس طريق إلى التعامل. مرتبطان. وعقابهما بالنسبة إلينا واحد، ماديّاً ومعنويّاً».

انشدّ الشباب أكثر إلى حديثي. ارتخت أفواه بعضهم. وبعضهم عدّل في جلسته، كما لو أن ساقيه نمّلتا تحته. زدتُ:

— «لا أقول هذا لإخافتكم، لكن ذلك حصل. فترك الأسير نفسه يفكّر في الجنس يضعفه، سواء مارس الجنس أو الاستمناء أو لا. ومتى تغلّب السجين على مشاعره الجنسية، وأجّلها إلى حريّته، انتصر على السجّان والسجن. هم يسجنوننا لأسباب كثيرة، سياسيّة وأمنيّة، وأيضاً لتدميرنا نفسيّاً وأخلاقيّاً، ولمنعنا من العيش الطبيعي والحب والتناسل. لهذا علينا أن نحفظ أنفسنا وقيمنا. وأيّ ممارسة جنسيّة في ظروفنا غير الطبيعية تؤثر سلباً في نفسياتنا وشخصياتنا وأجسادنا».

سكتُّ قليلاً لأترقّب إذا كان أحد منهم سيسأل. قرأت في وجوههم تردّداً وخجلاً. قلت:

— «حيّدوا هذا الموضوع قدر الامكان. اقرأوا، مارسوا الرياضة، تشاركوا في الحياة اليوميّة».

لم أطلب منهم وعداً بالتزام ذلك، ولا كشفت لهم أن لدينا جهازاً أمنيّاً يراقب الأسرى وسلوكهم اليومي، وأن هناك تنسيقاً بين التنظيمات في هذا الأمر أيضاً. هذا سرٌّ لا يمكن البوح به، حتى ولو عرف بعضهم أمره، أو كان بينهم أعضاء في الجهاز.

تعمّدتُ أن يكون كلامي بصوت واحدٍ. لا أحبّذ نقاش هذا الموضوع في لقاء ابتدائي وموسّع، إذ سيغدو للنكات، وسيغدو المزاح به عاديّاً، ويسهل التعليق عليه. ونحن نفضّل ضبط هذا الأمر وإخراجه من اليوميّات.

انتقلتُ بسرعة إلى درس اللغة العبريّة، وكلّي تركيز على استجاباتهم. أُراقب مَن منهم ناء تحت ما قلته وغاص في نفسه، ومَن أجّل التفكير فيه مصغياً إلى درس العبريّة. لم أتردّد في جعلهم يشعرون بأنني ألاحظهم... وأقيّم ردود أفعالهم وأحوالهم.

— «عندما نطمئن إلى أن وضع الأسرى الجدد قد رُتّب ونظّمناهم نطالب بالتلفزيونات»، همس عمر لي ولهشام ولفتحي البوّاب، من الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين، في اجتماع اللجنة الوطنية.

ردّ هشام:

— «علينا الإسراع في ذلك. إنجاز هذه المهمة يريحنا ويفاجئ الإدارة، بينما التأخر في تنظيم جبهتنا يخدم الإدارة التي ستحاول تشتيتنا لانتزاع كل ما حصلنا عليه، كي نبدأ من الصفر، معتمدةً على أن التبادل أفقد الحركة الأسيرة قوّة، والأسرى الجدد غير منظّمين وخبرتهم النضالية داخل السجون محدودة».

شعرتُ بأن الكلام ما زال في السياسة والخطوط العريضة لاستراتيجيتنا. أردتُ أن نقترب أكثر من الواقع. فاجأتهم قليلاً بقولي إنني مطمئن لاستجابة الأسرى الجدد والتزامهم أنظمة الحركة الأسيرة والبرامج الثقافيّة في خصوص القضية الفلسطينية وقيم العيش في السجن والسلوك اليومي.

دعَمَ هشام رأيي بالقول:

— «لستُ قلقاً على وضعنا. خوفي على عسقلان. هناك سجن كبير يتسع لـ ٦٠٠ أسير، ومن الكادر الخبير بقي فيه اثنان فقط، رشيد أبو شباك ورياض الملاعبي (الاثنان من حركة فتح) بينما سجننا صغير، ٨٠ أسيراً، وإضافة إلينا نحن الأربعة هناك كادرات أخرى تدير تنظيماتها، مثل مسعود الراعي وسليم زريعي، وعلى تنسيق كامل معنا».

— «لهذا، علينا التصرّف بسرعة والتواصل قدر الإمكان مع عسقلان لمساعدة الأسرى هناك»، خفض عمر صوته.

عرضتُ أن نطرح مع الإدارة موضوع التلفزيونات، ولو من باب الاستطلاع، ولكي لا تعتبر الإدارة أننا قد نسيناه ويمكنها تجاهله.

وافقني عمر:

— «قبل أن يربطوه بموضوع آخر».

تحمّستُ أكثر. وأيّد الآخرون الاقتراح.

نقل هشام، ممثّلنا، الطلبَ إلى الادارة. سمحتْ لنا بشراء الأجهزة. فحمّلنا الأهالي، أثناء الزيارات، رسائل شفهية إلى مؤسسات في غزّة والضفّة. استجابت المؤسسات وأرسلت إلينا، في نفحة، عشرة أجهزة. فاجأتنا الإدارة باحتجازها.

راجعناها، عبر هشام، عن السبب. فردّتْ أنها سترسلها إلى شركة لكي تجعلها لا تلتقط إلاّ القناة الإسرائيلية.

ناقشنا الأمر في اللجنة الوطنية، وخلصنا إلى الموافقة.

أبلغنا الإدارة. عادت وخرجت إلينا بعقدة جديدة:

– «نعطيكم التلفزيونات شرط أن توافقوا على الوقوف ثلاث مرات، صباحاً وظهراً ومساءً، لعدّكم».

سأل هشام الإدارة:

– «لماذا هذه المفاجآت والعقد، ما دمنا اتّفقنا على التلفزيون عندما أوقفنا الإضراب؟».

رد المدير محاولاً تبرئة نفسه وجعل الموضوع أكبر منه ومن مديرية السجون، وهو ملزم التنفيذ:

– «هذا قانون صادر من اللجنة الداخليّة في الكنيست».

تقصّينا الموضوع. عرفنا أن وراء القانون نائبة في الكنيست هي غيئولا كوهين، رئيسة حركة هتحيا، أي البعث. هذه زارت سجن جنيد ولم يقف لها أحد من الأسرى. وعلمَتْ من الإدارة هناك أنَّ الأسرى لا يقفون خلال جولات العدّ التي تجري يومياً ثلاث مرّات.

أخبرنا مدير السجن أن مدير السجون، رافي سويسة، سيأتي إلى السجن، ويريد أن يجتمع إلينا. انتظرناه في زنزانتنا أنا وعمر، وانضمّ إلينا هشام ووليد الغول.

مثل المرّة الماضية، كان سويسة ودوداً وحريصاً على أن لا تأخذ الأمور طابعاً رسميّاً. انطلق من فكرة أن الأجواء بيننا إيجابيّة وأنه يعمل لتحسين أوضاع السجون.

نظر إلينا جميعاً. أومأ أنه يريد أن يطلعنا على أمرٍ مهم:

– «فلنتّفق على أن الأمور تُحلّ بيننا. قانون اللجنة الداخليّة في الكنيست يجب أن يُنفّذ. لا مفرّ من هذا. لكن كيف نطبّقه، هذه شطارتنا».

تواصلنا، عمر وهشام ووليد وأنا، بالعيون. شعر سويسة بهذا فأرسل نظراته إلينا نحن الأربعة. طلبنا منه بعض الوقت، أياماً، لمناقشة الموضوع.

ودّعنا سويسة مؤكداً أن لكل عقدة حلّ:

– «لكن الأهم، أن لا نترك الأمور تفلت من أيدينا وتكبر».

خلاصة نقاش اللجنة أن علينا الحفاظ على الإيجابيّة بيننا وبين سويسة، ولا سيما أن الأوضاع هادئة في السجون، والرجل يبدي تعاوناً في الأمور الراهنة ولتحسين الأوضاع. هو عليه ضغوط لكنه يحاول أن ينجح.

كَوَّنّا قائمة مطالب لنتقدّم بها إلى سويسة، ونعتقد أنها ضمن صلاحياته، مثل إطالة مدّة الزيارة العائلية، إدخال مواد غذائيّة من الأهل، إطالة مدّة الخروج إلى الساحة، السماح بساعة للرياضة الصباحية.

أقررنا هذه القائمة مع شرح للموقف كمشروع تتقدّم به اللجنة إلى الهيئة الكادريّة في السجن.

فعلنا. أثناء اجتماعنا إلى الكادرات ومسؤولي التنظيمات اقترحنا أن نلاقي سويسة في منتصف الطريق. كأنْ نطلب أن نقف أثناء العدّ ظهراً ومساءً، أمّا صباحاً فلا نقف، لأن هذه الجولة الأكثر إزعاجاً. فغالبية الأسرى يكونون نائمين. والمستيقظون، القلّة، إمّا يمارسون الرياضة أو يستمعون إلى الراديو مستلقين في الفراش، مستسلمين لارتدادات النوم والأحلام.

انتهى الوقت المتاح للقائنا في الباحة. افترقنا لنتابع الحوار في اليوم التالي.

أخبرني سليم زريعي أن لدى مجموعة من شباب الجبهة الشعبيّة شكوكاً في تعامل أحد الأسرى مع الاستخبارات الإسرائيليّة.

– «حتّى الآن شكوك. يرونه يتردّد كثيراً على مكاتب الإدارة ويُجالس ضابط الأمن»، همس لي من دون أن تفارق عيناه عينيّ.

أجبته:

– «هذا كان فدائيّاً في بيروت، فاحتمال تعامله حين كان هناك وارد، وإذا بدأ تعامله أثناء اعتقاله يكون قد رفس ماضيه وقدّم معلومات عن التنظيمات في لبنان».

اتفقنا على وضعه تحت المراقبة.

الجولة الثانية من الحوار في شأن الوقوف أثناء العد تمحورت حول ردود مسؤولي التنظيمات. معظمهم مسكون بالتخوّف والتوجّس من أن تستغل مديرية السجون موافقتنا على الوقوف أثناء العدّ، لتطلب أكثر:

– «ربما يأتي يوم يقولون لنا فيه، الوقوف يجب أن يكون في جولات العدّ كلّها»، قال أحدهم.

أضاف ثانٍ:

– «يعطونا اليوم مطالب، ثم يسحبونها ويقولون إن الوقوف أثناء العدّ قانون لا يمكن التراجع عنه».

ثالث:

– «ماذا نفعل إذا ازدادت شهيّتهم وطالبوا بالمزيد؟».

رابع:

– «حسناً، لعلّهم اعتبروا موافقتنا حركة تراجعيّة».

خامس:

– «غداً يمكن أن يأتي سويسة نفسه ويقول عليّ ضغوط فعليكم أن تفعلوا هذا وهذا. . . إلخ».

سادس:

– «إذا حصل هذا نصل إلى الصدام!».

تحرّك عمر مبتسماً ابتسامة مَن يرى الشعرة بين المخاوف والتطرّف، بين الافتراضات المُبالغ فيها والسياسة. فهمتُ أنه سيتدخّل لاحتواء هذه المواقف ووضع النقاش على سكّة عمليّة.

بدأ:

– «نحن لسنا معنيين بوظيفة سويسة، لكننا مستفيدون منه ومن إيجابيّته. ولسنا معنيين بالضغوط التي تُمارس عليه ببعدها السياسي والمؤسساتي الإسرائيلي، لكننا معنيون بأن لا تصل هذه الضغوط إلينا. تعاملنا معه بإيجابية لا يعني مطلقاً أننا موظفون لديه ونعمل وفق حساباته، فإذا ما ضُغط عليه نريحه نحن على حسابنا. نحن نقول العكس. نقول إن علينا الاستفادة من تلك الضغوط. وبما أنه يعمل معنا وفق قاعدة التوفيق ما بين مواجهة الضغوط أو التحايل عليها من جهة، وتحسين ظروفنا من جهة أخرى، علينا أن نمشي معه، نأخذ ما يمكننا انتزاعه منه وما يمكنه تقديمه لنا، ونعطيه ما لا يشكّل خطراً علينا، الآن وعلى المدى البعيد، ولا يضيّق علينا أو ينتزع منّا حقّاً مكتسباً. في موضوع الوقوف أثناء العد، نحن ماذا نعطيه، لا نعطيه وقوفاً مرّتين، نحن نأخذ منه وقوفاً مرّة. إذ يبدو أن هناك قراراً بتنفيذ القرار».

انتهت الجولة الثانية من الحوار حيث بدأت. كذلك الثالثة، فالرابعة والخامسة. في السادسة تزحزح الحجر قليلاً. سأل أحد مسؤولي التنظيمات وقد برد توجّسه:

— «ماذا علينا أن نفعل؟».

تدخّل هشام، شعرتُ بأنه يفعل ذلك كي يؤكّد أنَّ ما قاله عمر في المرّة الماضية، موقف أعضاء اللجنة كافّة. قال:

— «قانون الكنيست سينفّذ يعني سينفّذ، لا يمكن سويسة ومَن أكبر منه أو أصغر أن يمنع ذلك. وربّما سيتم اللجوء إلى تنفيذه بالقوّة. نحن إذ نوافق على الوقوف مرّتين، ظهراً ومساءً، نبيعها لسويسة ونأخذ منه في المقابل، تعاوناً وإيجابيّة ومطالب».

بدأ السجال يلين. وبما يشبه الاستراحة فُتحت حوارات هامسة بين هذا وذاك.

استأنفنا الاجتماع. قلت:

— «الأهم هو أن نستفيد من فترة الهدوء هذه. فلنعتبر أننا في هدنة ونشجّع رفاقنا وإخواننا في السجون الأخرى ليعملوا على إعادة بناء جبهتنا. وبما أن السجون كلّها مترابطة، جبهة واحدة، علينا أن نأخذ بالاعتبار أن من الخطأ دخول معركة وهناك سجن غير منظّم. فكما خسارة معركة في سجن تنعكس علينا جميعاً، كذلك الهدوء والإيجابية ينعكسان على السجون كلّها...».

وصلنا إلى النقطة الأساسيّة في جدول أعمالنا. قال هشام ما اتّفقنا في اللجنة الوطنية عليه:

— «موضوع الوقوف أثناء العدّ استراتيجي وحسّاس، ولا يمكن لفرد أو تنظيم أو لجنة أن تأخذه على عاتقها. لذا، سنجري استفتاءً على القرار. ونمشي وفق ما تختاره الأكثريّة».

— «وماذا عن السجون الأخرى؟»، سأل أحد الكادرات.

ردّ هشام:

— «بعد الاستفتاء نخبر السجون الأخرى النتيجة، ويقومون هم بما فعلناه نحن... وفي النهاية نصل إلى قرار موحَّد. لا يمكن لنا أن نوافق وحدنا، فالأمر سيطبّق على السجون كلّها. وإذا وافقت السجون كلّها باستثناء سجن واحد رَفض... نخبر مديرية السجون رفضنا. هذا القرار يحتاج إلى إجماع».

أطلعت عمر على المعلومات المتوافرة لدينا عن لقاءات الأسير المشتبه في تعامله مع الاستخبارات الإسرائيليّة.

شدّد على ضرورة التأكّد من أي معلومة ودراسة الحالة والوضع جيّداً قبل الإقدام على أيّ خطوة.

وعدته بإخباره بأي جديد.

كتبنا رسالة إلى الأسرى. عرضنا فيها مطلب الإدارة ومطالبنا، وشرحنا وجهة نظرنا تحت عنوان المحافظة على السياسة المتّبعة مع المديريّة. وطلبنا مناقشة الأمر في ما بينهم. والردّ علينا برسائل منفردة يبدي فيها كل أسير رأيه من دون تحفّظ ومن دون اسم، وتُسلَّم إلى موجّه الزنزانة. . . وهو بدوره يجمع الرسائل من زنزانته ويوصلها إلى اللجنة.

حصل خيارنا على ٦٣ صوتاً من ثمانين.

وضعنا تقريراً مفصّلاً. كلّفنا أسيراً، يتقن الكتابة بخط منمنم على أوراق السجائر، نسخه مرّات، لإرساله إلى عسقلان، جنيد، غزّة والسجون الفرعيّة. بعد ذلك طوى كل ورقة ولفّها دائرياً، وأحاطها بخيط وعقده، غلّفها بالنايلون وأحكم إغلاقه بنار القداحة. ثم طبقة ثانية من النايلون، وثالثة، ثم لفّها بورقة صغيرة كتب فيها اسم المتسلّم وعنوانه. وأخيراً طبقة أخرى من النايلون.

باتت الرسائل على شكل كبسولات الدواء.

حمَّلت اللجنة الوطنية المرضى، الذين يُنقلون إلى مستشفى سجن الرملة، الكبسولات هذه. ابتلعوها ليخرجوها هناك، ويسلّموها إلى مرضى آخرين من تلك السجون، يبتلعها هؤلاء ويخرجونها حين يعودون إلى سجونهم.

استغرق إيصالنا الرسائل إلى اللجان الوطنية في السجون ثم الرد علينا، بالطريقة ذاتها، مدّة أسبوعين.

اتّفق رأي جنيد مع نتيجة استفتائنا. عسقلان رفض. تفهّمنا ذلك، وكأننا كنّا نتوقّعه. فغالبيّة الأسرى هناك شبّان نقلوا من سجن غزّة بعد التبادل:

— «رؤوسهم حامية، وليس لديهم كادرات خبيرة تنقل إليهم تجربة الحركة الأسيرة». توصيف عفوي كرّرناه لدى اطلاعنا على رد اللجنة الوطنية في عسقلان.

— «لن نيأس، سنواصل الحوار معهم»، قال عمر حاسماً.

لم أره يتمنّى الحريّة كما يتمنّى الآن الانتقال إلى عسقلان ليكون مع أولئك الشبّان كي يحاورهم وينقل إليهم تجربته وثقافته.

ويا للصدف حين تعمل. نقلوا عمر ومجموعة من الأسرى إلى سجن عسقلان.

«جاءت في وقتها»، همس لي عمر في لحظات الوداع. ضحكنا، وقال وهو يهمّ بحمل أغراضه:

— «أشعر بأنني وجدتُ فرصة عمل في الخليج».

«سأفتقدك، سأشتاق إليك»، حدّثتُ نفسي ولعلّه سمعني.

بدأ التحقيق مع الأسير المشتبه في تعامله مع الاستخبارات الإسرائيليّة. اعترف وروى أنّه حين كان في بيروت كلّفه الموساد بقتل قياديّ في الثورة الفلسطينيّة وإطلاق صواريخ على مقرٍّ لمنظمة التحرير في كورنيش المزرعة.

قلت لسليم:

— «علينا فحص صحّة هذه المعلومات!».

فكّرنا بإيصالها إلى قيادة فتح. تكفّل سليم بالمهمّة. واتفقنا على أن نطلب أن يأتينا الجواب عبر إذاعة فلسطين الناطقة بلسان منظمة التحرير وتبث من بغداد.

كتبنا في رسالة ما اعترف به المشتبه فيه. وطلبنا أن تبث مساء أول اثنين من الشهر المقبل، تشرين الأول/ أكتوبر، قصيدة أحمد العربي بصوت محمود درويش إذا كانت المعلومات صحيحة، وإذا كانت خاطئةً تُبثّ أغانٍ لأبو عرب.

قلت لسليم:

— «إذا صحّ أنه عميل فسأعدمه أنا. أنا محكوم ٥٤٢ سنة ولا يقدّم هذا أو يؤخّر».

واتفقنا على أن لا نخبر أحداً بما نفعله، خصوصاً الشباب الذين كتبوا التقرير عن المشتبه فيه. خفنا أن تكون هناك دسيسة والرجل بريء.

سألَنا مدير السجن، أنا وهشام، عمّا آلت إليه مشاوراتنا في خصوص الوقوف أثناء العدّ.

نظر إليَّ هشام، ثم إلى المدير. أجابه بدقّة وحذر:

— «لا يناسبنا ولن نقف أثناء العدّ».

اكتفى بهذه العبارة. لم يفسّر ولم يوضح الأسباب كي لا يُعرف أن العقدة في سجن عسقلان. يُحتمل أن ينتقموا منه، بل المؤكد أنهم سيعاقبونه حتى يكسروه.

فوجئتُ بردّة فعل مدير السجن. عقدَ حاجبيه. أسدل رمشي عينيه كأنه ينظر إلى شيء يعرفه لكنّه وسط عتمة. وراح يهز رأسه. بقي صامتاً. شعرتُ بأنه يضمر شيئاً، بل يريد لنا أن ننتبه إلى أن لديه ما يخفيه.

عندما ابتعدنا عنه قليلاً متّجهَين إلى الباحة، سألتُ هشام إذا ما كان أحسّ مثلي. ردّ بسرعة:

— «ألاحظتَ ذلك؟».

باتت عيوننا كعيني حصان يبحث عن مضمار أو سهول ليجري.

تفسّر ما قرأناه في وجه مدير السجن. بعد أيام، صباح ١٤/ ٩/ ١٩٨٥. اختاروا سجن عسقلان، لا جنيد ولا عندنا ولا أيّاً من السجون الصغيرة الأخرى، وحشدوا فيه قوّة ضخمة. طلبوا من الأسرى هناك أن يجمعوا كل شيء:

— «الراديوهات، الوكمنات، الساعات، الثياب... وسنأخذها ولن تُعاد إليكم إلاّ عندما توافقون على الوقوف أثناء العدّ».

رفض الأسرى ذلك.

هذا ما تريده الإدارة: مواجهة لكسر الأسرى عموماً لا عسقلان وحده.

اقتحمت مجموعات القوّة المحتشدة الأقسام ورشّت الغاز. وانهال الجنود على الأسرى بالضرب. بدايةً، أصيب الأسرى بالصدمة جراء العنف الموجَّه ضدّهم. ومع تعمّم المشهد واتساعه استخفّوا بالمواجهة وربّما أغرتهم.

تعاركوا مع الجنود. أحرقوا عدداً من الزنازين وما فيها. من وقع بين أيدي الجنود كُلبش ودُفع إلى أرض الممرّات.

ساعتان وكان كل شيء في السجن حطباً ودماراً ودخاناً. وعندما أتى موعد جولة العدّ، ظهراً، أوقفت القوّة الأسرى وأحصتهم: نحو ستمئة أسير منكسر.

وعاد الحرّاس وأوقفوا الأسرى عند المساء، وفي صباح اليوم التالي.

أخبرنا عمر، عبر كبسولة، بما جرى، وبأنّه حاول إقناع الأسرى واللجنة الوطنيّة في عسقلان بمسايسة سويسة ولم يفلح. وقد شارك في المواجهة برغم عدم اقتناعه. لا يمكن النأي بالنفس والتنصّل في مثل هذه الحال. الاختلاف في الرأي

بيننا لا يعني الاستقالة. وعُزل عمر بعدها. وتوقّع عمر في رسالته أن يتحرّشوا بسجن نفحة، إن لم يكن للصدام وسحب المكتسبات التي حقّقناها، فبهدف تدميرنا كقيادة تتواصل مع السجون الأخرى وتؤثّر في الأسرى. وبعدما أكد اطمئنانه إلى ما نقوم به لفت انتباهنا إلى ضرورة اتخاذ الإجراءات التنظيمية الواجبة.

فهمنا أن الإسرائيليين عرفوا من عملائهم بأن عسقلان رفض.

ألّفنا لجان ظلّ تقوم بمهمات اللجنة الوطنية تحسّباً لعزلنا أو نقلنا إلى سجن آخر. وضعنا خطّة طوارئ، تشدّد على الامتناع عن المواجهة، تسليم الأغراض كلّها إذا طُلبت والاستمرار في رفض الوقوف أثناء العد. طلبنا إلى أعضاء لجان الظل الالتزام بها حرفيّاً.

وألّفنا في سجن عسقلان لجنة تحقيق مهمّتها الأولى تقصّي الواقع وأسباب المواجهة ومَن قادها أو حرّض عليها. وطلبنا إلى اللجنة تلك، عبر كبسولة قرار تأليفها، استطلاع إمكانات العمل لإعادة تنظيم الحركة الأسيرة داخل السجن.

مساء الاثنين الموعود، انتظرنا أنا وسليم، كلٌّ في زنزانته، بجانب الراديو.

سمعنا أغاني أبو عرب.

اكتشفنا أن اعترافات المشتبه فيه خاطئة. فكّرت باحتمال أن يكون الشباب قد قسوا عليه أثناء التحقيق فاخترع تلك القصص ليرتاح. وهذا كان استنتاج سليم الذي حذّر الشباب من التلاعب بهذه الأمور أو الاستخفاف بكرامات الناس وحياتهم.

منتصف ليلة ٧ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٥، اقتربَ من سريري، محمد أبو كويك، زميلي في الزنزانة التي نُقلت إليها قبل أيّام. قال مبتهجاً:

— «هناك سفينة إيطاليّة مخطوفة في بورسعيد».

لم أهتم. واصلت نومي.

صباحاً. أخبرني زميل آخر، في زنزانتي، كان يستمع إلى إذاعة إسرائيل:

— «مجموعة فدائيين اختطفوا سفينة في بورسعيد ويطالبون بإطلاق سراحك».

هرعت إليه. سألته إذا كانت لديه معلومات إضافيّة. أجاب بأنه لم يسمع الخبر كلّه.

أخذتُ الراديو ونقلته إلى إذاعة إسرائيل بالعبريّة. لم تُضف جديداً على ما قاله

زميلي. تحرّقتُ على الصحف العبريّة. اقتربتُ مرّات عدّة من باب زنزانتي، متقصّياً إذا ما وصلت.

أخيراً حملها المردوان إليّ، وبقي واقفاً بجانبي. صورتي في أعلى صفحاتها الأولى. قرأتُ أن أربعة فدائيين من جبهة التحرير الفلسطينيّة اختطفوا سفينة إيطالية، أكيلي لاورو، وعلى متنها ٥٥٠ راكباً من بينهم إسرائيلي واحد. ويطالبون بإطلاق سراح «المجرم الإرهابي سمير القنطار» وخمسين من الأسرى العرب، أختارهم أنا.

فكّرتُ في عمر وهشام وسليم زريعي.

فرِحْت. قلت هذا ردّ على عدم إخراجي في التبادل. استغربتُ إصرار أبو العبّاس على تنفيذ عمليات للمطالبة بتحريري. فعلاقتنا شبه مقطوعة منذ انشقاقه عن طلعت يعقوب وقيادة الجبهة واقترابه سياسيّاً من أبو عمّار، فيما اختار يعقوب البقاء في دمشق والتحالف مع الجبهتين الشعبيّة والديموقراطيّة والحزب الشيوعي الفلسطيني. والعمليات التي نفّذتها الجبهة سابقاً بهدف تحريري، حصلت قبل الانشقاق. أولاها في تمّوز/ يوليو ١٩٧٩ حين كنت لا أزال أخضع للتحقيق، تسلّل ثلاثة فدائيين، مروان مصطفى، عادل الموصللي، عبد الملك شريف، وأسروا عدداً من الجنود لكنّهم حوصروا واستُشهدوا. وثانيتها، في آب/ أغسطس ١٩٧٩ بحريّة حملت اسم القدس، استُشهد فيها غازي خليل، قائد العملية، وأسر كلٌّ من محمد ديب منصور وخالد شاهين وحمزة الباكستاني (من باكستان)، وثالثتها في تموز/ يوليو ١٩٨٠ عمليّة منطاد استُشهد فيها غسان الكاخي، ورابعتها في ٧/ ٢/ ١٩٨١ حاول فيها فدائيّان يقودان طائرتين شراعيّتين دخول فلسطين المحتلّة لاحتجاز رهائن، الطائرة الأولى ألقت قنابل فوق مستعمرة وأسر قائدها جمعة اليوسف والثانية حصل فيها خلل فنّي وسقطت في الشريط الحدودي بلبنان. وخامستها عمليّة المنطاد في ١٦/ ٤/ ١٩٨١ هبط قائداه في منطقة المنارة وخاضا اشتباكاً مع قوّات من الجيش الإسرائيلي واستُشهدا.

فكّرت أن أبو العبّاس يفعل ذلك لكونه كان قائدي أثناء تنفيذي العملية أو لجذبي سياسياً وتنظيمياً إليه.

وضعتُ كل هذا جانباً وتذكّرتُ أيامنا الجميلة في بيروت.

أثناء الفورة بحثتُ عن الشرطي الذي يتعاون معنا مقابل بعض المال. حين تلاقت عيوننا ابتسم. اقتربتُ منه لأطلب إليه إفادتي ببعض المعلومات التي لم

تُتداوَل في الإعلام بعد. لم أسأله عمّا يعرفه، فهو وإنْ كان يعرف شيئاً لن يقوله الآن، مجاناً. سيؤدي كالعادة دور المتقصّي الباحث في فم الأسد عن المعلومات، ليرفع سعره.

أعطيته إشارة الانطلاق واختفى.

نظرات الشباب في الباحة جعلتني أشعر بأنهم يتحدّثون عن العمليّة. غير واحد اقترب منّي ليقول لي عبارة سمعها أو قرأها عن العمليّة، وبعد ذلك يسأل عن آخر الأخبار. وأنا قلق أنتظر الشرطي.

لمحته عاد إلى مدخل الباحة. تسلّلتُ نحوه. همس لي:

— «يبدو أن الحكومة ستتجاوب مع الخاطفين إذا ما طلبت إيطاليا ذلك. فمعظم ركاب السفينة إيطاليون وبينهم ألمان وأميركيّون».

تَضاعفت فرحتي. اتّسعت. لكن أصابني الخَرَس. كأن هذا الوقت للسمع لا للحكي. ولا كلمة، وأذني للراديو وعيني لأقرأ. حتى إن شفتيّ اللتين تتحركان قليلاً أثناء القراءة باتتا ساكنتين ثقيلتين.

في اليوم الثاني لاختطاف السفينة وقف الشرطي في مكانه، ينتظرني ليقول ما لديه بسرعة وخلسة أثناء عبوري إلى الباحة:

— «الحكومة طلبت ملفّك من مديرية السجون، وهذه إشارة إيجابيّة».

تابعتُ سيري إلى الباحة. انتحيتُ زاوية وجلست. فرحتي تمنعني من القراءة ومن أي شيء آخر إلاّ التفكير الاحتفالي. لكن عليّ قراءة الصحيفتين، «يديعوت أحرونوت» و«معاريف»، لكي أمرّرهما إلى الآخرين. قرأتُ أن الخاطفين قتلوا راكباً أميركيّاً معوّقاً، كلينغ هوفر، ورموا جثّته في البحر. أحسستُ أن الموضوع بدأ يتعقّد. أردتُ أن أسأل الشرطي متى طلبت الحكومة ملفّي، قبل مقتل الأميركي أم بعده، لكنه اختفى.

قلت إذا بات هناك قتلى بدأ العدّ العكسي. لكن في أيّ اتجاه؟ سألت نفسي. صرتُ رهينة القلق.

في اليوم الرابع، سمعتُ أن هناك مساعيَ دبلوماسيّة لحل مسألة السفينة. عدتُ متفائلاً على رغم حيرتي في تفسير معنى «مساعٍ دبلوماسيّة»، أهو إيجابي أم سلبي؟ أيعني أن المساعي الدبلوماسيّة لحل أزمة الرهائن الإيطاليين والألمان والأميركيين، أم لتنفيذ شروط الخاطفين؟ قلقتُ من دخول مصر على الخط. وقلتُ هذا لا شك

حاصل لكون بورسعيد ضمن أراضيها. وزكّى تفكيري هذا قراءتي أن خطّة عملية الخطف كانت تقضي بأخذ السفينة إلى ميناء أسدود لا إلى بورسعيد، لكن أحد عمّال السفينة دخل كابينة الفدائيين الأربعة فجأة، ووجدهم يستعدّون وسلاحهم موزّع على الكنبات والأرض. فهرب ليخبر عنهم. ما استدعى استعجالهم بدء التنفيذ بين الاسكندريّة وبورسعيد.

معنى هذا، إضافة إلى أن هدف العملية هو فلسطين المحتلة، تجنّب مصر، التي تجمعها بإسرائيل اتفاقية كامب ديفيد، قلتُ هذا لنفسي.

انتهى حلمي ليلاً. سمعتُ أن الخاطفين سلّموا أنفسهم للسلطات المصريّة بعدما تلقّوا اتصالاً باللاسلكي من أبو العبّاس، الذي انتقل إلى القاهرة، بعد تدخّل أبو عمّار لديه ولدى مصر، لمواكبة الفدائيين عبر الطائرة إلى تونس.

بغضب قلت في سري:

«أبو عمّار هو مَن يقوم بالمساعي الدبلوماسيّة! أسوأ مَن فاوض الإسرائيليين في عمليات من هذا النوع هو أبو عمّار. يفكّر في ماذا يعطي لكي يبيّض صفحته ويحدّثه الإسرائيليون والأميركيون، قبل أن يفكّر ماذا يأخذ. ساعة هو ثورة حتى النصر، وأخرى هو صليب أحمر ودبلوماسيّة».

عزّاني في ذاك الليل، أنني لستُ منسيّاً، وأن ثمّة محاولات لتحريري. وانشددتُ، قلقاً على منفّذي العمليّة، إلى أخبار اعتراض طائرات عسكرية أميركيّة الطائرة المصريّة التي تقلّهم إلى تونس واضطرّت طائرتهم إلى الهبوط في جزيرة صقلية الإيطالية في قاعدة سنغولا العسكرية. ورفضتْ إيطاليا تسليم الفدائيين إلى أميركا، واعتبرت أن ما قامت به طائراتها الحربية قرصنة وتخالف الاتفاق الذي أُبرم لحلّ أزمة السفينة. وكاد يقع اشتباك في مطار صقلية بين الجنود الأميركيين والجيش الإيطالي... إلى أن انتهت الأزمة بينهما بإعلان إيطاليا محاكمتها الفدائيين يوسف ماجد الملكي، عبد اللطيف إبراهيم قطاير، خالد حسين وبسّام الأشقر، على أراضيها.

أبو العبّاس نُقل إلى طائرة أخرى، أقلّته إلى يوغوسلافيا.

كرهتُ أبو عمّار وعامل السفينة الذي كشف الفدائيين وغيّر مسار الأحداث كلّها.

عرضنا على مدير السجون، رافي سويسة، طلب السماح لكل أسرة فلسطينيّة تزور الابن أو الزوج في السجن، أن تزور معه أسيراً عربيّاً، ممّن لا يزورهم أحد. أخذ وقته للتفكير، وردّ علينا بالإيجاب.

اختارتني أسرة رفيق معنا، نزار شرافي. سُجِّل اسمي في برنامج الزيارات للشهر المقبل. دخلنا غرفة الزيارات. هذه المرّة الأولى التي أراها. كأنّها غرفتان متلاصقتان، تفصل بينهما نافذة مقفلة بشبك حديدي يرى الأهل والأسرى بعضهم بعضاً ويتحدّثون من خلاله. وفي أسفل النافذة بلاطة على شكل طاولة. وفي موازاة النافذة، من الجهتين، يمتد مقعدان طوليّان يتسع كلٌّ منهما لعشرة أشخاص. ولكلٍّ من الغرفتين باب، نحن نصل إلى بابنا عبر ممر داخل السجن، وباب الأهل من جهة الباحة الخارجيّة التي ينتظرون فيها أدوارهم تحت الشمس أو المطر وبين الأفاعي والحشرات.

تعرّفتُ إلى أم نزار. امرأة مسنّة تتكبّد مشقّة المجيء من غزّة والانتظار خارجاً لساعات حتى يأتي دورها.

أخبرتنا أنَّ أمّاً تبكي في الخارج بعدما تكبّدت عناء الانتقال لساعات من غزّة، ووجدت ابنها منقولاً إلى سجن آخر.

أخذتني مآسي الأسر من فرحتي بأم نزار.

سألتني:

— «يا أمّي كيف حالكم؟».

وبصوتٍ مبحوح مشحون بالعاطفة، قالت:

— «انتبهو من الأفاعي يمّا».

داريتُ انفعالي وأخفيتُ دمعتي خلف الشبك الفاصل بيننا أنا ونزار والأسرى، وبينها هي والأمهات من الجهة الأخرى.

رغبتُ في الابتعاد والبقاء وحدي. خجلتُ أن أنسحب. تمنّيتُ أن ينتهي وقت الزيارة، لكني بؤتُ بذنبي لهذا الرجاء الذي يحرم الأمهات والأسرى، ومنهم أم نزار ونزار، من رؤية بعضهم بعضاً والارتواء. بقيتُ جالساً أغالب نفسي لأبتسم في وجهها بين حين وآخر.

— «ليش ساكت يا ابني؟»، سألتني قلقة مرّات عدّة.

— «لتتحدّثي مع نزار».

— «أنت وهو ابناي يا أمي».

خلاص. أنهتني هذه الكلمات. أحسستُ أنني ماءٌ انساب أرضاً وبقي جسدي أمامها، مثل هرم جامدٍ بينما يخفي أسراراً كثيرة.

«أين أنتِ يا أمي، كيف أبي وإخوتي؟». امتلأ فمي دمعاً، كأنَّ الماء الذي شعرت بأنّه انساب منّي عاد فوّاراً، وأقاومه كي لا يخرج من عيني.

كنتُ أحسَب ونحن نطلب من سويسة أمر الزيارات هذا، أننا نخوض جولة... والهدف هو الفوز بها. ما أقساها. ما أقسى الفوز أحياناً.

— «توزيعنا على السجون، نحن إلى عسقلان، وهشام وسليم إلى شطّة، يعني أنهم يحضّرون لمواجهة كسر عظم يكون فيها الأسرى بلا قيادات»، قلتُ لمسعود الراعي ووليد الغول، أثناء نقلنا وأسير رابعاً إلى سجن عسقلان.

تأكّد لنا هذا حين أُدخلنا، في سجن عسقلان، زنزانة تتّسع لـ١٧ شخصاً، وتركوها لنا وحدنا:

— «لماذا؟»، سألنا الضابط.

أجاب:

— «ممنوع أن تلتقوا الأسرى الآخرين».

دبّرنا أمور نومنا وجلسنا نرتاح.

في اليوم التالي، أخرجونا إلى الباحة وحدنا. توقّعنا هذا. عَرفَنَا بعض الشباب ممّن تطلّ شبابيك زنازينهم على الباحة. ونحن عرفناهم، فإنْ لم نلتقِ هنا، فقد جمعتنا سجون أخرى. سألنا كل مَن يقف إلى الشباك مَن معه في الزنزانة والقسم. استطعنا تكوين قائمة بالموجودين وتوزيعهم.

عرفنا أماكن أعضاء لجنة التحقيق التي أنشأناها بعد المواجهة. تواصلنا مع بعضهم عبر رسائل نبعثها مع شباب الشبابيك. ووصلتنا منهم تقارير مفصّلة عمّا جرى.

لم يفاجئنا الانكسار والتشتّت، صدَمنا استقواء الحرّاس على الأسرى وإهانتهم ضرباً وصفعاً ومنعهم من الخروج إلى الباحة أو اللقاء مع الأهل بحسب مزاج الضابط.

أيام وانتقل الحوار عبر الشبابيك من الاطلاع والشكوى إلى تنظيم الأسرى. عجّلنا في هذا عندما وصلتنا رسالة من نفحة تخبرنا أن الإدارة أحضرت قوّة ضخمة إلى السجن وطلبت إلى الأسرى تسليمها الراديوهات والوكمنات والساعات والثياب، وكل ما أحضره الأهل في الفترة السابقة. ولن تُعاد هذه الأشياء إلاّ إذا وافق الأسرى على الوقوف أثناء العدّ وثلاث مرّات يومياً.

كأن الإدارة سعت إلى إعادة سيناريو عسقلان والمواجهة. لكن لجان الظلّ التي ألّفناها قبل نقلنا أحبطت الخطّة. جمع الأسرى كل ما تطلبه الإدارة ووضعوه عند أبواب الزنازين. وقالوا للمدير:

— «لا نريدها ولن نقف أثناء العدّ».

انقلب السحر على الساحر. راح المدير يعرض إعادتها وإعطاء المزيد... «لكن اقبلوا بالوقوف أثناء العدّ».

وصل الأمر إلى حدّ التوسّل. والأسرى رافضون.

أخبرنا هذه القصّة لبعض الأسرى، عبر الشبابيك. فنقل إلينا أحدهم أن هذا حصل في سجن جنيد أيضاً.

ارتفعت المعنويات لدى الأسرى خلف الشبابيك أكثر منّا. نحن كنّا نبحث عن التنظيم.

بدأنا نعدّ لإضراب.

راسلنا نفحة وجنيد. حدّدنا الموعد، في ٦/ ١٢/ ١٩٨٥، وبرّرنا الإقدام على الإضراب في فصل الشتاء، الذي نتجنّبه لأنه يستهلك طاقة كبيرة من الجسم فيتعب المُضرب بسرعة: وضع حدّ لتمادي الإدارة، وقبل هذا لإعادة الثقة والاعتبار إلى سجن عسقلان.

انطلق الإضراب. لا مفاجآت في اليوم الأول. نسبة الأسرى المضربين عالية جدّاً، أكثر من ٦٠ في المئة. ممتاز.

صباح اليوم التالي، استغبت الإدارة، وتحت رغبتها في التخلّص مني، أعادتني إلى نفحة. وُضعتُ في زنزانة غير زنزانتي التي كنتُ فيها أنا وعمر، وأخفي فيها أغراضاً عدّة. فوجئتُ بأن الأسرى غير مضربين. اتصلتِ على الفور بلجان الظلّ. عرفتُ أن رسالتنا لم تصل.

قبل أن يوزّع فطور اليوم التالي، طلبتُ من الجميع عدم تسلّمه، والانضمام إلى إضراب سجنَي عسقلان وجنيد.

علمَتْ الإدارة أنني مَن حرّض على الإضراب. جاء مدير السجن ونائبه وضابط ثالث لإبعادي عن السجن. وأنا بينهم، في الممرّ، تبادلوا حواراً حائراً وغاضباً:

— «إلى أين نرسله؟».

— «ألا يكفي أننا أخطأنا وجئنا به هنا؟»

— «إذا نقلناه إلى سجن آخر، فسيفعل ما فعله هنا».

لم أخفِ ابتسامة التحدي والهزء منهم.

قرّروا، أخيراً، إعادتي إلى الزنزانة. لم يوجّهوا إليّ أيّ كلمة.

من اللحظة الأولى، أنا مقتنع بأننا خسرنا معركة الوقوف أثناء العدّ.

اجتمعنا، كادرات سجن نفحة، في الباحة. وقد حضر معنا عدد من الأسرى الجدد الذين أثبتوا التزامهم قوانين الحركة الأسيرة. عرضتُ لهم رأيي في معركة العدّ. وقلت:

— «همّنا الآن في عسقلان وإنهاء الوضع فيه، تشتّت وشتائم وإذلال وافتقاد مرجعية وقيادة».

اتّفقنا على أن قرارنا، الآن، في عسقلان. كذلك فعل سجن جنيد، الأكبر بين السجون. وهذا ما أخبرنا به الإدارة عندما أتت تستطلع موقفنا.

أعطى هذا دفعاً معنويّاً للأسرى في عسقلان.

ركّزت مديرية السجون مفاوضاتها على عسقلان. مثلما توقّعنا، انطلق الإسرائيليون من أن الوقوف أثناء العدّ قرار لا رجعةَ عنه. طالبت لجنة عسقلان بإعادة المكتسبات كلّها ومعها التلفزيون. بدت الشروط واضحة. التلفزيون مقابل الوقوف أثناء العدّ.

لم نكن نطلب أكثر من هذا. ثمن خطأ ارتُكِب وعلينا سداده. وفوق هذا، بحثنا قبل الإضراب وأثناءه طاقة الأسرى عموماً وفي عسقلان خصوصاً. وكان التشخيص الأكثر واقعية هو أن استمرار الإضراب إلى عشرين أو ثلاثين يوماً فوق قدراتهم، ويعرّضنا لاحتمالات خطرة، منها تسرّب أسرى من الإضراب تحت وطأة التعب أو الضغوط التي تمارسها الإدارة. فمعظم الأسرى، كما لا يمكن أن ننسى

للحظة، جدد. والعقاب المعنوي والمادي الذي اعتمدناه ويمكن أن يناله المنسحب يغدو أمراً لاحقاً، وربما يُستخفّ به، بينما هو موجود أصلاً كقانون وقائي ووازع لالتزام الأسير بالإضراب.

عندما رسا التفاوض، في اليوم الثامن، على الوقوف أثناء العدّ مقابل التلفزيون، أوقف الإضراب.

لا أذكر أننا تبادلنا التبريك. فالجميع كان يفكّر أننا لم نخض المعركة لمطالب بل لإعادة الأوضاع إلى سكّتها الطبيعيّة.

أعادوا هشام وسليم زريعي من العزل في سجن شطّة، إلى نفحة. طالبنا بإعادة مسعود ووليد والأسير الثالث الذين نُقلت معهم إلى عسقلان، إلى حيث كانوا هنا معنا. ردّت الإدارة بأنها ستُخرجهم من العزل، لكنها ستبقيهم هناك. وافقنا.

سلّمت اللجان الوطنية في السجون الثلاثة التقارير ومحاضر المداولات والجلسات مع الإدارة إلى لجان تقويم الإضراب، التي أُلفت في السجون. بحثت لجان التقويم، بدايةً، في أداء الأسرى خلال الإضراب، ثم استعادت الأسباب التي دفعت إلى الإضراب، ثم الأهداف في حدّيها الأدنى والأقصى، ووصلت إلى النتائج.

تبادلت تلك اللجان تقاريرها بهدف صوغ تقرير شامل.

بدأ الجدّ.

نزاعٌ داخلي، نفسي، عند كلّ منّا. فالتقرير يجب أن يكون صادقاً وجريئاً كي يؤدّي الغرض منه: أخذ العِبر.

وصوت آخر يقول:

— «ما دام الهدف من التقرير التعلُّم من أجل الإضرابات المقبلة، فلماذا نشهّر بالمخطئين والمقصّرين؟».

— «لا يبدو هذا الرأي مقنعاً لكنه استفزازي. ولا يتسامح مع المخطئين وحسب بل يفتح ثغرة لاحتمال بقائهم في مواقع قياديّة».

حسمتُ خياري باكراً: مع استقلاليّة اللجان وحياديّة عملها وجرأة التحقيق وخلاصاته.

آزرني في هذه الرحلة الوجدانيّة والأخلاقيّة والسياسيّة رفيقي الجديد في الزنزانة، جبر وشاح، مسؤول عسكري في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، مدرّس في جامعة الأزهر بغزّة ومحكوم بالمؤبّد. وقد سمّته الجبهة ليمثّلها في اللجنة الوطنية.

يذكّرني جبر بعمر القاسم. لا شبه بين هيئتيهما. جبر أقصر قامة من عمر. وهو أسمر بينما عمر ازداد بياضاً خلال سنوات السجن. لكني أشعر بأنهما توأمان، أو صديقان نمَتْ شخصيّتاهما معاً، فتشابهتا.

أنجزت لجان التقويم في السجون تقريرها. سلّمتنا نسخة منه. خلاصته، أننا حقّقنا إنجازاً في إعادة الثقة والاعتبار إلى سجن عسقلان والأسرى فيه. حقّقنا الممكن من الإضراب، وهو إعادة الوضع إلى ما كان عليه ولم نتنازل عن مكتسبات إضراب ١٩٨٤، وأخيراً تحميل مسؤولية الانتكاسة لقيادة سجن عسقلان أثناء المواجهة، ولا سيما عبد الله أبو سمهدانة ورشيد أبو شباك. ويقتضي هذا استبعادهم من القيادة.

الاستبعاد لم يكن من جهتنا وحسب. تسلّم إسحاق شامير رئاسة الحكومة من شيمون بيريز. بدأت وسائل الإعلام تنشر وتذيع وتبثّ أخباراً ضد رافي سويسة. اتُّهِم بالتقصير والفساد والتعاون مع السجناء الأمنيين. وترافق ذلك مع حركات انقلابيّة عليه واستخباريّة من ضباط في مديرية السجون. منهم مَن يسرّب معلومات إلى الإعلام، ومنهم مَن يكتب التقارير التي تنال منه وتشكّك فيه.

أُعيدَ إلى بيته. عُيِّنَ بدلاً منه الحاكم العسكري الأسبق على قطاع غزّة ومدينة صيدا أثناء الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان، ديفيد ميمون، من أصول يمنيّة.

— «لئيم وقذر»، وصفه جبر ورفاقنا الغزّاويّون.

عمّمنا على السجون كلّها وجوب الانتباه والاستعداد لأيّ تطورات.

افتتح ميمون عهده بإلغاء مطلبين حقّقناهما في إضراب ١٩٨٤: التزاور داخل السجن، أي انتقال الأسير لساعتين يومياً إلى زنزانة أخرى غير التي يقيم فيها، وانتقال الأسرى ضمن السجن وفق قائمة تقدّمها اللجنة الوطنية شهرياً، استناداً إلى طلبات التنظيمات التي تعدّ دورات وبرامج تثقيف تستوجب تلك المناقلات.

«أهو يستدرجنا إلى معركة، أم يأخذ مكاسب؟»، سألنا أنفسنا، في اجتماع اللجنة الوطنية.

– «في كل الأحوال، هو يأخذ ويستطلع بالنيران قدراتنا وردود أفعالنا»، قال جبر.

– «الأخطر في الموضوع أنه يتصرّف وكأنّنا غير موجودين ولا يتعب نفسه ويتعامل معنا»، قال هشام وراح يفكّر في معنى هذا وأهدافه.

استنفر الأسرى السجون كلّها وصار الشغل الشاغل: كيف نردّ عليه؟

اتخذت اللجان الوطنية في السجون الثلاثة، جنيدة وعسقلان الكبيرين، ونفحة ذي المكانة المعنوية القياديّة منذ افتُتح في عام ١٩٨٠، قرار بلورة إضراب عام عن الطعام. ألّفنا لجان ظلّ وكثّفنا برامج الاستعداد.

في هذه الفترة جاؤوا باثني عشر أسيراً جولانيّاً من سجن عسقلان. كانوا هناك في غرفة الزيارات وقُبض على أحدهم يهرّب رسالة إلى أسرته. اصطدموا بالحرّاس فنُقلوا إلى نفحة عقاباً. نفحة أبعد من عسقلان عن الجولان، ما يجعل الطريق أطول على أهلهم في الذهاب والإياب. لكنّ الإدارة اضطرّت إلى إبقائهم معاً لأن أُسرهم تترافق أثناء الزيارات.

وزّعوهم عندنا على الغرف. تعرّفتُ إليهم في اليوم الأول. فطلب غير واحد منهم، هايل أبوزيد، صدقي المقت، بشر المقت ومدحت صالح، أن نعمل على جمعهم في زنزانة واحدة. فَهُمْ من بلدات متجاورة وأصدقاء.

قصدتُ مدير السجن لهذه الغاية، صحيح أن مديره الآن هو ميمون القاسي، لكنه هو لا يريد مشاكل. استجاب لطلبي. فرز الجولانيين على زنزانتين. انتقلتُ أنا إلى واحدة منهما للعيش مع سبعة منهم.

لا ينتمون إلى حزب أو تنظيم. شكّلوا في ما بينهم حركة المقاومة السريّة في الجولان ونفّذوا عدداً من العمليّات. أحرقوا مركزاً عسكرياً، زرعوا لغماً انفجر تحت جندي بُترت ساقه. وتراوح الأحكام الصادرة بحقهم بين سنتين و٢٧ سنة. وانطلقنا بورشة ثقافيّة وقراءات وجلسات تنظيمية وحوارات سياسية.

حان الموعد الثاني لزيارة أم نزار. الزيارات تحصل كل يوم جمعة، ويحق للأسرة زيارة في الشهر. مشيتُ مع أخي، نزار، إليها. تزامن ذلك مع زيارة أم جبر وشاح. رافقنا جبر. لم يبح لي أن أمّه أيضاً سجّلت اسمها مع أسرتي لزيارتي. نطق بسرّه عندما وصلنا إلى غرفة الزيارات:

— «لكَ إخوة كثر هنا»، قال لي وهو يصافحني استجابة ليدي الممدودة. وجلسنا على المقعد الطولي، بمواجهة مقعد الأهل.

— «الله يخلّيكم لبعض»، دعت أم جبر وأم نزار معاً في الجهة المقابلة.

الْتَهى جبر بحديثٍ هامس مع زوجته.

— «كيف صحّة أبوك يا ابني؟»، سألتني أم جبر.

— «الحمد لله، منذ مدة لم تصلني منه ومن أهلي رسائل»، رددتُ وأنا أنظر إلى جبر. عرفتُ أنه مَن أخبرها في المرّة الماضية أنني قلق على أبي المريض.

— «الله يطمّنك عليه».

امرأةٌ قويّة، نموذج للمرأة الفلسطينيّة. فكّرتُ في هذا وهي وراء الشباك تضبط المنديل فوق رأسها:

— «والله قلبي انفتح لك، حدّ جبر قعدت فيه»، قالت والتفتت إلى أم نزار على يسارها:

— «يا خالتي اتركيه لي»، خاطبتها. غرقنا أنا وجبر ونزار بالضحك. وازداد ضحكنا وهي تضيف:

— «أنتِ امرأة كبيرة، وتتعبك الزيارة».

آخ ما أقواها.

— «تعبَّتْ فيها»، همس جبر لي ولنزار.

خاطبتها: «يا خالتي» لتجعل أم نزار تشعر بأنها مسنّة وبأنها هي، أم جبر، صغيرة، رغم أن الفارق في السنّ بينهما ليس كبيراً. قالت لها ذلك لتقنعها بأن الفارق في الهمّة بينهما يخوّلها أن تكون أمي، أو أُمّاً لاثنين، أنا وجبر، بينما أم نزار، المسنّة، بالكاد تقدر على رعاية ابن واحد.

أشعرتني بأن عليّ طلب أمّهات يتنافسن للفوز بي.

— «افرح يا عمّ»، قال لي نزار ضاحكاً.

الموقف الكوميدي الذي أخرجَته ومثّلته أم جبر خفّف عني الإحراج الذي كنتُ سأقع فيه لو كان الكلام جديّاً.

– «خلاص، أعطيكي نزار»، أضافت أم جبر. فعاجلتها أم نزار:

– «خذي أنتِ نزار، أنا أريد ابني سمير».

– «يا ألله، شو هالعلقة؟!»، قال جبر مغشياً.

– «هيك بتتركيني يمّه»، أدّى نزار دور المتروك المعاتِب.

ما أروعهما. قلبي في صدري مثل عصفور يقفز.

– «أنتما أُمّان لي، أريدكما معاً».

– «الله يخليلك أمّك وأهلك»، دعتا معاً.

لو أستطيع احتضانكما. نظرتُ إلى كلّ من نزار وجبر. تمنّيتُ أن يستطيعا احتضان أميهما.

وضعتُ يديّ فوق الشبك. ألصَقَتْ كلٌّ منهما يداً بإحدى يديّ.

ابتسامتي المتوتّرة لا تخفي صور أهلي في عبيه.

أخيراً، أحضروا التلفزيونات. وضعوها عند مدخل الأقسام وطلبوا إلينا نقلها إلى الزنازين. أتى بالتتالي من كل زنزانة أسير وحمل تلفزيوناً. ١٠/٥/١٩٨٦ عيد التلفزيون في نفحة. انهمكنا جميعاً بترتيب الأماكن لها ووصلها بالكهرباء. وكل زنزانة تلمع فيها الشاشة وتظهر عليها الصورة الملوّنة، يعلو فيها التصفيق. اكتمل الابتهاج خلال دقائق.

– «لا توجد إلاّ قناة إسرائيل»، عبارة تخرج من هنا وهناك.

– «أفضل من لا شيء»، ردّ يفتح على التفكير أننا في الإضراب التالي سنحصّل قنوات أخرى... عربيّة.

عند التاسعة والنصف ليلاً، قطعوا الكهرباء عن التلفزيونات.

عرضتُ على هشام وجبر، في اجتماع اللجنة الوطنية، ضمّ ممثّل لحركة المقاومة السريّة في الجولان المحتل، إلينا:

– «هم تنظيم صغير لكنهم موجودون».

تريّث هشام كعادته في الإجابة. استغرق في التفكير وسأل من باب الإلمام بالأسباب الموجبة:

– «ماذا يقدّم أو يؤخّر وجودهم في اللجنة الوطنية؟».

ردّ جبر:

– «الاعتراف بهم ينعشهم معنوياً ونفسيّاً وضرورة لاستمرارهم كمقاومة عربيّة في الجولان المحتل».

تبعته بحماسة:

– «لديهم مطالب خاصة بهم ومفيد لنا ولهم ضمّهم إلى الحركة، كي لا يبقوا جزيرة».

ما إن انتهيتُ من عبارتي حتى قال جبر وكأننا، أنا وهو، أوركسترا متّفقان قبلاً على ما نقوله:

– «انضمامهم إلى اللجنة مساهمة في نقل تجربة الحركة الأسيرة وخبرتها في النضال والعمل التنظيمي والتفاوض إلى مقاومتهم. لنفترض أن الاحتلال أقام في الجولان سجوناً ونقل رفاقنا الموجودين معنا الآن، أو غيرهم، إلى هناك، ينقلون معهم التجربة والخبرة».

– «وهذه رسالة إلى الاحتلال ومديرية السجون بأننا موحّدون»، قلت.

تأهّب هشام، قبل أن أضيف أنا وجبر أيّ كلمة، كأنه مستعجل في إبداء الموافقة وعدم معارضتنا:

– «مَن تريان أنه مرشّح لتمثيلهم؟».

– «فلنطلب إليهم أن يختاروا هم ممثّلهم»، رددتُ بسرعة. وهزّ جبر رأسه.

عبّر هشام عن امتعاضه من إعدام عمر القاسم أسيراً معه في سجن الرملة، متَّهماً بالتعامل مع الاستخبارات الإسرائيليّة.

قلت:

– «لا يُقدِم عمر على إعدام أسير إلا إذا أثبت التحقيق مع المتّهم والمعلومات عنه أنّه يتعامل».

اكتفيت بهذا وكلّي يقين بأنَّ هشام يعرف حكمة عمر. فهو لا يخنق شخصاً بيديه ويسلّم نفسه إلى الإدارة معترفاً بإعدامه العميل إذا لم يكن متأكّداً مئة في المئة

من أنَّ هذا الشخص عميل. فإذا فعل ذلك من دون إثبات واقتناع يكون قد ارتكب جريمة لا يسامح نفسه عليها، ويكون قد جعل الإسرائيليين يضحكون عليه وعلينا لأنّنا نقتل بعضنا بعضاً، وسيستفيدون من ذلك للتحريض والفتنة.

لم يشك هشام في ذلك، بل جزم اقتناعه به. كرّر موقفه الذي أعرفه بالتريّث في إصدار حكم الإعدام وتنفيذه. يخاف من الاستعجال في ذلك، ومن أن يكون المتّهم بريئاً، كما اكتُشِفَ غير مرّة بعد فوات الأوان وتنفيذ الحكم. ويقلق من ردود الفعل، ولا سيّما إذا كان المتّهم عضواً في حركة فتح لا في جبهة عمر، الديموقراطيّة.

عرضنا عليه، أنا وجبر، أن يسأل عمر عن دوافعه إلى إعدام ذاك الشخص. وطلبنا إليه أن يهدّئ عناصر فتح والأجواء، ريثما تتضح الصورة.

بعد أيّام أبلغنا رفاقنا الجولانيّون أنّهم انتخبوا عصام أبو زيد.

نقلوني في الشهر الثالث من عام ١٩٨٧ إلى سجن عسقلان. التقيتُ في الباحة بهشام الذي سبقني بمدّة وجيزة. فوراً، أخبرني أن العمل جارٍ للبدء بإضراب اعتراضاً على سوء الطعام والعلاج الصحّي وعلى سحب ميمون مكاسب إضراب ٨٤، ولا سيما التزاور والمناقلات...

بدأنا الإضراب في الشهر الرابع. الطقس مؤاتٍ، لكن سجن جنيد مرتبك ومشتّت. لم أشعر بأننا في إضراب بل صيام وحسب. والمفاوضات بقيت بين إدارات السجون وممثّلينا ولم تؤتِ إلا وعوداً في الهواء. انتهى الإضراب من دون أن يقدّم أو يؤخّر.

أتممتُ شهراً في عسقلان وأعادوني إلى نفحة. صرتُ أشعر بأنني ولدتُ في نفحة، وبأن هذا السجن بلدي. حتى إن الطقس، رغم تطرّفه بين الحرِّ صيفاً والبرد شتاءً، يناسبني ويريحني من نوبات الربو.

«لكنني لن أموت فيها»، هذه العبارة المتردّدة في رأسي صدى لفكرة الفرار.

نقلوا الأسرى الجولانيّين إلى سجن آخر.

كنت أهمّ خارجاً من غرفة الخياطة، حيث أصلحت قميصاً عتيقاً لي. دخل ميمون برفقة مدير السجن. تسارعت دقّات قلبي. استفزّني وجوده متبختراً واثقاً

بيننا، وسط إجراءات أمنيّة مشدّدة. خرجت غاضباً. التقيت، في الباحة، رشيد أبو شبّاك والتوتّر بادٍ عليّ. سألني هل جرى حديث بيني وبين ميمون.

في هذه اللحظة اتجه ميمون نحونا. تأهّبنا أنا ورشيد كأنّنا اتفقنا على محادثته. اقترب. تحرّكنا. صار بجانبنا. طلبنا محادثته.

ردّ بعنجهيّة سائلاً عن صفتنا.

فيما أجاب رشيد بأنّنا ممثّلا الأسرى، قلت:

— «اختر الصفة التي تريد. نحن نسألك إلى أين تسير بهذا الوضع».

غَضب:

— «لا ممثّل للأسرى. أنا لا أعترف بهذه الهرطقات».

رفع صوته فجاريناه. قلت:

— «قل ما تريد، تعترف بنا رغماً عنك».

— «لا أحد يلوي ذراعي. لا أفاوض مخرّبين».

رددنا أنا ورشيد معاً:

— «نحن أسرى، وليس بإرادتك تلغينا أو تعتبرنا غير موجودين».

— «أسرى؟ اذهبوا إلى السجون العربيّة كي لا تخرجوا منها، نحن نطعمكم ونُشربكم ونحافظ على حياتكم».

— «لا نريد سجنك».

— «لن أترك لكم شيئاً. لا تلفزيونات ولا راديوهات، لا ثياب من الأهل ولا صحف».

— «خذ ما تشاء، لكن في النهاية، ستأتي رغماً عنك وتفاوضنا».

ابتعد متمتماً.

استلقينا أنا وجبر على الأرض. أسندنا ظهرينا إلى حائط الزنازين.

قلتُ له:

— «علينا التخلّص من ميمون الكلب هذا. ها قد أخفق الإضراب نتيجة ضغوطه وسياسته، ويسحب منّا المكاسب والحقوق ولا يتعامل مع الأسرى واللجان الوطنية، كأنها غير موجودة».

سكت جبر. لكنه لم يغيّر قعدته كي لا نلفت الانتباه ويظهر علينا أننا نتكلّم في موضوع خطير.

سألني باهتمام:

– «كيف نتخلّص منه؟».

– «هنا، في الباحة، نتركه يأتي، ونغتاله. أنا مستعدّ لتنفيذ هذه المهمّة».

جبر:

– «إذا وافقت على ذلك فليس لأنه يتحمّل مسؤوليّة تشتّتنا وارتباكنا في جنيد خصوصاً، بل لأنه لئيم وسيّئ. طوال عمرنا نُضْرب في ظلّ أوضاع سيئة وإدارات قذرة، لكن نحن مَن يتحمّل مسؤولية تشتّتنا».

رددتُ بسرعة:

– «لا أناقش الآن هنا المسؤوليّات. نحن المسؤولون. أنا أطرح فكرة إزاحة ميمون وتربية مديرية السجون».

وكأن قطاراً مرّ وقطع الحديث. لم يبدِ جبر رأياً.

أطلعتُ أعضاء اللجنة الوطنية على خطّتي. دعوني، من دون رفض، إلى التفكير في انعكاسات ذلك على الأسرى:

– «هل نحن واثقون بأنّهم سيتحمّلون الضغوط التي ستُمارس عليهم؟»، سألني أحدهم.

– «وعلينا أن نفكّر في الآثار البعيدة لمثل هذه العملية»، رددت وقد بدأ النقاش يتعمّق بهدوء.

– «وما هي الآثار البعيدة»، سألني أعضاء اللجنة كافّة.

– «سيعدّ أيّ مدير لمصلحة السجون أو أيّ مدير سجن أو ضابط إلى المئة قبل أن يفعل أيّ شيء مع الأسرى».

وسط أجواء النقاش في اغتيال ميمون أحضروا إلى السجن فتحي الشقاقي، الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي.

– «لا تتعاملوا معي باعتباري الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي. أنتم قادتنا وأنا أتعلّم منكم»، ردّ علينا بصوته الخفيض عندما دعوناه إلى الانضمام إلى اللجنة الوطنية.

لم يفاجئنا قوله، ولم يتسلّل إلى عقولنا وقلوبنا للحظة أنه يمثّل هذا الدور.

هيئته توحي بشخصيته. وسلوكه معنا يؤكد ذلك. وقد رأيتُ كيف يتعامل مع أعضاء حركته، كأب لا كزعيم. وأنا أقول له ممازحاً، أمامهم:

— «هؤلاء يحتاجون إلى ديكتاتور كي يسيروا صحّ، لا إلى رجلٍ حنون مثلك».

يضحك ويخفي عينيه الصغيرتين خلف نظارته الواسعة السميكة الزجاج.

عرضتُ عليه، في أول اجتماع للجنة الوطنية بعد انضمامه إليها، خطتي لاغتيال ميمون.

لم يعلّق، وأنا أريد رأيه. إذا أيّدني أمشِ في المهمّة، وإذا تحفّظ عليها أو رفضها، أتوقّف. هكذا قرّرتُ من تلقاء نفسي، من دون أن أصارحه بذلك كي لا أبدو ممالئاً.

بعد أيّام سمعنا بعمليّة فرار ستّة أسرى من سجن غزّة. وهؤلاء أنفسهم، وهم ينتمون إلى حركة الجهاد الإسلامي، شاركوا في عمليّة عسكرية وقتلوا ضابطاً إسرائيليّاً.

هزّت عملية الفرار مديرية السجون. قرّر ميمون منع تسلّم الثياب من الأهل. وحجّته أن الثياب المدنيّة تسهّل التواري على السجين إذا ما فرّ، بينما الزيّ الموحّد للأسرى يكشفه، وربّما يكبّل حركته وحتّى تفكيره في الفرار، إذ سيفكّر أن أمره سيُكشف بسببها وتدبير ثياب عاديّة سيكون صعباً عليه.

فكّر ميمون في هذا، ونحن هزئنا به. ولأننا في فصل الشتاء هنا في نفحة، قلقنا على ثيابنا السميكة والجاكيتات التي نرتديها. أنا، ومثلي كثيرٌ ننام بالجاكيتّات لردّ برد الصحراء، ولا سيّما ليلاً، إذ لا تكفي الحرامات الثمانية التي تُعطى لنا. وكانت أربعة قبل إضراب ١٩٨٤.

لمعَتْ في رأسي. فكّرنا أنا وجبر أن عملية ثانية من هذا النوع تدمّر ميمون وتجعله إزاء تهمة التقصير والتسيُّب، وتودي به إلى البيت. لكني، بصراحة، بقيتُ راغباً في اغتياله، كما لو أن المسألة شخصيّة بيني وبينه.

«لكن من أين نفرّ والسجن محصَّن بالأسوار والأبراج والكاميرات والكلاب وإجراءات الدهم والتفتيش؟»، لسان حالي وجبر.

لستُ أصدّق أنا نفسي ما يجري. بدأت أعمال توسعة السجن. وثمّة باب حديد عندنا في القسم يطلّ على الأقسام التي تُبنى. أخبرني مسعود الراعي، اسمه الحقيقي خليل لكن يُطلق عليه اسم مسعود، أنه يخطّط وشوقي أبو نصيرة

وكمال عبد النبي، لعملية فرار عبر هذه الثغرة. أخبرني لأنه يعرف أنني أبحث عن ثغرة للفرار ويعرف أن الخبر سيصل إليّ عاجلاً أو آجلاً. وبرّر لي انضمام شوقي وكمال لكونهما هرّبا في السابق منشاراً. هزّ رأسه وقال:

— «أنت تعرف قصّته».

راح شوقي وكمال عند الحارس في أوّل ممرّ القسم وفتحا معه حديثاً وأبعداه حتّى بات لا يرى **الباب الثغرة**. تقدّمنا، أنا ومسعود، من الباب، حيث وُضِع لوحٌ من التنك كي يحجب عنّا رؤية ما يجري خارجاً. لوينا اللوح قليلاً، وبدأنا المراقبة. رصدنا الوضع. كرّرنا الحركة نفسها مرّات عدّة في النهار. رأينا الطريق القريبة، ولاحظنا أن لا مارّة عليها ولا سيّارات إلاّ نادراً. كنّا حريصين على ألاّ ينتبه إلينا أحد من العمّال. فهم يُخْتَارون بدقّة ويكونون غالباً ممّن خدموا في الجيش الإسرائيلي.

حتى الآن بنوا بمحاذاة قسمنا هيكلاً من الجدران الكبيرة التي تنقلها الرافعات. وأثناء العمل يبعدون الكلاب ولا يعيدونها ويربطونها في المكان إلاّ بعد انتهاء يوم العمل بربع ساعة أو أكثر أحياناً. في هذه الأثناء تفرغ المنطقة، وأبراج الحراسة بعيدة عنها لا تراها.

خطّطنا لاستغلال هذه الفترة: نقصّ قضبان باب الحديد ونلوي لوح التنك الموقّت، ونخرج إلى الهيكل قبل أن يؤتي بالكلب إلى جانب الباب، وإذ يحل الليل ونطمئن إلى غياب الحرّاس ننطلق إلى الطريق.

واجهتنا معضلة: أنا ومسعود نقيم في زنزانة واحدة. ولا يمكننا أن نغيب معاً أثناء جولة العدّ المسائي التي تعقب انتهاء العمّال من العمل، عند الخامسة مساءً. فكّرنا أن تغطية غياب واحد من الزنزانة أمر سهل. نربط خشبة وراسّوراً بخيط خلف باب الحمّام، ويمرّر الخيط من تحت باب الحمّام نحو المغسلة المحاذية له. هناك يقف واحد من الأسرى في الزنزانة يؤدي دور مَن يغسل يديه، وحين يسأل الضابط عن الغائب يشدّ الواقف عند المغلسة الخيط فتخبط الخشبة بالباب ويعتقد الضابط أنَّ الغائب في الداخل. لكن كيف يغيب اثنان من الزنزانة، لا يمكن أن يكونا معاً في الحمّام؟

ماذا نفعل؟ حرتُ في أمري.

واصلنا المهمّة. أمّن الشباب مالاً من أسرهم.

استطعنا عبر الأهل تهريب خريطة. فتحناها أنا ومسعود في الزنزانة ليلاً. وجدنا أن الحدود الأردنية تبعد ٢٠ كيلومتراً، والحدود المصرية ٢٧ كيلومتراً. آثرنا التوجّه نحو مصر لأن الحدود الأردنية مراقبة أكثر ومغلقة منذ السبعينيات أيام كانت التنظيمات الفلسطينية ترسل عبرها مجموعات لتنفيذ عمليات في فلسطين المحتلّة.

— «إمّا أنا، أو أنت»، أخيراً، قلت لمسعود. لم أكن لأنطق بهذه العبارة القاسية، لي وله، لو لم يكن مسعود مريضاً. فهو معتقل قبلي بسبع سنوات، ومحكوم بالمؤبّد. كرهتُ الظروف التي وضعتنا أمام هذا الخيار، وكأننا في امتحان أخلاقي. اندفاعي إلى إنجاح العمليّة بهدف كسر ميمون ورَّطني في هذا الامتحان الأناني. ولولا أنني ومسعود لسنا في زنزانة واحدة وهو ليس مريضاً لما فكّرت في نفسي، ولا طرحتُ أن أقوم بالمهمّة بدلاً منه. فأنا، إذ أطلب إلى مسعود ذلك، غيرةً على المهمّة، وبحثاً عن كل السبل لإنجاحها واستبعاد أيّ ثغرة فيها ومنها.

أضفت:

— «لا يمكنك، وأنت مريض بالديسك، السير ٢٧ كيلومتراً في الصحراء. وصحراء النقب قاسية ووعرة».

نطق متردّداً:

— «معك حق».

ثم تراجع:

— «لا. لا. أريد أن أخرج».

— «دعني أهرب لنكسر ميمون».

تمتم بسرعة:

— «لن تتوافر هذه الفرصة لنا كل يوم».

شرعنا نفكّر كيف ينتقل أيّ منّا، أنا أو هو إلى زنزانة غير زنزانتَي شوقي وكمال.

استطلعتُ احتمال ذلك لدى الإدارة. جاءني الردّ:

— «الانتقال ممنوع».

لم ألحّ كي لا أزرع الشكّ لدى مَن أسأله، ولا سيما أنه في هذه المرحلة كان الضباط يراقبون بعضهم بعضاً، وكلّ منهم يترصّد الآخرين، وإذا ما لاحظ أحدهم أن أحداً منهم أخلَّ بالقانون كتبَ فيه تقريراً إلى المدير... والمدير ميمون.

بحثُ لفتحي الشقاقي بما يجري. وأنا أحادثه وجدتُ نفسي أفكّر بصوت عال:

— «لماذا لا تنضم أنت إلى عملية الفرار؟».

نظر إليّ مبتسماً:

— «لا تقلق عليّ. اخرجوا أنتم. لا يمكنني أن أفرّ، أنا أمين عام لحركة جهاديّة، كيف أفرّ وأترككم، كيف أفرّ وأترك أعضاء حركتي في الأسر ومنهم مَن هو أسير قبلي بسنوات. أنا هنا منذ سنة، بينما أنتم أعانكم الله. حين يأتي الوقت المناسب هم يخرجونني... وهناك إخوان يخرجونني. اتّكل أنت على الله... وانجحوا».

صدَمَني؟ لا. أضاء غرفة في قلبي وعقلي.

عدتُ وطلبتُ من مسعود التنحّي. وصارحته، صادقاً، أنني لو كنتُ المريض لعملتُ لأجل فراره هو:

— «يا حبيبي، يا مسعود، لا يمكن أن آتي بشخص آخر ليحلّ في زنزانتنا بدلاً منّي أو منك، نحن معروفان لدى الإدارة، وسيُسأل عنّا، وسيُكشف أمرنا بعد دقائق من فرارنا».

— «أرى الحريّة يا سمير، أراها أمامي، على بعد مئتي متر، على تلك الطريق».

تشبّث بموقفه. قلتُ كأني أستخدم آخر المحاولات:

— «إذا كنتَ تريد، لا أذهب إلى مصر ثمّ إلى لبنان، أبقى في غزّة وأخطفُ جندياً لأبادله بك».

غضب:

— «أنا صاحب الفكرة وسأنفّذها».

أعادوا هشام من سجن عسقلان. وصل إلى نفحة مساءً. كان دوري أنا وجبر في العمل بالممر. سجّلنا اسمه سريعاً في جدول المتناوبين على العمل في الممر، كي يستطيع الخروج من زنزانته والتنقّل داخل القسم. رويتُ له القصّة. سألته إقناع مسعود. قصده:

— «أنت مريض، لا يمكنك تحمّل مشقّة الفرار والسير. اترك سمير يشارك. المهمّ أن تنجح العمليّة».

رَفض.

لم أستطع بسهولة تجاوز ما حصل بيني وبين مسعود. بقيتُ أيّاماً تتنازعني مشاعر العام والخاص. لم أتمادَ في هذا. قصدتُ مسعود:

— «سأعمل من أجل المصلحة العامّة، سأساعدكم بكل ضميري وطاقتي».

بقي صامتاً. اختصرت ملامحه كل ما فكّرتُ أنا فيه.

اتّفقنا مع مجموعة من الشباب على مساعدتنا. يخرج منهم اثنان أو ثلاثة لإلهاء الحارس وإبعاده عن قسمنا. وأنا وعدد منهم نتناوب على نشر القضبان. ونتبادل الأدوار. أنا ألهي الحارس والشباب يقصّون القضبان.

قصد مسعود رشيد وطلب إليه تنفيذ تصميم الخشبة والرسّور والخيط لثلاث زنازين.

مساء ١٩٨٧/٩/٢١، أرسلنا شابّاً ليراقب الثغرة وآخر لإلهاء الحارس. كلّفنا ثالثاً إعادة القضبان إلى وضعها الطبيعي بعد خروج مسعود وشوقي وكمال. ابتعد العمال. انطلق مسعود وشوقي وكمال. في هذه الأثناء هرع رشيد لتركيب حيلة الخشبة والرسّور والخيط. بقيتُ أراقب المكان حتى جاء الحرّاس وربطوا الكلب وغادروا. عاد رشيد من مهمّته. بقي بعيداً مني. هزّ رأسه مبتسماً إشارة إلى أنه أنجز المطلوب.

بدأ الأسرى الآخرون يعودون من الباحة إلى زنازينهم. كان شوقي وكمال قبل مغادرتهما بوقت قصير قد أخبر كلٌّ منهما موجّه زنزانته بالخطّة. وطلبا إليه أن يبوح بالسر إلى مَن معه في الزنزانة ويلزمهم الصمت. . . ويمسك الموجّه الخيط ويشدّه عندما يسأل الضابط عن شوقي وكمال.

مشيتُ إلى زنزانتي. انتظرتُ رفاقي. حكيتُ لهم ماذا يجري. طلبتُ إليهم التصرّف بطريقة طبيعية. أنا سأشدّ الخيط.

يفتتح العدّ في زنزانتنا. جاء الضابط، يائير جلبوع، وقف عند الباب وشرع بالعدّ، بعدما انتهى من إحصاء مَن يراهم في الزنزانة، وأنا منهم، شددتُ الخيط، طقطقت الخشبة. عدَّ الضابط مسعوداً. أغلق الباب وغادر.

قفزتُ إلى الباب. الزنزانة الثانية لا غيابِ فيها. الثالثة زنزانة شوقي. . . أصغيت: ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، تتسارع دقّاق قلبي. أُقفل الباب. شعرتُ بأن العالم أغلق بابه على إصبعي.

الأسرى في الزنزانة الرابعة لا علم لهم بما يجري. الخامسة كذلك

والسادسة. . . أنصَتُّ لما يجري في الممرّ. أضع سبّابتي فوق فمي، مومئاً للشباب في زنزانتي ألاّ يؤتوا بحركة تعكّر عليّ سماع صوت الضابط. بات عند الزنزانة الثامنة. يحصي التاسعة. . . العاشرة. أغمضتُ عينيّ، تخيّلتُ موجّهها يشدّ الخيط. خفت. ارتجفت. . . أُقفل الباب.

نجحنا.

عدتُ إلى سريري وعضلات بطني مشدودة كأنها مارَسَت الرياضة في غفلة منّي.

أحاطني الشباب، يسألونني:

— «ماذا يجري؟».

— «كيف حصل هذا؟».

— «لماذا لم تهرب أنت أيضاً؟».

رددتُ منهكاً كمَن ركض ٢٧ كيلومتراً في الصحراء:

— «المهمّ أن تنجح العمليّة لننهي ميمون».

طوال الليل بقيتُ مستيقظاً. تسهو عيني قليلاً، أعود وأستيقظ على عواء كلاب، لكن ليس من جهة الثغرة. قلقت: «أين بات الشباب، تسلّلوا وابتعدوا، أم أن الكلاب تنبح بسببهم؟».

قبل العدّ الصباحي، السابعة صباحاً، تفقّدتُ الخشبة والرسّور والخيط. وقفتُ مستعدّاً بجانب المغسلة. منعتُ الشباب من استعمالها ودخول الحمّام.

بدأ العدّ. مرّ الضابط بزنزانتنا بسلام. قلقت ألاّ يتذكّر موجّه الزنزانة الثالثة. أصغيتُ عبر الباب. عدّها الضابط وتجاوزها. بقيتُ أسترق السمع حتى العاشرة. . . اختبار للأعصاب هذه المهمّة.

انتهت.

خرجنا عند العاشرة إلى الباحة بشكل عادي. ملامح الشباب وسلوكهم تشي، بالنسبة إليّ، بابتهاج مكبوت. ومسّني لدى البعض أسى على عدم مشاركتهم في الفرار. أو لعلّي أُسقطُ هذه المشاعر.

تبدّل الحرّاس. راح أحدهم، مئير سمحون، يجول بيننا. يعرفنا جميعاً، وينخرط دائماً في أحاديث معنا، وخصوصاً مع مسعود. افتقده. سأل عنه غير أسير. ردّوا عليه بأنه في القسم.

فكّر أنَّ أمراً غريباً يحصل:

— «ممنوع أن يبقى في غير زنزانته». تمتم وسأل مجموعة أخرى. أجابوه:

— «ربما نُقل إلى مستشفى الرملة».

توجَّس. قارنَ بين الإجابتين وشكّ. رأيته ينسحب في اتجاه مكتب إدارة القسم. هناك، سأل المسؤول عمّا إذا كان مسعود نُقل إلى الرملة. بحثا في دفتر الكشف اليومي. لم يجدا اسم مسعود. أخبر مئير المسؤول بهواجسه، فتوجّه هذا إلى القسم. بحث عن مسعود في الزنازين. لم يعثر عليه. عاد مئير ومسؤول القسم إلى الباحة. سألا عن مسعود. وصلا إليّ. نفيتُ أيّ علمٍ لي. قلت:

— «كان هنا قبل قليل».

رمقاني وغادرا إلى مكتب القسم. اتصل المسؤول بإدارة السجن. أطلقت صافرة الإنذار. أُعلن الاستنفار. أعادونا إلى الزنازين. أقفلوا أبواب السجن كلّها.

جاؤوا للعدّ. لن نشدّ الخيط، وأصلاً لا يمكن أن يصدّقوا أن مسعود الذي يبحثون عنه في الحمّام. في هذه الحالة يريدون رؤيته بلحمه وعظمه.

اكتشفوا غيابه.

سألونا أين هو؟

أجاب كل مَن في الزنزانة معاً كأننا كورس:

— «لا نعرف».

واصلوا العدّ. أدركوا غياب شوقي وكمال.

دقائق وبدأت عملية تفتيش شاملة. تحت الأسرّة، في الزوايا. بحثوا عن فتحة في الجدران، في الأرض. إلى أن لاحظ أحدهم القضبان المنشورة في الباب نفسه، وأخبر الضابط. هرع المدير وعدد من الضبّاط والحرّاس نحو الباب. تفحّصوا الفتحة. تبادلوا التقديرات والتأكيدات. أرسل المدير قوّة مسلّحة برفقة كلاب إلى البناء الجديد ومحيط السجن.

حلّقت طائرة هليكوبتر فوق السجن.

لم يعثروا على الشباب.

نحن في الزنازين نشاهد التلفزيون ونستمع إلى الراديو. بُثَّ الخبر وأُذيع، وبدأت المحطات التلفزيونية والإذاعية تستقبل هذا المسؤول وذاك والسؤال المتكرّر:

«كيف يفرّ ثلاثة مخرّبين محكوم عليهم بأحكام عالية من سجن مثل نفحة؟».

قلت:

طار ميمون.

جاء إلى السجن وزير الشرطة، بارليف، ومعه ميمون وعدد من كبار ضباط مديرية السجون وقائد المنطقة الجنوبيّة في الجيش الإسرائيلي إسحاق موردخاي. قصدوا الباب ووقفوا عنده يتبادلون التحليلات.

أفكّر في الشباب. المهمّ أن يكونوا قد ابتعدوا ونجحوا في الوصول إلى الحدود المصرية.

ليلاً، استُقدمت إلى السجن قوّة ضخمة من الشرطة. فتّشتْ الزنازين كلّها. صادَرت التلفزيونات والراديوهات والوكمنات.

التقينا بمدير السجن، أثناء خروجنا إلى الباحة. خاطبني بلغة معاتبة يتردّد فيها صدى الغضب:

— «عملتوها!».

رددت:

— «من فعلها بات في الخارج، الحقوا به».

عُمِّمَ علينا قرار وجوب المثول أمام الضابط أثناء جولات العدّ الثلاث. الوجود في الحمّام أثناء العدِّ ممنوع. وفي جولة المساء يأتي الضابط ومعه بطاقات، في كلٍّ منها اسم أسير وصورته. والذي ينادي الضابط باسمه عليه إبراز وجهه ويقول حاضر.

أُلفت، في اليوم التالي، لجنة تحقيق.

قلت:

— «نحن قشّرناه، هم يأكلونه».

كل دقيقة تمرّ من دون القبض على مسعود وشوقي وكمال أحسبها من عُمر ميمون. في اليوم السادس للفرار وقعوا في الأسر مجدّداً. فهم بدلاً من التوجّه إلى الحدود المصرية، قصدوا مستوطنة «متسبي رامون» القريبة من السجن، هناك استقلّوا باصاً إلى بئر السبع. ومن بئر السبع ركبوا سيارة تاكسي إلى غزّة. ثم اتّفقوا مع صاحب بيك آب ليقلّهم إلى الحدود المصرية عبر طريق تمرّ بصحراء النقب. تمدّدوا

في الشاحنة وغطّاهم السائق بالقش. أخذهم، بعدما أخبر الجيش الإسرائيلي عنهم، إلى كمين مدبَّر للقبض عليهم.

لم نُصب عصفورين بحجر واحد. رضينا بإنجاز إقالة ميمون من وظيفته وتحميله مسؤولية عمليتَي الفرار والتسبّب بمقتل ضابط الاستخبارات على يد الشبان الخمسة الذين فرّوا من سجن غزّة.

«الوالد أعطاك عمره. أخذ الله وديعته واضعاً حدّاً لمعاناته مع المرض». قرأتُ هذه العبارة في رسالة أهلي وضاقت بي الدنيا. مات أبي، وقبله أختي ولم أرهما. شعرتُ بأنه هو مَن أخّر وصول الرسالة أشهراً، من تاريخ وفاته في ٥/٧ السنة الماضية، كي لا يحزنني ويزيد وحدتي. تفسّر انقباض روحي من مدّة، وأنا أسأل نفسي عنه وعن صحّته، وأجيب لأصبّر نفسي وأخفّف قلقي عليه بأنه بخير. كأني كنتُ أؤجّل حزني، أكذّب حدسي، حتى تصل إليّ هذه الورقة الخشنة. كل الرسائل التي ينقلها الصليب الأحمر على أوراق خشنة وصفراء، لكنّ هذه أكثرها خشونة. خشنَتْ بين يديّ، أو هي تخشّبت أثناء طريقها الطويل إليّ. أحسستُ أنها باتت جزءاً من تابوته. نقطة الدمع التي سقطت من عيني عليها، وشرِبتها ببطء، استحضَرت أصوات إقفال أبواب الحديد كلّها التي سمعتها حتى الآن. كم باباً يا أبي بيني وبينك؟ لعلّك أحصيتها وسمعتَ صريرها. لطالما كنتُ أشعر بأنه خلفها. وإذ اقتربَ منّي، موته جعله معي الآن. أحسستُ أنه لم يخطُ خطوته الأخيرة، ولم يؤخّر وصول الرسالة إلاّ لأن إقامتي هنا طويلة.

سارع هشام إلى إطلاعنا، الدكتور فتحي وجبر وأنا، أنَّ رسالةً وصلت من أبو جهاد، خليل الوزير، إلى قيادة حركة فتح في السجون. فوجئ الدكتور فتحي وأصغى لهشام متلهّفاً لسماع مضمونها. بدا لي ينتظر أمراً ما، ومن أبو جهاد تحديداً.

«في خصوص إعدام عمر القاسم عميلاً في الرملة»، أوضح هشام، وهمد استنفار الدكتور فتحي، لكنّه بقي مستعدّاً لسماع ما سيقوله هشام، كأنّه لا يعرف الموضوع من أساسه.

لفتنا أنا وجبر حسم هشام عمالة الشخص الذي أعدمه عمر.

— «وماذا في الرسالة؟»، سأل الدكتور فتحي.

هشام:

— «يؤكّد الأخ أبو جهاد أن موقف عمر سليم ومن أعدمه عميل، وأن التعرّض لعمر بأي كلمة هو تعرّض له شخصيّاً».

طمأننا ذلك. طلبت أن يوضع مضمون الرسالة فوراً قيد التنفيذ لوقف الانتقادات التي يوجّهها أعضاء فتح لعمر.

— «الأهم من هذا، ألا يفكّر عميل في الاحتماء بتنظيم، أو أن يتورّط تنظيم في الدفاع عن عميل احتمى في التنظيم وأوهمه بأنّه بريء من التعامل»، قال جبر.

هشام:

— «نحن لسنا ضد عمر، عمر رمز وطني، لكنّنا حذرون في مسألة إعدام العملاء بسبب الأخطاء التي ارتُكِبت في هذا الموضوع وشارك فيها الجميع».

الدكتور فتحي:

— «يا إخوان، إسرائيل تريد حرق صدقيّة كل واحد منّا، وتفتيتنا. وهي، بجعل أعضاء من حركة فتح يدافعون عن عميل يظنّون أنّه بريء، ويسيئون إلى عمر، تريد إحراق عمر وموقعه وقيادة الحركة الأسيرة عموماً. هذا دور العملاء الذين تزرعهم إسرائيل في التنظيمات وتعمل بهذه الطرق لحمايتهم».

دعونا فتحي الشقاقي لينضمّ إلينا في لقاء مع المدير الجديد لمصلحة السجون، شاؤول هاليفي. ردّ:

— «وجودي معكم قد يأخذ منحى سياسياً. لا أريد أن يقولوا إنهم اجتمعوا بالأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي. والاجتماع أساساً لأمور تتعلّق بالسجون والحركة الأسيرة».

— «لكنكَ عضو في اللجنة الوطنية»، أجابه جبر.

— «أنا معكم لأنكم أنتم طلبتم هذا. أنتم تكفون وتوفّون وتعرفون معنى كل كلمة تقال، في قضية السجون، وتدركون كيف تردّون عليها وماذا تقولون».

في انتظار هاليفي في زنزانتنا، وضعت يديّ في جيبَيْ بنطلوني. إذا ما مدّ يده، أسحب يمناي وأصافحه، وإذا لم يفعل أتركها حيث هي.

مدّ يده لمصافحتنا. استجبت.

لاحظتُ ارتباكاً وهو يبدي رغبته في تحسين ظروف السجون. ربط بين الضغوط على الأسرى والتفكير في الهرب أو التمرّد.

تحمّستُ للردّ عليه. وتحفّز هشام لذلك. تركناه يقول ما لديه.

أوزّع نظراتي عليه ومَن معه، رافع الحاجبين.

قلتُ موجّهاً الحديث إليه:

— «صحّح معلوماتك. لا يعمل كل أسير ما في رأسه. نحن قوّة موحَّدة. نفكّر معاً. وإذا ما قرّر أسيرٌ الهرب لا ينفّذ من تلقاء نفسه بل جماعة. معاً نخطّط ومعاً ننفّذ. وأنتم مهما كنتم أذكياء ومتحسّبين، وإمكانياتكم ضخمة، فلن تصلوا إلى مستوى تفكيرنا. لدى الأسير ٢٤ ساعة يومياً للتفكير. لا شغل ولا عمل لديه إلاّ التفكير. وإذا ما فكّر في الفرار ينجح. وأنتم بالكاد يسمح وقتكم بالتفكير فينا ثلاث أو أربع ساعات يوميّاً. لذا لا تفلسف الضغوط وردود فعل الأسرى. أنت وأيّ مدير غيرك يأتي، عليه أن يفكّر في التزام القانون معنا».

بدت عليه وهو يستمع علامات المفاجأة في ما أقوله. نظر غير مرّة إلى مَن معه، تارةً نادماً على وقوفه في موقع الإحراج أمام أشخاص أدنى منه رتبة وأمام أسرى يفترض أنّه مدير سجّانيهم، وتارة غير مصدّق ما أقوله ولسان حاله سؤال الموجوديّن لماذا أصعّد. وجد أعضاء وفده بين كابت لغضبه ومصغٍ كما لو أنه في محاضرة أكاديميّة.

لم يرحمه هشام. دخل عليه بالعرض، لكن بأسلوبه المختلف:

— «ميمون كان سيّئاً معنا، وسويسة كان إيجابيّاً، صحيح أنَّ الاثنين أُبعدا، لكن مَن منهما نجح وكان مرتاحاً؟ اسأل!».

قلّب ما نقوله في الاتجاهات كلّها، وعيناه تنظران ولا تريان. روّض نفسه:

— «لا حاجة إلى ما تقوله. أعرفه. أنا في صدد تهدئة الأوضاع في السجون، لا أريد مشاكل. سنعيد إليكم كل ما أُخذ. وأنا منفتح على أيّ أمر تطلبونه. رجائي الوحيد ألاّ تحاولوا القيام بأعمال مخلّة بالأمن وتحافظوا على نظام السجن».

خرج من زنزانتنا. بتواطؤ كامل أجّلنا الضحك حتى يبتعد.

عندما أُقفل باب القسم، فرّت الضحكة من فم جبر، كأنَّ أسنانه تطايرت أمامه

وهو ينحني. هشام يضع يديه على خاصرتيه كأنه يعصرهما إذ استقرّ فيهما التشنّج وهو يعاند الضحك المباغت الذي كبته منذ بدأت كلامي.

— «ماذا تريدان من الرجل، أرعبتماه»، قال جبر لنا، وأضاف هشام:

— «لن ينام الليلة».

جبر:

— «سيخاف كلّما أتى إلى سجن».

قلتُ وقد أوقفتُ استجابتي المحدودة لضحكهما:

— «رفعتُ السقف، بالغت، وغامرت، كي يعرف كيف يتصرّف معنا. علينا ألاّ نسمح بوجود ميمون وأشباهه على رأس مديريّة السجون».

بعد أقل من شهر أُسّست لجنة لبحث كيفيّة تحسين أوضاع الأسرى. جاءت واجتمعت إلينا. سارت الأمور طبيعية، إلى أن غيّروا مدير السجن. الجديد، بنحاس أفيرغان، أتى مهووساً بقيامنا بأيّ عمل يهزّ وظيفته ويحرجه. شدّد الإجراءات الأمنية، وسيَّر عمليّات دهم مفاجئ إلى الزنازين، في آخرها حصل صدام، ورُشَّ الغاز.

تحرّكت المديرية سريعاً لاحتواء الموقف. أرسلت ضبّاطاً أرفع من المدير. أكّدوا لنا أن ما حصل لن يتكرّر:

— «مرّروها لنا». طلبوا ذلك.

سمحوا بإدخال المونة والكتب وتنويع ألوان الثياب التي نتسلّمها من الأهل. أطالوا فترة الخروج إلى الساحة. صارت التلفزيونات شغّالة ٢٤ ساعة.

انتظرتُ الدكتور فتحي حتى يُفضّ الاجتماع الذي يعقده مع عدد من أعضاء حركته في الساحة، واقتربتُ منه، قبل أن يُشغل مجدّداً. كان قد استقام ناهضاً عن الأرض. مشينا. سألته عن أبعاد التظاهرات التي انطلقت في جباليا، أمس في ٨/ ١٢/ ١٩٨٧، اعتراضاً على اقتحام شاحنة سيارة فيها أربعة فلسطينيين.

أرسل إليّ نظرةً تؤكد ثقته بي. اقترب منّي هامساً:

— «إن شاء الله ستتعاظم هذه التظاهرة حتى تشمل قطاع غزّة والضفّة الغربيّة والقدس».

سألته إن كان هذا تمنّياً وتوقّعاً أم هناك خطّة وعمل؟

— «هذه ليست المرّة الأولى التي يُقتل فيها فلسطينيّون. والإعلام الإسرائيلي يتغاضى عن هذه الأحداث أو يمرّرها كأخبار بسيطة، مع أخبار القضاء والأمن، بينما يحرّض الاحتلال جنوده والمستوطنين على قتل أبنائنا. قبل فترة اقتحم المتطرّف غولدمان المسجد الأقصى ببندقيته وقتل المصلّين. وأمس اندفع سائق الشاحنة الذي يدّعون أنه ينتقم لابنه الذي طعنه فلسطينيٌّ بسكّين قبل مدّة، ودهس السائق أربعة عمّال فلسطينيّين أثناء توقّفهم في محطة للوقود. والاحتلال يتمادى رافساً حقوقنا. حصلت في المرّات السابقة ردود فعل احتجاجيّة عفوية ومحدودة، والمقاومة تراكُم. والشباب من كل التنظيمات والتيّارات العقائدية والسياسيّة ينشطون ويهيّئون الأجواء ويبتكرون آليات عملهم وتنسيقهم. ونشعر بأن الظروف مناسبة لإشراك شعبنا كلّه في حركة مقاومة متعدّدة الأشكال».

أصبتُ بعدوى تفاؤله المحسوب. اطمأننت. عدتُ إلى مجاورة الراديو. ضبطته على إذاعة القدس التي أطلقتها القيادة العامّة من دمشق. التقاطها، وكانت لا تزال تجريبيّة، يحتاج إلى دقّة وتأن. جرحتُ شاشة الأرقام بسكّين عند موقعها بالضبط كي لا أفقدها.

سمعتُ أنه أثناء جنازة ضحايا جباليا اندلع احتجاج عفوي وألقى المشيّعون الحجارة على دورية إسرائيلية. وحصلت مواجهة مع الجنود الذين أطلقوا النار. لكن الحشود واصلت رمي الحجارة والمولوتوف. وطلبت القوة العسكرية دعماً. الفعل بدأ يتنامى. تمنّيتُ ألاّ يكون هذا غضباً ينتهي عند المساء. طمأنتني كلمات الدكتور فتحي تتردّد في رأسي.

فوجئت بسرعة الإذاعة في نقل الأخبار. وفكّرت أنَّ تكرارها نداءات الانتفاض على الاحتلال يدل على أنَّ هناك نيّة، وربّما خطّة، للمواجهة.

شردتُ مع بثّ وصيّة منفّذ عمليّة الطائرة الشراعيّة، قبل نحو شهر في ٢٥/ ١١/ ١٩٨٧، خالد محمد أكر، سوري. حلّقتُ معه في سماء لبنان وفلسطين متجاوزاً الرادارات. وهبط في معسكر غيبور قرب بيت **هيلال**، وفاجأ الجنود من نخبة القوات الخاصة الإسرائيليّة، قتل منهم ستّة وجرح غيرهم، واستُشهد. استعدتُ فرحةَ الأسرى بهذه العمليّة وابتهاج الأهالي في غرفة الزيارات بها.

«هاد إلُه جناحين في الجنّة»، سمعتُ أمّاً تقول بصوتٍ مرتفع ليسمع الجميع، ولا سيما الحرّاس، سواء أكانوا يفهمون العربيّة أم لا.

تزامناً مع اشتغال الراديو في الزنزانة، أناشيد ثوريّة وأغانٍ وطنيّة، عقدنا اجتماعاً للجنة الوطنيّة.

جلسنا على الأسرّة، أنا وجبر من جهة، والدكتور فتحي وهشام في الجهة الأخرى. مثلما يحصل في الاجتماعات، قيّمنا الوضع. ثم فتح الدكتور فتحي طاقة على أفكار تعتمل لدينا وتقترب من الاختمار. قال:

— «إضافةً إلى الروح الوطنيّة ومؤثّرات العمل السياسي، فإن للحركة الأسيرة داخل السجون دوراً في تخريج العشرات والمئات من الكادرات الذين يقودون الآن تحرّكات شعبنا».

واسانا هذا الكلام البعيد من الخطاب. فالدكتور فتحي، ولا سيما في هذه اللحظة وهو معنا في السجن، محلّل يُخرِج استنتاجاته من وقائع ومعلومات، بحكم موقعه على رأس حركته وعلاقاته مع التنظيمات الأخرى والناشطين. انتبهتُ إلى أنه اعتُقل قبل نحو سنة، ويعرف الواقع. وتذكّرتُ عشرات الأسرى الذين تحرّروا في التبادل الكبير عام ١٩٨٥ وواصلوا نضالهم في الخارج. ١١٥٠ أسيراً عادت غالبيتهم إلى الضفة والقطاع والقدس. ومعظمهم ملتزمون، وعددٌ كبير منهم أمضوا سنوات في السجن، ونشطوا في الحركة الأسيرة، وراكموا خبرات وثقافة.

آثرتُ، بعد يومين من مواجهة جباليا، أن أستمع إلى إذاعة مونتي كارلو. الخبر الفلسطيني أولاً. بدأ الإعلام يهتمّ. قرأت المذيعة بياناً لحركة المقاومة الإسلامية، التي أُعلن تأسيسها قبل مدة وجيزة. سمعتُ للمرّة الأولى في البيان تسمية انتفاضة لما يجري في فلسطين.

استغربتُ سفر وزير «الدفاع» الإسرائيلي إسحاق رابين إلى واشنطن لعقد صفقة سلاح. قلتُ إمّا أن الإسرائيليّين لم يقدّروا بعد ما يجري وإمّا هم يتعمّدون التهوين والتقليل من أهميّته.

لم يُخفِني تولّي رئيس الحكومة إسحاق شامير مهمّات وزير «الدفاع» في غياب رابين، فهو لم يكن يوماً في هذا المنصب. وازداد يقيني بارتباك الجبهة الإسرائيليّة

مع تذكّري أن رئيس الأركان الجديد للجيش الإسرائيلي، دان شومرون، ليس لديه الخبرة في التعامل مع الساحة الفلسطينيّة ومواجهات من هذا النوع.

تطرّق وزير الدفاع الأميركي الذي التقى رابين، إلى ما يجري في الأراضي المحتلة، لكن باختصار. على عكس ما يوحي ذلك، هذه إشارة إلى خطورة الأمر. والأكثر منها أهميّة أن رابين لم يتحدث إلاّ عن صفقة السلاح. وإذا كان امتنع عن التناول العلني لأمر «داخلي» في عاصمة أجنبية، فإنه ارتكب خطأً جسيماً في مطار تل أبيب، إذ حمّل إيران وسوريا مسؤولية الأحداث في غزّة والضفّة. وكان بديله، شامير، قد اتّهم منظمة التحرير الفلسطينيّة. أحسستُ أن الحكومة الإسرائيليّة لم تقرأ جيّداً قراءة موحَّدة ما يجري على أرض فلسطين. أراحني هذا، برغم التهديد العنجهي الذي أطلقه رابين: «سنكسر أيديهم وأرجلهم إذا وجب ذلك».

توقعتُ استعمالهم العنف، وبسرعة. سيعتقدون أن هذا علاج كفيل بإنهاء الوضع. قفزة إلى المجهول. استنجدوا بحرس الحدود لإخماد الثورة الشعبيّة التي انضمَّت إليها القرى والبلدات والأحياء في القدس. لكن قدرة حرس الحدود وخبراتهم في التحكّم بالحشود الضخمة لم تنجح في السيطرة على المنتفضين وكبحهم. وسرعان ما اخترق قرار قيادة الأركان الذي يمنع إطلاق النار على مَن هم دون الثانية عشرة، ويحدّد إطلاق النار على ارتفاع ستين درجة وفي حالة الخطر على الأرجل. قتلوا فتياناً وشباناً. . . ما أجّج المشاعر والتحرّكات، التي أطّرتها وقادتها اللجان المحليّة، داخل المخيّمات وفي القرى والبلدات. ووصل إلى الإعلام شريط فيديو يصوّر جنوداً إسرائيليين ينهالون على شبّان فلسطينيين في نابلس ويسحلون أيديهم بالحجارة.

اليوم، ١٤/ ٢/ ١٩٨٨، ذكرى تحرير الشحّار في الجبل من القوّات اللبنانيّة التي تسلّمته من الاحتلال الإسرائيلي، وذكرى إضراب الجولان السوري ضد الاحتلال. أفتقد رفاقنا الجولانيّين، لو كانوا معنا لكنّا نظّمنا احتفالاً للمناسبة. انتهت أعمال بناء القسمين الجديدين في السجن. كل قسم من ثمانية زنازين تتسع الواحدة لعشرة أسرى. بينما كان القسمان القديمان يتكوّنان «أ» من أربع زنازين و«ب» من ست زنازين، تتسع الواحدة منها لثمانية أسرى. نحن ثمانون. بدأوا نقلنا وجاؤوا

بثمانين آخرين. شاركت اللجنة الوطنية الإدارة في توزيع الأسرى على الزنازين. فرز هشام أعضاء حركة فتح إلى زنازين، كذلك فعل جبر مع رفاقه في الجبهة الشعبيّة. زنزانة الدكتور فتحي وأعضاء حركته والمتديّنين الآخرين تضمُّ تسعة أسرى فقط. علينا تدبير نزيل عاشر لها. عبّر هشام عن تردّد في إرسال أحد عناصر فتح. يخاف من اندماجه وانجذابه إلى الجهاد الإسلامي. ولم يتحمّس جبر لأن يكون أحد رفاقه في جوّ يختلف عن نمط حياته وأفكاره وانتمائه.

استغرب جبر وهشام قراري أن أنتقل إلى زنزانة الدكتور فتحي وإخوانه. علّق هشام:

— «أنت حرّ». وغادر.

— «لن يقدِموا على إقناعي بأفكارهم. وإذا فعلوا أحاورهم ولا أخاف».

كرّرتُ هذا الموقف حتّى اقتنع جبر.

رحّب الدكتور فتحي بي وبخطوتي. إخوانه عبّروا عن تقديرهم لخياري، واعتدّوا بأنفسهم ووثقوا بانتمائهم. أحسّوا أن قادة التنظيمات الأخرى يتخوّفون من تأثيرهم.

— «لا تغترّوا، ما زلتم تحتاجون إلى الكثير»، رددتُ عليهم مازحاً.

بعد جولة العدّ الصباحي، في ٣/ ٣/ ١٩٨٨، أطلقوا صافرة الإنذار. أعادوا القسم الثاني الذي كان في الباحة إلى الزنازين. فمنذ انتقلنا إلى القسمين الجديدين وشرعوا في ترميم القسمين القديمين، صاروا يخرجوننا إلى الساحة على دفعتين. كلّ قسم وحده.

— «ماذا يجري؟»، سألنا الضباط والحرّاس الذين اندفعوا إلى الأقسام.

لا جواب.

شرعوا بعملية عدّنا مجدّداً. استبعدت أيّ عملية فرار.

كرّرتُ سؤالي عمّا يجري للمدير. رمقني بتوتر غير مصدّقٍ أنني لا أعرف ما يجري:

— «إذا اكتشفنا أن هناك عملية فرار سيكون لي معكم كلام آخر»، وابتعد.

مرّ أحد الحرّاس بجانب زنزانتي، ناديتُه وسألته عمّا يجري.

تردّد، لكنه باح:

— «مخرّبون مسلّحون في الخارج أطلقوا النار على سيّارة فيها ضابطان. لكن الضابطين نجوَا وهربا من سيارتهما وجاءا إلينا وأخبرانا».

«يا ليتهم قتلاهما. من هم هؤلاء الفدائيّون، ماذا يفعلون هنا؟»، تردّدت هذه الأسئلة في رأسي.

نظرتُ إلى الدكتور فتحي وجدته متلهّفاً معتمداً عليّ لمعرفة ما يجري.

نقلتُ إبرة الراديو إلى إذاعة إسرائيل.

لا أخبار.

هليكوبتر تحلّق فوق السجن. جولة العدّ في سباق مع الوقت، انتهت والتلفزيون الإسرائيلي يبثّ برامجه الاعتيادية. فجأةً، موجز الأخبار:

«مخرّبون مسلّحون تسلّلوا إلى صحراء النقب عبر صحراء سيناء واستولوا على سيارة في نفحة، وصلوا إلى طريق ديمونة، احتجزوا باصاً يقلّ عمّالاً في المفاعل النووي».

طرتُ من الفرح. قلت للدكتور فتحي:

— «عمليّة ممتازة. أولاً عبرت الحدود المصرية، وهذه إشارة إلى أصحاب اتفاقيّة كامب ديفيد، وثانياً لكون هدفها المفاعل النووي في ديمونة».

أثنى على العمليّة وأدرجها في سياق الانتفاضة. وهمس لي بإعجاب:

— «هذه لمسات أبو جهاد، خليل الوزير».

ردّدت:

— «وربّما أحمد جبريل».

رفعَ حاجبيه والبسمة على وجهه الأسمر النحيف.

رغبتُ في معرفة التنظيم الذي يقوم بها لأحلّل أبعادها السياسيّة. نقلتُ إبرة الراديو إلى إذاعة القدس. التشويش عليها يمنعني من فهم ما يقوله المذيع.

بعد قليل أعلن التلفزيون الإسرائيلي تمكُّن «جيش الدفاع» من تحرير الرهائن وقد جُرِح بعضهم وقُتل بعضُهم الآخر، وقتل «المخرّبين» الأربعة المنتمين إلى حركة فتح.

التفتُّ إلى الدكتور فتحي. أرسل إليّ نظرةً باسمة متواطئة. بدت لي نظارته

جزءاً من وجهه، مثل لحيته. تأكدتُ أنه كان يعلم على الأقل أن العمليات العسكرية سترافق الانتفاضة.

اقترحتُ على اللجنة الوطنية أن نصدر باسم الحركة الأسيرة بياناً شهرياً، نؤازر به الانتفاضة ونعلن برنامجنا للشهر.

كُلّفت أن أصوغ البيان الأوّل. أكدتُ فيه على التزام قرارات القيادة الموحّدة للانتفاضة، التي لا نعرفها، وكانت سريّة. أنجزته وعرضته على اللجنة الوطنية قبل يوم الجمعة كي نمرّره عبر أسرة رفيق لنا، تحمله إلى مكتب في غزة يوصله هو إلى مكتب في الضفّة، ويصار إلى طباعته وتوزيعه إلى الناس وعلى الإعلام.

سمعته مشوّشاً على إذاعة القدس. وسمعت تصريحات ناشطين ومواطنين يثنون على اتخاذ الحركة الأسيرة دورها في الانتفاضة. شعرنا بذلك أيضاً من خلال الأُسَر، يوم الجمعة التالي.

جيء بأسير من حركة الجهاد، أخليت له مكاني في زنزانة الدكتور فتحي وانتقلت إلى زنزانة جبر.

أطلعني جبر ومحمود غرباوي مسؤول الجبهة في السجن على مشروعهما إصدار نشرة صوتية شهرية:

— «نسجّل شهادات ومقالات من أعضاء الجبهة والأسرى عموماً، ونرسلها إلى رفاقنا في الخارج».

قال لي محمود وعيناه تلمعان.

بدا الأمر لنا اختراعاً وبديهة في الآن نفسه. فالمسجّلة متوافرة، مهرّبة منذ مدة. وقد سبق أن هرّب غير أسير تسجيلات بصوته، هذا لأسرته وذاك لخطيبته وآخر لرفاقه أو إخوانه في تنظيمه.

بعد أيّام، هُرّبت إليّ المسجّلة. فيها شريط يحتوي ما جرى تسجيله. لم أسمعها، بدأتُ تسجيل مقالي عن غسان كنفاني. حكيتُ عن استشهاده وأدبه الملتزم ومسيرته كمثقّف عضوي.

في تلك الفترة اشتغل خطّاطونا كثيراً. إضافة إلى نسخهم في دفاتر عدّة مجلّتنا الشهرية «نفحة الثورة»، كُلّفوا نسخ نشرة أسبوعيّة بدأنا إصدارها، وحملت اسم «الانتفاضة مستمرة». اعتمدنا فيها صيغة المقالات والأخبار القصيرة كي لا يملّ القارئ. وقد قرّرنا الإضراب يوماً مع كلِّ شهر تدخله الانتفاضة.

على هذا الإيقاع نشّطت التنظيمات برامجها التثقيفيّة وتقلّصت الفوارق في ما بينها.

لكن، بعدما صاغ الدكتور فتحي البيان الشهري الرابع باسم الحركة الأسيرة، جاء ضابط من إدارة السجن ومعه عدد من الحرّاس إلى زنزانته وأبلغه قرار قائد المنطقة الجنوبيّة في الجيش الإسرائيلي، إسحاق موردخاي، إبعاده من البلاد، وأنه سيُنقل إلى سجن غزّة.

نادى على هشام وجبر وعليّ وأخبرنا من باب زنزانته. انهال عليه الأسرى بالأسئلة والمخاوف عليه. وهو هادئ كعادته:

— «يريدون إبعاد وتصفية كل من يعمل في الانتفاضة».

خرجنا من زنازيننا نحوه لنودّعه. نبّهناه من ضرورة الامتناع عن الأكل والشرب، كي لا يتعبه الانتقال إلى سجن غزّة. سأله هشام هل يريد أن يسمّي أحداً ليمثّل حركته في اللجنة الوطنيّة. أجاب:

— «أنتم».

ونظر إلى إخوانه في الزنزانة قائلاً:

— «سواء كنّا في اللجنة الوطنيّة أو لا نلتزم قراراتها».

ابتسمنا بحزن.

شعرتُ وهو يقول ذلك بأنه لا يمتدحنا أو يماهي أجواء العمل المشترك، بل يضع حدّاً لمرحلة سابقة كان فيها المتديّنون، ومعظمهم باتوا في الجهاد الإسلامي وحماس، ينأون بأنفسهم عن العمل في الإطار الذي يشكّله الأسرى أعضاء التنظيمات المنضوية في منظمة التحرير.

قلقتُ على الدكتور فتحي حين اغتال الموساد خليل الوزير، أبو جهاد، في تونس في ١٦/ ٤/ ١٩٨٨.

— «بعد أربعة أشهر من انطلاقة الانتفاضة، تتوهّم إسرائيل أنها باغتيال القائد أبو جهاد تخمِد حركة شعبنا نحو الاستقلال والحريّة وإقامة دولته المستقلّة».

بهذه الكلمات رثى هشام خليل الوزير في التأبين الذي نظّمناه إثر سماعنا الخبر.

استنفر الحرّاس لكنهم لم يقتربوا منّا أو يحاولوا تفريقنا. بقوا هادئين وكأن

مهمتهم النظر إلينا بحياد وبرودة لجعلنا نسمع صدى الاستخفاف باحتفالنا ما دام القتيل قد قُتل. والجميع يتحدّث عن الدور القيادي في الانتفاضة لأبو جهاد. هذا يستذكر تنسيقه مع الفصائل الأخرى، وذاك يستعيد تنظيمه الخلايا وتوجيهه القيادة السريّة الموحّدة، وآخر يثني على رعايته أسر الشهداء والأسرى. وغير واحد، أنا منهم، سأل عن قيادة الانتفاضة بعد استشهاد «عقلها المدبّر»، كما يسميّه الفتحاويون ولا يعترض أعضاء الفصائل الأخرى، وكأنما يقرّون بهذا. وأكثر ما لفتني حزنُ أعضاء الجهاد الإسلامي عليه:

— «كان التنسيق بيننا على أعلى المستويات»، قال لي أحدهم، وتذكّرت إيجابيّة الدكتور فتحي تجاهه. قال لي مرّة:

— «المستقبل على الساحة الفلسطينيّة للتنظيمات والحركات الإسلاميّة، وأبو جهاد يدرك ذلك ويتعاون معنا. ونحن بدورنا نقترح إسلاماً حركيّاً مرتبطاً بنضال شعبنا لا ديناً وثقافة وحسب».

سألته عمّا إذا كان بين حركته وأبو عمّار علاقة، وكيف ينظر كلٌّ منهما إلى الآخر. أجابني:

— «أبو عمّار رجل براغماتي وهو ابن الإخوان المسلمين، لكنّه لم يؤسّس حركة إسلاميّة بل وطنيّة تتّسع للماركسي والإسلامي. نحن نفترق معه في هذا، وجهادنا لتحرير فلسطين لا ينفصل عن رؤيتنا للدولة الفلسطينيّة، التي لا تتّفق مع رؤية الماركسي. لذا، نحن نشكّل حركاتنا الجهاديّة وعقيدتنا الإسلام. أبو عمّار يعبّر عن مشاعر أبوّة وأخوّة تجاهنا. ولا أعتقد أنَّ نظرة أبو جهاد إلينا وعلاقته بنا تخفى على أبو عمّار، وإنّما هي بموافقته، رغم أنّنا نختلف سياسيّاً».

اقترب موعد ذكرى انطلاقة الجبهة، في ٢٧/ ٤. تُحيّرني علاقتي بها. ما زلتُ أحسّ بأنني معنيّ بها، وفي الوقت نفسه لا أفكّر فيها كحزبي. وطوال فترتي في السجن وعملي في الحركة الأسيرة لم أنطلق كحزبي ويجري التعامل معي كمستقل. أحياناً، أفكّر أن ارتباطي بها من كوني اعتُقلت وأنا منتمٍ إليها، أكثر ممّا أنا الآن عضو فيها. وبما أنها تنظيم صغير، ولم أجتمع مع رفاقٍ منها في السجن إلاّ في مرّات محدودة، بات انتمائي لها معنوياً مرتبطاً بأسري ووجودي وهويتي السياسيّة.

لم أطأ في مراجعتي لها وتجربتي فيها منطقة السؤال: أأبقى فيها أم لا؟ قراري في هذا الشأن مؤجَّل. ولا يمكن أن أتخذه بمعزل عن علاقتي بسجّاني. صحيح أن موقفي من إسرائيل لا يحدّده انتساب إلى تنظيم، إلاّ أن انسحابي من الجبهة أو تعليق عضويتي فيها، قد يُعدّ وهناً في قناعاتي أو مواجهتي لسجّاني وعدوّي. وهذا ما لا أفعله. حمّلني هذا المنطق مرّات عدّة مسؤوليّة تجديد انتسابي والحفاظ عليه برغم نسياني له. وحين انشقّ أبو العبّاس عن القيادة ممثّلة بطلعت يعقوب، اخترتُ القيادة انسجاماً مع هذا المنطق. فإلى استقامة طلعت يعقوب، الموقف السياسي للقيادة أقرب إلى الخطاب الذي حملته الجبهة التي انتسبتُ إليها، بينما ارتبط أبو العبّاس بأبو عمّار المتحالف مع أنظمة عربيّة تدور في الفلك الأميركي. فكّرتُ أنني إذا اخترتُ أبو العبّاس ارتبك موقفي السياسي وافتقدتُ وضوح جبهتي في علاقتي بعدوٍّ أنا على تماسٍ مباشر معه. وإذ وصلتُ إلى هذه النقطة تذكّرتُ النهاية الجوفاء لعمليّة أكيلي لاورو، وانتهيتُ إلى أن أبو العبّاس لم يعد تابعاً لأبو عمّار وحسب، بل كأنه بات بلا قضيّة سياسيّة، إلى درجة تلبيته طلب أبو عمّار وتراجعه عن عمليّة باشر بها وأرسل مقاتلين لتنفيذها. في هذه الأثناء فكّرتُ أن الموقف السياسي الواضح الذي تتخذه قيادة الجبهة، ولو من دون فعل راهن، أفضل من إرسال مقاتلين لتحرير أسرى، يغدون هم أسرى أيضاً. ليس لأن عمليتهم فشلت وما إلى ذلك، بل لأن قيادتهم غيّرت رأيها وتراجعت نزولاً عند رغبة أبو عمّار أو مصر. شعرتُ أننا نحن الأسرى بتنا قضية يتيمة. ولكي أحافظ على توازن مع سجّاني تماهيت مع موقف القيادة وجدّدتُ انتمائي إلى الجبهة.

تشوّقي للوجود خارجاً والمشاركة في الانتفاضة، جعلاني أفكّر كما لو أنني أدبّر عملية فرار.

— «ما العمل؟»، سألتُ رفيقي الوحيد في الجبهة بالسجن، أحمد عبيد من غزّة، الذي اعتُقل أثناء مشاركته في عمليّة عبرت الحدود الأردنية:

— «أيمكن أسرتك في جباليا نقل رسائلنا إلى رفاقنا في غزّة؟».

تحمّس. بادلني نظرة رضى.

— «ولدينا مجموعة أصدقاء هناك، ليسوا في الجبهة لكنهم لا يرفضون المشاركة معنا في أيّ نشاط نطلب إليهم مساعدتنا فيه»، همستُ له.

قبل يوم الجمعة، موعد زيارة أسرته، انتهيتُ من صوغ بيان باسم الجبهة وجّهتُ فيه تحيّة إلى الأمناء العامّين للفصائل الفلسطينيّة، ومنهم طلعت يعقوب.

استطاع رفيقي تهريبه، في غرفة الزيارات، إلى أسرته التي نقلته إلى أصدقائنا في غزّة. بالتزامن مع هذا سألتُ صديقاً، في غزّة، إمكان مساعدتنا مالياً لتغطية نفقات البيان. أبدى حماسةً وأوصل مئتي دولار إلى أصدقائنا في غزّة. طبعوه ووزّعوه مناشير في العديد من مناطق القطاع وأوصلوه إلى وسائل الإعلام.

المهمّة التالية التي نفّذناها أنا ورفيقي، هي كتابة شعارات وإرسالها إلى أصدقائنا ليخطّوها على الحيطان في الشوارع.

شيء منّي، وربما روح أبي، عاد إلى لبنان، في ١/٨/١٩٨٨، مع الدكتور فتحي الذي أبعدوه برّاً إلى لبنان.

مشروع جبر

٤/٦/١٩٨٩ يوم لا أنساه أبداً. كل يوم مثل نبتةٍ تنمو أمامنا ببطء، ونحفظ أوراقها وأحجامها وألوانها وروائحتها. وتراني، مثل كل أسير، أحفظ الروزنامة عموماً لا التواريخ المهمّة فحسب. لكن اليوم مختلف، أصفر وأكثر قسوة: مات عمر القاسم. تسعٌ وأربعون سنة منها إحدى وعشرون في الأسر.

منذ الصباح استيقظتُ ورأسي ثقيل يضجّ بأصوات من خارج السجن، من ذاكرتي، من مكان ما في هذا العالم. الحرّ الذي أشعر به مضاعفاً ويجعل روحي تتململ في جسدي، يتوعّدني منذ فتحتُ عيني بمفاجأة، رحتُ أنتظرها. كرهتُ هذا اليوم منذ خرجت من سريري. دفعتُ نفسي، رغماً عنّي، إلى خارجه، وكلّي إحساس بالمرض والتعب.

تخيّلته مستلقياً بهدوء النوم الأخير، قامة بيضاء، مكلبشاً في سرير عسكري في مستشفى.

لم يتغلّب عليه السجن، ليس شعراً، هذه حقيقة. عمر نازَل السجن، روّضه بالرياضة، بالثقافة، بصلابة الموقف، باحترام الذات والآخر تعليماً وحواراً وسلوكاً، بالعمل الجماعي، بالتعاضد، بالحفاظ على القضيّة وإنتاج مفردات المقاومة. لم يقدر عليه إلاّ المرض. «المرض جاسوس»، قال لي مرّة، قبل أن يمرض ولعلّه كان يتوقّعه ويحسب له حساباً. المرض جاسوس العجز وقلّة الحيلة وارتباك البوصلة وما أصاب الثورة من وهن. والمرض جاسوس التَرْك والهجران اللذين أحسّ بهما بمرارة أخفاها حتى اللحظة الأخيرة. وليس غريباً أن يقتله سرطان الأمعاء، وهو رمز من قادة معارك الأمعاء الخاوية.

الحزن عمَّ السجن، وأحسبُ أنه كذلك في السجون الأخرى، وكلّها دخلها عمر، وحفظت صوته وكلماته ودقّات قلبه. الجميع حزين يغصّ كيف مات عمر

أسيراً، وهو الذي كان يحلم بالموت في القدس، حيث وُلِد ووعى دوره. الجميع يتذكّر مواقفه العامّة والخاصّة، ومع الجميع له وقفات حبٍّ وبوح وشفافيّة. منه تعلّمتُ كيف يكون الأسير مقاوماً في كل نَفَس وحركة، وكيف نتعامل مع السجّان، وكيف ننظّم أنفسنا وحياتنا ونشاطنا ونحافظ على قوّتنا وننمّيها ونفعّلها.

قلتُ هذا لرفاقي في السجن أثناء الاحتفال الوداعي الذي تداعينا إليه. حتى الإدارة والحرّاس لم يُستفزّوا ولم يبادروا إلى قمعنا. كانوا واقفين كأنهم في صمتٍ وارتباك عاطفي. وبعضهم عبّر عن تقدير لعمر:

«الشخص المهيب الذي يفرض عليك احترامه والتعامل معه بنديّة، وحتى بعليائه». قال لي أحد الضبّاط.

«حمَّل كلاً منّا هذه الأمانة»، قال جبر الذي التقاه لفترة قصيرة في المعبار بسجن الرملة، حين نُقل جبر إلى مستشفى سجن الرملة لأسباب صحيّة.

البعض سمّاه مانديلا فلسطين. لم أستسغ هذا، فبرغم تقديري لنلسون مانديلا، عمر تحديداً، ومن يمضي عمره في السجن ويبقى محافظاً على شجاعته ومواقفه ويرتقي بنفسه وثقافته وقيمه، ليس نسخة عن أحد أياً كان.

«ربّى أجيالاً ها هم يقودون شعبنا في انتفاضته على الاحتلال». كتبنا في العدد الجديد من مجلّة «نفحة الثورة» التي شارك في تأسيسها وتحريرها. وفي العدد ذاته كتبنا مقالاً عن الإمام الخميني الذي رحل بعد عمر بيومين، وعن ثورته التي أعادت التوازن إلى المنطقة بعدما خرجت مصر من الصراع مع إسرائيل. تذكّرنا أوّل شحنة سلاح أرسلتها إيران بعد الثورة إلى المقاومة الفلسطينيّة في بيروت، حتى قبل أن تُستدرج إلى الحرب مع العراق لتكبيل دورها الداعم للمقاومة وإرهاقها بعيداً من إسرائيل.

أخبرتني الإدارة أن أسيرين لبنانيين جديدين، خضعا للمحاكمة، وسيؤتى بهما إلى السجن قريباً. بحثنا عن مكانين شاغرين لهما.

بدأنا أنا وعبد الناصر مسلّم من غزّة وأبو علي يطّا من الخليل نخطّط لعملية فرار. تسليمنا بأن لا مجال لإيجاد ممر أو ثغرة في البناء الحصين، دفعنا إلى التفكير في احتجاز رهائن من الإدارة.

صغنا الخطّة: أستدعي المدير، تشاشا شفيلي، الجورجي، إلى العيادة بحجّة وجود أمر طارئ. وهناك، حيث يكون بعيداً من مكاتب الشرطة، أشهر المسدّس في وجهه وأحتجزه، وفي الأثناء ينضم إليّ عبد الناصر وأبو علي، ونطلب سيّارة ننتقل عبرها إلى الطريق العامّة القريبة. نسيطر على باص ونأخذ ركّابه رهائن، ونتوجّه إلى الحدود المصريّة.

مغامرة وشطحة في الخيال فرص تحقيقها ونجاحها، في السجن وفي مصر على حدٍّ سواء، محدودة جدّاً وربما معدومة، لكن لم نجد غير ذلك.

إذاً، نحن بحاجة إلى أسلحة. كُلّفتُ أنا إقناع عناصر الشرطة الذين يهرّبون لنا، عبري فقط ولا يعرفهم عبد الناصر وأبو علي، البطاريّات والكاميرات، تهريب مسدّسين لنا.

جاءني ضابط وأخبرني أن الأسير اللبناني وصل إلى السجن، وهو في غرفة الانتظار. رافقته لاستقباله.

أيقظته من نومه فوق فرشة.

— «علي حمدوني من جبهة المقاومة الوطنيّة اللبنانيّة، الحزب الشيوعي».

— «أنت الآن متعب. امشِ معي إلى زنزانتك كي ترتاح، ونتحدّث في ما بعد».

حمل كيس أغراضه:

— «هل أتوا برفيقي أحمد إسماعيل إلى هنا؟».

— «قالوا لنا إن أسيرين لبنانيين سيأتيان إلى هنا. أنت الأوّل».

واستدركت:

— «أنت أوّل أسير من جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية أتعرّفُ إليه».

ابتسم، بين المجاملة والإيجابية والسخرية من قَدَر لبنانيّين يلتقيان في سجن إسرائيلي على أرض فلسطين.

سألته إذا كان يريد دخول الحمّام. أعرف أن الشرطيين يمنعون الأسير أثناء الانتقال من قضاء حاجته والراحة حتى يصل.

أوصلته إلى زنزانته. أوصيتُ الشباب بالاهتمام به وتركه يرتاح. عدتُ إلى زنزانتي.

صباح آخر. قصدتُ أحد الشرطيّين. يقف عند باب قسمنا. بقيت بعيداً منه، أطل على زنزانة مجاورة أؤدّي دور المشغول مع نزلائها، لأتأكّد من ابتعاد زملائه

عنه. استطلعت حركته وسلوكه مع من يمرّ بجانبه. بدا لي في مزاج هادئ. مشيت نحوه. انتبه إليّ. تفقّد محيطه. همست له بطلبنا. ارتبك. ارتعد. نظرَ إليّ غير مصدّق ما يسمعه. شعرتُ أنه فوجئ بتعمّق تعاوننا، وأنه على مشارف الندم. غمزته وابتسمتُ لأهوّن عليه:

— «أنت تعرف أن سرَّك في بئرٍ عميقة».

خفّف من روعه.

أضفت:

— «سنعطيك مبلغاً محرزاً».

عيناه تتحرّكان مثل مروحة تجول الأرجاء، وأذناه راداران يتحسّسان ما إذا اقترب منّا أحد من زملائه.

إنصاته أكّد لي إمكان استجابته. أردتُ أن أقول له فكِّرْ في الموضوع ورُدَّ عليّ الجواب في ما بعد، لكنني تردّدتُ كي لا أفسح له مجال الاختيار. وربما يتراجع أو يكشف سرّنا. بادرتُ إلى وضعه أمام الأمر الواقع:

— «ماذا يمكن أن تهرّب لنا؟».

أَحَسَّ بأن دائرة العمل مقتصرة عليّ ككاتم سرّ وعليه كمصدر ومنفّذ. استسهل الأمر. فكّر قليلاً:

— «لديَّ مسدس طوطو غير مرخّص ولا يعلم به أحد، يمكنني أن أعطيك إيّاه».

ممتاز. فكّر بطريقة مزدوجة، كمرتشٍ وكتاجر. اختُرق الجدار.

أضاف خائفاً راجياً:

— «يبقى الأمر سرّاً بيني وبينك. أُزَجُّ في السجن إذا عرفت الإدارة بالخبر».

— «ضع قدميكَ في مياه باردة. وأنت تعرفني واختبرتني».

هزّ رأسه وانسحب. قلقه يغلّف سعادته بالصفقة.

نقلتُ علي حمدوني إلى زنزانتي بعدما أرسلتُ أسيراً من زنزانتي بدلاً منه. وصل رفيقه أحمد إسماعيل. وُضع في زنزانة أخرى، ثم سعيتُ إلى جمعه وعلي في زنزانتنا. فرحتُ بهما. لم أنفكّ أسألهما عن لبنان والمقاومة. في البداية، لم أنتبه إلى احتمال أنني أؤجّج لديهما مشاعر الابتعاد عن الوطن، لكنني مشتاق وراغب في سماع أخبار بلدي. وعندما استدركتُ بتُّ أكثر حذراً وتأنّياً معهما في أسئلتي وتذكيرهما بالغربة.

أخبرتُ عبد الناصر وأبو علي بما جرى مع الشرطي. وطلبتُ إليهما ألاّ يظهرا له أنهما على علم بالأمر.

— «لكن طوطو هذا لا يقتل ذبابة»، همس أبو علي.

نبّهني. لم أفكّر في هذا. كنتُ مركِّزاً على إقناعه.

أبو علي:

— «هذا ٠,٢٢ ملم لا يستأهل أن نُمسَك بسببه. المخزن الذي أمنّاه يتّسع لأكبر منه».

— «اطلب منه مسدس ٩ ملم بلجيكياً»، أضاف أبو علي ووافقه عبد الناصر.

غاب الشرطي في مأذونيته الدوريّة وعاد. تقدّم هو في اتجاهي بحماسة ملجومة، لكن واضحة.

باغتّه بتبخيس طوطو. أُحبِط. عاجلته بطلب ٩ ملم، كي لا يعتقد أن الصفقة توقّفت:

— «إن كنتَ عاجزاً انسحب»، همستُ له بنبرة المستغني.

التفت إليّ عاتباً، لعلّه فكّر أنني دبّرتُ مصدراً آخر، أو أنني أتحدّاه.

— «ولو»، ردّ.

ابتسمتُ واثقاً موحياً بأنني مستخفّ به غير منزعج من إخفاقه.

عالج أزمته، اقترح:

— «دبّر السلاح الذي تريده، وأنا آتي به وأنقله إليك، كما نفعل بالأشياء الأخرى. أنا شرطي لا يمكنني شراء سلاح، ولا التعامل مع السوق السوداء».

سرعته في المبادرة إلى هذا جعلتني أحسّ بأنه فكّر سابقاً بالأمر، ما يؤكّد عزمه على إتمام الصفقة.

عدتُ إلى عبد الناصر وأبو علي:

— «اتصلوا بالشباب في الخارج، ودبّروا الأسلحة. الرجل مستعدّ لنقلها إلينا. عمل جهده وهذا ما يقدر عليه».

طلبا، أثناء الزيارة، من أسرتيهما تأمين مسدّسين.

انتظرنا.

«صعب»، قيل لهما.

ولا يمكنهما الطلب من تنظيمهما ذلك:
— «سندخل في طوشة سين وجيم».
انتهت القصّة. كانت ممتعة، وربما هي مسوّدة لقصص أخرى مقبلة، قلت لهما.

بثَّ التلفزيون الإسرائيلي في نشرة الظهيرة، يوم ٣٠/ ٥/ ١٩٩٠، خبر عمليّة بحريّة لجبهة التحرير الفلسطينيّة بقيادة أبو العبّاس. أعجبتني العمليّة. ستّة عشر فدائياً تسلّلوا عبر باخرة إلى شواطئ فلسطين واشتبكوا مع قوّة من جيش الاحتلال. استشهد أربعة وأُسر اثنا عشر. راقتني فكرة مواكبة الانتفاضة بعمليّات من هذا النوع. كنتُ منزعجاً من فوضى عسكرة الانتفاضة. شعرتُ بأن تشتّت القيادة بعدما كانت موحَّدة وسريّة، وتنافس التنظيمات على العمل العلني من دون تنسيق، مقتل الانتفاضة. وزاد الطين بلّة تفريخ المجموعات الصغيرة والوهميّة التي تدّعي أنّها تنظيمات أو تابعة لجبهات. وأشدّ من هذا إيلاماً كان فوضى العمليات، ولا سيما إعدام المتهمين بالتعامل مع إسرائيل. وقد حثّنا، في تلك الفترة، العديد من الأهالي على التواصل مع قادة التنظيمات في غزّة والضفّة لتنبيههم والاعتراض على الفلتان. فتحتَ شعار إعدام العملاء تحصل أمور لا تصدّق، كأنْ يُقتل هذا أو ذاك انتقاماً ولسبب شخصي أو عائلي أو مناطقي. إضافةً إلى بشاعة عمليات الإعدام في الساحات العامّة والشوارع، وأحياناً يكون القتيل بريئاً من تهمة التعامل. تواصلنا أنا وجبر وآخرون في السجن مع المرجعيّات في الخارج لكننا لم ننجح ولم تُسمع كلمتنا. لا يمكننا أن نصدر بيانات، فقد حرصنا على أن نقول ما لدينا سرّاً.

فكّرتُ أن عمليّة كالتي نفّذتها مجموعة الجبهة تساهم في إحياء العمل الفدائي ضد الاحتلال. اعتبرتها تخالف إرسال التنظيمات الفلسطينيّة مقاتلين إلى ليبيا للمشاركة في المعارك على الحدود الليبيّة التشاديّة. قزّزني هذا الفعل الارتزاقي. ما زلتُ مشدوداً إلى الانتفاضة، مطمئناً إلى أن العمليات ستتواصل، ولا سيما أن العمليّة البحرية أتت بعد محاولة مجموعة للجبهة التسلّل قبل مدّة برّاً إلى فلسطين عبر الحدود اللبنانية، ولم تفلح.

فرطت حكومة الوحدة الوطنيّة وتفرّد حزب الليكود متحالفاً مع أحزب يمينيّة بالحكومة، واختير روني ميلو، المتطرّف، وزيراً للشرطة. مباشرةً انطلقت حملة ضد مدير السجون، شاؤول هاليفي. اتّهموه بالتهاون مع الأسرى. وراح ضباط في مديرية السجون يسرّبون إلى الإعلام أخباراً تدّعي أننا مسيطرون على السجون ونفعل ما نشاء فيها. والحقيقة أننا كنّا مستقرّين ليس إلاّ، ولا مشاكل.

طار هاليفي، وعيّنوا بدلاً منه قائد فيلق مدرّعات سابقاً، العميد المتقاعد غابي عمير.

تحمّستُ لتهديد صدّام حسين بغزو الكويت. حلمُ توحيد العرب، شعوباً ودولاً وجيوشاً دغدغني. قلتُ هذا يعني افتراق صّدام ونظامه عن الدول العربية الحليفة لأميركا والتي قاتل عوضاً عنها وبتمويلها إيران الخمينيّة، وأنا كنتُ ضد هذه الحرب من البداية. ضمُّ الكويت إلى العراق حقّ، لا من منطلقات وطنية عراقية بل من أسس قوميّة عربيّة، وضد المصالح الأميركية العسكرية والسياسية والنفطيّة أولاً. النفط حق الشعوب العربية لا الشركات الأميركية. وأقنعني أكثر تركيز صدّام على إسرائيل وتهديده بقصفها بصواريخ السكود. رائع أن تتوجّه قدرات الجيش والدولة العراقيين ومعهما نفط الكويت نحو إسرائيل. أخذتني هذه الأفكار، التي انتشرت بين الأسرى، بعيداً في الأحلام: لحظة تاريخيّة تفرض موازين قوى جديدة في المنطقة وتعيد للعرب قوّة خسرناها مع خروج مصر السادات من المحور العربي ضد إسرائيل والتهاون الرسمي العربي.

قرّرت مديرية السجون إخضاع الأسرى أثناء الانتقال من سجن إلى آخر، ومن السجن إلى المستشفى أو العكس، لتفتيشٍ عارٍ دقيق.

بحصة رُميت في المياه الراكدة وبدأت الدوائر التي أحدثتها تتّسع. موجات التذمّر تنطلق كلما نُقل أسير. وهذا يحدث دورياً، كل أسبوع. لكن العصب الرئيسي للأسرى مشدود إلى الأزمة في الخليج.

هرّبنا مناشير للحديد. لكنّنا اكتشفنا أنَّ أبواب السجن وشبابيكه التي وضعوها في القسمين الجديدين بعد فرار مسعود وكمال وشوقي من فولاذ لا يمكن قصّها.

— «علينا أن ننفّذ عملية الفرار بالتزامن مع تهديد صدام حسين بقصف إسرائيل

بالسكود. ففي هذا الوقت تكون إسرائيل مشغولة بالحرب، وتقع عمليتنا كصاروخ سكود تهزّ الدولة عموماً لا السجن ومديرية السجون وحسب»، قلنا أنا وجبر وسليم زريعي.

– «ليس أمامنا إلا المتفجّرات»، قال جبر.

اتفقنا على أن يبقى الأمر سرّاً بيننا، وقبل التنفيذ بقليل نحوّل الفرار جماعيّاً.

بدأنا الاتصال مع الخارج، عبر الأهل، لتأمينها.

دخول الجيش العراقي الكويت، في ١٩٩٠/٨/٢، تحوّل عرساً في السجن. الجميع مبتهج، منتعش، يكرّر العبارة ذاتها: السكود. وفاجأتنا مديرية السجون بإعلان حال الطوارئ: عُزل كل قسم في السجن على حدة، مُنع التزاور بين الزنازين، حُدِّدت مدة الفورة ساعة، بينما كنّا نطيلها قليلاً... من جهتنا لم نعترض. كنّا مشغولين بالحرب العراقية.

توالت الانهيارات: سقوط النظام الشيوعي وتفتّت دول الاتحاد السوفياتي وأوروبا الشرقيّة، انسحاب الجيش العراقي من الكويت، نهاية كذبة السكود، خمود الانتفاضة.

أحسسنا أن العالم من حولنا كرتون يتهاوى. حلم، والأصعب هو الاستيقاظ.

وصلتني رسالة من أبو العبّاس. استفاض فيها بالتعبير عن عواطفه الرفاقيّة تجاهي وتقديره لصمودي ونضالي. ووصف نفسه والمناضلين في الخارج بالأسرى. وإذ قارن بين وضعهم ووضعي وجدني في حال أفضل منهم، فأنا أعرف عدوّي وفي مواجهة مباشرة معه. أسف لعدم نجاح العمليّة الأخيرة التي خطّط لها. وكشف لي أنّه أطلع صدّام حسين ومعمّر القذّافي وياسر عرفات على العمليّة قبل الشروع بها، لا كما يدّعي أبو عمّار أنه لم يكن على علم بها. وطلب إليّ الاهتمام برفاقي الذين أسروا خلالها، وأبدى استعداده لتأمين ما نطلبه ونحتاج إليه.

جدّدت هذه الرسالة وما تحتويه من مشاعر وشفافيّة وإحباط شخصي، صداقتنا. أحسست بأن ما جمعنا وما يصرّ عليه أبو العبّاس، أقوى من السياسة.

طويت الرسالة. غلّفتها بنايلون وأخفيتها في أحد مخابئي في الزنزانة.

صباح اليوم الثاني من وقف الأسرى المدخنين، وأنا منهم، التدخين لمدة ثلاثة أشهر للتبرّع بثمن علب التبغ لفعاليات الانتفاضة، نهضتُ نشيطاً، حتى إنني أشمُّ هواءً نقيّاً وأحسّ بأن فضاء الزنزانة نظيف. أعدّ جبر ركوة القهوة وجلسنا إلى أحد الأسرّة.

— «طيّبة القهوة من دون سيجارة».

قال ممتدحاً ما نقوم به، متأكداً من صلابة إرادتنا في تنفيذ القرار.

رويت:

— «استغرب تشاشا شفيلي قرارنا، وتحدّاني أننا لا نستطيع تنفيذه. قال لي «كيف توقفون التدخين كلّكم، ما معنى هذا؟»».

ضحكنا منه.

ارتشفَ جبر القهوة وقال:

— «أفكّر جديّاً في وقف التدخين حتى بعد انتهاء الثلاثة أشهر».

— «هذا قرار جبّار».

— «نفّذه أنت أيضاً»، ردّ بسرعة.

— «لماذا؟».

— «من أجل صحّتك، رئتك مريضة ومعك الربو».

— «نفكّر في الموضوع».

— «يجب أن تتحدّى تشاتشا شفيلي أو إسرائيليّاً ما كي تنفّذ».

أوقفت ضحكي لأقول له:

— «وقف التدخين ينشّط دماغك ويجعلك مرحاً».

— «ممتاز، هذا مفيد لك أيضاً».

قصدتُ وسليم زريعي، بصفتنا ممثّلي الأسرى، الإدارة للمطالبة بوقف حال الطوارئ.

— «الأمر ليس في يدي. لديّ تعليمات من المديرية بأن الوضع سيبقى على حاله»، أجابني مدير السجن، العقيد تشاشا شفيلي.

تبادلنا أنا وسليم نظرات تذكّر بأنّنا كنّا نتوقّع هذا. يريدون مجدّداً أن نعود خطوات وسنوات إلى الوراء. هذه سياسة بتنا نعرفها. في كل فترة يسحبون ما أمكن من مكاسب حقّقناها لتغدو مطالبنا محصورة بها، وإذا ما تحرّكنا يعطوننا ما سبق أن أخذناه.

رمقتُه متحدّياً.

— «أرجوك لا تزعل ولا تعملوا مشاكل»، توسّل.

تركتُ ملامحي على حالها. أضاف:

— «لا شيء يدوم، انتظروا».

لم أجبه. أردتُ أن يغرق أكثر. انسحبت. لحق بي:

— «أريد أن أذهب في عطلة الأسبوع إلى بيتي للقاء أسرتي، هل ستفعلون شيئاً؟».

لم أُجِب.

توسّل إليّ:

— «أخبرني».

ابتعدنا أنا وسليم صامتين.

— «سأتركه هنا، ولن أدعه يعطّل ويرى أسرته»، همست لسليم. كبتنا ضحكة شامتة.

فكّرنا، أنا وجبر وسليم زريعي وكريم يونس، في اجتماع اللجنة الوطنية، أن مدير السجون عمير يريد استدراجنا إلى أزمة يسحب فيها بعض المكاسب ويعيد صوغ حقوقنا وقواعد السجن.

— «هذا ميمون الجديد»، قلنا. وقرّرنا انتظار خطواته التالية.

لم يتأخّر. طلب مقابلتنا. أخبرني بهذا مدير السجن، في نهاية الأسبوع. بقي الجبان في السجن ولم يسمح لأحد من عناصره بالمغادرة.

اتّفقنا على ألاّ نمد أيدينا لمصافحة عمير إلاّ إذا بادر هو. لم يفعل وبقيت يدي في جيبي، حتى أخذنا مواقعنا حول الطاولة. أنا في مقابله وكل فريق إلى جهة.

بوجهٍ ناشف يجزم أنه لن يستجيب ولن يعطي شيئاً سألني:

— «ما مطالبكم؟».

بوجهٍ ناشف يجزم أننا نصرّ على مطالبنا وحقوقنا، أجبته:

— «إزالة الفصل بين قسمي السجن، السماح بالتزاور بين القسمين والزنازين، تقليص التفتيشات المفاجئة، تحسين وضع الطعام الذي تردّى في الآونة الأخيرة، تحسين العلاج السيئ دائماً، إزالة العوازل عن الشبابيك التي تجعلنا لا نرى منها

شيئاً في الخارج، يتسلل منها الضوء فحسب، وقف التفتيش العاري للأسرى أثناء ذهابهم وإيابهم».

رفضها كلّها. كأنه أراد من هذا اللقاء تأكيد أنه لا يفاوض ولا يغيّر سياسته. يريدنا أن نسمع رفضه مباشرة، لا أن يسمع هو مطالبنا. وقف معلناً انتهاء اللقاء. نهض الجميع في اتجاه الباب. في لحظة وصول كريم إلى جانبه، من جهته اليسرى، مدّ عمير يسراه. استدرجه إلى ردّة فعل عفويّة. مدّ كريم يمناه. صافحه. بدا عمير متكبّراً علينا يصافح بيده اليسرى. نبّهت الشباب من تكرار ما فعله مع كريم. ابتعدوا عنه، تراجعوا في اتجاهي. خرجنا من الجهة الأخرى للمكتب.

عقدنا اجتماعاً طارئاً. قلت:

– «لن ندعه يفرض الأمر الواقع. علينا الإعداد لإضراب».

دعا جبر إلى التفكير في الظروف الصعبة التي يعيشها الفلسطينيّون بعد الانهيارات العالميّة والانكسارات الإقليميّة والمحليّة.

طمأنني موقف سليم المؤيّد للإضراب، فأعضاء تنظيمه، فتح، أكثر من نصف الأسرى. لم أستصعب التوصّل إلى اتفاق مع جبر والجبهة الشعبيّة.

تواصل الحوار. لأيام بقيت الخريطة على حالها. جبر يصرّ على أهميّة الخارج وإنضاج الظروف، وأنا وسليم نقول إن علينا نحن إنضاج الظروف وتحريكها في الاتجاه الذي نريد:

– «ترك جيشنا خامداً مستسلماً بينما تُسحب منّا المكتسبات والحقوق، يؤدّي إلى التشتّت والترهّل. . . وأخيراً إلى الصدام مع الإدارة. وهذا يخسّرنا ومكلف».

وجبر على رأيه:

– «لسنا ضد الإضراب، نحن نرى أن وضع شعبنا صعب، ولا تسمح ظروفه بالتضامن معنا ومؤازرتنا. والسجون الأخرى قد تعجز عن الإضراب».

توصّلنا أخيراً إلى تأليف لجنة موسّعة تشاوريّة غير مقرِّرة، من كادرات الأسرى، لدراسة الموضوع.

طلبتُ أن أشارك فيها. تحفّظ جبر:

– «أنتَ ممثّل الأسرى وعضو اللجنة الوطنية، اترك اللجنة تدرس الموضوع بدون تأثيرنا».

– «هذا ما لا أريده». لم أخفِ هدفي على جبر والآخرين.

يوماً فيوم يزداد اقتناعي بالإضراب وضرورته وقدرتنا عليه وعلى تحمُّل نتائجه إذا ما سقط شهداء. معظم الأسرى في حالة معنويّة مرتفعة، وقد التزموا قرار وقف التدخين الذي تنتهي مفاعيله قريباً.

راسلنا اللجان الوطنية في السجون الأخرى، نسألها رأيها في الإضراب.

أحسست بمسؤوليّة مزدوجة تجاه أسرى العمليّة البحريّة الذين جاؤوا بهم إلى سجننا. فهم من جهة رفاقي في الجبهة، ومن جهة أخرى أوصاني بهم أبو العبّاس. اثنا عشر شابّاً، من سوريا والأردن ومخيّمات لبنان، منذ رأيتهم واستقبلتهم، ارتحت للطيبة التي تبدو في ملامحهم. أحسست أنّهم متشوّقون للاستقرار وبحاجة إلى من يعينهم على ذلك. همست لهم بأن ينسوا خلافات الجبهة، بين أبو العبّاس والقيادة في دمشق. هنا، نحن في مواجهة مع واقع اسمه العدو. ومفروض علينا أن نحفظ وجودنا وانتماءنا ودورنا. وطلبت أن يكتب كلٌّ منهم تقريراً عمّا حصل أثناء تنفيذهم العمليّة.

اخترنا، في الباحة، مكاناً وسط زحمة الأسرى وضجيجهم، واجتمعنا مع اللجنة التشاوريّة الكادريّة. عرضنا أمامها الوضع والرأيين.

بدأ النقاش. لساعات وأيّام تتكرّر فيها الآراء والعبارات ذاتها. انقسمنا. الأكثريّة مع الإضراب.

«لا يمكن السير إلى الإضراب إلاّ بموافقة الجميع»، ردّوا علينا.

— «نُجري استفتاءً»، اقتُرح.

اتّفقنا.

قصدتُ سليم:

— «عليكَ العمل جيّداً مع جماعتك لإنجاح خيارنا. أنا أتكفّل بالآخرين».

نشط سليم، ومع حلول موعد الاستفتاء كان قد ضمن غالبيّة عناصر فتح.

أعددنا التقرير. شرحنا فيه الرأيين والأسباب الموجبة لكلّ منهما ثم التصويت، وطلبنا مناقشة الأمر داخل الزنازين. مساءً، وزّعت النسخ على الزنازين. ليلاً، كتب كلٌّ من الأسرى موقفه في رسالة، ووضعها في مظروفه الخاص. صباحاً، جمع موجِّهو الزنازين الرسائل مغلقة ومن دون أسماء. سلّموها إلى اللجنة الوطنيّة.

فرزنا الأصوات بحضور كامل أعضاء اللجنة.

حصل خيارنا على الأغلبيّة. بارك لنا جبر. خلص. انطلقنا معاً للإعداد للإضراب.

ألّفنا، أوّلاً، أربع لجان نضاليّة للأقسام الأربعة في السجن. فهذه الخلايا الصغيرة جدّاً، قيادة الظل إذا ما عُزل أعضاء اللجنة الوطنية. ويتم اختيارها من عناصر مخلصة وكفوءة. فعلنا هذا لأنه في الإضراب تُفصل الأقسام. وضعنا خطّة عملها في مظاريف وأقفلناها وأخفيناها في مخابئ، لا يُسحب منها ولا تُفتح إلاّ إذا آلت القيادة إلى اللجان النضاليّة تلك. وكل لجنة تطلع على الخطّة تعيدها إلى مخبئها، فإذا عُزلت هذه اللجنة، فهناك لجنة أخرى تحلّ بدلاً منها. وهكذا.

كتبنا البيانات السياسية. هرّبناها عبر الأهل والمحامين. وحدّدنا موعد إيصالها إلى المؤسسات والإعلام. أعددتُ بالعربيّة الرسالة التي سنوجّهها إلى الإدارة، عرضتها على اللجنة الوطنية، وبعد ذلك تُرجمت إلى العبريّة.

وصلتنا ردود السجون الأخرى: «الظروف غير مناسبة للإضراب».

سلّمني رفاقي في الجبهة تقاريرهم. ملخّصها أن قائد السفينة الرائد في البحرية الليبية، قرّر إنزال الزوارق الستّة على بعد ٣٠٠ ميل من الشواطئ الفلسطينية بدلاً من ٨٠ ميلاً. لأن الليبيين شعروا بأنهم تورّطوا في العملية ولا يريدون لها أن تنجح وأن يتحمّلوا تبعات نجاحها. هذا الضابط قال للشباب إنكم على بعد ٨٠ ميلاً عندما أنزلهم الساعة الخامسة بعد الظهر. وكان من المفترض أن يبدأوا عند الساعة الحادية عشرة ليلاً بإطلاق صواريخ كاتيوشا ١٠٧ ملم باتجاه تل أبيب من راجمات مثبّتة على الزوارق وهم يتقدمون نحوها، لكن الزوارق نفد الوقود منها باستثناء زورق واحد تعطّل فنقلوا الوقود منه إلى زورق آخر، وأغرقوا الزورق الذي تعطّل. وقد وصل هذا الزورق ظهر اليوم التالي. اشتبك ركّابه مع قوّة إسرائيلية وقُبض عليهم وقبض على الآخرين في زوارق ليس فيها وقود وهم نائمون فيها.

كتبت رسالة إلى أبو العبّاس طمأنته فيها على الشباب وأوضاعهم وعنوانهم، وأطلعته على أنّهم اندمجوا تنظيمياً في الحركة الأسيرة. غلّفت رسالتي والتقارير معاً لأرسلها إلى أبو العبّاس، هو من خطّط للعمليّة وأشرف على تنفيذها، ولا يجوز أن أوجّهها إلى القيادة في دمشق رغم أنني قريب منها سياسيّاً.

هرّبتها.

أحسّت الإدارة بحركة كثيفة في السجن. في ١٩/٦/١٩٩١، قبل يومين من الإضراب المحدّد في ٢١ منه، استدعونا، أنا وجبر وسليم وكريم. وجدنا في مكتب الإدارة قائد المنطقة الجنوبيّة في مديرية السجون، العميد ميخائيل بن شاحر، والعضوين في الكنيست هاشم محاميد ومحمد نفّاع من الجبهة الديموقراطية للسلم والمساواة، والثاني عضو في الحزب الشيوعي، وقد سبق أن زارانا للاطلاع على أوضاعنا ونقل صوتنا إلى الكنيست ومؤسسات أخرى وعبر الإعلام.

اكتشفنا أن النائبين استُدرجا إلى خدعة. حين تحدّثنا عن رداءة الطعام قالا:

— «جلنا على المطبخ والمخازن ووجدناها ممتلئة بالطعام والفاكهة».

— «ربّما هذه للإدارة أو أحضرت قبل قليل لتروها أنتم، أما نحن فلا نحصل إلاّ على القليل والرديء».

رددتُ عليهما ونظري إلى قائد المنطقة.

هزّ رأسه ساخراً موحياً بأنني أكذب أو أبالغ. لم ينطق بكلمة. نظرتُ إلى مدير السجن وكأنني أستدعيه إلى الكلام، وكلّي ثقة بأنه لن يفعل. فهو يخافني فكيف يكذب أمامي الآن. بقي صامتاً هو أيضاً.

تقمّص بن شاحر دور الواعظ ذي الخبرة الداعي إلى التروّي:

— «كنتُ برتبة مقدَّم مسؤولاً عن معتقل أنصار في لبنان، وكان لديّ خمسة آلاف سجين لم يعملوا مشاكل مثلكم».

نظرتُ إليه بامتعاض:

— «أولئك أسرى مؤقّتون، أما نحن فباقون في الأسر مدى الحياة، ولدينا حقوق نناضل لننالها».

انتقلنا إلى زاوية في المكتب، نحن وعضوا الكنيست. سألنا هاشم محاميد:

— «سمعنا أنكم تنوون الإضراب؟».

لم نُفاجأ ولم نخفِ:

— «هذا خيارنا الوحيد، المديرية لا تستجيب لمطلبنا الأساسي، رفع حال الطوارئ».

ليس في كلامنا هذا ما يشير إلى ساعة الصفر.

— «أعطوا فرصة للحوار».

اقترحا علينا. وأشار هاشم بيده نحو مدير المنطقة، البعيد عنّا، مضيفاً:

– «وُعدنا بتأمين ما تطلبونه».
رددتُ بسرعة:
– «نحن نريد إنهاء حال الطوارئ».
عدنا إلى حيث كنّا جالسين مع مدير المنطقة ومدير السجن. كرّر محاميد كلامنا على بن شاحر وتشاشا.
ردّ بن شاحر:
– «إنهاء حال الطوارئ يحتاج إلى قرار مدير السجون».
أكّدت لنا عبارته أن لا قرار في هذا الشأن، وأنهم يريدون كسب الوقت وتراجعنا عن قرار الإضراب، ليس إلاّ.
خرجنا من اللقاء من دون اتفاق. واصلنا الاستعداد للإضراب.
عشيّة السبت، ١٩٩١/٦/٢١، جمع موجِّهو الزنازين الطعام باستثناء الملح الذي نتناوله أثناء الإضراب كي لا تتعفن المعدة. هذا تقليد متّبع منذ بدء الإضرابات.
صباحاً، وكان أوّل أيام عيد الأضحى، سلّمتُ إلى ضابط العدّ رسالة تعلن الإضراب.
أخرجنا أكياس الطعام كلّها. أتى ضباط الإدارة. طلبوا من المردوان نقلها إلى المخزن بجانب القسم. أغلقوا الأبواب. لا خروج من الزنازين. الشرطي يتنقّل في الممرّ، بين حين وآخر.
جلست لمتابعة كتاب بالعبريّة عن الاستخبارات العامّة الإسرائيليّة. بعد ساعات أتى ضابط وقف أمام باب زنزانتي:
– «سمير جهِّز نفسك».
تابعَ جولته مخبراً جبر وكريم وخليل الراعي وستة آخرين بأننا سنُنقل إلى سجن آخر. لم نستغرب شمول كريم غير المُضرب لأسباب صحيّة، فهو عضو في اللجنة الوطنية.
جمعتُ أغراضي ووضعتُ بينها راديو عسى أن ينجو من التفتيش.
كلبشونا وأخرجونا إلى موقف السيارات. خمسٌ منها تستعدّ لنقلنا. أشاروا إلينا أنا وكريم بأن ندخل عبر الباب الخلفي للسيارة إلى القفص. يتّسع لأربعة أسرى، بيننا وبين السائق طاقة صغيرة يطلّ من خلالها ليرى ما يجري عندنا. وبيننا وبين

الباب الخلفي شبك ومقعدان يجلس عليهما شرطيّان. جلسنا في الزنزانة المتنقّلة لا نعرف إلى أين نتّجه، ولا إلى أين يؤخذ جبر والآخرون. بدا لي أننا في مولّد الهدوء، نسمع ضجيجه وسيره فوق الإسفلت واختراقه الهواء.

الحر داخل القفص يزيد ذبولنا. عادةً ما نحكي كأسرى، في ما بيننا، قصصاً عمّا يجري معنا، لكنها تبدو أخباراً، إذ نرويها عندما نعرف بها أو نراها أو تحصل معنا، فلا تنام قصّة ولا يتصرّف أحد أنه يعرف قصّة لا يدركها الآخرون، باستثناء الأسرار. هكذا تُستبعد صيغٌ كثيرة من الكلام. مثل القول إنَّ الحرّاس أثناء نقل الأسرى يوقِفون السيارات في مكانٍ ناءٍ ويضربونهم ويسرقون ما لديهم. ومثل أن الشرطيّين يتعمّدون إطالة الطريق أثناء نقل الأسرى، فيوضع في سيارة واحدة أسير مُرسل إلى سجن مع أسير منقول إلى سجن آخر، وعلى الطريق تتوقف السيارة في غير محطّة، وأثناء التوقّف يتناول الشرطيون الطعام ويأخذون راحتهم، وربما ينامون. هذه الصيغ في الكلام تُقال لأسير جديد. فالقصص في السجن، تتراكم ومرتبطة بحياتنا، لا قصص مجانيّة، هي عالمنا وروزنامتنا ولغتنا. وفي حالة كحالتنا أنا وكريم، الحكي ذو أسس ومعانٍ ولعلّه يبدو مشفَّراً، سواء أردنا ذلك أو لا. والسبب هو أننا نعرف الكثير من حياة السجن ونعرف الكثير من قصص الأسرى والأحداث. الحياة المشتركة تجعلنا ننطلق في العد من الرقم الذي وصلنا إليه لا من الصفر.

فكّرتُ بهذا على «هدير البوسطة» كما تقول فيروز، ومع سماعي كريم يهمس لي:

— «قبضاي محمود».

أدركت أن كريم الذي أرى شعر رأسه الأبيض أكثر ممّا تظهر لي ملامح وجهه الأسمر، يتذكّر ما قام به محمود، الذي ضاق ذرعاً باعتداءات الشرطة على الأسرى، بما في ذلك المرضى الذين يُنقلون إلى المستشفى. فسجّل اسمه مع المرضى ليُنقل إلى المستشفى. أخفى شفرة في ثيابه وحين أوقف الشرطيون البوسطة وأنزلوهم منها ليضربوهم سحب الشفرة وانهال عليهم بيده اليمنى المحرَّرة من الكلبشة، فاليسرى معقودة بيد زميل له. شطب وجوه عدد منهم.

— «أخ لو يفعلون معي هذا»، تمنّيت.

— «لا يجرؤون. يفشّون خلقهم بالمساكين».

رغم معرفتي بهذه الحقيقة، آلمتني. قلتُ بحرقة:

— «ربّوهم المساكين».

وصلنا إلى سجن بئر السبع، سجني الأسبق الذي تحوّل للمدنيين، كي نكون بعيدين عن الأسرى. فتّشنا الحرّاس. كيسي من مهمّة حارس إثيوبي. عيني عليه، لكني لا أرى ماذا يفعل.

أدخلوا كلاًّ منّا زنزانة، يفصل بيننا حائط. لديّ سريران أحدهما فوق الآخر. يمكنني الاختيار. وحمّام. عزلٌ كامل. بدأتُ سحب أغراضي من الكيس. وجدتُ الراديو. لم ينتبه إليه الحارس، أو لعلّه فكّر أنه مسموح ما دام معي ومرّ من حرّاس سجن نفحة. عال. وضعته في الزاوية كي لا يسمع أحد صوته. التقَطت إذاعة القدس. توقّعت أن تحكي عن الإضراب. ناداني كريم من باب زنزانته. التصقتُ بالباب لنتحدث. صرخ لنا سجين جنائي في زنزانة مقابلة، من القدس، نبّهنا إلى وجود جاسوس في زنزانة مجاورة. وضعوه ليتنصَّت علينا.

لجأنا إلى الكلام بالشيفرة.

أرهقني الانتقال. الإضراب منعزلاً بعيداً من الرفاق متعب. وزاد من تعبي وتململي حركة السجناء الجنائيين في القسم. يضجّون ويسهرون ويتناولون الطعام في أوقات مختلفة، وكأنهم يأكلون على مدار الساعة. والروائح تملأ المكان.

انتظرتُ يومين سماع خبر الإضراب على الراديو. في الثالث ورد. ذكر أننا عُزلنا. فكّرت أن رفاقنا في نفحة غير المضربين الذين يُسمح لهم بمقابلة أهلهم، هم الذين سرّبوا الخبر لأُسرهم وللمحامين. تمام. صرتُ أتوقّع وصول الخبر إلى السجون الأخرى وحركة ما في الخارج.

الاستجابة بطيئة، اعتصامات وتظاهرات محدودة يقوم بها أهالي بعض الأسرى.

جاءني في اليوم الرابع المحامي طلب الصانع، من الحزب الديموقراطي العربي:

— «ماذا يحصل معكم؟».

سألته عمّا إذا كان يعرف مكان عزل جبر والآخرين.

— «هنا في بئر السبع، في مبنى آخر. سأزوره الآن».

وسألته عن أصداء الإضراب في الخارج، وما إذا كانت هناك تحرّكات تضامنيّة.

— «خفيفة».

طلبتُ أن ينشط حزبه لدعمنا. وعدني بنقل الأمر إلى الأحزاب والمؤسسات والجمعيات الفلسطينيّة.

متلهّفاً أنصتُ للراديو بحثاً عن خبر انضمام سجن إلى الإضراب، تنظيم اعتصام في الخارج، تظاهرة. العادة أن تلتحق السجون بإضراب سجن، حتى لو لم تكن موافقة.

لا شيء.

مصدوماً أسأل كريم عمّا يحصل. يلوذ بالصمت. صخب السجناء يجعل رأسي راديو لا يمكن إطفاؤه أو خفض صوته. تؤازره الروائح.

بعد أيام استُدعيتُ إلى الإدارة. في انتظاري ضابط أراه للمرّة الأولى. نائب مدير سجن بئر السبع. عاجلني:

— «ستفكّ الإضراب يا سمير أم لا؟»

— «لا».

— «ها أنت ترى، الإضراب لم ولن يأتي بنتيجة، لا أحد يسمع به، ولا أحد يفعل شيئاً لأجلكم. ما رأيك أن نعيدكم إلى نفحة وتنهوا هذه القصّة؟»

— «حتى لو أعدتموني إلى لبنان، لا إلى نفحة، لن أوقف الإضراب، حتى يفكّه الشباب في نفحة. قرار وقف الإضراب في نفحة».

تساجلنا. وهو يكرّر لي:

— «عد إلى نفحة وأنْهِ الموضوع».

— «مَن قال لك إنني مستعجل على العودة إلى نفحة؟»

وأخيراً، طلب إعادتي إلى زنزانتي.

ضجري وتململي يتفاقمان على إيقاع السجناء الجنائيين في القسم. ضجيج لا علاقة لنا، أنا وكريم، به، مستهتر بنا، زُرعنا وسطه عمداً، لنشعر بأننا خارج الكوكب، وبأن الكوكب يسير وتفوح منه روائح الطعام والقذارة.

متثاقلاً خرجتُ من باب زنزانتي الذي فُتح بعدما سمعتُ باب زنزانة كريم يُفتح. سألتُ الحارس إلى أين يأخذنا. لم يُجب. أشار إلينا بالسير أمامه في الممر. فُتح باب القسم، ومشينا في ممر آخر. . . نحو الباحة. . . فحصنا طبيب وأُعدنا في الطريق ذاتها.

فقدتُ القدرة على عدّ الأيام. يوماً ما، أُخذت، داخل السجن، للقاء المحامي تسفي ريش من المنظمة الإسرائيليّة للحقوق المدنيّة:

— «كلّفتني جمعيات فلسطينيّة أن آتي للاطلاع على أوضاعكم. وأنا مستعدّ، إذا ما أردتم أنتم، لرفع دعوى أمام المحكمة على مدير السجن لعزلكم من دون عرضكم على اللجنة المختصّة».

أبديتُ موافقتي وطلبتُ إليه عرض ذلك على رفاقي المعزولين مثلنا، ومنهم كريم يونس وجبر وشاح وخليل الراعي الموجودين معنا في سجن بئر السبع لكن في أبنية بعيدة عنا.

جال على الرفاق وعاد إليّ. عرض عليّ نص الدعوى والاعتراض على العزل العشوائي، من دون مسوّغات وإجراءات قانونيّة، ومن دون إخبارنا بذلك أو إشهاره... ويسأل بأيّ حقّ يفعل المدير ذلك. وقّعتُ وانطلق. لا يهمّني أن نربح الدعوى. هدفي أن ألتقي رفاقي، في المحكمة، لنعرف ما يجري وما علينا فعله.

فجأةً، في اليوم الخامس عشر، جاءني ضابط واصطحبني إلى مكتب وجدتُ فيه وفداً من الصليب الأحمر الدولي. استغربت ذلك. وحيّرتني أكثر أسئلة أعضائه عن صحّتي. لم نتحدث عن الإضراب ولا عن أيّ شيء آخر.

نقلتُ تساؤلي إلى كريم. أجابني بأنه ربما وصل إلى الصليب الأحمر خبر عزلي.

— «لكن ليست هذه المرّة الأولى التي أُعزَل فيها، ولستُ وحدي، ولا هي أوّل مرّة يُعزل فيها أسير...»، رددت عليه.

نسيَت إذاعة القدس الإضراب. وإذاعة إسرائيل تتجاهله.

ليل اليوم السادس عشر صرخ لي كريم من زنزانته:

— «سمعتُ عبر إذاعة إسرائيل أن الإضراب فُكّ في نفحة».

— «هل قالت على أيّ أساس؟».

— «مرّ الخبر باختصار، في آخر النشرة».

علينا أن ننتظر. لا يمكنني فكّ الإضراب إلاّ متى أبلغتني اللجنة النضالية في نفحة ذلك. تعبي يزداد، يغذّيه جهلي كيف انتهى الإضراب، رغم اطمئناني لوجود سليم زريعي في نفحة.

أرسل إليّ الشباب في نفحة، بعد ظهر اليوم التالي، محامية من غزّة لتخبرني بوقف الإضراب.

— «على ماذا اتّفقوا؟»، سألتها.

— «لم أطّلع على تفاصيل الاتفاق. عرفت أنه تحقّقت بعض المطالب. وطلبوا إليّ إبلاغك وقف الإضراب، ووعدوا بأن تُعاد أنت ورفاقك المعزولون إلى نفحة».

ارتحت لكون الإضراب أنجز من دون شهداء. كنتُ أتوقّع ألاّ تلتفت مديرية السجون إلينا، إلاّ إذا سقط شهداء وتحرّك الشارع تضامناً معنا. والتساؤلات عن الاتفاق وماذا يحصل تتكرّر في رأسينا أنا وكريم. وإذ يُصارح كلٌّ منّا الآخر بها، لا لكي يسمع أجوبة، فكلٌّ منّا يعرف أن لا أجوبة لدينا، بل لنفكّر معاً ونتغلّب على عزلتنا. حتى بدت لنا تلك التساؤلات وتجدّدها على لسانينا تمريناً عبثيّاً مملاً.

مرّ يوم، يومان، أسبوع، أسبوعان:

— «ماذا يحصل يا كريم؟»، أسأله، يجيبني:

— «ماذا يحصل يا سمير؟».

— «ماذا يحصل يا سمير؟»، يسألني وأجيبه:

— «ماذا يحصل يا كريم؟».

حتى اصطحبنا ضابط إلى غرفة الزيارات. أُمّ كريم وأمّ جبر تبكيان. استعادت التساؤلات نشاطها وكثافتها وقلقها. خفتُ على جبر، إلى أن نقّيتُ كلامها عن بكائها، وساعدني في ذلك كريم وأمّه:

— «قالوا لنا إنّكَ استشهدت».

ضحكتُ أنا وكريم، لنخفّف عنها ونهدئها:

— «ها أنا أمامك، لو استشهدت لما أمكنني أن أعود».

غالَبتْ بكاءها. ووجهها سريع الابتسام. عيناها الصغيرتان وخدّاها المنتفخان يوحيان دائماً أنها تضحك.

سألتها عن جبر.

— «بالعزل مثلك».

— «مَن قال إنني استشهدت؟»، سألتها بعدما تأكدتُ من تماسكها واطمئنانها عليّ.

— «أُمّ أسير في نفحة زارت ابنها وهو أخبرها، وهي أخبرتني».

قطعت أمّ كريم نظرة تواصل بيني وبين كريم، لكنها تكفّلت تأكيد ما فكّر به كلٌّ منّا، بأن الشباب أطلقوا هذه الكذبة لتغدو شائعة وتسهم في الضغط على مديرية السجون.

تدخَّلت أم كريم، كأن لتقول ما تترفّع أم جبر عن النطق به، تجنّباً لمديح نفسها:

– «والله، أم جبر أقامت الدنيا ولم تقعدها في غزّة، تظاهرات واعتصامات».

انقلبت أم جبر على خجلها وأخذت الكلام في مسلك آخر:

– «آه ويللا، شو يقتلوا ولادنا هيك ببلاش. وما صدّقت مدير السجون إللي نفى الخبر حتى قلّنا الصليب الأحمر إنه زارك وشافك بخير، وطلّع بيان».

– «والله لو أن الشباب لا يعرفونكِ ويعرفون ما تفعلينه لما كانوا كذبوا هذه الكذبة. أوصلوها لكِ لتهبّي وتحرّكي النساء معنا وتدعمي الإضراب».

بعد شهر ونصف سلَّمنا ضابط رسالة من المحكمة تحدّد يوم غدٍ موعداً للجلسة.

– «لن تأتي هذه المحكمة لنا بشيء»، قلتُ لكريم من خلف باب زنزانتي.

ردّ كريم من زنزانته:

– «ستُشرّع العزل، وربما تجدّده».

همّنا أن نلتقي بالرفاق في المحكمة لنعرف ما الذي جرى ويجري، كيف انتهى الإضراب ولماذا لا نزال في العزل!

تمنينا أن يكون جبر والمعزولون الآخرون قد تمكّنوا من الحصول على معلومات، ولا سيما أن بعضهم في سجن عسقلان وسط الأسرى، وليسوا مثلنا بين سجناء جنائيين لا علاقة لهم بقضيتنا.

تسلّمتنا، أنا وكريم، الشرطة المدنية من شرطة السجون. نقلتنا مكلبشين في قفص البوسطة إلى محكمة مدنيّة في بئر السبع.

التقيتُ جبر في نظارة المحكمة، حيث انتظرنا دورنا قبل دخول القاعة.

استفسرته عمّا حصل في الإضراب. همس لنا:

– «نقيب المحامين في غزّة، فريح أبو مدين، ومعه وفد من المحامين وقائد المنطقة ميخائيل بن شاحر، قصدوا نفحة أثناء الإضراب واجتمعوا إلى سليم والشباب، ووعدوهم بتحسين الأوضاع».

– «وعود؟»، سألنا أنا وكريم مصدومين.

– «قال أبو مدين لسليم والشباب أوقفوا الإضراب وستُنفّذ مطالبكم»، أضاف جبر بإحباط وأسف. هو نفسه، رغم معرفته ذلك منذ مدّة، غير مصدّق أن خدعة كهذه تنطلي على الشباب، وأنهم اقتنعوا بأن المدير سينفّذ وعداً شفهيّاً أُطلق في الهواء.

– «وما علاقة نقيب المحامين بالأمر، أهو محامٍ أم وسيط؟ لو أتى محامو العرب كافّة بوعود لا أقبل ولا أوقف المفاوضات»، قلتُ غاضباً.

– «كيف يوافق سليم زريعي على هذا؟»، كرّر كريم كأنه يتمتم.

لم أكترث بالمحكمة وما حصل فيها، في هذه الجلسة وفي الجلسة التالية أيضاً. تأكّدت حين رأيت الصحافيّين والصحافيّات داخل القاعة، أنَّ الهدف منها إعطاء مديريّة السجون صكّ براءة. في الجلسة الثالثة أُعطيت مديرية السجون حقّ عرضنا على لجنة منها كل ستين يوماً، وحق هذه اللجنة التقرير في شأن عزلنا وتجديده.

عدنا أنا وكريم كما ذهبنا إلى زنزانتينا في بئر السبع. الأيام تنسخ نفسها.

صباح يوم معتدل مطلع شهر أيلول/ سبتمبر اصطحبنا الحرّاس أنا وكريم، داخل السجن لنُعرض أمام لجنة من مديرية السجون. أدخلوني أوّلاً. وجدتُ قائد المنطقة الجنوبيّة في المديرية، ميخائيل بن شاحر، ومدير السجن ليبكوفيتش، ومسؤول الاستخبارات في المنطقة، أفي فكنن. قرأت اسمه مطبوعاً على صدره لجهة اليسار. جلت بنظري على الغرفة كأنّي أصوّرها وأحفظ موجوداتها.

يجلسون خلف طاولة كما لو أنهم هيئة محكمة. شعرت بأننا أُدخلنا مسرحيّة هشّة، ولا سيما أن رئيس اللجنة بن شاحر أتى إلى سجن نفحة قبل الإضراب واجتمع إلينا وفاوضنا. وعنوان المسرحيّة، انتهى زمن التفاوض وعاد كلٌّ منّا إلى موقعه: أنتم سجناء ونحن الإدارة ونمثّل القانون ونطبّقه.

ضحكتُ بما أمكن من الهزء البارد. مسَّتهُم كهرباء سخريتي الصامتة.

راح رجل الاستخبارات يقول:

– «هذا سمير القنطار. يتبوّأ مراكز قياديّة. يقود تنظيم جبهة التحرير الفلسطينيّة داخل السجن ويتصل بالمخرّبين في الخارج. ينظّم السجناء الأمنيين. برغم وجود معارضة واسعة للإضراب استطاع إقناع الغالبيّة والسير بالإضراب...».

صدمتني هذه العبارة. من أين حصل على هذه المعلومة؟ لا شكّ في أننا مخترقون، ولديهم عميل قريب جدّاً. وبدأتُ أستعرض الشباب معي في السجن واحداً واحداً. لم أتوقّف عن الإنصات له. ذكّرني بأجواء التحقيقات. بقيتُ صامتاً أضاعفُ في ملامح وجهي وابتسامتي جرعات استخفافي بما يقوله.

انتهى من مرافعته فسألني بن شاحر:

— «ألديكَ ما تردّ به عليه؟».

خفضتُ رأسي في ذروة ابتسامتي واستخفافي:

— «ما الجديد الذي يقوله، أنت تعرفني. أتيت إلى نفحة قبل الإضراب وفاوضتنا. وقلت لك إذا لم تحقّقوا مطالبنا فإن هذا السجن سيشتعل. والآن إذا أعدتني إلى نفحة فسأفعل الأمر نفسه، وسنضرب إذا لزم الأمر. ما لزوم هذه التحرّيات والادعاءات أكثر من القول إنه قام بواجبه المدرسي، وما عليكما إلاّ التصفيق له».

تململ رجل الاستخبارات في كرسيّه. استعاد دوره في عرض عضلاته الاستخبارية للإيحاء بأنه يعرف عنّي كل شيء:

— «هذا متطرّف، لا يتوقّف عن التحريض. لهذا أقترح أن نبقيه شهرين في العزل، وإذا ما غيّر سلوكه نرجعه إلى السجن».

رددت:

— «أنا أصلاً في سجنكم، وطبيعي أن تعرفوا عني هذه الأمور».

رجل الاستخبارات يقفز في مكانه. يلتفت إلى مدير المنطقة وكأنه يسأله كيف يتركني أقول هذا. ثم ينظر إليّ كثورٍ هائج.

خاطبتُ بن شاحر مهملاً رجل الاستخبارات:

— «والآن ماذا ستفعل؟».

— «ستعود إلى زنزانتك».

— «هيّا».

انتظرتُ في زنزانتي كريم. أتحرّى في ذاكرتي مَن العصفور الذي أوصل لهم هذه المعلومات.

— «جدّدوا عزلنا»، أخبرني كريم.

رددت باختصار وكأنّي أعلك كلماتي:

— «هناك عصفور في نفحة».

لم يهدأ لي بال حتّى جاءني محامٍ حمّله رفاقي في نفحة خبر اكتشافهم عميلاً في زنزانتي:

— «موسى غ. أثناء الإضراب، انتبه الشباب إلى أنّه غير مضرب وينشط بين الأسرى لزعزعة ثقتهم بالإضراب. تابعوه حتى رأوه يجتمع إلى ضابط الأمن في السجن. وقبل أن يبدأ التحقيق معه سحبته الإدارة ونقلته إلى سجن آخر. لا يُعرف أين هو الآن».

خفض المحامي صوته كأنه يقول إن البحث عنه جارٍ.

صدمني. لم نشعر بتعامله قبل ذلك. مرّت في رأسي أحاديث طويلة معه. انتبهتُ الآن إلى أنه حَذِق وطيّع اللسان يتقصّى الأخبار ويعرف منها الكثير.

وضعوني، في سجن نفحة، في زنزانة أخرى غير الزنزانة التي كنتُ فيها قبل شهور العزل السبعة. انتظرتُ حتى صباح اليوم التالي وطلبتُ إلى الضابط إعادتي إلى زنزانتي. هناك أُخفي أشياء وأوراقاً أريد الاطمئنان عليها، وما إذا كان موسى عرف بها وبمخابئها أو أخذها. فعلتُ ذلك مهدّداً لأجسّ نبض الإدارة في تعاملها معي. استجابتها تعني أنها لا تريد المشاكل، أمّا رفضها فيعني أنها تعتبرنا كُسرنا وتواصل سياسة المديرية المتشدّدة. وهناك سبب آخر لطلبي، وهو الوجود مع رفاقي في الجبهة، الموجودين في زنزانتي. أثق بأنهم سينقلون إليّ ما جرى وقصّة موسى. وأطمئن إليهم وسط إحساسنا بأننا مخترقون بالعملاء الذين لا نعرف عددهم.

في الزنزانة، في الممرّ، في الباحة، كل مَن ألتقي به من الأسرى يعبّر عن غضب من اللجنة النضالية التي تولّت القيادة بعد عزلنا والطريقة التي أنهت بها الإضراب. الجميع بين الإحباط والتشتّت والغضب.

أحسستُ أن عودتنا، أنا وكريم وجبر، أعادت الزمن سبعة شهور.

— «طوّلوا بالكم»، أردّد أو ألوذ بالصمت. خفتُ من اندلاع حفلة مزايدات

قبل شروعنا بتقويم ما جرى. صورة موسى لا تفارقني. كل مَن يحدّثني أقيس نبرته وأزِنُ مفرداته وأقلّبها، وأستعرض تاريخه ومعرفتي به.

الابتسامة على وجوهنا، جبر وكريم وأنا، حين رأينا بعضنا في الباحة، تعبير اشتياق واستعادة ذاكرة عن لحظة كانت مفتوحة على احتمال جميل لكنها بُترت، أو عُلّقت. والكلام بيننا استؤنف منها، كأن لا شيء قبلها. وقد اضطرّت الإدارة إلى العودة معنا إلى تلك اللحظة. فبعد المحكمة وعرضنا على اللجنة، وجدت نفسها في أزمة إذا أعادتنا هي قلقة من استئنافنا نشاطنا وعملنا، وإذا تركتنا في العزل أو شتّتنا لا تضمن أن السجن سيبقى هادئاً ولن تتدهور الأمور نحو التوتّر والصدام. آثرتْ إعادتنا وخفّفت ضغوطها على الأسرى.

متردّداً انضمَّ إلينا سليم زريعي. حرارة المصافحة مسكونة من جانبنا بالعتب، ومنه بالخجل والإقرار بالخطأ. ومن اللحظة الأولى شعرنا بأننا فتحنا الموضوع:

— «كيف فككتَ الإضراب؟»، سألته. وجبر وكريم ينظران إليه كأنهما يعيدان السؤال عليه.

ردّ محبطاً مبرّراً أو باحثاً عن عذر هو نفسه غير مقتنع به:

— «جاء فريح أبو مدين ومعه محامون، وقال لي إن مديرية السجون وعدَته. صدّقتُ وقلتُ إنه من منظمة التحرير، ويعرف هذا وذاك من أهلنا وأقربائنا ومعارفنا. اقتنعت بأنه لن يخذلنا أو يضحك عليه الإسرائيليّون».

— «كيف تفعل هذا؟ أنحن في القرية أو المخيّم، وهذا صهر العشيرة وذاك رجل آدمي ونريد أن نزوّجه؟»، قال كريم وكأنه انتظر طويلاً اللقاء بسليم ليعبّر عن استيائه.

— «لا بدّ من تقويم ما حصل»، حسم جبر الموقف، واضعاً كفّه على كتف سليم متضامناً معه ليقفل الباب أمام أي حساسيّة شخصيّة، وسليم يقفز فوق هذا:

— «أنا مستعدّ لتحمُّل المسؤوليّة».

عدت إلى زنزانتي القديمة، مقرّي ومخبأ أسراري وملفّاتي.

أغاظتني فرحة مقدّم النشرة الإخباريّة على التلفزيون الإسرائيلي باستشهاد الأمين العام لحزب الله، السيّد عبّاس الموسوي. غضبت لاغتياله وحزنت على أسرته التي قُتلت معه في السيّارة. قلنا، أنا ورفاقي في الزنزانة، إن قادة المقاومة الإسلاميّة في لبنان نموذج آخر من السياسيين، يُحترم. لا مواكب ولا امتيازات. ويقودون مقاومة

بدأت تثبت نفسها وجدارتها وتؤذي إسرائيل وتخيفها. ولهذا اغتالته الآن، ولهذا نظّمنا، في اليوم التالي، احتفالاً تأبينيّاً له، في الباحة، وأمام عيون الشرطة.

ألّفنا لجنة تقويم. استمعت إلى سليم وأعضاء اللجنة النضاليّة. أثناء جلسات العمل توصّلت لجنة التقويم إلى نتيجة قاسية بالنسبة إلى سليم.

– «هذا الرجل مناضل وكفء ولم يتنازل مرّة، كانت ظروفه في الإضراب صعبة، وحيداً، وأخذه أبومدين بالحياء»، قال جبر بصراحة.

نطق بألسنتنا كافّة. جميعنا نعرفه ونشهد له مسيرته الممتدّة على خمسة وعشرين عاماً في السجن، وهو رمز حركة فتح، وواحد من طليعة رموز الحركة الأسيرة.

– «لن نكون قساة عليه وحسب، إذا ما حمّلناه المسؤولية، سنكون قساة على أنفسنا. مَن منّا يتحمّل جرأة، بل وقاحة، أن نعاقبه ونرمي عليه المسؤوليّة كاملة». فكّرتُ بصوتٍ مرتفع، من دون أن أشعر بالذنب أو بالتواطؤ لتبرئة سليم. الجميع يعرف أنه بريء ونظيف.

تدخّل كريم كمَن يعترف:

– «أنا كنتُ بينكم الأقسى في كلامي على سليم، أمامه لا من وراء ظهره، لأنني أحترمه وأثق به، ولم أصدّق ما جرى وحتى الآن أنا غير مصدّق، لكنه، بصراحة، ليس المسؤول الوحيد، صحيح أنه الأكبر والأدرى، لكنه كان مع آخرين. أعضاء اللجنة النضالية كافّة مسؤولون».

ختم كريم الجرح بهذا الكلام.

– «فليحيَ البطن الذي حملك»، خاطبه جبر مخلصاً لإنسان لم نرَ منه إلاّ التضحية والوفاء والإقدام.

– «نحن لا نحكم على المناضلين بالإعدام، ولن نكون أوضح منه في استخلاص العِبر»، قال كريم كأنه يعاند غصّة ودمعة.

– «ما حصل مسوَّدة. علينا الاستعداد للتحرّك الجديد»، قال جبر طاوياً صفحة ما مضى.

فاجأني. أفرحني. أفرحني أن يطلق صافرة الانطلاق. تفاءلتُ بحدسه. فكّرت أنه في الإضراب الماضي، الذي نقوّمه الآن، كان جبر مصيباً في قراءة الظروف

خارج السجن، والإرهاق الذي يعيشه الشعب الفلسطيني. وكنتُ أنا مخطئاً في الرهان على أننا سنحرّك المياه الراكدة. وكان هو مخطئاً في التخوّف من قدراتنا، وكنتُ أنا مصيباً في قراءتي لظروفنا وإمكاناتنا. سألتُ نفسي ما الذي تغيّر؟ انطلاق المفاوضات بين العرب وإسرائيل، في مؤتمر مدريد نهاية العام الفائت. وفي ظلّها يُحرج إسرائيل إضراب الأسرى، وربما تسارع إلى الاستجابة والمفاوضات معنا.

طلب إليّ الشباب أن أكون ممثّل المعتقل. الأزمة واضحة ومتعدّدة: نحن بحاجة إلى إعادة تنظيم صفوفنا وتحديد البوصلة، والثقة بيننا وبين الإدارة مفقودة والتوتّر القائم مفتوح على الاحتمالات كلّها.

تشاورتُ مع جبر. شجّعني وكرّر دعوته إلى إعداد أنفسنا لتحرّك يضع حدّاً للوضع الرمادي الذي نمرّ به.

اشترطت كي أقبل مهمّة تمثيل الأسرى في السجن أن تكون صلاحياتي القياديّة كاملة.

وافق مسؤولو التنظيمات. كُلّف جبر إعداد مشروع للتحرّك:

ردّ:

— «مشروع للسجون كلّها. الجميع مضغوط. الأسرى كافّة في تململ... ومعاً أقوى».

بالتزامن، اعتمدت سياسة التسخين البطيء. عمّمت منهج الرد الصامت المحدود والحذر. عندما يقطع الحرّاس الفورة نعود من الباحة إلى الزنازين ببطء شديد. بذلك نحرق أعصابهم والوقت. وردّاً على مماطلة الضابط أثناء عدّنا وجعلنا نقف لمدة طويلة في انتظار انتهائه، نُعيد وجبة طعام ونعلن للإدارة سبب احتجاجنا.

هكذا، بدأنا نستعيد الثقة بالنفس، ونتمرّن على تحرّك أكبر بروح جماعيّة. ونشَّطت التنظيمات برامجها الداخليّة والثقافيّة.

اجتمعنا لمناقشة مشروع جبر: إضراب عن الطعام شامل في السجون كلّها. أهدافه إعادة الوضع كما كان قبل حرب الخليج الثانية، السماح بالتعليم الجامعي بالمراسلة أسوة بالأسرى حاملي الجنسيّة الإسرائيليّة من فلسطينيي الأراضي المحتلّة عام ١٩٤٨ وبالسجناء الجنائيّين، السماح للأطفال بالزيارة ومعانقة آبائهم الأسرى

لخمس دقائق، إلغاء الشبك الحديد من غرف الزيارات وجعل مدّة الزيارة ٤٥ دقيقة كل أسبوعين بدلاً من ٣٠، تحسين الاستشفاء والاستعانة بأطبّاء من خارج الفريق الطبّي، تحسين الطعام. سقف الشهداء مفتوح حتى تحقيق المطالب. قرار فكّ الإضراب جماعي من اللجان الوطنية كلّها، وبعد التشاور. فمديرية السجون عندما تكون مضغوطة تسمح لنا بالاتصالات الهاتفية لتسهّل على نفسها وقف الإضراب. تأليف لجان في الخارج لقيادة الفاعليات التضامنية والحملة الإعلاميّة.

أُقرّ المشروع مع تعديلات طفيفة. أرسلناه إلى السجون الأخرى وطلبنا ردودها خلال أسبوع.

الجواب الأوّل وصلنا من سجن جنيد: موافق.

أنعشتنا سرعة ردّ جنيد وإيجابيّته، فهو الأكبر بين السجون، يتّسع لألف ومئتي أسير. ووافقنا مباشرة على طلبه أن يكون مركز التفاوض. اطمأننّا لقدّورة فارس، من حركة فتح، ممثلاً له.

صغنا الاتفاق مع جنيد: يحقّ لكلّ سجن التفاوض حول عناوين خاصّة هي الحد الأدنى من المطالب، ومتى يحقّقها يحفظها ويربط وقف الإضراب بالمفاوضات في جنيد وتحقيقه المطالب المركزية، أو الحد الأقصى. فالقرار في شأن الإضراب الشامل بيد اللجنة الوطنية في جنيد بالتشاور مع اللجان الوطنيّة في السجون الأخرى.

تركنا لجنيد تحديد موعد الإضراب.

وافقَت السجون كلّها.

ألّفنا اللجان النضاليّة الأربع في أقسام السجن. وضعنا الخطّة على الورق، وأودعناها في مخابئ في الأقسام. وفي غمرة الاستعداد، في شهر أيار/مايو ١٩٩٢، أتى ضابط إلى باب زنزانتنا وطلب إليّ جمع أغراضي. قلتُ عرفت الإدارة بتحرّكنا. التصقتُ بباب الزنزانة لأعرف مَن سيُنقل أيضاً. سليم زريعي وتسعة آخرون. تركوا جبر. ارتحت.

أخذونا معاً بالبوسطة. إذاً، إلى سجن واحد. . . بئر السبع، في المباني حيث كان جبر أثناء العزل. وضعونا في زنزانة نائية تتّسع لنحو اثني عشر شخصاً.

في اليوم التالي أخرجونا إلى الباحة التي تطل عليها شبابيك قسم مجاور. اكتشفنا أنهم جمعوا فيه نحو ستين أسيراً من كوادر سجن عسقلان. عرفتُ كثيرين

منهم، بينهم كايد بندر، من الحزب الشيوعي اللبناني وينشط في السجن ضمن إطار الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

قرأنا، أنا وسليم، في إجراء نقلنا نحن وهؤلاء، استعداداً لضربنا.

انتحيت جانباً ورَوحي مشتهى، القيادي من حماس، من سجن عسقلان، والموجود معنا في الزنزانة. طلب إليّ أن تُمثَّل حركته في اللجنة النضالية.

— «هذا حق وطبيعي»، رددتُ عليه وأنا أفكر في غياب أيّ سبب أو مبرّر يحول دون ذلك. لطالما دعوتُ إلى اشتراك الإسلاميين، قبل إنشائهم حركتَي حماس والجهاد وبعد ذلك، في اللجان الوطنية بالسجون، وفي تحرّكات الأسرى عموماً.

— «لكن فتح تعارض»، أجابني مراهناً على وقوفي إلى جانبهم في المطلب هذا.

نقلتُ طلب روحي إلى سليم وأيّدته:

— «إلى متى تبقى حماس خارج الحركة الأسيرة، وهي التي تبادر وتطلب. هذا حق. والحركة موجودة بين الشعب الفلسطيني وداخل السجون. لماذا نقبل انضمام الجهاد الإسلامي وفتحي الشقاقي إلى لجنتنا في نفحة ونمنع هذا على حماس؟ ما ينطبق على واحد يصحّ على الاثنين».

أنا أحكي وسليم يفكّر. ثم راح يفكّر معي بصوتٍ عالٍ مقلّباً تساؤلاته عن حماس وبقائها خارج منظمة التحرير، وماذا ستقول قيادة فتح.

قلت:

— «وحدة الحركة الأسيرة هي الأساس. ونحن مقبلون على إضراب، وبحاجة إلى كل أسير. أن تكون حماس تحت قيادة موحّدة أفضل من إبعادها عن القيادة. فعندها لا تعود حماس مجبرة على التزام قرارات اللجان الوطنية».

دبّرت لقاءً يجمعهما. تحاورا، عرض سليم معايير الانضمام إلى اللجنة ومعانيه. اتفقا وانضمّ روحي إلى لجنتنا.

الأخبار تتواتر، عبر نزلاء المهجع المقابل، عن قسوة مدير سجن عسقلان، المدير السابق لسجن نفحة، تشاشا شفيلي. يمنع هذا القسم أو ذاك من الخروج إلى الباحة. يمنع أسرى من مقابلة أسرهم. يعزل من يشاء متى يشاء. يصادر هذا الغرض وذاك الشيء. لا يكترث لحالات مرضيّة خطيرة. وكلّما سمعت قصّة عنه أفاجأ بأن يفعل هذا الجبان ذلك. أحسست بأنّه ينتقم منّا في عسقلان، وبأنّه مخادع

ولا يتوانى عن الأذيّة متى استطاع إلى ذلك سبيلاً. اقترحت على روحي تكليف شباب في عسقلان لضربه، أو حتى قتله. قلت:

– «الأفضل ألا نؤجل هذه المهمّة إلى ما بعد الإضراب، إذ ستؤثّر سلباً ولا نعرف نتائجها. نحن في ظروف سيّئة، لن تزيدها هذه العمليّة سوءاً، ونستعد لإضراب، وأي اتفاق يمحو ما سبقه».

ارتقينا سريعاً في التنفيذ. بحثنا عن شابّين في قسم واحد في عسقلان، نثق بهما ولا يخبران مخلوقاً أنَّ العمليّة مدبّرة وأنّنا من حرّضهما. أنا أعرف راضي الطوباسي، أبو غريب، وهو انتقى أمين الصانع. اتفقنا على توجيه رسالة مشتركة لهما، يقرآنها معاً. أعددنا الخطّة: تترصّدان به خارج القسم كي لا يتحمّل الأسرى الآخرون المسؤوليّة، وتطعنانه بآلة حادّة وتنهالان عليه بالضرب المبرّح.

فعلا ذلك، وهجم عليهما الحرّاس وسيطروا عليهما. عُزلا. نُقِلَ تشاشا إلى المستشفى.

فاز حزب العمل بالانتخابات، وألّف حكومة برئاسة إسحاق رابين. عُيّن موشي شاحال وزيراً للشرطة.

استغربتُ مجيء باحث أكاديمي للقائي. نهض لمصافحتي بودّ شعرت معه بأنّ ثمّة بعداً شخصياً أو خاصّاً في اللقاء.

– «تسيفكا سيلع. أجري بحثاً أكاديميّاً، وددتُ الاجتماع بك».

ارتحت لتواضعه. أحسستُ أنه لا ينطلق من أحكام مسبقة عنّي ممّا بثّته وتبثّه الاستخبارات الإسرائيلية، على رغم أنه في الاستخبارات. سألته عن موضوع بحثه.

– «عمليات احتجاز الرهائن في إسرائيل لمبادلتهم بأسرى».

– «أريد سماعك ثمّ أقرّر إذا كنت سأجيب أم لا».

ضبط الدفتر أمامه واستعدّ للكتابة. قرأتُ الصفحة الأولى من ملف يضعه بجانب الدفتر. لم يلاحظ أنني أقرأ العبرية بالمقلوب. لفتني فيها الجدول الذي يتضمّن أسماء أشهر عمليات الأسر التي نُفّذت في فلسطين المحتلة: الخالصة، معالوت، سافوي ونهاريا. وبجانب كل اسم حرف «أ» أو «ب». «أ» للعمليات التي

اتخذت الحكومة قراراً في شأنها، و«ب» للعمليات التي بادر الجيش إلى التصدي لها ولم ينتظر الحكومة كي تعقد جلستها. بجانب نهاريا حرف «ب».

سألني:

— «لماذا نفّذتم عمليتكم؟».

— «لنأخذ رهائن ونبادل بأسرى فلسطينيين وعرب موجودين في السجون الإسرائيلية».

— «هل هناك سبب آخر، مباشر؟».

— «الرد على اتفاقيّة كامب ديفيد».

— «ما هي دوافعك الشخصية؟».

— «تحرير فلسطين».

— «هل تشعر بأنك مدفوع لقتل الإسرائيليين؟».

— «ليست هوايتنا القتل، قصدنا فلسطين المحتلّة لنأسر إسرائيليين ونحرّر إخواننا. نحن لا نغير بالطائرات ونقصف وندمّر ونقتل المدنيين الأبرياء. قدراتنا محدودة، وفي عمليات الأسر قتل جيش الاحتلال مدنيين إسرائيليين أكثر ممّا فعلنا نحن. الملف بين يديك ويمكنك أن تدقّق في الأمر. ولو كنّا نريد القتل لَقتلنا دان هاران وابنته في منزلهما ولم نأخذهما إلى الشاطئ لنعود بهما إلى حيث أتينا».

أنا أتكلّم وهو يهزّ رأسه. لم يسأل عن الطفلة، بل سألني عن الأسطورة التي صيغت حول مقتلها وكيف تعاملتُ معها على الصعيد الشخصي.

أجبته:

— «رفضتُ هذه الكذبة منذ البداية، منذ التحقيق الذي سعوا فيه إلى إلصاق تهمة قتلها بي، إلى المحكمة. أنا مرتاح لأني صادق. لم أقتل الطفلة. القوّة التي حاصرتنا فتحت علينا النار بكثافة وجنون ولم تأبه للطفلة ولا لأبيها».

قاطعني:

— «أتعرف ماذا كان يصرخ دان هاران للجنود؟».

هززتُ رأسي مستفسراً.

— «أوقِفوا إطلاق النار يا مجانين».

— «أشكرك، كنتُ دائماً أتساءل ماذا كان يصرخ لهم مذعوراً ويشير بيديه تارةً نحوهم وتارةً نحو الجهة التي أخفى فيها طفلته. كان خائفاً عليها».

طلبتُ إليه أن يطلعني على الملف الموجود معه.

– «سمحت لي وزارة الدفاع بالاطلاع عليه، ولا أستطيع أن أجعل أحداً غيري يقرأ فيه».

– «ممَّ أنت خائف؟ لن أنشره في نيويورك تايمز».

ضحك ورفعه في وجهي، جعلني أقرأ، من بعيد، ما قرأته من دون أن ينتبه. قلت:

– «أريد أن أقرأ ماذا كتبوا عن عمليتنا ومقتل الطفلة».

– «أنا أعرف»، رد.

– «نلتقي حين أنتهي من بحثي».

– «أتمنى ألا يستغرق وقتاً طويلاً، أريد العودة إلى بيتي».

ضحكنا.

مرّت ثلاثة أشهر ونحن معزولون في ظروف قاسية. الاستشفاء رديء، حبّة أكامول لمريضين أو أكثر، والمرضى بالجملة. نظّمنا أنفسنا، نحن ومعزولو عسقلان، واخترتُ أنا ممثلاً للقسم، لكن الإدارة لا تتحدّث معنا، وننتظر ساعة الصفر من سجن جنيد.

أخيراً تمكّنا من توجيه رسالة إلى جنيد. شرحنا فيها وضعنا وكتبنا أننا مستعدّون لبدء الإضراب سواء أكانت اللجنة الوطنية، في جنيد، حدّدت موعد الإضراب أم لا.

وجاءنا الرد: ١٩٩٢/٩/٢٧. وتأكيد آلية التفاوض التي اتّفقنا عليها.

ألّفنا لجنة نضالية: سليم زريعي، محمد حنني (أبو السعود) من الجبهة الشعبية، روحي مشتهى من حماس، وائل أبو فنّونة من الجهاد الإسلامي وأنا. وألّفنا لجاناً داخليّة.

كتبتُ بالعبرية رسالة إلى وزير الشرطة. بدأتها بالخطوط العامّة لتحرّكنا، وعرضتُ مطالبنا، وأكّدت أن إضرابنا مفتوح وكذلك سقف تضحياتنا... ووصفتُ مديرية السجون بالعصابات. وقلتُ له أنت ترى أعمالها وتسكت عنها. وقد جاء الوقت الذي نلقّنها فيه الدرس.

صباحاً، في ٢٧/٩، سلّمت الضابط المناوب الرسالة وأخرجنا ما لدينا من طعام من الزنازين إلى الممر.

اليوم الأوّل، الثاني، الثالث، فوجئنا بأنهم لم يُصادروا التلفزيونات والراديوهات والملابس المدنيّة. وقد تركونا حيث نحن، إلى أين يأخذوننا ونحن أصلاً معزولون. وأبقوا نظام حياتنا كمَا هو. لم يحتجزونا داخل الزنازين، كما هي العادة في الإضرابات، ولم يمنعونا من الخروج إلى الباحة.

مازحنا أنفسنا بادّعاء الخوف من الحسد على هذا النعيم، فلم نُكْثر من الحديث عنه. وفي الحقيقة نحن نترقّب ماذا سيحصل. ونسأل لماذا لم يقوموا بالإجراءات الروتينيّة، أهي إشارة استهتار، أم إيجابيّة؟ معلّقون في فضاء الانتظار، لكنّنا مرتاحون، برغم وجود مرضى بيننا، أجبرناهم على عدم الدخول بالإضراب خوفاً على صحّتهم.

في اليوم العاشر أرسلت الإدارة ضابطاً لاستدعائي إلى اجتماع. سألته:

— «مع مَن؟».

— «مدير المنطقة في مديرية السجون».

سأجلد نفسي وأرى بن شاحر. أمري للّه، قلت لنفسي، وأضفت للضابط:

— «سترافقني اللجنة!».

استأذنني لمراجعة الإدارة. عاد ناقلاً الموافقة، وأوضح أننا لن نلتقي مدير المنطقة بل ممثلاً عنه.

— «هذا أفضل»، قلت.

ارتدى الشباب ثيابهم وانطلقنا. مررنا بالباحة الفاصلة بين زنزانتنا ومكاتب الإدارة. لم يمدّ أيّ من مسؤول المنطقة في استخبارات السجن، ومدير السجن، وضابط الاستخبارات يده لمصافحتنا. بقيت أيدينا في جيوبنا. جلستُ في مواجهته إلى الطاولة. استقرّ الجميع. سألني:

— «ما قصّة هذا الإضراب؟».

— «بعثنا لكم رسالة واضحة تتضمّن أسباب الإضراب ومطالبنا».

جذبته إلى المفاوضات حول المطالب، وهو كان يريد أن يبدأ من نقطة الصفر، وربما يبتعد في اتجاه معاكس.

— «لن تحصلوا على شيء. الإضراب لن يأتي بنتيجة».

— «الإضراب موضوع محسوم بالنسبة إلينا. لن يُفكّ إلاّ إذا تحقّقت المطالب. وتجربة نفحة وخداعنا لن تتكرّر. جزمت له بهذا منطلِقاً من اتفاق اللجان الوطنية كلّها على عدم السماح بدخول وسطاء».

انتقل إلى المرحلة التالية من خطّته. هذه عادتهم في المفاوضات، يوحون بأنهم لن يفاوضوا ويصرّون على عدم الاعتراف بحقوق الطرف الآخر ووجوده، للسيطرة قدر الإمكان على المفاوضات. قال كأن أحداً استبدله بشخص آخر:

— «لن أُتعبكم. أريد أن أحلّ هذه المشكلة ضمن حدود صلاحياتي».

— «لديك صلاحيات أم أنت تحكي؟».

— «فوّضني ميخائيل بن شاحر، قائد المنطقة، أن أفاوضكم».

طرحتُ المطالب:

— «فكّ عزلنا وعدم معاقبة الأسير على الكبيرة والصغيرة».

وافق.

— «تحسين الطعام».

وافق.

— «تحسين الاستشفاء والعلاج».

وافق.

— «تحسين المعاملة وساحة النزهة».

وافَق، ووافَق على السماح بقنوات تلفزيونيّة عربيّة، وإدخال الملابس من الأهل، مثل السجون الأخرى.

وصلنا إلى طلب حق الانتساب إلى جامعة مفتوحة والتعلُّم بالمراسلة أسوةً بالسجناء الجنائيين وحاملي الهوية الإسرائيليّة من فلسطينيي الأرض المحتلّة عام ١٩٤٨. هذا المطلب مركزي وضمن القائمة التي يُفاوض عليها جنيد، لكنني أدرجته في قائمتنا الخاصّة تأكيداً له وزيادةً في الاطمئنان، وإذا ما تمّت الموافقة عليه لنا، أو لأي سجن آخر، يغدو عامّاً ويطبّق على الجميع.

وافَق.

خفتُ أن تظهر عليّ ملامح المفاجأة. رسمتُ على وجهي ملامح الشكّ في إيجابيته، كي لا أوحي بأنني مصدوم بموافقته على هذا المطلب.

صعد درجة في المفاوضات. طلب أن نوقف الإضراب. ابتسمت وكشفت له ورقتنا الجديدة:

— «ما اتّفقنا عليه يخصّ سجننا. الآن وقت التفاوض على المطالب العامّة».

دُهش وارتبك:

— «المطالب العامّة ليست من صلاحيّاتي».

— «فليأتِ مَن مِن صلاحياته المفاوضات».

— «أعطيتكم مطالبكم، أوقفوا الإضراب».

— «قرار وقف الإضراب مركزي، لا يمكننا أن نفعل هذا منفردين».

— «وإذا وافقتُ على المطالب العامّة توقفون الإضراب؟»

— «كلا، قرار وقف الإضراب جماعي، ولن نفعل إلاّ بتنسيق مع اللجان الوطنية في السجون كلّها».

— «أنا كنتُ حسَن النيّة».

— «لا تحدّثني عن النيّات الحسنة. ما نأخذه الآن سبق أن حصلنا عليه في إضرابات سابقة، وأنتم سحبتموه. فلا تقل إنك أعطيتني شيئاً كبيراً».

— «ماذا نفعل بما أعطيتكم إيّاه. فعلتُ هذا لتوقفوا الإضراب».

— «ضع ما اتّفقنا عليه جانباً. الإضراب مرتبط بتحقيق المطالب العامّة».

— «نجمّد ما اتّفقنا عليه حتى تفكّوا الإضراب».

— «حسناً، نقف عند هذه النقطة. لا تراجع عمّا اتّفقنا عليه. فاوضوا الآن جنيد على المطالب العامّة».

ختم يائساً:

— «سأنقل إلى إدارتي ما اتّفقنا عليه وموقفكم. وإلى حين انتهاء المفاوضات نحن نجمّد تنفيذ الاتفاق».

— «ونحن نواصل إضرابنا. ومهما حصل في المفاوضات، ما اتّفقنا عليه يُنفّذ بعد وقف الإضراب. سواء اتّفقنا على العام أو لا».

أوضحنا الأمور وأنهينا ساعتين ونصف الساعة من شدّ الأعصاب والمناورات.

عدنا بهدوء إلى زنزانتنا، لنوحي إلى الأسرى في المهجع الذي يُطلّ على الباحة حيث نعبر، أن الأمور تسير جيّداً. لن نقول لهم أكثر من ذلك حتى انتهاء المفاوضات.

الجماعة مضغوطون ويريدون تسوية الموضوع. هذا انطباعنا وتحليلنا. والتلفزيونات والراديوهات، وخصوصاً إذاعة القدس، تأتي لنا بأخبار سارّة عن نمو الفاعليات التضامنيّة في الأراضي المحتلّة. إضرابات واعتصامات واتصال بالمؤسسات الدوليّة.

سمحوا للمحامين بزيارتنا. ينقلون منّا وإلينا الرسائل من السجون الأخرى وإليها. طلبنا ممَّن نثق به منهم تأليف لجنة، ليست للتوسّط، بل لمتابعة المفاوضات، ولا سيما مع وزير الشرطة.

امتدّت المفاوضات في جنيد أيّاماً. احتدّت.

ليل اليوم السادس عشر، استُدعيتُ إلى الإدارة. كنتُ وسليم زريعي نتسامر. طلبتُ أن يأتي أعضاء اللجنة كافّة معي. أجابني الضابط:

— «الوقت متأخّر وسنُضطرّ إلى فتح الأبواب، اذهب أنت وسليم فقط».

ترافقنا إلى مكاتب الإدارة. أُخبرنا أنَّ لنا اتصالاً هاتفيّاً.

اغتبطنا مع تسارع في دقّات القلب. تسير الأمور كما خطّطنا لها. كأننا في فيلم أخرجناه نحن.

جعل الضابط الجالس خلف طاولته صوت الهاتف عامّاً. راح يكتب كل كلمة يسمعها.

— «أنا فارس قدّورة»، جاءنا الصوت من الجهة الأخرى.

لم نُطل التحيّات. تابع:

— «كما أرسلتُ لكم مع المحامين. تفاوضنا وكانت الحوارات قاسية جدّاً. وأخيراً تفاوضتُ عبر الهاتف مع وزير الشرطة، وتم الاتفاق على بنود أساسيّة ومهمّة أكثر من الحد الأدنى. سنجمّد الإضراب من هذه اللحظة لكي نفحص جديّتهم في تطبيق ما اتّفقنا عليه، وإذا ماطلوا نستأنف الإضراب. سأستكمل اتصالاتي مع السجون الأخرى لأخبرها هذا القرار. نرسل التفاصيل في ما بعد».

انتهى الاتصال. أتواصل مع سليم بابتسامة من مئات الصفحات المكتوبة بحبرنا الخاص. للحظة، شعرت بأنني صرت مستعداً للوقوف أمام أبي، وجديراً بالقول له إنني سأنتسب إلى الجامعة، كما كان يحلم. تسارعت دقّات قلبي، خفت ألا أحقق ذلك. تحرّكت كأنّي أؤجّل موعدي مع أبي ريثما أطمئن إلى أنّني بتُّ طالباً، لا أريد أن أدعه يفرح ولا يسمحون لي بالانتساب فأحزنه.

قلنا لمدير السجن إننا سنخبر الأسرى غداً صباحاً بتعليق الإضراب.

— «لماذا غداً، الآن».

ردّ مدير السجن بحماسة وأمر بفتح الأبواب للأسرى المكلّفين توزيع الطعام.

طلبنا منه أن يدعنا نعقد اجتماعاً للجنة، ويسمح لنا بالمرور على الزنازين وإخبار الأسرى من خارج الأبواب بتعليق الإضراب.

مشينا. أخبرنا أعضاء اللجنة بما حصل، وانطلقنا إلى القسم. فرحةٌ لا تصدّق. انتصارٌ تاريخيّ للحركة الأسيرة. توزيع الشوربة والحليب على الأسرى، الذي بادر إليه مدير السجن بإشراف الطبيب، أشبه بتوزيع الشراب في عرس.

صباح اليوم التالي أرسل المدير بطلبي. انتهت المفاوضات. أمس كان إيجابيّاً ومبادراً مع الأسرى. ماذا يريد؟

كما توقّعت، حاوَل تبييض صفحته وإبداء الرغبة في الهدوء. قال لي:

— «بيني وبينك، لستُ مسؤولاً عمّا جرى معكم في الماضي. كانت أوامر المديرية».

— «نحن طوينا صفحة الماضي. أعرف أنك مدير وفوقك مدير، أنت تأمر وتؤمَر. لسنا في صدد المحاسبة. ما يهمّني هو تنفيذ الاتفاق. الأسرى بحاجة إلى التأكّد من ذلك. وكل ما يتعلّق بنا يجب أن يوضع قيد التنفيذ خلال ٤٨ ساعة».

— «أنا سأرسل تذكيراً إلى قائد المنطقة وأسأله ما عليّ عمله، وسأنفّذ فوراً. أيّ مشكلة تحصل مع الأسرى اطرحها عليّ وأنا أعالجها. أنت ممثّل الأسرى وأنا مدير، وأيّ شرطي أو ضابط يتعاطى بطريقة سيئة أنا مستعدّ لمعاقبته».

فعلاً، في اليوم التالي جاء المدير ليطلعني على أن قائد المنطقة أوعز إليه بتنفيذ ما اتّفق عليه. وقال:

— «يحق لكم إدخال كتابين في الشهر، مواد غذائية، زيتون، زعتر، زيت. زيارة الأهل صارت ٤٥ دقيقة بدلاً من نصف ساعة، ويسمح بإدخال الأطفال دون الثامنة لمدة خمس دقائق إلى غرفة الزيارات من جهة الأسرى لاحتضان آبائهم. إضافةً إلى التعلُّم في الجامعة».

كتبتُ هذه البنود وعمّمتها على الشباب. وأمر المدير باستبدال الفراش والحرامات القديمة المهترئة بأخرى جديدة. تحسّن الطعام، ازداد دوام الطبيب في العيادة. عرضوا إجراء عمليات جراحية... جدولوا المرضى الذين يحتاجون إلى

ذلك، سمحوا مجدّداً بالتزاور بين الزنازين، والانتقال من زنزانة إلى أخرى، وفق قائمة تعدّها اللجنة الوطنية وتقدّمها شهرياً إلى الإدارة، زادوا وقت النزهة في الباحة.

بثَّ التلفزيون الإسرائيلي خبر استمرار الإضراب في نفحة. لم نعرف ما السبب. اجتمعت اللجنة الوطنية. قرّرنا أنه لا يجوز ترك نفحة وحده مهما كان السبب، حتى ولو كان مخطئاً. وجّهنا رسالة إلى مدير السجون نعلمه فيها أنه إذا لم يأخذ نفحة مطالبه فسنعود إلى الإضراب. جعلتُ العبارة هكذا لكوننا لا ندري ما إذا كان نفحة قد حقّق مطالبه ويعترض على التسويف في التنفيذ أم هناك مطالب ما زالت عالقة.

تحرّك الشارع مجدّداً، اعتصام هنا وتظاهرة هناك.

جاء مدير السجن وأخبرني أن نفحة أوقف الإضراب بعدما حصل على السخّان الكهربائي. نسمّيه بلاطة. نسخّن عليه الطعام البارد ونستعمله في الأيام الباردة للتدفئة، يعين قليلاً في ليالي الصحراء.

أزالوا حالة العزل عن زنزانتنا والقسم المقابل، حيث أسرى عسقلان. صرت متوقّعاً في أي لحظة إعادتي إلى نفحة. جاؤوا إلى القسم المقابل، بستة عشر أسيراً لبنانيّاً ينتمون إلى حزب الله، علي عمار، عبّاس سرور، أحمد سرور، يوسف سرور، عبد الحسن سرور، حسن حجازي، كمال رزق، أحمد عمّار، حسين أحمد، حسين طليس، حسين رميتي، أحمد جلّول، أحمد طالب، أحمد عبيد، هاشم فحص وحسين دقدوق. بعضهم سلّمتهم ميليشيات القوّات اللبنانيّة إلى إسرائيل في فترة انتهاء الحرب الأهليّة في لبنان. وبعضهم اعتقلتهم مليشيات أنطوان لحد في الشريط الحدودي.

لم أفاجأ بأن إسرائيل لم تطلق سراحهم رغم أن مدّة سجنهم انتهت، وقد تركتهم رهائن لديها.

الجامعة في زنزانتي

ضرب عادل عيسى، زميلي في الزنزانة ببئر السبع، على صدره، وقال:

— «موضوع تغطية نفقات الجامعة اتركه لي. مجلس البلدية عندنا في كفرقاسم مكوَّن من أشخاص وطنيين، يهتمّون بنا كأسرى سياسيين».

راقتني الفكرة، فعادل ذو خبرة في هذا المجال، منتسب إلى الجامعة المفتوحة في إسرائيل لكونه من الأراضي المحتلّة عام ١٩٤٨. ريثما أتّصل بأهلي عبر الصليب الأحمر ويرسلون إليّ المال، أرفض أن آخذ مالاً، ولو منحة دراسيّة، من جهة سياسية أو منظمة إنسانيّة. بلدية كفر قاسم إدارة محليّة والقرار فيها بيد أُناسٍ منتخبين من الشعب الفلسطيني. رددتُ عليه:

— «اتّصلْ أنت بهم وأنا أتابع موضوع الانتساب».

في اليوم التالي تسلّمت استمارات التسجيل، وأسرعتُ إلى عادل. ملأناها معاً. وأرسلناها إلى الجامعة، وبعد مدّة وصلتنا السندات. اشترينا طوابع بريديّة من الإدارة. أخذ عادل السندات وأعطاها لأسرته كي تنقلها إلى بلدية كفر قاسم. اخترتُ في الفصل الأوّل مقرَّراً واحداً، لكوني طالباً جديداً أمرِّنُ نفسي على العودة إلى الدراسة، ولكون المقرَّر يكلّف نحو ٤٥٠ دولاراً. أخجلني أن أكلّف كثيراً، رغم أن البلدية عبّرت عن استعدادها لسداد أي مبلغ علينا.

بعد أيام وصلني من الجامعة صندوق. سألت الضابط:

— «لماذا مفتوح ما دام من جامعة وعليه ختمها؟»

— «إجراء اعتيادي. ونضمن لك أن محتوياته تبقى كاملة ولا نقوم بأكثر من تفتيشه».

لم يمحُ جوابه إحساسي بأنّ هذه المساحة الخاصة الصغيرة من حياتي مخترقة من الآخرين ومراقبة. عوّدتُ نفسي العيش مع آخرين في حياة مفتوحة تحت

المجهر، ولا مكان فيها للخاص، لا النوم ولا الاستيقاظ، لا الأكل ولا الجوع. ومهما حفظت من أسرار وتكتّمتُ على هذا الفعل وذاك، تبقى هذه الأمور أسراراً لا خاصة. الخاص هو أن تختار وتفعل بملء إرادتك وتشعر بلذّة ما تقوم به، بمعزل عمّا إن كان سريّاً أم لا. ربّما تحرص على أن يبقى ما تقوم به محميّاً بغشاء، بسور، لكن ليست السريّة شرطه ليكون خاصّاً. الاسم مثلاً، أمر خاص ويعرفه الآخرون. بينما السرّ قد لا يكون خاصّاً. السرّ أمر آخر. السرّ وسيلة، وأما الخاص فغاية. أقول هذا من دون أي تقديس للخاص، فتقديس الخاص يرفع من شأن السريّة ويجعلها سلاحاً وهويّة، وأنا لستُ كذلك، لستُ باطنيّاً. والسريّة بالنسبة إليّ إجراءات عمليّة تفرضها حياتي في السجن ونضالي قبله وفيه. أما الخاص فرغبة، عالم منشود.

وسط هذا التوق إلى الخاص، أُخبِرتُ بأنني سأُعاد إلى نفحة. سبب آخر للشعور بافتقاد السيطرة على حياتي، الحق الأوّل للإنسان في هذا الوجود. الانتقال لم يعد بالنسبة إليّ إجراءً إدارياً أو عقابيّاً. وهذان تقريباً أمر واحد. ولا هو سلخ عن مكان اعتدته ورحتُ أدبّر شؤون حياتي فيه. فها أنا الآن أنقَل إلى نفحة، السجن الذي بات مكاني لكثرة ما أقمتُ فيه. الانتقال بات تقطيعاً لحياتي وتدميراً لاستقراري وإمعاناً في إشعاري بأنَ قرار حياتي ليس في يدي، وبأن إرادتي سجينة قالب تعمل شفراته تجريحاً وتشذيباً وطعناً في روحي.

انتفضتُ على نفسي. قرّرتُ أن أخرج من هذه الدائرة السوداء. حملتُ أغراضي. وضعتُ صندوقة الجامعة تحت إبطي، مثل تلميذٍ يحمل شنطة كتبه ويتوجّه إلى المدرسة. قلت، في أيّ مكان سأدرس فيه، سأستفيد من تقنيّات العيش وسط الآخرين وفي أيّ ظروف، وسأصنع عالمي الخاص مع كتبي ودفاتري وأقلامي.

وجدتُ نفحة، في منتصف شهر تشرين الثاني/نوفمبر، سجناً آخر. الفارق بينه وبين السابق من الأرض إلى السماء. الأجواء هادئة بين الأسرى ومع الإدارة. ما حقّقناه في الإضراب متجسّد. معظم الأسرى بثياب ملوّنة أتى بها الأهل، وكأنهم في ثياب العيد.

واجهتنا مشكلة انضمام الإسلاميين، وقد باتوا كثراً في نفحة، إلى اللجنة الوطنية. فتح ما زالت أشدّ المعارضين لهذا. لجأتُ مجدّداً إلى سليم زريعي الذي أُعيد قبلي بأيام لحل هذه المعضلة.

ردّ بأن حماس تعارض المفاوضات.

أجبته بأننا لسنا فريقاً للتفاوض بل لجنة لإدارة شؤون الأسرى، والإسلاميون موجودون بين الشعب الفلسطيني وبيننا.

اقترب مني وكأنه يطلعني على سرّ:

— «قضية الأسرى لا تنفصل عن المفاوضات. قضيّتنا بند على الطاولة ويجري بحثها».

على رغم مفاجأتي بما يقوله طلبتُ الفصل بين قضية الأسرى وتشكيلاتنا النضالية والإدارية.

وعدني بدراسة الموضوع مع إخوانه في فتح. استفسرتُ منه عما إن كانت لديه معلومات عن المفاوضات السياسيّة عموماً وفي شأننا خصوصاً.

— «تأتينا تطمينات».

فوجئتُ باصطحاب أمّ جبر صبيّةً إلى غرفة الزيارات. تذكّرتها بسرعة، إذ سبق أن التقينا في المحكمة ببئر السبع.

— «أحبَّتْ أن تتعرّف عليك»، قدَّمَتها كأنّها تكشف بمداراة إعجاباً لدى تلك الفتاة تجاهي.

تعارفنا. اسمها كفاح كيّال. ارتبكت. هرّبت النظرات إليها، خجلاً منها، وكي لا تنتبه أمّ جبر وتقول كلمات تحرجنا. وأنا أفكّر: فتاة تقصدني في سجني، لماذا؟ أهو الحبّ، بذرة، خطوة في المجهول لا تحسب حساباً للواقع والقيود والفواصل والأفق المسدود! أشعلَتْ فيّ أسئلة قديمة ووضعتني وجهاً لوجه مع الاستحقاق المطرود المقصي: اللقاء مع امرأة والعيش الطبيعي كما يحيا البشر الآخرون.

— «كيفك سمير؟»، صوت رقيق كأنه لممثل على خشبة مسرح.

شعرتُ باختلاط مشاعري وتفكيري. قالت:

— «أسمع عنك من رفاقي الأسرى، وأحببتُ أن نتعارف. قضيّتنا واحدة».

شقّت بهذه العبارة درباً لنا وحدنا بحضور أم جبر من جهتها، وجبر الذي يغضّ النظر مبتسماً من جهتي.

— «من أين أنتِ؟»، سألتها.

— «من عكّا. رأيتُك المرّة الماضية، في المحكمة ببئر السبع».

— «تذكّرتكِ من اللحظة الأولى التي دخلتِ فيها».

ابتسمتْ كأنّها خائفة من ألاّ أذكرها. وأرسلتْ إليّ نظرةً طويلة لم أرغب في مقاطعتها وفي ألاّ أفهم معناها، كما لو أنّي أريد هذه النظرة.

— «ما الكتاب الذي تقرأه الآن؟»، سألتني.

— «أُعيد قراءة «الرعب والجرأة» لألكسندر بيك. أحبّ الأدب السوفياتي المقاتل».

سارعتْ إلى الاحتفاء:

— «أحبّ هذا الكتاب».

— «حين أبدأ به لا أستطيع تركه حتى أنتهي منه».

قمعتُ تفكيري. قمعتُ عيني من استراق النظر إليها. ماذا أفعل؟ ما الجدوى من هذا اللقاء ومن التمادي في الأوهام التي لا سبيل إلى تحقيقها؟ أقنعتُ نفسي بأنها مجرّد فتاة تشفق على أسير، تتضامن مع قضيته. بدأتُ أجرّد صورتها، أنقّي تواصلي معها من أي مشاعر لا تطابق واقعي وكوني أسيراً يمضي فترة عقوبة تمتد على ٥٤٢ سنة.

عدتُ إلى زنزانتي غاضباً أبوء بنفسي. استعاد جسدي ذاكرة التعذيب. لقاء امرأة يفصل بيني وبينها شبك حديد، هو أبعد من كل المسافات، يجعل احتمال أن تلتقي تلك المرأة مع كل رجال الكون ما عدا أنا ممكناً وقابلاً للتصديق. بينما أنا، يفصل بيني وبينها، بيني وبين كل نساء الكون، شبك حديد. أرى من خلاله، لكنّي أرى عجزي عن تجاوزه والقفز إلى العالم خلفه. أرى من خلاله لكنه يذكّرني بأنني في السجن ولن ألمس ما أراه ولن أنتمي إليه. كرهتُ فكرة الزيارة وكم هي قاسية. شعرتُ بأنها تعذيب كامل، وبأن الوقوف على حافة السجن، في شرفته المطلّة على الحياة والناس والكوكب، أشدّ قسوة من الزنازين حيث لا يرى الأسير شيئاً أو أُناساً أحراراً.

ثمّ فكّرت أن الزيارة حاجة. مَن هم في الخارج يطمئنّون ويُطمْئنون، ومَن في السجن يتواصلون مع الكوكب، مع الأحباء، الأهل، يشعرون بأنهم ما زالوا جزءاً من حياة مَن ارتبطوا بهم، وبأنهم إذا ما تحرّروا فلهم عنوان وحياة تنتظرهم.

لكن أنا، لماذا هذه الزيارة بالنسبة إليّ؟ لم أكن قبل أسري جزءاً من حياة مَن يزورونني، ولن أكون في المستقبل بينهم. أهي الشفقة، التضامن الكفاحي؟

أشغل نفسي عن هذه الأمور بالدراسة وبنشاطي في اللجنة الوطنية. لكنّها تُستأنف وتضعني أمام أسئلة وجودي كلّما أتت كفاح لزيارتي، وكلّما جلستُ وجبر وتحدّثنا عن حياته وحبّه لزوجته وطفلتيه ورغبته في إنجاب طفل، ذكر، قبل أن تتقدّم زوجته بالسن.

زارتني كفاح مجدّداً وكرّرتْ ذلك.

— «أحكي أمام كل مَن ألتقيه عنك. قضيّتك يجب أن تخرج إلى العلن».

— «وماذا تقولين عنّي؟».

سألتها راغباً في أن أعرف ما تقوله هي وأن أسمع أخباري من العالم الخارجي.

— «أحكي عن سمير المناضل...».

وتوقّفَتْ فجأة كما لو أنّها انتبهت إلى أن عليها أن تقول ما تفكّر فيه هي نحوي، وليس ما هو أنا.

ابتسمتْ وانحنت كتلميذة تلقّت إطراءً. بدا لي أنفها نحيفاً واختفت عيناها الصغيرتان خلف خدّيها.

نظرتْ إليّ، ثم إلى أم جبر بجانبها، وإلى كل مَن في الغرفة.

ازداد بيننا رصيد الكلام غير المَقول.

التفتتْ إلينا أم جبر كما لو أنّها ميزان حرارة. قرأتُ في نظرتها الضاحكة أنّها تعرف بماذا نفكّر حتى ولو لم تسمعنا، وأننا نداري أمامها أمراً مكشوفاً بالنسبة إليها منذ اللحظة الأولى لاستقبالها كفاح التي قصدتها وطلبت إليها أن تصطحبها معها للقائي.

بتُّ أنتظر كفاح برغم الصراع في داخلي والسؤال عن جدوى اللقاء. انكمشتُ عن التقدّم معها خطوة في علاقتنا. أتراجعُ عن كلمة قلتها لها. ثم أنقلب على هذا وأجدني متحمّساً لزيارتها، لعلاقتها، لحملها صوتي وقضيتي إلى القدس، إلى الناس، إلى الاعتصامات، إلى الإعلام. إقدامها على الارتباط بي متفائلة برغم انعدام فرص تحرّري جعلني أستسلم وأحلم. ورحنا أنا وهي، مع تشجيع من جبر، ننظّر لفكرة أن خطوبتنا تحدٍ للسجن والعوازل، ودافع أمل لنا وللأسرى عموماً.

— «خطوبة أشبه بالمهمّة النضاليّة»، قلتُ لها.

وأمّ جبر تطمح إلى التوفيق بين رأسين بالحلال:

— «يا ابني، هيك بتجي بتزورك أحسن ما تبقى بين أربع حيطان. ما في غير ربّنا بيعرف شو مخبّيلنا المستقبل».

قطع استرسال الحياة على وتيرتها اليوميّة وزير العدل الإسرائيلي، دافيد ليفائي. جاء إلى السجن على رأس وفد من وزارته وطلب مقابلة اللجنة الوطنية، سليم زريعي وماهر أبو العوف (فتح) وجبر (الجبهة الشعبيّة) وأشرف العجرمي (الجبهة الديموقراطيّة) وأنا. حرص على تعريف الزيارة بأنها غير رسمية لنأخذ راحتنا في الكلام.

انطلق حوارنا من أوضاع الأسرى وأبدى رغبة في الاطمئنان إلى تنفيذ ما اتُّفق عليه في الإضراب الماضي. لفتتني لغته القانونية واستفزّتني بعض المفردات التقنيّة الجافّة.

قلت له:

— «بما أنك وزير للعدل أعترضُ على استعمالكم تسمية امتيازات في وصف حقوقنا. زيارة الأهل، النزهة اليومية في الباحة، الاستشفاء، الطعام، التلفزيون، الراديو، السرير، الحرامات... هذه حقوق وليست امتيازات. نضالنا وإضراباتنا وسقوط شهداء منّا ليست عبارة في كتاب قانوني. واعتمادكم مصطلح امتيازات يعني أنها مهدّدة ويمكنكم سحبها منّا متى شئتم وبحسب مزاج الوزير والمدير والضابط».

حاول التبرير بالقول إن هذا هو القانون لديهم وفي العالم.

أجبته بأن حياة الناس ونضالاتهم ليست موادّ قانونيّة وتسميات بلا إحساس. والقانون أداة للسلطة وليس مرجعيّة أخلاقيّة.

هرب من هذا النقاش إلى السياسة. امتدح سير المفاوضات منذ مؤتمر مدريد وقدّم صورة زاهية للشرق الأوسط الجديد.

التفتَ نحوي وسألني:

— «هل ينتهي الصراع بيننا في حال التوقيع على معاهدة سلام؟».

— «ما تسمّيه سلاماً أعتبره تسوية. الصراع لن ينتهي بيننا، ربما تحصل هدنة، لعشر سنوات، لعشرين سنة، لكن سيسأل ابن حيفا وعكا اللاجئ في المخيم أو في

الشتات لماذا لستُ في مدينتي وبلدتي وبيتي؟ لماذا أرضي ليست تحت سلطتي، ولماذا هناك دولة تدّعي حقها بالأرض وتطردني منها؟».

لم يعجبه رأيي. أكّد أن الصراع قابل للحل وأن البشر والدول تلتفت إلى مصالحها، والصراع يستنفد قواها. وسأل سليم زريعي عن رأيه في ما نقوله. فرد عليه سليم بالسؤال:

— «على قاعدة الأرض مقابل السلام، هل تقبل بدولة فلسطينية مستقلّة ذات سيادة كاملة على الأراضي التي احتُلّت عام ١٩٦٧ وعاصمتها القدس؟».

أجاب مستعجلاً في النهوض:

— «المفاوضات جارية. فلنرَ إلى ماذا تتوصّل».

— «كيف تعتبر أن الصراع سينتهي، وأنت لا تجيب عن سؤال بدأت المفاوضات على قاعدته؟»، خاطبته بوجهٍ متشكّك في ما يقوله ومنتقدٍ لتهرّبه من الإجابة.

مدّ يده ليصافحني:

— «أنا أقبل الاختلاف. والأيام بيننا وستثبت مَن منّا على حق. المستقبل للسلام».

— «ارتباطنا تحدٍّ للسجن والسجّان ولكل مَن يريد لكَ أن تمضي حياتك خلف القضبان، وبهذا نبعث برسالة أمل لكل أسير وفتاة فلسطينيّة. . .»، قالت لي كفاح ونحن نتساءل عن جدوى علاقتنا.

طوينا بهذه العبارة صفحة تردّدنا. شعرتُ بأننا أوضحنا اتّفاقنا: علاقة بين أسير وفتاة فلسطينيّة تقاوم الاحتلال بهذا الشكل.

— «لكن الإدارة سترفض!»، قلت لها وقد فكّرتُ أن المعركة تبدأ مع طلبنا السماح لنا بالارتباط، وإصرارنا على ذلك.

— «هذا حقّنا وعلينا النضال من أجله»، ردّت بسرعة.

فرحتُ لوجود شخص في فلسطين، في الأراضي التي احتُلَّت عام ١٩٤٨، يحمل صوتي وقضيّتي.

غادرتُ غرفة الزيارة وتوجّهتُ إلى مكتب المدير. صُدِم حين أخبرته.

— «الأمر صعب»، ردّ.

أحجمت عن التقليل من حجم ما أطلب والقول له إنه مجرّد ارتباط شكلي، ما دمتُ أسيراً. فكّرت أن هذا أمرٌ خاص بيني وبين كفاح، ولا أريد للمدير أن يقيّدني أو أن يأخذ كلامي حجّة للقول إنه ما دام شكليّاً فلا حاجة إليه ولا مبرّر له.

وصل طلبي إلى مديرية السجون، ومنها إلى الإعلام. اعترض المتشدّدون وأهالي قتلى عملية نهاريا.

أطلعني مدير السجن على حيرة مديرية السجون:

— «من جهة، لا تملك المديرية الحق في منعك من الارتباط، ومن جهة أخرى لا تريد جرح مشاعر أسر ضحايا نهاريا».

— «المحكمة التي لا أعترف بها أصلاً، لم تُصدِر حكماً بإعدامي، ومَن لا يُعدَمْ يبقَ على قيد الحياة، أم أنتم تريدون إعدامي وأنا حي؟».

سألته وقد تأكّد لي أنهم عاجزون عن رفض طلبي، ولا سيما أن الخبر قد نُشر. ففي هذه الحال سيكون في موقع مَن يخالف القانون، ولذلك يمكنني أن أتوجّه إلى المحكمة لإثبات حقّي.

بعد أيّام وافقتْ مديرية السجون على أن يكون ارتباطاً مضمونه حبر على ورق.

شعرنا بأن سجننا مقرّ المفاوضات. فبعد فترة وجيزة زارنا عضو الوفد الفلسطيني، فيصل الحسيني. عنوان زيارته لقاء الأسرى أبناء القدس. ولدى وصوله طلب الاجتماع إلى اللجنة الوطنية. رحنا أنا وجبر وسليم ورياض الملاعبي والمقدسيون. عبّر له الجميع عن مشاعر الاحترام والتقدير لمسيرته الشخصية. وهو لفّ الأجواء بودّه ودماثته.

من اللحظة الأولى، بدأ الحديث عن المفاوضات.

لم يفرط في التفاؤل. وصفها بالبطيئة:

— «كلّ نقطة تستغرق شهوراً. ولا نتائج جديّة حتى الساعة. لكننا نعمل. ومتمسّكون بحقوقنا الوطنية، من الحدود إلى القدس عاصمةً لدولتنا المستقلّة، إلى ملف اللاجئين والأسرى».

تمنّيتُ أن يكون أعضاء الوفد المفاوض كافّة مثله، على رغم رفضي للمفاوضات مع إسرائيل. وقارنتُ بينه وبين حيدر عبد الشافي وحنان عشراوي من

جهة، وبين ساسة منظمة التحرير من جهة أخرى. الحذر عنوان نظرتي إلى هؤلاء، وبعضهم لا أثق بهم وبأنهم مفاوضون جديرون ويحققون الثوابت الوطنيّة.

ازداد اهتمام الأسرى بالمفاوضات. اتّسعت الخلافات بين فتح وحماس. عصر ١٣/٩/١٩٩٣ كان كابوساً. يومٌ حار فالتٌ من أيّ عقال. ياسر عرفات في الباحة الخلفية للبيت الأبيض يمدّ يده لمصافحة إسحاق رابين. وهذا يتردّد، يتمنّع، يؤخر هذه اللحظة، يرفضها. تراجع إلى الخلف نحو شيمون بيريز المرتبك الحائر الذي يبدو مرتاحاً لكونه ليس رابين. وعرفات يتقدّم في اتجاه رابين، بين الرغبة في إحراج عدوّه والهشاشة والتذلُّل. الابتسامة على وجهه كمرض أبله ويده ممدودة فيما رابين يهرب منها، يراها أفعى، ويتمنّى أن تختفي يده من الوجود. مشهد من الرسوم المتحرّكة لـ«توم أند جيري». لحظة قربانيّة مملوءة بالضحايا والأشباح. وكما شعرت أنا، كذلك معظم الأسرى، وأحسب معظم العرب، بأن هذه اللحظة أطلقت رصاصة في الرأس. رصاصة تُفقِد التوازن، وتجوِّف الذاكرة، وتنسف القدرة على التفكير. أنظر حولي أرى ضياعاً، وعياً معطّلاً مشلولاً. سجّاني صار صديقي، عدوّي صار حليفي؟ ما الذي يحصل، إلى أين تسير الأمور؟

وانطلقَت في الإعلام الإسرائيلي ورشة تحليل مشهد رابين - عرفات، أو بالأحرى ورشة التبرير لرابين الذي أحرجه أبو عمّار، وقالوا إنها من شكليات المفاوضات وإن الرئيس بيل كلينتون هو مَن قام على المسرح بحركة وقرّب رابين وعرفات. . . وكلام من هذا القبيل.

كأن عقلي ورأسي انفصلا عنّي. جسدٌ يتحرّك آلياً. عدتُ أشكّ في أني أقوده وأنه أنا. وجبر في حالٍ مثل حالي. أنا أرفض المفاوضات من أساسها، وجبر ينتقد الاتفاقيّة وما تنتجه ويراها لا تعطي الشعب الفلسطيني حقوقه. وفي مقابل الإسلاميين، المعارضين للمفاوضات من أساسها، انقسم أعضاء حركة فتح، بين مؤيّد للاتفاقيّة وقيادته، ومنتقدٍ يغلب على خطابه التحليل السياسي وتشريح بنود الاتفاقيّة أكثر منه الرفض والاعتراض. والفريقان الفتحاويّان ينطلقان من مجموعة تبريرات، تبدأ بأن العالم تخلّى عنّا ولا تنتهي بنعي الانتفاضة.

حلمتُ أنني في سجن خلف القضبان. وخارجها في موقع السجّان أبو العبّاس وقيادتي في الجبهة. أحاول محادثتهم، وجعلهم يساعدونني لأخرج. لا يجيبون. صوتي وحده يتردّد في أرجاء السجن. . . وهم صامتون.

بعد أيّام، وصور الحلم ما زالت تتجوّل في رأسي مثل دبابات إسرائيلية في شوارع غزّة وبيروت، مثل جندي إسرائيلي مسعور يبحث، في جباليا، عن فتى ليقتله، ومثل ميليشيوي كتائبي يقتل بدم بارد الأطفال والنساء في صبرا وشاتيلا، قرّرتُ الاستقالة من جبهة التحرير الفلسطينية. لم أهضم أن أكون عضواً في جبهة لم تعلن موقفاً معارضاً صارماً من أوسلو. وأرسلتُ إلى أبو العبّاس رفضي أن أُنتخَب عضواً في اللجنة المركزية التي رُشّحت لها ولم أسعَ إليها أو أفكّر فيها. لم أقصر استقالتي التي نشرتها في الإعلام الفلسطيني على نقد سياسة أبو العبّاس، بل انتقدتُ نوم قيادة الجبهة في دمشق وغيابها عن السمع منذ وفاة الأمين العام طلعت يعقوب خلال المؤتمر الوطني الفلسطيني في الجزائر عام ١٩٨٨.

بسرعة البرق انتشر في السجون السؤال عن موقع الأسرى أو بندهم في الاتفاقيّة. الجواب سلبيّ، فالاتفاقيّة لا تذكرنا لأن الوفد الفلسطيني المفاوض كان مستعجلاً لإنجازها قبل عيد ميلاد شيمون بيريز، كي يُحتفَل معه وتقديم الاتفاقيّة هديّة له... فنُسي موضوع الأسرى. هذا التفسير نُشر في الصحف الفلسطينيّة. برغم هذا وصلت إلى السجن رسالة من قيادة فتح تؤكّد أن موضوع الأسرى من الأولويّات. عبقت الأجواء بالتوقّعات والشائعات. الجميع ينتظر الخروج، وكأنه غداً ومؤكّد لا محالة. هذا يكلّف أسرته مراجعة المسؤول الفلاني إن كان اسمه مدرجاً، وإن لم يكن كذلك فالعمل لإدراجه، وذاك يجزم بأنه سيتحرّر في الدفعة المقبلة، وتقريباً الجميع حدّدوا رأس السنة، بل قبله، موعداً.

الموعد يقترب. حمل النائب العربي في الكنيست الإسرائيلي، أحمد الطيبي، إلى سليم زريعي بشرى إطلاق سراحه. الوفد الفلسطيني طلب إخلاء سبيله في معالجة خاصّة.

خرج وحده، بعد يومين من زيارة الطيبي للسجن. ضاق ذلك في عيون كثيرين:

— «ناس بسمنة وناس بزيت».

— «يا جماعة، سليم أمضى أكثر من ٢٥ سنة في السجن، وتقولون بسمنة وبزيت! بدلاً من افتعال المشاكل حرّكوا أهلكم. اطلبوا منهم أن يعتصموا، يتظاهروا».

ضُمّ سليم إلى الوفد الفلسطيني المفاوض في شؤون الأسرى. وأوّل جولة كانت له في طابا مع نبيل شعث.

دخل ملف الأسرى جوارير المفاوضات وجولاتها. ينظّم الأهالي تحرّكات، في القدس ورام الله وغزّة، وسرعان ما تُنفس. ولا يحصل تدخّل منظّمة التحرير الفلسطينيّة مع الأهالي، بل، وهنا المأساة، تطلب من الأسير عبر مسؤوله التنظيمي أن يجعل أسرته تنسحب من الشارع إلى البيت.

أطلق سراح مجموعة من الأسرى على دفعتين. ارتخى عصب الحركة الأسيرة، توقف إصدار نشرة «نفحة الثورة». نقول إن مَن خرجوا هم مَن تنطبق عليهم المعايير الإسرائيلية، بينما مَن بقي هم مَن تنطبق عليهم معايير الثورة الفلسطينيّة ويفترض أنهم منظّمون ويعون معنى التنظيم والعمل. ينشط جبر لترتيب الوضع التنظيمي للجبهة الشعبية، ينشط خليل الراعي لتنظيم صفوف أعضاء فتح. لكن حركة بلا بركة. الإحباط سيّد الموقف. الجميع يريد أن يغادر السجن ولا يريد أن ينظّم.

فجأةً، في الشهر السابع من عام ١٩٩٤، أخبرتني الإدارة أنني سأُنقل:

— «إلى أين، لماذا؟».

لا جواب.

حملتُ أمتعتي وكتبي وبريد الجامعة ومشيت. نُقلت إلى سجن بئر السبع. وضعت في زنزانة سبقني إليها رفيقي السابق في الجبهة التي استقلتُ منها، الشيخ عدنان يوسف. جاؤوا به من عسقلان بعد طعن تشاشا شفيلي. ثم وصل جبر ووضعوه في زنزانة مقابلة. ساعات وبتنا عشرات من كادرات السجون. بدأت الصورة تتكوَّن، تتظهَّر في حديثنا عبر الأبواب.

جبر:

— «أعتقد أن السبب سياسي وليس إداريّاً».

أنا:

— «نحن، الذين نُجمَع هنا، لن يُفرج عنّا».

— «يريدون أن يفصلونا عن الآخرين، ليتمكّنوا من أن يفعلوا ما يشاؤون من دون رقيب أو حسيب».

— «بات لديهم مفاوض بدلاً من الأسرى، وبهذه الحركة يراهنون على إنهاء الحركة الأسيرة أو تعطيلها».

شغّلتُ التلفزيون. نمت.

في اليوم التالي جاؤوا وانتقوا منّا عدداً للخروج إلى الباحة. الأسئلة عن أسباب العزل تتكرّر. . . والإجابات نفسها. والأيام تجرّ نفسها ببطء شديد. زارتني كفاح. لا أدرك بدايةَ حديثٍ معها. تسألني، بالكاد أنطق بعبارة. تعيد طرح أسئلتها بصيغٍ مختلفة:

— «ماذا نفعل. كيف نتحرّك: نعتصم، نتظاهر، نتوجّه إلى المؤسسات الإنسانية؟».

— «لا أعرف!».

ثم أسألها عمّا يحصل في السجون الأخرى، في ملف الأسرى.

— «يقولون إن هناك مفاوضات لإخراج الأسرى».

بعد شهر أعادوا فرزنا على الزنازين. أحسستُ وهم يفعلون ذلك بأننا مثل ورق اللعب. وعددنا، للصدفة، ٥٢ مثل عدد تلك الأوراق التي لا أطيق حملها. وبرغم هذا الشعور حاولنا مع مدير السجن وضعي وجبر في زنزانة واحدة. أقنعناه وانتقل كلٌّ منّا من زنزانته إلى زنزانة أخرى في القسم.

أخبرتني كفاح، في زيارتها التالية، أن دفعةً كبيرة من الأسرى خرجت، ومن ضمنها قدورة فارس، مسؤول اللجنة الوطنية في جنيد.

— «معظمهم من المتّهمين بقضايا خفيفة: المشاركة في تظاهرة، رمي حجارة، دخول أراضي ١٩٤٨ من دون تصاريح، والمتّهمون بقتل عملاء لإسرائيل لا إسرائيليين»، علقت.

— «صحيح. الناس ينتقدون هذا، ويقولون إن إسرائيل تطلق سراح مَن لا يشكّلون عليها خطراً ولا تريد تحمّل أعباء سجنهم».

— «وضعت إسرائيل معايير وصنّفت الأسرى على أساسها. هذا لا يشكل خطراً، وذاك ملوّثة أيديه بدماء إسرائيلية. . . والسلطة الفلسطينية وافقت على هذا وترضى به».

قبل أن تغادر، أسأل نفسي عن مبرّر ارتباطنا. أهمُّ بالقول لها فلنفكّ ارتباطنا، وناضلي من أجل الأسرى من دون قيد شخصي.

تبتعد قبل أن أنطق بكلمة. أقنع نفسي بأنها فهمت.

تمكَّن قدورة فارس من تهريب رسالة إلينا. يروي فيها لقاءه مع ياسر عرفات بعد مجيئه إلى الضفّة. كتب قدورة أن النقاش بينه وبين أبو عمّار كان ساخناً، إذ انتقد تخلّي السلطة عن الأسرى وطغيان المحسوبيّات والمعالجات الخاصة والشخصية والانتقائية في إطلاق سراح هذا أو ذاك. احتدَّ أبو عمّار وهو يكره أن ينتقده أحد. قال لقدورة غاضباً: أنا أريد أرضاً لا أسرى. الأسرى أعتبرهم شهداء.

وقعت هذه العبارة كالصاعقة علينا. كل ما قيل سابقاً عن نسيان ملف الأسرى وعن محاولة العمل لإطلاق سراح الأسرى، تعرّى الآن، دُحِض. نحن لسنا خارج الاتفاقية فحسب، بل خارج اهتمام السلطة ورئيسها.

فتحتْ هذه العبارة الباب على مصراعيه أمام شعار «دبّر راسك».

اشترَكَ مع الغربة اليُتم السياسي، النكران والتخلّي. غرقتُ في بحرٍ مجهول القرار والموقع والحدود. غالبتُ مشاعر اليأس من متابعة الدراسة الجامعية. آزرني أبي، شدّني، قسا عليّ أحياناً وعطف حيناً. الوالد الحقيقي، الغائب في الموت، معي، بجانبي، والأب الذي اخترته، القيادة التي ثرتُ تحت ظلّها، تتخلّى عنّا، وبقسوة الجاحد.

أقرأ. أنجز واجبي. برغم توقي للحريّة والعودة إلى البيت، بل للخروج من هنا، أقول لنفسي: متابعتي الدراسة ليست مقرونة بالإفراج. وكأنني لا أحصّل تعليمي للعمل، مثل أي إنسان، بل لأسباب أخرى. من أجل والدي ومن أجل نفسي والتحديات التي أقحمني السجّان بها وهو يسعى إلى تدميري، وتدمير كل أسير، لنكون عالةً على مجتمعاتنا، كما قال موشي ديان.

تسجَّلتُ في هذا الفصل في ثلاثة مقرّرات. وقد بدأت وزارة الشؤون الاجتماعيّة الفلسطينيّة الوصيّة على ملف الأسرى تسدّد الأقساط. رفضت مديريّة السجون السماح لي بالتواصل عبر الهاتف مع المشرف على المقرّرات. شعرت بأنّ هناك محاولة لمنعي من الاستمرار في التعلّم. طلبت إلى المحامي التقدم بشكوى لدى المحكمة. حُدّد الموعد. نُقلت إلى المحكمة في مدينة بئر السبع. في القاعة اقترب مني أحد الصحافيّين:

— «عامير رفوفورت، من معاريف».

اقترح عليّ كتابة رسالة اعتذار إلى أسر القتلى في نهاريا. فوجئت بمبادرته إلى هذا الموضوع. حاولت أن أوقفه عن المتابعة. أصر وأكد أن صلاته بالاستخبارات

تخوّله أن ينقل لي ذلك. وقال إنني إذا فعلت فسيُطلق سراحي مع مجموعة سيُفرج عنها قريباً.

— «الأمر ليس شخصيّاً بالنسبة إليّ كي أعتذر».

— «لن تضرك كتابة الرسالة بشيء».

— «أوقف هذا الموضوع».

— «أبو عمّار نفسه اعتذر».

— «لا علاقة لي، والأمر ليس شخصيّاً».

ترك بطاقته على الطاولة:

— «عندما تريد اتصل بي، هذا رقم هاتفي».

شعرت بأنّه أتى إلى المحكمة لهذه الغاية التي لا أعرف من دفعه إليها ولماذا لم يمرّ عبر مديريّة السجون، وفي هذه الحال كنت سأرفض.

رفضت المحكمة السماح لي بالاتصال بالمشرف على دراستي. وعلّلت ذلك بالأسباب الأمنيّة، ولم تجد تفسيراً لهذا إلا الخوف من أن أحكي مع المشرف في أمور لا تخصّ الدراسة.

الأيام تمرّ. الأشهر. أنا وجبر في الزنزانة، يخرجوننا مع عدد من الموجودين في القسم إلى الباحة. نتبادل الحديث. لا جديد على ما نقوله عبر أبواب الزنازين. يذهب جبر إلى غرفة الزيارة للقاء زوجته وأمّه. أنتظره وحدي. يعود. أخبار عن الأسرة وتوقّعات بالخروج مشكوك في صحّتها.

أتى رفيقنا السابق في السجن المكلّف ملف الأسرى في وزارة الشؤون الاجتماعيّة، هشام عبد الرازق، مع وفد من السلطة. استحصلا على إذن بالزيارة من مديرية السجون. حمل لي تحيّة من أبو عمّار وسؤاله عن صحّتي وحاجاتي. وبحسرة من يتوقّع تفهّمي موقفه همس لي هشام:

— «الكلمة الأولى والأخيرة في موضوع الأسرى لأبو عمّار، إذا خبط بقدمه على الأرض وقال افتحوا هذا الملف، نعمل أزمة كبيرة ويمكن أن نحقّق الكثير. لكنه يعتبر الحدود والقدس واللاجئين والمستوطنات عناوين أهمّ».

صرتُ ألتقي هشام كصديق. حتى السياسة وأخبار المفاوضات عادت بالنسبة

إليّ تكراراً لما قيل سابقاً ولما أشاهده على التلفزيون وأسمعه من الراديو. أتحدث معه عن الدراسة وأمور حياتية وشخصية.

لا يمكنني أن أخرج من واقعي، ولم أفكّر في هذا. أوجدتُ لنفسي مساحة صغيرة لمتابعة دراستي. وثمّة وقت كثير لديّ. صيف ١٩٩٥ في منتصفه وجبر يحضّر لمشروع إضراب للضغط على السلطة الفلسطينية بهدف إطلاق سراح الأسرى. يتحاور في هذا الموضوع مع كريم يونس وأعضاء فتح. رَوحي مشتهى وصلاح شحادة، القياديان في حماس الموجودان معنا، أعلنا أن حركتهما خارج التحرّك لأنها غير معنيّة بالمفاوضات بين السلطة وإسرائيل. كذلك فعل أعضاء حركة الجهاد الإسلامي.

موقفي من المفاوضات يتلاقى مع حماس. لكنّي مع وحدة الحركة الأسيرة، ولم أنأَ بنفسي يوماً كما يفعل أعضاء حماس. ومستحيل أنّ رفاق عمري يضربون وأنا أنظر إليهم. صارحتُ جبر:

— «أنا غير معني ولستُ مقتنعاً بأهداف الإضراب، لا من ناحية قدرته على الضغط على السلطة والمفاوضات مع إسرائيل، ولا من ناحية قدرته على تحقيق هدفه، لكنّي سأنضمّ إليكم».

لم يعلّق. أحسستُ أن مشاركتي، بمعزل عن رأيي، تريحه. لا يطلب أكثر من ذلك. تابع اتصالاته عبر الأهل مع السجون الأخرى.

— «أتمنّى أن تخرجوا جميعاً»، قلت متيقّناً أن حريّتي ليست على جدول أعمال السلطة واهتمامها، ولألفت جبر إلى قناعتي هذه.

بدأ الإضراب، في تموز/يوليو. سحبوا التلفزيونات والراديوهات من زنازين المشاركين.

الوضع على حاله. يوم. اثنان. عشرة. خمسة عشر. . . في اليوم السادس عشر وردنا خبر توقّف الإضراب في سجن جنيد.

فوجئنا. أضاف رفيقنا في القسم الذي جاءنا بالخبر من أسرته أثناء الزيارة:

— «أرسلت السلطة وفداً إلى جنيد طلب من الأسرى وقف الإضراب».

جلسنا أرضاً.

— «صارت السلطة شريكاً مضارِباً. ترفض تحرّكنا. لا تريد فتح ملفّنا وإزعاج مفاوضاتها»، قال جبر محبطاً.

لم أتوقّع عكس ذلك. فكّرتُ في إخراج السلطة من المعادلة:
– «فلنحوِّل الإضراب مطلبيّاً لتحسين أوضاعنا. أوّلاً لا يمكننا أن ننهي تحرّكنا من دون طعم أو رائحة. وثانياً نحرج السلطة، وإذا ما تدخّلت نطلب إليها البقاء بعيداً عن أمورنا الداخليّة في السجون... ونوصل صوتنا إليها».
راقته الفكرة. عرضناها على روحي مشتهى وفؤاد الرازم من الجهاد الإسلامي. رفضا الانضمام إلى الاضراب. لكننا مشينا بها.
الغالبية، وخصوصاً جبر وكريم، كانت حتى الساعة محبطة أكثر منها متعبة. أنا متضامن مع رفاقي. وفّرتْ هذه الحركة بعداً معنويّاً ومدّتنا بزخم لمواصلة الإضراب. أحسسنا أن الأمور المطلبية هي بوصلة الإضرابات، بينما هدف إطلاق السراح أشبه بصرخة. كان يمكننا أن نُضرِب عن الطعام بهدف حريّتنا قبل اتفاق أوسلو ومجيء السلطة، أو لو كانت السلطة تتبنّى قضيتنا وتعمل لحريّتنا. أما الآن فتنفّس تحرّكاتنا. وخفوت صوتها في شأننا يخفّف الضغط عن إسرائيل ويبرّر لها أسرنا.
بعد ثلاثة أيام، في اليوم التاسع عشر من إضرابنا، جاء للقائنا هشام عبد الرازق، جمال زقوت وسمير مشهّراوي من السلطة الفلسطينية. معهم مدير السجن، شلومو تويزر، وقائد المنطقة في المديرية، ميخائيل بن شاحر. مازحني هشام بالقول إنه وجمال وسمير مشهّراوي لا يطبعون أسماءهم على قمصانهم. يعرف أن عادتي قراءة أسماء الضباط الإسرائيليين على قمصانهم من جهة اليمين في اللحظة الأولى التي أراهم فيها، وأمسح موجودات المكان كلّها بنظري كأنني أستطلع وأحفظ الصورة في رأسي. أحسستُ أنه لا يقصد تذكيري بأيام كنّا معاً نفاوض الضباط الإسرائيليين، بل تمييز نفسه وجمال وسمير مشهراوي عن مدير السجون وقائد المنطقة. انتبهَ جبر وكريم إلى هذه الإشارة التي لا تحتاج إلى تأكيد شخصي، لكنها تربك التفاوض. يحرجنا أن نسأل هشام عن الصفة التي يأتي بها إلينا: كرفيق سابق في الاعتقال؟ كصديق نحفظ له تاريخه ونضاله بملفّ الأسرى وإصراره على زيارتنا شخصيّاً والاهتمام بأمورنا؟ كممثّل للسلطة مثل مَن قصدوا سجن جنيد وأقنعوا الأسرى هناك بوقف إضرابهم وتركنا وحدنا في الإضراب؟ أم كوسيط مباشر يسعى إلى إيجاد حلول مع مدير السجون؟
أزحنا أثقال الهويّة هذه جانباً. راح جبر يعرض ظروف حياتنا. طالب بإنهاء

حالة العزل ومساواتنا بالسجون الأخرى، وبإعادة التلفزيونات والراديوهات. بدت مطالبنا بسيطة وأصرّ هشام على التأكيد أنها سهلة التحقُّق ليهوّن على مدير السجن أمر الموافقة عليها. ونحن أساساً لم نضع مطالب تصعيدية وتعجيزية. . . ما نريده هو الخروج بماء الوجه.

أُخرجتُ إلى الباحة أنا وعدد من الأسرى. وجدت هناك عبد العزيز الرنتيسي الذي جيء به إلى قسمنا بعد الإضراب. أسمع عنه ولم ألتقِه سابقاً. تصافحنا وتعارفنا. بدا ودوداً معي ومطّلعاً على تجربتي ومواقفي السياسية واستقالتي من جبهة التحرير الفلسطينية بسبب موافقة أبو العبّاس ضمناً على اتفاقيّة أوسلو.

عزّيته باستشهاد الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي فتحي الشقاقي. ترحّم عليه بأسى. تنحنح. توقّف عن المشي. ضبط نظارته السميكة على أنفه، بل رفعها كثيراً فظهر حاجباه من زجاجتيها. ارتسمَتْ في وجهه ملامح عتب:

- «الدكتور فتحي، رحمه الله، كان مجاهداً ومستقيماً، حركته طلعت منّا ولا بد أن تعود إلى أصلها. المستقبل لحركة حماس التي تمسك كتاب الله عزّ وجلّ في يد والبندقية في اليد الأخرى لتدافع عن مقدّساتنا وأمّتنا».

التقى رأيانا على أن المفاوضات لن تعيد للشعب الفلسطيني حقوقه ولن تنتج دولة مستقلّة:

- «مجانيّة وهدفها الاعتراف بدولة إسرائيل لا بالشعب الفلسطيني ولا بحقوقه»، قال بلهجةٍ حادّة كأنه يتابع سجالاً مع شخصٍ آخر غيري.

تذكّرتُ وصف هشام له بأنه من جماعة مَن ليس معنا فهو ضدّنا.

مجيء الرنتيسي ولّد حركةً سياسية في القسم. احتدّت المواقف وانقسم الاثنان والخمسون أسيراً. فتح والجبهة الشعبية من جهة وحماس والجهاد من جهة أخرى. شخصيّاً، انقسمتُ أيضاً. رفضي للمفاوضات يقرّبني من موقف حماس، وصداقاتي تشدّني إلى جهة فتح والشعبيّة.

اغتيل رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحاق رابين في ١٩٩٥/١١/٤. ارتفع صوت الرنتيسي وإخوانه:

— «اعترفت منظمة التحرير بدولة إسرائيل وتخلّت عن الكفاح المسلّح، وها هم الصهاينة يقتلون رئيس وزرائهم رفضاً للتفاوض والاعتراف بحقوق شعبنا».

استنكر أعضاء فتح وتخوّفوا على المفاوضات.

أفرحني الاغتيال واعتبرته شأنَ الإسرائيليين أنفسهم. توقّفت عند معناه: المجتمع الإسرائيلي غير مستعدّ للاعتراف بالشعب الفلسطيني وحقوقه. ولم يستوعب «التنازلات» المحدودة التي أقدم عليها رابين. فكّرتُ أن مسرحيّة تردّده في مصافحة ياسر عرفات بقدر ما كانت لتهدئة المتطرّفين الإسرائيليين عنت لهم ولغالبية مواطنيهم أن رابين يشعر بأنه يقوم بفعل الخيانة ويفعل ما يجب ألاّ يفعله.

قلتُ لجبر:

— «انتهت المفاوضات. أيّ رئيس وزراء إسرائيلي سيقبل أن يتوصّل إلى تسوية مع العرب والفلسطينيين ويوقّع يعرّض نفسه للقتل. رابين ذو الرمزية العسكرية والسياسية قُتل، وأيّ واحد مثله، أرييل شارون مثلاً، سيُقتل إذا ما صافح أبو عمّار».

أخبرني المحامي صالح محاميد أنه قرأ في صحف إسرائيليّة أنني ومجموعة من الأسرى «الإرهابيين الملطّخة أيديهم بالدماء الإسرائيليّة»، وجّهنا رسالة تعزية إلى أسرة رابين.

— «أخ. أنا فعلتُ هذا؟ متى فعلت هذا؟»، قلت له كأنني أسأل نفسي.

راح يهدّئني:

— «طوّل بالك، هناك خطأ. الإسرائيليون يريدون توريطكم والزعم أنكم برغم ماضيكم الإرهابي، بالنسبة إليهم، بتّم مع العملية السلمية».

— «فليلعبوا هذه اللعبة مع غيري. لن أسكت!».

اقترح عليّ أن يسأل عن الموضوع، ويوضح لي الأمر في الزيارة المقبلة.

— «سأتقدّم بدعوى على الفاعل»، قلت له.

خرجت من غرفة الزيارة مسرعاً نحو مكاتب الإدارة.

لم يصدّق مدير السجن، شلومو تويزر، أن اسمي وُضع من دون علمي. رمقني مكذّباً ما أقوله، وردّ مبعداً المسألة عن نفسه:

— «أعضاء فتح سلّموني الرسالة الموقّعة باسم أعضاء منظّمة التحرير، وأنا نقلتها إلى مديرية السجون».

إذاً، الرسالة حقيقية. كيف يفعلون هذا. لا. ليس هم، لا أصدّق. سبق أن تناقشنا في السياسة والمفاوضات وفي العمليّات الاستشهاديّة التي يرفضونها ويعتبرونها تشويشاً على المفاوضات وتؤذي صورة الفلسطيني وقضيّته في العالم، بينما أنا أؤيّدها. ويعرفون أنني خالفتُ رأيهم بأننا كأسرى علينا أن ندعم السلطة والمفاوضات ونكون مرنين لإنهاء هذا الملف الذي لا يمكن أن يُقفَل إلاّ بالمفاوضات. هل ظنوا أنهم بهذه الخطوة يخدمونني ويُبقون قضيتي مطروحة مع قضايا الأسرى عموماً؟ فكّرتُ في هذا. احتمال. وغير واحد منهم همس لي مرات وحرّضوني على أن لا أُفسح في المجال لأحد لإهمال قضيتي والتنصُّل منها ونسيانها. قالوا لي إنني أتيتُ إلى فلسطين فدائيّاً لتحريرها، إذاً أنا مسؤولية السلطة. وقالوا لي إذا كانت إسرائيل لن تطلق سراحي لأنني إبليسها، اكذب عليهم يا أخي، ادعم السلام. لمَ لا، فالمفاوضات والسلام كلّه كذب بكذب. حفلة كذب انْفذ منها. كلماتهم هذه ترنّ في أذني.

عدتُ إلى الزنازين غاضباً مستاءً، لكن من دون أيّ رغبة في الصدام أو الشجار مع رفاقي. قصدت صديقي كريم يونس في زنزانته. بقيتُ خارج الباب. سألته عن الرسالة وكيف يضع هو وإخوانه في فتح اسمي وهم يعرفون موقفي.

طلب إليّ الهدوء مؤكداً أن أحداً لم يضع اسمي:

— «وقّعناها نحن أعضاء حركة فتح في سجن بئر السبع».

— «يا أخي، تويزر يقول إنّها موقّعة باسم أعضاء منظّمة التحرير؟».

— «هذا غير صحيح، وقّعناها باسم أعضاء حركة فتح».

أثق بصدق كريم وبأنّه لا يفعلها ويزجّني من دون علمي في مسألة من هذا النوع. لكنّي أريد أن أعرف الحقيقة.

وعدني كريم بأن يخبرني كل ما سيعرفه.

لم أطمئن. لم يهدأ لي بال.

كرّر جبر عليّ أنّه يصدّق كريم ويكذّب تويزر، مع احتمال أن يكون هناك خطأ في فهم من وصلت إليه الرسالة، أو أن هناك لعبة استخباريّة إسرائيليّة. وختم ممازحاً:

— «صيت غنى ولا صيت فقر». وابتسم متوقّعاً أن أضحك.

— «أيّ غنى؟»، رددت والدم قفز إلى وجهي ويداي شجرتان يابستان.

– «يا أخي، ربما الإسرائيليون يريدون أن ينتهوا من صورة سمير القنطار في نهاريا، ويُخلِعوك القميص الوسخ الذي ألبسوك إيّاه ليتخلّصوا منك في السجن».

– «ماذا تقصد؟».

– «يقتلونك مثلاً». ضحك ساخراً وعاجلني بأنه يمزح:

– «يطلقون سراحك. خلص، ملّوا منك. هذه العَمْلَة، بمعزل عمّن فعلها، فتح أم الإعلام الإسرائيلي، تخدم إطلاق سراحك. لا تتحرّك ضدّها والناس يعرفون موقفك الحقيقي. ومَن يعرف بها سيدرك أنها غير صادقة وغير حقيقية».

هذا الكلام بما فيه من قسوة، جعلني أفكّر في أبعاد أخرى لما جرى، ودفعني أكثر إلى معرفة حقيقة الرسالة وزجّ اسمي فيها.

أقسمَ كريم إنهم وقّعوا الرسالة باسم أعضاء حركة فتح:

– «قال لي تويزر إنه بعد تسلّمه الرسالة بيوم جاءه اتصال من مديرية السجون يسأله ممّن الرسالة، فأرسل بالفاكس ورقة بأسماء أعضاء منظّمة التحرير الموجودين في القسم».

سكتّ. نظر إليّ ليقرأ ردّة فعلي. أضاف:

– «مَن قرأ الفاكس ووجد اسمك اعتبر أنه حصل على سبق صحافي، واستعجل في إيصاله إلى الإعلام».

– «ماذا نفعل؟»، سألت.

– «أرسِل توضيحاً».

– «أيكفي؟»، رددت.

عاجلني المحامي صالح محاميد الذي التقيته في غرفة المحامين:

– «أنصحكَ بعدم التقدّم بدعوى أمام المحاكم. لن تأتي بنتيجة».

كأنه ضربني على رأسي:

– «لأحفظَ حقّي»، قلت.

– «المحكمة سترد باقتراح أن تنشر ردّاً. وستقول ما هذه القضية ومَن هذا الشخص الذي يتنكّر لتعزية رئيس وزراء إسرائيل. وربما ستعتبر هذا إهانة أو جريمة. أنت في غنى عن وجع الرأسَ هذا».

أحبطني.

صغنا توضيحاً لإرساله إلى الصحف. وضعه بين أوراقه في محفظته وغادر.

لم تنشر الصحف الإسرائيليّة والفلسطينيّة الرد. وإذ أعرف أن البعض يظن أنني شاركتُ في صوغ الرسالة والتوقيع عليها، أو يحلو له أن يصدّق ذلك، رحتُ أعتبر أن ما حصل نقطة سوداء سأزيلها، وسأبدأ بالاهتمام بنشر مواقفي عبر الإعلام خارج فلسطينِ.

— «أنا أعرف الحقيقة»، قلت. وأقفلت الموضوع.

بيغن والشيطان

أُعدتُ إلى نفحة في الشهر السادس من عام ١٩٩٦، بعد سنتين من العزل في سجن بئر السبع. وعدتُ نفسي، وأبي غيابيّاً، بأن أنظّم حياتي ويوميّاتي بين العمل في الحركة الأسيرة والاندماج مع رفاقي الأسرى والدراسة. لن أدع بُعداً يأخذ من حصّة الآخر. قطعتُ أكثر من نصف الطريق في دراستي الجامعيّة، لن أخربها أو أسمح بتدمير ما أنجزت.

صباح اليوم التالي خرجتُ إلى الباحة مع رفاقي منفّذي العمليّة البحرية، أعضاء جبهة التحرير الفلسطينية. بحثتُ عن ماهر أبو العوف، ممثل السجن. تحدّثنا في أمور الأسرى واللجنة الوطنية. أخبرته أنني وعدت جبر بالعمل لإخراجه من العزل في بئر السبع وإعادته إلى نفحة. وجالستُ عدداً من الأسرى. لمستُ ترهّل التنظيم واستفحال الخلاف بين فتح وحماس. وجدتُ أننا لا يمكن أن ننشط ونصوِّب الأمور إلاّ بتبريد الخلاف وتهيئة الظروف لكل تنظيم، ولا سيما حركتيْ فتح والشعبية، لإعادة صوغ نفسه. وتخوّفتُ من تدهور الأوضاع والعجز عن الإمساك بالسجن الذي زيدت إلى أقسامه الأربعة ثلاثة وبات يضم ٦٦٠ أسيراً.

تحمّستُ أكثر لوجود جبر بيننا. قصدتُ الإدارة، وقد بتُّ أنا وماهر أبو العوف ممثلي الأسرى. جلتُ بنظري على المكاتب، جدرانها، طاولاتها، خزائنها، استطلعتُ ما تغيّر وما لا يزال على حاله. جلستُ أمام طاولة المدير، هو خلفها. طلبتُ إعادة جبر. لم يجب. نظرتُ إليه مبتسماً، وكأني أكرّر السؤال صامتاً، وأوحي إليه بأنه قادرٌ على ذلك إذا أراد. . . وفي الوقت نفسه أُرسل إشارات تهديد.

أنهى جولة تفكيره وقال:

— «آتي به إلى هنا لتعملا مشاكل؟»

— «بالعكس، إذا لم تأتِ به إلى هنا سنعمل مشاكل»، رددتُ عليه ضاحكاً.

— «اترك هذا الموضوع عندي، وسأرى ما يمكنني القيام به».
— «أعرف أنك تستطيع. وإذا لم يأتِ جبر إلى هنا، يعني أنك أنت لا تريد».

سَرَت «خبريّة» أن دفعة من الأسرى ستُطلق قريباً، «قبل نهاية العام»، قالوا. نفّذت حماس عملية عسكرية. وتعطّل إطلاق سراح الدفعة. اشتدّ الخلاف بين فتح وحماس. الفتحاويّون غضبوا واتهموا حماس بتخريب الإفراج عنهم. أعضاء حماس ردّوا بأنهم مقاومة وبأن كل مَن يتهافت على الخروج بأيّ ثمن يقف ضد المقاومة.

توصّلنا إلى ما يشبه الهدنة بين الحركتين الأقوى في الساحة الفلسطينية. لكن من خلال احتكاكي بكلا الطرفين ولكوني لستُ محازباً لأيّ منهما، شعرتُ بأن النفوس مشحونة. ما يهدّد الهدوء ويجعل الهدنة قابلة للانفجار في أيّ لحظة. والإدارة تدرك ذلك وتلعب على التناقضات. أرْخت، ولا سيما في سلوك الشرطة وتعاملها مع الأسرى، الوضع قليلاً في الأقسام التي يشكّل أعضاء تنظيمات منظمة التحرير فيها أكثريّة، بينما تشدّدت في الأقسام الأخرى التي يكثر فيها أعضاء حماس. وليس أكثر من الغيرة يثير العرب. انتفضت الأقسام المظلومة واصطدمت مع الإدارة.

أُعيد جبر إلى نفحة أواخر عام ١٩٩٦.

أرسلت إلى رفيق لي في القدس، كان أسيراً معنا، طلبت منه تأمين هاتف خلوي لي. واتّفقتُ مع شرطي على أن يقصد مكاناً خارج السجن يتسلم فيه الهاتف ويهرّبه إليّ مقابل مبلغ يقبضه من الرفيق بعد تسلّمي الهاتف.

باشرتُ ورفيقي الشيخ عدنان يوسف حفر مخبأ للهاتف في حمّام زنزانتي. تناوبت معه على الحفر حتى انتزعنا البلاطة وحوّلناها غطاءً يمكنني فتحه وإغلاقه ولا يلاحظه أحد. شدّدت عليه أن يبقى الأمر سراً بيننا. وأكدت أنّني لن أستعمله في اتصالات خارجية، لأن شركة الهاتف، وربما الاستخبارات، تراقب الخطوط الدولية، ولا سيما إلى لبنان. وعلمت أنها تدقّق في الخطوط التي تستعمل بكثافة.

غاب الشرطي في إجازته الأسبوعية، وعاد. كنّا في الباحة حين رأيته. غمزني من بعيد علامة أنه أحضر الهاتف. سبقتُ الآخرين في العودة إلى الزنزانة مع انتهاء النزهة. لحق بي إلى زاوية ميّتة في القسم. سحب الهاتف مغلّفاً وأعطاني إيّاه. ركضتُ إلى زنزانتي. أخفيته في المخبأ.

هدأت الغرفة. البعض نام. دخلت الحمّام وسحبتُ الهاتف من مخبئه. شرعتُ في فتح المغلّف. وجدتُ طريقة التغليف مطابقة لما اتّفقت عليه مع رفيقي. نايلون تحته ورق كربون، ثم نايلون وتحته ورق كربون وتحتها ورقة من جريدة تتضمّن خبراً عن لبنان. اطمأننتُ إلى أن الشرطي لم يفتحه، إذ نتخوّف من اللعب بالهاتف أو وضع سرّ ما أو جهاز تنصّت.

شغّلته. اتصلت برفيقي. فرح. وأنا لا يمكنني حتى أن أضحك. أعطيته رقم منزلنا في عبيه المكتوب على كل رسالة تصل إلي عبر الصليب الأحمر وطلبتُ إليه الاتصال بأهلي. شدّدت عليه ألا يخبر أحداً بأمر هاتفي:

— «قل لهم إنني أرسلت سلاماتي لهم عبر أسرة ابنها معي في السجن».

لم أبذل جهداً لإقناع نفسي بعدم استعمال الهاتف اليوم أيضاً. أرغب في الكلام مع أحد ما في الخارج، في الشعور بأنني أقوم بأمرٍ حرّ، كالاتصال بالهاتف كما يفعل البشر الآخرون. أحسّ بأنني أمتلك شيئاً يحول السجن دون امتلاكه، ويمنعني السجّان من استعماله. وإذا ما استخدمتُه أكون قد تحايلت على سجني والسجّان، وعلى قوّة منعي من التواصل مع العالم. وماذا سيحصل إذا اتصلتُ برفيقي؟ سألت نفسي. مَن سيعرف، لماذا التهويل؟

انتظرتُ حتى الليل، كما ينتظر طفل صباح العيد. اتصلتُ به. أخبرني أنه حادَث أهلي وهم جميعاً بخير. ونقل إليّ أنّه أقيم قبل أشهر، في ١٤ تموز/ يوليو ١٩٩٦، في الجبل، بلبنان، لقاء تضامني مع الأسرى في السجون الإسرائيلية، لمناسبة يوم الأسير اللبناني، تحت رعاية رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي وليد جنبلاط، وتسلَّمتْ فيه أمي درعاً تذكاريّة.

أخذني هذا الحدث إلى الجبل، إلى بيتنا وأسرتي. أنعشتني فكرة أن لبنان يتذكّرني وثمّة مَن يكرّمني ويسأل عني ويطالب بإطلاق سراحي.

فتحت أوراقي. قرأت رسائل أهلي التي تصلني مع صورهم عبر الصليب الأحمر. نظرت في الصور. قلت كبروا في غيابي. بحثت عن نفسي بينهم، لم أجد نفسي. أنا هنا في السجن. ذكّرت نفسي. طويتها. فتحت كتب الجامعة... قرأت. كتبت. شعرت بأنني سأعود إلى وطني وبيتي بعدما أنجز دراستي الجامعية، مثل طالب قرّر طوعاً الهجرة لتحصيل علمه.

انكببتُ في هذه الفترة، آذار/ مارس ١٩٩٧، على إنجاز واجبي الجامعي - الفصل الأخير. أقرأ وأكتب بحثين، الأوّل عن تناقض الديموقراطية والأمن في إسرائيل. استندتُ إلى مراجع علميّة وسياسية إسرائيليّة بالعبريّة. تجنّبتُ لغة الشعارات. خصّصته لعلاقة الجيش بالدولة وكيفيّة التعاطي مع اللاجئين الفلسطينيّين من قراهم وبيوتهم المقيمين داخل الأراضي التي احتُلّت عام ١٩٤٨.

والثاني تاريخي تقريباً. فتحت عنوان المفاجآت الاستراتيجية في الحرب العالمية الثانية، عرضت لهجوم باربروسّا الألماني على الاتحاد السوفياتي في ٢٢ حزيران/ يونيو ١٩٤١، وهو أضخم عملية عسكرية في التاريخ، إذ اشترك فيها ٥,٥ ملايين عسكري من قوات المحور التي غزت الاتحاد السوفياتي من خلال جبهة طولها ١٨٠٠ ميل، وكانت الجزء الأكبر من معارك الجبهة الشرقية خلال الحرب العالمية الثانية؛ وهجوم بيرل هاربر الياباني على المرفأ الأميركي في السابع من الشهر الأخير من العام ذاته..

وضعتُ بحثيّ في مظروف. ألصقت عليه الطابع البريدي الذي اشتريته من الإدارة، وسلّمته للمكتب المعني. تسلّمتُ وصلاً يثبت ذلك.

في انتظار النتيجة اتصلتُ برفيقي. أخبرني أنّ أهلي يعدّون لمهرجان في الذكرى الثامنة عشرة لاعتقالي.

تكرّر هذا مرّات حتى ١٩٩٧/٤/٢٢. أوّل احتفال كبير في ذكرى اعتقالي. نظّمَته لجنة المتابعة لدعم قضيّة المعتقلين اللبنانيين في السجون الإسرائيلية برئاسة محمد صفا وأسرتي، في نقابة الصحافة ببيروت. حضره وزراء ونواب ورؤساء أحزاب وجمعيات نسائيّة ومدنيّة. تُليَتْ رسالة منّي كنت قد هرّبتُها عبر أمّ جبر بشكل كبسولة صغيرة فتحتها زوجة جبر وأرسلتها بالفاكس إلى أهلي. وتحدث في الاحتفال أخي بسّام الناشط في قضيتي بجامعته وبين الشباب والمؤسسات والمنتديات. وألقى صفا كلمة دعا فيها إلى اعتبار ٢٢ نيسان/ أبريل من كل عام يوماً للأسير العربي في السجون الإسرائيلية. ووقف على المنبر أيضاً الوزير بشارة مرهج والنائب السابق عصام نعمان والأمين العام لجبهة التحرير الفلسطينية أبو نضال الأشقر وممثلان للحزب السوري القومي الاجتماعي والمجلس النسائي اللبناني. وطالب المهرجان الدولة اللبنانية والمؤسسات الدولية والإنسانية بالعمل لإطلاق سراحي.

جاءت أم جبر في زيارتها لي ولجبر. اغتنمت فرصة ابتعاد الشرطي عنّا ومرّرت لي مجموعة أوراق. أخفيتها في بنطلوني. همست لي أن أهلي أرسلوا قصاصات من الصحف تتضمّن خبر الاحتفال.

أسرعت في العودة إلى زنزانتي مغتبطاً. سحبت الأوراق، قرأتها. تذكّرت صحف لبنان. رفعتُ يدي إلى الأعلى.

حان وقت الإعلام، قلت. الإعلام الذي حاربوني به وشوّهوا صورتي ورسموها كما يحلو لهم... عليّ أن أنفذ من خلاله. لن أدعهم بعد اليوم يتحكّمون بي وبصورتي، ولن أترك حريتي لقرارهم. حدّدتُ بوصلتي.

نمتُ ملء عينيّ.

اتصلت برفيقي. نقل إلي رغبة أهلي في تسجيلي شهادة صوتيّة لتذاع في مهرجان يوم الأسير اللبناني في ١٤ تموز/يوليو المقبل، وكتابة رسالة كي تُقرأ في احتفال آخر للمناسبة ذاتها. أمّنت مسجّلاً من الشباب كانوا قد هرّبوه. انتظرت حتى نام زملائي في الزنزانة، كي يصفو لي الجو ولا يشوّش صوت أو ضجيج على كلامي. ضغطت زرّ التسجيل ورحت أتكلّم ببطء كي يُفهم كلامي. أمضيت سهرة مع أهلي. حدّثت أمي وإخوتي وأخويَّ واحداً واحداً وواحدة تلو الأخرى.

قلبت الشريط وشرعت في تسجيل الشهادة. ارتبكت في البداية. سمعت ما قلته، وهو عبارات قليلة، لم تعجبني. أحسست أنه ركيك وكأنّي أحادث زملائي في السجن. لم أحب أن أكتب وأقرأ من الورقة. رغبت في العفويّة. جدولت الأفكار في رأسي. تخيّلت أنّني على منبر ذاك الاحتفال، وخطبت. حكيت عن الأسر والأسرى وناشدت الشعب والدولة اللبنانيّين الاهتمام بقضيّتنا. وأكّدت ثباتي على مواقفي الوطنيّة والقوميّة مهما كانت الظروف السياسيّة وظروف اعتقالي صعبة.

راقتني العبارات السريعة وقول العناوين تلك باختصار.

فككت غلاف شريط الكاسيت. انتزعت منه البكرة. غلّفتها بورقة ونايلون. وضعتها مع الورقة الرقيقة التي كتبت عليها الرسالة وغلّفتهما بنايلون وحرقت الأطراف بنار القدّاحة.

هرّبت هذا، في غرفة الزيارات، إلى أم جبر.

أذيعت الشهادة مع رسالتين صوتيتين أيضاً للأسيرين أنور ياسين وعبد الكريم العلي، في لقاء نظّمته لجنة دعم قضية المعتقلين في السجون الإسرائيلية وأهالي الأسرى المحرّرين في مقر نقابة الصحافة ببيروت، لمناسبة يوم الأسير اللبناني.

يوم المهرجان بقيت طوال النهار أشعر بأنّني حاضر فيه ببيروت. وحين حملت إلي أم جبر، بعد أيّام، أوراق الفاكس، أحسستُ بأن قضيتنا باتت خارج أسوار السجن والغرف المغلقة للمفاوضات الإسرائيلية - الفلسطينية.

أوّل موجز للأنباء على التلفزيون الإسرائيلي، صباح ٥ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٧، أورد خبر وقوع فرقة من الوحدة ١٣ في القوات البحرية الإسرائيلية، المعروفة بـ«شييطت»، في كمين نصبته المقاومة الإسلامية قرب قرية أنصارية المحرّرة جنوب لبنان ومقتل ١٢ ضابطاً وجندياً إسرائيليّاً.

خفقَ قلبي بسرعة. ارتجفت. روحي وقد عادت إليّ. اطمأننتُ إلى المقاومة. أعجبني استنفارها واستعدادها لأيّ كوماندوس. زرعت عبوة مملوءة بكُراتِ الحديد، وانتظر رجالها بثقة. فجّروا العبوة وهجموا على المتسلّلين. أمطروهم بالنيران، بل استطاعوا صدّ عمليات الإنزال الأخرى بهدف انتشال الجثث والأشلاء. راقتني فكرة انتظار المقاومة العدوَّ في أرضها المحرّرة، من دون مشقّة التسلّل إلى الأراضي المحتلّة. ضحكتُ للقدَر الذي تقع فيه إسرائيل ولصعوبة مواجهتها مع المقاومة. وأنعشني أداء المذيع الإسرائيلي الحزين. أحسستُ أنه مذيعٌ على قناة عربيّة ينقّ وينعى.

— «خذوا. ذوقوا ما تلوَّغْنا به».

بقيتُ طوال النهار منتشياً.

على إيقاع الحديث عن تبادل بين المقاومة الإسلامية وإسرائيل، وطرح اسمي لشمولي بالعمليّة، جاء المصوّر إلى السجن. ارتديتُ قميصي الأسود، أحضرته لي أمّ جبر، ومشيتُ في اتجاه الغرفة التي تُستعمل كاستديو. وجدتُ عدداً من الأسرى مصطفّين في انتظار الدخول واحداً بعد الآخر. تأكّدتُ من الشرطي أن اسمي مدرج ويُسمح لي بالتصوير، فالقائمة أمامه على الطاولة لا تتضمّن إلاّ أسماء مَن أتى دورهم، إذ يحق للأسير أن يتصوّر مرة واحدة كل ١٦ شهراً.

وقفتُ أمام المصوّر. سيلتقط أوّلاً صورة طوليّة كاملة. وضعتُ إبهام كفّي اليسرى في جيبي. وأنا أفكّر في أن هذه الصورة ليست لأهلي وحدهم. ستُنشر وتُحمَل في أيّ تحرّك مقبل.

التقطتُ صورة ثانية وأنا مقرفص، ثم صورة نصفيّة. وغادرت. يُحسم أجر المصوّر من المبالغ التي يرسلها الأهل وتحتفظ بها مديريّة السجون.

تسلّم الصور يحتاج إلى وقت. ثمّة عمليّة تمرّ بها. أوّلاً تدقّق الإدارة بالنيغاتيف لتسمح بعد ذلك للمصوّر بإخراجها من السجن لتحميضها وطباعتها. ثم تتسلّمها الإدارة، تراقبها وتوزّعها على أصحابها.

تسلمتُ صوري. قرأت ملامح التعب والقلق في وجهي. كتبتُ رسالة إلى أهلي. شكرتهم على التحرّك لأجلي وطلبتُ متابعة العمل. جمعتها في مظروف لأعطيه إلى أمّ جبر في الزيارة المقبلة، وهي أو زوجة جبر ترسل الرسائل عبر الفاكس والصور عبر البريد إلى أهلي في لبنان، من خلال دولة أوروبيّة. هذه الطريق أسرع من الصليب الأحمر الذي يستغرق وصول الرسالة عبره نحو سنة.

تسلّمتُ الشهادة موقّعة من مدير الجامعة المفتوحة في إسرائيل، إلياهو نسيم.

برغم انتسابي إلى هذه الجامعة قبل أقل من خمس سنوات بأشهر معدودة، وجهودي وحرصي على إنجاز تعليمي فيها بالمراسلة، شعرتُ حين تسلّمتُ هذه الأوراق بأنني في تناقض. فمن جهة فرحتُ لتحقيق حلم والدي ومقاومتي استراتيجية موشي دايان في إخراج الأسرى من السجون عالة على مجتمعاتهم، ومن جهة أخرى أمسك شهادة رسمية من دولة لا أعترف بها. وإذ أحسستُ بأنني حصلت على شهادة جامعية وأنا أسير، استخففتُ بهذه الأوراق العادية، وإن كانت مقوّاة وأنيقة.

لم أدع هذا ينغّص عليّ فرحتي واقتناعي بأنني على الطريق الصحيح في تكوين نفسي كشاب متحدّياً ظروف اعتقالي. أوّل ما فكّرتُ فيه هو أن أتابع تعليمي. قلت، لو كنتُ في الخارج لاكتفيتُ وعملت، وإذا أردتُ استكمال تعليمي، أعمل وأتعلَّم. أما وأنا هنا لا يمكنني العمل، فسأتعلّم وأحصّل شهادات أكثر وأعلى ممّن قال إنه سيدمّرنا. وقلت إن هذا لا يزعج أبي وأهلي، بل يسعدهم ويقدّرونه.

صوَّرتُ الشهادة معتدّاً بحيازتي درجة جيّد جداً. أرفقتها برسالة أهدي فيها

الشهادة إلى المقاومة، واعتبرت أنّ متابعة التعليم في الأسر مقاومة. وأعطيتهما لأم جبر كي ترسلهما بالفاكس إلى أهلي.

راقني عنوان «احتفالات بيوم المعلّم المعتقل: قضيتهم قضية الوطن وتحريرهم تحريره»، في جريدة «السفير» (١٠/ ١١/ ١٩٩٧)، التي أحبّها وغالباً ما كرّرت شعارها «صوت الذين لا صوت لهم». وصلني هذا الخبر عبر الفاكس وأم جبر من أهلي. ويفيد بأن لجنة المتابعة لدعم قضية الأسرى والمعتقلين في السجون الإسرائيلية أقامت احتفالاً في ثانوية بيصور الرسمية، وألقى أخي بسّام كلمة. لم أفكّر يوماً أن أكون مدرّساً. والحقيقة هي أنني لم أحلم يوماً بمهنة. قررتُ أن أكون فدائيّاً ومقاوماً في العمر الذي يبدأ فيه الإنسان البحث عن اختياراته المهنية في الحياة. أنا لم أفكّر في هذا أبداً. ولعلّ حملي السلاح باكراً أنساني ذلك. والآن، بعدما حملتُ الشهادة في العلوم السياسية، لا أتخيّل نفسي مدرّساً. مع ذلك لامسني الغرور وأنا بين المعلّمين الأسرى المحتفى بهم: سهى بشارة التي وجّهت مسدسها إلى صدر العميل أنطوان لحد، والمفقود ابن بلدة بعقلين في الجبل إبراهيم زين الدين، وعلي عبد الله حمزة.

فجأةً، صباح ١١/ ١١/ ١٩٩٧، دهمت السجن قوّة ضخمة من الشرطة. تفتيش مباغت لم نفهم سببه. خفت على الهاتف وعلى حركتي لإيصال صوتي إلى الخارج ومعرفة ما يجري في هذا المجال. تبدّد خوفي عندما بدأت المواجهة بيننا وبين تلك القوّة. اشتبكنا. الزنازين التي فُتحت للتفتيش خرج نزلاؤها إلى ممرّات الأقسام، يتعاركون مع الشرطيين، يحاولون صدّهم وإرجاعهم من الأقسام. ومَن هم داخل الزنازين المقفلة راحوا يخبطون على الأبواب ويصدرون أصواتاً كجيش يستعد للهجوم.

انكفأت القوّة. قلنا ستعاود الكرّة، وإنْ لم تكن بنيّة كسرنا، فقد بات ذلك هدفها الآن.

النداءات ترتفع من أبواب الزنازين والشبابيك، تحذّر من معاودة الهجوم وتدعو إلى التكاتف. والأسرى في الممرّات أشبه بمَن حرّر أرضاً ويحرسها. فُكّت في بعض الزنازين الأبواب الحديد للحمامات لاستعمالها دروعاً.

استؤنف الهجوم. استُبق بفتح أنابيب الغاز ورمي نحو مئتي قنبلة من الغاز أيضاً. قاومنا وجُرح منّا أربعة.

اعتقلوا بعض مَن شاركوا في المواجهات. عزلوهم. وتوقّف الأمر عند دخول الجنود الأقسام استعراضاً.

لم ننم حتى صباح اليوم التالي. وقد جاء مسؤول شعبة الاستخبارات في مديريّة السجون، رامي ليفشيتس. وطلب لقاءنا. اجتمعنا إليه مع مدير السجن عير بن دور، الذي كان سابقاً قائداً لكتيبة دخوفات في لواء الناحال. حرص رامي على التأكيد أن التفتيش كان إجراءً عاديّاً، واستغرب ردّة فعلنا.

— «إذا كانت عمليّة تفتيش عاديّة لماذا كل هذه القوّات؟»، سألته.

— «تأتي هذه القوّات تحسّباً لحصول شغب».

— «تأتون بها لتحدثوا الشغب وتستفزّوا الأسرى بنيّة حصول مواجهة، وأنتم تحسَبون أنكم بذلك تربّوننا أو تكسروننا».

— «الآن فهمت لماذا لا تريد دولة إسرائيل إطلاق سراحك».

قال محاولاً إرباكي. وحين قلت له هذا ليس موضوعنا الآن وليس شأنك، ردَّ:

— «هذا إذا طالب بك حزب الله، فهو معنيّ بأسراه».

فكّرت أنَّ هذه رسالة استخباريّة. أهو يريد تحريضي على حزب الله كي أندفع إلى مشكل معه يسبّب عدم مطالبته بي؟ أم أنَّ حزب الله لا يطالب بي حقّاً، ويهدف هذا الرجل إلى تمرير المعلومة؟ بقيت أفكّر في هذا طوال المساء. وأقارنه بتأكيد الأمين العام لحزب الله السيّد حسن نصر الله لأسرتي التي زارته قبل فترة، أن الحزب يطالب بي في المفاوضات غير المباشرة الجارية بينه وبين الإسرائيليين في خصوص جثث ضبّاط عمليّة أنصاريّة وجنودها.

تسرّب القلق إلى قلبي. خفت من أن يكرّر الإسرائيليّون ما فعلوه مع الأردنيّين بعد محاولتهم اغتيال رئيس المكتب السياسي لحركة حماس خالد مشعل. فأثناء المفاوضات التي أجروها مع الملك حسين لامتصاص غضبه من تنفيذ المحاولة على الأراضي الأردنيّة، تعهّد الإسرائيليّون إخراج عشرين أردنيّاً من السجون، لكنّهم اختاروا عشرين «لا دم إسرائيليّاً على أيديهم»، وأبقوا خمسة أردنيّين نفّذوا عمليّات

كبّدت الإسرائيليّين خسائر بشريّة. رجّحت احتمال حصول ذلك مع المقاومة الإسلاميّة، وبالتالي أُستبعد أنا من التبادل. وهذا ما تُلمّح إليه الصحف الإسرائيليّة التي تكتب أن إسرائيل مستعدّة لإطلاق سراح عدد من اللبنانيّين في هذه الصفقة وفق معاييرها.

خطر في بالي كتابة رسالة إلى السيّد نصر الله، أعبّر فيها عن هواجسي، وأنقل إليه ما يصل إليّ من أخبار. نام رفاقي في الزنزانة. قمت إلى مخبئي وأحضرت دفتر أوراق السجائر. حاولت قدر الإمكان أن يكون خطّي واضحاً.

كتبت:

(. . .) أتمنّى من كل قلبي أن يخرج الجميع، لكن ما لم يكن بالإمكان ذلك، فإنني أطالب بالعدل في هذه القضية الإنسانية الحساسة. إنني ضحّيتُ بكل هذه السنوات من أجل فلسطين وأتوقّع أن أتلقّى معاملة من الشرفاء المخلصين على الأقل بمستوى التضحيات التي قدّمناها، فلا يُعْقَل أن تتواصل معاناتنا وأن نُترَك في السجون لأننا قتلنا إسرائيليين وأبلينا بلاءً حسناً. نحن تحمّلنا عسف الجلاد، لكن صعب، وصعب جداً أن نتحمّل ظلم إخوة الدرب. بعد قليل أبدأ العام العشرين لي في السجن وما زلتُ أعاني من رصاصة ما زالت في صدري. وفي الماضي رفضت إسرائيل بشدّة إطلاق سراحي وخصوصاً في عملية التبادل التي حصلت مع القيادة العامّة عام ١٩٨٥. واليوم أشعر بأن كل مَن أتى بعدي إلى السجن يخرج وبسهولة لأنه لم يقتل إسرائيليين، أما أنا فإنني باقٍ هنا لأنني قمتُ بواجبي وضبّاط العدو في كل لقاء معنا يذكّرونني بأنني أدفع حساب ما فعلته. إنني أيّها السيّد الجليل من الصعب أن أتصوّر إخوتي يشاركون في تثبيت نهج الاقتصاص من المقاتلين الذين قاموا بواجباتهم دون تقصير. ومن الصعب أن أرى مَن أتوا بعدي بسنوات طويلة يتحرّرون وأنا باقٍ هنا أواجه هذه المعاناة. نعم إنني مستعد لأن أتحمّل وأصبر وأقاوم الجلاد، لكن الأمر قاسٍ جدّاً عندما أشعر بأن إخوتي في السلاح يتخلّون عني. إنني أدعوكم إلى الانتباه والحذر من الوقوع في إغراءات إطلاق سراح أعداد من الأسرى مستعدّة إسرائيل أصلاً لإطلاق سراحهم لحظة تغيُّر الظروف باتجاه معيّن، بينما يبقى الأسرى الذين من واجبكم إخراجهم قبل أيّ أسير آخر نظراً لطول المدّة الزمنية التي أمضوها في السجون. أليس هذا هو العدل وهل الإسلام يقول غير ذلك؟ إن انتصار عمليّة التبادل المقبلة يكمن فقط في الهزّة المعنويّة التي ستتركها في

أوساط المجتمع الإسرائيلي. من هنا أتوقّع، بل أؤكّد، أن إسرائيل ستصرّ على عدم إطلاق سراحي. لكن أملي كبير بأن يكون إصراركم على إطلاق سراحي أكبر وأن تنتصر هذه العمليّة وتتوقّف رحلة معاناتي والانتقام الذي أتعرّض له يومياً.

أعتمد على الله وعليكم. والله وليّ التوفيق.

الأسير: سمير سامي القنطار

سجن نفحة الصحراوي ١٥/ ١٢/ ٩٧

أثناء عودتنا من الباحة إلى القسم بعد إعلان انتهاء النزهة، اقترح عليّ جبر أن نعقد اجتماعاً مخصّصاً لمؤتمر الأسرى العرب الذي سيعقد في بيروت بعد أشهر، في الذكرى التاسعة عشرة لاعتقالي.

تردّدتُ في سؤاله، على سبيل المزاح، عن مبرّر هذا الاجتماع. أغرتني رغبة في مشاكسته ومعارضة حماسته لتنظيم الأمور والاستعداد لها. قلت موحياً عدم الاكتراث بما يقول:

— «ما زال الوقت باكراً لـ ٢٢/ ٤/ ١٩٩٨. أمامنا أشهر».

رمقني بنظرة جادّة وقد تدلّت نظارته على أنفه. عيناه الصغيرتان اللتان بدتا كأنهما تعومان فوق النظارة، لا تسألان عمّا إذا كنتُ أمزح أم لا، تؤنّبانني. لكنه حدس تمثيلي دور العابث:

— «هذه أوّل مناسبة خارج الأراضي الفلسطينية تشارك فيها ابنتي فداء دفاعاً عن قضية الأسرى العرب لا عن والدها وحسب»، قال كما لو أنه يعاتبني على عدم اهتمامي.

ابتسمت وخطونا خطواتنا الأخيرة قبل الافتراق كلٌّ منّا إلى زنزانته.

بذلتُ جهداً، في تلك الليلة، للتفكير في ما يمكننا عمله. استعرضتُ عدداً من الأسرى المصريين والسوريين والعراقيين، وكيفية الاتصال بهم لتسهيل مهمة أسرتي ولجنة المتابعة، للتواصل مع أُسرهم.

قصدتُ الاجتماع مستعدّاً.

انطلقنا من العنوان الذي حدّده محمد صفا: يوم للأسير العربي. تخيّلنا المشهد: أسرٌ ومناضلون من الدول العربية. ورحنا نرسم أبعاد ذلك. هو يقول إن

لقاءً من هذا النوع يبرز الجانب الإنساني في قضية الأسرى، وأنا أضيف إن البعدين العربي والشعبي يخرجان قضيتنا من أروقة التفاوض المأزومة والمحكومة بالسقف السياسي والمصالح.

اتّفقنا على شكلَي مساهمتينا في الاحتفال. أنا أصوغ رسالة مني يتلوها أحد أفراد أسرتي، أعرض فيها ظروف الأسر وصعوباته وأطالب بإخراج قضيتنا من البازار السياسي إلى ساحات النضال الجماهيري. وتكتب ابنته هو نصّاً تتلوه بصوتها وبصيغة ابنة أسير عربي تخاطب الشعوب العربية وحكوماتها والمؤسسات الدولية والإنسانية للتدخل لمعالجة قضية الأسرى.

بالتزامن مع جهود لجنة المتابعة للمؤتمر، في بيروت، بدأنا ورشة الاتصال بالأسرى العرب لحثّهم على المشاركة برسائل وإطلاعنا على عناوين أُسرهم للتواصل بينها وبين لجنة المتابعة.

وعادت فداء من بيروت. حملت معها الصحف. زارت السجن مع أمّها وجدّتها. هرّبن لجبر صوراً عن تلك الصحف. أمسك بها جبر وانطلق بسرعة إلى الزنزانة، ينتظر أن يتمكّن من لقائي لجعلي أراها.

زارني في زنزانتي. وجهه قلبٌ ينبض. مدّ إليّ نسخاً من الصحف. أعجبتني في «السفير» صور نساء عربيات يرفعن في قاعة المؤتمر صور أبنائهن وأزواجهن، جنباً إلى جنب مع نواب لبنانيين. استوقفني وجود ممثل لقائد الجيش اللبناني. ابتسمت إذ فكّرت في التغيير الذي حصل في عقيدة الجيش وقد حدّد بوضوح أن إسرائيل عدو. ومرّت في رأسي العبارة الدستورية «لبنان ذو وجه عربي». ضحكتُ متسائلاً هل هناك وجوه أخرى، وانتبهتُ إلى أن تلك العبارة نتاج عقلية التسويات اللبنانيّة. سخرت من هشاشتها التي لا تصنع وطناً.

ارتبط تفكيري هذا مع قراءتي، في الخبر ذاته، أن جمعية سيّدات الجبل الخيرية ولجنة المتابعة لدعم قضية المعتقلين والأسرى نظّما اعتصاماً في خلية بلدة فالوغا. فكّرت أن في لبنان مَن هم مع القضية الفلسطينية، ويتضامنون مع الأسرى والمعتقلين في السجون الإسرائيلية، وهناك مَن هم مع الوجه الآخر، غير العربي، الأوروبي، ولا يكترثون لقضيتنا ووجودنا.

صبيحة ١٩٩٨/٦/٢٦ خرجتُ من زنزانتي إلى الممر. وحدي مع الحرّاس. يمكنني ذلك لكوني ممثل الأسرى. جلستُ خلف طاولة صغيرة لأراجع بعض طلبات الأسرى في سبيل معالجتها مع الإدارة. تقدّم مني ضابط، إسرائيل بيرتس. جلس بقامته النحيلة القصيرة في مواجهتي. بادر بلهجة الشامت:

— «يبدو أنك لم تخرج!»، قاصداً أن عملية التبادل التي تجري اليوم بين المقاومة الإسلامية وإسرائيل لم تشملني. وقد استطاعت المقاومة بموجبها استعادة رفات ٤٠ شهيداً من بينهم هادي حسن نصر الله، وتحرير خمسين أسيراً لبنانيّاً من سجن الخيام وعشرة من السجون الإسرائيلية، من بينهم رفيقي في الزنزانة لسنوات أحمد إسماعيل، علي حمدوني، نبيه عواضة، كايد بندر، عادل ترمس، حسين المقداد، رمزي نهرا، ماهر توما، بسّام الحاصباني، وسليم سلامة (أبو عريضة) الذي رفض العودة إلى لبنان وبقي في إسرائيل، وهو واحد من عملائها.

رددتُ عليه:

— «مَن قال لك إنني مستعجل. لماذا أنت مستعجل عليّ؟!».

ضبط نظارته على أنفه. أصرّ على ابتسامته الساخرة على وجهه الأبيض.

قال:

— «لكن اللبنانيين يريدون إخراجك».

— «هذا الموضوع لا يخصّك. أتراني متهافتاً على الخروج من هنا؟!».

استجمع قواه، وقال ما أتى لينطق به:

— «أتعرف يا سمير، أريد أن أقول لك كلمة، الله لم يخلق بعد مَن يخرجك من هذا السجن».

— «الأيام بيننا. سوف ترى أنني سأتحرّر. وسترى بأيّ طريقة سيحصل ذلك».

ضحك ساخراً وغادر. تابعته بنظري وقد جذبتني قلنسوته على رأسه. فكّرت أنني كنت صادقاً في ما قلته له. فأنا منذ مدة استبعدتُ أن تتمكن المقاومة الإسلامية من مبادلة عدد كبير من الأسرى اللبنانيين، وأنا تحديداً، مقابل أشلاء جندي واحد. وحين عرفت حجم ما حققته المقاومة قدّرت أنها أنجزت صفقة ممتازة. وفكّرت أن الإسرائيليين كانوا يسعون إلى اقتصار التبادل على جثمان الشهيد هادي حسن نصر الله مقابل أشلاء جنودهم لتشويه صورة الأمين العام لحزب الله. لكنّه ساوى بين بكره الذي لم يمنعه من العمل المقاوم وبين الشهداء الآخرين، وسعى إلى تحرير

أكبر عدد ممكن من الأسرى والجثامين. ولو تمكّن لأخرجني أنا. وقد أكّدت ثقتي به وبالمقاومة، في الرسالة التي وجّهتها إليه، وشكرته على الجهود التي بذلها لإطلاق سراحي والأسرى الآخرين. وجدّدت استمراري على مواقفي الوطنيّة.

جذبتني مجلّدات أرشيف صحيفتي «يديعوت أحرنوت» و«معاريف» التي صدرت في الذكرى الخمسين لنشوء الكيان الصهيوني.

أوّل ما شرعتُ أبحث عنه هو يوم ١٩٧٩/٤/٢٣. فوجئت أنهم كتبوا أن طفلة دان هاران، عينات، قُتلت أثناء المعركة ووجدت جثّتها على الصخور بعيداً من «المخرّبين». تيقّنتُ أن ذلك دليل على صدق ما قلته وإنني لم أقتل الطفلة كما فبركوا وكذّبوا بعد اليوم الأوّل. ورحتُ أطالع يوميّاً ما كُتب عن العملية. استوقفني كلام مناحيم بيغن في تشييع قتلى نهاريا: «سوف تنتقم إسرائيل من سمير القنطار انتقاماً يعجز عن إبداعه الشيطان». وجدتُ في هذه العبارة مفتاح اللعبة الاستخبارية الإعلامية التي مارسوها لأبلستي. كانوا يريدون في لحظة كامب ديفيد توحيد مواطنيهم حول سلطتهم السياسية ودولتهم، ودفعهم إلى تأييد «اتفاقيّة السلام» مع مصر، وقد وجدوا في قصّة موت الطفلة فرصة لتبرئة الجيش من قتلها، فاشتغلوا على العناصر الدراميّة لتقديم صورة بشعة لـ«المخرّب القاتل»، في مقابل صورة أنور السادات الواقف في الكنيست داعياً إلى السلام بين الشعبين المصري والإسرائيلي. اخترعوا رواية قتلي الطفلة بهذه الطريقة البشعة.

شجّعني توافر هذا الأرشيف الضخم بين يديّ على متابعة الدراسة الجامعية. قلت: ما دمتُ هنا، على الأقل في المدى المنظور، لماذا لا أقوم بأمرٍ مثمر؟ امتلأت حماسة لكتابة ما يفضح زيفهم. وأصلاً، لديّ عقدة ذنب تجاه متابعة دراستي التي أجّلتها مشغولاً بأمور حياتي وشؤون الأسرى والسجن. قصدتُ الإدارة، اشتريتُ طابعاً وطلبت استمارة التسجيل في الجامعة. ردّوا عليّ بأنها غير متوافرة الآن، وسيأتون بها. شككت في صحّة هذا وفكّرت أن في الأمر سرّاً. عدت وسألت عنها بعد أيام. وكرّرت طلبي بعد ذلك.

شعرتُ بأنني أعيد ترتيب حياتي بعدما لم تشملني صفقة التبادل وبات علي أن أمضي هنا سنوات بعد. سألتُ نفسي ما معنى ارتباطي بكفاح ولا أفكّر فيها ولا

أرغب في لقائها. ما مبرّر ارتباطي بامرأةٍ لا أراها، ولا أفق لعلاقتنا؟ تجدّدت الأسئلة القديمة، لكنها الآن ليست مسالك للتردّد بل هي أجوبة.

– «لا مفرّ من وضع حدٍّ لهذه العلاقة، الأمر الذي أؤجّله منذ مدّة»، قلت لجبر.

لم يعارضني ولم يبدِ حماسة كأنه بات مقتنعاً بذلك لكنه لا يريد التشجيع عليه أو الظهور في موقع المتحمّس له. قال ببرودة:

– «أنا معك في أيّ قرار تتخذه، وفي النهاية هذه ليست لعبة، وأنت وهي المعنيّان به».

قرّرت إقفال هذه الصفحة.

انتهت عملية التبادل وبدأ الحديث عن مطالبة إسرائيل باستعادة جاسوسها عزّام عزّام من مصر. علمت في ٥/١١/١٩٩٨، من صديقي هشام عبد الرازق وزير شؤون الأسرى، أن السلطة الفلسطينيّة تسعى لدى القاهرة لاستبدال عزّام ببعض الأسرى الفلسطينيّين والعرب، ومنهم أنا وخليل الراعي. واقترح عليّ هشام لدعم الموقف الفلسطيني، أن تتحرّك أسرتي لجعل رئيس الحكومة رفيق الحريري يطالب الرئيس حسني مبارك خلال زيارته القاهرة الأسبوع المقبل بإدراج اسمي في القائمة التي يجري التفاوض عليها مع إسرائيل مقابل إطلاق عزّام. كتبت رسالة إلى أخي بسّام ومحمد صفا شرحت لهما الموقف وألححت على تكثيفهما الاتصالات مع رئيس الحكومة ولا سيّما من خلال رئيس الحزب التقدّمي الاشتراكي وليد جنبلاط.

وطلبت من بسّام أن يطلعني على نتائج تحرّكه بأقصى سرعة عبر برنامج «قرأت لكم» مع الصديق زاهي وهبي على شاشة «المستقبل» التي استطعنا إقناع الإدارة بإدخالها ضمن القنوات المتوافرة في السجن. وقد علمت بعد يومين أن هذا المسار تحرّك عندما وجّه جنبلاط رسالة إلى الرئيس المصري حسني مبارك يتمنى عليه أن تكون قضيتي في جدول أولويّاته. وطالبت لجنة المتابعة لدعم قضية المعتقلين والأسرى، مبارك بأن تشمل عملية التبادل المرتقبة الأسرى اللبنانيين، وأن يكون اسمي في رأس القائمة التي يجري التفاوض عليها.

اقترح خليل الراعي وجبر، في اجتماع اللجنة الوطنية، تنفيذ إضراب عن الطعام للضغط على المفاوضات بين السلطة الفلسطينية والحكومة الإسرائيلية التي ستعقد جولتها الجديدة في الولايات المتحدة الأميركية. سارع رَوحي مشتهى من حماس وعبد الرحمن شهاب من الجهاد، إلى التحفّظ على ذلك، على اعتبار أن حركتيهما غير معنيتين بالمفاوضات. أنا أرفض المفاوضات وأعارضها.

برغم ذلك تناقشنا في جدوى الإضراب. اتّفقنا جميعاً على أن الحكومة اليمينية الإسرائيلية لن تعطي الرئيس الأميركي بيل كلينتون شيئاً في السنة الأخيرة له في البيت الأبيض.

أعلن رَوحي وعبد الرحمن عدم انضمام حركتيهما إلى الإضراب. وجدتُ نفسي أكرّر ما قلته لجبر قبل نحو ثلاث سنوات، في إضراب بئر السبع:

— «أنا غير معني بالمفاوضات، لكنني سأشارك ولن أترك رفاقي يضربون وأنا أقف متفرجاً».

انطلقت المفاوضات، في ١٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٨، بين الوفدين الفلسطيني برئاسة ياسر عرفات، والإسرائيلي برئاسة بنيامين نتنياهو المعارض أصلاً لأوسلو، في ولاية ميريلاند الأميركية. أخرجنا الطعام من زنازيننا إلى الممرّات.

صادروا التلفزيونات والملح والحليب من زنازين المضربين. دخّنت في اليوم الأول حتى كرهتُ التبغ وصانعيه. صرتُ أنام وأستيقظ على قراءة كتاب «المتمرّد» لمناحيم بيغن. ولم يغب عن بالي مع كل كلمة كتبها، أنه اكتأبَ نتيجة غزو لبنان وعدد القتلى الإسرائيليين الذين سقطوا أثناء حصار بيروت وبعده بفعل المقاومة الوطنية اللبنانية والإسلامية... وأمضى سنواته الأخيرة مقفِلاً على نفسه باب بيته.

وإذ توصّل المفاوضون، بعد ثمانية أيام، إلى اتفاق هزيل، ولم يذكروا الأسرى، واصلنا إضرابنا. قال جبر وخليل إذا لم يسمع عرفات وأحمد قريع ومحمود عباس ونتنياهو وأرييل شارون صوتنا في أميركا، يسمعونه حين يعودون.

عادوا. وواصلنا إضرابنا ولم يسمعوا.

قرّر جبر، أنّه بعد الاضراب سيلجأ إلى المحكمة طالباً أن تصدر قانوناً يسمح للمضرب أن يتناول يوميّاً كوباً من الحليب حفاظاً على سلامة معدته. ولكثرة ما درس هذا الموضوع الذي تحدّث فيه قبل الإضراب مع زوجته الطبيبة، أحسست أنه ينتظر انتهاء الإضراب للمباشرة بالدعوى.

في اليوم الخامس عشر أوقفنا الإضراب. وبعد أيام نكثت الحكومة الإسرائيلية بتعهّداتها وصدّقت على قرار بإقامة مستوطنات وفق برنامج يمتد على سنوات عدّة.

اجتمع جبر إلى المحامي وكلّفه توجيه رسالة إلى المحكمة المركزيّة عن حق الأسير المضرب عن الطعام في تناول الحليب. وفي انتظار قرار المحكمة صدر من «جهات أمنيّة عليا»، كما قِيل لي، قرار بمنع الزيارات عنّي باستثناء المحامين والصليب الأحمر الدولي.

كنت ورفيقي خليل الراعي نتساءل عمّا وصلت إليه المفاوضات المصريّة الإسرائيليّة في شأن الجاسوس عزّام. بدت صحّته متدهورة. يمشي بتثاقل. يحرّك رقبته، يده، ظهره، مع وجع. لم يخفِ إحباطه، قال:

— «كأنّي سأموت هنا، لا فرار نجح، ولا تبادل».

لم أجد جواباً. ماذا أقول، أي كلام في حالنا هذه يبدو كذباً ومزايدة. فأنا وهو طُرح اسمانا للتبادل في صفقة عزّام، واعتبرناها فرصة لا تتكرّر، لكنّها، في ما يبدو، لن تأتي بنتيجة.

قلت أنقله إلى أجواء أخرى غير المرض، حتى ولو كانت مأسوية أيضاً.

أخبرته أنني علمت اليوم أن «جهات أمنيّة عليا» رفضت السماح لي بمتابعة الدراسة، ولم يُفسّر السبب.

مشينا قليلاً في الباحة.

بعد فترة، في ٥/ ٣/ ١٩٩٩، الذكرى الخامسة والعشرين لاعتقال خليل. أحببت أن نوجّه له تحيّة.

عدت إلى زنزانتي، بل إلى دفتر السجائر. تمنّيت على محمد صفا وشقيقي بسام تنظيم مؤتمر صحافي في المناسبة، ودعوة مراسل قناة «أم بي سي». وأبقيت الأمر سرّاً، حتى الموعد، طلبت من رفيق لنا يقيم معه في الزنزانة ألا يغيّر التلفزيون عن «أم بي سي».

شخصيّاً، كنت أشغّل الراديو أيضاً على إذاعة «صوت الشعب». أنتظر برنامج «سهريّة» مع داليا القاضي، وأسمع أصوات إخوتي.

لجأ إليّ اللبناني محمود ح.، من يارين، لأقرأ له رسالة بالعبريّة وصلت إليه من المحكمة. فهو محكوم بتسع سنوات وقد مثل الشهر الماضي، في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٨، أمام اللجنة التي تقابل كل أسير بعد مرور ثلثي مدّة سجنه لتقرّر ما إذا كانت ستطلق سراحه أم لا. صدمتني الرسالة، أو بالأحرى معلومة أمنيّة كتبتها النيابة العامة، وتكشف أن محمود كان قبل اعتقاله عميلاً مزدوجاً وأن جهاز الاستخبارات العسكريّة يرفض إطلاق سراحه لأن ذلك سيؤدّي إلى فضح معلومات تمسّ بأمن الدولة.

نظرت إليه وهو يقف أمامي ويبتسم. ينتظرني. استعدت كل دقيقة له في نفحة منذ وصل قبل سنتين حتى نقلته أنا إلى زنزانتي بعدما تشاجر مع زملائه في زنزانته القديمة رغم أنهم عاملوه أحسن معاملة. تذكّرت أنه فعل عكس العادة، إذ طلب هو أن يؤتى به من عسقلان إلى هنا، بينما القاعدة أن يطلب الأسرى نقلهم من هنا إلى عسقلان هرباً من الطقس القاسي هنا. سألت نفسي أهو يؤدّي علينا دور المرتبك نفسيّاً أم هو حقّاً تأذّى في التحقيق والسجن.

قرأت له العبارة التي صدمتني. ارتبك. أكّد لي أنه لا يعمل جاسوساً في السجن. رفضت أن أسمع منه كلمة. أبعدته عني، وحذّرته أن يقترب منّي أو أسمع أنه افتعل مشكلة أو اقترب من أحد.

طأطأ رأسه وابتعد. عاد لا ينظر في وجهي.

تأكّد لي أنّه تعامل مع الاستخبارات الإسرائيلية، لكن على من كان يتجسّس في لبنان، من هو الفريق الآخر، المقاومة الإسلاميّة، أي حزب أو تنظيم؟ هذا هو السؤال. قمت إلى دفتر السجائر. كتبت رسالة إلى لجنة متابعة قضيّة الأسرى، أخبرتها فيها ما حصل وطلبت أن تفيدني بأي معلومات عنه وأن تُنقل هذه القصّة إلى المقاومة الإسلاميّة.

كلّفت الشباب مراقبته. طلبت من زملائنا في الزنزانة التعامل الحذر معه، ومن أحد زملائه في زنزانته السابقة أن يعدَّ لي تقريراً عنه.

غادر إلى المحكمة. أُعيد في اليوم ذاته وقد ازداد ارتباكه وتوتّره. لاذ بالصمت والعزلة. ولاحظت أنَّ الحرّاس يحرصون على مراقبته. بعد أيّام نُقل إلى سجن بئر السبع حيث أودع في الأقسام التي يُجمع فيها العملاء. لكنّي خفت أن يُشغّل كعصفور في الأقسام التي يُعزل فيها الأسرى. وفي الوقت ذاته، فكّرت أن علينا ألا

نهدّده أو نشكل خطراً عليه حتى يخرج وتتولى أمره المقاومة، التي راسلتُ قائدها، السيد نصر الله، وأطلعته على المسألة كلّها وعلى أن محمود كان قبل اعتقاله في أوروبّا.

قصدت الإدارة وطالبت بإعادته.

— «لماذا نعيده إلى هنا، تريد أن تقتله؟»، أجابني مدير السجن، داني بن زكن.

— «لماذا أقتله، ماذا فعل؟ أنتم ربما تقتلونه!».

ضحك.

قلت:

— «أنا مستعد لتوقيع تعهّد بالحفاظ على حياته».

وذكّرته بأنني فعلت هذا مرّات عدة. لم أقل له إنني فعلت ذلك كي لا يُرسل العميل في السجون ويشغّل كعصفور. فبعد فوضى إعدامات العملاء صرنا نتريّث في عقابهم، حتى نتأكّد من معلوماتنا.

لم يقبل.

قصدت وماهر أبو العوف مدير السجن، بن زكن، للاتفاق معه على الإجراءات التي ستُتّخذ في السجن خلال عيد الأضحى، بعد أيّام في ٢٢ آذار/ مارس ١٩٩٩. أجلتُ نظري في موجودات المكتب. كل شيء على حاله. جلست في مواجهته.

أثناء حديثنا قرأت كعادتي ما كُتب في الورقة الموضوعة أمامه على المكتب. تعميم من مديرية السجون يطلب اتخاذ إجراءات أمنية في السجن عشيّة العيد وأثناءه. وهي: تعزيز القوّة البشريّة، تعزيز المراقبة على الزنازين، التدقيق أثناء خروج السجناء إلى الباحة وعودتهم إلى زنازينهم، عدم السماح بإخراج البسكوت إلى الباحة وتوزيعه هناك.

قالها هو من دون النظر إلى الورقة ليوحي بأنها صادرة عنه. تركته يمثّل دور صاحب القرار.

اعترضتُ عليها.

رفضَ وأكّد عليها مكرّراً عبارة لا أقبل.

ابتسمتُ هازئاً:

– «يكفيك ادّعاءً. قل لي إنَّ هذا التعميم أمامك وأنت لا يمكنك مخالفته».

نظر إليّ، ثم إلى الورقة على مكتبه مستغرباً كيف قرأتها وهي بعيدة منّي وبالمقلوب بالنسبة إليّ. ضحك كيف أنني خدعته وأُخفي سرّ تمكُّني من القراءة بالمقلوب.

التفتُّ إلى ماهر فابتسم عاتباً كيف أفشيتُ بسرّي أمام بن زكن. لمت نفسي على ذلك وتوقّعت أن يحتاط منّي في المرّات المقبلة، وربّما يعمّم هذا على إدارة السجن كلّها.

صارت الأمور بيننا واضحة، لا يمكنه عدم الالتزام بقرار إدارته.

قلت لنفسي وأنا أغادر المكتب: خسرت هدفين في جلسة واحدة.

في يوم زيارة أم جبر إلى جبر، أحضرت معها قصاصات صحف أرسلها إليها أهلي بالفاكس. صور الاحتفال في الذكرى العشرين لأسري، في ٢٢/٤/١٩٩٩، والحشود الرسمية والحزبية والشعبية طمأنتني. أحسستُ بأن قضية الأسرى تكبر وتُحتضَن في لبنان. وزير (عصام نعمان) يتكلّم باسم رئيس حكومة لبنان (سليم الحص) في مهرجان وطني أمر يبعث على الراحة. ولم يقلّ عن ذلك أهميّةً حضورُ ممثّل لقائد الجيش اللبناني، وممثل للسفير الفرنسي في لبنان، وممثل لرئيس البعثة الدولية للصليب الأحمر، جنباً إلى جنب مع النائب في كتلة حزب الله عمار الموسوي والأمين العام للحزب الشيوعي اللبناني فاروق دحروج، وممثل لرئيس الحزب التقدمي الاشتراكي، غازي العريضي.

لم يفاجئني الاحتفال، فأنا على علم مسبق بتنظيمه وقد بات سنوياً، وأرسلت إلى أسرتي رسالة لتتلى فيه، رويت فيها بعضاً من قصّتي في الأسر والتعذيب، وطالبتُ الحكومة باحتضان قضية الأسرى المحررين اجتماعياً وإنسانيّاً. ما فاجأني هو حجم الاحتفال ومضمونه.

وفي ورقة أخرى قرأت خبراً ثانياً، عن لقاء تضامني مع الأسرى في بلدة عين عنوب قرأ فيه شقيقي بسّام رسالة مني وصلته عبر أم جبر أيضاً.

ثم تحدّث رفيقي في الزنزانة، الأسير المحرّر أحمد إسماعيل. أعادني في ما قاله سنوات إلى الوراء. تذكّر حياتنا معاً في زنزانة واحدة. الأيّام تمضي بهذه

السرعة؟ سألت نفسي. لا أشعر بأنها تمضي إلاّ متى تحدّث عنها أحدٌ ما في الخارج. أهي سريعة في السجن كما في الخارج؟ أهو الزمن نفسه في السجن وبالنسبة إلى الأسير، وفي الخارج؟ لا أظن ذلك. الوقت هنا بطيء وأكثر سعة ممّا هو في الخارج. والأحداث هنا أكثر وضوحاً وأطول. هكذا يغدو اليوم أياماً، وتغدو الدقيقة زمناً. وإذا كان الحدث يعبر في الخارج مرور الكرام كما يقال، فإنه هنا يتكرّر، يتكرّر في تشابه الأيام ويتكرّر في رؤوسنا وعلى ألسنتنا. كأنه ثلاثي الأبعاد أو أكثر. لا حدث يعبر من دون أن نفكّر فيه عشرات المرّات، ونصوغه، أو ننسخه على ألسنتنا وفي أحاديثنا وحياتنا عشرات المرات. كما لو أن للأحداث أصداءً وعلينا أن نعيشها ونحياها ونتحدث عنها ونتعلّم منها حتى تنتهي، أو تغدو أمراً عادياً. . . لنصدّق أننا نعيش حياة عادية. والحياة قليلة مفرداتها محدودة. أستغرب حين يستعمل واحدٌ منّا عبارةً من خارج قاموس السجن ويوميّاته. حتى حين نتحدث في السياسة كلماتنا لا تغادر هذا القاموس المختصر المختزل. وكثيراً ما أشعر بأن أفكارنا أوسع ممّا نقول، لكننا نقدر على إيصال ما نريده، ونفهم بعضنا على بعض بمفردات قليلة بسيطة. أسأل نفسي لماذا اخترعت البشرية كل هذه المفردات واللغات ويمكنها قول ما تريده بالقليل البسيط. ثم أشعر بأن هذا التفكير ضد الحريّة، وهو خدعة السجن والحياة الضيّقة التي نعيشها. كل الكلام لا يكفي الإنسان. فثمّة حالات تشعر معها بأن كل اللغات والمفردات والعبارات أقل ممّا تريد قوله والتعبير عنه وإيصاله إلى الآخرين. لكن ما جدوى أن يقال أيّ كلام، كل الكلام، وبكل اللغات، ولا يصل. بينما تكفي كلمة واحدة، تحية مثلاً، تصل، ممّن يقولها إلى مَن يُراد لها أن تصل إليه. أبادل كل الكلام بكلمة واحدة. أبادل كل قاموس البشرية عن الحرية بالحرية نفسها. وفي حالات مثل التي نحياها، في الأسر، نحتاج إلى أن نسمع ما يُقال لنا، علماً بأننا غالباً ما نكتفي بالثقة بحبّ الآخرين، لأننا نعرف أننا أسرى وهم مشغولون بحيواتهم. من دون الثقة بحبّهم لا نقدر على التوازن وفهم المعادلات البشريّة. نخفي حبَّ هؤلاء في قلوبنا وعقولنا لنواجه سلطة السجّان، إذ يتعبنا ويرهقنا ويشوّش أفكارنا التعامل الدائم مع سجّاننا. فالتعامل مع السجّان محكوم، في الوعي واللاوعي، باستحالة نمو صداقة أو ثقة. والسعي يتواصل لأن يكون هذا التعامل وفق قواعد وشروط، كلٌّ منّا يحاول تعزيز موقعه فيها. هكذا وفيما الفاصل واضح بين السجّان والسجين، يغدو الواحد منّا

بحاجة إلى ما يوضح المشاعر ويحدّدها. برغم معرفتنا أن الأسير يحتاج، كي يتوازن ولا يضعف أو ينهار أو يجنّ أو يخون، إلى هدنة مع المشاعر. كما مشاعر الحب كذلك مشاعر الكره. وهنا التوازن الذي نحتاج إليه. فإذا كان يصعب الإفراط في مشاعر الحب يصعب أيضاً الإفراط في مشاعر الكره. مضطرون إلى إجراء المعاملات مع السجّان، إلى مخاطبته، إلى إقامة توازن ما معه كي لا يفرط من جهته في الكره والعنف.

نفّذت حماس والجهاد الإسلامي عمليات. جاء كلينتون إلى تل أبيب ودُعيَ إلى غزّة. استقبله ياسر عرفات في المطار، وألقى كلمة أمام المجلس الوطني الفلسطيني الذي انعقد في غزّة، احتفاءً بأوّل رئيس أميركي في مؤسسة فلسطينية. تحمَّس الفتحاويون واعتبروا الحدث اعترافاً بدولة فلسطين. توتّر الجوّ بينهم وبين الإسلاميين. انتشر الحديث عن نيّة مديرية السجون الفصل بينهما، كل فريق في سجن. ناقشنا في اللجنة الوطنية ذلك. رفضناه جميعاً. لكني لم ألمس إجراءات لمنع ذلك.

همستُ لجبر:

— «لا دخان من دون نار. الإسرائيليون سرّبوا هذه المعلومة لمعرفة ردّة فعل الأسرى. وها أنت ترى معارضة كلاميّة ليس إلاّ».

بدا مقتنعاً مدركاً عواقب ذلك. شرد قليلاً، قال مرعوباً:

— «هذه كارثة. بذور حرب أهليّة داخل الشعب الفلسطيني. التمييز والفصل بين الشعب الفلسطيني وكأن هناك فئة مع إسرائيل وفئة ضدها، تؤسّسان لحرب».

— «لا تستغرب إذا ما أُطلق، بين حين وآخر، سراح فتحاويين، في مقابل تشديد الخناق على أسرى حماس والجهاد».

— «سيناريو شيطاني ستقوم به إسرائيل»، قال وقد غرق في عتمة زادت من سمرة وجهه وبياض شعره.

قلت:

— «إذا حصل ذلك فسأصرّ على أن أكون مع حماس والجهاد».

— «صعبة عليك الحياة بينهم. عاداتهم وتقاليدهم تختلف عن قيمك وحياتك».

– «سأكون مع المقاومين في الخارج، ومع مَن يمكن أن يطالبوا بحقوقهم في السجن».

– «معك حق. أسرى تنظيمات منظمة التحرير عادوا لا يهتمّون إلاّ بخروجهم من السجون».

– «إذا نفّذت إسرائيل هذا يعني أنها تخطط للبطش بحماس والجهاد، وأنا سأواجه معهم».

نظر إليّ كأنه يحلّل شخصيتي من خلال معرفته الطويلة لي، قال:

– «أخ منك ومن أحاسيسك. أحياناً أشعر بأن أكثر ما نما لديك في السجن هو الفراسة وحاسّة الحفاظ على البقاء».

أُخبر خليل الراعي بالنهاية السعيدة التي بذلتها السلطة الفلسطينية لإطلاق سراحه في ١٩/٨/١٩٩٩. احتفلنا بحريّته بعد خمس وعشرين سنة في الأسر. الجميع فرح له، خصوصاً أنه مريض. حين جاء دوري لوداعه قرأتُ في عينيه ووجهه الذي زادته الصلعة سمنة، حزناً وخوفاً. همس لي:

– «كان يجب أن تهرب أنت بدلاً منّي».

حاولتُ أن أُخرجه من ندمه بابتسامة لكنه كان أسرع منّي:

– «كنتُ مريضاً وتعباً من السجن ومتشوّقاً للنجاة».

احتضنته. مازحته:

– «كان عليك أن تنحف كي نتمكن من احتضانك».

قال جاهداً أن يؤخّر البكاء:

– «سامحني وأتمنّى أن تجد سبيلاً إلى الحريّة».

– «لا تقلق يا صديقي، سأتحرّر. المقاومة ستحرّرني». واستدركتُ كي نضحك:

– «أو أدبّر عملية فرار. ولن أتركك تمنعني».

خروج خليل عشيّة الجولة الجديدة من المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية أوحى بأن إيهود باراك يسعى إلى إراحة حكومته الجديدة. أمَلَ كثيرون من الأسرى الاتفاق

على إطلاق سراحهم في المفاوضات. ترافق ذلك مع تسريبات من السلطة للعديد من مسؤولي حركة فتح وتنظيمات منظمة التحرير. جبر بقي متوجّساً يحاذي في توقّعاته الحذر والشك. كأنه فعل ذلك كي لا يفرط في الرهان والأمل ثم يحبط إذا ما وضع الإسرائيليون فيتو على اسمه، أو إذا لم تطالب به السلطة. رغم أن المعلومات تفيد بأن السلطة الفلسطينية والحكومة الإسرائيلية اتّفقتا على السماح لنائب الأمين العام للجبهة الشعبية، أبو علي مصطفى، بالعودة إلى الضفّة الغربيّة، ما يعني أن احتمال خروج جبر، المسؤول العسكري السابق للجبهة في غزّة وأحد رموزها في الأسر، وارد جدّاً إذا تم الاتفاق في المفاوضات على إطلاق سراح أسرى.

انطلقت جولة المفاوضات في شرم الشيخ، بين ياسر عرفات وإيهود باراك والملك الأردني ووزيرة الخارجية الأميركية مادلين أولبرايت. الأسرى جميعاً يصغون إلى التلفزيونات. والأخبار هي الشغل الشاغل لمَن يخرجون إلى الباحة، مثل طلاب ينتظرون النتائج.

عمّت الفرحة مع سماع قرار إخراج دفعات كبيرة من الأسرى. علمنا، في اليوم التالي، أن أسرى الدوريات، أي الذين تسلّلوا إلى فلسطين المحتلة، مشمولون. حدسي أنني لستُ منهم. قلت هذا لرفاقي في الزنزانة، أعضاء العملية البحرية لجبهة التحرير الفلسطينية. وقد بدأت أودّعهم. حاولوا إقناعي بأننا سنترافق معاً في طريق العودة إلى بلداننا، وأنا أردّ عليهم بأنهم سيخرجون لأنهم لم يقتلوا إسرائيلياً، بينما أنا محكوم وقتلت إسرائيليين. ولم يصدّقوا عندما وصلت القوائم، بعد فترة، وطُلب إليهم الاستعداد للإفراج عنهم. بقيت العربي الوحيد في السجن، بل الوحيد من خارج فلسطين في نفحة.

تأكّد لجبر أنه سيتحرّر. حدّثني عمّا سيفعله حين يخرج. صاغ أمامي مشاريع العمل التي تكوّنت ملامحها في السجن، وسينهض بها. أُفعِم بالحيويّة والنشاط. تخيّلته عائداً إلى مهنته في التعليم الجامعي. وتخيَّل نفسه مع أسرته. بقي قويّاً حتى لحظة الفراق. انقلب على صلابته:

— «كيف أخرج وأنت تبقى هنا؟».

وراح يبكي. لحظة تختصر كل الصداقة. يقارن بين أيامه المقبلة حرّاً وبين أيامي في السجن ويجهش بالبكاء.

— «حريّتكَ حريّتي»، أقول له لأطمئنه.

يتذكّر توأمتنا واشتراكنا في كل شيء، يتذكّر مواقفنا معاً، سهراتنا، أسرارنا، نقاشاتنا، يعجز عن التفكير بأن كلاً منّا سيغدو بعد ساعات في عالم، ويعود إلى البكاء. أرى عينيه الصغيرتين، خلف نظارته الفضيّة الإطار، جفوناً حمراء. أبتسم له، أتردّد في نطق أي كلمة تستأنف بكاءه. وكل العبارات باتت خطرة معه في هذه اللحظات.

رحتُ أتذكّر مشاريعه عن إنجاب الأطفال، عن النضال من أجل حقوق الإنسان الفلسطيني وقضية الأسرى والسجون والتعذيب.

— «إلى اللقاء»، قال لي.

رفعتُ قبضتي في الهواء وعدتُ إلى زنزانتي. أفكّر: سأفتقد صديقاً أثق به وأسند ظهري إليه.

استَثنت هذه الدفعة أيضاً أسرى حماس والجهاد. اعتبرت نفسي معنيّاً. كتبت رسالتين إلى الحركتين الإسلاميّتين. عبّرت فيهما عن استنكاري للتفرقة والفصل بين الشعب الفلسطيني، وعن غضبي مما آلت إليه الأمور. وأكّدت أنني ثابت على مواقفي ومع أسراهما، يصيبني ما يصيبهم. سلّمت الرسالتين إلى ممثلَيهما في السجن، روحي مشتهى وعبد الرحمن شهاب. بعد أيّام سلّماني رسالتي تحيّة وتقدير من حركتيهما.

أكثر من نصف الأسرى في نفحة تحرّروا. بقينا نحو ثلاثمئة أسير. وجود شواغر في الزنازين، برغم انعكاسات ذلك في الراحة والهدوء، يذكّر بالرفاق والصحبة الممتدة لسنوات، ويولّد شعوراً غريباً. فمع تمنّي ألاّ يُسجن أحد ويؤتى به إلى هنا، يسيطر إحساس بأنّ المرحلة انتقالية، وثمّة ما يذكّرني، ورفاقي الآخرين، بأنني بقيت في السجن رغم أنه يكاد يفرغ. كأنّني جزء من السجن. سيطر عليّ اقتناع بأن أمامي سنوات كي أتحرّر.

قرَّرَتْ مديرية السجون في أواسط تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٩، ما كنّا سمعنا به، فصل أسرى تنظيمات منظمة التحرير والسلطة عن أسرى حماس والجهاد الإسلامي، وإرسال أسرى أراضي الـ٤٨ والقدس والجولان باعتبارهم يحملون

الجنسيّة الإسرائيليّة إلى سجن شطة. وشرعت بالتطبيق، فخصّصت سجن نفحة للإسلاميين، وأربعة أقسام في عسقلان لأسرى «م ت ف».

صدمة. وتفاقَمَ لديّ الشعور بالعار عندما لم يُعترَض على هذا الإجراء. فكّرت أنّه لا يعني أن الفلسطينيين عاجزون عن التعايش معاً برغم الاختلافات السياسية والعقائدية فحسب، بل إن إسرائيل تساعد على الطلاق وهم راضون لا يعترضون أيضاً.

ازداد اقتناعي بأنّ الإدارة ستبطش بأسرى حماس بعد نقل أعضاء فتح، عندما رفض مدير السجن طلبي البقاء في نفحة. وقد أخبرني أن مجموعة من أسرى حزب الله ستصل إلى نفحة. رددتُ عليه:

— «أنا لستُ عضواً في «م ت ف» ولا في أي تنظيم من منظّمة التحرير. أنا حرّ، سأبقى هنا».

منه كلمة منّي اثنتان. تراجع.

بدأ نقل أعضاء تنظيمات منظمة التحرير.

في المقابل، قرّرت أن أبقى في نفحة مع أعضاء حماس والجهاد وحزب الله. حاول شباب فتح، خصوصاً ماهر أبو العوف، إقناعي بالانتقال معهم إلى عسقلان. رفضت. غربتي السياسية تتّسع بيني وبينهم. وقد أوصل إليّ أنور ياسين، الموجود في سجن عسقلان، عبر أحد شباب الجبهة الشعبيّة، أنه جهّز لي سريراً، برغم أننا لم نتعارف بعد.

شرعت بالبحث عن مخبأ لنقل الهاتف من زنزانتي التي سأُغادرها خلال أيام وستغدو لسجناء مدنيين. اخترتُ المطبخ، بل لا خيار لي غيره، فهو مكان يمكنني حين أُنقل تفقّد العمل فيه، لكوني عضواً في اللجنة الوطنية. وحتى الانتقال إلى الأقسام الجديدة لا يمكنني الوصول إليها وتدبير مخبأ فيها.

مشيتُ إلى المطبخ. طلبتُ من الحارس فتح الباب:

— «أريد الاطمئنان على سير العمل».

مررت. تفقّدتُ المطبخ، وسألتُ أسيراً هناك أثق به برغم أنني لم أحفظ اسمه، مساعدتي في إيجاد مخبأ في المطبخ. أرشدني إلى زاوية صغيرة تحت الدرج لا تُستعمل ولا يكترث بها أحد. وتعهّد تأمين إسمنت لإقفال الفجوة بعد فتحها.

في اليوم التالي، قصدتُ المطبخ. أعطاني الإسمنت مجبولاً وسكيناً ومدقّة، وتسلّلتُ إلى تلك الزاوية. وراح يلهي الحرّاس كي لا يقتربوا منّي.

بدأتُ الحفر بأقل ضجيج ممكن. كنتُ في سباقٍ مع الزمن. وضعتُ الهاتف وفوقه كرتونة صغيرة ثم الإسمنت.

أشرتُ إليه بأنني انتهيت من عملي. أمَّنَ لي تغطية. تسلّلتُ نحوه. أخذتُ نَفَساً. أعطاني ماءً لأشرب. قلتُ له لاهثاً:

— «لا أريد مخلوقاً أن يعرف بما فعلته».

خرجتُ هادئاً.

جاؤوا بثلاثة من أسرى حزب الله، إسماعيل الزين، محمد بدير وجواد قصفي، في وقت ترحيل من بقي منّا في الأقسام الأربعة السفليّة إلى الأقسام الثلاثة العليا.

استقبلتهم، في غرفة الانتظار. وجدتهم حانقين من نقلهم من عسقلان. أبدوا تخوّفهم من استحالة تعايشهم مع أعضاء حماس والجهاد الإسلامي، لأسباب عقائديّة مذهبيّة.

حاولتُ أن أبدّد حذرهم. وقدّمتُ نفسي مثالاً:

— «أنا لستُ متديّناً! وأعيش معهم، بل أطلب أن أعيش معهم. لن تجدوا مشكلة في هذا».

لم يقتنعوا. كرّروا أنهم يريدون العودة إلى عسقلان.

— «أنا أبقى هنا لأجلكم، كي لا تكونوا وحدكم وغرباء، وأنتم تريدون العودة إلى عسقلان؟»، مازحتهم.

ردّوا:

— «فلنطلب معاً نقلنا إلى عسقلان».

توجّهت إلى الإدارة. تعمّد المدير أثناء دخولي مكتبه قلب الأوراق الموجودة فوق مكتبه كي لا أقرأ ما فيها. ضحكنا ودخلت مباشرة إلى الموضوع. طلبت إعادة الشباب إلى عسقلان.

— «مستحيل، هم وحماس والجهاد معاً»، رد المدير.

قلت له لفحص موقفه وأسبابه:

- «أنا أنتقل معهم إلى عسقلان».

نظر إليّ كأنه أدرك مراوغتي:

- «أنت تذهب إلى عسقلان، وهم يبقون هنا».
- «لا، أنا سأكون معهم، هنا أو في عسقلان».
- «سمير، لديك يومان، أو تذهب إلى عسقلان أو تبقى هنا».

بقي إسماعيل ومحمد وجواد حيث سينامون في غرفة الانتظار. توجّهت إلى الأقسام العليا. قصدتُ مسؤولَي حماس، رَوحي مشتهى وتوفيق أبو نعيم. طلبتُ منهما زنزانة مريحة يدخلها الهواء والضوء.

- «اختر أيّ واحدة وخذها».

اخترتُ زنزانة. قصدتها فوجدتُ أسرى قد شغلوها. عدتُ إلى رَوحي وتوفيق.

- «نفرغها لكم إذا أردتم!»، ردّا.
- «لا، لا. نأخذ الزنزانة ٦٠. مناسبة».

رافقني نحوها روحي وتوفيق ليطمئنا إلى أنها فارغة.

حجزناها لي وللشباب. وعدتُ إلى زنزانتي. استلقيتُ في سريري. غفوتُ وحيداً في الأقسام السفليّة كلّها، حتّى إنني شعرتُ بأن لا حرّاس. لكنّي لم أنسَ أنني في السجن. ليلاً، استيقظت، سحبتُ من مخابئي في الزنزانة أوراقيَ الخاصّة. أخفيتها بين كتبي وثيابي، ونمت.

صباحاً، حملتُ أغراضي. وقفت في باب زنزانتي. نظرتُ إليها. تذكّرتُ سنوات وأحداثاً وأسراراً ورفاقاً. ودّعتها. أوّل مرّة أودّع مكاناً. للحظة شعرتُ بالأسى لكونها ستؤول إلى سجناء جنائيّين، ثم أشفقتُ على كل سجين في هذا العالم. السجن قاسٍ مثل الجريمة، وأحياناً أكثر. والسجّان أقسى من السجين وأقسى من السجن نفسه.

بادرتُ إلى الخروج منها، كأني أريد نسيانها. كدتُ أهزأ من نفسي على عاطفتي الغريبة تجاه مكان مؤلم قسري. ثمّ انتابني شعور عكسي أعاد الاعتبار إلى المكان. اعتذرتُ من نفسي ومن زنزانتي ومن سجني عن هذا الخطأ. هنا مكانٌ عُذّبنا فيه، وحفظ أسرارنا، وشهد نقاط ضعفنا ولحظات قوّتنا، أحسّ بمشاعرنا وهي

تحاول الطيران نحو العالم، ومعظمها أخفق وسقط في أرض هذه الزنزانة، وهذا السجن.

لا أحبّ هذا المكان، لكني أحترم حياتنا فيه.

مشيتُ في الممر كأني أترك رفاقاً في الزنازين.

«لستُ ذاهباً إلى بيتي»، قلتُ كما لو أني أخاطب كل مَن مرّ عليها.

وحيداً بين إخوتي

وصلت، في ٢٣/ ١١/ ١٩٩٩، الدفعة الثانية من أسرى حزب الله، قاسم قمص، مصطفى حمّود، فادي الجزّار، علي بلحص، يوسف وزنه وحسن عنقوني. سبقوني مع إسماعيل الزين ومحمد بدير وجواد قصفي إلى الزنزانة. دفعني مجيئهم إلى عتبة لبنان. شعوري بأنهم ليسوا متروكين مثلي وبأن لديهم حزباً سياسيّاً يسعى لحريتهم، طمأنني، جعلني كمَن يدخل تحت غطاء في ليلٍ بارد. وهم لم يحاولوا ضمّي إليهم، حزبياً وعقائديّاً. تعاملوا معي كأسير مثلهم في السجون الإسرائيلية. وبما أن لا مقاومة في لبنان إلاّ حزب الله، وأيّ منّا لن يخرج من هنا إلاّ بعمليّة تبادل تنجزها المقاومة الإسلاميّة، باتت قضيتنا واحدة.

ردّت الإدارة رافضة طلبهم العودة إلى عسقلان. حسمت خياري:

— «سأبقى هنا».

بدأنا في السجن ورشة ترتيب وضعنا التنظيمي. وهاجسنا درء أي هجمة تقوم بها الإدارة. وقد بدأت المضايقات، خصوصاً على الأسر أثناء الزيارات.

ألّفنا لجنة وطنية، توفيق أبو نعيم من حماس، عبد الرحمن شهاب من الجهاد الإسلامي وأنا. قبل أن أقترح انضمام حزب الله إلينا، سألتُ إسماعيل، بوصفه قائد المجموعة. أحالَ هذه المهمّة عليّ.

— «يشرّفني هذا، لكني لستُ حزبيّاً»، رددت.

— «أنا وقاسم سنخرج بعد فترة إن شاء الله، ويبقى منّا سبعة، وأنت لبناني برغم أنّنا لا نفرّق بين فلسطيني ولبناني، وتمثّلنا».

— «الأفضل أن تُمثَّلوا بعضوٍ منكم».

— «لا نطلب أكثر من أن تمثّلنا أنت. ولا نريد أن نستفزّ أحداً. أيّ اختلاف

بالرأي في اللجنة إذا كنّا فيها ربما ينعكس خلافاً ويقال إن حزب الله يسبّب مشاكل، أو يريد كذا وكذا».

سكت قليلاً. أضاف:

– «حتى ولو رفضت، أنت تمثّلنا»، وهزّ برأسه دعوةً إلى القبول وعدم الوقوف عند الموضوع.

أراحني كلامه. أحسستُ بأننا قطعنا معاً مسافات طويلة.

لم يَطُلْ بقاء إسماعيل بيننا، شهر ونقلوه إلى عسقلان تمهيداً لإطلاق سراحه. حلّ قاسم بعده في قيادة المجموعة. أطلعته على أمر الهاتف ونيّتي نقله إلى مخبأ في زنزانتنا. توجّس من الفكرة. كرّر عليّ ما أعرفه من أنهم مجموعة مشبوهة في مسألة الهواتف لكونهم نُقلوا إلى هنا بعدما كشفت إدارة سجن عسقلان، حيث كانوا، ستّة هواتف في زنزانتهم.

– «لكنّي لا أستطيع ترك الهاتف في المطبخ»، رددت، في سبيل البحث عن حل.

– «إذا كان الأمر كذلك، ولا تستطيع الانتظار، أحضره وأنا أخبر الشباب وأطلب منهم عدم استعماله. باستثناء محمد للاتصال بالحزب في بيروت. ويخبرك محمد على الطريقة التي نموّه بها الاتصال».

اتّفقنا.

بعد أيّام غادر قاسم إلى عسقلان كمحطّة أخيرة قبل إطلاق سراحه مع إسماعيل الزين، في ١٣/ ١/ ٢٠٠٠. آلت قيادة المجموعة إلى محمد بدير، أقلّ شخص بين إخوانه اندفاعاً للتواصل مع الآخرين. ودودٌ وحريص على البقاء في حاله. وكأنه في بحثٍ دائم عن مساحة خاصّة لنفسه.

نصحني زملائي في الزنزانة بالاستعانة برفيقنا إبراهيم بارود، من غزّة، لإيجاد مخبأ للهاتف.

– «هذا داهية، يستطيع إيجاد مخبأ لا يمكن أن يكشفه الجن الأزرق»، قال لي يوسف وزنه. وصدّق على كلامه غير واحد من الإخوان.

طلب إبراهيم من الحرّاس السماح له بزيارة زنزانتنا. جاء. سألني عن حجم

الهاتف. جلس الشباب مبتهجين يرمقونه باعتداد، ينتظرون أن يفاجئنا. حماستهم كأنهم في مهرجان ألعاب خفة. تفقّد الزنزانة زاوية زاوية. صمته يسارع دقّات القلب ويطمئن.

– «بمَ تختلف هذه الزنزانة عن غيرها؟»، قلت له مشاكساً مقلّلاً من شأن ما يفعل كي أستفزّه ليسرع، ونضحك.

رمقني وطلب إليّ الصمت وعدم إزعاجه.

فاجأني:

– «لا إمكانيّة لإيجاد مخبأ في هذه الزنزانة».

ضحكنا.

– «سأعطيك إيّاه أخفِهِ لي عندك».

– «لا أمانع، أفضل من أن يبقى في مكان مكشوف فتجده الإدارة وتأخذه».

طلب أن يشرب الشاي ليشغل مخّه. انصعت له.

جلس. وببرودة أعصاب نطق بسر اكتشفه لحظة دخوله الحمّام، كما قال.

عيوننا شاخصة إليه، فسّر:

– «في باب الحمّام».

نظرنا جميعنا في لحظة واحدة نحو باب الحمّام.

البابُ عبارة عن قضبانٍ من الألومينيوم بينها قطع البلاستيك الأبيض.

قال:

– «هذه الأبواب جديدة. الإدارة لا يمكن أن تفكّر أنّنا أوجدنا لها دوراً. هي تفكّر فقط في أننا لا نستعملها في المواجهات، كما فعلنا في أبواب الحديد التي أزيلت ووضعت هذه بدلاً منها».

– «هناك فلسفة للمخابئ»، علّق محمد ضاحكاً مقدّراً عبقريّة إبراهيم.

– «طبعاً، أنا شخصيّاً مللت من المخابئ التقليديّة، ويستطيع أي أحد كشفها. عليك، حين تبحث عن مخبأ، أن تتقمّص شخصيّة الشرطي الذكي وتدخل عقله وتفكّر كما يفكّر، لا أن تجد حفرة وتضع فيها ما تريد إخفاءه».

سكت. وضع كوب الشاي على الطاولة ونهض. قال متحسّراً:

– «انتهى الزمن الذي كان فيه الفيلسوف يقيم في برج عاجي». أبدى عتبه على الزمن الذي جعله يعمل وينفّذ أفكاره.

مشى نحو باب الحمّام. طلب إلينا حراسة باب الزنزانة. فجأة وجدنا في يده قطعة حديد مسنّنة وجانبها مثل المنشار.

دخل الحمّام. أمسك بالباب وشرع بقصّ قضيب الألومينيوم بجانب الزجاج. شقّ خطّين عموديّين، ثم خطّاً عرضيّاً حيث أدخل قطعة الحديد ورفع قطعة الألومينيوم. بدت مثل اللسان. أدخل أصابعه تحته في جوف قضيب الألومينيوم. أغمض عينيه اطمئناناً، ثم أنزله.

طوى أوراق جريدة بحجم الهاتف. أدخلها المخبأ. سألني رافعاً يديه إلى الأعلى كأنه يلاعب طفلاً:

– «أين الهاتف؟».

في اليوم التالي، مشينا أنا وتوفيق نحو المطبخ. طلبنا إلى الحارس في نقطة التفتيش الأولى فتح الباب لتفقّد العمل في المطبخ. تكرّر الأمر مع الباب الثاني. وصلنا إلى المطبخ. نادى توفيق أحد عناصر حماس العاملين هناك ويثق به. طلب إليه التوجّه إلى مكان المخبأ كما وصفته له. حمل الشاب خلسة مدقّة وسكّيناً. انتظر قليلاً وانسلّ من بيننا. رحنا أنا وتوفيق نحدّث الحارس والأسرى العاملين في المطبخ، نسألهم عمّا يحضّرون وعن إجراءات النظافة، لنبعدهم قدر الإمكان عن الزاوية حيث باشر الشاب مهمّته.

بعد قليل، عاد الشاب، اقتربت منه وواصل توفيق إشغاله الحارس والعمّال. أخذت الهاتف من الشاب. أخفيته في بنطلوني وحذائي. عدنا أدراجنا. حاولنا قدر المستطاع محادثة الشرطي أثناء تفتيشه لنا. شتّتنا تفكيره وتمكّنّا من إنهاء العمليّة بوقتٍ قياسيّ. وتوفيق يقول له:

– «إلى أين خرجنا، إلى المطبخ. سنسرق باذنجانة؟! خلّصنا، مستعجلين».

نفذنا.

المفاجأة كانت عند باب زنزانتي. وجدناه مفتوحاً وقد بدأ الحرّاس عملية تفتيش.

نظر كلٌّ منّا أنا وتوفيق إلى الآخر:

– «هل علموا بأمر الهاتف؟».

سألنا ونحن ننعطف بسرعة نحو الباحة. وهناك لم نتوقّف عن المشي، والهاتف في بنطلوني وحذائي. تذكّرتُ عمر القاسم ونحن نهرول.

لم يقترب منّا أيّ من الحرّاس. استبعدنا فكرة معرفتهم بأمر الهاتف.
– «حتّى ولو كانوا لا يعلمون، كانوا سيعلمون لو فتّشونا ووجدوه معنا الآن»، قال توفيق ضاحكاً، ومسح لحيته كأنه قرأ آية من القرآن الكريم.

افترقنا، بعدما أعلن الحرّاس انتهاء وقت النزهة، هو إلى زنزانته وأنا إلى الحمّام. خبأت الهاتف في الباب. مشيت بسرعة نحو شاحن الوكمن، فكّكه إبراهيم أمس وترك لي مهمّة أن أضع في غلافه قلب شاحن الهاتف. نفّذت بالحرف ما أرشدني إليه إبراهيم، وشددت البرغي. صار شاحن الوكمن المسموح اقتناؤه يحتوي على شاحن الهاتف.

اقترحتُ، في أحد اجتماعات اللجنة الوطنية، ضمّ ممثّل لحزب الله إلينا. لم يتحمّس توفيق وعبد الرحمن. عثرتُ حين أصررت على معرفة السبب، تحفّظاً لدى عبد الرحمن على توزيع شباب حزب اللّه بعض الكتب ذات الطابع الشيعي على عدد من الأسرى. وقال:
– «السجن ليس ساحة للدعوة إلى التشيُّع».
تحفّظتُ على هذا. وتحدثتُ عن تجربتي مع الشباب:
– «ها أنا أقيم بينهم ولم يعطوني كتاباً من هذا النوع أو يحاولوا تشييعي».
– «ربّما يتجنّبون هذا معك، لكنّهم فعلوا ذلك مع شبابنا».
– «قل إنك خائف على أعضاء تنظيمك. حصِّنهم ودعهم يتحاوروا مع أيّ إنسان بثقة».
– «نحن نطلب منك أن تبلغ قيادتهم استياءنا من هذا».
– «القضيّة لا تحتاج إلى هذا. نسألهم ونسمع منهم الجواب، ونحلّها».
ليلاً، سألت محمد عن الموضوع. هو حذر ويزن كلامه بدقّة في الحالات العادية، فكيف به مع موضوع حسّاس. أخذ وقته ليجيب:
– «أؤكد لك أن الموضوع ليس دعوةً إلى التشيُّع، لكن يحصل حوار بيننا وبين الأسرى الآخرين، ويتحمّس الواحد منّا فيعطي كتاباً لشخص يعتبر أنه عاقل وقادر على القراءة والاطلاع بهدف التعرُّف لا لغاية التشيُّع. هذه هي القصّة لا أكثر ولا أقل».
– «لكن حتى هذا يستفزّ التنظيمات الأخرى، إنهم خائفون دائماً على

أعضائهم»، قلت وفكّرت أن تلك الكتب التي ترعب عبد الرحمن وتنظيمه، ينقلها إلى السجن فلسطينيون من الضفّة الغربية أو غزّة، لماذا لا يخاف منها هؤلاء، وربما بعضهم من الجهاد الإسلامي التي ألّف مؤسّسها، فتحي الشقاقي، كتاباً عن الإمام الخميني . . . بإعجاب شديد.

وافقني محمد:

— «اعتبر أن الموضوع قد انتهى، علماً أن شباباً من الجهاد الإسلامي هم مَن يطلب تلك الكتب من وحي انفتاح فتحي الشقاقي على تجربة الثورة الإسلامية في إيران».

أنهينا هذا الحوار وقمنا إلى الهاتف. سحبناه وعلّمني محمد بعض قواعد استعماله وشرح لي طريقة للاتصال الدولي يُموِّه فيها الاتصال إلى لبنان. الصدمة كانت حين شرعنا بالاتصال إلى لبنان. صار الهاتف، لتركه فترة من دون استعمال، يستقبل ولا يمكن الاتصال منه.

نحتاج إلى تفعيله. فكّرتُ بجبر. وفي أقرب فرصة أعطيت رقم الهاتف لأسير معنا، سلّمه إلى أسرته أثناء الزيارة، وتولّت أسرته توصيله إلى جبر في غزّة.

انتظرته. أضاء الهاتف بعدما حوّله محمد صامتاً. سمعتُ صوت جبر آتٍ من غزّة. آه. كلٌّ منّا في عالم. هو حرّ ويؤازرني في تمريني للتغلّب على السجن. أعدتُ نفسي مراراً من حافة البكاء. صديق أعدّ كلَّ شيء كمَن يمدّ سفرة، ودعاني. دبّر طريقة لتحويل اتصالي عبره إلى أهلي في لبنان.

قبل أن يحوّلني إلى أهلي أعطيته رقم صديقي المقدسي كي ينقل إليه حاجتي إلى اتصاله بي. ثم أعقبته برقم آخر في بيروت، وطلبت إليه الاتصال به وإعطاء الشخص المجيب رقمي كي يتّصل بي.

وأتى صوت أمّي. ضجيج ابتهاج أخواتي وشقيقيّ وأصهرتي وأولادهم أشعرني بأنني دخلتُ باب البيت في عبيه فجأة. صوتُ أمّي مجبولاً بالبكاء وهي تحاول الصمود والاطمئنان عليّ أعادني إلى الماضي. كدتُ أسأل عن أبي. تمنّيتُ لو أنه ما زال حيّاً، وأسمعه الآن يبارك لي الشهادة الجامعيّة، وينطق ولو بمفردةٍ واحدة تعبّر عن اعتزازه بي كمقاوم أسير واصل تعليمه في السجن.

تناوبت أختي سميرة على الهاتف. آخ يا سميرة يا أمّي الصغيرة. كيفك وكيف زوجك وأولادك؟

بكاء مَن يمسك بالهاتف من أسرتي مبرّر لينتزع التالي الهاتف من يده ويحدّثني برباطة جأش أوّلاً ثم ينضمّ إلى مَن سبقوه إلى البكاء.

وماذا أفعل أنا؟ لا شقيق بجانبي كي أعطيه الهاتف وأبكي. انقلبتُ على البكاء المحتشد في داخلي والمنهمر عليّ عبر الهاتف، بالضحك. صرتُ أضحك وأهدّئهم وكأني أنا الحر وهم الأسرى.

— «كيفك يا أخي عبد الله، صوتك مثل صوت أبي».

غاب. هرب من صوتي إلى بكائه. تخيّلته يبتعد عن الهاتف إلى غرفتنا في البيت. يخرج إلى الحديقة حيث كنّا نلعب.

— «أختي لميس اسمعيني، اصمدي، أنتِ قويّة. لطالما خاطبتِني عبر إذاعة صوت الشعب. وخرجتُ من زنزانتي مع صوتك».

— «أنا بسّام»، جاءني الصوت الفتيّ. ذكّرني بنفسي وأنا في عمره. تماسكه وحديثه عن التحرّكات المعرِّفة بقضيّتي والمطالبة بحريّتي، فتحا الباب لجولة من الحديث الهادئ مع أمّي وإخوتي والتعرّف إلى أبنائهم.

عدت إلى بسّام. قرأت له بياناً كتبته عن مخاطر ربط قضية الأسرى بالطيّار الإسرائيلي المفقود في لبنان، رون أراد. وكأنَّ حرّيتنا مقرونة بالكشف عن مصيره، بل بإعادته إلى أسرته وجيشه. فقد أزعجني في الآونة الأخيرة انزلاق سياسيّين وصحافيّين لبنانيّين إلى هذا الخطأ الخطير. وفي الوقت ذاته، قرأت، في الصحف الإسرائيليّة، احتمال أن تتخذ المحكمة الإسرائيليّة في جلستها المقبلة، قراراً بالإفراج عن رهائن لبنانيّين في سجن أيلون، لأن استمرار احتجازهم بات مصدر إدانة عالميّة لإسرائيل، عدا عن النقاش الداخلي حيث لم يعد هناك مسوّغ قانوني لابقائهم قيد الاعتقال. وختمت البيان بلفت الانتباه إلى أن الربط بيننا وبين أراد يؤدّي إلى تعقيد قضيتنا ويغرقها في متاهات لا آفاق لها، ويجعل العدو أكثر تصلّباً ويستخدمنا كرهائن. وطلبت إلى بسام ألا ينشر البيان في الإعلام إلا بعد أيام كي يتسنى لي لقاء المحامي وأعطيه البيان وأطلب إليه أن يرسله إلى أسرتي، فلا تنتبه الإدارة إلى أنني أوصلته أنا إلى أسرتي عبر طريق آخر فتشكّ في وجود هاتف لديّ.

شاهدتُ على التلفزيون كوزو أوكاموتو ورفاقه أعضاء الجيش الأحمر الياباني يجلسون في محكمة لبنانية، ضمن تقرير يحكي عن اتصالات لتسليمهم إلى اليابان. استفزّني هذا المشهد. تذكّرتُ كوزو في المحكمة الإسرائيلية، وقد كان فتى أخضعوه لتعذيب قاسٍ أُهينت من خلاله البشريّة، والآن رجلٌ متقادمٌ في السنّ أنهكته سنوات السجن والأمراض المستعصية، كيف لهم أن يحاكموه ورفاقه، بتهمة الإقامة غير المشروعة؟ قلت لم يعد في لبنان مكان للمناضلين من أجل فلسطين. ساءني أن يضعف لبنان أمام الضغوط اليابانية، وضغوط استخبارات بعض الدول التي تريد الانتقام من المقاومين وتشويه صورتهم بأنّهم إرهابيّون، خصوصاً في وعي الأجيال المقبلة. سألت أي معنى للبنان إذا ما جمع بشكل منفصم بين مقاومة الاحتلال وطرد المناضلين أو التخلّص منهم. يا للسخرية، فليحاكموا الفاسدين وتجار الطائفية الذين يعرّضون البلاد والمواطنين يومياً للحروب والفتن. أغاظني التناقض والانفصام اللذان يعيشهما لبنان ودولته. رئيس الجمهورية هو الداعم للمقاومة إميل لحود، ورئيس الحكومة هو العروبي سليم الحص، وفي الوقت نفسه يُحاكَم كوزو ورفاقه ويُزَجّون في السجون. أخذتُ هذا الاعتبار وصغت رسالة إلى رئيس الحكومة، ناشدته العمل لإطلاق سراح كوزو ورفاقه وعدم إبعادهم أو تسليمهم إلى اليابان وإنهاء هذه المهزلة. وذكّرته بتاريخ كوزو في مقاومة إسرائيل وفي السجون الإسرائيليّة. قرأتها لبسام عبر الهاتف واتفقت ألا ينشر في الإعلام ريثما ألتقي المحامي. وحين أعطت الحكومة، في آذار ٢٠٠٠، كوزو حق اللجوء السياسي وأبعدت رفاقه الأربعة انتُقِد القرار، لكنني شكرت الحص على أخذه بالاعتبار تاريخ كوزو ومعاناته.

أطلعتُ توفيق وعبد الرحمن على توضيح محمد بدير في شأن الكتب. عدم شكوى حماس وتوفيق من أمر الكتب ساعد في إضعاف حجج عبد الرحمن... ثم اقتناعه بحجم الموضوع وطبيعته الحوارية الثقافية. واتّفقنا على أن يحضر ممثل لحزب الله، محمد بدير، اجتماعات اللجنة الوطنية التي يقتصر جدول أعمالها على العناوين العامّة التي تخص السجن. اقتنعتُ بهذا ما دام حزب الله نفسه لا يريد ممثلاً له في اللجنة.

— «أنا أُطلعكم على التفاصيل والاجتماعات الأخرى»، قلت لمحمد.

في الأثناء، أوصَل شباب من حزب الله معنيّون بمتابعة شؤون الأسرى إلى أختي سميرة في عبيه، «كود» للاتصال بي عبر أوروبّا.

اتصل بنا، من بيروت، المنسّق الذي كلَّفَته قيادة الحزب مهمّة التواصل والتنسيق بيننا وبينها. أكّد لي أنه على السمع معنا على مدار الساعة، وهو يبلغ القيادة بما نبلغه إيّاه وما نطلبه. وأبلغ محمد أن استعمال «الكود» والهاتف حصري بيني وبين محمد.

بعد أيّام اتصل بي رفيقي المقدسي. فعّل خطّي. صار بإمكاني الاتصال. أعدت الهاتف إلى مخبأ إبراهيم.

أعلن رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود باراك نيّته الانسحاب من جنوب لبنان في تموز/يوليو المقبل. فكّرتُ أنه مع عدم وجود أسرى لدى المقاومة في لبنان للمبادلة عليّ وعلى أبو علي الديراني والشيخ عبد الكريم عبيد وباقي الأسرى اللبنانيّين، تتضاءل فرص خروجي من هنا، بل تنعدم، خصوصاً أنّني محكوم ٥٤٢ سنة وأن مسألتَي الشيخ عبد الكريم وأبو علي مرتبطة بملفّ لن تقفله إسرائيل إلاّ بإخراجهما، وهو الطيّار المفقود منذ عام ١٩٨٧ في لبنان، رون أراد.

توتّرت. وزاد توتّري إطلاق سراح دفعة من الأسرى اللبنانيين الذين انتهت مدد محكوميّاتهم وأُبقوا رهائن: علي عمّار، عبّاس سرور، عبد الحسن سرور، يوسف سرور، حسن حجازي، أحمد عمّار، حسين أحمد، حسين رميتي، أحمد جلّول، أحمد طالب وحسين دقدوق، في ١٩/٤/٢٠٠٠. وقبل أشهر، في ٢٧/١٢/١٩٩٩، أُفرج عن خمسة: هاشم فحص، أحمد سرور، كمال رزق، حسين طليس وأحمد عبيد. أحسستُ أن إسرائيل تقفل ملف الأسرى اللبنانيين من دوننا. ولفتني التناقض في إخراج الإفراج عن الدفعتين، فالثانية حصلت نتيجة قرار المحكمة بينما الأولى من دون قرار المحكمة. استغربتُ صمت المقاومة عن إبقائنا.

لم يستسغ رفاقي في الزنزانة تساؤلاتي. تفهّمتُ ذلك وعبّرت عنه:

— «أنتم حزبيّون تسلّمون أمركم لقيادتكم، بينما أنا يحق لي القلق والتساؤل، ولا سيما أن قضيتي معقّدة».

— «لا تقلق، المقاومة تعمل بصمت، وأنت تعرف السياسة الإسرائيلية».

— «لأني أعرفها أسأل. هل تتخلّص من الملفّات الصغيرة كي توحي بأنها تُقفل ملف الأسرى، فلا ينتقدها أحد ولا يطالبها بإطلاق السراح. وتُعيد إرسال من تعاملوا معها وكانت تحتجزهم لأسباب استخباريّة، كما هي حال محمود ح. وفي الوقت نفسه تُبقينا وتجعلنا ملفّاً للتفاوض على رون أراد؟».

عرضتُ هواجسي على المنسّق. أكّد لي أن الانسحاب يضع ملفّنا علَى النار.

اطمأننت. وارتحت لنقل الأسير أنور ياسين إلى سجننا. كلٌّ منا يعرف الآخر اسمياً ولدينا أصدقاء مشتركون لكننا لم نلتق قبل الآن.

همست له أنَّ لدي هاتفاً يمكنه أن يتصل عبره بأسرته. فوجئ وشكرني.

مشينا إلى الزنزانة. وليلاً، أعطيته الهاتف ليحادث أسرته. أخبرته أمه أنها كانت حاضرة في الاحتفال الذي نُظّم في بيروت بذكرى اعتقالي. ثم حادثت بسام وأخبرني أن الرئيس سليم الحص شارك شخصيّاً. أفرحني ذلك. وأفرحني قوله إن «عزم إسرائيل على الانسحاب من لبنان بموجب القرار ٤٢٥ يعود الفضل فيه إلى المقاومين أمثال سمير القنطار».

أعطاني توفيق أبو نعيم رقم هاتف صديقي الشيخ صلاح شحادة للاتصال به وإخباره بضرورة إرسال أموال عبر بنك البريد إلى بعض شباب حركتهما في السجن. وهمس لي ببعض المعلومات الأمنيّة حصل عليها لنقلها إلى صلاح.

كلّمت صلاح وتناقشنا في السياسة. أقفلتُ معه الخط واتصلتُ برفيقي هشام عبد الرازق. لفتُّ انتباهه إلى قضايا بعض الأسرى العالقة في وزارة شؤون الأسرى التي يتولّى حقيبتها، ولدى لجان ومؤسسات. وعَدَني بمتابعتها وحلّها.

أبقيتُ دوري هذا سرّاً بيني وبين توفيق. حتى زملاؤنا الأسرى أصحاب تلك القضايا كنّا نسألهم عن شكواهم ونطّلع على قضاياهم ولا نخبرهم بأنني أنقلها إلى هشام. نكتفي بأن يطمئنهم توفيق بأن العمل جارٍ في الخارج.

تنامى إحساسي بالذنب تجاه زملائي في الزنزانة الذين يعلمون بأمر الهاتف ولا يستعملونه، بينما يُستعمل من أجل أسرى آخرين لا يعلمون بالهاتف. أدخلتُ الهاتف معي إلى الحمّام. اتصلتُ بالمنسّق.

خفضتُ صوتي:

– «أرجوك، أنقل إلى سماحة الأمين العام طلبي أن يُسمَح للشباب بمحادثة أُسرهم».

أقفلتُ الخط. وفي اليوم التالي نقل المنسّق إليّ موافقة الحزب على استعمال الشباب الهاتف مرّة في الأسبوع لمدة نصف ساعة.

بدأ الحديث عن جولة مفاوضات في كمب ديفيد بالولايات المتحدة، بين رئيس السلطة الفلسطينية ياسر عرفات ورئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود باراك برعاية مباشرة من الرئيس الأميركي بيل كلينتون. في السجون كان الوضع عكس ذلك. خصّصَتْ مديرية السجون في سجن هداريم، الذي افتتحته في تشرين الثاني/ نوفمبر، للسجناء المدنيين، قسماً للعزل الجماعي للسجناء الأمنيين، بحسب تسميتها. جمَعَتْ فيه عدداً من قادة حماس والجهاد الإسلامي الذين تشكّ في اتصالهم بالخارج ومتابعتهم مهماتهم من داخل السجون.

صرنا تحت المجهر. لا كسجناء وحسب، بل كجزء من شبكات تمتد إلى الخارج، وأحياناً تنطلق هذه الشبكات وتتمركز داخل السجون وتعمل في الخارج. شدّدت المديرية إجراءات الرقابة داخل السجون وفي نقاط تفتيش الزوّار... وفي غرف الزيارات. أضافت، في هداريم، إلى الشبك الفاصل بين الزوّار والسجناء ألواحاً زجاجيّة سميكة تتخلّلها فتحات صغيرة بالكاد ينفذ منها الصوت.

رفض أسرى هداريم ذلك. بدأ الاستياء ينمو ويتعمّم. أوصل لنا المحامون خبر شروع سجناء العزل الجماعي بإضراب مفتوح عنوانه المطالبة بإنهاء حال العزل.

لم نتوقّف عند عدم تنسيقهم معنا. ألّفنا لجنة لقيادة الإضراب من رَوحي مشتهى وتوفيق أبو نعيم وعبد الرحمن شهاب وأنا.

صغنا مجموعة مطالب، على رأسها تركيب هواتف أرضيّة داخل السجن والسماح للأسرى باستخدامها، إنهاء حال العزل في هداريم، إزالة الزجاج من غرف الزيارات في هداريم، إعادة المعزولين في السجون إلى الأقسام، وقف التفتيش العاري، وقف تفتيش الزوّار والمعاملات المهينة، زيادة مدّة الزيارة، تحسين الطعام والاستشفاء.

وضعتُ أنور وشباب الحزب في الأجواء. قرّروا الانضمام إلى الإضراب.

جلستُ داخل زنزانتي في زاوية بعيدة من نظر الشرطي الذي يتجوّل في الممر. اتصلتُ بهشام عبد الرازق. أطلعته على تحرّكنا. أخبرني أن السلطة لن تقمع أي

تحرّك في الخارج تضامناً مع الأسرى، وتوقَّعَ أن تستجيب مديريّة السجون للمطالب، لأن إسرائيل لا تريد توتير الأجواء عشيّة جولة المفاوضات في كامب ديفيد.

وقبل أن نُقفل الخط، همس لي هشام:

— «إسرائيل ستنسحب قريباً من لبنان. حرِّك ملفّك».

أقلقني هذا الكلام. اتصلتُ بالمنسّق في بيروت:

— «إسرائيل ستنسحب قريباً... وعندها لا تبقى أرض محتلّة لخطف أيّ جندي وسنبقى نحن الأسرى اللبنانيّين هنا».

— «اطمئن».

— «انقل رجائي إلى سماحة السيّد بتفعيل هذا الملف».

— «اطمئن حتى لو انسحبت إسرائيل، لدينا طرقنا للأسر».

سكت. لم يقل لدينا أرض للأسر. قال لدينا طرق... أغرتني هذه الفكرة.

انطلق الإضراب في ١٠ أيار/مايو ٢٠٠٠. سُحبت التلفزيونات والراديوهات من زنازين الأسرى المضربين.

وأنا أتواصل يومياً مع هشام، يطلعني، لكونه وزيراً لشؤون الأسرى في السلطة الفلسطينية، على التطوّرات في الجانب الإسرائيلي. ثم أنقل إلى الشباب، في اللجنة، وإلى محمد بدير، الأخبار، من دون أن أفشي لروحي وعبد الرحمن، اتصالاتي بهشام. أقدّم ما أقوله بوصفه تحليلات وتوقّعات. كأنّي بصّارة.

من تلك «التوقّعات» أن مديريّة السجون ستتّهم قادة حماس بتشغيلهم خلايا خارج السجون. وسترد عليها السلطة الفلسطينية باقتراح عقد اجتماع لبحث هذا الأمر. وسيُستدعى عدد منّا للانضمام إلى ذاك الاجتماع، في هداريم، لكون أولئك القادة هناك.

حصل ما توقّعتْ. صُدم روحي وعبد الرحمن، لكنهما لم يكترثا بمصدر «توقّعاتي». ضحك توفيق ونظر إليّ نظرة تواطؤ، ثم اقترحَ عليّ أن نترافق أنا وهو ورَوحي إلى هداريم.

آثرتُ أن أبقى في نفحة، بجانب الهاتف مطمئناً إلى أن هشام يطلعني على آخر الأخبار.

— «اذهب أنت ورَوحي التقيا بإخوانكما في الحركة. منذ مدّة لم تلتقوا».
وافق:
— «ينوب عنّا حسن مقادمة».
أثناء وجود رَوحي وتوفيق في هداريم للتفاوض، في ٢٣ أيار/مايو ٢٠٠٠، بدأ الانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان والبقاع الغربي وراشيا.
مفاجأة. كان إيهود باراك قد تحدّث عن انسحاب في تموز/يوليو، فإذا به يهرب من لبنان قبل ثلاثة أشهر، ويترك خلفه ميليشيا أسّستها دولته في عام ١٩٧٨ وصرفت عليها الأموال ودرّبتها ولم تستطع أن تجعلها جيشاً كما كانت تدّعي.
لم تمانع الإدارة طلبَنا السماح للمضربين الانتقال لساعتين إلى زنازين الأسرى غير المضربين.
في اليومين التاليين، شاهدنا، على فضائيّة «المستقبل» مئات الفارّين من ميليشيات أنطوان لحد وعملاء إسرائيل محتشدين بسياراتهم عند المعابر. هزئنا من مماطلة إسرائيل في إدخالهم، بينما هم خائفون مرعوبون من وصول المقاومة إليهم، فيما تتساقط مواقع تلك الميليشيات وتفرغ أمام زحف المواطنين مشاةً وبالسيارات إلى القرى والبلدات التي كانت محتلة.
مشهد لا يُنسى. أرضٌ تتحرّر أمام أعيننا. المحتل ينهار وينسحب في عتمة الليل، خلسة، ويُقفل الباب خلفه مُيَتِّماً عملاءه.
تحوّل محمد بدير وجواد قصفي، علي بلحص، مصطفى حمود وفادي الجزّار ويوسف وزنه وأنور ياسين وحسن عنقوني إلى دليل معلوماتيّ متنقّل بين الأسرى الفلسطينيين. برغم تعب الأسرى من الاضراب انهالت عليهم الأسئلة عن القرى والبلدات ومواقعها. وهم يجيبون بفرحٍ واعتداد: هذا موقع سجد اقتحمته المقاومة مرّات عدّة. هنا، في بنت جبيل، نفّذَ صلاح غندور عمليّته الاستشهاديّة. الذروة كانت في سجن الخيام. دخل المواطنون والمقاومون وحرّروا الأسرى. ذهولنا ونحن نرى هذا المشهد جعلنا نتمنى لحظة كهذه. أيدي أسرى الخيام التي خرجت من طاقات الأبواب، ووجوههم المبتهجة المتسائلة غير مصدّقة ما يجري، هي نفسها وجوهنا. حيرة لم تخلُ من التفاتات نحو الأبواب، وكأننا ننتظر مجيء مَن يحرّرنا. لكننا فرحون كما لو أننا صِبية نسبح في نهر الحاصباني ونركض في وادي الحجير.

والتوق يتفاعل في دواخلنا للاتصال بأشخاص يطأون بأقدامهم الأراضي المحرّرة. تناوبنا في الزنزانة على الاتصال بأُسرنا.

— «أين أنت، في الضيعة؟»، سأل جواد، وكرّر محمد ومصطفى وفادي وأنور وحسن ويوسف السؤال ذاته مرّات. غير مصدّقين تارة، ومنتشين تارة أخرى. يغمضون أعينهم حين يأتيهم الجواب أن من يتّصلون به في الضيعة، في الجنوب، كأنهم يشمّون هواء تلك الأماكن التي حُرموا منها، التي تسلّلوا إليها لتنفيذ عمليّاتهم، والتي اعتُقلوا فيها.

قلتُ للشباب معي في الزنزانة:

— «حَدْسي هو أنّكم ستخرجون وأنا سأبقى هنا».

— «كيف هذا؟ سنخرج معاً إن شاء الله. المقاومة لا يمكن أن تترك أسيراً لبنانيّاً في السجون الإسرائيليّة».

— «أعرف هذا، لكن ما عاد هناك أرض لبنانية محتلة لتخطف المقاومة جندياً إسرائيلياً وتبادله بي».

اتصلنا بالمنسّق. سمعته:

— «اطمئن، موضوع الأسرى اللبنانيين تحصيل حاصل، ولن يُترك، ونعتقد أن إسرائيل ستقفل هذا الملف».

— «هل لديك معلومات تؤكد ذلك؟»، سألته.

— «اطمئن. لا يمكن أن أقول أكثر من ذلك».

يعيدني الإضراب إلى السجن. أرسل قائد المنطقة الجنوبيّة في مديريّة السجون، حاييم غليك، بطلبي. رحتُ أنا وعبد الرحمن وحسن مقادمة. تفاوضنا. وافق على ما يتعلّق بالزيارات. اختلفنا على طلبي الهاتف وإنهاء حال العزل في هداريم. وتوصّلنا إلى صيغة تجميد تنفيذ ما اتُّفق عليه حتى تنتهي المفاوضات في هداريم وعودة رَوحي وتوفيق.

واصلنا الإضراب.

عندما عاد رَوحي وتوفيق قصدني عبد الرحمن لأنضمّ إلى الاجتماع المتّفق عليه. قلت له:

— «شباب حزب الله انضمّوا إلى الإضراب. لن أحضر الاجتماع إلاّ ومعي محمد بدير».

انطلق ليخبرهما. جاء توفيق مبتسماً ودعا محمد إلى الاجتماع. التقينا في الكانتينا، حيث نخزّن الأغراض التي نشتريها ونوزّعها على الزنازين بالتتالي عند حاجتها. فالإدارة ترفض أن نُكثر من الأغراض في الزنازين خوفاً من أن نستعملها كمخابئ وما إلى ذلك.

جلسنا على الكراسي والتوتّر بادٍ عليّ.

بادر توفيق وقد فهم سبب انزعاجي:

— «لم نتصل بك قبل تعليق الإضراب لأننا راهَنّا على المونة، صدقاً».

أجبت بتوتّر:

— «المونة على الرأس والعين، لكن اتفاقنا أن تتصلوا بنا».

فوجئ محمد، وغرق أكثر في صمته. شعرتُ بأنه يرغب في الانسحاب من هذا الجو المتوتّر.

— «قلنا إنك تتفهّم موقفنا. وقد سعينا ما بوسعنا لتحصيل المطالب... وشعرنا بأننا إذا أضفنا إليها مطلب الاتصال بكم قبل الاتفاق فسنؤزّم الوضع».

— «قل لي على ماذا اتّفقتم؟»، سألته متحدّياً مؤمناً بأنهم لم يحصلوا على المطالب كلّها.

أجابني:

— «توصّلنا إلى إعادة المعزولين إلى الأقسام العاديّة، إلغاء الزجاج من غرف الزيارات، تخفيف التفتيش، وحصلنا على وعد بالسماح بالهاتف بعد ثلاثة أشهر... مقابل تعهّد حماس عدم قيامها بأيّ عمل من داخل السجن إلى خارجه».

فكّرتُ أنهم حوّلوا الإضراب والمفاوضات في شأنه إلى أمر خاص بين حماس ومديرية السجون. شعرتُ بأنهم جذبونا إلى دور لا أعرف إن كانوا رسموه وخطّطوا له أم لا. قلت:

— «انضمامنا إليكم، وكذلك شباب حزب الله، لا يخوّلكم فك الإضراب من دوننا. فالإضراب وإن كان احتجاجاً على عزل قادتكم لا يعني أن المفاوضات في شأنه هي مفاوضات بين حماس وإسرائيل. هناك أسرى آخرون وللإضراب مطالب أخرى».

— «قَسَماً بالله، إننا تصرّفنا بالمونة، خصوصاً أننا توصّلنا إلى الاتفاق على الحد الأدنى، وقلنا ها نحن عائدون إلى نفحة ونخبرك».

على رغم ثقتي بتوفيق لم يُقنعني تبريره. قلت:

– «ما تحقّق ليس سهلاً، لكني كنتُ أفضّل أن نتصرّف كفريق واحد متكاتف يعزّز قوّتنا في المستقبل، ويضمن تعاوننا واستجابة الأسرى الآخرين في السجون، خصوصاً أن هداريم هو مَن حدّد ساعة الصفر وبدأ الإضراب من دون التنسيق مع أيّ من السجون الأخرى. ولم يكن من المفيد أن يوقف هو الإضراب، من دون السجون المشاركة».

– «نحن كنّا هناك»، قال توفيق ضاحكاً كأنه يذكّرني وسعياً لإنهاء الموضوع.

أُعيدَت التلفزيونات والراديوهات إلى الزنازين التي كان نزلاؤها مشاركين في الإضراب.

جلسنا، في اليوم التالي، ننتظر الاحتفال بالتحرير وكلمة الأمين العام لحزب الله السيّد حسن نصر الله في بنت جبيل، كبرى البلدات المحرّرة. الحشود تتوافد من الجنوب وخارجه. مشهد تحدّي الاحتلال المهزوم يتنامى. ولعلّ الجيش المنكفئ إلى حدود فلسطين القريبة مئات الأمتار من مكان الاحتفال يسمع أصوات الحشود ويراها.

على إيقاع خطاب السيّد نصر الله استعدتُ تاريخ المقاومة في جنوب لبنان ومنه نحو فلسطين، وقد ذكرها السيّد واعتبر النصر ثمرة تضحياتها. ومن دون أن أنتبه وأتعمَّد، وجدتُ نفسي أقارن بين المقاومة الفلسطينية التي انتميتُ إليها، وبين مقاومة حزب الله. في تلك اللحظة فُتح السؤال عندي عن الفارق بينهما، عن السبب الذي يجعل مقاومة تفسد وتتضعضع وتغرق في مستنقع المفاوضات وأوهامها، ومقاومة تنتصر، وتعمل بجهد وتنظيم؟ أوّل جواب هو العقيدة. أحسستُ أن بذرة الاهتمام بفكر المذهب الشيعي قد زُرعت في عقلي. تذكّرتُ الدكتور فتحي الشقاقي وإعجابه بالإمام الخميني واعتباره تجربته مهمّة لمواجهة المشروع الصهيوني ومقاومته.

السار كان بالنسبة إلينا ربط السيّد نصر الله بين عودة الأسرى وتحرير بقيّة الأرض في مزارع شبعا وتلال كفرشوبا. جدّد لدينا، في هذه اللحظة، فيما يقدّم ورقةً سياسيّة تُعيد صوغ معنى المقاومة والوطن، التحرير والإنماء، الأرض والدولة،

الخيانة والقضاء، مشاعر الاحتضان والالتزام بقضيّتنا. قصّة أن جثمان ابنه كان محتجزاً لدى إسرائيل حضرت بقوّة، في الذاكرة وبِبُعدها الرمزي. شعرنا بأننا نحن الابن، رغم أن معظمنا يصغره بسنوات قليلة.

الأسرى الفلسطينيون، وكانت غالبيتهم مشاركة في الإضراب، لم يستوعبوا ما حصل في لبنان إلاّ بعد أيّام، أو هي الصدمة تحتاج إلى وقت كي تُدرَك.

منذ مدّة لم نحتفل. قلنا جاءنا هذا التحرير من السماء. تحمّسنا جميعاً لتنظيم احتفال في الباحة، نجاهر فيه بانتصارنا وفرحتنا ونترجم الابتهاج في رفع المعنويات، ونجدّد الترابط الفلسطيني اللبناني في الصراع العربي الإسرائيلي.

تجمهرنا واحتفلنا. ألقيت كلمة اللجنة الوطنية. وتحدّث محمد بدير، باسم حزب الله، عن تجربة المقاومة في لبنان وعلاقتها الوثيقة بالمقاومة الفلسطينية ماضياً وحاضراً، وموقع فلسطين في ثقافتها وجهادها. وأُلقيت القصائد.

الحرّاس كانوا كجيشهم المنسحب، صامتين مهزومين.

بالتزامن مع جولة المفاوضات الجديدة بين ياسر عرفات وإيهود باراك في كامب ديفيد، التي انطلقت في ١١/ ٧/ ٢٠٠٠، إثر الانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان وما أحدثه من جدال في المجتمع الإسرائيلي وعلى المستوى السياسي، هدأت الأمور في السجون. قرّرت الحكومة تخفيف الضغط عن نفسها في ملف الأسرى، فأُشيع كلام عن نيّة إسرائيل إطلاق عدد من الأسرى، كنت واثقاً من أنّني لست منهم. عيّنت للمرة الأولى في تاريخ دولة إسرائيل امرأة مديرة لمديرية السجون، أوريت أداتو. واستطاعت السلطة إخراج دفعة من الأسرى، خصوصاً من عسقلان، بينهم عدد من المتّهمين بقتل إسرائيليّين أو جرحهم. نُقل عدد من الأسرى من نفحة إلى عسقلان. شغرت أماكن وأسرّة عديدة في السجن. جمعونا في قسمين وألغوا الثالث.

أصبح أنور يشعر بالغربة الأيديولوجيّة والشخصيّة إزاء بعض شباب حزب الله في زنزانتنا. برغم حرصه وحرصهم على الصداقة والود، لم يستطع نسيان أنهم حين كانوا معاً في سجن عسقلان، أخفوا عنه حيازتهم هواتف.

فسّروا له بأن ذلك حصل لكونه كان يعيش في زنزانة أخرى مع أسرى من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

أجابوه:

— «دعوناك مرّات عدّة لتنتقل إلى زنزانتنا، وكان في خلفيّة ذلك أن نطلعك على أمر الهاتف لتتحدث عبره مع أسرتك، وأنت رفضت».

لم يقتنع.

وجّه طلباً جديداً إلى مديرية السجون كي تنقله إلى سجن آخر.

قرّرنا أنا وأنور الانتقال إلى زنزانة أخرى.

سألَنا محمد والشباب:

— «لماذا تفعلان ذلك؟».

فيما تابع أنور جمع أغراضه من الزنزانة، أجبتُ بأننا سننتقل مؤقّتاً. حاولوا ثنينا. آزرتُ أنور في إتمام الانتقال.

أقمنا في زنزانة مجاورة، ٥٧ في القسم ١١. ورحنا نفكّر، من دون التشاور مع المنسّق بيني وبين قيادة حزب الله، في تنظيم اعتصام في بيروت يطالب بتحريك ملف الأسرى اللبنانيين في السجون الإسرائيلية. اتّصلتُ بشقيقي بسّام. تلاقت فكرتنا، أنا وأنور، مع تحرّك يجري التداول في شأنه بين أسر الأسرى ومحمد صفا. وأخبرني بسّام أن بعض القوى السياسيّة تروّج لترشحّي في الانتخابات النيابيّة. اتّفقتُ معه على إصدار بيان باسم عائلتي، لأن المحامي الذي أحرص على إعطائه نص البيانات كي لا يُعرَف أنني أتواصل مع أسرتي عبر الهاتف كان غائباً، ينفي نيّتي ذلك ويرفض زجّ اسمي في البازار السياسي والانتخابي اللبناني.

السابع من آب/أغسطس ٢٠٠٠ نصبَتْ أُسر الأسرى والمفقودين ولجنة متابعة القضية خيمة الحريّة في حديقة جبران خليل جبران مقابل مقر الأمم المتحدة في وسط بيروت، وأعلنت إضراباً مفتوحاً عن الطعام، شاركَت فيه النساء والشباب وحضر الأطفال إلى الخيمة. أعلنت الحكومة اللبنانية التزامها قضية الأسرى اللبنانيين، لكن شيئاً لم يحصل. الحكومة والطاقم السياسي اللبناني مشغولان بالانتخابات النيابية المقبلة. واصل الأهالي إضرابهم. في اليوم الخامس التقى الأمين العام لحزب الله السيّد حسن نصر الله عائلات الأسرى، وأكّد أن قضيتنا في رأس أولويات الحزب ومسؤولياته. زارت الخيمة وفود من الأمم المتحدة ومؤسسات دولية ومن حركة مناهضة الإمبريالية الدولية ومن حزب الخضر الفرنسي وحزبيون ونقابيون لبنانيون. ووجّهت جمعية الأسرى والمحرّرين الفلسطينيين من غزّة برقية

تضامن مع عائلاتنا، وطالبت المفاوضين الفلسطينيين بعدم التوقيع على أيّ اتفاق إلاّ بعد إنهاء مسألة تحرير الأسرى جميعاً.

وقدّرنا أنا وأنور أن حرص السيّد نصر الله على محاورة العائلات وطلب وقف الإضراب يوحيان بأن هناك أمراً ما تقوم به المقاومة. وشعرتُ أنا بأن تحرّك أُسرنا يحرج حزب الله الذي لا يريد أن يُقال إن إسرائيل انسحبت وبدأ ترسيم الخط الأزرق بينما بقي المعتقلون اللبنانيون في السجون الإسرائيلية. بدأنا نفكّر بالعمل على تفكيكها، وقد رأيت أنها أدّت الهدف منها، وأحياناً لمتُ نفسي على عدم تنسيقي مع المنسّق بيني وبين قيادة حزب الله. وأخبرني بسّام عبر الهاتف أن ثلاثة من أبناء إخوة أنور المشاركين في الخيمة قد أصيبوا بضربة شمس استدعت نقلهم إلى المستشفى للعلاج. اجتمعتُ وأنور وقرّرنا مناشدة أهالي الأسرى وقف الإضراب. فُكّكت الخيمة في اليوم العاشر.

كشف لي المنسّق بيني وبين قيادة حزب الله، أن المقاومة تعدّ لمفاجأة وأن الاستعدادات لها قد أُنجزت. واقترح عليّ المبادرة إلى تنظيم إضراب في السجن وتحريك الشارع الفلسطيني تضامناً مع الأسرى، لشغل إسرائيل وجعلها تتردّد في فتح جبهة على الحدود اللبنانية.

أحسستُ بأنني أشارك في عملية للمقاومة.

استصعبت الإضراب في السجن، لأنَّ الأمر يحتاج إلى أسباب وتراكمات وإقناع وتنسيق مع السجون الأخرى.

ردَّ عليّ المنسّق بأنّ فشل جولة المفاوضات بين عرفات وباراك في كامب ديفيد عنصر مساعد. ويفترض أن تكون الظروف الفلسطينيّة مناسبة للتحرّك.

قلت: «سأحاول». وأنا غير مقتنع بإمكانيّة ذلك.

فكّرتُ في كيفيّة تسويق فكرة الإضراب لدى اللجنة الوطنية والأسرى. طرحتُ فكرته تحت شعار تحقيق المزيد من المطالب. كنتُ أنا نفسي غير مقتنع بالمطالب وغير متحمّس، فكيف أقنع اللجنة؟

ردّ عليّ رَوحي وعبد الرحمن بأن الوضع هادئ في السجن ومفاعيل الإضراب السابق ما زالت سارية.

كرّرتُ على المنسّق ما قلته له سابقاً وما سمعته من رَوحي وعبد الرحمن:

– «الإضراب الآن صعب التحقّق. لا مبرّر له».

فاجأنا في هذه الأثناء، تحديداً في ٢٨/٩/ ٢٠٠٠، دخول أرييل شارون وحرّاسه حرم المسجد الأقصى. واجهه المصلّون واندلعت الانتفاضة. استدارت إسرائيل إلى الداخل الفلسطيني. ما لم أستطع تحقيقه من خلال الإضراب أهدانا إيّاه شارون.

رحتُ أترقّب مفاجأة المقاومة متحمّساً لانتفاضة الأقصى. يوم. اثنان، اليوم الثالث. . . في اليوم العاشر، كنّا أنا وأنور في الزنزانة. قرأ زميلنا محمد الفار، على شاشة التلفزيون، قناة أبو ظبي، أن هناك انفجارات في مزارع شبعا. علّقا:

— «يا ليتها، يا سمير، تكون عملية أسر».

لم أُظهِر أيّ ردّة فعل.

بعد قليل جاء خبر عاجل: حزب الله يأسر جنوداً إسرائيليين في مزارع شبعا.

طرتُ من الفرح. لاحظتُ على أنور سعادته بالعملية أكثر ممّا دارت في رأسه عملية تبادل.

التصفيق هزَّ سكونَ السجن.

طلبتُ من الحارس فتح الباب لأخرج. انطلقتُ إلى باب زنزانتي القديمة. أخبرني محمد، الذي بات لديه هاتف، أن عملية الأسر قد تمَّت، وأنه اتصل بصديق وأكّد له أن الأسرى ثلاثة.

دفعتني فرحتي إلى الاتصال بالمنسّق لسماع الخبر منه شخصيّاً. أجابني:

— «أتريد شيئاً آخر من السيّد؟».

— «لا شيء آخر. شكراً».

خرجتُ إلى الممر. الأسرى يطلّون من طاقات أبواب زنازينهم يهنئون بالعملية مملوئين ثقةً بأنها ستحرّرنا جميعاً.

مرّ نائب ضابط الأمن، غرشون. جلس إلى الطاولة. سألني عن أحوالي. انتبه لفرحتي ولحركة مفعمة في القسمين سألني:

— «ماذا يجري، لمَ هذه الفرحة؟».

فاجأته:

— «أسرنا لكم ثلاثة جنود».

غادر مسرعاً ليتأكّد من صحّة ما قلته.

ثبت التلفزيون على قناة «المنار» الأرضية. هي محظورة في السجن، لكن الشباب في الزنزانة، قبل انضمامنا إليهم أنا وأنور، استطاعوا قطع شريط كهربائي من مكان ما، أوصلوه بالتلفزيون لالتقاط قناة «المنار» الأرضية وعدد من المحطات اللبنانية. جلسنا ننتظر إطلالة الأمين العام لحزب الله السيّد حسن نصر الله.

طمأنني إلى أنني سأكون على رأس قائمة أيّ مفاوضات في شأن التبادل. اتصلتُ بأهلي، وجدتهم فرحين متفائلين. ارتفعت معنوياتي... رحتُ أترقّب ردّة فعل الإدارة، فالأسرى اللبنانيون كلّنا هنا، باستثناء الشيخ عبد الكريم عبيد وأبو علي الديراني.

تضاعفت الثقة بعد أسبوع من أسر الجنود.

أعلن السيّد نصر الله في ملتقى لدعم المقاومة، في بيروت، تمكُّن المقاومة من استدراج العقيد الإسرائيلي ألْحنان تيننباوم عبر دولة أوروبيّة. وقد حصل ذلك قبل عملية أسر الجنود، ليغدو بذلك عدد الإسرائيليين لدى المقاومة أربعة... للتبادل.

آثرتُ العودة إلى زنزانتي القديمة، مع شباب حزب الله. طلبتُ من الإدارة إعادتي، وكان سريري لا يزال شاغراً. بقي أنور في انتظار نقله إلى سجن آخر.

أطلعني المنسّق بيننا وبين قيادة حزب الله، أن المفاوضات بدأت، وأن الحزب يطالب بنحو ١٥٠٠ أسير لبناني وعربي وباسترداد جثامين شهداء المقاومة اللبنانية والفلسطينية المحتجزة على مدى ثلاثة عقود.

أكّدتُ له أنني لستُ مستعجلاً ما دام المطلب بهذا الحجم. وأنا على يقين بأنه لو اقتصر طلب الحزب على الأسرى اللبنانيين لكانت إسرائيل نفّذت فوراً. وأثناء حديثي مع الشباب في الزنزانة، اكتشفت أن هذا موقفهم. لا عجلة ما دام إطلاق السراح مضموناً.

جلسنا «الساق على الساق» كما يقول عنوان كتاب أحمد فارس الشدياق.

وافقت مديرية السجون على نقل أنور إلى سجن شطّة، الذي يؤسر فيه الفلسطينيون أبناء الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨. غادرنا على أمل اللقاء في بيروت. وقد بدأ محمد بدير وشباب حزب الله جمع أسماء الأسرى العرب في السجون

الإسرائيلية. تواصلوا مع السجون كلّها لهذه المهمّة. واستجابت التنظيمات الفلسطينية وأرسلت إليهم قوائمها.

انتهت مدة سجن محمد بدير في ٢٧/ ١/ ٢٠٠١ ولم تكن إسرائيل لتطلق سراحه لولا المفاوضات. غادرنا عائداً إلى لبنان.

شغور سرير محمد اقترن بتفكيرنا أن نطلب من الإدارة إحضار الأسير اللبناني المعتقل من عام ١٩٨٧ محمد البرزاوي من حيث هو في زنازين العزل في سجن أيلون. قسوة التحقيق وظروف السجن تركت في نفسيته جروحاً وندوباً عميقة وفي صحّته أمراضاً جعلته في السنوات الماضية يستصعب التأقلم مع الأسرى. وقد وصلتنا غير رسالة تقول إن حالته الصحيّة إلى تدهور.

يوماً فيوماً، وبدلاً من أن تزداد قوائم حزب الله للتبادل، ازداد عدد الأسرى في السجون. أعيد فتح أقسام أُقفلت في السنوات السابقة في نفحة. ونقل سجناء مدنيون إلى سجون أخرى ليحوّلوا أقسامهم إلى الأسرى. ما صدمنا وأزعجنا، في تلك الفترة، هو أن غالبية الأسرى الجدد الذين عاشوا في ظل السلطة الفلسطينية، متفلّتون من أي تنظيم، غير مبالين بقواعد الحركة الأسيرة والحياة في السجن، اهتماماتهم من عالمهم الذي عاشوه في الفوضى والفساد. رموا حجارة على جنود إسرائيليين أو انتموا إلى التنظيمات وفجأة وجدوا أنفسهم في السجن.

بادرنا، في اللجنة الوطنية، لاستيعابهم ودمجهم وتعويدهم سلوكيات الأسر والسجن. وهاجسنا تجنُّب أيّ صدام مع الإدارة قبل السيطرة على الموقع. وفي أيّ لحظة يمكن أن يتحمّس هذا أو ذاك من الأسرى الجدد ويسبّب مشكل، ربما يؤدي إلى صدام ومواجهة ينضمّ إليها آخرون. وفي هذه الحال، يمكن أن يبطش بنا الإسرائيليون، برغم انشغالهم عن السجون بقمع الانتفاضة، مستغلّين الضجّة وتركيز الإعلام على ما يجري في الخارج.

واجهتنا صعوبة ضبط موجة تهريب الهواتف إلى السجن. مَن يحتاج إلى هاتف ومَن لا يخدمه في شيء إلا محادثة أسرته أو صديقته أو أصحابه، راح يجهد للحصول على هاتف. شعرنا بمخاطر الأمر على هواتفنا وعلى أخلاقيات المساجين. اختُرقنا، وصار العملاء يتواصلون مع مشغّليهم بالهواتف، وبات كشفهم صعباً. وزاد الطين بلّة كميّة المعلومات التي تُنْقل عنّا. انكشفنا.

تنامت موضة الهواتف، غدت تجارة رابحة. هذا لديه هواتف عدّة يؤجّرها،

وذاك قادر على تهريبها لينال عمولة على إيصال هاتف إلى السجن... شعرنا، نحن أسرى القضيّة، وما قبل هذه الموجة، بأننا غرباء.

درسنا، في اللجنة، اقتراح أن تنحصر الهواتف لدى التنظيمات، كأن يقتني كل تنظيم خمسة أو ستة يستعملها عناصره للتواصل مع الأهل ولغايات عملية.

لم نفلح. مسؤولو التنظيمات أنفسهم إمّا مشغولون بالهواتف وإمّا عاجزون عن مقاومة ما يحصل خوفاً من انفكاك الأعضاء عنهم وعن تنظيماتهم.

اقتصر عملنا في اللجنة الوطنية على إصدار بيانات وتعميمات تنظيمية لسنا متيقّنين من أنها ستلقى صدى. افتقدنا التركيز.

أحالت الحكومة الإسرائيلية ملف الجنود الثلاثة الأسرى لدى حزب الله إلى الحاخام الأكبر. فوجئتُ بالخطوة، لسرعتها ولكون واحد من الجنود الثلاثة غير يهوديّ.

أفضى بي ذلك إلى التفكير أنها حركة سياسية تفاوضية لإراحة الحكومة. فأن يكون الجنود ميّتين، وإحالة ملفّهم إلى الحاخام منسّقة لتؤدي إلى ذلك، يجعلان الحكومة غير مستعجلة وتقلّل من أهميّة الصفقة وتستدرج حزب الله إلى الرد والتوضيح.

حصل ما توقّعته، أعلن الحاخام الأكبر وفاتهم مستنداً إلى معلومات استخباريّة وتقارير عسكرية وطبيّة ميدانيّة.

برغم تحليلي هذا توجّست. وتفاقم توجّسي من أن يكون ذلك مدخلاً لتقليص إسرائيل ما يمكن أن تعطيه لحزب الله، مع قول هشام عبد الرازق لي إن العقيد ألحنان تيننباوم تاجر مخدّرات، وربما ستهمله إسرائيل أو تبخّس به لجعل حزب الله يبادله بأيّ ثمن.

سارع حزب الله إلى نفي ذلك من دون أن يؤكّد بقاءهم على قيد الحياة، فهو يعتبر أن معلومة من هذا النوع لها ثمن. قلت: جاء مَن يربّيكم يا إسرائيليون، ويلعب لعبة ظننتم طويلاً أنكم وحدكم القادرون عليها.

لكن لعبة إسرائيل لتصغير حجم الورقة الموجودة في يد حزب الله تواصلت.

وسائل الإعلام كلّها تعزف النغمة ذاتها: تضع علامات استفهام حول كيفيّة وصول تيننباوم إلى بيروت.

امتزج الانتظار بالقلق.

صبيحة ١١ أيلول/ سبتمبر طرتُ من الفرح وأنا أرى الطائرتين تصطدمان ببرجي التجارة العالمية في نيويورك. تذكّرتُ العملية التي خطّطنا لها أنا وأبو العبّاس وتقضي بخطفي طائرة آتية من أميركا اللاتينيّة وتفجيرها في فلسطين المحتلة. لكن قيادة الجبهة رفضت تنفيذها، فغيّرنا تكتيكنا من الجو إلى البر. فقصدت في المرّة الأولى فلسطين عبر الأردن واعتقلت في عمّان، وعندما عدت إلى بيروت بدأنا الإعداد لتنفيذ عمليتنا في نهاريا.

احتفى الأسرى بالهجوم وشمتنا بالأميركيين الذين يصدّرون السلاح إلى العالم ويدعمون إسرائيل ويسبّبون الحروب هنا وهناك. ضجّ السجن. أتى ضابط في الاستخبارات ليستفسر عمّا يجري، أجبته:

— «فرحون بسقوط مبني التجارة العالمية».

وضاعفتُ مفاجأته، بل حوّلتها إلى امتعاض، حين قلتُ له:

— «أتمنى أن يأتي مثلها العشرات إلى تل أبيب».

غادر مستاءً، يداه تتحرّكان كأنه سقط فجأة في عش دبابير. وتذكّرت الأمين العام للجبهة الشعبيّة، أبو علي مصطفى، الذي اغتالته إسرائيل قبل أيّام، ٢٧ آب/ أغسطس، بقصف صاروخي من طائرة استهدفت مكتبه في رام الله.

بعد يومين، أدركتُ مخاطر هجوم ١١ أيلول/ سبتمبر علينا نحن العرب وعلى الفلسطينيين خصوصاً. فقد منح هذا العمل للإسرائيليين فرصة قمع الانتفاضة والاستفراد بالفلسطينيين والعالم كلّه مشغول بنيويورك. بل استطاع الإسرائيليون قلب الرأي العام العالمي لمصلحتهم، ونالوا التبرير لما يفعلونه بالفلسطينيين المؤيدين للإرهاب.

قبلت الإدارة طلبنا ضم محمد البرزاوي ونقله من عسقلان. حصل التأخّر لاحتمال أن تكون مديرية السجون قد استشارت الحكومة التي تواصل المفاوضات غير المباشرة مع حزب الله في شأن عملية التبادل.

كنتُ في هذه الفترة أُعيد صوغ أفكاري السياسية. المقاومة الإسلامية فرضت نفسها عليّ وفي ضميري. وكلما وجدتُ نفسي إزاء السؤال عن هويّتي، أجدني أخلص إلى القول إنني إذا خرجت من هنا فسأكون في هذا الموقع. لا مقاومة أخرى. وانتصاراتها ودأبها وتنظيمها وإيمان قادتها وأعضائها ووفاؤها للأسرى أمور لا يمكن تجاوزها أو تجاهلها. ليست أمراً عابراً. لماذا لم تحقّق المقاومات الأخرى انتصارات؟ لماذا المؤمنون بتلك المقاومات ضعفوا أو انفكّوا عنها، وربما عن فكرة المقاومة، أو انتقلوا إلى المقاومة الإسلامية؟ لم يشغلني كثيراً الجانب الديني، وإن كنت آنس لأحاديث رفيقي يوسف وزنه المأخوذ بالبعد الديني للمذهب الشيعي وسيرة آل البيت. ديني هو مقاومة إسرائيل ومذهبي هم مَن يقاتل هذا العدو المحتل.

تحمّس الشباب في زنزانتنا لنقل محمد البرزاوي من الزنزانة التي أُنزل فيها، عندما نُقل إلى سجننا قبل ايّام.

ساعدته في حمل أغراضه ومشينا إلى زنزانتنا. أقام في سرير محمد بدير تحت سريري. أُخرجه من صمته بين حين وآخر بسؤاله ماذا يريد، وعن أسرته في بعلبك. يجيب باقتضاب، ودائماً كأنّه يضحك. ويعود إلى صومعته. بحتُ له بأن لديّ هاتفاً. لمعَتْ عيناه الحزينتان، وفوجئ حين علم أننا سعينا لتأمين رقم شقيقه. شكرني. أسعدتني استجابته وطمأنني اندماجه الهادئ معنا. لكنه رفض أن يستعمل الهاتف ويحكي مع أحد.

استغلّت حكومة شارون انشغال العالم بما سمّته إدارة جورج بوش «الحرب على الإرهاب» وبدأت في ٢٩/ ٣/ ٢٠٠٢ حربها على غزّة والضفّة، سمّتها عملية «السور الواقي»، وأعلنت أن أهدافها تدمير حماس والجهاد الإسلامي والجناح العسكري في حركة فتح. لم أؤيّد يوماً سياسة ياسر عرفات، لكنني الآن أكبرتُ فيه رفضه الطلب الإسرائيلي خوض حرب على حماس والجهاد وحل الجناح العسكري في فتح.

لم أنسَ الفساد في السلطة التي يتربّع على عرشها، ولا دخوله المفاوضات مع إسرائيل، لكن ساءني جدّاً حصاره في مقرّه في رام الله. مسَّني هذا، لأن رئيساً منتخباً لشعب عربي يُحاصَر وتُقطع عنه الكهرباء والعرب صامتون.

وسط الحماسة لمتابعة أخبار الحرب وفوضى استخدام الأسرى هواتفهم، اكتُشِف عددٌ من الهواتف، وشكّت الإدارة أن تهريبها إلى السجن يتم عبر الأهل والزيارات. عاجلنا إلى طرح الموضوع مع الإدارة كي لا تحصل عمليات تفتيش وتُكشف هواتف أكثر. . . فإذا ما حصل ذلك فستُفاجأ بالعدد الموجود، ولا نعرف ماذا سيكون ردّها.

مازحني المدير، ما إن فتحتُ باب مكتبه وقبل أن أجول بنظري على موجوداته، مؤكّداً أن كلَّ شيء ما زال على حاله. وما إن جلسنا حتى كشف أنه سيُخضع الزوّار لتفتيش عارٍ. أكّد أن القرار اتُخذ ولا رجعةَ عنه. ناقشته في انعكاسات ذلك. أشعرته بخطورة ذلك كي يلين ويتنازل. اقترحتُ عليه أن يُخيّر الزائر الذي يُمرّر عبر الآلة الكاشفة، إذا ما شكّوا في حيازته شيئاً ما، بين التفتيش العاري والعودة. وافق. عمَّمنا ذلك على الأسرى تجنّباً لأيّ صدام.

جهدتُ على مدى أيام لإقناع محمد البرزاوي بمحادثة أهله. أخيراً وافق. ربما لإلحاحي ولأفكّ عنه.

ليلاً، ضغطت رقم شقيقه على الهاتف. أعطيته إيّاه. ارتجف قليلاً كأنه يتردّد في محادثة شقيقه. أبقى سمّاعة الهاتف في يده بعيداً من أذنه. لاحظت من حجم كفّه ومعصمه أنّه كان أسمن. انتبهت إلى نحافته. جاءه الصوت من بيروت. سمعناه معاً. نظر إليّ مبتسماً غير مصدّق. تكرّر الصوت:

— «ألو»، كأنه يبحث عن مجيب.

قرّب محمد الهاتف من أذنه ونطق:

— «كيفك يا خيّي؟».

شعرتُ بأنه يسرق كلماته خلسةً من السجّان.

بعد أيام، شعرتُ بأن حالته مستقرّة. يُجيب حين تسأله. يردّ بابتسامة مرتبكة متعثّرة ممزوجة برغبة في عدم الابتسام، بل في الانزواء والحزن. لكنه يتلقّى مشاعرنا.

طلبتُ المنسّق ودعوت محمد إلى محادثته.

وصلت إلى جواد قصفي صورة جديدة لابنته الوحيدة جميلة التي تعاني من

مرض الفشل الكلوي، أرسلها والداه وأشقاؤه المهاجرون إلى أميركا. منذ خرج من زنازين العزل عام ١٩٩٦ صار لديه مجموعة ضخمة من صورها، يتأمّلها يوميّاً، بُعيد أدائه صلاة الفجر. وكأنّه ينتقم من السنوات التي مُنع فيها من رؤية صورتها، وهي التي ولدت بعد خطفه من بلدة تبنين الجنوبيّة عام ١٩٨٨ بهدف الحصول على معلومات عن الطيار الإسرائيلي المفقود رون أراد، إذ كان ينتمي إلى المقاومة المؤمنة بقيادة أبو علي الديراني. انتظر حتى المساء وسكون السجن واتصل. أجابت جميلة. عرفنا قبل أن ينطق بكلمة، من وجهه الذي أشرق. سألها عمّا تفعل، وعن المدرسة. أخبرته أنها حازت اليوم علامة كاملة. وراح يحدّثها عن اشتياقه لها وأنه يحلم بها تركض في البيت والحقل.

جلس بجانب محمد البرزاوي وأعطاه صورة جميلة. ومحمد بين الضجر والصمت. تململ في جلسته وكأنه محشور في مكان ضيّق. جواد مستغرق في وصف ذكاء ابنته محاولاً التواصل مع محمد وإخراجه من عزلته.

قرأت في إحدى الصحيفتين الإسرائيليّتين اللتين تدخلان السجن، خبراً عن عقد المحامية الإسرائيلية المدافعة عن الأسرى والمعتقلين الفلسطينيين، ليئا تسيمل، مؤتمراً صحافياً تحدثت فيه عن سجن أُبقي لعقود سريّاً، واتُخذت الإجراءات الأمنيّة والهندسيّة الصارمة لعدم كشفه. بالقرب منه إشارة مرور واحدة تدل على أنه المبنى الرقم ١٣٩١، وهو محاط بأشجار عالية وسور عالٍ، ما يجعله يبدو كمقرٍّ عادي للشرطة. ولم يُذكر في أي معاملة بين إسرائيل والمنظّمات الدوليّة والإنسانيّة. والأسرى العرب الذين كانت تضطر إسرائيل إلى الاعتراف بوجودهم لديها، وهم في هذا السجن، لم تكن تعترف بمكان اعتقالهم. وإذا ما نُقلوا إلى المحكمة أو إلى مقابلة الصليب الأحمر الدولي يُنقلون قبل ذلك إلى سجن آخر. وقالت إن مَن يدخله ربما يختفي إلى غير رجعة. وكشفت تسيمل أن هذا السجن الموروث من الاستعمار البريطاني، استُخدِم حصراً حتى بدء عمليّة السور الواقي في ٢٩ آذار/ مارس الماضي لسجناء أجانب هم من اللبنانيين والسوريين والأردنيين والمصريين والإيرانيين. وبعد ذلك سُمح للشاباك (الاستخبارات الداخليّة) باستعمال أجزاء منه لاعتقال فلسطينيين والتحقيق معهم.

لا أتذكّر كيف انتهيت من قراءة هذه العبارات، فمن اللحظة الأولى لوقوع عيني على هذه السطور، تأكّد لي أن هذا السجن هو المعتقل الذي بقيت فيه أشهراً بعيد أسري. استعدت كل ثانية فيه. تذكّرت فريد وأبو زكن والجرّاح والزنزانة وتعليقي لساعات وأيّام إلى الحائط في وضع الشبح. شعرت بأنّني الآن في قفص السيارة، على صفيحها الساخن، وترتجّ بي مسرعة أثناء نقلي لمسافة ثلاث ساعات ذهاباً ومثلها إياباً، إلى سجن غزّة، كي أقابل وفد الصليب الأحمر. سألت نفسي لماذا لم يتقصَّ الصليب الأحمر عن هذا السجن، رغم أنني، وكثيرين أمثالي، قلتُ لهم إنني في معتقل لا أعرف أين هو وما اسمه؟ لماذا لم يسأل عن هذا المعتقل منذ ٢٣ سنة، وأكثر؟ فوجود سجن من هذا النوع للقسوة وإخفاء المعتقلين مخالف للقوانين الدولية.

فكّرت أنه إذا كان حبل الكذب قصيراً فإن الظلم لا يدوم. فقد دفع القدرُ الشاباك إلى استعمال هذا السجن ليُفضح أمره. ربَّ ضارّة نافعة. فالفلسطينيّون الذين اقتيدوا إلى هناك وسألت أسرهم ومحاموهم عنهم، فَضح أسرُهم وإخفاؤهم هذا السجن. آلمتني فكرة أنَّ حياتنا في السجن لا تغدو حقيقيّة، برغم قسوتها ومآسيها، إلا حين نرويها. مثل هذا السجن السرّي، كان سيبقى خلف حجاب تشارك في حياكته مؤسّسات إنسانيّة ودوليّة، لولا أنَّ مَن مرّوا به وخرجوا منه، وهم قلّة، لم يتكلّموا عنه ويفضحوه. وكلمة بعد كلمة وشهادة بعد أخرى، يتأكّد وجوده، علماً بأنه لو نفى كل العالم وجود هذا السجن، أو لم يسمع به، فإنَّ مروري ومرور كلّ أسير به يكفي لتأكيده. فما بين وجوده المؤكّد وفضح وجوده فارق. وجوده يؤكّده ما عشته هناك، وما عاشه كل أسير هناك، سواء تكلّمت أو لا، وسواء عرفت اسمه وموقعه أو لا. لكنَّ فضحه ربما يحتاج إلى أكثر من شهادة.

جاءني أسير من حماس توتّره وحزنه مغلولان بمشاعر الضعف والإذلال. شكا تعرّض زوجته أثناء زيارتها له لمعاملة قاسية من جانب الشرطة:

— «أجبروها على خلع ثيابها وتفتيشها»، قال خَجِلاً.

طلبتُ إليه الهدوء والتأكّد من القصّة. جزم بأنه فعل، وأشار إليّ بأن زوجة رفيق آخر شهدت على الحادثة وروتها لزوجها، وهو مَن أكّد له.

قصدتُ الأسير الذي روى الحكاية نقلاً عن زوجته. أعادها عليّ.

دقائق وكان السجن كلّه يتحدّث بالموضوع. توتّر الجوّ.

انطلقتُ نحو عادل حامد، ممثّل حماس التي ينتمي إليها الزوج وزوج الشاهدة. وجدته قد علم بالأمر ويعمل على تهدئة أعضاء تنظيمه. استدعينا الإدارة إلى اجتماع. حضرت نائبة مدير السجن. كنّا جازمين في طلب توضيح ما جرى.

أنكرت نائبة المدير معرفتها بالأمر، وطلبت وقتاً لتقصّي الحقيقة.

عادت بعد وقت وأكّدت حصول ذلك:

— «كان بحوزة الزوجة هاتف تريد تهريبه إلى السجن».

رددتُ عليها:

— «لكن اتفاقنا أن يُخيّر الزائر بين الخضوع للتفتيش العاري أو العودة، وليس إخضاعه للتفتيش العاري مباشرة».

جُنّ جنون الزوج:

— «كرامتي قد مُسَّتْ».

يكرّر كيفما مشى. وراح غضبه يتفاعل مع غضب الآخرين، حتى بات يعتبر السكوت جبناً وعجزاً وقبولاً بالإذلال.

في زنزانتنا، توتّر من نوع آخر: صحّة محمد تتدهور.

بعد الظهر، وقد هدأ السجن، توجّهتُ إلى مخبأ الهاتف في الحمّام. سحبته وضغطتُ على أرقام المنسّق. أطلعته على وضع محمد، وأشرت إليه بضرورة إخراجه حتى لو تطلّب الأمر إبداله وحده بجندي إسرائيلي، وإذا كانت المفاوضات غير المباشرة متوقّفة فليُفعل أيّ شيء من أجل محمد. وقلتُ:

«أرجوك أبلغ السيّد أمنيتنا هذه، وإنني أتنازل عن أيّ شيء يخصّني لقاء تحرير محمد. وإلاّ فسنخسر هذا الرجل الطيّب والمحترم صاحب التاريخ المشرّف في المقاومة».

لم أستفِض في هذا، لأن المنسّق يعرفه من قبل أن يقود العمليّة التي أُسر فيها واستشهد عدد من المقاومين وقُتل جنديان إسرائيليان وجُرح غيرهما.

دوَّن المنسّق ما قلته.

حادثة تفتيش المرأة تتفاعل. كلام الأسرى يستبطن نشاط موجات الانتقام. توقّعتُ حصول أمرٍ ما. توجّستُ أن تفلت الأمور ويقع صدام يُجَرُّ إليه السجن كلّه.

والنتائج ستكون سلبيّة نظراً إلى أجواء الأسرى الجدد وقلّة خبرتهم وعدم انضباطهم بقواعد الحركة الأسيرة.

أثناء اجتماع اللجنة الوطنية وعادل حامد، في الباحة، جاءنا أمير حماس في السجن، علي العامودي. قال:

– «حادثة من هذا النوع لا يُسكَت عنها. علينا الرد».

رددتُ عليه متذكّراً ما فعلناه بتشاتشا شفيلي في سجن عسقلان:

– «الردّ سهل».

أنصتَ الحاضرون. أضفت:

– «طعن غرشون، المسؤول عن الأمن في السجن».

فوجئ الشاب:

– «الأمر بحاجة إلى دراسة».

ودعانا إلى التفكير في انعكاسات ذلك على السجن.

– «أمّنوا أنتم شابّاً قبضاي. ولا عليك، أنا أُدبّر الموضوع»، قلت له.

في اليوم التالي استدعيتُ في الباحة شابّاً جديداً وخطّه غير معروف. أعطيته ورقة صغيرة وأمليتُ عليه:

– «نداء إلى الأسرى، الاستعداد لتحرّك كبير انتقاماً لتفتيش المرأة».

وطلبتُ إليه أن يرمي الورقة، أثناء العودة إلى الزنزانة، حيث يمكن أن يعثر عليها الحرّاس ولا يلاحظوا مَن رماها. نريدهم أن يظنوا أنها وقعت من طريق الخطأ.

نفَّذ. وصلت الرسالة.

جاء قائد المنطقة آفي فاكنن إلى السجن. طلب الاجتماع إلى اللجنة الوطنية.

اعتذر عمّا حصل مع المرأة:

– «كان خطأً ولن يتكرّر».

أظهرنا له أننا اكتفينا بذلك. وأنا أعرف أن ذلك لا يُنهي المسألة، ولا سيما بين الأسرى. وربما يحتجّون. وأصلاً لم أُبادر إلى حركة الورقة تلك بغاية استدراج الاعتذار، بل للإيحاء، بعد الاعتذار، بأن الأمر انتهى، فتطمئن الإدارة ونهيّئ الأجواء لعمليّتنا. ومن جهة أخرى، تعمّدتُ من هذه الخطّة توجيه رسالة إلى الأسرى مفادها أن الانتقام لا يكون ارتجاليّاً ولا فرديّاً.

وقع الاختيار على الأسير هاني جابر، من حماس، للتنفيذ. تعهّد بألاّ يعترف مهما قسا التحقيق عليه. أمّنت له قيادته قطعة حديد، تولّى هو شحذها. أخفاها وقصد، التاسعة صباحاً، ضابط القسم. طلب مقابلة ضابط الأمن:

— «عندي مشكلة خاصة في الزيارة أريد عرضها عليه».

— «غرشون غير موجود. اذهب وقابل المدير».

قال في سرّه «جاءت والله جاء بها». فهم حماسة الضابط، فالإدارة تشجّع اللقاءات الخاصّة، لإضعاف اللجنة الوطنية وممثلي الأسرى، ولمحاولة جذب الأسرى، واحداً واحداً، وربما تشغيلهم لمصلحتها.

العاشرة، دخل هاني مكتب المدير، ألبرت أبو حصيرة، من أصول مغربيّة. أسرع نحوه قبل أن يكتشف الغاية من الزيارة ويضغط على زر استدعاء الحرّاس أو يصرخ أو يصل إلى سلاح ما. طعنه طعنات عدّة.

سمع الحرّاس صراخ مديرهم، سارعو لنجدته. انقضّوا على هاني. أمسكوا به. أبعدوه عن المدير. ضربوه وساقوه إلى زنازين العزل.

أُطلقت صافرات الإنذار في السجن وصافرة سيارة الإسعاف التي أقلّت المدير إلى المستشفى.

كنتُ قد استيقظت وبدأت غسل وجهي. جاء عادل وأخبرني. بقيت هادئاً. أقفلوا الأقسام.

خلال نصف ساعة كان الخبر على التلفزيون. قُطعت الكهرباء والماء عن السجن.

انتظرنا في الزنازين خطوتهم التالية. توقّعنا الدهم والتفتيش. لم نقلق على الهاتفين في الزنزانة. نطمئن إلى عبقريّة إبراهيم بارود.

وصلت قوّة ضخمة. بدأوا عند الخامسة عصراً إخراجنا إلى الباحة لتفتيش الزنازين. وبين حين وآخر يقصدنا هذا وذاك. اختلف الرأي بين مؤيّد لطعن المدير ومعارض يرى أن تفتيش المرأة أمر لا يستأهل ردّاً بهذا الحجم.

كرّرت لكل من قال هذا الكلام:

— «إذا لم نفعل ذلك فسيستضعفوننا، واليوم تفتيش وغداً الله أعلم».

تعبنا ونحن ننتظر انتهاء التفتيش. قلقت على صحّة محمّد. افترش عدد منّا الأرض ونام، واختار آخرون السهر على ضوء القمر، حتّى الرابعة فجراً. سمحوا لنا

بالعودة إلى الزنازين. وجدناها وقد مرّ بها إعصار، في حال يُرثى لها. صادروا الأدوات الكهربائيّة وأتلفوا المواد الغذائيّة وعلب التبغ. رغم يقيني بأنهم لم يجدوا الهاتف، ولو وجدوه لكانوا أخذوني إلى العزل، تفقّدت مخبأه. حاولنا إعادة الأشياء كما كانت. نمنا.

في اليوم التالي أعيدت الكهرباء والمياه إلى الزنازين. لكنّ وقت النزهة تقلّص إلى ساعة يوميّاً. لم يكن همّنا هذا، كنّا في حال ترقب وما إذا كان هناك انتقام. ويوماً فيوم بدأت الإجراءات العقابيّة تَهِن... والأجواء تعود إلى طبيعتها بعدما استدعت الإدارة مسؤولي حماس في السجن وسألتهم عن أسباب طعن المدير، وأجابوها بأنه انتقاماً للمرأة التي فُتّشت وأُهِينت. لكنّنا، بعد شهر من الطعن، تحسّبنا لعودة المدير من المستشفى واحتمال أن يكون ساعياً إلى الثأر، ولا يتردّد في الإفراط بالعنف مع أيّ أمرٍ يعتبره استفزازاً، أو يستغلّه.

مساءً، اتصل بي المنسّق وأبلغني أنّه سيُطلق سراح محمد. طمأنت الشباب. وبعد يوم جاء ضابط وطلب إلى محمد جمع أغراضه لنقله إلى سجن الجلمة.

توتَّر محمد. اقتربتُ منه وهمستُ له أنه سيتحرّر. التفتَ إليّ. أوّل مرّة تلتقي عينايَ بعينيه. ثبتتا للحظات، بين سائل وغير مصدّق، عانقني وعانق الشباب الآخرين. بدا لي أن جسده استعاد استقامته.

فرحتي لا يسعها الكوكب.

اطمأننّا إلى وصوله إلى لبنان، في ٢٠٠٢/٦/١٠، من المنسّق. وكشف لنا أن السيّد حسن أرسل إلى الإسرائيليين عبر الوسيط الألماني أن الوضع الصحي لمحمد البرزاوي دقيق جداً. وهدّد بأنه إذا تُوفي في السجن فإن الثمن سيكون غالياً. عندها أجاب الإسرائيليون بالموافقة على إطلاق سراحه قبل أشهر من انتهاء مدة سجنه.

وأعلمنا المنسّق أن شروط سجن الشيخ عبد الكريم عبيد وأبو علي الديراني قد تحسنت ونُقلا من سجنهما العسكري الخاص بالاستخبارات العسكريّة إلى سجن «أشمورت» قرب مدينة نتانيا.

قلت ما كانت إسرائيل لتفعل هذا لولا أن ثمّة مطالبة بهما وبمعرفة مكانهما، وبدأ يُفتضح أمر السجن ١٣٩١ الذي احتجزا فيه، في منطقة قريبة ممّا يسمّى «الخط الأخضر»، ويخضع للاستخبارات العسكرية.

قلبت غاراتُ الطائرات الإسرائيلية، في ٢٠٠٢/٧/٢٣، على قطاع غزّة،

صفحة طعن أبو حصيرة. اغتالت بقصف صاروخي المسؤول العسكري في حركة حماس، صديقي الشيخ صلاح شحادة. وقُتِل معه خمسة عشر مدنيّاً بينهم أطفال. نُظّم احتفال تأبيني في الباحة، ووجَّهتُ رسالة تعزية إلى حماس أكّدت فيها استمرار المقاومة وتمسّكي بها خياراً لتحرير الأرض.

اطمأننتُ إلى انضباط عناصر حماس بقرار قيادتهم، بقيت أمامنا مشكلة توافد أسرى حركة فتح، المشرذمين المأخوذين بشؤونهم الشخصيّة. بذلنا في هذه الفترة الجهود لإزالة التوتر بين حماس وفتح. اعتبرنا أن التوتر يجعل عناصر فتح يتكتّلون مجموعات بعضهم حول بعض، ولا يوحّدهم أو يفسح المجال أمام كادراتهم لتنظيم وضعهم. ساعدناهم في ذلك.

بعد شهرين ونصف من طعنه نُقل المدير إلى سجن آخر. وهاني معزول في سجن الرملة.

— «جميلة؟»، سأل جواد عبر الهاتف زوجته وطفحت عيناه بالدموع.

اهتززنا كلّنا في الزنزانة وأنصتنا إليه، نريد فهم ما يجري.

— «متى حصل هذا؟»، سأل مجدّداً. ازداد قلقنا.

جميعنا يعرف حبّه لوحيدته المريضة.

— «ماذا قال الطبيب؟»، وراحت شفتاه تتحرّكان مع قراءته آيات من القرآن، وهو يستمع إلى زوجته.

أدركنا أن حالتها الصحيّة صعبة. آزره الشباب بتلاوة القرآن. بعضهم غيباً وبعضهم الآخر أمسك بالكتاب وفتحه ليقرأ. بقيتُ وحيداً أُنصتُ إليه وأنتظر انتهاءه من المخابرة كي أسأله عن جميلة.

أقفل الهاتف وعاد إلى سريره. جسده معنا وهو مع ابنته. لم نثقل عليه بالأسئلة. يكلّمنا كأنه يخبرنا ما يراه عند جميلة:

— «في المستشفى... في العناية الفائقة... يقول الأطباء إن وضعها خطر... يعملون طاقتهم... الإخوان يهتمّون بها... لا تقلق».

استعاد ما قالته زوجته، كما لو أنه يملأ فراغ حواره مع زوجته الذي سمعنا منه أسئلته.

نهض والشباب، حملوا سجادات الصلاة وأقاموها، ثم عاد بعضهم إلى الأسرّة يقرأون القرآن ويدعون لجميلة بالنجاة.

جفّت دموع جواد. اطمأن. سلّم أمره للّه، كما قال وكما دعاه الشباب. وأنا أسأل نفسي: من أين له هذه القوّة؟ تذكّرت وداع السيّد حسن نصر الله جثمان ابنه هادي. يومها ركّزت القنوات الإسرائيلية على دموعه المحبوسة في عينيه. حاولوا تفسير ذلك بقوّة الإيمان تارةً، وبالقسوة والشخصية العقائدية المتطرّفة تارةً أخرى. عينا جواد قصفي الآن عينا السيّد نصر الله. الإيمان بالله هو تفسيري لقوّة الصبر والتحمُّل. دفعة أخرى نحو ذاك الإيمان استسلمت لها وأنا أنظر إلى جواد وأتذكّر السيّد نصر الله. لم أختبر هذه المواقف التي يختلط فيها الإيمان بالله بالصبر والشخصي. واجهتُ كل المصاعب والمصائب والمواقف بعناد شخصي وعقائد لم يبقَ منها إلاّ إيماني بفلسطين وقضيتها وتحرير الشعوب العربية. حتى بتّ أشعر بأن هذه الشعارات تحتاج إلى شروح ونظريات... وأؤجل خوضي فيها. أقرن هذه المهمّة بحريّتي. وها أنا إزاء مواقف الإيمان أعيشها وأختبرها، وأنفتحُ على أسئلة فكريّة وسياسيّة وشخصيّة، ولا أتوسّل أجوبة نظرية كبيرة. أستسلم للطمأنينة التي تبعثها بالروح، وأستند إلى مقاومة نهضت من لا شيء وحقّقت الانتصارات. أقارن بينها وبين المقاومات الأخرى، وأشعر بأنها خياري.

عبَّر جواد عن حاجته إلى الاتصال بزوجته للاطمئنان على صحّة جميلة. نهضتُ إلى المخبأ وأحضرتُ الهاتف.

— «على حالها»، قال لنا.

تكرّر هذا المشهد مرّات ومرّات، وكل مرّة يزداد قلق جواد ومعه تزداد صلابته التي تبدو لي ترقص فوق حبل. كبر هذا الرجل سنوات، أمامنا، في أيّام. واحترتُ في أمري، هل كانت تلك الخُصَل البيضاء في شعر لحيته ولم أكن أنتبه إليها، أم شابت الآن؟ وتلك التجاعيد حول عينيه رسمتها أيّام المقاومة ثم الأسر والتحقيق والتعذيب والزنازين، أم سهراً وحزناً على جميلة؟

ظهيرة السبت ١٩/ ١٠/ ٢٠٠٢ تفقّدنا أنا وجواد الحرّاس في الممر، اطمأنّنا أن لا أحد منهم قريب من زنزانتنا. سحبنا الهاتف.

طلبت رقم زوجته وأعطيته السمّاعة. ثوانٍ ورماها كأن صاعقة كهربائية ضربته، وأخذ يبكي. فَهِم كلُّ مَن في الزنزانة أن أمراً خطيراً قد حصل لجميلة، وربما

ماتت، سارعتُ إلى الهاتف لأحكي مع زوجته، لأسألها، لا أريد أن أصدّق. سمعتُ زوجته تنتحب. وأقفلنا الخط.

ماتت جميلة، ابنة الثلاث عشرة سنة، التي لم يرها والدها، ولكثرة ما حدّثَنا عنها جواد وحفظنا صورتها وأخبارها، بتنا نشعر بأنها تعيش معنا.

صُدمت. جلستُ على أحد الأسرّة. وقد تعطّلت. أنظر إلى جواد يبكي. يناجي ربّه، والشباب حوله يواسونه ويبكون، ويقولون له كلاماً عن تجريب الله للمؤمن.

فكّرتُ في جواد وقسوة أن تموت ابنته التي لم يعد نفسه بالحرية إلاّ للقائها واحتضانها، وهو ينتظر حصول عملية التبادل. هذا مصدر آخر للألم. فموت ابنته التي عاش كل هذه الأيام يشعر بأنها روزنامة حياته وبأنها حريّته التي تحيا في الخارج، والعنوان الذي سيعود إليه، كأنه يعني أن سنوات سجنه هي سنوات أسر فحسب، وكأن صفحة تطوى. بينما كانت، مع حياة جميلة، ذات بعد خاص. جميلة كانت بالنسبة إليه جزءاً منه يحيا في الخارج، رصيد حريّة ينمو ويعيش ويتعلَّم.

كرّر علينا كلماتها أنها كانت تشعر بأنها أسيرة معه، وأن حياتها تبدأ حين تراه وتحضنه. شهق. هدّأ نفسه ليتابع القصّة:

«كنت أرد عليها لا تقولي هذا يا بابا، كلماتك هذه تعذّبني».

أحسستُ بأنه يتألّم لولادتها أثناء أسره، ما جعل حياتها معلّقة بحريّته، كما لو أنها حلم بدأ وانتهى قبل أن يستيقظ.

وجدتُ نفسي أقارن بين ابن الأسير وابن الشهيد. قلت ابن الشهيد يعرف أن أباه قد رحل عن هذه الدنيا، بينما ابن الأسير يبقى ينتظر عودة أبيه. والخوف من أن لا يتحرّر الأسير ويعود إلى أسرته ومن أن يموت في السجن. أما مأساة جواد فمضاعفة، هو مثل ابنته تماماً بقي ينتظر عودته ليراها وسيعود ولن يجدها.

انتظرنا نُخفي حزننا ونداري حزن جواد حتى بُثّ الخبر على التلفزيونات اللبنانية، وانتشر في السجن. وأقمنا مجلس عزاء في الزنزانة.

باشر كلٌّ من ليئا تسيمل ومنظمة «هاموكد» الإسرائيلية الحقوقية (مركز الحدث) برفع دعاوى على الاستخبارات العسكرية والشاباك بتهمة إقامة سجن سري، وربما

هناك غيره، وممارسة التعذيب الجسدي والنفسي والجنسي. وتستند تسيمل و«هاموكد» إلى شهادات شخصية. وهذا يحرج السلطات السياسية والأمنية والقضائية في إسرائيل. واعترفت بوجود مكان سري من دون أن تعطي مزيداً من التفاصيل.

بدأت المحكمة استدعاء المعنيين بالسجن السري، من أمنيين وإداريين وربما سياسيين، إذ إن قلّة من الحكومة تعلم بما يجري في السجن السري وكم هو عدد السجناء فيه. ويضطر المدعوّون هؤلاء إلى الاعتراف - الشهادة تحت القَسَم. وتلاقي حركة تسيمل و«هاموكد» الدعوى الجريئة التي تقدّم بها أبو علي الديراني عبر محاميه تسفي ريش ضد الدولة العبرية. فقد تجاوز الاعتبارات الشخصيّة من أجل المصلحة العامّة، وقبل أن يلجأ إلى المحكمة مشهراً أنه تعرّض في الأشهر الأولى من خطفه والتحقيق معه لتعذيب جنسي على يد «المايجور جورج» الذي اغتصبه ودعا أحد الحراس إلى ذلك ثم أدخل عصا في مؤخّرته. وقد صرّح أحد المحقّقين المسمّى «تي.أن»، أنه كان من الدارج التهديد بإدخال قضيب، والقصد كان إدخاله فعلاً إذا امتنع الأسير عن الكلام. ولم تنفِ العريضة التي رُفعت للدفاع عن «المايجور جورج»، وموقّعة من ٦٠ ضابطاً، اللجوء إلى هذه الممارسات، وتعتبر أنه ليس من العدل الانتقام من جورج لأنه استخدم طرائق رائجة في السجن. وجورج نفسه أقرّ بأنه كان من المعمول به استمرار إبقاء السجناء عراة أثناء الاستجوابات. فقد احتمى «المايجور جورج» ورفاقه بأن القانون الإسرائيلي لم يكن يمنع التعذيب في السجون، قبل إصدار المحكمة العليا قانوناً، عام ١٩٩٩، يحظر التعذيب لكنّه يشرّعه إن كان لدى السجين معلومات تشكّل خطراً على دولة إسرائيل ومواطنيها. وقد سُمّي قانون «القنابل الموقوتة».

جاءنا، في ١٧/ ١١/ ٢٠٠٢، النائب في الكنيست الإسرائيلي عزمي بشارة في زيارة تفقديّة. لم يسبق أن التقينا. تواصلنا قبل سنوات بالبريد، حين طلبتُ إليه مساءلة الحكومة الإسرائيلية عن يحيى سكاف، أحد فدائيي عملية دلال المغربي. يومها كان شقيقي بسام ومحمد صفا قد أخبراني أن هناك أسيراً لبنانيّاً مفقوداً اسمه يحيى سكاف، من فدائيي عمليّة دلال المغربي، وأسرته تبحث عنه وإسرائيل لا تعترف بوجوده في سجونها. طلبت إليهما أن يعطياني معلومات إضافيّة عنه. سألا

أسرته وردّا عليّ أن اسمه الحركي كان جلال أو أبو جلال. تذكّرت أن رفيقيه في العمليّة خالد أبو إصبع وحسين فيّاض، رويا لي أنه استُشهد أثناء العمليّة. لكنني لم أجزم، أفسحت مجالاً للتقصّي. تراسلت مع عزمي بشارة الذي اهتم بالأمر وحوّله، لكونه نائباً في الكنيست، استجواباً إلى الحكومة الإسرائيليّة. وردّ عليه وزير الدفاع أن لا أسير يحمل هذا الاسم في السجون الإسرائيليّة. فكتبت للجنة المتابعة لدعم قضيّة الأسرى رسالة عرضت فيها رواية خالد وحسين وما جرى مع عزمي.

ذهبنا إلى مكاتب الإدارة أنا وأعضاء اللجنة الوطنية وعدد من الأسرى من أراضي الـ٤٨ أصدقاء عزمي ومؤيّدين لحزب التجمع.

بادرني عزمي بشارة بالسؤال عن جواد قصفي. أدركتُ أنه علم بوفاة جميلة. أخبرته أن جواد معي في زنزانتي. نظر إلى مدير السجن شفيلي بحنق وقال:

— «هذا ما كنتُ أتوقّعه. لقد كذبوا عليّ في مديريّة السجون وقالوا لي إنه ليس في نفحة».

تساءلنا لماذا يخدعون في هذا الأمر.

قال عزمي:

— «سعيت إلى لقائه منذ أشهر حين وصلتني أخبار مرض ابنته جميلة، وتقدّمت بطلب زيارته إلى وزارة الأمن الداخلي وكان هذا جوابهم».

سألنا، بحضور مدير السجن، عن أداء الإدارة وعلاقتها بالأسرى وما إذا كانت تلتزم القوانين. أجبته بأن العلاقة بيننا وبين الإدارة تسوء وتهدأ بين حين وآخر. وأكّدت أننا لم نختبر بعد المدير الجديد.

ثم انسحب مدير السجن. بقينا أنا وعزمي. ودفعنا الشروع، في ٢٣ حزيران/ يونيو، ببناء جدار الفصل بين الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ والضفّة وفي محيط القدس إلى الكلام في السياسة. قال بلهجته التي تجمع التحليل إلى الخطابة إن هذا حلم صهيوني قديم، لا تنفكّ القوى السياسية الإسرائيلية يميناً ويساراً تجدّده وتكرّره بين حين وآخر. فتحت ذريعة الأمن تمارس حكومة أرييل شارون أبشع أشكال الفصل العنصري. وتذكّر أنه بعد حرب ١٩٦٧ واحتلال إسرائيل الضفّة والقدس الشرقية طرح وزير المالية آنذاك بنحاس سافير هذه الفكرة. وشارون نفسه منذ عام ١٩٧٣ يخطّط لتنفيذ الفصل، وأعدّ عام ١٩٧٨ خريطة تفصيليّة لمخطّط الجدار. وفي انتخابات الكنيست عام ١٩٨٨ طرح حزب العمل إقامة سياج فاصل على خط التماس بين الضفّة الغربية وأراضي عام ١٩٤٨، لكن الليكود فاز بالانتخابات. وعام

١٩٩٥ بعد عملية بيت ليد الاستشهادية، طلب رئيس الوزراء إسحاق رابين من وزير الأمن الداخلي موشيه شاحال وضع خطّة لفصل إسرائيل عن الشعب الفلسطيني، وعمل شاحال مع الجيش والشاباك لإعداد خطّة للتنفيذ، لكنها سقطت لأسباب اقتصاديّة. وعاد نتنياهو بعد انتخابه عام ١٩٩٦ وطرح الأمر مع خلف شاحال، أفيغدور كهلاني، الذي وضع خطّة ميتساريم التي تقوم على بناء سياج وعوائق على امتداد ما يسمّى الخط الأخضر. وإيهود باراك نفسه أعلن في انتخابات ٢٠٠٠ أنه سيقوم بالفصل الأحادي الجانب بين الفلسطينيين ودولة إسرائيل، تحت شعار «نحن هنا وهم هناك». ومنذ اندلاع انتفاضة الأقصى تجدّدت المطالبة وارتفعت وتيرتها.

اقترب منّي وهمس سائلاً عما إن كانت لديّ أخبار عن المفاوضات غير المباشرة بشأن عملية التبادل. أجبت بأنها مستمرّة، وإنْ ببطء. والشباب في بيروت يطمئنوني أنني ضمن أيّ صفقة تحصل.

فجأةً قال لي كأنّ لديه معلومات:

— «انتبهوا، الاستخبارات الإسرائيلية لا تقعد عاقلة».

عطفتُ كلامه على ما قاله لي بسّام والمنسّق بأن هناك شائعات في بيروت تدّعي أن عائلات الأسرى اللبنانيين تجري اتصالات للضغط في سبيل إتمام صفقة التبادل وتستثني الأسرى الفلسطينيين. سألته لماذا ينبّهني إلى ذلك.

— «مجرّد لفت نظر، حزب الله يطالب بإطلاق سراح أسرى فلسطينيين وعرب، وهذا يزعج الإسرائيليين وبعض العرب الذين يرفضون توفير الفرصة للمقاومة بأن تظهر محرّرة لأسراهم بينما هم يقفون مكتوفي الأيدي، بل تفاوض إسرائيل وتعقد معها الاتفاقيات».

عرضتُ عليه الشائعات المتداولة في بيروت. أكّد أن هذه لمسة إسرائيلية.

مضى الوقت سريعاً معه. انتبهت لذلك حين عاد مدير السجن وكأنه يعلن انتهاء الزيارة.

عدتُ إلى زنزانتي وأنا أفكّر في الاتصال بأسرتي لأستوضح منها الأمر، والاتفاق على إصدار بيان ينفي حصول تلك الاتصالات، ويدعو إلى إبقاء ملف الأسرى في إطار المعالجة الإنسانية بعيداً من الاعتبارات والمكاسب السياسية.

قلت لبسّام:

— «إسرائيل تشوّش على حزب الله، وتريد إرباكه وإحراجه. فهو يطالب

بالأسرى الفلسطينيين والعرب، وهي تريد أن توحي بأنه تخلّى عنهم. هذه حركة تفاوضية علينا تنفيسها».

وبما أنني مستعجل لإصدار البيان، ولن أنتظر مجيء المحامي كي أدّعي أنني أعطيه البيان وهو مَن أوصله إلى الإعلام، اتّفقت مع بسّام على إصداره باسم أسرتي. وقد نُشر في صحف ٢٠/ ١١/ ٢٠٠٢.

وفي سياق الألاعيب أرسلت مديرية السجون إلى الأسرى الذين أمضوا في السجون الإسرائيلية فترة تزيد على عشرين عاماً، وأنا منهم، عرضاً يدعونا إلى تقديم طلبات للنظر في إطلاق السراح، على أن نشرح في الطلبات، التي تُرسل إلى رئيس دولة إسرائيل، الأسباب الشخصيّة التي تدفع كلاً منّا إلى التقدّم بهذا الطلب.

استغرب كثيرون رفضي ذلك.

— «الأمر ليس شخصيّاً»، رددت عليهم.

— «فليفكّروا كيفما يريدون، اكتب هذه الرسالة وتحرّر».

— «لستُ أنا مَن يفعل ذلك. لم أحمل بندقيتي مزاجاً ولأتسلّى بقتل الإسرائيليين».

— «المفاوضات معطّلة، والإسرائيليون أكيد يرفضون إطلاق سراحك».

— «يا إخوان، حتى لو سلّمت جدلاً معكم، وأنا لن أفعل، وتقدّمتُ بتلك الرسالة، فسيعتبرونها خطوة نحو خلخلة تماسكي».

— «جرِّب».

— «لن أنجرّ إلى لعبة استخبارية رخيصة وغبيّة».

تكرّر هذا المشهد مرّات ومرّات، ولأسابيع، بيني وبين رفاق لا أنكر وطنيّتهم واندفاعهم لإقناعي غيرةً عليّ وليروني حرّاً.

حملت الاستمارة التي أرسلت لنا وكان لزاماً علينا تسليمها، وقلت للشباب في الزنزانة:

— «اسمعوا ما سأكتبه لرئيس دولة إسرائيل، موشي كاتساف». ورحت أقرأ ما أكتبه:

«أنا لم أطلب هذه الورقة، أنتم أرسلتموها. أنا أرفض أن أتحرّر بعفو منك لأن في لبنان من سيحرّرني».

وقلت في نفسي لن يتوقف هذا المسلسل إلاّ بنشر خبر عن ذلك، أُعلن فيه رفضي هذه المهزلة، فيصل موقفي إلى الإسرائيليين عبر الإعلام. فمثل هذه الأمور لا أناقشها معهم في السر. صغتُ بياناً، نشره بسّام في صحف ٤/ ٢/ ٢٠٠٣.

هالني سقوط بغداد بهذه السرعة، ٩/ ٤/ ٢٠٠٣. أحسستُ أن كل عربي خُدع. لم أصدّق، لم أستوعب الصدمة. أمس بالضبط، قاتل الجيش العراقي على الحدود مع الكويت، القوات الأميركية وحلفاءها. قاوم هناك وحسب، وخرّ في العاصمة. يا الله، أشاهد التلفزيون وأنظر حولي إلى الشباب، أراهم مصدومين مثلي. جيش من أقوى الجيوش العربيّة، اعتدى على إيران ثماني سنوات وانهار في ساعات! كذبة، حلم، أقول. أبتعد عن التلفزيون كأني أبحث عن حقيقة بعيدة عنه. أفكّر أنها حرب تلفزيونيّة علينا وعلى المنطقة. فيلم أميركي. وأعود لمشاهدة التلفزيون. أسأل: أهذه حقّاً بغداد، أم ديكور هوليوودي؟ أحقّاً سقط نظام صدام حسين صاحب وعود النصر الكبيرة؟ هؤلاء الناس الذين ينهبون المؤسسات الحكومية والمصارف، هم مواطنون عراقيون أم كومبارس جاء بهم المخرج الأميركي؟ لا أستغرب انفلات شعب بهذه السرعة لحظةَ سقوط الجيش الذي قَمَعه، والنظام الذي أخذه إلى الحروب والمجهول ومصادرة الحياة برمّتها.

أذرع الغرفة، أخرج إلى الممر. الذهول يعمّ السجن. صدّقتُ أن هذا واقع. لا رغبةً في خداع نفسي، لكنّي أحاول أن أفلْتر ما ينهمر علينا عبر الشاشة. كأن أحاول أن أعرف صدّام من شبيهه، أحاول تمييز صدام من التماثيل المزروعة في الساحات وعلى الطرقات وفي كل مكان تذكيراً بأنه السلطة. لا يزعجني إسقاط تمثاله في الساحة، بل أشعر بالإهانة، أشعر بالإهانة إذ يحصل ذلك بتحريضٍ من جنود احتلال وبإخراج وإدارة أميركيين. أغمض عينيّ وقلبي يعتصر أن يصوّر شعبٌ عربيّ كأنّه ينال حريّته بقوّة الغزو وفي الوقت نفسه كمجموعة من السارقين، أن يُظهَّر الاحتلال كخلاص، كثورة على الظلم والديكتاتورية. وساءني أكثر هروب صدام. لم أفكّر أنه توارى كمقاوم، بل كرأس نظام انهار كعلبة كرتون.

— «هذه الدمية التي اسمها صدّام نصّبها الأميركيون رئيساً وهم كسروها»، قال الشباب في الزنزانة وتذكّروا خوضه الحروب الأميركية ضد الجمهورية الإسلامية في

إيران وقمعه الشعب العراقي. وأنا أشاهد التلفزيون، الفيلم الذي يجعل العراقيين شعباً صنع تماثيل ونصّبها آلهة ثم انهال عليها سرقة وضرباً بالأحذية.

تذكّرتُ صديقي أبو العبّاس المقيم في بغداد. أين هو يا ترى؟ سيقتله الأميركيون إذا قبضوا عليه. سينتقمون منه وقد صار بلا مكان وبلا حماية. قلقت عليه. قلت لا شك سيبحثون عنه، وسيجدونه. سيقدّمونه كسلاح خطير، لا سيما أنهم يعرفون قبل غيرهم أن لا سلاح دمار شامل في العراق. هذه كذبة اخترعوها ليجتاحوا العراق، ليفتّتوه، ليجعلوه مسرحاً للفوضى وجاذباً لِمَن يريد أن يقاتل أميركا بدلاً من الذهاب بالطائرات إلى نيويورك. . . وليقسّموا المنطقة ويغدوا إلى جانب إيران وسوريا، تشديداً لحصار تسعى إليه إسرائيل.

قبضوا على أبو العبّاس. حزنتُ لمظهره وحيداً مقتاداً. شغلوا به وببعض قادة النظام الذين أمسكوا بهم الإعلام، يحتاجون إلى ضحايا بينما صدّام وأعوانه متوارون. المشهد الأفغاني يتكرّر. الملا عمر وأسامة بن لادن وأيمن الظواهري متخفّون بينما يُقبض على مَن هم أدنى، ويُساقون كأيتامٍ أُسقط في أيديهم.

اخترقت الاستخبارات الإسرائيلية عدداً من هواتف ناشطين في حركة حماس التي كثّفت، مطلع عام ٢٠٠٣، عملياتها في الخارج. واكتشفت الاستخبارات أن العديد من خلايا حماس تمتد وتتمركز داخل السجون، وأن عمليات نُسّقت في السجون وعبر تلك الخطوط. أُبدلت مديرة السجون، أوريت أداتو، بمدير جديد، يعقوب غانوت. وقد روِّج له في الإعلام باعتباره صاحب خبرة.

انتظرتُ بفارغ الصبر لأتعرّف إلى هذا «البطل». رغم ذلك نسيته وشُغلت بالمفاوضات غير المباشرة في شأن التبادل بين حزب الله والإسرائيليين. هدّد السيّد نصر الله في تموز/يوليو ٢٠٠٣، بأن المقاومة مستعدّة لأسر جنود إسرائيليين إضافيين لتحريك عجلة المفاوضات غير المباشرة. حسبت أن المفاوضات متوقّفة، أو متعثّرة، والسيّد بهذه الحركة يدفعها إلى الأمام.

لم أسأل المنسّق في التفاصيل، برغم اتصالاتنا المتواصلة. فالعادة بيننا أن يقول بشكل برقي ما لديه، وأنا أسأله باقتضاب وترميز قدر الإمكان ما لديّ.

سلّمت إسرائيل جثماني شهيدين إلى لبنان، كبادرة «حسن نيّة».

بعد أيام، أواسط أيلول/ سبتمبر، اتصل بي المنسّق وبشّرني بأن رمضان بدأ . . . ويقصد أن الوسيط الدولي تحرّك، بعد تهديد السيّد نصر الله، حاملاً مخاوف حكومة شارون وموافقتها على بند كل الأسرى اللبنانيين. وانتقل البحث إلى الأسرى الفلسطينيين والعرب. فالإسرائيليون، سياسيين وأمنيين وعسكريين ومواطنين، متيقّنون بأن السيّد نصر الله ينفّذ ما يقوله ولا يقول ما لا يقدر على تنفيذه. ولهذا يكرهونه بقدر ما يثقون بكلامه.

اطمأننت. لكني لم أفرط في ذلك لأن لا شيء ملموساً في أيدينا. ولم يوقّع بعد اتفاق المبادئ. ورحتُ أراقب الحركة السياسية الإسرائيلية. عرفتُ من الأخبار على القنوات الإسرائيلية أن شارون اجتمع إلى لجنة الخارجية في الكنيست، ولقيَتْ موافقته على إطلاق سراح الأسرى اللبنانيين معارضة. قلقت، ثم أقنعتُ نفسي بأنه لا يمكنه التراجع. بدأت الأرجوحة تلعب شمالاً ويميناً. ساعة طالعة وأخرى نازلة.

شاهدتُ تقريراً على القناة العاشرة الإسرائيلية أكّد أن الحكومة الإسرائيلية ستطلق الجميع، بما في ذلك الشيخ عبد الكريم عبيد وأبو علي الديراني، لكنها لن توافق على الإفراج عن قائد عملية نهاريا.

اتصل بي المنسّق وأطلعني أن المفاوضات نشطت. وأكّد أن لا صفقة من دوني.

سألته ما إذا كانت إسرائيل تصرّ على استثنائي. لم يخفِ صعوبة الموقف. بقيت قلقاً. فتصريحات السياسيين والأمنيين الإسرائيليين تجزم باستثنائي.

بدأتُ أشعر بحجم المسؤولية. التناقضات تزداد. تضارب المعلومات يوتّرني. من جهة أراحني أن المقاومة تصرّ على اسمي، ومن جهة أخرى، وقعت تحت شعور بأنني ربّما أعطّل المفاوضات وأؤخر حرية رفاقي. لكن هذه فرصتي الأخيرة، أقول وأنتظر.

اتصلتُ برفيقي السابق في الأسر، حلمي موسى. قلت هو في جريدة «السفير» خبير بالسياسة الإسرائيلية وعلاقاته قوية بحزب الله. عرضت عليه تناقضاتي ورجّحت تشدّد الحكومة الإسرائيلية وحرصها على استثنائي وعدم قدرة المقاومة

على فرض اسمي. وافقني الرأي، ورأى أن الإسرائيليين سيصرّون على ذلك وعلى تركي في السجن للتفاوض في شأن رون أراد.

أُحْبطت برغم وصولي قبل محادثة حلمي إلى هذا الاستنتاج القاسي الذي عليّ الشروع في الاستعداد له.

تجدّد الكلام في إسرائيل عن وفاة الجنود الثلاثة، واختلط مع تسخيف للعقيد تيننباوم، وراح الإعلام ينشر أخبار ديونه المصرفية المتراكمة بسبب تردّده على كازينو أريحا. وقِيل عنه إنه تاجر مخدرات وإن هذا ما أوصله إلى حزب الله وبيروت. حسبتُ أن هذه إشارة إلى أن الحكومة الإسرائيلية تسعى إلى إضعاف الموقف التفاوضي لحزب الله، وبالتالي استثنائي من الصفقة، إذ لا يُعقل أن تُبادل الأسرى اللبنانيين كافّة بجثث ثلاثة جنود، ومن دون رون أراد، أو معلومات موثّقة عنه. وقلت لو كانت الحكومة الإسرائيلية تريد الإفراج عنّي لما جعلت الحاخام الأكبر يؤكّد وفاة الجنود، وهذا من صلاحيّاته وحده.

لجأتُ إلى صديقي إبراهيم الأمين لأستوضح منه، فهو صحافي على اطلاع وصلته وثقى بالقرار في حزب الله. حادثته وأكّد لي أن قيادة حزب الله لن توقّع صفقة ليس فيها سمير القنطار.

— «أنا مقتنع معك بأن هذا قرار السيّد نصر الله وقيادة الحزب، لكن هل ينجحان في ذلك؟».

أخذ وقته ليجيب. هذه عادته أعرف، لكن الآن شعرتُ بأنه يدقّق في كل كلمة يقولها:

— «لا أنفي أن المفاوضات صعبة».

حسمَتْ هذه العبارة رأيي، أشعرتني ببداية العد العكسي لاستثنائي. فصعوبة المفاوضات تعني أن الإسرائيليين ما زالوا متشبّثين بقرارهم. وفوق هذا هي رمي للطابة إلى ملعبي.

رفاقي في الزنزانة يعبّرون لي صراحةً عن رفضهم أن تتم الصفقة من دوني. وكرّروا ذلك أمامي مرّات في اتصالاتنا مع المنسّق. يضاعف هذا من المسؤولية، ويرميني مجدّداً فريسة التناقضات.

أنشغل بأمور الأسرى، أخالطهم وتفكيري كلّه في حالتي. الأسئلة تتفاقم في رأسي. أيُعقَل أن أبقى هنا، أن تأسر المقاومة جندياً من أجلي وحدي؟ أأقبل تأخير إطلاق سراح رفاقي؟ أقول للمنسّق أن يقبل حزب الله الصفقة من دوني؟

أطلّ السيّد نصر الله، في إحدى خطبه الرمضانية، وقال بنبرةٍ عالية وصريحة إنه إذا كان سمير القنطار في القائمة فقد بات الآن في رأسها. ونصح الحكومة الإسرائيليّة بأن لا تستثنيني.

صدمني توقّف الإسرائيليين عند اسمي، بمقدار ما أراحني إعلان السيّد نصر الله تشبّثه بي. واندفع الشباب معي في الزنزانة إلى تأكيد تضامنهم معي وأن لا صفقة من دوني.

فهمت من المنسّق الذي اتصلتُ به أن قيادة الحزب ترجّح أن يكون الإسرائيليون متوقفين عند بند الأسرى اللبنانيين متذرّعين بأن قضيتي لدى القضاء ومحكوم بـ٥٤٢ سنة، لتعقيد البحث في أمر الأسرى الفلسطينيين والعرب. فالأردن تحديداً يعترض على تحرير الأسرى الأردنيين في عملية تبادل بين إسرائيل وحزب الله، إذ يبدو النظام متخلّياً عن مواطنيه، ويحرجه أن يتحرّروا على يد مقاومة.

جاءنا مدير السجون، يعقوب غانوت. من اللحظة الأولى لاجتماعنا به، أنا وتوفيق أبو نعيم وجهاد أبو غبن، بدأ استعراض عضلاته:

— «أنا لستُ أوريت أوديتو. ولا تهمّني الفوارق العقائدية بين الأسرى، ولا التنظيمات. أريد إرساء النظام في السجون والتزام الجميع به. وأرفض أيّ احتجاج أو حوار تتجاوزون فيه حدودكم كسجناء».

رددتُ عليه:

— «لا تعرف الاختلافات العقائدية والتنظيمية هذا شأنك، ما يعنينا هو أن سياسة العصا لا تمشي معنا. نحن أسرى لدينا حقوق ولا يمكن أن نتنازل عنها».

لم ترقه لهجتي الصارمة. توتّر، أو أحسّ أن مهمّته صعبة وأننا نقف في وجهه ونعارض.

لاحظتُ أنه بدأ يسرع في إملاءاته. واسترسل مستعرضاً تاريخه كلواء في الشرطة، واستعاد بشكل مفتعل مشاركته في مواجهة «الإرهابيين» في نهاريا. تركته يحكي رافضاً أن أنجرّ معه إلى مواجهة شخصية تؤثر في الاجتماع وبالتالي في أمور السجن. كرّرتُ عليه أن التشدّد وتجاهلنا اعتمدا في السابق ولم يأتيا بنتيجة. ذكّرته بميمون وسياسته التي أوصلته إلى إقالته وإبعاده إلى بيته.

لان وأكّد أن لا حقَّ من حقوقنا سيُنزع.

قلتُ له وعيناي ثابتتان عليه:

— «هذا أفضل. تكون واهماً إذا حسبتَ أن فرض القانون يتم بالقوّة».

وارتحتُ في مقعدي موحياً أنني قلت ما لديّ، وأنه القاعدة التي ستُطبّق.

لم تخفِ حركة يديه وهو يعلن انتهاء الاجتماع توتّره. صوته أيضاً ارتجف مرتبكاً بالغضب.

تحرّك في مقعده كأنه يماثل حركتي. شعرتُ بأنه سيقول لي كلاماً انتقاميّاً. ركّز نظره عليّ:

— «اتخذت الحكومة قرارها بعدم إطلاق سراحك».

عاجلته كي لا يتمادى في محاولته إرباكي والتأثير عليّ نفسيّاً:

— «هذا الموضوع ليس من أولوياتي. وما دمت سأبقى هنا، فاهتمامي هو تنظيم أوضاع السجن وتحصيل حقوقي كي أعيش مرتاحاً».

فوجئ. قلت حان وقت سؤاله عن مشاركته في نهاريا:

— «أين كنتَ، ماذا فعلت ضد الفدائيين في نهاريا؟».

— «كنت أوّل الواصلين إلى المعركة».

— «كنتَ آنذاك في حرس الحدود؟».

— «نعم».

— «وصلتَ مع رفيقيك في سيارة جيب؟».

بدأت ملامح الصدمة ترتسم عليه. تغيَّر لون وجهه.

نظرتُ إلى مدير السجن وتوفيق وجهاد كأنّني أدعوهم إلى سماع السؤال والجواب التاليين:

— «أنتم الذين قفزتم من سيارة الجيب وهربتم إلى الغابة!».

سكت. انهارت في داخله كذبة كبيرة. لم يكن يعرف أنني مَن ركض في اتجاههم آنذاك. لعلّه كان يراهن أنَّ مَن فعل ذلك هو أحد رفيقيّ الشهيدين أو أحمد الأبرص الذي بات بعيداً بعدما أُفرج عنه في تبادل ١٩٨٥.

لم يستطع إخفاء ارتباكه ومأساته من انكشاف أمره أمام مرؤوسه، مدير السجن، ولا أمامي أنا الذي يحاول فرض شروط سجن عليه. كرهني أكثر. رأيت هذا في عينيه المرتجفتين.

صدمني بسّام بخبر صدور بيان، في بعض الصحف اللبنانية والعربية، موقّع باسم أُسر الأسرى اللبنانيين في السجون الإسرائيلية، ويطالب حزب الله والسيّد نصر الله بإنجاز الصفقة حتى ولو من دون سمير القنطار، السعيد في سجنه ويتابع دراسته.

نظرتُ إلى الشباب غير مصدّق. نفيتُ مباشرة أن تكون أسرهم، أو هم، مَن فعل ذلك. وافقني بسّام في ذلك:

— «لا يمكن أن يفعلوا ذلك، وحزب الله فوجئ بالبيان».

— «هذه حركة إسرائيلية للضغط على الأُسر وتحريضها والادعاء بأن الصفقة ماشية والعقدة الوحيدة فيها هي سمير القنطار»، قلت وقد سمع الشباب في الزنزانة ما أقوله.

سألني الشباب، بعد الاتصال، عمّا كنت أتكلّم. أخبرتهم. صُدموا وجزموا بأنهم أبرياء ممّا يُنسب إليهم. كرّرت تصديقي لهم وتأكيدي أنني لا أقبل أن أكون حجر عثرة في طريق الصفقة وحريتهم. رفضوا هذا الكلام الذي اعتبروا أن السيّد وحزب الله لا يقبلان به.

طوال الوقت وأنا في الزنزانة أتابع الشباب كأني أشاهد فيلماً. أراهم صامتين حزينين. يتحرّكون بنحو عادي لكن عقولهم ونفسياتهم هامدة، كأن هناك فصلاً شاسعاً بين أجسادهم وأرواحهم. يفرشون سجادات الصلاة ويقفون فوقها، أفكر أنهم في هذه الأثناء يكونون أكثر شفافية. لا أتّهمهم بغير ما يضمرون وهم لم ينفوا رغبتهم في الحرية، لكنني أنظر إليهم لأنفذ إلى حقيقة موقفهم وعمقه. أقرأ في ملامحهم واحداً واحداً. أجدهم متعبين مناجين. يحضرني وجه السيّد حسن وتلفّني

الثقة وأرى الصدق والصراحة. أشعر بأنني في الفراغ، وبأن طمأنينتي قد باتت أسيرة شوقي إلى الحرية. أسأل عمّا إذا كنت لا أزال نفسي مَن صمد في التحقيق وتحدّى السجّان وعاش في السجن مناضلاً. وأفكّر في ما إذا كانت الرغبة في الحرية تتناقض مع ذلك. وأكرّر السؤال: أهو عيبٌ أن أحلم بالحريّة؟ فأنا لم أسعَ إليها بأيّ ثمن، لم أقبلها مشروطة بإعلان ندمي ونقدي للمقاومة ولا فعلت. أريد حريّتي وأنا مقاوم وبفعل المقاومة وإرادة المقاومين. وأنا ما زلتُ أنا، قلت براحةٍ كاملة. ما زلتُ الشخص الذي علّمه الأسر والحياة في السجن الدفاع عن نفسه ومبادئه بالفعل ولم يكترث لتعلّم لغة الشرح والتبرير والتعبير المستفيض.

وازنني هذا الكلام. أوصلني إلى الاستعداد لقبول الحريّة أو البقاء حرّاً في السجن.

بهدوء، سمعت من المنسّق عبر الهاتف أن مفاجأةً سارّة حصلت في عقدتي بالمفاوضات غير المباشرة. قلت في نفسي إذا جاءتني الحريّة الآن، في صفقة التبادل هذه، آخذها، وإذا لم تأتِ ولم يكن حظّي وقدَري أن أخرج الآن فلن أيأس.

قال المنسّق:

— «تعهّد الإسرائيليون بإيجاد حل إبداعي ومعالجة قضيتك قضائياً تمهيداً لإطلاق سراحك».

استوقفتني كلمة تعهّد. فكّرت أنها تعني أن لا شيء الآن، ولمستُ في حماسة المنسّق تمهيداً لتأجيل أو لاستثنائي بشكل تضمن فيه المقاومة استمرار المفاوضات في شأني بعد إطلاق سراح الأسرى الآخرين. وتضمن الحكومة الإسرائيلية بقاء ملف رون أراد مفتوحاً، وتخفّف عن نفسها ضغط الرأي العام.

تيقّنتُ من هذا عندما قال المنسّق:

— «في المقابل تتعهّد المقاومة تقديم المعلومات التي يمكنها الحصول عليها عن رون أراد».

هنا، توقّفت المفاوضات بالنسبة إليّ. حزنٌ عميقٌ قبض على قلبي. حافظتُ على نفسي في هذه النقطة من الاستعداد النفسي: حزين وغاضب لكني لست متهافتاً.

قلت للمنسّق:

— «بلّغ تحياتي إلى سماحة السيّد. امشوا في القضية. وفّقكم الله في ما توصّلتم إليه».

ردّ بصوتٍ يخفي الأسى وواثق في آن واحد:
— «تأكّد أن سماحة السيّد والمقاومة لن يهملا قضيتك، وقريباً تكون بيننا».

مشت الصفقة إلى خواتيمها. اجتمعت الحكومة الإسرائيليّة وصوّت ١٢ وزيراً منها مع صفقة التبادل من دوني، مقابل ١١ ضدّها. رُبط مصير حريّتي بالطيّار الإسرائيلي المفقود رون أراد. بقدر ما أزعجني ذلك رأيت فيه كسراً للتعنّت الإسرائيلي الذي أصر كل هذه السنين على استبعادي من أي عمليّة تبادل. قلت طوت الحكومة في شأني صفحة القضاء وقصة اتهامي بقتل البنت. ما عاد الكلام في ذلك يفيدهم.

البسمة على وجهي لا تخفي حزني، لم أردْ ذلك. لم أقبل أن أكون كاذباً أمام نفسي وأمام الشباب. وهم كانوا حزينين بمقداري. ابتسامتي دعوة ليفرحوا، ابتسامتي لهم، لحريّتهم، وحزني لي. لم يصدّقوا، لم يقبلوا أن يصدّقوا أنهم سيخرجون من دوني. نهضوا معاً ليتّصلوا بالمنسّق ويطلبوا إليه نقل رفضهم إتمام الصفقة بلا سمير القنطار. رجوتهم ألاّ يفعلوا.

نظروا إليّ وكأنهم يكذّبون ما يسمعونه.

صرختُ للحارس كي يفتح الباب وأخرج إلى الممر. قلتُ اتركهم يجدون طريقاً إلى الفرحة. ومن يومها، صرتُ لا أمضي وقتاً طويلاً معهم. شغلت نفسي بأمور الأسرى.

الوقت يمرّ، هم في عدّ عكسي نحو الإفراج والعودة إلى لبنان وبيوتهم وأُسرهم، وأنا نحو تجديد إقامتي.

مساء ٢٤/ ١/ ٢٠٠٤، اتصلت بي أسرتي لحظة خروجها من اللقاء مع نائب الأمين العام لحزب الله، الشيخ نعيم قاسم. كانت غير مصدّقة أن العمليّة ستتم من دوني. فوجئت أختي سميرة بأنني أقابل الغضب الذي تعبّر عنه هي وأمي وإخوتي بالدعوة إلى التروّي. غضبت منّي، سألتني:

- «أنت سعيد في السجن ولا تريد الخروج والعودة إلينا؟».

ضحكت:

- «اهدأوا الآن، لا أريد مشاكل، الجماعة عملوا لإخراجي من هنا، ولم يستطيعوا، وتعهّدوا بمتابعة الجهود».

شاهدنا، هم في بيتنا في عبيه، وأنا في زنزانتي، على التلفزيون، إعلان الوسيط الألماني إرنست أورلاو، من برلين، إتمام الصفقة ومضمونها.

اتصل بي المنسّق بيني وبين السيّد حسن نصر الله:

- «عدم خروجك يُستغل هنا بطريقة سيئة. يُقال إن حزب الله لم يحرّرك لأنّك درزي».

قاطعته. سألته إذا ما كان معه قلم وورقة. أحضرهما. دعوته للكتابة:

«سماحة الأمين العام لحزب الله السيّد حسن نصر الله

نبارك للمقاومة ولشعبنا ولأمتنا هذا الإنجاز الوطني الإنساني الكبير، ونبارك لعائلات إخواني الأسرى الذين سيطلق سراحهم خلال الساعات المعدودة وأحيّي وقفتهم الكبيرة إلى جانب قضيتي خلال الأسابيع التي مضت. كما أحيّي موقفكم الواضح والصادق وأعبّر عن ثقتي الكبيرة بشخص سماحتكم ومقاومتنا الباسلة، وأنا على ثقة بأنكم ستكونون كما عوّدتمونا أوفياء لعهدكم، لك كل تقديري واحترامي وأعاهدك أن أبقى صامداً مرفوع الرأس أقوم بواجبي تجاه شعبي وقضيتي مهما طال الزمن».

وطلبت إلى المنسّق اعتبار هذه الرسالة بياناً يقرّر السيّد حسن موعد نشره في الإعلام.

أقل من نصف ساعة وكان البيان خبراً عاجلاً على شاشة «المنار» وإذاعة «النور».

طلبت الإدارة إلى رفاقي، مصطفى حمّود وفادي الجزّار وعلي بلحص ويوسف وزنه وحسن عنقوني وجواد قصفي، أن يستعدّوا. تمنّيتُ أن يسرع الزمن. مرحلة وأريد أن تمضي وتنتهي. أجالسهم، نتحدّث، وبعد كل عبارة ينطقون بها، ترتسم ملامح الحزن على وجوههم، ويكرّرون لي حزنهم لبقائي، وأنا أؤكد فرحتي لحريّتهم. صارت وجوهنا نقيض بعضها، وكلماتنا أيضاً.

شاهدنا معاً المؤتمر الصحافي للسيّد نصر الله. حين أكّد التزام المقاومة قضية تحريري، نظروا إليّ كأن ليطمئنوني.

قلت لهم:

— «لستُ خائفاً. أنا واثق من ذلك».

احتضنوني وبكوا. لا يمكنني أن أبكي. لا أشعر بأنني سأبكي أو أريد البكاء.

أرغب في أن يخرجوا، في أن يبتعدوا، لأفتح صفحةً جديدة وحدي.

صباح الثلاثاء ٢٧/ ١/ ٢٠٠٤ غادروا، إلى سجن آخر وسط البلاد.

المفاجأة، بعد دقائق، حصلت عندما أطل مراسل القناة الثانية للشؤون العربيّة، إيهود يعري، وأعلن أن رسالتي إلى السيّد نصر الله هذه أحبطت المسعى الإسرائيلي لتأليب الدروز والرأي العام في لبنان على حزب الله.

عاد بي الزمن خمساً وعشرين سنة، حين كنتُ في ذاك الزورق نبحر إلى نهاريا. ثم تدرّجت الأحداث، توالت، تسارعت كأنها شريط فيديو يُقدّم بسرعة، حتى وصل إلى لحظتي الراهنة: صبيحة ٢٩/ ١/ ٢٠٠٤. الأسرى اللبنانيّون الثلاثة والعشرون، ومنهم أنور ياسين والشيخ عبد الكريم عبيد وأبو علي الديراني، في الطائرة من تل أبيب إلى برلين ومن هناك إلى بيروت. العقيد الإسرائيلي تيننباوم والجنود الثلاثة، إدي أبيتان وأبراهام بنيامين وعمر سواعد، جثث في نعوش تُنقل إلى تل أبيب. الوسيط الألماني المكلف من الأمين العام للأمم المتحدة إرنست أورلاو يعود اليوم إلى برلين. أنا في سجن نفحة، في الممر، خلف طاولة صغيرة أقرأ طلبات الأسرى، وأستعدّ ليسألني أحد السجّانين:

— «سمير، ما زلتَ هنا؟».

لأرّد عليه:

— «مَن قال لك إنني مستعجل! سأخرج. سأخرج».

مساءً، شاهدت السيّد نصر الله يقف بجانب صورة كبيرة لي، يقول: أخطأ الإسرائيليّون باحتفاظهم بالأخ سمير القنطار، وسيندمون.

هيهات منّا الذلّة

وصلت إلينا في سجن نفحة كبسولة من سجن هداريم. تسلّمها توفيق أبو نعيم. اجتمعنا في اللجنة الوطنيّة، توفيق وأنا وعبد الرحمن شهاب وجهاد أبو غَبن بعدما بات لحركة فتح، مجدّداً، أسرى في سجننا. فتحنا الكبسولة وقرأنا الرسالة التي تحتويها. يخبرنا فيها رفاقنا الأسرى أن إدارة سجنهم تضيّق الخناق عليهم، وأن المدير الجديد لمديرية السجون، يعقوب غانوت، أنشأ وحدة عسكريّة خاصّة صلاحياتها في السجون كلّها، أطلق عليها اسم ميتسادا، أي — بحسب الرواية الإسرائيلية — القلعة التي تحصّن بها اليهود في النقب أيّام الحكم الروماني وقاتلوا حتى آخر واحد فيهم. مهمّة هذه الوحدة التفتيش والتدخّل، وقد باشرت عملها في هداريم. اقتحم عناصرها المقنّعون المسلّحون ببنادق ورصاص حارق الأقسام، وانتشروا بحركة عسكرية الغاية منها الفصل بين الأسرى وتركيعهم وتقييدهم، ثم فتشوا الزنازين وحطّموا ما فيها.

تساءلنا عمّا يريده غانوت، الذي فرضَ أن لا تتجاوز مدّة النزهة في الباحة الساعة، وكنّا نحن نمدّدها بالتوافق مع الإدارة، حسب الظروف. وهو يسعى إلى منع التجوال داخل الأقسام، لا سيما لممثلي الأسرى.

توقّعنا المزيد من الضغوط.

قلت:

— «دائماً مدير السجون مرآة الحكومة. هذا غانوت الذي يُروَّج له كبطل بينما هو مجرّد متطرّف جبان، جاء به شارون لمصادرة الهواتف وإنهاء هذه الظاهرة التي باتت تشكّل خطراً عليهم».

ردّ توفيق بالربط بين تشدّد غانوت وما يجري على الساحة الفلسطينية من حرب وحصار وفرض الإقامة الجبرية على رئيس السلطة ياسر عرفات في مقرّه برام الله.

فوجئ الأسرى والأهالي، في يوم الزيارات، بتركيب زجاج بجانب الشبك الفاصل بين جهتي قاعة الزيارة. وبات مفروضاً على الأسرى وأهلهم التحدّث عبر الهواتف المقابلة بعضها لبعض. انسحب أسرى وأُسرهم رافضين ذلك، وآخرون كرهوا التواصل بهذه الطريقة التي أشعرتهم بالبعد عن أفراد أسرهم رغم أنهم يرونهم عبر الزجاج وهم يتناوبون على الهواتف واحداً واحداً.

قلت:

— «يرمي غانوت صخوره في المياه الراكدة».

أُعلنت، في ٨/ ٣/ ٢٠٠٤، وفاة أبو العبّاس في سجن أميركي في مطار بغداد. قتلوه. جزمت. كرهتُ أسري. كرهتُ تشرّد المقاومين وارتهانهم لأنظمة لا تقاتل العدو ولا تترك غيرها يقاتل.

أحسست أنَّ حقبةً من الثورة الفلسطينيّة انتهت، وأنَّ صفحة من عمري طويت. لم يكن أبو العبّاس من يترك تلك الصفحة مفتوحةً، فأنا منذ زمن في ضفّة سياسيّة وهو على الأخرى، لكنَّ موته أكّد ما هو مؤكّد: أنّني واحد من أيتام ثورة انتهى شكل من أشكالها، وزمن من أزمانها.

تخيّلت أبو العبّاس يقول لي: لم أختر اللجوء إلى بغداد، لكنّني لم أستطع العودة إلى فلسطين.

أحجمت عن رفض هذا التبرير. فكّرت أنه مات وما عاد من مبرّر للعتب والنقد.

دمعةٌ قديمة تتسلّل من عيني إلى خدّي. كأن الشاب، أنا، ابن السادسة عشرة الذي حلم مع أبو العبّاس بتحرير فلسطين، يبكي، بينما أنا الآن حزين على العراق.

اتصل بي شقيقي بسّام، كما اتفقنا، أثناء قيامه بواجب العزاء كي أتوجّه بالتعزية مباشرة إلى زوجة أبو العبّاس. فوجئت بوجود رفيقي القديم، منذر الكسّار، في بيروت آتياً من إسبانيا للمهمّة نفسها. تحدّثنا عن حياتي وحياته وأعماله التجاريّة وتبادلنا رقمي هاتفينا بعدما اتفقنا على تجديد التواصل. وأعطيته رقم الشيخ عدنان للاتصال به إذا كُشف أمر هاتفي. سألني أيّ مساعدة أطلبها منه، شكرته.

أعادني منذر إلى أيّامنا في بيروت. مجموعة من جيل حالم بتحرير فلسطين

وتغيير العالم. انتهى هذا كلّه الآن، من استُشهد والأحياء كلٌّ في بلد. فكّرت في من أحبِطوا وعادوا إلى بيوتهم، ومن بات منهم في موقع مناقض، نسي كل أفكاره السابقة.

شاهدنا على التلفزيون تقريراً دعائيّاً لوحدة ميتسادا. قلت إن المعركة بدأت. قلقت على هاتفي. وأعتقد أن كل مَن لديه هاتف توجّس مثلي. تداعينا إلى اجتماع عاجل للجنة الوطنية. قررنا مواجهة الوحدة إذا اقتحمت السجن، ونظّمنا نوبات حراسة في الزنازين ومراقبة الممرّات لكي يُعلِم مَن يرى الجنود يقتحمون السجن الآخرين.

المسألة تحتاج إلى دقّة. فكّرت في هذا، وفي أن الزنازين مملوءة بالهواتف ومعظم الأسرى من الجدد الذين لا يمكن الرهان عليهم في خوض مواجهة رابحة. تذكّرت مدير السجن شفيلي، الذي يحاول أن ينجح في مهمّته ويُبقي السجن هادئاً، ولتحقيق ذلك كان يسعى للحصول على رضانا. حسبت أنه إذا اقتحمت ميتسادا السجن ووقعت المواجهة فليس ضرورياً حرق ورقة شفيلي وجعله مع ميتسادا وغانوت في موقع واحد. اقترحت، في اجتماع اللجنة الوطنية، أن نتوجّه إليه برسالة نرفض فيها اقتحام ميتسادا السجن وتفتيش الزنازين. قلت:

— في هذه الحال، إذا استطاع شفيلي إقناع غانوت بإبعاد ميتسادا عن سجننا، كان به، وإذا لم ينجح فسيقول لنا لا علاقة لي بالأمر، وهكذا يحيّد نفسه. وأوّلاً وأخيراً، ميتسادا تأتي مرّة بينما شفيلي ونحن هنا دائماً.

وافق توفيق وعبد الرحمن وجهاد.

صغتُ الرسالة وبرّرتُ فيها رفضنا ميتسادا بأنها تنتهك حرمة الأسرى وتهينهم وتوتّر الأجواء في السجن.

سلّمت الرسالة لضابط قسمي، الذي نقلها إلى المدير، شفيلي، فدعانا أنا وتوفيق إلى اجتماع. استقبلنا كعادته بابتسامة، كأنه لا ينسى مفاجأتي له، قبل مدّة، بأنني أعرف قسوته على الأسرى، حين كان مسؤولاً للأمن في قسم العزل بسجن الرملة. وراح يبرّر أمامي أنه كان مأموراً وأنه ليس قاسياً. وقد أجبته أن الأيام بيننا وعليه إثبات صدق ما يدّعيه. ومذّاك لا يخطئ معنا، لطيف ويلتزم بوعوده.

وبالتأكيد يتذكّر ما جرى مع تشاشا شفيلي وآلبرت أبو حصيرة ويخاف على بطنه المنتفخ وسط قامته القصيرة.

حاول التقليل من مخاطر ميتسادا:

– «تأتي إلى هنا مرّة واحدة كل ثلاثة أو أربعة أشهر، فلنغضّ النظر عنها».

– «لا نقدر على ذلك»، قال توفيق.

أجابه شفيلي بلطف مَن يحتاج إلى إقناع محاوره:

– «لماذا؟ فلندعهم يدخلون ثم سيعودون إلى حيث أتوا».

رددت:

– «إذا سمحنا لميتسادا بالتفتيش بطريقتها نكون قد وافقنا على انتهاك كرامة الأسرى، ولا حقّ أخلاقيّاً وتنظيميّاً لنا في اتخاذ قرار كهذا».

سألنا:

– «على ماذا تعترضون؟»

– «على الهدف من ميتسادا، وهو إذلال الأسرى وإلاّ فلتأتِ نهاراً وتفتّش».

قلت هذا وقد اتّفقنا في اللجنة عليه للإيحاء بأننا نقبل بتفتيش هادئ من دون اقتحام وتركيع وتقييد وتحطيم للأشياء. وفي قرارة موقفنا هذا نخفي حقيقة أن غالبية الأسرى يستعملون الهواتف ليلاً، ونخاف الدهم في هذه الأثناء.

رفع يديه في الهواء وأعلن أن القرار في شأن ميتسادا ليس من صلاحيّاته.

فجر ٢٢/٣/٢٠٠٤، اغتالت إسرائيل مؤسّس حركة حماس، الشيخ أحمد ياسين. وقفنا جميعنا في مواجهة التلفزيونات نتابع النقل المباشر من غزّة. عددٌ كبيرٌ من الأسرى، في سجننا، من حماس. الغضب الوجه الآخر للحزن. ضربةٌ قاسية، على الرأس، كما قال عدد منهم. فالشيخ ياسين هو من أجرى التحوّل في وعي أجيال من الفلسطينيين، لا سيما ممن يخوضون اليوم المعركة في السجون وفي الخارج. كان بمثابة أبٍ لهؤلاء. وهو قريب منهم. صلّوا معه، واستمعوا إلى أفكاره وأقواله، وشارك مع عدد منهم أعمالاً وأسراراً. وكانوا يتسارعون للتحلّق حوله وحتّى لخدمته شخصيّاً. شخصيّته وتواضعه وإحساس كثيرين أنّه يتفوّق على نفسه

وعلى إعاقته من أجل فلسطين وقضيّتها، أسباب جعلته محوراً يجذبهم إليه. لطالما احترمته، حتّى حين كنت بعيداً من الأفكار الإسلاميّة السياسيّة والدينيّة.

رويت لتوفيق أبو نعيم حين كان الشيخ معنا، هنا في نفحة عام ١٩٨٥، وكيف جالسته وتناقشنا في السياسة والثورة الفلسطينيّة والاحتلال. صوته أكثر ما يبقى في الذاكرة. وحين تحدّثه لا تشعر بأنّه يفرض سلطة خارج العقل. حزنت عليه وفكّرت كم أن الشعب والقضيّة الفلسطينيين بحاجة إليه.

نُظِّمت في السجن مجالس للعزاء واحتفال في الباحة. وأكّدت في رسالة إلى حركة حماس أنّنا معاً.

بعد أيام، جاءني شفيلي، ودعاني للحديث جانباً:

— «الأوامر واضحة ولا يمكنني أن أقف في وجهها. يجب أن تسمحوا لميتسادا بالتفتيش بدون مشاكل».

كرّرت عليه موقفنا.

— «فكّروا في الموضوع»، قال راجياً.

فكّرت أن ميتسادا آتية لا محالة وقريباً، وشفيلي يريد النأي بنفسه كي لا يتضرّر.

«ممتاز، هذا ما نريده». قلت لنفسي.

أكّدنا على موجّهي الزنازين الالتزام بالحراسة والمواجهة. برغم ذلك يزداد قلقي من المواجهة وما إذا كنّا قادرين عليها.

بعد أقل من شهر، في ١٧ آذار/مارس، على اغتيال الشيخ أحمد ياسين، اغتالت إسرائيل عبد العزيز الرنتيسي، أحد مؤسّسي حماس وقائدها في غزّة. خرجت إلى الممر. الشعور السائد بين الأسرى هو أنَّ ثمّة تصعيداً خطيراً وإصراراً على توجيه ضربة قاسية إلى حماس، بل إلى المتشدّدين فيها رغم أنَّ الفروق بسيطة بين قادتها.

قلّلتُ من استعمال هاتفي تحسّباً لدهم ميتسادا. ومع كل اتصال أشعر بأنّه الأخير. قلت للمنسّق ولأسرتي ذلك، واتصلت بجبر واتّفقتُ معه على أنه إذا توقّفت عن الاتصال به، فهذا يعني أن ميتسادا اكتشفت أمر الهاتف، وعندها لا

وسيلة اتصال بيننا إلاّ عبر المحامين ورفاقي الأسرى وأسرهم التي تأتي لزيارتهم بعد أن تُجدّد الزيارات المقطوعة احتجاجاً على الزجاج العازل.

ليلاً، أيقظني وليد دقة.

— «قم، جاءت ميتسادا».

اقتربتُ من الباب ونصفه الأعلى شبك، رأيت عناصرها يخرجون الأسرى من زنزانتين مجاورتين. استغربت استسلام الأسرى. هذا ما كنت خائفاً منه: الأسرى الجدد. فجأةً، علا الصراخ من قسم مجاور. قلت بدأت المواجهة. ترك جنود ميتسادا الأسرى في قسمنا وهرعوا إلى القسم الآخر. انسحب بعض أسرى الزنزانتين المجاورتين خجلاً عندما رأوني أنا وأسرى الزنازين الأخرى. لم أوجّه إليهم أيّ كلمة.

علمنا أن الضجيج بسبب أسر رفاقنا في إحدى زنازين القسم الآخر ضابطاً من طاقم السجن يرافق ميتسادا في جولتها. تركوه حتى دخل زنزانتهم وأقفلوا الباب خلفه وانهالوا عليه بالضرب. وعندما خلعوا القناع عن رأسه عرفوه، من أقسى الضباط وأخبثهم في طاقم السجن. فجدّدوا ضربهم له حتى أُنهك وما عاد قادراً على الوقوف.

طالبت القوة المقتحمة الأسرى بإطلاق سراح الضابط. اشترط الأسرى لحصول ذلك انسحاب القوة من القسم والتعهّد بعدم التعرّض لهم. وافقت الوحدة، وأُفرج عن الضابط. وما إن تسلّمته حتّى باشرت رمي قنابل الغاز وإطلاق الرصاص الحارق على الأسرى في زنازين ذاك القسم وخصوصاً أسرى الزنزانة التي خُطف فيها الضابط. وعاد الجنود إلى قسمنا وبدأوا رمي قنابل الغاز في الممرّات، فتتسلّل إلى الزنازين من فتحات الأبواب. ثم اقتحموا الزنزانتين اللتين كانوا قبل المواجهة قد همّوا بدخولهما. خافوا من الاقتراب من الزنازين الأخرى، إذ رأونا نخبط على الأبواب مستعدّين للمواجهة. اقتادوا عدداً من الأسرى وهم ينهالون عليهم رفساً وضرباً، وأبعدوهم عن الأقسام. أخذوهم إلى زنازين العزل.

انسحبت ميتسادا من الأقسام.

تردّد أن مدير السجون، غانوت، في السجن، وربما رافق وحدته منذ وصولها.

بعد ساعات، نهاراً، دعانا مدير السجن إلى اجتماع.

رحنا أنا وتوفيق متّفقين على أن المواجهة، برغم الإفراج عن الضابط، كانت لمصلحتنا، وأن مفاوضتهم لنا تعني أنهم لا يريدون التصعيد كي لا تنكسر هيبة ميتسادا.

— «علينا أن نتشبّث بموقفنا وإلاّ فسيعتبرون أننا ضعفنا وسيطلبون المزيد»، همستُ لتوفيق قبيل دخولنا مكتب المدير.

طلب مدير السجن وقف ردّة فعلنا.

— «ما حصل لن يمرّ وكأن شيئاً لم يكن»، قلت.

— «لو لم تحتجزوا ضابطاً لحصل التفتيش بهدوء».

— «هذا اقتحام وليس تفتيشاً. لماذا السلاح والرصاص الحارق وقنابل الغاز؟».

— «استُعملت بعد خطفكم الضابط، وهو الآن في حالٍ مزرية».

— «لماذا أتوا أساساً مدجّجين بأسلحة مملوءة بالرصاص الحارق، ولماذا بدأوا التفتيش بضرب الأسرى وإخراجهم مكبّلين من الزنازين؟».

نقل المدير إلينا تهديد مدير السجون بسحب الأدوات الكهربائية وأشياء أخرى. شعرت بأنّ غانوت يقوم بهذه الحركة لكي نخاف على الأشياء فنضعف ونتراجع، وإذا رفضنا يأمر وحدته بالاقتحام وتحصل المواجهة.

— «خذها، لا نريدها». قلت مراهناً على نجاعة هذا الخيار الذي اعتُمد في نفحة عام ١٩٨٥، بينما رفاقنا في عسقلان رفضوا تسليم الأدوات الكهربائية فاقتُحِمت الزنازين وانتهت المواجهة بانكسار الأسرى. ولم تتعافَ الحركة الأسيرة من الضربة إلاّ بعد مدة طويلة.

انتهى لقاؤنا والمدير. عدنا إلى الزنازين نتفقّد الجرحى وندعو إلى البقاء مستعدّين لأيّ طارئ. لم نؤجّج المشاعر كي لا يرتفع السقف أكثر ممّا تستوعب اللحظة. وشدّدنا على أنه في حال أي مواجهة، كما حصل أمس، يُترك أمر التفاوض للجنة الوطنية.

صادرت الإدارة، لا ميتسادا، الأدوات الكهربائية وممتلكات أخرى يحضرها لنا الأهل. وأصدر غانوت أمراً بإعلان حال الطوارئ وعدم زيادة دقيقة واحدة على ساعة النزهة في الباحة لكل قسم.

غادر غانوت وميتسادا.

الشعور بالفوز بهذه الجولة فتح الباب للمزايدات على الأسرى الذين لم يواجهوا حين اقتُحِمَت زنازينهم.

شارك في هذه المزايدات أسرى واجهوا وآخرون لم تقترب ميتسادا من زنازينهم. نشطنا لكبح هذا كي لا نجرح مشاعر مَن لم يواجهوا فيُعزلوا، وبالتالي يحصل انقسام وتضعضع في قوّتنا. وحجّة المزايدين أن مَن يتخاذل يجب أن يُعاقب. ونحن، لا سيما أعضاء اللجنة الوطنية، نردّ أن ٧٥ في المئة من الأسرى جدد غير مدرّبين على المواجهات وقواعدها وتقنيّاتها. ومعاقبتهم وسط حال الطوارئ لا تضمن إلاّ خسارتهم، وربما يؤثر ذلك في آخرين.

عرفت الإدارة بقرار الاستنفار للمواجهة، من خلال عملائها. كشف المدير ذلك أثناء اجتماع دعانا إليه أنا وتوفيق. قال:

— «ها هي جولة ميتسادا انتهت ولا حاجة إلى الحراسات وقرار المواجهة».

— «هل تضمن لنا أنها لن تعود غداً أو بعده؟».

— «لا أتعهّد بذلك، لكن لا مبرّر لأجواء الحرب، وحين تأتي ميتسادا، فلتفتّش ولتعد إلى حيث أتت».

بقي الجو هادئاً بيننا وبينه.

خرجنا من مكتبه إلى المخزن لنعقد اجتماعاً للجنة الوطنية، حيث كان ينتظرنا عبد الرحمن شهاب وجهاد أبو غبن. أطلعناهما على ما جرى في الاجتماع مع المدير. مثلنا، لم يُصدما. انتقلنا مباشرة إلى الإجراءات التي علينا اتخاذها. اتّفقنا على أن نجعل قرار المواجهة غير ملزم، أوّلاً كي نربك الإدارة والعملاء وميتسادا حين تأتي، وثانياً كي لا يؤثر عدم مواجهة زنزانة على الآخرين، وثالثاً كي لا نفسح المجال للمزايدات، ورابعاً لأن المواجهة ليست هدفاً في ذاته. ففي المرّة الماضية كان هدفنا مقاومة ميتسادا لكسر هيبتها، وبالتزامن توحيد صفوفنا لمواجهة الإجراءات المتشدّدة لغانوت وحماية استقرارنا وهواتفنا.

— «ونحن نعمل مع أعضاء تنظيماتنا والثقات لرفع المعنويات والتدريب كي يؤثّروا على الآخرين»، قال عبد الرحمن.

عاجله جهاد:

— «هذا أفضل من حرب المزايدات».

شعرتُ وأنا أسمعه بأنَّ خلفيّة كلامه هي أن غالبية الأسرى الجدد غير المؤهّلين للمواجهة، وربما غير مستعدّين لها، هم من أعضاء تنظيمه.

قلت:

— «هكذا، بدلاً من أن يتلهّى المتحمّسون للمواجهة بالمزايدات، يعملون مع الآخرين لتوحيد قدراتنا».

أصدرنا بياناً في ذلك.

نقلوا جهاد أبو غبن إلى سجن هداريم.

اتصل بي إبراهيم الأمين:

— «صديقي، أُعدُّ فيلماً وثائقيّاً عن عملية التبادل وأريد إجراء حوار معك».

— «أنا موافق، لكني لا أريد كشف هاتفي».

— «لا أبثّ الفيلم إلاّ حين تسمح ظروفك. وإذا اضطُررنا إلى عرضه وظروفك لا تسمح نغيّر شكل مساهمتك، نجعلها نقلاً عنك لا بصوتك».

اتّفقنا وسجّلنا أكثر من نصف ساعة عن كيفيّة متابعتي المفاوضات منذ لحظة أسر الجنود الثلاثة ثم العقيد تيننباوم. وسألني عما إن كنت أصدّق الحكومة الإسرائيليّة التي تعهّدت إطلاق سراحي في مدّة ثلاثة أشهر، تنتهي خلال أيّام. قلت له إنّني أصدّق المقاومة. أكّدت ثقتي بالسيّد حسن نصر الله وبالمقاومة التي ستأسر جنوداً إسرائيليين وتحرّرني.

عاودت ميتسادا الكرّة. حضرت للتفتيش يرافقها مراسل التلفزيون الإسباني أنريكو. نحن نعرفه من إطلالاته في البرامج الإخبارية والحوارية على القنوات الإسرائيلية. منحاز جدّاً لإسرائيل ومتعصّب ضدّنا. اقتحمت ميتسادا الزنزانتين في قسمنا اللتين دخلتهما في المرّة الماضية، وبعض أسراهما ما زالوا في العزل. فتّشتهما ولم تلقَ مقاومة. ثم انتقلت إلى الزنزانة في القسم الآخر، التي احتُجِزَ فيها الضابط، فتّشتها ولم تلقَ مقاومة أيضاً، فنزلاؤها الحاليّون جدد بينما السابقون ما زالوا في العزل...

عدم استعمالها العنف وضرب الأسرى وإذلالهم وتحطيم محتويات الزنازين التي اقتُحمتْ أشعرنا بأنها جولة استعراضية للتصوير التلفزيوني.

تواصلنا مع اللجان الوطنيّة في سجون هداريم وعسقلان وجلبوع الجديد والقريب من شطّة. أجواء الاعتراض على إجراءات غانوت نفسها لديها.

ما العمل؟ هذا السؤال كفيل بأخذنا إلى التفكير في الإضراب عن الطعام. ليس لدينا خيار آخر. مدير السجن لا ينفك يعبّر أن صلاحياته لا تسمح بمخالفة أوامر مدير السجون. والأسرى طلبوا من أسرهم الامتناع عن الزيارة احتجاجاً، ما يسبّب إحباطاً عاطفياً. الهواتف لا تخدم أحياناً.

صارحت توفيق بمخاوفي من قدرتنا، في ظل وجود ٧٥ في المئة من الأسرى جدد، على إنجاح الإضراب.

— «ألدينا خيار آخر؟»، سألني ميّالاً إلى الإضراب.

أجبته بأنّ علينا التفكير مليّاً قبل وقف الإضراب إذا لم يستطع تحقيق مطالبنا.

توجّسنا من أن ينفّذ غانوت ما يريده، خطوة خطوة، ويغدو ذلك عادياً، ونحن لا نفعل شيئاً.

لم نراهن في حساباتنا على أي دعم أو مؤازرة سياسية وشعبية في الضفّة وغزّة. فالظروف هناك مأسويّة. أبو عمّار محاصر في مقرّه برام الله والشارع الفلسطيني محبط يتلقّى الضربات الإسرائيلية لقمع الانتفاضة. برغم ذلك طلبنا عبر المحامين أن تؤلف لجان للمتابعة والتضامن في غزّة والضفّة. وكذلك فعلتُ مع شقيقي بسّام للتحرّك في بيروت، فأطلعني أنّهم سيواكبون إضرابنا بخيمة في وسط بيروت.

شرعنا بالإعداد لإضراب وإصدار البيانات التعبويّة، مراهنين على المعنويات المرتفعة لدى الأسرى نتيجة المواجهة مع ميتسادا. شُغلت التنظيمات بإعداد عناصرها وتنظيمهم وتدريبهم على تحمُّل الامتناع عن الطعام والالتزام بقوانين الإضراب والحركة الأسيرة، من التزام بقرار اللجنة الوطنية أو لجان الظل إذا عُزل أعضاء اللجنة الوطنية، إلى عدم الاستجابة لمناورات الإدارة كالترغيب والترهيب ومحاولة التفاوض مع الأسرى من دون اللجنة الوطنية... إلخ.

ناقشنا في اللجنة الوطنية موعد بدء الإضراب.

— «خيرُ البِرّ عاجله»، قال توفيق.

— «خصوصاً أن احتمال أن يكون الإضراب طويلاً وارد جداً، ووزير الأمن الداخلي تساحي هنغبي، ومدير السجون غانوت، متطرّفان مثل رئيس حكومتهما أرييل شارون»، أضفت.

تحمّس عبد الرحمن وحدّد ١/٨/٢٠٠٤، اقترحت ٢٠/٨ لاستكمال التحضيرات للإضراب. رجّحنا ١٥ منه، لكننا اتّفقنا على مراسلة عسقلان وهداريم وجلبوع في هذا الشأن. جهّزنا الكبسولات وابتلعها مرضانا المتوجهون إلى مستشفى سجن الرملة. أعطوها هناك لأسرى من تلك السجون.

أنجزنا تقريراً بالمطالب. اخترنا لجان الظل في الأقسام السبعة وسلّمناها خطة الإضراب في مظاريف لا تُفتح إلاّ إذا نُقلنا نحن إلى سجون أخرى أو عُزلنا.

ردّ عسقلان مقترحاً ١٨/٨ موعداً للإضراب. آثرنا أن نبدأ نحن في ١٥ وعسقلان في ١٨، قلنا هذا يعطي زخماً للإضراب.

وصل الخبر إلى الإدارة.

تقرّر نقلي إلى سجن هداريم، فكّرت في إبراهيم الأمين. قلت جاءته هذه الفرصة من السماء. أرسلت له، عبر شقيقي بسّام، إشارة إمكان عرض الفيلم ساعة يشاء، وأخفيتُ هاتفي في سجن نفحة.

رُحّلت إلى هداريم في ٢٧/٧، القسم الرقم ٣ المخصّص لعزل السجناء السياسيين الذين تعتبرهم إسرائيل خطرين. وفوقه طبقتان، في كلّ منهما قسم، ٤ و٨، لسجناء سياسيّين لكن ليس في حال العزل.

خرجتُ إلى الباحة. فرحتُ بلقاء أصدقائي، رَوحي مشتهى، يحيى السنوار (حماس)، ياسر داوود (الجهاد)، جهاد أبو غبن وخالد عساكرة (فتح)، ممثل المعتقل. أخبرتهم بموعد الإضراب وأطلعتهم على تفاصيل الخطّة.

— «أتى سمير وقد جهّز كل شيء»، قال رَوحي.

— «أنا ألتزم قرارات اللجنة الوطنية هنا».

— «ستنضمّ إليها»، ردّ عضواها جهاد ويحيى.

— «لا أريد ذلك، أريد أن أرتاح، على الأقل أسبوعاً».

لم يوافقوا.

نظّمنا لجان الأقسام الثلاثة واخترنا موجّهين للزنازين. وليلاً، أنزل رفاقنا في القسم ٤ الحبال التي يصنعونها من الثياب المهترئة، ربطنا بها رسائلنا إليهم ومعها رسائلنا إلى القسم ٨ كي يقوم القسم ٤ بإيصالها وسحبوها. طلبت اللجنة الوطنيّة

إليّ أن أتولّى مهمّة ممثّل المعتقل. اشترطتُ لقبول ذلك أن تكون قراراتي مُلزمة، وأن لا يوقف الإضراب إلاّ بعد التشاور والاتفاق مع اللجان الوطنية في السجون كلّها، وأن لا يجري التفاوض إلا بعد إعادتنا إذا ما عُزلنا. شدّدت على هذا كي لا تخترق المديريّة جبهتنا ونقع ضحيّة خداع ومناورات.

أبلغنا توفيق أبو نعيم في نفحة أن هداريم سيبدأ الإضراب في ٨/١٥.

وصل خبر الاستعداد للإضراب إلى الإدارة. عقد مدير السجون، غانوت، اجتماعات مع ضبّاطه. وأعلن وزير الأمن الداخلي، في ٨/١٢ على التلفزيون أنه في حال الإضراب لن يرضخ ولن يقبل بأي مطلب لنا. وقال «إذا أراد الأسرى الإضراب حتّى الموت فليموتوا».

— «المعركة قاسية، ولعلّه أصعب إضراب نخوضه منذ عام ١٩٨٠». خلصنا إلى ذلك في اجتماع اللجنة الوطنية. وقبلنا التحدّي.

عشيّة الأحد ٢٠٠٤/٨/١٥ كتبتُ رسالة نعلن فيها بدء الإضراب، وعرضت فيها مطالبنا. سلّمتها صباحاً إلى خالد عساكرة الذي توليتُ مهمّته تمثيل المعتقل، وطلبتُ إليه نقلها إلى الإدارة. أوصلها ونقل إلى المدير أنني بتُّ ممثّل المعتقل. بالتزامن، أخرجنا الطعام من الزنازين. انتظرنا بهدوء كامل ردّ الإدارة. جلستُ في سريري أفكّر بالتحرّكين اللذين انطلقا في لبنان والجولان المحتل. تخيّلتُ خيمتين منصوبتين في ساحتي جبران خليل جبران في وسط بيروت، وفي ساحة سلطان باشا الأطرش في مجدل شمس. . . انتبهتُ إلى أنني لا أعرف هذين المكانين، إذ لم أزر الجولان المحتل ولم أرَ وسط بيروت الذي أُعيد بناؤه بعد الحرب. ركّزتُ على الخيمتين وكأنني أدخلهما وأرى مَن فيهما. تخيّلتُ أسرتي فرداً فرداً يجلسون هناك ويمتنعون عن الطعام تضامناً معنا. حضرتني صورة رفيقنا في الأسر سابقاً، أيمن أبو جبل، ينشط في خيمة مجدل شمس، ومعه عائلة الأسيرين بشر وصدقي المقت، خصوصاً والدهما وشقيقته نهال الحاضرة دوماً في دعم الأسرى.

نقلوا غير المضربين إلى زنازين خاصة لغير المضربين. نسبة المشاركين بيننا تتجاوز النصف.

ظهراً، فاجأنا الحرّاس بدخول الزنازين ومصادرة الملح وعلب التبغ والثياب

والحليب الذي اشتريناه استعداداً للإضراب. هذه سابقة في الإضرابات. فالملح يترك كي يتناوله المضربون تجنّباً لإصابة الأمعاء بالعفونة، ويسمح للمضربين بالتدخين. أنا شخصياً أدخّن في اليوم الأوّل بضع سجائر، ثم أنقطع عنها مشمئزّاً منها. والثياب لا علاقة لها بالإضراب. أما الحليب فيسمح للمضرب بتناول كوب منه يومياً، ويستند هذا إلى قرار المحكمة.

حافظنا على هدوئنا. الغالبية داخل الزنازين في الأسرّة بين النوم والتأمّل. نقلوا عدداً من المضربين إلى زنازين أخرى لا شواغر فيها ليحشرونا، فبدأت أصوات الاعتراض ترتفع من الزنازين عبر الأبواب. طلبتُ من الأسرى رفض ذلك والمواجهة إذا تكرّر الأمر.

استغربنا، صباح اليوم الثاني بأخذ الحرّاس ثلاثة أسرى منّا، يحيى السنوار وروحي مشتهى وحسام خضر، وإبقائي أنا، ممثل المعتقل. لم يعزلوني، فرحتُ أنتظر ذلك. نقل مضربون آخرون إلى زنازين مختلفة. رفض الأسرى ذلك. ضربوا اثنين من الشرطة. توقّفت العملية وبدأ التفاوض في هذا الشأن. أصرّت الإدارة على موقفها، عاندها الأسرى وبدت ملامح مواجهة. تراجعت الإدارة خوفاً من وفاة مضربين.

جاء المحامون وعرفوا بأمر مصادرة الحليب. طالبوا الإدارة بإعادته لنا حفاظاً على صحّتنا. رفضت الإدارة، فلجأ المحامون إلى المحكمة. تحرّكت مديرية السجون.

مرّ يوم، اثنان، ثلاثة. حيرتنا لماذا تركوني، لا تجد أجوبة. كلّنا نسأل. استطاعت مديرية السجون، في اليوم الرابع للإضراب، إصدار قرار من المحكمة بجعل إعطاء الحليب في يد الطاقم الطبي في السجون. ظهيرة الجمعة جاء الحرّاس وطلبوا إليّ تجهيز أغراضي وأخذوني مكلبشاً.

قبل أن نركب البوكس سألني ضابط إلى أين أعتقد أنهم ينقلونني. أجبته:

— «ليس إلى نفحة، بل إلى سجن للعزل».

سألته:

— «لماذا تأخّرتم؟».

ضحك وكأن هناك سرّاً:

— «قرار عزلك صدر من اليوم الأوّل للإضراب، لكن نسيه الضابط على مكتبه».

ضحكتُ أنا.

مشينا في البوكس لثلاث دقائق. عرفت أنني نُقلت إلى سجن هشارون للعزل. وجدتُ توفيق أبو نعيم من نفحة قد سبقني، يحيى السنوار، محمد أبو طير، ووليد دقة، حسام خضر، عبد الخالق النتشة، وائل فنونة وحسن المقادمة.

ضحكنا إذ جمعوا هنا قادة السجون المشاركة بالإضراب. فإمّا يأتون للتفاوض معنا هنا، أو يعيدوننا إلى معتقلاتنا ويفاوضون معنا هناك. قرارنا واضح: التفاوض مع ممثلي المعتقلات واللجان الوطنية، حتى ولو أخذونا إلى آخر الدنيا.

عرفت أن نسبة المشاركين في سجون نفحة وعسقلان وشطّة وجلبوع تجاوزت الخمسين في المئة. وأخبرني توفيق أن الحرّاس في نفحة يضربون الأسرى.

في اليوم التالي اقترب شرطي هيئته عربية. اسمه يفصح أنه درزي، وعبريته الركيكة ولهجته تؤكّدان ذلك. رحتُ أحادثه. أخبرني أنه من ضيعة يركا. سألته إذا كان يعرف الشيخ جمال معدي. أعرب عن احترامه له رغم أن الشيخ معدي يرفض تجنيد الدروز في الجيش الإسرائيلي. حمّلته سلامي له. وأنا على ثقة بأن الشيخ معدي حين يعرف بمكان وجودي سيتّصل بلبنان ليطلع أصدقاءه هناك على مكان وجودي... ويصل الخبر إلى أسرتي.

عاد الشرطي من إجازته ونقل إليَّ تحية الشيخ معدي. اطمأننت. تشجّعت وطلبت إليه أن يُبلغ المحامي سعيد نفاع أنني في سجن هشارون.

رد خائفاً:

— «ستخرب بيتي!».

اقتربتُ منه وهمست له:

— «أنت تعرف أنه إنسان محترم، ولن يخبر أحداً أنك مَن فعل».

هدأ وبدأ يقنع نفسه بأن الأمر ليس خطراً.

وافق، فأعطيته رقم هاتف المحامي، الذي أحفظه.

بعد أيّام، غيّرت الإدارة طاقم الحرّاس وجاءت بوحدة خاصّة تدعى درور لتقوم بحراستنا وأمرت عناصرها بمنع مخالطة الأسرى. قلت وصل خبر نقلي لهشارون إلى بيروت حيث يتواصل النشاط في خيمة الحريّة.

استُدعيت، بعد أيام، إلى اجتماع مع قائد المنطقة الوسطى في مديرية السجون، نظيم سبيتي. أراه للمرّة الأولى.

بدأ حديثه هجومياً لإحباطي:

– «سجنا هداريم ونفحة أغلقا جميع أبواب الحوار».

فكّرت أنه لم يأتِ للتفاوض معي إلاّ بسبب رفض رفاقي هناك التفاوض معه.

أضاف محذّراً:

– «ما تفعلونه يؤدي إلى موت أناس. والسجون ستفك إضرابها وستستسلم تدريجاً وأنتم هنا».

سكت ونظر إليّ منتظراً أن أنطق بكلمة ليّنة. لم أفعل. استأنف كلامه:

– «أنصحك بأن تتّخذ اليوم قرار وقف الإضراب في هداريم، وأعدك بتحسين أوضاعكم».

حلّلت أن جبهتنا قوية والإضراب يزعجهم ويسعون إلى وقفه، وليسوا كما يدّعون بأنهم لن يصغوا إلينا.

قلت:

– «لا نأخذ وعوداً، ولا يُحَلّ الموضوع بهذه الطريقة. ليس أمامكم إلاّ الاستجابة للمطالب التي تقدّمنا بها».

أعادوني إلى الزنزانة. لم يدفأ مكاني في السرير حتى استدعاني مجدّداً:

– «أوقف الإضراب في هداريم وسيتحوّل إلى سجن مثالي».

لمستُ في دعوته هذه رشوة ومحاولة لزعزعة وحدة إضرابنا في السجون. استفزّني. سارعتُ إلى الرفض:

– «لستُ طفلاً، ويبدو أنك لا تعرفني. هداريم مرتبط بالسجون كلّها، ولا سبيل إلى وقف الإضراب إلاّ بتلبية المطالب في السجون كلّها».

ردّ:

– «أنت في سجن هداريم فلا تتكلّم باسم السجون الأخرى، وأنا مدير هذه المنطقة لا أتعدى على صلاحيات المناطق الأخرى».

قرأتُ في هذه العبارة حيلة لجعلي لا أفكّر إلاّ في هداريم. رددتُ عليه لكسر الدائرة التي يرسمها بحجّة اعتباراته الوظيفية:

– «هذه السياسة لا تنسجم مع آلية عملنا. إمّا الكل أو لا شيء».

أمر بإعادتي إلى الزنزانة.

لم تطمئني محاولاته لتجزئة السجون. جزمت بأنهم يعملون لتحقيق ذلك ولإرباكنا. توقّعتُ ألاعيب أخرى.

أطلعتُ الشباب معي في الزنزانة على ما جرى وعلى ما أفكّر فيه. وافقوني الرأي. وبرغم الثقة باللجان في السجون، توجّسنا أن تنجح مديرية السجون في إحداث ثُغَرٍ في جبهتنا.

صباح اليوم التالي، طُلبتُ مجدداً للاجتماع بقائد المنطقة الوسطى. ما إن جلستُ في مقعدي حتى فتح أمامي جريدة وأشار بإصبعه إلى خبر وقف سجن عسقلان الإضراب.

وعلّق:

— «وسيليه نفحة».

حافظتُ على هدوئي. شككتُ في صحّة الخبر وفي أن يكون مناورة استخبارية.

قال متحمّساً:

— «اترك ورقة رابحة بيدك واقبل بما أعدك به، وعودوا إلى هداريم وأوقفوا الإضراب. فإذا أوقف نفحة إضرابه فلن يبقى أمامكم إلاّ فكّه في هداريم، ومن دون أن تحقّقوا شيئاً».

فكّرت أنه يحاول التماثل مع مدير المنطقة الجنوبية ويوقف الإضراب في هداريم كما فعل ذاك في سجن عسقلان. وحسبتُ أن مدير المنطقة الجنوبية قد وضع سقفاً لا يمكن لهذا تجاوزه. قلقت. وفكّرت أن الورقة الرابحة التي يتحدث عنها ليست هداريم، كما يدّعي، بل سجن نفحة الذي يحاول سبيتي الإيحاء بأنه ورقة ستسقط قريباً. ترددت في رأسي عبارة أن سبيتي هذا يغار ويسابق مدير المنطقة الجنوبيّة.

قلت:

— «لن أوقف الإضراب حتى لو بقيت وحدي».

رجعت إلى الزنزانة. صُدم الشباب بوقف عسقلان الإضراب. ردّ غير واحد منهم، باستياء. رجّحنا أن يكون الخبر صحيحاً.

— «هذه خسارة معنوية كبيرة»، فكّرت بصوت عال.

— «علينا الاستمرار بالإضراب»، قال توفيق.

— «خوفي الآن على نفحة، إذا خُدِع وأوقف الإضراب».

وقعت هذه العبارة كالصاعقة على الشباب.

— «ما هي قدرتنا على الصمود، كم شهيداً يمكن أن نتحمّل؟ هذا هو السؤال»، قال توفيق.

ليلاً، جاء الحرّاس طلبوا إلينا الاستعداد لنقلنا غداً. نمنا، وباكراً حضروا وكلبشونا ونقلونا بالسيارات. أثناء الطريق توجّهنا شمالاً، كأننا ذاهبون إلى لبنان، رأيتُ للمرة الأولى منذ اعتُقلت فلسطين المحتلة. أُخذت بجمالها. أرى جبالاً وأوديةً وأشجاراً وبيوتاً وطرقات. رأيت البحر. يا الله، أفقٌ أزرق ومياهٌ تتماوج. مئات الأمتار تفصل بيننا. أتيت من هنا. هذه دربي. شريط العمليّة كرّ في رأسي. الرصاصات الخمس أصابتني مجدّداً، بالألم ذاته. أحسستُ أنني أمشي حافياً على الرمال. أرفع نفسي في المقعد لأرى البحر أفضل، لأرى الشاطئ والأمواج تتكسّر على صخوره ورماله. أفلح أحياناً وأحياناً يختفي خلف بناية أو شجرة أو تلّة رملية، أو نبتعد نحن في انعطافة الطريق.

وصلنا إلى سجن الجلمة، أقرب السجون إلى الحدود مع لبنان.

وضعونا في زنزانتين نائيتين.

لم أنسَ البحر كأنه في داخلي هدوء. شعرت بأنني بدأتُ رحلة العودة إلى وطني.

تفقّدَنا ضابط الاستخبارات العام في مديرية السجون، اللواء إسحاق غباي. سألنا عن أحوالنا. أكّدنا له مضيّنا بالإضراب.

وأنا غائب عن كل شيء، أحتفظ بمشهد البحر. استلقيتُ في سريري كما لو أني على الشاطئ. نمت. حلمت بالبحر. بالمشهد الذي رأيته أمس، وببحر صور وأنا أتدرّب على السباحة قبل العملية. حلمت أيضاً أنني أسبح في النهر عند جسر القاضي. كنتُ مع أبي.

جاء مسؤول قسم العمليّات في مديريّة السجون:

— «لن تحصلوا على شيء».

— «إذاً نحن مستمرّون بالإضراب».

عدتُ إلى سريري. استلقيت. تعمَّدتُ استعادة صورة البحر. لم أنجح. فتحت عيني، رأيت حائط الزنزانة. انطفأ البحر كلياً في رأسي.

جاء غباي مجدّداً. فُتحت له زنزانة مجاورة لزنزانتينا وطلب إحضارنا. جلسنا هناك، بعضنا على الكراسي وآخرون على الأسرّة.

بدأ غباي حديثه عن وقف سجن جلبوع الإضراب. ضربة أخرى على الرأس. صُدمنا. ردّ عليه الشباب أن هداريم ونفحة مستمرّان.

— «لن تحقّقوا شيئاً وحالتكم الصحيّة تتدهور».

— «لا تخف علينا»، ردّ عليه الشباب. وأنا أُنصِت أحاول فهم مبتغاه وتحليل إشارات أقواله.

رنّ البايجر الذي يحمله غباي. استجاب لندائه وغادر ليتّصل بمقرّه. أثناء انتظارنا له حذّرنا بعضنا من ألاعيبه وتساءلنا عن أهداف اللقاء. لم نجد إجابات حاسمة حتى الآن.

عاد وأخبرنا أن عملية «إرهابيّة» حصلت في منطقة بئر السبع، انفجار في باص. توقّعت أن يقول إن هذا ليس لمصلحتنا. وهذا ما حصل مضيفاً دعوته لنا إلى وقف الإضراب قبل تلاشي التعاطف مع قضيتنا.

كرّر له الشباب استمرارنا بالإضراب. انتبه إلى صمتي، نظر إليّ كأنه ينتظر مني أن أتكلّم. فكّرت أنه حدس قلقي وهواجسي بأن معركتنا قاسية وقد خسرنا نصف الجيش الذي اعتمدنا عليه، وتُرك بلا قيادة. ترددتُ أن أحكي فيستشفّ من كلامي ما يسيطر على تفكيري. أجبرتُ نفسي على الكلام:

— «علينا البحث عن مخرج لائق لوقف الإضراب، لا يمكننا فعل ذلك من دون تحقيق عدد من المطالب».

هزّ برأسه موافقاً. فقفزتُ مباشرة إلى طلب عرضه ما لديه.

أجابني:

— «مدير السجون، غانوت، موافق على العديد من التحسينات، لكنه يشترط أن تفكّوا الإضراب، وإلا فلن يعطي شيئاً».

نظرت حولي إلى الشباب، وجدتهم ينتظرون أن يقول ما هي التحسينات. سألته:

— «ما هو عرضك، وإذا اقتنعت به فسأحمله إلى السجون وأناقشهم فيه. لا يمكنني العودة إلى اللجان في السجون من دون عرض محدّد».

— «تحسين الطعام، الزيارات».

— «ماذا عن الزجاج العازل؟».

— «هذا يحتاج إلى قرار من رئيس الحكومة أرييل شارون. هو مَن اتّخذ القرار بوضعه لمنع تهريب الهواتف. لكن يمكن السماح بزيارات خاصّة وزيارات من دون الزجاج والاكتفاء بالشبك للحالات الخاصّة، استعمال الهاتف في حالات خاصّة، التزاور بين الزنازين والاجتماع خلال الأعياد».

وجدتُ عرضه مناسباً وإنْ لم يشمل كل مطالبنا. سألته:

— «كيف أضمن تحقيق هذه المطالب؟».

— «كلمتي كافية».

ضحكت:

— «هذه كلمتك أنت، لكنها لم تصدر عن مدير السجون الذي قد ينفي حصول هذا الحوار».

— «يمكننا دعوة غانوت حالاً».

— «فليحصل».

غادر. بقينا وحدنا في الزنزانة. لم يبدِ أحد من الشباب اعتراضه على العرض.

عاد غباي ومعه مدير السجون، غانوت. صافحنا ومازحنا بأننا نحلنا في الإضراب.

لخّص غباي لغانوت ما جرت مناقشته قبل انضمامه إلينا. وأعاد العرض الذي قدّمه لنا.

سارع غانوت إلى موافقته على كل كلمة قالها غباي، وأكّد أننا سنحصل على المزيد إذا ما علّقنا الإضراب.

سألته:

— «أنت ملتزم بعرضك؟».

— «أكيد ملتزم».

— «سآخذ كلامك على محمل الثقة وسأخبر الأسرى بذلك».

— «أفضّل ألاّ تخبر السجناء إلا بعد وقف الإضراب».

— «لا يمكنني ذلك، أنا ملزم بإطلاع اللجان الوطنية في السجون على عرضك، والاستماع إلى آرائهم».

— «اتّفقنا».

فوجئ بلهجتي الحازمة وسرعة اتخاذي القرار. سألني:

— «ما هو منصبك في السجون كي تجيبني بهذه السهولة؟».
تحاشيتُ الإجابة عن سؤاله وأعدته إلى المفاوضات:
— «سأحمل الاقتراح إلى اللجان في السجون بما في ذلك السجون التي أوقفت الإضراب قبلنا، وأنتظر ردودها».
ابتسم لتهرّبي من الرد.
قلت:
— «يجب إعادة الشباب إلى سجونهم التي كانوا فيها قبل العزل، وإعادة كل ما صودر من الزنازين».
وافق.
أضفت:
— «أثناء عودة توفيق إلى نفحة، يمر على بئر السبع، ويلتقي اللجنة الوطنية هناك ويعرض ما قدّمته، ثم يتابع طريقه إلى نفحة. وعليك السماح لنا، أنا وتوفيق، بالمحادثة الهاتفيّة قبل أن نجيبك».
حدّد مساء اليوم التالي موعداً نهائياً للرد عليه.
لم يبدّد اقتناعي بما توصّلنا إليه قلقي من أن ينكث غانوت بوعده. بقيت أراقبه. لم أرَ فيه إلاّ رجلاً مخادعاً، يسعى لقطف إنجاز سريع يدّعي أنه حقّقه في الجلسة التفاوضية الأولى وقد خلخل جبهتنا وقسّم السجون. ولو أن عسقلان وجلبوع لم يُخدعا ويوقفا الإضراب قبلنا، ولم تباشر المديرية مفاوضتنا إلاّ بعدما تأكّدت أنها زعزعت جبهتنا وأضعفتنا، لما قبلتُ بالوعد وأجبرته على توقيع اتفاق كامل.
عند منتصف الليل جاؤوا لإعادتنا إلى سجوننا. تمنّيتُ أن ينتظروا حتى الصباح كي أرى البحر.
وصلنا أنا ويحيى السنوار وحسام خضر وروحي مشتهى إلى هداريم بعد الثانية فجراً. استيقظ الشباب. دبّت الحياة في الزنازين، وراح ينادي بعضهم بعضاً. اعتبروا أنه لا يمكن إعادتنا إلاّ لأننا حصلنا على مطالب ممّا تقدّمنا به. الجميع فرح حتى قبل أن يسمعوا منّا ما جرى.
دخلتُ زنزانتي ووجدت أسيرين جديدين لا أعرفهما.
انهالت عليّ الأسئلة من الزنازين الأخرى:

– «ماذا حصل؟ إلى ماذا توصّلتم؟ مَن فاوضكم؟ ماذا حصل في عسقلان وجلبوع ونفحة وبئر السبع وشطّة؟».

أجبتُ باقتضاب واعداً بالنقاش غداً. رغبتُ في النوم لكني آثرتُ السهر خوفاً من الاستيقاظ مرهقاً.

جلستُ في سريري.

بعد وقت، وكانت الساعة باتت السابعة صباحاً، طلبتُ إلى الشرطي فتح باب زنزانتي لأخرج إلى البهو وأجتمع برفاقي في العزل. جلتُ على زنازينهم وأيقظت مَن كان نائماً منهم.

اجتمعنا في الردهة المحاطة بالزنازين وتطل عليها الطبقة الثانية من قسمنا. قوّمنا عرض غانوت والخطوات التالية الواجب اتخاذها. وبعدما طلبت من كل واحد منهم بلورة رأيه، استدعينا اللجان في قسمنا والقسمين ٤ و٨ اللذين شاركا معنا في الإضراب. التقينا نحو ٣٥ أسيراً عرضتُ عليهم مجريات المفاوضات.

أبدى البعض مخاوفه. شرحتُ الوضع في سجني جلبوع وعسقلان.

في اللحظة التي كنت أُسأل فيها ما إذا كنتُ أضمن تنفيذ غانوت عرضه، أطلّ المدير طافش من الطبقة الثانية.

رددت بسرعة:

– «لا أضمن أحداً». وتابعتُ نظري إليه كأني أريد إسماعه. انسحب. تابعت:

– «ببساطة، يمكننا تحويل هذا الاجتماع تقريريّاً في شأن مصير الإضراب، وإخضاع عرض غانوت والموافقة عليه للتصويت برفع الأيدي. فإذا أردتم رفض العرض والاستمرار في الإضراب فأنا مستعدّ برغم المخاطر والبقاء وحدنا، لا أضمن استمرار نفحة بالإضراب، ظروفه قاسية».

نال اتجاه وقف الإضراب الإجماع.

قلت:

– «هذا ليس انتصاراً، لكنه ليس خسارة. غانوت تنازل ونحن حقّقنا ما أمكن وفق ظروفنا».

عاود مدير السجن الكرّة وأطلّ علينا من الطبقة الثانية. فهمت أن غانوت مستعجل ويلحّ عليه لمراقبتنا والحصول على جواب سريع.

انتهى الاجتماع. توجّهتُ إلى مكتب مدير السجن. انضمّ إلينا غباي الذي كان ينتظر في مكتب مجاور.

– «لا أملك قراراً نهائياً، حتى أتّصل بتوفيق أبو نعيم في نفحة».

غادر غباي المكتب ليتصل بنفحة. عاد:

– «توفيق يكون على الخط بعد عشر دقائق».

أوحى بأن توفيق في نفحة ويستدعونه من زنزانته.

قدّم لي المدير سيجارة. اعتذرت:

– «لا أدخّن أثناء الإضراب».

رنّ هاتف المكتب. أعطاني المدير السمّاعة بعدما بات توفيق على الجهة الأخرى.

أبلغته، بالعربية، قرار هداريم. وسألته عن الوضع عنده، في نفحة. ارتباك صوته. تيارٌ كهربائي مسّني سريعاً. أجابني أنه أُبقي في بئر السبع، حيث ما زال، وأن نفحة أوقف الإضراب. تابع توفيق بتقطّع مملوء بالأسى:

– «لم ينتظروا في نفحة عودتي. نشط المدير هناك لإقناعهم ببعض المكاسب. لا يريد أن يحقّق الآخرون إنجازات وهو لا ينجز شيئاً».

حدّقتُ في غباي ومدير السجن غاضباً من الخديعة التي ربما يعملان بها. ثم استدرتُ كي لا يريا وجهي وانفعالاتي. فكّرت باحتمال أن ينقلبا علينا الآن. وجدتُ أن من الأفضل ألاّ أُساجل وتوفيق الآن فيشعر غباي والمدير بالأزمة التي نحن فيها.

قلت لتوفيق:

– «اتّكِل علَى الله. لا تخبر المدير عندك بموافقتنا إلاّ بعد حصولك على تأكيد بتنفيذ عرض غباي – غانوت، وأنا سأفعل مثلك».

فكّرتُ أن اللعبة الآن هي أن يحقّق كل سجن أكبر قدرٍ من مطالبه، بعدما فشلنا في الموقف الموحَّد.

أقفلت الخط وتوجّهت إلى غباي والمدير بالسؤال عمّا إذا كانا وغانوت لا يزالون ملتزمين العرض. استنفرت حواسي كلّها لمراقبة كل إشارة منهما. قراري في هذه اللحظات أنه إذا شككتُ في صدقهما، فسنواصل الإضراب وحدنا في هداريم.

أكّدا أن العرض قائم ومستعدّان لوضعه قيد التنفيذ.

أبلغتهما بوقف الإضراب. وذكّرتهما بطلبنا إعادة كل ما صودر من الزنازين.

هزّ المدير رأسه موافقاً.

غادرتُ إلى القسم. طلبتُ إلى بعض الشباب التوجّه إلى المخزن لإعادة أغراضنا المصادرة.

شربتُ كوب حليب. أجّلتُ إلى الغد تقويمي للإعداد للإضراب ولأدائنا فيه والنتائج. استلقيت. لم أجد طريقاً إلى النوم. أكرّر في رأسي عبارة أنني أخطأت خلال التحضير للإضراب بالموافقة على رفع سقف المطالب بينما قدراتنا أدنى منها. كان عليّ أن أوازن بين المطالب والإمكانات. والخطأ الثاني الذي ارتكبناه هو إغفالنا النظر في الواقع الفلسطيني، وأتحمّل مسؤولية في هذا لأني لم أضعه في الحسبان وراهنّا على إمكاناتنا الذاتيّة وعلى تحرّك بيروت والجولان. هذا مهم وكان له صدى ممتاز ولكنه ليس بزخم الفعل الفلسطيني الذي بدا هزيلاً، إذ بادرت قلّة من الأُسر إلى الاعتصام والتضامن معنا.

أضفت، في الاجتماع الذي عقدناه لافتتاح دورة تقويم الإضراب، إلى هذين الخطأين اللذين أعلنتُ أنني أتحمّل جزءاً من المسؤولية في ارتكابهما، خطأً ثالثاً في التقدير. فأنا لم أتوقّع أن يُصادر الحليب، وأن تبادر مديرية السجون لدى المحكمة العليا إلى نقض قرار المحكمة المركزية الذي طالب به جبر وشاح عام ١٩٩٨، في شأن تناول المُضرِب كوباً من الحليب يوميّاً. فقد منحت المحكمة العليا الطواقم الطبية في السجون حقّ تقدير متى يتناول المضرب حليباً.

عندما صودر الحليب وسقط حقّنا في تناوله خسرنا سلاحاً مهمّاً كان يساعدنا على الصمود. وبدأت سُبْحة الضربات تتوالى. ووصلنا إلى السؤال الكبير: كيف نحقّق السقف العالي من المطالب ونحن منهكون والسجون توقف الإضراب واحداً تلو الآخر، إمّا اقتنعَت بما مُنح لها من مطالب محدودة وإمّا خُدعتْ. لكن الأقسى من ذلك كلّه هو تفتّت السجون.

طلبتُ إعفائي من مهمّاتي. رفضَت اللجنة الوطنيّة ومسؤولو التنظيمات. اعتبروا أن الإضراب برغم الصعوبات انتهى على نحوٍ لائق وأنّ لي دوراً رئيسيّاً في ذلك.

– «أمامنا مرحلة التحقّق من التنفيذ وهي الأصعب، ويجب أن تكون فيها بموقعك»، قالوا لي.

عرضتُ عليهم تحديد مدّة ثلاثة أشهر لتحقيق ما اتُّفق عليه.

قلت:

– «إذا لم أستطع ذلك أتنحّى».

وافقوا، فطلبتُ إعطائي صلاحيات كاملة كي أتمكّن من الضغط على الإدارة وإفهامها أن كلمتنا موحّدة، إذ لا يمكنني أن أقوم بذلك، وفي كل صغيرة وكبيرة أقول للمدير إنني بحاجة إلى التشاور مع اللجنة أو مع رفاقي.

اجتمعت مساء اليوم التالي بعد وقف الإضراب إلى مدير السجن. طلبتُ إليه تنفيذ الوعود.

ردّ:

– «أنا قادر على تحسين الطعام والعلاج، السماح بالتزاور بين الزنازين، تسلّم الثياب والأطعمة والكتب من الأُسَر، زيادة وقت النزهة في الباحة...».

– «ماذا عن المطالب الأخرى، في ما يخصّ الزيارات؟».

أجابني:

– «هذه من صلاحية مدير السجون وقائد المنطقة، عندما يأتيان نناقشها معهما».

– «وماذا عن فتح أبواب الزنازين أثناء توزيع وجبات الطعام... إذ لا نقبل بتمريرها عبر فتحات الأبواب المقفلة، هذا مزعج لنا».

أومأ بأنه لا يعرف ماذا يفعل بشأنها وأنها ليست من صلاحياته.

فكّرت أن الإضراب لتسعة عشر يوماً بقي خلاله وفريقه مستنفرين من دون إجازات، قد أنهكهما. وفي الوقت نفسه يرانا، في هداريم، متماسكين موحّدين.

قلت:

– «أتريدنا أن نُضرِب مجدّداً؟».

ارتبك. بدا مصدّقاً لما أقول وخائفاً منه.

– «سأفكّر في الموضوع وأسأل عنه».

– «تأكّد أننا لن نتراجع عن مطالبنا، وأننا مستعدّون لاستئناف الإضراب».

وافق:

– «لكنني أحتاج إلى ٢٤ ساعة لإنجاز التبليغات الإدارية. وحين يأتي قائد المنطقة تناقش معه الأمور المتعلّقة به».

بدأ توزيع وجبة الفطور. تُركت أبواب الزنازين مقفلة. سارعتُ إلى الطلب من الضابط فتح باب كل زنزانة أثناء إعطائها وجبتها. امتنع:

— «لا إذن لي بذلك».

— «إذاً، لن نتسلم وجبة الطعام».

أوقف العملية وغادر لمراجعة المدير.

عادِ راكضاً:

— «حصل خطأ، سوء تفاهم».

وراح يفتح أبواب الزنازين ويسلّمها الوجبات.

لا بدّ من تأمين هاتف. حان الوقت. في الفترة الماضية شُغلتُ بالإضراب. البقاء خارج الاتصال بلبنان، بأسرتي وبالحاج المنسّق بيني وبين السيّد نصر الله، يتعبني ويبعدني عن معرفة ما يجري في لبنان وقضيّتي. خرجتُ من زنزانتي إلى الممرّ مدفوعاً بضرورة الإسراع في البحث عن شرطي يتعاون معي لهذا الغرض. لا سبيل آخر لي، بعدما رُفضت إزالة الزجاج من قاعة الزيارات. المهمّة صعبة وتحتاج إلى تقصٍّ ووقت. شرعتُ أراقب الضبّاط والحرّاس من دون أن يلاحظوا ذلك. لا أعرفهم كفاية، لكن عليّ إنجاز ذلك. هذا لئيم وجافّ في التعامل، وقد عنّفته قبل أيّام وطلبت إليه الابتعاد عني. هذا يبدو مرناً، لا يبقى أثناء حراسته مستنفراً ينظر يميناً ويساراً ويتحرّى الصغيرة والكبيرة، بل يشرب القهوة ويدخّن. يقوم بعمله كوظيفة من دون حماسة. اقتربتُ منه، سألته ما إذا كان ضجراً. أكّد ذلك صراحةً من دون تململ. بداية إيجابيّة. ابتعدتُ عنه كمَن يترك طعاماً على نارٍ خفيفة. شُغلتُ عنه وعدتُ إليه بعد وقت. قدّمتُ له علبة التبغ لنتشارك بسيجارتين. سحب سيجارتين له، وضع واحدة بين شفتيه وأجّل الثانية في جيب قميصه. بداية ثانية إيجابيّة. طمّاع ودنيء. أشعلنا السيجارتين. سألته لماذا يعمل في هذه الوظيفة المملّة.

— «لم أجد غيرها».

— «أتحبّها؟».

— أيبدو عليّ أنني مغرم بها؟

– «ربّما راتبها مغرٍ»، قلت وأنا أعلم أن متوسّط الأجور نحو ١٥٠٠ دولار.
– «لا يكفيني حتى آخر الشهر».
واسيْتُه بملامحَ كاذبة.
– «وماذا تفعل، ألديكَ أسرة؟».
– «نعم، وأمي وأبي كبيران في السنّ، مريضان ولا يعملان».
مددتُ له علبة التبغ:
– «خذها. يبدو أنّك بحاجة إليها».
نظر إليّ باستغراب مضمر وقبول متريّث يسأل نفسه كيف أعطيه علبة تبغ وكأنها آخر السجائر في الكوكب. أخذها وشكرني.
ابتعدت عنه.

أحزنتني هيئة أبو عمّار وهو يصعد الهليكوبتر لنقله من رام الله إلى عمّان للعلاج. بدا «ختياراً» مريضاً أُلبس ثياباً أكثر ممّا يحتاج الطقس البارد خوفاً على صحّته المتدهورة. برغم خروجه من شدائد كثيرة أحسستُ بأن خروجه الآن هو الخروج الأخير له. كأنه، كرمزٍ لشعب، كُتب عليه الخروج. لم أشاهده أو أرَهُ حين غادر بيروت عام ١٩٨٢، أحسستُ أن المشهد يتكرّر، وإن كان يغادر من فلسطين ووحيداً للعلاج.
قلقت. ملامحه المَرَضيّة وعيناه الكبيرتان تحاول أن تَعِدَ شعبه بأنه أقوى من المرض وسيعود. أحسستُ أنه يحدس فراقاً وسرّاً ما يريد معالجته وحده.
ليلاً، أنصَتُّ من شباك زنزانتنا لنداءات صادرة من سجن النساء والأطفال القريب منّا، هشارون حيث نُقلتُ في اليوم الخامس للإضراب. لا نرى النساء اللواتي يصرخن لنا يستنجدن، لكننا نسمعهن. سألتُ واحدةً وصل صوتها إليّ حزيناً:
– «ما بكِ يا أختي؟».
– «مَن أنت؟»، سألتني.
– «سمير القنطار».
عبّرَتْ عن سعادتها واطمئنانها:

— «ابني معي ويبقى مريضاً وبرداناً، أطلب منهم مدفأة فيرفضون. أرجوك ساعدني. سيموت بين يديّ».

يا الله. ما هذه القصّة المؤلمة. نحن نُضرِب ونُطالب وننسى هؤلاء النسوة اللواتي لا نستطيع التواصل معهن ولا يشاركن معنا في الإضرابات كلها. أحسستُ بالعار والقسوة. نظرت حولي وجدتُ رجالاً يتألّمون لعجزهم وهم يسمعون. سألتها ما اسمها وأنا أدرك أن مثلها كثيرات خلف هذه الجدران.

عزمتُ على التوجّه غداً إلى المدير وطلب مساعدتها. قلت هذا يفتح الباب لمساعدتهن عموماً.

— «لا علاقة لك بهنّ، لسجنهنّ إدارةٌ خاصّة»، ردّ المدير ببيروقراطيّة لسّد الطريق أمام محاولتي.

— «يمكنك أن تنقل لها مدفأة نحن نسدّد ثمنها. الطقس بارد وابنها مريض».

أبدى ملامح تعاطف وادّعاء بقلّة الحيلة.

لا يمكنني أن أستسلم من المرّة الأولى. عاودتُ المحاولة. وعدني بأنه سيسعى مع إدارة سجنها.

الشرطي في الممر. يدخّن ويرتشف القهوة. الحذر يزن كلماتي معه. ربما يخبر الإدارة بما أقوله له، وهذه لا يزعجها عزلي إذا ما وشى بي بأنني أستدرجه أو أرشوه. فالعقاب في مثل هذه الحالة يستمر لأعوام. والشرطيّون يحسبون ألف حساب قبل التعامل معنا، إذ يُشهَّر في الإعلام بمن يفعل ذلك ويُكتشف أمره، ويُحال إلى المحاكمة.

تحدّثنا عن أسرته ومشقّة العيش. سألته أيّ موسيقى يسمع. أجابني بأنه يشتري من دكان صديق له أسطوانات له ولزوجته. طلبتُ منه أن يشتري لي واحدة لأمّ كلثوم.

— «لكن يمكنك أن تشتريها أنت».

— «يبدو أنّكَ تثق بصديقك».

قلت له ودسستُ يمنايَ بجيب بنطالي. ارتخى فكّه الأسفل. قلتُ يتلهّف لِأعطيه مالاً.

أتى قائد المنطقة وراح يتمشى في البهو. رأى كلّ منّا الآخر. توقّع أن أقصده. بقيتُ في الممر. وأنا أفكّر في أنّه لو كان لديه حلول ويبحث عن حلول لاستدعاني إلى اجتماع، لكنّه آتٍ لفرض هيبته وألاعيب من هذا النوع، لا أرغب فيها.

جاءني أسرى وأخبروني أن قائد المنطقة في البهو، ويقصدون أن أذهب إليه، كما جرت العادة.

— «أعرف، رأيته، لكنّي لن أزحف نحوه. إذا كان آتياً للقائي يرسل إليّ ضابطاً ونجتمع في مكتب المدير».

تعمّدتُ أن أشرح لهم قاعدتي التي فسّرتها للمدير أيضاً. وهي أنني أعرض مشاكلي على المدير، فإذا كانت تحتاج إلى قائد المنطقة، يعني أن هذا حين يأتي إلى السجن فإنه يأتي من أجل مناقشتها وبتّها.

غادر قائد المنطقة ولم نلتقِ. ولم أسأل مدير السجن عنه. وقد بدا في اجتماعنا الأسبوعي منتظراً أن أفتح معه الموضوع ليلومني على عدم ذهابي إليه حين كان في البهو. ولم أفعل.

ولم أقصد مدير السجن نفسه، في هذه الفترة، إلاّ عند موعد اجتماعنا الأسبوعي. فهِمَ أنني لن أتهافت للقاء معه هو أيضاً. وإذا كان هناك أمر طارئ أراجعه فيه لمعالجته. وقد فعلت هذا مرّة حين مُنعت أسرٌ من دخول قاعة الزيارات ولقاء الأسرى الذين تزورهم.

أُعلنَتْ، في ١١/ ١١/ ٢٠٠٤، وفاة أبو عمّار. لغزٌ وقد أدخلنا في متاهته. مَن صدّق اتّهم إسرائيل بتسميمه، ومَن لم يصدّق يبحث عن مخرج إلى الواقع. محبّوه ومناصروه، ومَن وجدوا مراجع وقادة آخرين، الجميع واجم، حائر، قلق. اختُلف عليه وعلى سياسته، صحيح، لكنه عنوان الثورة الفلسطينية، قائد مسيرة، أبٌ لشعب. . . وفوق هذا، يرحل قبل أن ينتزع الشعب الفلسطيني حقوقه وأرضه، والاتفاقيّة التي وقّعها أبو عمّار لم تُنفّذ. وبرغم ضآلتها وضحالتها تنهشها إسرائيل وتفسّرها كما تشاء، بل ضربت بها عرض الحائط. . . حصل هذا أثناء حياته، فكيف بعد موته. . . الذي لا تبدو إسرائيل بريئةً منه.

جاء مدير السجون، غانوت. استدعاني إلى اجتماع وعرفت أنه يصطحب فريق عمله. فمررت على جهاد ويحيى لنترافق. والقاعدة بيننا ألاّ يتكلّم منّا إلاّ ممثل المعتقل، وأن مَن يريد أن ينبّهه إلى أمر يكتبه في ورقة ويمرّرها له.

وقف لمصافحتنا.

قال واثقاً:

— «نحن ننفّذ ما اتّفقنا عليه».

هززتُ كتفيّ:

— «إلى حدٍّ ما، وهناك أمور يقف عندها المدير ويقول إنها من صلاحيات مَن هم أرفع منه».

همدت حماسته قليلاً. تواضع. ولعلّه فكّر أنني لا أرضى إلاّ بتنفيذ كامل الاتفاق.

سعى سريعاً لتعزيز أوراقه:

— «يمكنكم زيادة المشتريات لتحسين وجبات الطعام».

فتح عينيه موحياً أن هذه المفاجأة غير المتوقعة من التحسينات التي وعد بها.

رددت عليه:

— «الأهم من هذا هو التنفيذ».

نظر في اتجاه المدير وأكّد التقيُّد بتعليماته من اللحظة.

وبعد أيّام فاجأني بوصوله إلى القسم. أمر بفتح بابها ودخلنا معاً. جلسنا. بدا عليه أنه آتٍ ليطلعني على خبرٍ سار حقّقه هو:

— «سأسمح لفلان وفلان وفلان... باستعمال هاتف السجن كي يتّصلوا بأُسرهم. أما الذين ينظّمون خلايا في الخارج فممنوع عليهم ذلك، ولا تطلب مني أن أقبل بهم».

توجّستُ أن يكون وراء هذا الكرم سرّ استخباري. وللحظة، فكّرت أنه يرضيني كي يطرد صورته هارباً من سيارة حرس الحدود في نهاريا. ولعلّه يريد إثبات أنه حَسَن النيّة ولا يستحقّ أن يُقتل. ثم قلت لنفسي إن الأمر لا يتعلّق بي وبه وبنهاريا والثورة، بل يتصرف كمدير يسعى إلى النجاح وتهدئة الأمور ولا يقدّم شيئاً من جيبه.

ابتسمت في وجهه وأكّدتُ أن هذه خطوة إيجابيّة في طريق تنفيذ وعوده.

اطمأننت إلى تحسّن الظروف في السجن. طلبتُ من اللجنة الوطنية إعفائي من مهمّاتي:

— «أنا متعب وأرغب في الراحة. نفّذتُ ما اتّفقنا عليه، والأمور تسير على خير ما يرام، وعلينا الحفاظ على المكتسبات بالثبات والمتابعة».

قلت هذا بنَفَس مَن يتشوّق للتقاعد بعد سنوات من المسؤولية والمشقّة، وكلّي حماسة للقراءة.

لم يوافقوا.

وصلت المدفأة إلى المرأة. أشعَلتْها. صرخت بي لتخبرني مبتهجة. دفئ قلبي. لم أنعم طويلاً بهذه السعادة. طلبت إليّ سجينة أخرى مساعدتها لرؤية ابنها السجين أيضاً والممنوعة عنه. قصّة أخرى تدمي الروح. باب مأساة وقد فُتح أمامي. ورفاقي في الزنزانة يموتون مرّات وهم في أسرّتهم.

وعدتها بالسعي ابتداءً من الغد. وفي الصباح كرّرَتْ عليّ رجاءها مع بكاء مستمر.

رفض المدير مساعدتي:

— «خدمتُكَ في المرّة الماضية، وحملتُ جميل الإدارة هناك، لأني قلت إنها مرّة واحدة».

عرضتُ على رفاقي في اللجنة مشكلة تلك المرأة واقترحتُ الإضراب عن الطعام ليوم واحد من أجلها. تحمّسوا. أعلنّا الإضراب.

أهملَ المدير تحرّكنا. سوّف في حلّ مشكلة المرأة. هدّدنا بتكرار الإضراب.

استمهَلَنا لمراجعة مديرية السجون.

تمرّ أيّام وهو يعدني.

صرخ لي، وأنا في الممر، أحد رفاقي في الزنزانة:

— «وقع انفجارٌ كبير في بيروت».

طلبتُ إلى الحارس فتح باب زنزانتي لأدخل وأتابع الأخبار. انضممتُ إلى رفاقي في مشاهدة قناة "LBC".

قلت:

– «هذا العمل لتخريب الأمن على السوريّين».

نقل إليّ المراسل حيرته عمَّن يستهدف الانفجار. وقال إن موكب رئيس الحكومة رفيق الحريري مرّ من هنا، إذ كان في جلسة مجلس النواب لمناقشة قانون الانتخابات النيابيّة. وقال المراسل إن السؤال الآن عمّا إذا كان موكب الحريري وصل إلى بيته أم أن هذه السيارات المحترقة له.

تأكّد أنه موكب الحريري وقد أصيب... ومصيره ما زال مجهولاً.

نقلتُ التلفزيون إلى القناة الثانية الإسرائيليّة. سمعتُ تحليلات تتّهم حزب الله. فكّرت أن هذه البروباغندا الإسرائيليّة المكشوفة... وقلت الموساد ليست بريئة. وهي جازمة أن حزب الله مَن قتله قبل أن يتأكّد موته.

لماذا يقتل حزب الله الحريري، أهو إسرائيلي؟ مشروعه إسرائيلي؟ لا أعتقد ذلك. بل إنّ اغتياله يهدف إلى ضرب المقاومة في مسار السعي إلى تطبيق القرار الدولي ١٥٥٩.

ليلة كاملة بقيتُ أسمع تلك المرأة تبكي في زنزانتها تريد رؤية ابنها والاطمئنان عليه. تردّدتُ في أن أقترح عليها اللجوء إلى الصليب الأحمر، فتظن أنني لا أريد أن أفعل شيئاً لأجلها. وفكّرتُ أنها ربما لجأت إليه ولم تنجح محاولتها. كرهتُ ممثّلة المعتقل عندها، المتسلّطة التي لا تعمل لأجلهنّ شيئاً. يشكون منها ومن المشاكل التي تدخلهنّ بها.

لم أعرف كيف طلع الصباح كي أقصد المدير إلى مكتبه وأحثّه على مساعدتها. أكّد لي أنه يبذل جهده. وعبّر أنه لم يكن ليضع يده في هذا الأمر لو لم أكن شخصاً يريد أن يتلافى غضبه.

ابتسمتُ له معتدّاً ولأخفّف عنه.

وافقت إدارة سجنها، بعد مدّة، على جَمْعها بطفلها لبعض الوقت.

أفضل من لا شيء، قلنا.

حصول هاتين السجينتين على طلبيهما كان بمثابة إعلان. انهمرتْ طلبات السجينات. يوميّاً. والمدير يزداد كرهاً لي:

– «اذهب إلى سجنهن. كُن ممثّلهنّ هناك».
أحياناً أضحك له، وأحياناً أطلب منه ألاّ يضيّع الوقت في هذا الكلام... ويعمل.
طلبتُ من الشرطي نفسه فتح باب زنزانة ليخرج منها أسير وينتقل إلى زنزانة أخرى ليحلّ مشكلاً. تمنَّعْ. خاف. قلتُ لا أمل منه في تهريب الهاتف.

جاء رقيب القسم، يامن زيدان. يبدو لي حزيناً، يتعامل بتأنّق واحترام معنا. أحاديثنا المتقطّعة تُشعرني بأنه يتجاوز الحذر الذي حكم كلامه في البداية، ويقلّص يوماً فيوم المسافات بيننا. السبب الأوّل كونه درزيّاً. وقد تشجع يامن أكثر فأكثر على الانفتاح عليّ بعد زيارة النائب سعيد نفّاع لي، موفداً من رئيس الحزب التقدّمي الاشتراكي، وليد جنبلاط. وقد حمّلت نفاع رسالة إلى جنبلاط ذكّرته فيها بوالده وجدّه، شكيب أرسلان، المؤيّدين للمقاومة العربيّة وللقضيّة الفلسطينيّة. ولفتّ جنبلاط إلى أهميّة أن يبقى مدافعاً عن المقاومة ويسعى إلى تطوير النظام اللبناني نحو الديموقراطيّة والابتعاد عن العصبيّة والفئويّة.
لم يخفِ يامن عنّي إحساسه بالتناقض بين هويّته ووظيفته. صارحني بمأساة أسرته التي فقدت ابناً، شقيقه، الذي كان جنديّاً في جيش الاحتلال في جنوب لبنان. قال لي:
– «إنه أخي، ولو كنتُ مكانه لكنتُ أنا الآن ميتاً في بلدٍ لا أعتبره عدوّي ولا أريد احتلال أرضه وقتل أبنائه. إنهم قومي. وأبي وجّهَ لعائلة شهيد المقاومة، الذي سقط في مواجهة أخي، رسالة عزاء وإكبار لتضحيات ابنها والمقاومة».
كاد يبكي لولا أنه يدرك صعوبة الموقف وحراجته بالنسبة إلى رقيب في سجن.
سكت. قمع دمعةً في عينيه الحمراوين. بقي واقفاً كأنه يواجه مصيره برباطة جأش. قال:
– «أنا وأنت من هويّة واحدة، يحرجني أن نلتقي كسجّان وسجين، كشخص يرتدي بذلة عسكريّة لدولة أنت تقاتلها وتعتقلك».
زاد احترامه عندي.
لم أفكّر في استخدامه لتهريب هاتف. أحسستُ أن أخلاقه أرفع من ذلك.

وبرغم تناقضه ذاك أحسبُ أنه لا يخون وظيفته. لم أقبل أن أقدّم له الأمر، مع إيماني بأنه لن يشي بي، كمهمّة قوميّة. قلت هذا ابتزاز لشخص يعاني من أزمة الهويّة. لم أفاتحه بأمر الهاتف مطلقاً. أبعدته عن هاجسي هذا، وذلك صعبٌ مع تفاقم حاجتي إلى الهاتف.

عاد الشرطي من إجازته. حين اطمأنّ أن لا أحد يرانا، أعطاني الأسطوانة. ونقلتُ من كفّي إلى كفّه مئة دولار. سعر الأسطوانة عشرة. نظر إليّ مستغرباً مبتهجاً. هززتُ رأسي مؤكّداً أنها له. أخفاها في جيبه. وغادرتُ إلى زنزانتي لأضع الأسطوانة التي لا أرغب في سماعها.

عرضت عليَّ الصحافيّة الإسرائيليّة، حين كوتس بار، التي أتت إلى مكتب ضابط القسم برفقة الناطق الرسمي باسم مديرية السجون عوفر لفلر، إجراء مقابلة معي. فكّرتُ أنها ما دامت وصلت إلى هنا، ومع لفلر، يعني أن الحكومة الإسرائيلية ومديرية السجون موافقتان عليها. وضعت علامات استفهام حول المقابلة. سألت في نفسي عن غايتها من ذلك. فهي تريد ما هو أكثر من مقابلة حصرية.

سألت الصحافيّة عن موضوع المقابلة. أجابت بأنّه ملف الأسرى اللبنانيّين. اشترطت أن تُبثّ المقابلة كاملة وأنا أتحدّث بالعربيّة.

استمهلتها أسبوعاً لكي أفكّر في الموضوع. طرح عليّ هذا الاستحقاق أسئلة وكأني بتّ جالساً أمام الكاميرا. موقفي المقاوم عنوان عريض فكّرت بوجوب تظهير تفصيلاته الفلسطينية واللبنانية والعربية. وبصراحة، أكثر ما ألحّ عليّ هو موقعي السياسي، ومعه قراءتي لتجارب المقاومات، خصوصاً في فلسطين ولبنان. هذه أسئلة ليست جديدة، عمرها من عمر المقارنات التي أعقدها وورشة إعادة صوغ هويّتي. لكن الآن عليّ ترتيبها وإخراجها بوضوح. سبب ذلك المقابلة التي سأطلّ فيها للمرّة الأولى بالصوت والصورة على جمهور يسمع بي وبأنني مقاوم وفي السجون الإسرائيلية لكنه لا يعرفني مليّاً. وضمن المقابلة هناك سبب آخر: قلقي من مَنْتَجة كلامي وتوجيهه في اتجاه غير معناه الذي أقصده.

كنت مستلقياً في سريري أقرأ، وفجأةً قطعت LBC بثّ البرامج العاديّة لتنتقل إلى بثّ مباشر من مكان انفجار سيّارة الصحافي سمير قصير، في ٢/ ٦/ ٢٠٠٥. صُدمت. حزنت عليه برغم اختلاف مواقعنا السياسيّة. حضرَتْ صورته شابّاً ملتحياً. أعرف أنه يساري ماركسي، وكنتُ أستغرب أن يكون كذلك وفي الوقت نفسه يكون حليفاً لقوى طائفيّة ويمينيّة مرتبطة بأميركا. وكنتُ أستغرب تأييده الثورة الفلسطينيّة ومعاداته المقاومة الإسلاميّة. لا أحسبُ أن هذا الجمع منسجم. لم أعتد اليسار العربي، المبدئي والسفسطائي، ينحو هذا المنحى. ففيما كان بعض اليسار العربي ينتقد المقاومة الإسلاميّة وحزب الله إلاّ أنه لم يتحالف مع أعدائها وخصومها. وإنْ كان يفترق بنسبٍ متفاوتة عن النظام السوري فإنه لم يرتمِ في أحضان أميركا.

هذا كلّه اختلافٌ فكريّ سياسيّ بالنسبة إليّ لا يعني مطلقاً إلاّ استنكر الاغتيال. لم أفكّر أن سوريا أو حزب الله مَن اغتاله. من اللحظة الأولى، قلت إنه اغتيل بهدف توجيه الاتهام إلى سوريا وحلفائها في لبنان، برغم أن جيشها انسحب إلى حدودها الدوليّة (٢٥/ ٤/ ٢٠٠٥). تماماً مثل مؤامرة اغتيال رفيق الحريري. مقتنعٌ مليون في المئة بذلك.

كتبتُ رسالة تعزية إلى زوجته جيزيل خوري وعائلته. قرأتها، عبر الهاتف، للمحامي الذي خطّها وكلّفته إرسالها بالفاكس إلى أسرتي.

تأكّدتُ من خلال التلفزيون أنها وصلت.

خرجنا إلى الباحة. أحسستُ أن حواراتي مع رفاقي تمرين على صوغ الأفكار. تناقشتُ مع مروان البرغوثي في سياسات التنظيمات الفلسطينية. قلتُ إن المقاومة الفلسطينية بمختلف تياراتها في أزمة تحتاج إلى جهود جبّارة للخروج منها. فتنظيمات منظمة التحرير تكرّر خطابها القديم مثقلة بتفاصيل المفاوضات مع إسرائيل. وبهذا تجمع تناقضات تزيد من أزمتها ومن تراجع جاذبيتها وحضورها وفاعليتها. في المقابل، الحركات الإسلامية لديها عقائد سياسية ودينية وتنظيمات قويّة. وبالرغم من ذلك، لا هذه ولا تلك قادرة على النهوض بالمقاومة وإحداث تغيير فعلي في الواقع الفلسطيني.

لم يخالفني مروان البرغوثي الرأي، عبّر عن ثقته بأن الشعب الفلسطيني قادر

على الخروج من النفق. وأكّد لي أنه حين وافق على طلب أبو عمّار أن يتولّى قيادة الجناح العسكري لحركة فتح لم يتردّد، كما فعل كثيرون من قادة الحركة. توقّف قليلاً ونحن نمشي في الباحة، وقال:

— «نحمل البندقية في يد، وغصن الزيتون في الأخرى، لأننا نعرف أن الإسرائيليين لن يتنازلوا ونحصل على حقوقنا إلاّ بالضغط، ولأننا أيضاً نؤمن بوحدة الشعب الفلسطيني من خلال تأكيد حقوقه».

كرّرتُ عليه موقفي الرافض للمفاوضات. لم يعارضني، ودعاني إلى النظر في الواقع العربي والدولي. لم أستغرب ثنائيّته العرفاتيّة التي يضيف إليها حنكته الخاصة.

شعرتُ بأنني، في خياراتي ومواقفي، أكثر حريّة منه، ومن أعضاء التنظيمات الأخرى، لأني لستُ محازباً، وأنظر إليهم وإلى حركاتهم وأفكارهم وسياساتهم من بعيد، ومن مسافة واحدة نحوهم جميعاً.

لا أفكّر في تجربة المقاومة في فلسطين إلاّ وأخلص إلى التفكير في المقاومة الإسلامية في لبنان. أقارن بينهما وأُعجَب بالمقاومة الإسلامية. أشعر بأنها المكان الذي سأخرج إليه، وأجد نفسي أمام البحث عن سبب خياري هذا. لا يغيب عن بالي أنها الوحيدة الآن في لبنان، لكن ليس هذا هو السبب. لماذا توقّف الآخرون عن المقاومة، لأسباب إقليميّة؟ هذه حجّة ليست كافية بالنسبة إليّ. وأقول في نفسي ليس هذا هو المهم، فتوقّف الآخرين وعدم توقّف المقاومة الإسلامية يفتح باباً على العلّة العقائدية السياسية لاستمرار المقاومة الإسلامية. وهذا، عندي، مرتبط بخياري وهويّتي. أفكّر أن علّة الاستمرار هي العقيدة. أخلص إلى هذا مطمئناً كمَن يمشي في دربٍ مضاءة.

أستمع، في زنزانتي، إلى إذاعة النور.

حسمتُ قراري موافقاً على إجراء المقابلة. أخبرت الصحافية التي أتت لتسمع جوابي. وأعدت عليها شروطي.

صرخ لي رفيق في زنزانة مجاورة يخبرني أنه اغتيل الأمين العام الأسبق للحزب الشيوعي اللبناني جورج حاوي، في ٢٠٠٥/٦/٢١. مَن يقتل مُطلِق المقاومة الوطنية اللبنانية ضد الاحتلال الإسرائيلي من منزل كمال جنبلاط، في ١٦ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٢، غير إسرائيل؟ هذا أوّل سؤال طرحته على نفسي. لا يمكن أن

أصدّق أنّ أحداً غير إسرائيل يغتال جورج حاوي، أجبت. قتلته انتقاماً من قيادته المقاومة الوطنية، وقتلته كي تُتّهم سوريا وحلفاؤها الذين يختلف معهم في السياسة الآن، وكل الاغتيالات في لبنان ارتُكبت لهذا الهدف.

صرنا نلتقي أنا ويامن كصديقين. كلّما اجتمعنا يعبّر لي عن احترامه لمبادئي وسيرتي وثباتي على مواقفي. وأنا أقول له إنها مبادئه أيضاً.

آنس به، يودّعني حين يغادر في إجازاته، ويعود إليّ حين يصل إلى السجن، حاملاً معه تحيّات أصدقائه وأبناء قريته، بيت جن، والجوار، وأخباراً عن قراءاته الجديدة. انْكبَّ على مطالعة شكيب أرسلان وكمال جنبلاط، وأطلعني على قراره متابعة الدراسة:

— «أريد أن أكون مثلك. تعلَّمتَ وأنتَ في السجن، وسأتعلّم وأنا في السجن».

ضحكنا. ولولا أننا لسنا سجّاناً وسجيناً، لاحتضنته وباركتُ له وعبّرت عن سعادتي بإقدامه وخياره.

قلت له:

— «أنا وأنت الآن مثل شقيقين يفصل بينهما شبك أو زجاج».

أجابني بأنه ليس الشقيق الحرّ وإنْ كنتُ أنا الشقيق الأسير. أنا وأنت سجينان، قال لي.

«في السجن العربي الكبير»، أعدتُ عبارةَ كمال جنبلاط لنضحك ونرسم المساحة التي نقف فيها.

كتبتُ رسالة إلى رفيقي السابق في الزنزانة في سجن نفحة، الشيخ عدنان يوسف، المقيم في غزّة، الذي أوكلتُ إليه متابعة تسلّمه راتبي من السلطة الفلسطينية. طلبتُ إليه أن يتّصل بصديقي القديم في إسبانيا، منذر الكسّار، ويعلمه بحاجتي إلى مبلغ عشرة آلاف دولار. لم أقل له إن هدفي شراء هاتف وتهريبه، وهو لن يسأل. سيلبّي طلبي بسرعة. وكتبتُ للشيخ عدنان أن يحتفظ بالمبلغ إذا ما وصل، حتى أُرسل له ماذا سنفعل به.

اقتربت من الزجاج العازل في قاعة الزيارات وألصقت الرسالة به كي يقرأها المحامي.

سمحت الإدارة للصحافيّة حن كوتس بار بأن تجري المقابلة معي في مكتب ضابط القسم، وتصويري في الممر. جهّز المصوّرون الكاميرا والإضاءة. قبل الشروع بالمقابلة، أخبرني لفلر الذي يرافق فريق «العربية» أنه كان الناطق الرسمي لجيش الاحتلال في جنوب لبنان.

— «لم يعد بإمكانك، أنت وغيرك، أن تفعل هذا. هناك مقاومة حرّرت الأرض ولن تدعكم تعودون».

ابتسم شبه ساخر، ولم يعلّق.

ركّزت الصحافية التي تجري الحوار معي على دور الحكومة اللبنانية ومسؤوليتها في ملف الأسرى اللبنانيين. حدستُ لعبة غايتها تحييد المقاومة الإسلامية عن هذه القضيّة. أسهبتُ في الحديث عن دور الشعب اللبناني والمقاومة والحكومة، في تحمّل هذه المسؤولية. حرصت على أن تكون عباراتي قصيرة وواضحة تفويتاً لأيّ فرصة لتقطيع كلامي وتحويره.

استغرقت المقابلة أكثر من ساعة. خرجتُ بعدها مرتاحاً إلى ما قلته، فيما ملامح الصحافية التي لا تتقن العربية تشي بأنها تراهن على المونتاج.

تصرّفات هذا الحارس، غير شرطي الأسطوانة، تشي بأنه قابل للاستجابة لتهريب هاتف. يبدو محنّكاً مستقلاً إلى حدٍّ ما، على شيءٍ من العبث الممسوك. يتحدّث معي ومع الآخرين من الأسرى من دون تردّد أو حذر. همستُ له بأن يفتح باب زنزانة كي يخرج منها أسير ويزور قريباً له في زنزانة أخرى. حدّق بي كأنه يريد أن يفهم هدفي من هذه الزيارة في وقت تُمنع فيه الزيارات بين الزنازين، أكثر ممّا هو خائف أو رافض.

فسّرتُ له أن لدى الأسيرين مشكلة يجب حلّها. اشترط عليّ ألاّ يتجاوز الأمر نصف ساعة. أكدّت له أن المسألة لا تحتاج إلى وقت أكثر. لم يسألني رفيقي الأسير لماذا هذه العملية. ابتسم واعتبرها فرصة ليتحدّث مع الرفاق في الزنزانة الأخرى. أخذ الشرطي على عاتقه انتقال الأسير من زنزانة إلى أخرى.

هذا هو، قلت. أومأتُ إليه أن الأمر سرّ بيننا. ارتاح لذلك ولم يتشدّد كثيراً. لم يُبدِ قلقاً.

شُغلت عنه بأمورٍ أخرى، وعدتُ بعد ثلاثين دقيقة. حرّك رأسه في اتجاهَي الزنزانتين، سائلاً هل يعيد الآن الأسير من تلك الزنزانة إلى زنزانته. اقتربتُ من باب الزنزانة التي تستضيف الأسير ودعوته إلى الخروج.

وضعتُ هذا الشرطي تحت مجهري. يشردُ أحياناً كأنّه تحت عبء.

عبّر يامن عن انزعاجه من الشيوخ ووجهاء القرى والبلدات الدرزية الذين يمالئون دولة إسرائيل، والذين زايدوا على اليهود حين اعتُقلت وطالبوا بإعدامي لأنهم لا يحتملون أن يكون درزيّ ما مقاوماً لإسرائيل.

قال:

— «يريدوننا أن نكون جنوداً وشرطة. هؤلاء يصادرون الدروز ويأخذونهم إلى ما يناقض هويّتنا».

فكّرت: بدأ رحلته مع التمرّد. وسمعته يسأل:

— «لماذا يطلبون منّا أن نكون قياصرة أكثر من القيصر ويحرّفون تاريخنا ويصوغون ديننا لننفصل عن العرب ونُلحَق باليهود؟».

يدرك أن هذا موقفي، لكنّه يعبّر عنه أمامي كأنّه يفكّر بصوتٍ عالٍ، كتعويذةِ خروجه من العتمة.

عبّرتُ له عن اشمئزازي من ذلك. ومع تصاعد مواقف وليد جنبلاط ضد المقاومة كان يستغرب ذلك.

بُثّت المقابلة وقد حُذف منها كل ما يتعلق بالمقاومة، جاءني عوفر لفلر إلى مكتب ضابط القسم ومعه الصحافيّة حين كوتس بار وشخص أجهل من يكون. احتل لفلر بقامته السمينة المتوسطة الطول المقعد. بدا لي مستعجلاً على الإدلاء بما لديه. لم يدعني طويلاً في حيرتي المُتحرّية غايةَ هذه الزيارة. قال لي إن هناك قراراً بإطلاق سراحي.

فكّرت أنه بدأ بالنصف الملآن من الكأس.

تابع بحماسة محاولاً قدر الإمكان أن يبدو منطقيّاً وأن ما يقوله عادي وما يطلبه بسيط:

— «كل ما هو مطلوب منك بيان فوري تطلب فيه حصر ملفك في يد الحكومة اللبنانية ممثّلة برئيسها فؤاد السنيورة، وأن حسن نصر الله ليس له أي علاقة».

سألتُ في نفسي مَن صاحب هذه المبادرة، ولماذا تريد إسرائيل إهداء السنيورة هذا الأمر؟

هممتُ لأحكي، قاطعني:

— «إطلاق سراحك مؤكّد إذا أبعدتَ نصر الله وتعهّدتَ بشكر السنيورة لدى وصولك إلى بيروت. ولك أن تختار أنت المحامي الذي يضمن هذا الاتفاق وتحدّد أنت الإجراءات القانونية التي تراها مناسبة لضمان حقّك في الإفراج... إذا التزمتَ الشرطين».

انتهى من الكلام محدّقاً إليّ معتقداً أنه المارد الذي خرج من الفانوس السحري وحقّق لي المستحيل.

نَفَّسَتهُ ملامحي قليلاً، وأسرعتُ في الرد ليكمل كلامي هذه المهمّة:

— «لا أسمح لنفسي بسحب هذا الملف من يد أيّ فئة لبنانية تتعهّده وتعمل لأجله. وأحتفظ لنفسي بحقّ شكر الجهة التي أريد، سواء أكانت الحكومة، أم حزب الله أم الشعب اللبناني. هذا الملف يخصّ اللبنانيين كافّة، ولهم الحق في العمل والاجتهاد في سبيل إطلاق سراحي».

رسم على وجهه الأربعيني ملامح المفاجأة والصدمة:

— «فكّر في الموضوع».

أخفيتُ أيّ تعبير، وأنا أتحسّر على الهاتف. رغبتُ في إخبار هذه القصّة للمنسّق بيني وبين السيّد حسن نصر الله، لأعرف لماذا هذا العرض المفخّخ.

وجدت الشرطي في الممر قلقاً ومتعباً. قدّمتُ له سيجارة. أشعلها وقال لي:

— «نيّالكم، يا ليتني سجين».

أوف. ما هذا؟ سألت نفسي فرِحاً بتوفيره فرصة ذهبيّة لي:

— «أتحسدُ أسرى على سجنهم؟».

— «الحياة صعبة ولا تنتهي مشاكلها. ومجّ السيجارة بشراهة».

قلت:

– «حياتنا أيضاً صعبة. أوّلاً وآخراً نحن في سجن. لا نعيش في بيوتنا، لا نشتري ما نريد، لا نعمل».

عيناه المرهقتان نحوي تعبّران عن تفكيره في مشكلته وفي الوقت نفسه كأنه يعرف للمرّة الأولى ما هي الحياة في السجن.

قلت:

– «مشكلتك أنت، مثلاً، ربّما تكون صغيرة، شجار مع حبيبة».

قاطعني:

– «يا ليت».

– «ديون محدودة!».

سكت.

أضفت:

– «ولديك مستحقات وأمور عليك سداد سعرها».

نظرَ إليّ كأنّي بصّارة. هزّ رأسه مشدوهاً سائلاً كيف اكتشفتُ أمره. وأنا أضحك في سرّي كيف أسقط كلامي العمومي على نفسه. يا للحاجة كيف تحيل الإنسان غبيّاً ومحدوداً.

وفي اللحظة التي قلت فيها إن مشكلته بسيطة وتُحلّ، تحرّكتُ مبتعداً عنه. تبعني مثل سمكة تسرع إلى طُعمٍ في صنّارة.

عَلِق.

ابتعدتُ عنه. نظرتُ خلفي، نحوه. كان واقفاً كما لو أن صاعقةً باغتته.

أثناء خروجنا إلى الباحة، مشيتُ ومروان البرغوثي. أخبرته بعرض عوفر لفلر. اقترب مني بملامح الصيّاد الماهر وهمس:

– «اقبل واخرُج، وحين تصل إلى بيروت افعل ما تشاء».

لم أستغرب منه هذا الرد، فهو المحكوم مثلي بخمسة مؤبّدات وأربعين سنة، لقيادته تنظيماً عسكريّاً نفّذ عدداً من العمليات، لا يرى أيّ طريقة لتحرّري. وفوق هذا لا يخفي تفكيره بملاعبة الحكومة الإسرائيلية وبأن الرد على أسلوبها الرخيص يكون بالضحك عليها وخداعها.

تحفّظتُ على ذلك:

– «لا يمكنني الموافقة على هذه الوسيلة. إذا خرجتُ بهذا الأسلوب فسأخون مبادئي ومسيرتي...».

قاطعني مبتسماً:

– «لا تنظر إلى الأمر على هذا النحو، لا تكن حنبليّاً».

استأنفتُ شرح موقفي:

– «لا يمكن أن أقبل أذيّة المقاومة معنوياً والقول إنها لا علاقة لها بملف الأسرى».

– «ربما هي تشجّعك على الموافقة، مَن يدري».

– «لا أعتقد ذلك. ثمّ إن موافقتي لا تعني فقط أنني أقبل بحريتي مقابل أيّ ثمن، بل إنها تعني أوّلاً وأخيراً أن الإسرائيليين هم مَن أخرجني. لا أسمح بالسؤال كيف أخرجت إسرائيل سمير القنطار بعد كل هذه السنوات، من دون تبادل، حتى لو كان الإخراج أن الحكومة اللبنانية أخرجتني... هذا يضع علامات استفهام حولي... وهذا ما أرفضه رفضاً باتّاً».

بقي صامتاً كأنه يعوم في النهر نحو ضفّتي.

همستُ له:

– «هذا الأسلوب يؤدّي إلى تنازلات. أنا وأنت نعرف أن إسرائيل لا تعطي شيئاً لا تريد ثمناً له أضعاف أضعافه».

– «هل تريد أكثر من إهداء السنيورة تحريرك والطعن بحزب الله؟».

– «مَن يدري؟».

وافقني الرأي، وتبنّى مخاوفي.

ناديتُ الشرطيّ ليخرجني من زنزانتي. لبّى مسرعاً مبتسماً كأنني مدير عمله ويريد منّي خدمة. خرجتُ ومشى متراجعاً عنّي أقل من خطوة يحاول الاقتراب منّي كما لو أنه يريد أن يطلب منّي شيئاً. أدّيتُ دور مَن لا يشعر بهذا.

التفتُّ نحوه وسألته:

– «أتعرف بماذا أحلم؟».

ليس على وجهه إلاّ علامات الاستفسار والتلهُّف لسماع ما أقول.
تابعت:
– «أن أشتري سيّارة»، قلت له هذه العبارة وأنا افكّر حقّاً، لا في شراء سيّارة بل في العيش حرّاً، في اختيار ساعة نومي وساعة استيقاظي، في ارتداء ثياب أشتريها أنا، في اللقاء مع أسرتي وأصدقائي في غرفة جلوس.
سمعته:
– «معك ثمن سيارة؟».
– «معي، ومعي ثمن هاتف وكل ما أحتاج إليه لجذب فتاة».
ابتسم كأنّه خلف مقود تلك السيّارة.
سألته:
– «أتتصل بك فتاتك؟».
– «ليس معي سيّارة تجذب الفتيات».
– «أنا قادر على مساعدتك».
انشدَّ أكثر.
مشيت. مشى خلفي.
– «اذهب إلى عملك»، قلت له.
بقي كأنّه لم يسمع. لا يريد أن يسمع.
– «كيف تساعدني، ماذا تقصد؟».
ابتسمتُ وخطوت خطوةً قصيرة. تبعني.
– «أُعطيك مالاً»، قلت وثبتُّ ككاميرا تصوّره.
لمعت عيناه.
أجّلتُ الحديث معه معطياً نفسي وقتاً لإنجاز مخبأ للهاتف في زنزانتي.

أحسستُ بحزنٍ وقلق في هيئة مروان. يلصق كتفه بباب زنزانته. لحيته النابتة وشعره الفوضوي أقلقاني عليه. سألته ما به.
– «لا شيء».
– «كيف لا شيء، ألا ترى نفسك؟».

— «أفكّر في ابني القسّام».

جمدتُ في مكاني، ماذا أقول لأسير وابنه أسير في سجن آخر. وهذا الأب هو مروان البرغوثي قائد وقدوة، أيّ كلامٍ هنا فارغ وأرعن. أخرجني هو من حيرتي. قال:

— «لا أخاف عليه من الاعتقال، فلسطين، كما تقول أمّه، ليست لي وحدي، بل خائف عليه كأب من التعذيب. أشعر بأنني أعذّب أنا، يا ليتني بدلاً منه، يعذّبونه بدلاً مني. أفكّر أحياناً أنهم ينتقمون مني به».

— «لا تقل هذا. اعتقلوه لأنه القسّام، شاب فلسطيني مقاوم».

— «عندما زارني محمد دحلان تمنّيت عليه أن يطمئنني على القسّام. لم أطلب منه التوسّط لإطلاق سراحه. لا أفعل هذا لابني بينما هناك آلاف الأسرى إخوتي وأبنائي. قلت له أريد أن أطمئن عليه، أن أراه، أن أسمع صوته. أهذا ضعف؟».

هززتُ رأسي داعماً له موافقاً على ما يقوله.

— «وماذا قال لك الدحلان هذا؟»، سألته لأنسيه قليلاً قلقه على ابنه.

— «وعدني وقال لي إن هناك مساعي لإطلاق سراحي، أنا وأنت وعدد من الأسرى. ستطالب بنا السلطة».

— «أتصدّقه؟»، سألته، وكي لا أحرجه في الإجابة، أضفت:

— «يخدّرونك بالكلام. كلّهم يريدون إبعادك وبقاءك في السجن. أنت خطر على كراسيهم ومناصبهم ومنافعهم».

حدّق بي وكأنه يشعر ويفكّر بما أقوله لكنه يفاجأ بقولي.

بدا متردّداً في إفشاء سرّ، ثم استعدّ ليصرّح به:

— «طلبتُ إلى السلطة الفلسطينية منحك الجنسيّة، ومَن أجدر منك بها، ناضلتَ وتناضل من أجلها منذ طفولتك، وها أنت في السجن منذ ثمانٍ وعشرين سنة. وأنت تستحقّها منذ زمن. كان على أبو عمّار رحمه الله أن يبادر إليها لكنه كان مشغولاً».

— «يشرّفني هذا، لكنّه لا يقدّم ولا يؤخّر في ارتباطي بالقضية والشعب الفلسطينيين».

— «لا يمكنك أن ترفض».

— «لا أرفض، ولن أرفض، وهي وسام على صدري، خصوصاً أنها منك».

ابتسمت في وجهه، وطلبت إليه:
— «ادخل، اغسل وجهك ومشّط الشعرتين على رأسك».
ضحك.

تابعتُ لدى الإدارة قضيّة لإحدى الأسيرات وعدتُ قبل موعد الغداء إلى زنزانتي. بشّرني شريكي في الزنزانة جهاد أبو غبن بأنّه عثر على مخبأ للهاتف المنتظر.

نظر إلى سرير رفيقنا جاد الله كنعان، فوق سريره، وقال:
— «في أحد أعمدة السرير».

في أعلى كلٍّ من الأعمدة الأربعة غطاء بلاستيكي، يمكن فتحه وحشوه بأوراق أو إسفنج مقتطع من الفرشة أو الوسادة من دون أن يلتفت أحد إلى نقصانها. فككتُ غطاءً ونظرتُ داخل العمود. وجدته فارغاً. استعددتُ للمباشرة بتهريب الهاتف.

جلستُ في مقابل المحامي، في يوم زيارته الأسبوعيّة. حملتُ سمّاعة الهاتف. سألني:
— «ماذا يجري في لبنان؟».

أجبته من دون تردّد أنه مخطّط أميركي إسرائيلي لضرب المقاومة ومحاصرة سوريا.

انتظرتُ أن يبتعد الشرطي المتجوّل خلفنا، وألصقتُ على الزجاج بيننا ورقة كتبتُ فيها: اتّصل بالشيخ عدنان واطلُب منه أن يستعدّ. لم أقل له هذا عبر الهاتف حذراً من أن تكون الخطوط مراقبة.

ذكّرني المحامي بما يحصل في لبنان. وأكثر ما يزعجني في السياسة اللبنانية الآن، مواقف وليد جنبلاط ضد المقاومة. أفهم أن يختلف مع حزب الله، أن يخاصمه ويفترق عن سوريا، لكن أن ينقلب على مبادئ كمال جنبلاط! لا أستوعبه، وإن كنتُ أعرف مزاجيّة وليد جنبلاط وبراغماتيته السياسية.

لا أفكّر كدرزي، ولا أشعر بأمراض الأقليّات التي لعب عليها وفيها الصليبيون ثم الاستعمار لتقسيم العرب وحماية الكيان الصهيوني وتبرير وجوده. ثمّة ما هو أكبر

وأهمّ، تحرير فلسطين وتحرّر هذه الأمة من الاستعمار والديكتاتوريات والأنظمة التابعة الفاسدة.

أفكّر في يامن والشباب أمثاله الذين يجدون أنفسهم أسرى ثقافة إسرائيليّة تناقض هويتهم. ويبدأ نزاعهم معها ومع القيود التي يفرضها عليهم أسياد المذهب أتباع الدولة، ويغدون أمام خيارات متطرّفة ومحدودة. إمّا الابتعاد عن الأهل والقرى وسلطة الشيوخ وثقافة نكران الهوية العربيّة والإسلامية، وإمّا المواجهة وهذا أمر مرهق معنويّاً ومادياً، وإمّا الانصياع والانجرار وراء وهم المنافع التي تُجنى من وراء التطبيع مع الكيان ودعايته وآلته الأمنيّة والسياسيّة والاقتصادية والاجتماعية.

أنا خارج هذا. انتميتُ إلى فلسطين ومقاومة الاحتلال الإسرائيلي. لكنّ ثمّة فارقاً بين زمن انتمائي واليوم. آنذاك كان هناك كمال جنبلاط الذي اجتهد لتكريس المذهب الدرزي كمذهبٍ إسلامي، وأصرَّ على تشريع أبواب الدروز على محيطهم العربي والعالمي، بينما وليد جنبلاط اليوم ينسف هذا ويعيد الدروز إلى القوقعة.

يأخذني هذا إلى التفكير في هويّتي. وكلّما أحسستُ بأنني سأتحرّر أشعر بأنَّ عليّ أن أختار. الحريّة هي الاختيار، والاختيار هو الهويّة. وأفكّر أن الأسئلة نفسها واجهها كمال جنبلاط، وقد اختار العروبة وفلسطين. وأنا، كما اخترتُ المقاومة في الماضي وفي مسيرتي، كذلك أختارها اليوم. جلستُ أقرأ كتاب «نهج البلاغة» للإمام علي بن أبي طالب.

جاء لي الشرطي بالقلم الذي طلبت منه شراءه لي. أعطيته أضعاف سعره وابتسم كثمرةٍ ناضجة، وبقي ملهوفاً آملاً بصفقةٍ أكبر. ناديتُه أن يأتي إلى زاوية مطمئنة في الممر. أسرع.

همستُ له:

— «أريدك أن تمرّر لي هاتفاً».

تراجع مصدوماً.

أعرف هذه الحركات. تردّد في البداية، فتفكير متأنٍّ بالمبلغ مع حذر من انفضاح الأمر. . . فقبولٌ مبنيّ على تأكيد منّي أن لا مخلوقَ في هذه الدنيا سيعلم بالأمر، غيري وغيره ورفيقي الذي سيسلّمه إيّاه.

قال:

– «آتي لك بهاتف كي تدير خلايا من هنا».

أجبته بصوتٍ خافت كأنْ لأوضح له أنه مخطئ:

– «ما علاقتي بحماس والجهاد، أنا من لبنان».

نظرَ إليّ مقتنعاً.

– «أعطيكَ ألفين وخمسمئة دولار عندما تتسلم الهاتف، وألفين وخمسمئة دولار بعد أن تسلّمني إيّاه».

بقيَت عيناه ثابتتين عليّ، لم يلتفت يميناً ولا يساراً. الابتسامة تمحو شيئاً فشيئاً القلق من ملامحه.

أخبرني المحامي أن الشيخ عدنان جاهز. فهمتُ أنه اتّصل برفيقنا في الأراضي المحتلّة عام ١٩٤٨ واتّفق معه على شراء الهاتف وتغليفه. ألصقتُ ورقةً فيها التعليمات على الزجاج. قرأها المحامي: إلى الشيخ عدنان، أرسل المبلغ إلى الرفيق. يعطي نصفه والغرض إلى الحامل، ويبقي نصفه معه حتى أتسلم... ثمّ حين أتسلم أنا أتَّصل بالرفيق وأعطيه إشارة تسليم الحامل المبلغ الباقي.

وفي ورقة أخرى كتبت رقم هاتف الشرطي كي يتم التنسيق بينه وبين الرفيق في أراضي الـ٤٨ على مكان تسليم الهاتف وزمانه.

غمزني المحامي وانطلق.

أعلن كبير المفاوضين الفلسطينيين صائب عريقات، في ١١/ ١٠/ ٢٠٠٥ أن قائمة الأسرى التي طالبت السلطة الفلسطينية إسرائيل بالإفراج عنهم تضمّنت اسمَي مروان البرغوثي وسمير القنطار. وبرّر عريقات إطلاق سراحي بأنني أمضيت أكثر من ٢٦ سنة في السجن. تزامن هذا مع إبلاغ رئيس الحكومة الإسرائيلية أرييل شارون مساعد وزير الخارجية الأميركية لشؤون الشرق الأوسط ديفيد ولش، أن حملة الاعتقالات التي يشنّها الاحتلال في الضفّة الغربيّة بحق أعضاء حركة حماس ستجعل مشاركتها في الانتخابات التشريعية الفلسطينية المقرّر إجراؤها في ٢٥/ ١/ ٢٠٠٦ مستحيلة.

قلت لمروان:

– «يطالبون بك لأن هذا يساعدهم في الانتخابات. لا يريدون لك الخروج بل يظهرون أنفسهم في موقع المطالب بحريّة رمز مثلك. هذا يلفّ الجماهير حولهم ويريحهم في مواجهة حماس».

– «ولماذا يطالبون بك؟»، سألني مساجلاً ليدلّل على أنني أبالغ في نقدي للسلطة.

– «لأنهم لا يطالبون بقادة حماس وعناصرها. وحماس وجمهورها لا يعترضان على حريّتي. وأيضاً، لستُ مرشّحاً لآخذ من طريقهم».

– «والله، لو أنّ شخصاً آخر غير سمير القنطار يقول هذا، لقلت للسلطة ألاّ تطالب به»، مازحني.

– «وهل تعتقد أن شارون سيستجيب لطلب السلطة؟ هذا كلام في كلام».

١/ ١١/ ٢٠٠٥ عيدٌ بالنسبة إليّ. تمّت عملية تهريب الهاتف. استعدتُ الأرقام التي حفظتها في ذاكرتي. بدأتُ برقم الشيخ عدنان. اطمأننت عليه وعلى استمراره في توزيعه أجزاءً من راتبي على أُسر فلسطينيّة. الباقي لشراء وحدات للهاتف. ثم اتصلتُ برفيقي في أراضي الـ٤٨. شكرته وطلبتُ إليه تسليم الشرطي المبلغ الباقي من رشوته.

حادثتُ أسرتي فرداً فرداً وتفرّغتُ ليضعني بسّام في أجواء التحرّكات التي تقوم بها لجنة المتابعة لدعم قضيّة المعتقلين اللبنانيين في السجون الإسرائيليّة. متحمّساً روى لي ما سمّاه نقل القضيّة إلى المحافل الدولية. المحطّة الأولى في منتصف آذار/ مارس الماضي، مشاركته والأمين العام للجنة محمد صفا في الدورة الواحدة والستين للجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة في جنيف.

قال بسّام:

«أهميّة المشاركة في هذه الدورة من كون الدورة السابقة، ٢٠٠٤، أجّلت، بموافقة لبنان، مشروع القرار اللبناني الذي يدين إسرائيل على استمرار اعتقالها مواطنين لبنانيين في سجونها، وذلك بناءً على رغبة دولية لإفساح المجال أمام الوساطة الألمانية وقتذاك. وذكّرت في الجلسة بأن الوسيط الألماني، خلال عملية

تبادل ٢٠٠٤، أعلن أنه يجب إطلاق سراح المواطن اللبناني سمير القنطار من دون تأخير بعد شهرين أو ثلاثة أشهر. لكن هذا لم يحصل والجهود المبذولة لم تؤدِّ إلى إطلاق أيّ معتقل لبناني في السجون الإسرائيلية. وإذ رددتُ على المندوب الإسرائيلي، في الدورة السابقة، الذي وصفكَ بـ«إرهابي مشهور»، اعترض السفير الإسرائيلي إسحق ليفانون. وقدّم لبنان، عبر رئيس البعثة اللبنانية في الأمم المتحدة السفير جبران صوفان، مشروع قانون عن حالة حقوق الإنسان للمعتقلين اللبنانيين في السجون الإسرائيلية. وقال السفير في اللجنة إن هذه الخطوة هي مثابرة على المطالبة بالحقوق المشروعة والمنتهكة لأبنائنا وإخواننا اللبنانيين المكرّسة بالقوانين والشرائع الدولية. وقد نظّمنا في الوسط التجاري الأكثر ازدحاماً في جنيف اعتصاماً تضامنياً حاشداً لمناسبة الذكرى السنوية الثالثة لانطلاق الحركة المناهضة للحرب والاحتلال. وشارك فيه عدد من ممثلي الأحزاب والجمعيات السويسرية الداعمة للقضيّة الفلسطينيّة».

جاء دور المنسّق بيني وبين السيّد حسن نصر الله. فرح لتمكّني من تهريب هاتف وأخبرني أن السيّد يسأل عنّي دائماً وينتظر عودة الاتصال بيننا. حمّلته تحياتي وقصصتُ له حكاية عرض الحكومة الإسرائيلية عبر عوفر لفلر. لم يعبّر عن مفاجأة. قال لي إن الانقسام السياسي حادّ في لبنان وثمّة محاولات لمحاصرة المقاومة لفرض واقعٍ جديد يناسب أميركا وإسرائيل. أكّدتُ له ثباتي على موقفي.

أحزنني سقوط ثلاثة شهداء للمقاومة الإسلامية، في ٢١/ ١١/ ٢٠٠٥، أثناء تنفيذ عملية لأسر جنود إسرائيليين في الجزء الجنوبي من بلدة الغجر الذي تحتله إسرائيل. قلت تدفع المقاومة ثلاثة شهداء من أجل حريّة أرضٍ ما زالت محتلّة، ومن أجل ثلاثة أسرى. احترمت المقاومة أكثر. هذه مقاومة تحترم مواطنيها وكرامتها. لم يعد السؤال لديّ كيف أفيها حقّها، بالتمسّك بالقيم والمبادئ. بتُّ واحداً منها وفيها. مسؤوليتي تجاه وطني ومقاومته تكبر.

ظهر ٢٣/ ١١/ ٢٠٠٥، صرخ لي رفيق في زنزانة أخرى، يخبرني أن مظليّاً إسرائيليّاً فقد السيطرة على مظلته الشراعية وعبر الحدود اللبنانية خطأً، وسقط هناك.

أسرعتُ نحو التلفزيون، على القنوات الإسرائيلية. سمعت أن هناك اشتباكات

بين الجيش الإسرائيلي الذي يحاول التقدّم لانتشال المظلّي والمقاومة التي تتصدّى وتحاول القبض عليه.

نقلت التلفزيون إلى «الجزيرة»، قالت إن الحدود اللبنانية الفلسطينية متوترة منذ عملية الغجر قبل ثلاثة أيام، وإن الطائرات الإسرائيلية ألقت اليوم فوق جنوب لبنان عشرات الآلاف من المناشير التحريضية ضد المقاومة مذيّلة بتوقيع دولة إسرائيل.

تفاءلت بأن المقاومة ستقبض على المظلّي. قلت صدفة خير من ألف ميعاد.

بقيت مسمّراً في مواجهة التلفزيون. قيل على القنوات الإسرائيلية إن قوّة إسرائيلية في مستعمرة المنارة فتحت ثغرة في السياج الحدودي وتبحث عن المظلّي مغطّاة بالقصف المدفعي وتحليق الطيران الحربي، وإن المقاومة فاجأتها وتتعامل معها بمختلف أنواع الأسلحة الصاروخية والرشاشة.

ازدادت حماستي.

بعد قليل، ورد خبر أن قوّة الاحتلال عادت ومعها المظلّي.

علمت أنَّ وجود هاتف لديه هو ما ساعده للتواصل مع القوّة الإسرائيليّة التي بحثت عنه، إذ استطاعت تحديد مكانه وتوجيهه.

أخبرني مروان البرغوثي أنَّ السلطة أقرّت منحي الجنسيّة الفلسطينيّة. قدَّرت هذا. وسألته:

— «هل يسمح لي جواز السفر الفلسطيني بالتنقّل بين الزنازين؟».

ضحكنا. ودعاني، هو وعبد الرحيم ملوح والشيخ بسّام السعدي من الجهاد الإسلامي والشيخ عبد الخالق النتشة وعبد الناصر عيسى من حماس، إلى النقاش لإصدار وثيقة الأسرى في الشأن الفلسطيني. اعتذرت معلّلاً ذلك بانشغالي في أمور الأسرى والسجن:

— «صوغوها أنتم وأنا أقرأها في ما بعد. موقفي تعرفونه من خلال أحاديثنا والبيانات التي أصدرها: الوحدة ورفض الانشقاق والحذر ممّا يُخطَّط لشق الشعب الفلسطيني لإنهاء قضيّته».

قبل أيّام جدّد السيّد حسن نصر الله، في العاشر من محرّم، ١٠/٢/٢٠٠٦، التعهّد بتحرير الأسرى، وقال «إننا نعمل لأن يكون هذا العام هو العام الذي نستعيد فيه إخواننا وأسرانا في سجون الاحتلال، من سمير القنطار إلى نسيم نسر إلى محمد فرّان إلى يحيى سكاف، إلى كل الذين يعنينا أمرهم، والمحاولة لإطلاق سراحهم ستفتح أبواباً طيّبة لكل إخواننا الأسرى الآخرين من السوريين والأردنيين والفلسطينيين الذين ما زالوا قيد الاعتقال. في هذا اليوم نؤكّد الموقف وأننا ماضون في هذا العزم وهذا الهدف».

برغم ذلك يقلقني السجال السياسي اللبناني حول سلاح المقاومة. فالأجواء ضاغطة على المقاومة وهناك دعوات لنزع سلاحها. وقد عُقِدَت، في لبنان، جلسةُ حوارٍ بين أركان السياسة في هذا الشأن. نقلتُ مخاوفي من هذا إلى السيد حسن نصر الله، في رسالة وصلت إليه مكتوبة عبر أسرتي. وكتبت له أن روح الانفتاح والحوار التي يتحدّث بها يستغلّها الخصوم لزعزعة الثقة ببقاء سلاح المقاومة.

ثم شاهدت على التلفزيون وليد جنبلاط ينتقد حزب الله ويصف سلاح المقاومة بسلاح الغدر. أغاظني ذلك. اندفعتُ إلى دفتري وصغتُ بياناً تعمّدتُ فيه أن يكون عاليَ النبرة من دون القسوة على شخص وليد جنبلاط، مراهناً على أن تصل الرسالة ويتوقف عن نقد حزب الله والمطالبة بنزع سلاح المقاومة. وناشدتُه أن يبقى أميناً لتراث والده وتاريخه ويعود إليهما. وقلت إذا لم يفعل فسأكون في المرّة المقبلة أكثر حدّة.

أمليته عبر هاتف قاعة الزيارات على المحامي كي يرسله بالفاكس إلى أسرتي. واتصلتُ ببسّام وقرأته له.

ردّ جنبلاط باسم الحزب التقدمي الاشتراكي عليّ، مدّعياً أن سلاح حزب الله قد تحوّل إلى سلاح غدر، ولم يعد سلاحاً لحماية لبنان والدفاع عنه.

بعد أيّام أطلّ جنبلاط على شاشة قناة «الجزيرة». أَنْصَتُّ لكل كلمة قالها. لم أتوقّف عند ما أدلى به في السياسة ويناقض مبادئ والده وحزبه. هذا شأنه وهو حرٌّ به برغم مخاطره على البلاد والمقاومة وقبل هذا على الجبل. إلى أن قال بعنجهيّة واستخفاف:

— «هل نحتل فلسطين لنطلق سراح الأسرى؟».

استفزّني. لا علاقة لي به وبحزبه، لا من قريب ولا من بعيد. لم أشعر بأنه

يتخلّى عنّي. أزعجني ما يرمي إليه، وهو التحريض على المقاومة والزرع في عقول اللبنانيين أنها تهدّد لبنان وتقدم على حرب مع إسرائيل لتحرير الأسرى. والمقاومة ليست كذلك، ولا أنا أقبل بتهديد لبنان من أجل حريّتي. أنا هنا في السجن دفاعاً عن لبنان وفلسطين وحق الشعبين في الحياة والحريّة وتقرير المصير. وإسرائيل هي التي تشن الحروب لا المقاومة. المقاومة تحرّر الأراضي، تدافع عن الوطن والشعب، وتناضل من أجل تحرير الأسرى. فتحرير الأسرى واجب المقاومة والشعب والدولة، وتحريرنا دفاع عن الوطن وتأكيد للعدو بأننا نحترم إنساننا ولا نتركه. ووليد جنبلاط يطعن في هذه الثقافة كلّها، ويكسر المحرّمات ويتطاول على المقاومة والسيّد حسن نصر الله، ويجعلنا كأسرى لا شيء، والمقاومة مغامرة وافتعالاً للحروب.

خطّيتُ بياناً شجبتُ فيه مواقف جنبلاط ووصفته بأبي رُغال، أوّل خائنٍ في التاريخ العربي، الذي أرشد ملك الحبشة، أبرهة، أثناء غزوه شبه الجزيرة العربيّة، إلى الكعبة مقابل حفنةٍ من الدنانير. وقلت: «أبو رُغال لن يحرّر أرضاً ولن يحرّر أسرى».

وراح مَن يقرأ البيان في الصحف يسأل عمَّن يكون أبو رُغال هذا. أخبرني بسّام أنه تحوّل حزّورة تزيد من القسوة على جنبلاط. حتى بادر ألبير فرحات في مقال نُشر في جريدة «السفير»، يشرح مَن ذا أبو رُغال، في مقاربةٍ سوسيولوجيّة مع وليد جنبلاط. قرأ بسّام المقال لي كلّه عبر الهاتف وضحكنا معاً.

يحدّثني يامن، على إيقاع تقدّمهِ في دراسته الجامعيّة، عن تلمّسه هويّته كدرزي عربي. أسمع كلامه وأجد نفسي في مكان آخر، في اتجاه آخر. هو ينقّب في النقطة التي ولد فيها، بين عائلته وأهله وملّته، وأنا أختار الطريق التي مشيت فيها. لم أشعر حين قرّرت، قبل ثمانية وعشرين عاماً وأكثر، أنني أبتعد عن البيئة التي ولدتُ فيها. صحيح أنني لم أنتمِ إلى الحزب التقدمي الاشتراكي، لكنني لم أكن أنسلخ عن بيئتي المذهبية، لم يكن هذا همّي، ولم أكن الوحيد في اختياري عدم الانضواء في المذهب وأحزابه. وأساساً، كانت أحزاب المذهب تنحو في اتجاه عروبي علماني. وإذا كنتُ أنسلخ عن مجموعة فعن أسرتي التي ابتعدتُ عنها لأسباب انخراطي في العمل الفدائي

لا تمرّداً أو رغبةً في الخروج منها. الآن، بعد ثلاثة عقود، أفكّر أنني ابن نفسي، ابن تجربتي، ابن المقاومة. هذه هي المجموعة، إذا صحّ التعبير، التي أرتبط بها. ومقارنتي بين المقاومة التي انتميتُ إليها فتى والمقاومة اليوم أفضت إلى إجابة محورية، هي أن العقيدة الشيعيّة هي المحرّك الرئيسي لولادة هذه المقاومة الإسلامية، وهي السبب في الإصرار والثبات والتضحية والانتصار. لا أنفي عن آخرين، مسلمين وقوميين عرباً وقوميين سوريين وشيوعيين، دوافعهم الثقافية والعقائدية والأخلاقية إلى المقاومة، لكن استمرار المقاومة الإسلامية ذات الثقافة الشيعية في مقاومة إسرائيل والدأب في هذه الطريق حتى التحرير والدفاع عن لبنان والنضال من أجل حريّة الأسرى، يعني لي الكثير. لهذا دليل عقائدي يفضي إلى المذهب الشيعي الحسيني الرافض للظلم والمواجِه للقمع وسلب الحقوق حتى الاستشهاد.

قلت هذا، عبر الهاتف، لصديقي إبراهيم الأمين. أردتُ رأياً آخر أحسبُ أنَّ لديه أسئلة مشابهة وإنْ كانت الخلاصات ليست مطابقة.

— «أرى خيارك منطقيّاً بالنسبة إلى تجربتك السياسية والعقائدية والعسكرية»، علّق بتريُّث.

— «أشعر بأنني أعتنق عقيدةً وثقافة مقاومَين للظلم والاحتلال والاستكبار».

— «عليك أن تفكّر مليّاً في الأمر، فإعلان تشيُّعك وانتمائك إلى المقاومة الإسلامية وحزب الله يعني أنك تخرج من طائفة هي عكس ذلك».

— «لا يمكنني إلاّ أن أكون في المقاومة، وفكر المقاومة الذي بِتُّ مقتنعاً به هو المذهب الشيعي الحسيني».

— «ادرس إمكانيّة أن تكون كذلك من دون إشهار، من دون أن تقارب البعد المذهبي».

— «لا يمكن أن أكون مقتنعاً بشيء وأخفيه».

وطلبت إليه مناقشة الموضوع مع السيّد شخصيّاً.

عدتُ ظهراً إلى زنزانتي مخطِّطاً أن أقرأ وثيقة الأسرى التي صاغها ووقّع عليها مروان البرغوثي وعبد الرحيم ملّوح والشيخ عبد الخالق النتشة وعبد الناصر عيسى والشيخ بسّام السعدي.

فوجئت كيف وقّعها ممثلو حركتي حماس والجهاد الإسلامي، فهما لا تقولان بدولة فلسطينية وأخرى إسرائيلية، ولا بالتزاوج بين التفاوض مع إسرائيل والعمل المسلّح. موقفهما واضح، مع فلسطين الطبيعية من النهر إلى البحر، وضد المفاوضات وتنتهجان الجهاد العسكري.

انتهيت من قراءتها قبل موعد النزهة. خرجت من زنزانتي وانتظرت مروان. حين رآني حاملاً الدفتر في يدي على وجهي ابتسامة تشي بأنني كشفتُ دوره في صياغة الوثيقة واستدراج الشيخين وعبد الناصر إلى التوقيع على ما يشبه خطاب حركته فتح والسلطة الفلسطينية، بادلني الابتسامة التي لا تخفي الإقرار، بل تدعوني إلى التواطؤ وغضّ النظر.

أومأت له سائلاً:

– «كيف لعبتَ بعقولهم؟».

– «ماذا تقصد؟»، رد والابتسامة تكاد تنفجر في وجهه المستدير الصغير فوق قامته القصيرة المنتفخة.

لم يستطع المقاومة طويلاً. اعترف بسرعة بأنه مَن صاغها وهم قرأوها بسرعة ووقّعوا.

– «يعرفون ماذا فعلوا»، قال محاولاً رفع المسؤولية عن نفسه.

– «ستسبّب لهم مشاكل في حركتيهم».

هزّ كتفيه، كمَن يوحي بأنه أنجز الصفقة وانتهى:

– «لا علاقةَ لي».

– «وأنا لا علاقة لي. لن أوقّع على وثيقة لا تعبّر عنّا في حزب الله».

انضمّ إلينا عبد الرحيم ملّوح، سائلاً بحماسةِ مَن ينتظر الانتهاء من الأمر:

– «وقّعتَ يا سمير؟».

– «لن أوقّع»، ونظرت إلى مروان ضاحكاً.

– «كيف تصدر وثيقة الأسرى ولا تحمل توقيعك؟»، أضاف عبد الرحيم.

لم أُجِب. انتظرت أن يفصح مروان السبب.

سألني عبد الرحيم:

– «ألديكَ مآخذ على الوثيقة؟».

توجّهتُ إلى عبد الرحيم:

– «هل قرأتها جيّداً؟».

– «نعم». ونظر إلى مروان حائراً.

رددتُ بسرعة:

– «الوثيقة فلسطينية، وأنا لبناني».

أدركَ مروان أنني حريصٌ على وحدتهم ولا أريد أن يسبّب موقفي سجالات ربما تغدو اتهامات.

أثار عدم توقيعي الوثيقة فضول عبد الخالق النتشة وعبد الناصر عيسى وبسّام السعدي.

سألتهم:

– «هل قرأتموها جيّداً؟».

– «نعم». أجابوا وقد تسلّل إليهم الشك:

– »لماذا تسأل، لماذا لم توقّع؟».

– «الوثيقة شأن داخلي فلسطيني وأنا أحترم خصوصية الشعب الفلسطيني وقيادته، وبالتالي أمتنع عن التوقيع».

بدأت أسرتي، التي زارت بطلب منّي ضريح الرئيس الحريري في الذكرى الأولى لاغتياله، الاستعداد للاحتفال بالذكرى السابعة والعشرين لاعتقالي، يوم الأسير العربي في السجون الإسرائيلية، ٢٢/٤/٢٠٠٦. أطلعني بسّام أن السيّد نصر الله سيتحدث شخصياً في المهرجان وأنه سيتطرق إلى موضوع إطلاق سراحي.

ابتهجت.

ثقتي بالمقاومة والسيّد وطمأنينتي بأنهما يعملان لإطلاق سراحي، فاضتا.

بقيتُ واقفاً في الزنزانة بمواجهة التلفزيون مثل شقيقي بسّام الواقف على المنبر في المهرجان الحاشد في الضاحية الجنوبية لبيروت. سمعتُ بصوته كلماتي التي أرسلتها:

«يوم انطلقت المقاومة الباسلة كان هناك فريقان في لبنان فريق مستعد لأن يقدم

دمه حماية لشرفه وعرضه ووطنه وفريق آخر مستعد لأن يقدم شرفه وعرضه ووطنه ليحمي دمه. وخاضت المقاومة مشوارها الطويل واقتحمت المستحيل وقدمت خيرة أبنائها وقادتها وصنعت النصر الأول في تاريخ العرب الحديث».

انتظرت أن ينطق بسّام عبارةَ «هيهات منّا الذلّة» التي ختمتُ بها كلمتي. لقد حمّلت هذه العبارة المفتاحيّة في التراث الحسيني الشيعي رسالتي المضمرة بأنني أنتمي إلى هذه الثقافة المقاوِمة.

تأجّجتْ مشاعري كلّها حين اعتلى السيّد حسن نصر الله المنبر، وراح بنبرته الواثقة وكلماته التي أشعر بأنها طالعة من قلبه وعقله يعصرني. تحوّل رأسي كاميرا التقطتْ كل كلمة نطق بها وصورته ختم لا يمحى:

«اليوم المعادلة هي أن نصنع حريتنا قبل أن نصنع حريتك وأن نثبت شرفنا قبل أن نؤكد على شرفك، وبهذا المعنى وهذه الروح تحمل المقاومة قرارك ووعدك وعهدها لك وتمضي، وأنا أؤكّد لك أن لقاءنا سيكون قريباً جداً جداً جداً إن شاء الله».

استمررتُ واقفاً مأخوذاً وتقديراً، اعتداداً بنفسي وسعادة بما يقوله عنّي.

قال:

«إن طريق حريتك وعودتك تعرفه ونعرفه وليس بحاجة لا إلى دراسات ولا إلى مؤتمرات، أنت ستعود ببندقية المقاومة ودم المقاومة وفعل المقاومة، واليوم أريد أن أطمئنك وأطمئن كل إخوانك، إننا عندما نمارس هذا الفعل الجهادي وهذا الفعل النضالي إنما نستند إلى الحق بتحرير أسرانا بكل الوسائل المتاحة، ولعل الوسيلة الوحيدة المتاحة هي فعل المقاومة، وإننا نستند إلى القانون.

إن عرفان الجميل لسمير القنطار والإخوة المعتقلين في السجون يقتضي، كما الوطنية، تقتضي الإنسانية كذلك والأخلاق والقيم والشرف والكرامة وكل ما يمكن أن يستحضره الإنسان أو يتذكره من قيم، كلها تقتضي أن نكون في هذا الموقع الذي لا ينسى أسراه ولا يغفل عنهم ولا يتركهم في السجون، ويقدم الدم من أجل استعادتهم إلى الوطن.

هذا تجديد عهد ووعد مع سمير الذي نحيّيه في كل مناسبة ونحيّي من خلاله أيضاً كل الأسرى اللبنانيين والفلسطينيين والسوريين وخصوصاً في الجولان المحتل، والأسرى الأردنيين وكل أسير ومعتقل في سجون الاحتلال، وأقول لهم جميعاً ومن

خلال سمير: أنتم مسؤولية الأمة كلها ولا يجوز لأي موقع في هذه الأمة أن يتخلى عنكم مهما كانت الاتهامات ومهما كانت الظروف والأثمان.

لسمير أود أيضاً أن أقول: إلى أن يوفقنا الله تعالى في القريب العاجل في استعادتك للحرية وللوطن مع إخوانك، نحن أيها المقاوم الصابر الصامد نحن بحاجة إليك، وأنت خلف القضبان نحن بحاجة إلى صوتك وكلماتك، والى نبرتك المرتفعة، إلى عنفوانك وحماستك، والى إيمانك وثباتك وصمودك، نحن بحاجة إليك لأنك اليوم في لبنان تسكن في موقع الحجَّة، أنت حجَّة نضالية ووطنية وقومية كبرى، حجَّة على مَن؟ ولماذا أنت حجّة؟ لأننا عندما نقرأ رسائل سمير الرجل الذي غادر بيته وعائلته وقريته وهو شاب في زهرة العمر وذهب ومضى للشهادة وليس ليبقى على قيد الحياة، فلم يكن في ذلك الجيل من العمليات أمل في العودة، سمير الذي أمضى ثمانية وعشرين عاماً خلف القضبان، ونحن نعرف السجن وماذا يمكن أن يفعل بالإنسان، فإذا بهذا الشاب الرجل وحتى اليوم، صامدٌ، صلبٌ، وقويّ يرفض أن يربح حريته حتى بالاعتذار من محتليه وسجّانيه، هذا الرجل عندما نقرأ في رسائله هذا الكم الهائل، بل هذا الجبل الشامخ من العزم والشجاعة والإرادة والتصميم والإيمان والثقة واليقين، يصبح حجّة على كل الذين يتخلون عن إيمانهم وعن يقينهم، حجة على كل الذين تهن إرادتهم وتضعف عزائمهم، حجة على كل الذين يتركون مواقعهم وينقلبون على تاريخهم وتاريخ آبائهم والأجداد، يصبح حجّة على كل الذين يتركون خلف ظهورهم أجساد الشهداء ودماء الجرحى وعذابات الأسرى والأراضي المحتلة والمقدسات المنتهكة والأمة الذليلة المنكسرة المهانة، التي لا عز فيها لولا سمير القنطار وأمثاله».

غمرني كلام السيّد. بدأ العدّ التنازلي بالنسبة إليّ. كلماته برغم وضوحها كانت شيفرة الأمل، وشيفرة الخوف والقلق بالنسبة إلى الإسرائيليين. انشغلت القنوات التلفزيونية والصحف، بتحليل ملامحه وخطابه، ملْمَحاً ملْمَحاً وحرفاً حرفاً. اختصاصيّة نفسيّة تحلّل شخصيته القويّة بلغةٍ لا تخفي التحسُّر لكونه عدوّاً وليس إسرائيليّاً. وخبير عسكري يكشف أن حزب الله يعمل ليل نهار لتنفيذ عملية أسر لجنود إسرائيليين. ويتأرجح بين احتمال نجاح حزب الله في ذلك وتهدئة النفس بالقول إن الجيش مستنفر ومستعد لإفشال أيّ عمل على الحدود الشمالية. سَرَتْ في الإعلام الإسرائيلي كلّه لغة واحدة: التهديد. رئيس الحكومة إيهود أولمرت بهيئته

الخالية من أيّ ماضٍ وتجربةٍ عسكريَيْن يهدّد. ووزير دفاعه عمير بيرتس الذي يذكّرني شارباه الكثّان بالشخصيّة الكرتونيّة العم شنبو... يهدّد. وأنا في نفسي أقول هذا كلّه دليلُ ارتباكٍ وتخوُّف. يريدون تكبيل المقاومة وجعلها تتردّد. تؤازرهم الأبواق في لبنان ودول عربية. هنا، توجّست. فكّرت في ما لا تكفّ الدعاية الإسرائيلية عن تكراره، وهو تنامي قوّة حزب الله على الحدود الشمالية مع وعيد بضرورة القضاء عليها. باتت أمامي حقيقة لا يخفيها الإعلام ولا يتوانى عن التصريح بها المسؤولون السياسيون والعسكريون، وهي الاستعداد لشنّ حرب على لبنان. لا يمكن أن تقبل إسرائيل بمعادلة ردع لها، تريد أن تبقى متحكّمة بالمحيط، تقرّر هي الحرب والسلم. المقاومة، إذاً، في سباق مع الوقت. والأكيد أن المقاومة تتحسّب لذلك، وعملية أسر لن تردّ عليها إسرائيل بحرب، ربّما تدمّر جسراً، تطارد المقاومين لمنعهم من إخفاء الأسرى، ولا تدخل حرباً إلاّ إذا كانت لديها خطّة. فإذا أرادت إسرائيل هذا يعني أن احتمال أسر المقاومة جنوداً إسرائيليين لتحرّر الأسرى سيتأجّل ولا نعرف الواقع الذي ستنتجه الحرب. وإذا نفّذت المقاومة عملية أسر جنود إسرائيليين، فقد تأخذ إسرائيل ذلك ذريعة لعدوان. فهدف إسرائيل تدمير المقاومة، وإنهاء ملف الأسرى فوزٌ للمقاومة. هذا ما يجعل المقاومة، في ظل التهديد الإسرائيلي بالحرب، تسعى إلى إنهائه قبل أيّ حرب إسرائيلية، أو بالتزامن معها.

كلام السيّد نصر الله يفصح عن ذلك. أستعيده، يتأكّد لي أن المقاومين ينشطون لتنفيذ عملية الأسر. وهو يقول صراحة إن المقاومة تسعى لتنفيذ عمليّة... قريباً جدّاً جدّاً. والإسرائيليون أكيد فهموا ذلك. أحسستُ بأن السيّد وهو يخاطبني يلعب على المكشوف مع الإسرائيليين، ما يرفع من حرارة التحدّي.

الاحتفال الثاني الذي أنعشني وانتظرتُ تهريب الصحف الفلسطينية لأقرأ عنه، أقيم في غزّة بذكرى اعتقالي. وأكثر ما أفرحني هو تحوّل الاحتفال إلى دعوة لتوحيد الشعب الفلسطيني.

نُشرَت وثيقة الأسرى الفلسطينيين، في ١١/٥/٢٠٠٦. أثارت تساؤلات واعتراضات كثيرة. قال أحمد جبريل، من دمشق، إن أحمد سعدات وسمير القنطار

لم يوقّعا عليها، وهذا دليل على أنها ليست جامعة وأن فيها مشكلة. وتكرّر هذا الموقف على لسان عدد من المعترضين عليها وفي الصحف الفلسطينية، حتى اضطررت إلى إصدار بيان أكّدتُ فيه أنني أنأى بنفسي عن الخوض في الأمور الفلسطينية السجاليّة التي لا توحّد الشعب الفلسطيني في النضال من أجل حقوقه وتحرير أرضه.

وأخْضعت حركتا حماس والجهاد الإسلامي والجبهة الشعبيّة الموقّعين باسمها للمساءلة كيف يوقّعون من دون الرجوع إلى قيادتهم. وفي السجون قادة آخرون لحماس، توفيق أبو نعيم ورَوحي مشتهى، وللشعبيّة أمينها العام أحمد سعدات. وانتفضت قواعد تلك التنظيمات في السجون عموماً وهداريم خصوصاً، سائلةً كيف انفرد النتشة وعيسى والسعدي والملوح في نقاش الوثيقة.

واجهتُ مروان، عند باب زنزانته. هو في داخلها وأنا في الممر:

— «أرأيت، ها قد حصل ما توقّعته وصارحتك به».

— «مراجعة الموقّعين تنظيماتهم هي مسؤوليتهم».

— «كيف نُشرت الوثيقة؟».

— «أرسلتها إلى أبو مازن ليطّلع عليها، هو مَن سرّبها».

قاطعته:

— «فعل ذلك لأنها توافق استراتيجيته وليقول إن في حماس والجهاد مَن هم مع سياسته، بل ليدّعي أن الحركتين لا تعارضان نهجه».

بدأ البحث في معالجة الأمر. نوقشت فكرة سحب الوثيقة والنقاش حولها من جديد.

عدت لأعود

«منذ وقت غير قصير والاستعدادات لعملية أسر من هذا النوع لم تلامس النجاح الكامل. في بعض الأحيان، كان الهدف يتحرك في منطقة تحتاج الى ترتيبات عملانية معقدة. وفي أحيان أخرى، كانت التحذيرات العلنية من جانب المقاومة تفرض استنفاراً دائماً لجنود العدو. لكن ذلك لا يمنع من التدقيق في الإجراءات وصولاً الى الثغرة التي يمكن النفاذ منها. هكذا هي معادلات المقاومة: كل إجراء للعدو فيه ثغرة، والمهم تشخيصها بدقة وعدم ارتكاب أي خطأ في التقدير ولا في التوقيت.

بعد الخامس والعشرين من أيار عام ٢٠٠٠، باشر المقاومون عملية رصد للحافة الأمامية الجديدة. كانت الثغر كبيرة في حركة جنود العدو. لكن تحذيرات قيادة المقاومة العلنية إزاء الأسر كانت أكثر حضوراً، والإجراءات الاحترازية لم تكن كافية لسد الثغر. وبعد شهور قليلة من المراقبة اللصيقة، حددت نقطة العملية الشهيرة عند بوابة شبعا قرب بركة النقار. يومها جرت عملية كلاسيكية. مرت مركبة معادية وفجرت بها عبوة ناسفة كبيرة. الانفجار الكبير دمّر السيارة غير المصفحة بخلاف ما هو متوقع. قتل الجنود لكن جثثهم حُملت على وجه السرعة في سيارة نقل رباعية الدفع. وخلال أقل من نصف ساعة، كان كل شيء قد انتهى.

بدا من الوقائع الميدانية بعد عملية الغجر قبل نحو سبعة أشهر، أن استنفار العدو ارتفع الى مستويات غير مسبوقة. كان على المقاومين إنهاك جنود العدو دون توقف. عمليات التحرّش المنظمة بالسلك الالكتروني فرضت على دوريات العدو عدم التوقف عن عمليات التفقد. كانت هناك حاجة كبيرة لمراقبة آلية العمل من

جانب العدو: نوع السيارات المستخدمة، عدد الجنود في كل منها، الحركة الروتينية أو المفاجئة، هامش المناورة أمام الجنود وآلية الاتصال بينهم وبين قيادتهم، ومستوى الاستعداد القتالي. وكيفية التصرف إزاء ما يحصل على السياج. اختبارات كثيرة حصلت. وعندما وجدت قيادة المقاومة أنه لا مناص من توسيع رقعة العمل، كانت الطبيعة عاملاً مساعداً في القطاع الغربي من الجبهة. ومر وقت قبل أن تتأكد قيادة المقاومة من أن هناك فرصة جدية لتنفيذ عملية خاطفة. كانت الصورة واضحة في أن العمل سوف يكون مشابهاً بقوة لعملية شبعا الشهيرة. ليس مطلوباً القيام بعمل عسكري اقتحامي كبير. ولكن المطلوب عملية ذات بعد أمني، ما يعني أن على وحدة الرصد أن تقدم المعلومات الكافية التي تمنع أي نوع من المفاجآت. وحقيقة أن الهدف هو أسر جنود أحياء، فرضت آلية من العمل العسكري. لم يكن على المقاومين عدم إطلاق رصاصات قاتلة ضد الجنود، ولكن كان عليهم استخدام آليات من العمل التي تتيح قتل البعض وترك البعض الآخر على قيد الحياة. وبالتالي فإن درس عملية شبعا النظري مهم في هذه اللحظة: إعطاب آلية دون قتل من بداخلها، وتدمير آليات الدعم وقتل من يتحرك لنجدتها.

مرت أسابيع عدة على المراقبة اللصيقة للنقطة. ذات يوم عبر المنطقة ضابط إسرائيلي برتبة عالية، هو أودي آدم، لم يكن وحده، بل كانت معه عائلته. ولم يكن هدفاً جدياً في تلك اللحظة. المقاومون الذين دربوا على تنفيذ الهجوم، وأعدوا له ما يجب من أسلحة وخطط هجومية وأدوات، باتوا لياليهم الطويلة وراقبوا لنهارات عدة قبل أن تظهر في الأفق ملامح الهجوم الناجح. كانت المعطيات الاستخبارية لدى المقاومة تشير الى اقتراب لحظة التبديل في عمل الكتائب المنتشرة هناك. كانت نقطة العملية قد تحولت الى نقطة أكثر ضعفاً من الفترة السابقة. الاسترخاء ظهر على حركة الجنود وقيادتهم، وموعد التبديل اقترب. لكن المفاجأة جاءت على شكل معلومة وردت الى قيادة المقاومة، بأن الكتيبة الدرزية سوف تتولى المهمات خلال ٤٨ ساعة. وهذا يعني أن العملية قد تنجح، ولكن الجنود المفترض أن يقعوا في الأسر سوف يكونون من أصول عربية، كانت المقاومة تبحث عن صيد من صنف آخر. ما استدعى الاستنفار بطريقة مختلفة.

يوم ١٢ تموز، لم يكن الاستنفار على الحدود شبيهاً بما سبقه. انتبه حزب الله إلى أن إسرائيل صارت تدقّق في أشياء كثيرة. وفي كل مرة ينوي الحزب القيام بعمل

ما، كان عليه إبلاغ جميع نقاط المراقبة والمراكز العلنية بوجوب الإخلاء. كبر جسم المقاومة، وباتت الحركة غير قادرة على الإخفاء كلياً. وتحدث الاسرائيليون كثيراً عن «إنذارات أو إشارات الى نية حزب الله القيام بشيء». كان البعض يعتقد ولا يزال، بأن اسرائيل تستند الى معطيات استخبارية من النوع الذي يصنّف عادة في خانة الخرق. لكن قيادة المنطقة الشمالية، كانت تكتفي بملاحظة لأحد مواقعها عن تقلص مفاجئ في حركة المقاومة، حتى تتصرف على أساس أن هناك شيئاً ما يتحضر.

في ذلك اليوم لم يكن القرار على نفس المستوى، لم تتلق وحدات المقاومة المنتشرة على طول الحدود وخلفها إنذاراً مسبقاً أو أمر عمليات موحداً حيال ما يمكن أن تنفذه مجموعات خاصة قرب عيتا الشعب أو قبالة مستعمرة زرعيت، بينما كانت الوحدات المكلفة العمل تتصرف على أساس أنها المعركة:

في مسرح العملية، انتشرت خمس مجموعات من المقاومة، تولت واحدة أمر الهجوم المباشر بواسطة القذائف الصاروخية، وتولت أخرى توفير الغطاء الناري بواسطة الرشاشات الخفيفة والمتوسطة، بينما تولت ثالثة قصف النقاط العسكرية ذات الحساسية المباشرة بالعملية، وكانت مهمة الرابعة تجاوز الحدود بعد تفجير البوابة الحديدية بواسطة عبوة خاصة وتسهيل الدخول بسيارة مدنية لنقل الأسرى. اضافة الى تعطيل حركة الجنود وفتح أبواب السيارات العسكرية، وفي مكان يصعب التأكد مما إذا كان قريباً أو بعيداً عن المكان، كانت الفرق الأخرى جاهزة أيضاً. سيارات مدنية أخرى فيها من يقوم بعملية الإسعاف لأي جريح يسقط من المقاومة أو من الأسرى. كذلك جهزت غرفة عمليات جراحية خاصة مجهزة بكل ما يتطلبه أمر إجراء عمليات جراحية للجنود الإسرائيليين إذا أصيبوا بجراح خفيفة أو قاسية. وبرادات خاصة لحفظ جثث الجنود إذا ما قتلوا. غرف مخصّصة لإيواء ضيوف من هذا المستوى إذا ما أُسر الجنود أحياءً.

عند اقتراب الدورية من نقطة الهجوم، كانت الخطة تقضي بمحاصرتها بالنيران في أكثر النقاط ابتعاداً عن أعين الرقابة الاسرائيلية. لم تكن العملية تحتمل أي نوع من الخطأ أو أي نوع من البطء. ولما تم التأكد من وجود سيارتين وأن تصفيحهما جيد، وأن بداخلها أكثر من ستة جنود، أُبلغت القيادة الميدانية بواقع الأمر. ولم يتأخر الجواب بإعلان الاستعداد للتنفيذ. وهو إعلان لا يشمل فقط المجموعات

التي تولت الهجوم الصاعق، بل يشمل وحدات أخرى، سواء على مستوى الجبهة أو على مستوى المناطق الخلفية.

«وصل الهدف الى نقطة المقتل» كما يقول المقاومون. أعطيت الإشارة ببدء الهجوم. السيارة الخلفية تعرّضت لقصف صاروخي مباشر أدى الى تدميرها بالكامل وقتل وجرح من بداخلها. لم تصدر عنها أي حركة بينما كانت هناك مجموعة تتولى أمرها، لا توقف الصليات المباشرة في ما بقي من الهامر التي أضحت في أقل من ٣ دقائق كلعبة أطفال محطمة. أما السيارة الأولى، فكانت هي أيضاً في مرمى النيران. لكن الإصابات أخذت شكلاً مختلفاً. كان المقاومون قد تدربوا على كيفية إصابة سيارة مصفحة دون إحراقها بالكامل، وكيفية توجيه الصليات الغزيرة من النيران باتجاه جنود مدججين بالسلاح دون إصابتهم إصابة قاتلة.

الهدف الرئيسي للمهاجمين كان الهامر الأمامي، كانت الخطة تقضي بأسر الجنود من داخله. لذلك حرص المقاومون على أن تكون صواريخهم الموجهة نحوه غير قاتلة في إصابتها. استنتج الجيش الإسرائيلي لاحقاً أن خطة المقاومة كانت ترمي إلى استهداف الهامر بطريقة تؤدي إلى احتجاز الجنود داخله.

أطلق المقاومون ثلاث قذائف صاروخية من طراز «آر بي جي» باتجاه الهامر، فانفجرت في الجانب الذي يجلس فيه غولدفاسر وريغيف، وأدّت إلى إصابتهما بجراح. في هذه اللحظة تمكن الجنديان الآخران، معدي وفاينبرغ، من الفرار خارج الآلية وتوجها نحو حرج محاذ للطريق ليختبئا داخله.

كانت القاعدة تقول إن الجنود إما يهربون من السيارة بعيداً حيث يأخذون مكاناً مناسباً للمواجهة، أو يبقون داخل المركبة بانتظار النجدة. كان تسليح وحدة الاقتحام يتضمّن آلات حادة مخصصة لفتح أبواب مغلقة وما شابه. لم يكن أمام الجنود الأربعة في سيارة الهامر الأولى فرصة لالتقاط الأنفاس. خرج جنديان من السيارة باتجاه حرج قريب. بحثا عن مكان آمن ولم تظهر منهما أي حركة كما يفترض أن يبدر من جنود في معركة. شيء ما حصل خلال أقل من دقيقة. الجنديان الآخران أصيبا بجراح مختلفة. اقتربت مجموعة من المقاومين من الآلية المشتعلة وسحبوا منها الجنديين، غولدفاسر وريغيف، فيما كان آخرون يفجرون البوابة الحدودية القريبة، لتنْقض عبرها السيارة التي سرعان ما اختفت في «المنطقة الآمنة» حيث لا يمكن للعدو أن يلحق بها. وبينما كانت مجموعات المقاومة تعمل على الانسحاب

بسرعة مذهلة مخلفة قتلى وجرحى ودماءً، كانت عمليات التبديل قائمة خلف الحدود بمسافة طويلة. ولم يمض وقت طويل جداً، حتى وصل الأسيران الى حيث تختفي آثارهما حتى يوم التبادل». (*)

خُصِّصَ البثّ التلفزيوني الإسرائيلي على القنوات كلّها لأخبار الحرب. قرّرتْ الحكومة «الرد بطريقة شديدة على مدبّري هذه العمليّة والجهات المسؤولة عنها»، وأعلنت الحرب على حزب الله في إطار ما سمّته «المواجهة الكبرى» التي بدأت. وحمّلت الحكومة الإسرائيلية الحكومة اللبنانية المسؤولية عن العملية التي انطلقت من أراضيها وعن إعادة الجنديين المخطوفين إلى إسرائيل. وأوعزت الحكومة الإسرائيلية بالشروع بعملية عسكريّة على مراحل تقضي بتنفيذ غارات على عدد من أهداف حزب الله وبعض أهداف البنى التحتية. وستنتظر رد فعل حزب الله الذي تتوقّع أن يكون قويّاً. وطلبت من سكان المناطق المحاذية للحدود النزول إلى الملاجئ كما رفعت حالة التأهّب في وسط فلسطين المحتلّة.

منعت مديريّة السجون المحامي الياس صبّاغ من زيارتي، ولم توضح له متى يمكنه لقائي. فسّرتُ القرار بأنّه لمنعي من إصدار أيٍّ موقف في شأن ما يجري في لبنان. ارتحت إلى أنَّه لا علم لدى المديريّة واستخباراتها بهاتفي، وتعتقد بأنّني أمرّر بياناتي ورسائلي عبر المحامي.

حربٌ على لبنان. قوّات إسرائيلية ضخمة على الحدود تحاول التقّدم. . . تتعثّر، تقع في كمائن، لا تعرف من أين يصل إليها المقاومون، يباغتونها، يستدرجونها، يتصيّدونها، تتراجع عن مواقع وقرى احتلتها، تفشل في التقدّم، دبابات الميركافا تحترق، تنقلب على جنباتها، تسقط أسطورتها. يُستعان بالطائرات، تغير، تدمّر الجسور والأبنية، تقصف مطار بيروت، تقتل المدنيين، عشرات، مئات المدنيين، تُنزِل فرقَ الكوماندوس، تحاصر هذه الفرق النخبوية، لبنان كلّه في مرمى النيران، مئات الآلاف من المهجرين، في المدارس، في الحدائق العامّة، في سوريا، على مرفأ بيروت ينتظرون البواخر، أطفال إسرائيليون

(*) إبراهيم الأمين، «الأخبار» العدد ٢٧٥، الخميس ١٢ تموز/ يوليو ٢٠٠٧.

يوقّعون على الصواريخ التي ستُرسل هدايا إلى أطفال لبنان، جسرٌ جويّ أميركي لمدّ إسرائيل بالأسلحة المتطوّرة، رفضٌ أميركي لوقف الحرب، رئيس وزراء لبنان يعانق وزيرة الخارجية الأميركية كوندوليزا رايس، سياسيون لبنانيون إلى مائدة السفارة الأميركية، وأصواتٌ تصرخ أنني سبب الحرب. كابوسٌ لا يتوقّف، لا أصدّقه. أحاول إقناعها بأنني في الأسر منذ ثمانيةٍ وعشرين عاماً، لا تسمع، وأنا أشعر بأن صوتي لا يخرج، هي أقوى، أصواتٌ لا تئنّ وجعاً. أحسّ بأنها ليست في دائرة الخطر، بل تتهِم، أصرخ كي تسمع بأنني لا أقبل بأن يُدمّر لبنان وأن يموت بريء وطفل من أجلي وأن الحرب إسرائيلية، تشوّش على صوتي كأني غير موجود.

أذرع زنزانتي. الحرّ يزيد اختناقي. أجلس. أقف كما لو أني أبحث عن تلك الأصوات في الزنزانة. هل مرّت يوماً بزنزانةٍ إسرائيلية؟ هل تعرف أن الأوطان لا تُبنى بترك حقوقها وأبنائها في سجون الأعداء، هل تعرف أن التخلّي عن الأبناء يعني الهزيمة أمام الأعداء، ويعني عدم احترام المواطن؟ أكان عليّ أن أكون ابناً فاخراً للطبقة السياسية وقوّاتيّاً أو كتائبياً سجيناً في سوريا كي أستحق النضال لتحريري؟ لستُ كذلك، يخجلني أن أكون كذلك. أنا كإنسان لو كنتُ سجيناً ارتكبَ جريمة جنائيّة لكنتُ لا أستحق أن يؤسر لأجلي جندي إسرائيلي ويُهَدّدُ بلدي ويُدمّر. لكن القدر وضعني بين عناوين خاتمة الاحتلال، ألا تريد تلك الأصوات أن ينتهي الاحتلال؟ ألا تريد أن تنتصر المقاومة لمواطني بلدها وتقفل ملفّاً وتضع حدّاً للاحتلال في تماديه بتبخيس المواطنين اللبنانيين وحياتهم؟ عن أيّ دولة، عن أيّ مواطن، عن أيّ استقلالٍ يتحدّثون؟

ضاقت بي هذه الأسئلة أكثر من زنزانتي المعتِمة.

بعد شهر من الحرب وافقت الحكومة اللبنانية، في ٢٠٠٦/٨/١٢، على القرار الدولي ١٧٠١. ويقضي الاتفاق بوقف كامل لجميع الأعمال الحربية، ونشر قوات الجيش اللبناني والقوات الدولية معاً في الجنوب، وبالتوازي مع ذلك، سحب إسرائيل جميع قواتها من الجنوب اللبناني. وفي فقرته التمهيديّة الرابعة يأخذ القرار «في الاعتبار حساسيّة مسألة السجناء ويشجّع الجهود الهادفة إلى تسوية مسألة السجناء اللبنانيين المعتقلين في إسرائيل».

في اليوم التالي، اجتمعت الحكومة الإسرائيلية ووافقت على القرار ١٧٠١.

خرجت وزيرة الخارجية تسيبي ليفني وأعلنت أن إسرائيل مستعدّة للتفاوض من أجل الإفراج عن الجنديين الإسرائيليين.

لم أفرح. . . الحرب ما زالت مستمرّة. . . والمقاومة تواصل دفاعها.

صباح ٢٠٠٦/٨/١٤، انقلبت الصورة. شاهدنا على التلفزيون المهجرين يعودون جنوباً. وجوههم المبتهجة طردت الحزن من قلبي. ليس أجمل من العودة إلى الأرض إلاّ العودة منتصرين. كانت حرباً قاسية، ولا يمكن نسيان آلامها وشهدائها الكثيرين، وجرحاها وندوبها، وهذا يعظّم النصر، يجعله أمانة. لا أفكّر على هذا النحو للتبرير لنفسي بل احتراماً للإنجاز، لحياة هؤلاء العائدين، لاستشهاد ألف ومئتي إنسان مقاوم ومواطن، تقديراً لوطني وللمقاومة.

مشيتُ في زنزانتي كما لو أني بين العائدين، وكما لو أني واحدٌ منهم كتبت:

«أتوجه إليكم برسالتي الأولى منذ اندلاع الحرب الإسرائيلية الأميركية الهمجية ضد لبنان ومقاومته الباسلة. لقد آثرت الصمت طيلة هذه الأيام، لأن الصمت في بعض الأحيان أبلغ من الكلام. الصمت أمام بطولات المجاهدين أصحاب الوجوه البيضاء الذين رفعوا رؤوسنا عالياً والذين كنت عندما أسمع أخبار التحامهم مع جنود العدو في الميدان في القرى الحدودية يفرح قلبي ويثلج صدري وتزداد ثقتي بأن النصر آتٍ لا محال.

أتوجه إلى عائلات الشهداء والجرحى، إلى كل من فقد عزيزاً أو بيتاً أو مصدر رزق، وأقول لهم إن تضحياتكم هذه هي قربان جليل على مذبح الحرية والكرامة والشرف والعزة والشهامة. وكونوا على ثقة بأن حريتنا في القريب العاجل لن يكون لها أي طعم أو قيمة لو لم ترتبط بالنصر العظيم الذي ثبّت أقدامنا على أرضنا ورفع جباهنا عالياً ولقّن أعداءنا وكل المراهنين عليهم درساً قاسياً جداً. وإلى أن نلتقي للحديث تتمة».

— «مبروك لنا جميعاً هذا الانتصار»، قال لي أحمد سعدات، الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين الذي جيء به إلى هداريم قبل أيّام. تابعنا المشي في الباحة أنا وهو ونائبه عبد الرحيم ملّوح ومروان البرغوثي. رفع رأسه موقِفاً جولته الهادئة من النظر إلى الأرض:

– «حقّق لبنان ومقاومته نصراً لا شكّ فيه، وما الحجم الكبير للدمار في لبنان إلاّ دليل خسارة إسرائيل، وحفاظ المقاومة على نفسها وسلاحها وقدرتها على الرد والدفاع والهجوم ما هو إلاّ دليل آخر على النصر، ومعه الحفاظ على الأسيرين».

توقّف صوته الهادئ كأنه لا يريد أن يحتل مساحة الكلام. نظر إليّ خجِلاً معتذراً. سمعنا ونحن ننظر بعضنا إلى بعض عبد الرحيم ملّوح:

– «نحن العرب لا نريد الانتصار، لا نحبّه، ليس لدينا ثقافته، اعتدنا البكاء على الأطلال».

رددت:

– «مَن يقف عند هذه الأبواق الناعقة!».

مروان:

– «أولمرت الذي بدأ يترنّح ويزعجه تظهير حجم الخسارة التي مُني بها، يقول إن إطلاق سراحك ليس على جدول أعمال حكومته».

ضحكنا ضحكةً هازئة تفكّ شيفرة مكابرة أولمرت.

– «اتركه يحكي ما يشاء»، قلت.

تدخّل أحمد سعدات قبل أن تنتهي الضحكة من صوته ووجهه:

– «هذا الأبله ينطق بكلماتٍ سيتراجع عنها، كما قال أثناء الحرب كلاماً أحمق بدا مخادعاً وكاذباً وخفيفاً».

كمَن يحكي نكتة سألنا مروان:

– «أرأيتم وزير دفاعه عمير بيرتس، يحمل المنظار العسكري مقفلاً ويهزّ رأسه كأنّه يرى شيئاً؟».

ضحكنا، وقال أحمد كمَن يرشّ ملحاً في الطعام:

– «لم يروا في الحرب أكثر من غطاء المنظار».

انضمّ إلينا فؤاد الشوبكي، مسؤول مالية منظمة التحرير. كان في سجن أريحا حين أخلاه حرّاسه البريطانيون مفسحين في المجال أمام الإسرائيليين لاقتحامه واختطاف أحمد سعدات. فقُبض عليه واتهموه بتمويل عملية السفينة «كارين أي». صافحنا وقال لي مودّعاً:

– «يجب أن نجتمع».

تركنا جميعاً نسأل:

– «ما الذي أتى به إلى السجن».
– «مَن قال لك إنني أريد أن أراك؟»، قلت ليسمعني مروان وأحمد وعبد الرحيم، وأضفت:
– «رجل بيروقراطي».
لم يعلّقوا. ابتسموا. نظرتُ إلى مروان وسألته:
– «ماذا يريد منّي؟ لا يجمعني به شيء، ولا أريد ذلك».

لم تسكت مديريّة السجون عن رفضنا قبل نحو سنة عزل مروان البرغوثي، وتهديدنا آنذاك بالإضراب. أخبرته الإدارة أنه سيُنقل إلى سجن نفحة. برغم آثار ذلك على مروان وعلينا وافقنا لأنه لن يُعزل، بل سيكون في سجن عادي. هكذا وُعِدنا.
ودّعناه، في ٢٠٠٦/٨/٢٧، وكلّي يقين بأنّه سيُعاد قريباً. هذه السياسة الإسرائيليّة، لا تترك السجين يرتاح أو يستقر.
التقيت، في الممر، بالشوبكي مغادراً إلى المحكمة. اقترب منّي:
– «إذا أمكن، أن تطلب من إدارة السجن السماح لسجين بمرافقتي؟».
استفزّني تزلّفه:
– «لماذا؟».
– «أنت تعرف أنني رجل لي مكانتي، فليحمل لي الشنطة».
– «أتحسَب أن الناس خدم لديك؟!».
فوجئ. ملامحه، منذ اقترب، توحي بأنه كان يتوقّع منّي الرفض. وبيروقراطيّته تأبى التصديق.
ابتعدت عنه، باشمئزاز، أحدّث نفسي:
– «يأخذون مروان ويتركون هذا».

هذا مَن أصدّقه. حملتُ دفتري وجلستُ أشاهد السيّد حسن نصر الله على شاشة تلفزيون الجديد.

قال:

«مَن يعتقد أن هذه الحرب سببها الأسيران فهو مخطئ. المعطيات التي تجمّعت في ما بعد، كانت تؤكد أن توقيت الحرب سيأتي من أواخر أيلول/سبتمبر وحتى أواخر تشرين الأول/أكتوبر على أبعد تقدير، وهناك أسباب عدة، أبرزها الموسم السياحي في إسرائيل الذي يعد أهم من الموسم السياحي في لبنان، إضافة إلى أن الإسرائيلي كان بحاجة لاستكمال مجموعة من المعلومات والجهوزية، وعندما يحل الأوان الذي كانت التحضيرات تصبّ نحوه، كان الإسرائيلي بذريعة وبغيرها سيبدأ الحرب، إذ يملك قراراً أميركياً، ودعماً من بعض الدول الأوروبية، وقد يكون في وقتها قام بتحصيل شيءٍ ما من الغطاء العربي. ولأُوضِح شيئاً في غاية الأهمية، إذ عندما يخوض الإسرائيلي حرباً بهذا الكم من الدعم، فهو يخوضها تحت شعار «الحرب على الإرهاب»، وبالتالي فهو ليس بحاجة إلى ذريعة (. . .). بناءً على تجربة كبيرة مبنيّة على عقود من الزمن، ولأننا نعرف كيف يتصرّف الإسرائيلي لا يمكن أن ردّ الفعل على عملية أسر سيكون بهذا الحجم، خصوصاً في ظل الموسم السياحي. وبتاريخ الحروب، لم يسبق أن شنّت أيّ دولة حرباً على دولة أخرى بسبب أسر جنود ومقتل آخرين. الآن إذا سألتموني أنني لو كنتُ أعلم بأن عملية الخطف هذه ستؤدي إلى حرب بهذا الحجم بنسبة واحد في المئة فقطعاً لما فعلنا، لأسباب إنسانية وأخلاقية وعسكرية واجتماعية وأمنية وسياسية. لا أنا أقبل ولا حزب الله ولا الأسرى في السجون الإسرائيليّة يقبلون بذلك وحتى أهاليهم لا يقبلون. لكن هذه النتيجة لم تخطر على بال أيّ منّا في القيادة ولو بنسبة واحد في المئة برغم كل التجربة العريقة لجميع أعضاء القيادة».

سألته الصحافيّة:

– «كيف هي حال الجنديين؟».

– (ضاحكاً): «هذا نتركه للتفاوض وثمنه غالٍ».

«ثمنه غالٍ». أنعشتني هذه العبارة. شعرتُ بأنني صعدتُ إلى سطح السجن، أتنشّق هواءً لا حدود له. هذه هي اللغة التي يفهمها أولمرت وحكومته. لا مجال للّعب، ولا للقبول بإطلاق سراح الأسرى اللبنانيين كافّة ثم التراجع مع الكلام الحراري كما فعل شارون وحكومته، في حفلة المزايدات التي شاء فيها شارون ووزير دفاعه شاؤول موفاز الخروج كبطلين يرفضان تحريري.

فهمتُ من السيّد نصر الله أن المفاوضات لم تبدأ بعد. إذ قال «ليس هناك أيّ شيء جدّي. ولكن أيّ طرف وحتى السيّد كوفي أنان إذا ما كان مهتمّاً بالموضوع، عليه أن يبحثه مع دولة الرئيس نبيه بري».

اطمأننت. رددتُ بما لا يخلو من مديح الرئيس بري وحنكته:

«لم يكن ينقص الإسرائيليين في موضوع التفاوض بشأن الأسرى إلاّ الرئيس نبيه بري. اكتملت».

حمّلت المنسّق بيني وبين السيّد حسن نصر الله، رسالة:

«اعمل براحتك، خذ وقتك، أنا شخصياً لست مضغوطاً».

مساء ٤/٩/٢٠٠٦، شاهدت على شاشة التلفزيون تقريراً مفصّلاً عن صحيفة «جيروزاليم بوست» الإسرائيلية باللغة الانكليزية، أن إسرائيل لا تستبعد إطلاق سراحي في إطار عملية تبادل لاستعادة الجنديين إيهود غولدفاسر وإلداد ريغيف. لم تنسب الصحيفة معلوماتها إلى أيّ مصدر. لكنها أكّدت أن الحكومة الإسرائيلية ستطبّق القرار ١٧٠١ الذي يدعو إلى الإطلاق غير المشروط للجنديين الإسرائيليين «وتسوية مسألة السجناء اللبنانيين في إسرائيل». ونقلت الصحيفة أن أسرتَي الجنديين لدى حزب الله تتحرّكان لحثّ الحكومة الإسرائيلية على الموافقة على عملية التبادل التي يقترحها حزب الله.

ارتحت. اتّضحت معالم المعادلة، لم أعد مرتبطاً برون أراد، وبالحد الأقصى ستكتفي الحكومة بالمعلومات التي ستقدّمها المقاومة عنه.

لم يطل انتظاري طويلاً. فبعد نحو أسبوع أطلّ السيّد حسن نصر الله عبر قناة «الجزيرة»، وأكّد أن حزب الله لن يطلق سراح الجنديين إلاّ إذا أُفرج عني. وسأل السيّد:

«هل بعد كل ما جرى ينتهي الأمر دون مبادلة سمير القنطار؟».

وتوقّع السيّد أن يقوم وسيط من الأمم المتحدة بزيارة لبنان الأسبوع المقبل لبدء المحادثات.

شاهدت ثلاثة من أسرى حرب تموز، حسين سليمان ومحمد سرور وماهر

كوراني، للمرّة الأولى، على شاشة التلفزيون، أثناء محاكمتهم في الناصرة، في ١٩/٩/٢٠٠٦. بدوا مرتاحين وإن لاحظتُ على وجوههم بعض الغرابة. لم تقلقني محاكمتهم، فلائحة الاتهام الموجّة إليهم هزيلة: الانتماء إلى منظمة إرهابيّة ومحاولات قتل واختطاف والتآمر على تنفيذ جريمة، وتورّطهم في محاولات سابقة لتنفيذ عمليات خطف، بما فيها عملية الغجر في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٥، وتقديم خدمات محظورة والخضوع لتدريبات ممنوعة واستخدام أسلحة.

ونقل التلفزيون أن الأسير سليمان قال في المحكمة:

«نحن لسنا مخرّبين، نحن مقاومون، عملنا على تحرير وطننا، ولا نترك أسرانا في السجون، وسنبقى نقاتل بأيّ وسيلة من أجل إطلاق سراح الأسرى كسمير القنطار».

أضحكتني لائحة الاتهام المختَرَعة، حتى إنّ المحامية، سمادار باز ناتان، التي كلّفتها المحكمة الدفاع عنهم قالت إنهم مواطنون لبنانيون قاتلوا إسرائيل في مواجهة مسلّحة، ومن حقّهم أن يحصلوا على مكانة أسرى حرب. وقالت: «إن هزيمة حزب الله يجب أن تتم في ساحة المعركة لا في محكمة جنائية».

أما زميلها في الدفاع عن الأسرى، إيتي هارملين، فرأى أن «من غير الواضح اختيار المسار الجنائي بحق الأسرى اللبنانيين. وقال إن محاولة تقديم الثلاثة باعتبارهم مجرمين جنائيين لا مقاتلين يلحق الإهانة بجنود جيش الدفاع الذين قاتلوهم». وختم: «إن الصواريخ ضد الدروع التي وجدت بحوزة موكّله، محمد سرور، لم يكن هدفها المسّ بإسرائيل بل حماية قريته».

رفضَت المحكمة اعتبارهم أسرى حرب.

اتّصلَ بي المنسّق بيني وبين السيّد نصر الله. نقل إليّ تمنيات السيّد بأن يكون خياري في التشيّع والانتماء إلى المقاومة واعياً وحرّاً لا تحت عبء ردّ الجميل، وقال لي:

— «يقول لك السيّد إن خيارك شأنك الخاص، والوعد بتحريرك لا ينتظر منك التشيّع، فوعدنا طالع من احترامنا لك شخصياً ومن قاعدة أننا لا نترك أسرانا في

السجون الإسرائيلية. فتحرير الأسرى مسؤولية أمام الله. وحين طالبنا بك لم نسأل عن دينك ولا عن انتمائك السياسي والحزبي. وفّقك الله في أيّ خيارٍ تتّخذه، ونحن على ثقة بقيمك ووطنيتك وإيمانك بالمقاومة».

— «أرجوك، أخبر السيّد أن خياري واعٍ وهو خيارٌ ثقافيّ وانتمائيّ، وعاطفيّ أيضاً».

— في كل الحالات، يتمنّى السيّد عليك ألا تُشهر ذلك كي لا يُعطى تفسيرات سياسية ضيّقة، كأن يُقال إنك تتشيّع كي تتحرّر، أو أن حزب الله يسعى لتحريرك لكونك تشيّعت، وإسرائيل تصطاد بالماء العكر. فقرار التشيُّع شأن خاص بك والأفضل أن تؤجّله إلى حريّتك.

اتّفقنا.

الحملة في لبنان على المقاومة والأسرى تتصاعد. خصوم حزب الله لا ينفكّون يتّهمون المقاومة بأنها غامرت إلى حرب دمّرت لبنان من أجل تحرير الأسرى وغايات إقليمية أخرى لمصلحة الحلف السوري الإيراني. بقيتُ ملتزماً الصمت كي لا تدخل قضيّة الأسرى في البازار السياسي اللبناني، إلى أن تحدث السفير الأميركي لدى بيروت جيفري فيلتمان، في لقاء جمعه وأعضاء غرفة التجارة الأميركية العربية في بيروت. قال إن الأسرى يعيشون في السجون الإسرائيلية بشروط حياة جيدة، وقد تناسى أن كل إنجاز في شروط الحياة حقّقناه كلّفنا أياماً طويلة من الإضرابات عن الطعام على مدار العقود الماضية وعشرات الشهداء الذين سقطوا في تلك الإضرابات. وما استوقفني أيضاً، هو تحميله لي مسؤولية تدمير لبنان.

كتبت، في ٦/١٠/٢٠٠٦ بياناً ردّاً على ما سمّيته «الأكاذيب الرخيصة الوقحة». واعتبرت أن «العدوان استُدرج عبر أدوات أميركا وإسرائيل في لبنان منذ صدور القرار ١٥٥٩ وضبطت إيقاعه الإدارة الأميركية مباشرة». وقلت لمروّجي هذه الأكاذيب: «وفق شهادة عشرات الأسرى اللبنانيين، لا بل آلاف الأسرى الفلسطينيين المحرّرين ومجموعة المحامين الذين تمكّنوا من زيارتي على مدار الأعوام والعقود الماضية، لو تم سجنكم أسبوعاً واحداً في الأماكن التي تم زجّي بها لما صمدتم، وكنتم ستتحوّلون إلى عملاء ساقطين في خدمة سجّانيكم». وأكّدتُ أنني «ما زلتُ

مصرّاً على أنني لم ولن أبحث يوماً عن خلاصي الفردي كشخص، ولا قيمةَ حقيقيّة لحريّتي إنْ لم تُربَط بحريّة الوطن التي كرّسها انتصارُ المقاومة وصمودها الأسطوري في الحرب الأخيرة».

فور إعادة مروان، في ١٠/١٠/٢٠٠٦، من سجن نفحة سألني إذا كانت المفاوضات في شأن التبادل قد بدأت.

رددتُ عليه بالسؤال عمّا إذا كان لديه معلومات في هذا الشأن. نفى وسأل عمّا إذا كان هناك رابط بين إفراج ألمانيا عن مواطنين إيرانيين ولبنانيين متّهمين باغتيال معارضين إيرانيين أكراد على الأراضي الألمانية. استبعدت ذلك. لكنه اعتبر أن هذه إشارة إيجابيّة.

فوجئت بأخبار إسرائيلية عن حصول عملية تبادل بين حزب الله وإسرائيل. لم أخف أو تراودني الشكوك. استغربت ذلك. وسألت المنسّق بيني وبين السيّد حسن نصر الله، فردّ عليّ مطمئناً:

— «شاهِد مقابلة السيّد على شاشة المنار».

انتظرتها. شاهدت أجزاءً منها عبر قناة «الجزيرة». طمأنني أن الإفراج عن الأسير حسن نعيم عقيل وجثتي شهيدين واحدة لمحمد يوسف عسيلي وأخرى سيتم التحقّق لمعرفة هويّتها، هو جزء من «العملية الأهمّ والأوسع». فهذا الجزء حصل مقابل تسليم المقاومة جثّة المستوطن الذي قذفه البحر إلى الشواطئ اللبنانية. ووصف السيّد ذلك بالمحدود والجزئي وله «قيمة إنسانية ويشكّل دفعاً للعملية الأوسع وهي الأهمّ عندنا أو عند العدو أو الوسيط الدولي». وأعلن السيّد أن هناك تقدّماً إيجابيّاً على هذا الصعيد.

أحسستُ وهو يتحدّث أنه يخاطبني. قال:

«المفاوضات بدأت منذ أشهر من جانب وسيط دولي انتدب من الأمين العام السابق للأمم المتحدة كوفي أنان، وأكمل مع الحالي بان كي مون... بداية المفاوضات كانت صعبة. وأثناء عرض الملفّات تحدّث الإسرائيليون عن الجنديين الأسيرين والجنود السابقين وعن رون أراد. نحن في المقابل، تحدّثنا عن الأسرى

اللبنانيين كافّة والدبلوماسيين الإيرانيين الذين اختطفوا على حاجز للقوات اللبنانية عام ١٩٨٢ وسلّموا إلى إسرائيل. الكلّ يجلبون ملفّاتهم والمفاوضات تجري عندها بشكل عسير وصعب. وقد أخذت هذه الملفّات وتأخذ وقتاً. وهذا أمر طبيعي».

هالتني مشاهد الاقتتال بين حماس وفتح في غزّة. لم تفاجئني. لكني صُدمت بها.

— «هذا محزن ومخزٍ»، قلت لرفيقي في الزنزانة.

لم أصدّق ما يحصل. أتفهّم موقف حكومة حماس برئاسة إسماعيل هنيّة، وأن الرئيس أبو مازن يسهم في حصارها رغم أن غالبية المجلس التشريعي لحماس وحقّها تأليف الحكومة. وأتفهّم موقف حماس في خلافها مع الأمن الوقائي بقيادة محمد دحلان، لكنني لا أتفهّم مطلقاً أن يتحوّل هذا إلى ما يشبه الحرب الأهلية. قلت لعبد الخالق النتشة وعبد الناصر عيسى:

— «تريدون وقف أعمال محمد دحلان وأمنه الوقائي ضدكم، افعلوا، لكن لماذا تصطدمون مع فتح، ومع أجهزة الأمن الأخرى التي لا علاقة لدحلان بها؟»،

برّرا لحركتهما رفضها الأمر الواقع وحصار أبو مازن للحكومة، لكنهما رفضا الاقتتال.

قلت لمروان:

— «هذا الاقتتال المعيب في كل بيت فلسطيني. وأنت تعرف مَن يخدم، دحلان وجماعته. وتعرف أن الدماء التي تسقط في غير مكانها تولّد ثاراتٍ لا تمحى لأجيال».

لم أكتفِ بالقول داخل السجن، كتبت مقالةً وتلوتها لشقيقي بسّام عبر الهاتف كي تنشر في إحدى الصحف اللبنانية.

وسط هذا الجوّ المحزن والضاغط، قرأت في «يديعوت أحرنوت»، في ٢٦/ ٢٠٠٦/١١، نداءً من زوجة أحد الجنديين الأسيرين لدى حزب الله، كارنيت غولدفاسر، إلى زوجة الأمين العام لحزب الله السيّد حسن نصر الله ونساء أعضاء الحزب من أجل الحصول على إشارة إلى حياة عن زوجها ورفيقه.

قلت في نفسي: فلتتوجّه إلى حكومتها، من دون هذه المسرحيّات الاستعراضية.

وكأن رئيس حكومتها رد عليها بعد يومين. أعلن رفضه «أيّ صفقة تجري مقابل توابيت». وفكّرت أنه يناور على تكتيك حزب الله الذي يرفض التصريح عمّا إذا كان الجنديان حيّين أو ميّتين، كما فعلت حركة حماس التي نشرت رسالة من الجندي الإسرائيلي الأسير لديها، جلعاد شاليط، بعد وساطة الرئيس الأميركي الأسبق جيمي كارتر.

قال أولمرت، كما قرأت في «معاريف»: «لا أنوي إجراء صفقة مع حزب الله إلى أن أتلقّى إثباتاً على أن الجنديين على قيد الحياة».

شعرتُ بأن شيئاً ما يحصل. لم أسأل المنسّق خوفاً من أن يكون هاتفي مراقباً، وهذا الموضوع حسّاس.

ازداد الارتباك الإسرائيلي عندما أنجز التقرير الطبّي الذي أعدّه الجيش الإسرائيلي ويؤكد إصابة الجنديين بجروح خطرة خلال عملية أسرهما. ولم يستطع التقرير الذي سُمح بنشره، في ٦/ ١٢/ ٢٠٠٦، الجزم بما إذا كان الجنديان حيّين أم ميّتين. إزاء هذا، حاولت الحكومة الإسرائيلية أن يبدو موقفها قويّاً ومتماسكاً مع أسرتَي الجنديين الأسيرين. أبرز الإعلام الإسرائيلي خبراً مفاده أن والد أحد الجنديين، إيهود غولدفاسر، أبلغ أولمرت لدى اطّلاعه على التقارير الطبيّة أنه ليس ثمّة حاجة إلى إجراء صفقة تبادل إذا لم يكن الجنديان على قيد الحياة.

اكتملت الصورة. قرأتُ في «يديعوت أحرنوت» أنّ حزب الله اشترط تحرير سمير القنطار في مقابل تقديم معلومات عن مصير الجنديين الأسيرين.

جلستُ مطمئناً.

زارتني محامية مؤسسة مانديلا، بثينة دقماق. حمّلتها رسالة أدعو فيها إلى وقف الاقتتال الفلسطيني، وقلت لها إن الأسرى هم أكثر مَن يتألّم، إذ أفنوا زهرةَ شبابهم في السجون لكي ينتصر الشعب الفلسطيني وقضيته العادلة التي تعني العرب والأحرار في العالم. وطالبت بالتحوّل إلى لغة الحوار ووأد الفتنة وتحمُّل المسؤوليات الوطنية والأخلاقية تجاه ما يحصل.

بالتزامن مع خطوتي هذه، أطلعني رفاقي الذين صاغوا وثيقة الأسرى، مروان البرغوثي وأحمد سعدات وعبد الخالق النتشة وبسّام السعدي ومصطفى بدارنة (الجبهة الشعبية)، على نداء عاجل يدعون فيه إلى الوحدة والتلاحم ونبذ الفرقة والخلاف والانقسام. ويدينون فيه الاقتتال والاحتراب بين الإخوة والأهل.

بعد أيّام نسينا ما يجري في شوارع غزّة. عمّت الفرحة قسمنا في سجن هداريم. جاؤوا، قبل رأس السنة ٢٠٠٦-٢٠٠٧، بابن مروان البرغوثي، القسّام. اجتمعا للمرّة الأولى منذ اعتقل مروان في ١٥/ ٤/ ٢٠٠٢. برغم قسوة اللحظة إلاّ أن مشهدهما يتعانقان يُنسي المكان ولو لبعض الوقت.

ساعات مرّت، وعادت إلينا صور الاقتتال الفلسطيني. الشعور العام في السجن هو العجز عن فعل أيّ شيء. بدأنا التفكير في تحرّك نُسمِع به المقتتلين صوتنا الموحَّد. ناقشنا الأمر في اللجنة، ومع مروان وأحمد سعدات وعبد الخالق النتشة ومصطفى بدارنة. اتّفقنا على الإضراب عن الطعام ليومٍ واحد رفضاً لما يجري في غزّة. حدّدنا الموعد، ١٥/ ١/ ٢٠٠٧. ومرّرتُ إلى المحامي الياس صباغ نداءً ينشره في اليوم نفسه. ذكّرت فيه بأن الاحتلال ما زال جاثماً فوق أرضنا، وانتقدتُ توجيه الطاقات إلى اقتسام المغانم التافهة والوهميّة بدلاً من توجيهها لتحقيق الأهداف الوطنية المشروعة. واعتبرت أن الحالة الفلسطينية تعبّر عن انهيار في منظومة القيم السياسية والاجتماعية. . . ووصفتُ ما يحصل بخيانة دماء الشهداء العرب وتضحياتهم بأجمل سنوات عمرهم.

بعد تأكيد السيّد حسن نصر الله في مهرجان حاشد، في ٢٩/ ١/ ٢٠٠٧، أن المفاوضات في شأن الأسرى مع إسرائيل جارية، أقرّ الكنيست الإسرائيلي مشروع قانون يقضي بمنع إطلاق سراح أمنيين فلسطينيين وعرب أدينوا في محاكم إسرائيلية بتنفيذ هجمات قتل فيها مواطنون إسرائيليون. لم يخْفَ على أحد أن المشروع يستهدف منع إتمام صفقة التبادل وإخراجي أنا ومروان البرغوثي خصوصاً.

لم يخفني ذلك. هزئت منه. وأهالي الجنود الأسرى لدى حزب الله وحماس اعترضوا عليه. قصدوا الكنيست والتقوا أعضاءه واعتبروا أن المشروع «هو حكم بالإعدام» على أبنائهم.

مرّ أسبوع. نشطت فيه أُسر الجنود. كارنيت غولدفاسر، زوجة أحد الجنديين لدى حزب الله، سافرت إلى نيويورك للقاء بان كي مون، وعادت بالقول إنه بذل

كل ما في وسعه لإطلاق سراح زوجها ورفيقه. وأعلنت أن عائلات الأسرى اللبنانيين رفضت توحيد الجهود لاستعادة أحبّائنا.

نسّقت مع شقيقي بسّام ردّاً عليها: كثّفوا ضغطكم على حكومتكم لتقبل بالشروط وتُنهي المأساة.

ابتسامةُ يامن في أوّل ممر القسم تحمل بشارة. اقترب منّي واثقاً معتدّاً بنفسه:

— «تخرّجت. أتقبل أن أكون محاميك؟».

لم أرَهُ حرّاً مرّة كما هو الآن.

— «أكيد»، أجبته مباركاً.

حمّلني مسؤولية إحداث التغيير في حياته وخياره السياسي.

— «ضميرك، وعروبتك وإنسانيتك هي ما فعل هذا. وأوّلاً وأخيراً أنت مَن فعل، أنت مَن حقّق الإنجاز».

جعل رأسه قريباً مني وهمس:

— «كنتُ راغباً في أن ألتقيكَ اليوم في قاعة المحامين، وليس بهذه البدلة التي سأخلعها قريباً. لكنّي أحببتُ أن أزفّ إليك الخبر».

تحدّثنا عن إنجازه المتعدّد الأبعاد. قال كأنه يتنفّس الآن للمرّة الأولى:

— «لم أعد سجّاناً وموظفاً درجة عاشرة في مؤسسات إسرائيلية تشكّك في انتمائي وتضعني دائماً في امتحان الولاء للتبعيّة. حملتُ شهادةً تخوّلني أن أتحرّر من التطبيع وثقافته وآلياته الاجتماعية. اتخّذت خياراً ثقافياً وسياسياً كعربي يدافع عن القضية الفلسطينية وسأعمل محامياً لك وللأسرى وسأنشط في سبيل شؤونكم وحقوقكم».

— «هذا وعد؟»، سألته مازحاً.

— «لم أدرس الحقوق إلاّ لهذا. لن أعيش وأموت جنديّاً في جيش الاحتلال الإسرائيلي كما حصل مع أخي».

غادر ليستقيل من وظيفته.

يوم الجمعة في ١٧/ ٥/ ٢٠٠٧، قرأتُ في الملحق الأسبوعي لصحيفة «يديعوت أحرنوت» مقالاً لمحلّل الشؤون الاستخبارية للصحيفة، رونين برغمان. يكشف المقال تقريراً سرياً للجيش الإسرائيلي يستنتج أن أحد الجنديين الأسيرين لدى حزب الله أُصيب بجراح خطرة (على الأقل)، واحتمالات بقاء الثاني على قيد الحياة تقترب من الصفر.

وكشف برغمان أن الجيش الإسرائيلي بدأ تحقيقاً في حادثة الاختطاف بعد ساعات معدودة من حدوثها. وواصل المحقّقون تجميع المعلومات طوال أيّام الحرب. وجمعوا قطعاً حديديّة ودماً ورماداً من آثار الاحتراق، بالإضافة إلى المعلومات التي أدلى بها الناجون من عملية الأسر.

وورد في المقال أن قسم الصدمات في الجيش الإسرائيلي التابع لسلاح الطب درس الملفّات التي أعدّت وخلص إلى أن «الضربة التي تلقّاها الجندي المفقود، أطلقت، على ما يبدو، من عبوة جوفاء. ويبدو أكيداً أنها قذيفة آر.بي.جي. إن هذا النوع من الضربات يقدّر أنه صعب للغاية ويستدعي علاجاً جراحياً ضرورياً. الاحتمالات بأن يبقى الإنسان على قيد الحياة في أعقاب ضربة كهذه هي احتمالات ضئيلة جداً».

وعن حالة الجندي الثاني يقول التقرير إنها «خطرة (على الأقل)». وشكّك برغمان في تلقّي الجنديين علاجاً صحيّاً فوريّاً.

سألت نفسي: لو خلص التقرير إلى أن الجنديين على قيد الحياة هل كان سيُسمح بنشره؟ جزمت بأن ذلك ما كان ليحصل، إذ يدعم الموقف التفاوضي لحزب الله، بينما وفاتهما تعزّز موقف الحكومة والجيش الإسرائيليين ولهذا يسعيان لها.

اخترق الصمتَ الذي يلفّ المفاوضات تأكيد السيّد نصر الله، في ٢٩/ ٧/ ٢٠٠٧، أنه لن يُطلَق سراح الجنديين الإسرائيليين إلاّ من خلال مفاوضات غير مباشرة من أجل ضمان إنجاز عملية تبادل.

في اليوم نفسه، أعلن الرئيس الإسرائيلي شيمون بيريز أن «الموقف الإسرائيلي الرسمي هو أن الجنديين على قيد الحياة». وسمعتُ عبر الإذاعة الإسرائيلية العامة، والدة أحد الأسيرين، ملكا غولدفاسر، تعتبر أن ما نشرته إحدى الصحف اللبنانية أمس، هو للتلاعب بمشاعر عائلتَي الأسيرين.

اتّصلتُ بشقيقي بسّام لأستفسر منه عمّا نشر أمس، فأخبرني أن جريدة «النهار» نشرت خبراً صغيراً ومرتبكاً مفاده أن المسؤولين الألمان الذين التقوا ميشال عون أثناء زيارته إلى برلين، استنتجوا أن أحد الجنديين الأسيرين لا يزال على قيد الحياة والآخر توفي. هذا كل ما في الأمر، ختم بسّام.

وصول رسالة من رون أراد إلى زوجته كتبها قبل ٢١ سنة، أي بعد أشهر من أسره، كما قرأتُ في «يديعوت أحرنوت»، في ٢٢/ ١٠/ ٢٠٠٧، جعلني أعتبر أن ثمّة تقدّماً حصل في المفاوضات. فملفّ رون أراد والمعلومات عنه مرتبط بي، بحسب الاتّفاق الذي حصل في عملية التبادل السابقة في ٢٠٠٤، وأن تسلّمها المقاومة عبر الوسيط الدولي إلى إسرائيل يعني أن عقدتي بدأت تُحلّ.

كسرت، بعد ثلاثة أيام، صحيفة «هآرتس» جدار الصمت الإسرائيلي المفروض على تفاصيل المفاوضات. نشرت، في مقال طويل لمراسلها الأمني يوسي ملمان، نقلاً عن مصادر مطلعة على سير المفاوضات مع حزب الله، أن هناك «أملاً كبيراً، وربما كبيراً جداً» لإنجاز صفقة كبيرة لإطلاق الأسيرين لدى حزب الله. توقّفتُ مليّاً عند عبارة إن «حزب الله يطالب بتحرير ستّة أسرى لبنانيين محتجزين في إسرائيل، إضافة إلى المئات من المخرّبين الفلسطينيين، بينما تعارض إسرائيل إطلاق سراح أيّ من الفلسطينيين في الصفقة». لفتني أنه لم يشملني في من يقول إن إسرائيل ترفض إطلاق سراحهم. ورجّح ملمان أن يضطر أولمرت ورئيس الوفد المفاوض عوفر ديكل إلى اتخاذ قرار صعب: صفقة إعادة الجنديين سواء أكانا حيّين أم لا، مقابل تحرير سمير القنطار، أو الإصرار على القنطار مقابل أراد، وفي ذلك مجازفة كما في المفاوضات السابقة.

رأيتُ، في مدخل القسم، مسؤولة الاستخبارات في مديرية السجون، بيتي، بصحبة رجل نحيف وطويل وأصلع، يرتدي قميصاً أزرق وبنطلون جينز. دسستُ يديّ في جيبي بنطلوني. تقدّما نحوي وأنا في الممر. بادرتني على نحو تفخيمي بضيفها، إلى السؤال:

— «أتعرف مَن هذا؟».

— «كلا»، أجبت بعفوية.

— «عوفر ديكل».

— «نعم، نعم، صحيح، الآن انتبهت».

أشاهده على التلفزيون، لكن هيئته خارج الشاشة مختلفة. كان نائب رئيس الشاباك قبل تقاعده، وكلّفه رئيس الوزراء إيهود أولمرت، بمهمّة التفاوض في شأن الجنود الإسرائيليين الأسرى لدى حماس وحزب الله.

مدّ يده لمصافحتي. سحبتُ يدي من جيب بنطلوني وصافحته، وهو يسألني:

— «ما الأخبار؟».

رددت مبتسماً:

— «الأخبار عندك».

— «ما الأوضاع في السجن؟»، سألني مراوغاً محاولاً الإيحاء بأنه لم يكن يقصد التفاوض في شأن التبادل، وأنه لا يريد الحديث في هذا.

— «كما ترى. هناك أمور تسير، وأمور أخرى نسعى لتحسينها. هناك صعوبات كثيرة. ثمّة ما نأخذه بإضرابات، وأخرى نطالب بها ونعمل لتحقيقها».

— «أريد أن أجول على السجن لأتفقّد أحواله»، قال لي لأرافقه في الجولة.

— «تفضّل». وأفسحتُ له الطريق.

فكّرت، ما علاقته بالسجن وظروفه. لا شك في أنه آتٍ لأمرٍ يتعلّق بالمفاوضات ولا يريد أن يبوح به. لعلّه آتٍ لمحادثة قادة حماس في شأن شاليط، أو للضغط معنوياً لتحريك المفاوضات. وانتبهت إلى تزامن دخولهما القسم مع خروجي إلى الممر. حسبتُ أنهما تعمّدا ذلك كي يلتقي بي ديكل كما لو أنها بمحض الصدفة. هذا احتمال قويّ، قلت.

مشينا نحو المطبخ. هناك، راح يسأل الأسرى كيف يعملون.

خرجنا نحو الممر. استأنف الحديث الذي أجّله معي:

— «ما الأخبار؟».

— «ما هذا: ما الأخبار، ما الأخبار؟ الأخبار عندك».

ثبّت نظره عليّ:

— «أتريد الخروج؟».

— «أكيد سأخرج».

هزّ رأسه هازئاً.

بادرته بثقة المتحرّي:

— «ماذا لديكَ من تطورات؟».

— «ممنوع عليّ الكلام. أعطيت وعداً للسيّد حسن عبر الوسيط الألماني ألاّ أسرّب أيّ كلمة».

شعرتُ بأنه يسعى إلى جسّ نبضي. وأيقنتُ أن زيارته في صميم مهمّته وها هو يحرص على أداء دور المفاوض.

رددتُ عليه بترفّع:

— «أنت سألتني ما الأخبار، وبما أن الأخبار لديك وليست عندي سألتك عن التطوّرات».

تزحزح قليلاً:

— «جماعتك يرفعون السقف عالياً».

— «كيف؟».

— «يطالبون بالفلسطينيين».

إشارته واضحة: أنت مقبول، بينما الاعتراض على المطالبة بالأسرى الفلسطينيين.

كأنه يريد أن أوصل هذه الرسالة، وربما من خلالها الضغط على حزب الله بالتراجع عن المطالبة بالأسرى الفلسطينيين والاكتفاء بالمطالبة بي.

أدركَ أن رسالته وصلت، أضاف:

— «الفلسطينيون طالبوا بك فقلت لهم لا. وجماعتك يطالبون بالفلسطينيين فقلت لهم لا».

— «ولِمَ لا، الأسرى الفلسطينيون عددهم كبير. وفي النهاية، مقابل جنديين أنا لا أقبل أن أتحرّر وحدي».

كأنه ضغط بسرعة على الفرامل:

— «مَن قال لك إننا سنُخرجك؟!».

حدّقتُ به بثقة داخلية ممزوجة بالمشارطة:

— «عوفر ديكل ستخرجني. لن يعود جنديّاك من دون أن تخرجني. ضع هذه

الكلمات في رأسك، وتذكّرها جيّداً. وأنا سمير القنطار لن أخرج من دون أسرى فلسطينيين. أتعتقد أنه مقابل جنديين سأخرج وحدي؟».

تحرّك، كي لا أرى وجهه فأفهم بما يفكّر.

رسم ملامح حياديّة باردة على وجهه، نظر إليّ:

— «لنرَ».

وابتعد للقاء عدد من قادة حماس، يحيى السنوار وروحي مشتهى.

لم أسأل قادة حماس عمّا جرى بينهم وبين ديكل. هذه أمور خاصّة، وهم لم يسألوني. تحدّثت في الموضوع، باختصار وتشفير، مع المنسّق بيني وبين السيّد حسن نصر الله.

فوجئت، بعد أيام، بوصول خبر زيارة ديكل إلى الصحافة الإسرائيلية. كُتِبَ أنه زارني في هداريم. وقامت الدنيا في إسرائيل ولم تقعد اعتراضاً على ذلك وعلى مفاوضته مجرماً يستحيل أن يخرج من السجن. عرفت أن أحد السجّانين باع الخبر إلى الصحف.

ردّاً على هذا، أصدر مكتب رئيس الوزراء بياناً، قرأته في «معاريف»، ادّعى فيه أن ديكل لم يلتقِ بي، وأنني حاولتُ مصافحته وهو رفض، وحاولت محادثته فامتنع.

انتظرت موعدي الأسبوعي مع المحامي الياس الصباغ، من أراضي ١٩٤٨، وأعطيته بياناً توضيحياً، تضمّن أسماء الشهود. وفي اليوم ذاته قرأت البيان لبسّام عبر الهاتف.

وزّع المحامي البيان بطريقة ذكية، على مواقع الانترنت الإسرائيلية فباتت الصحف عاجزة عن تجاهله. لم يرد مكتب رئيس الحكومة.

لاحظت أن أعضاء وفد اللجنة الداخلية في الكنيست الذين جاؤوا لزيارتنا في سجن هداريم، وطلبوا الاجتماع إليّ وإلى مروان البرغوثي، يتساءلون ما إذا كنت سأمدّ يدي لمصافحتهم أم لا. تركتُ يديّ في جيبي بنطلوني حتى نهض رئيس الوفد عوفر بنيس وتقدّم نحوي. بادلته التحيّة وانضمّ إليه الآخرون.

سألني بنيس عن المشاكل في السجن وما هي مطالبنا. طالبت برفع الزجاج من قاعات الزيارات والاكتفاء بالشبك، وبالسماح للأسرى باستعمال الهاتف، وتحسين الطعام والاستشفاء. . .

سجّلوها في دفاترهم.

ثم توجّهوا إلى مروان البرغوثي بالسؤال عن الأوضاع السياسية. تحدّث عن تعنّت الحكومة الإسرائيلية وميلها نحو العنف تجاه الفلسطينيين واللبنانيين، وأكّد أن لا مفرّ من تحريك المفاوضات وتنفيذ ما اتُّفق عليه في أوسلو وفي جولات المفاوضات الأخرى بين الحكومة الإسرائيلية والسلطة الفلسطينية.

لم يطل حديثهم هذا. سألتني ناديا الحلو، من حزب العمل، عمّا إذا كنت أتوقّع الإفراج عنّي في عمليّة التبادل المقبلة بين حزب الله وإسرائيل. جزمتُ بذلك. وسألني عضو الوفد موشي غفني، من الحزب الديني «يهدوت هاتوراه» عمّا إذا كنت نادماً.

«علامَ الندم؟ أنا أمثّل شعباً، وقد نفّذت عملية انطلاقاً من قضية وطنية، لم أقم بذلك ثأراً شخصياً، لم آتِ بمبادرة فرديّة باحثاً عن فلان من عائلة فلان لأنتقم منه. أنا قدِمتُ إلى فلسطين المحتلّة لأحارب عدوّاً احتل أرضنا، أتيت باسم شعب وأمّة. لا مجال للندم».

قرأت، في اليوم التالي، في الصحف عن لقائنا ووفد الكنيست. واستضاف برنامج «السادسة» على القناة الإسرائيلية الثانية، ناديا الحلو وموشي غفني. قالتْ الحلو إنني أكّدت لها أنني سأخرج من السجن. سألها مقدّم البرنامج:

— «هل أخبركِ كيف سيتم هذا؟».

— «لم يشرح كيف، لكنه كان واثقاً جدّاً».

ادّعى موشي غفني أنّه تردّد في مصافحة مروان البرغوثي، وأنّه اضطر إلى ذلك. وحين سأله المقدّم عمّا إذا كان صافحني، عبّر عن اشمئزازه من وضع يده في يدي الملوّثة بالدماء. عندها سأله المقدّم:

— «هل مدّ سمير القنطار يده لمصافحتك؟».

أجاب غفني:

— «لا».

لم أصدّق خبر اغتيال عماد مغنيّة، في ٢٠٠٨/٢/١٢. عماد مغنيّة بالنسبة إليّ اسم أقرأ عن قصصه في الكتب الإسرائيلية وأسمعها في التلفزيونات. ولطالما

أحسستُ أنه ليس شخصاً موجوداً. فوجئت أنه حقيقي من إعلان اغتياله في دمشق. يا للمفارقة المحزنة. اليوم الذي أعرف أنه شخص حقيقي ورأيت صوره النادرة، بل غير المعلنة، على شاشة التلفزيون، هو يوم استشهاده. واستغربت كيف وصلت الاستخبارات الإسرائيلية إليه، ولا بد أنه كان متّخذاً إجراءات أمنيّة مشدّدة، ويقال إنه أجرى غير مرّة عمليات تغيير ملامح. ذكّرني هذا بوديع حدّاد. ورحتُ أتذكّر ما أعرفه تحت اسم عماد مغنيّة وجمعته مع ما بدأتُ أسمعه منذ إعلان استشهاده. بدا لي فارقٌ بين الرجلين. فبينما ركّز حدّاد على العمليات الخارجية وقاد جهازها في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، قاد عماد مغنيّة مقاومة مباشرة مع العدو ونسج علاقات مع المقاومة في فلسطين، وأدخل العقل الأمني إلى العمل العسكري، جعله ذكيّاً وعلميّاً. أدركَ السرّ الذي يجمع الحماسة والعقيدة مع الدراسة والتنفيذ الذكي. وهذا ما كان ينقص العمل المقاوم في بلادنا، الذي بدا لعقود طويلة يرجّح الحماسة والعقيدة على التنفيذ. فقبل القفزة النوعيّة التي حقّقتها المقاومة الإسلامية بقيادة السيّد حسن نصر الله وعماد مغنيّة، كان هناك فارق شاسع بين الحماسة والواقع التنفيذي في العمل الفدائي والمقاوم، ما فوّت علينا فرصاً كثيرة وأحبط كثيرين تأثّروا بثقافة الهزيمة منذ الحروب الرسمية ومعارك المقاومة الفلسطينية، لا سيما في لبنان حتى عام ١٩٨٢.

لم تفارقني فكرة أنه شخص خفيّ، يعمل بصمت بعيداً من إغراءات الشهرة والصورة التي يتهافت عليها مَن هم دونه فعلاً وقدرة. قلت هذا نموذج خاص، نادر من المقاومين. أحسست بأنّ له فضلاً عليّ شخصيّاً. ونهضت لأكتب رسالة إلى السيّد حسن نصر الله.

مساء ٢٧/٤/٢٠٠٨ نقل لي المنسّق بيني وبين السيّد حسن نصر الله رسالة مفادها أن الأمور تتقدّم بنحو جيّد جدّاً والفرج قريب.

نمتُ مطمئناً. لكني، صباح اليوم التالي، استيقظت على أسئلة تدور في رأسي: ماذا يعني؟ لماذا لم أستفسر؟

خرجتُ من زنزانتي إلى الممر، لأنشغل بأمور الأسرى. عبارة الفرج قريب

تتردّد في رأسي كأغنية، كسؤال وجودي، كحبّة دواءٍ أُعالج بها انتظاري المساء لإعادة الاتصال بالمنسّق.

وضعتُ سمّاعة الهاتف في أذني وطلبت رقم المنسّق:

— «ماذا تقصد بالفرج قريب؟».

استمهلني بعض الوقت ليتسنّى له سؤال السيّد حسن نصر الله.

انتظرت. تخيّلت نفسي فتى في الثياب الجديدة التي اشتريتها خصيصاً لتنفيذ العملية قبل تسع وعشرين سنة. كأنّ اللحظة الراهنة مرآة تلك اللحظة التي لم أنظر فيها إلى مرآة.

انتظرت. انتظرت ساعتين ضوءاً صغيراً في هاتف صامت. لمع الضوء الصغير مثل إشارة بعيدة لانطلاق أمر ما.

— «وافقوا عليك»، جاءني صوت المنسّق. موجةٌ باردة ضربت وجهي. قلبي عصفور يرفرف. يداي تعبتان كما لو أنهما تذكّرتا كل الأغلال التي مرّت عليهما. رفعتهما إلى الأعلى. حمدت الله وشكرته.

أخفيتُ سرّي وضحكتي خوفاً عليهما، كأني مخبأ، وصمتي انتظار يوم العيد غلاف مطرّز للهديّة.

تمرّ الأيام واثقة. سرّي نكهة خاصة لها. شعوري بأنني فوق درّاجة هوائيّة في رحلةٍ لا ينتبه إليها أحد. كثيراً ما رأيت وجه السيّد حسن نصر الله ضاحكاً، ألتفت نحوه، أبتسم، وأتابع حياتي.

٢٦ أيار/ مايو ٢٠٠٨، لم أخرج من زنزانتي. بقيتُ بين الراديو الثابت على إذاعة النور، والتلفزيون على قناة الجزيرة أشاهد الاحتفال بالذكرى الثامنة لتحرير الجنوب. أطلّ السيّد حسن نصر الله. كأني واحدٌ من آلاف المحتشدين.

الكوكب هادئ، أسمعه: «الأسرى عهدنا والأسرى وعدنا والأسرى إنجاز الله على أيدينا وقريباً جدّاً سيكون سمير القنطار وإخوانه بيننا في لبنان».

«شكراً سماحة السيّد»، كرّرتُ هذه العبارة.

بقيتُ مبتهجاً ساهياً عمّا يبثّه التلفزيون حتى خبط رفيق في الزنزانة الملاصقة على الحائط. أخبرني أن القناة الثانية استضافت، في الاستديو، المحلّل أمنون أبراموفيتش. وقال إن الحكومة الإسرائيلية وافقت على إطلاق سراح سمير القنطار،

والصفقة باتت وشيكة، وسيتم التوقيع عليها قريباً. وقال أبراموفيتش إن هذه المعلومات لديه منذ شهر. تذكّرت اتصال المنسّق في ٢٧/ ٤/ ٢٠٠٨.

فكّرت أن الأمر انتهى. فعلاقات أبراموفيتش بأجهزة الاستخبارات والسياسيين الإسرائيليين وثيقة. أصدّق كلامه. وهو قبل عملية التبادل السابقة، ٢٠٠٤، قال إن الإفراج عن سمير القنطار مرتبط بملف رون أراد، ولن يُطلق سراحه. وكان كلامه صحيحاً.

شُغل الإعلام الإسرائيلي بالصفقة ومعالمها. لاحظتُ أن ما يقال، وإنْ كان بين الرفض والقبول، بين النقد والتبرير، يخلو من الدعوة إلى وقف عملية التبادل. أصواتٌ خافتة ومحدودة تكلّمت في هذا الاتجاه. الغالبية تحدثت عن الثمن الغالي الذي تدفعه إسرائيل بإطلاق سراح سمير القنطار.

وضعتُ هذا جانباً والتفتُّ إلى أسئلة الأسرى الفلسطينيين. صدموا لكون عملية التبادل لم تشمل عدداً كبيراً منهم، مجموعة محدودة جدّاً. دعوتهم إلى الواقعية، فالجنديّان ميّتان ولو كانا حيّين لكانت الصفقة شملت أكبر عدد ممكن من الأسرى الفلسطينيين. وهذا كان رأي غالبيّة المحلّلين الإسرائيليين الذين لفت غير واحد منهم إلى أن السيّد نصر الله لم يكن يقبل بحريّة سمير القنطار فحسب لو أن الجنديين حيّان.

مروان البرغوثي وأحمد سعدات وعبد الرحيم ملّوح وعبد الخالق النتشة وعبد الناصر عيسى وبسّام السعدي والقادة جميعاً من اللحظة الأولى عبّروا عن فرحتهم وباركوا. العناصر هم مَن تساءلوا وعاتبوا. لم أسمع من واحدٍ منهم اعتراضاً على حريّتي، الأسئلة كانت لماذا لم تشمل العملية فلسطينيين. كثيرون منهم كانوا آملين.

كرّرت عليهم أن لدى حماس الجندي جلعاد شاليط، وأن السيّد حسن نصر الله لم يَعد أحداً، حتى أنا كنتُ عنواناً للوعد، ولو استطاع تحريرنا جميعاً لفعل.

قلت هذا وفكّرت أن السيّد حسن نصر الله استفاد من تجربة التبادل السابقة التي طالب فيها علناً بأسرى عرب ووقفت في وجهه، سرّاً، بعض الدول التي ينتمي إليها الأسرى العرب كي لا يُقال إن المقاومة حرّرتهم ودولهم ساكتة عنهم.

راودني الشك في إتمام الصفقة وتحرّري، حين احتدم النقاش في الإعلام والمجتمع الإسرائيليين. فقد طالبت أُسر الضحايا في نهاريا، وخصوصاً أسرة دان

هاران التي نشطت في الإعلام، بعدم إطلاق سراحي. وتقدمَتْ أسرة الشرطي إلياهو شاحر، الذي قُتل في العملية، إلى المحكمة بالتماسٍ يطالب بعدم الإفراج عنّي وتنفيذ الحكم الصادر عن المحكمة بحقّي.

تبدّد قلقي مع رفض المحكمة النظر في الالتماس معتبرةً أن قرار إطلاق سراحي سياسي... ولا تتدخّل في السياسة.

كعادتها كل يوم جمعة، أجرت جريدة «معاريف» استطلاعاً للرأي يسأل: هل تؤيّد إطلاق سراح سمير القنطار حتى لو كان الجنديّان ليسا على قيد الحياة؟ وكانت النتيجة ٤٨ في المئة مع إطلاق سراحي إذا كان الجنديان ميتين، و٥٢ في المئة إذا كانا حيّين.

ترافق ذلك مع تحليلات إعلامية، أعتقد أنها بتوجيه من الحكومة، تقول إن عدم إطلاق سراحي سيدفع حزب الله إلى تنفيذ عملية أسر أخرى، وربّما تنشب حربٌ أخرى. وأطلّت أسرتا الجنديين الأسيرين لدى حزب الله على الشاشات... تبكيان. عندها ارتفعت نسبة الموافقين على إطلاق سراحي في حال وفاة الجنديين إلى ٦٨ في المئة.

عاد عوفر ديكل من سفرته التفاوضية واجتمع إلى أسرتَيْ الجنديين. طلب إليهما الاستعداد لاستقبال ولديهما.

فجأةً، سحب إيهود أولمرت موافقته على الصفقة. وصرّح بأن ثمنها باهظٌ جدّاً.

اعتبرتُ أن العملية فشلت. تبدّدَتْ أحلامي.

اتّصلتُ ليلاً بالمنسّق. أكّد أن العملية ستتم. وطلب إليّ ألاّ أعير أذني لما يقال في الجانب الإسرائيلي.

قلت له:

– «أنقل إلى سماحة السيّد اطمئناني، حتى ولو استمرّت المفاوضات سنتين إضافيتين».

نشطت أسرتا الجنديين في الإعلام بمهاجمة أولمرت. اتّهمتاه باللعب بأعصابهما وباستهتاره بهما.

تحرّك إيهود باراك، وزير «الدفاع» الإسرائيلي. سعى إلى دور. آثر أن يمسك العصا من الوسط كي يقطف إنجازاً ولا تطير العمليّة.

في جانبنا، السيّد حسن نصر الله يسعى إلى إطلاق سراح عدد من الأسرى الفلسطينيين ذوي الوزن المعنوي، وفي الوقت نفسه يواجَه برفضٍ إسرائيلي. بادرت إلى استطلاع رأي قادة التنظيمات وقواعدها في السجن. وجاءت النتيجة أن إطلاق سراح سمير القنطار إنجاز في حد ذاته... وللجميع. وإطلاق سراحي أفضل من الإفراج عن بعض الفلسطينيين الذين سينهون أحكامهم خلال فترة وجيزة. وهذا سيفتح الباب أمام مسألة شاليط. فإطلاق سراحي يضع المفاوضات في شأن التبادل بين شاليط والأسرى الفلسطينيين على النار، لأنه كسرٌ لمعيار وضعه الإسرائيليّون لمنع إطلاق الذين تدّعي إسرائيل أنَّ أيديهم ملوّثة بدماء الإسرئيليين.

وضعتُ تقريراً بالنتيجة وأكدت للسيد حسن نصر الله أنه إذا كان أحد الجنديين حيّاً امضِ حتّى النهاية في الإصرار على تحرير أسرى فلسطينيين قدامى وأصحاب أحكام كبيرة. وأمليت رسالتي على المنسّق. علمتُ أن السيّد قرأه وناقش مضمونه مع الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي رمضان شلّح ورئيس المكتب السياسي لحركة حماس خالد مشعل، وغيرهما. وسار السيّد حسن نصر الله بخطّة إطلاق سراحي وعدداً من الأسرى الفلسطينيين.

التقى أولمرت بزوجة أحد الجنديين المخطوفين، كارنيت غولدفاسر. شاهدتُ مراسِلة القناة الأولى الإسرائيليّة إيالا حسّون تقول إن أولمرت سيعرض الصفقة على الحكومة في جلسة الأحد المقبل، وتوقّعت أن تنال موافقة. ثم أُجريَت مقابلة مع كارنيت وروت ما جرى مع أولمرت.

قلت العمليّة مستمرّة، وحركة أولمرت كانت خوفاً من نقده في ما بعد.

اليوم الأحد، يوم عمل في دولة إسرائيل، لكني استيقظتُ مع شعورٍ بأنه يومُ عطلة، كأني في لبنان. لا أعرف لماذا أحسستُ بهذا، رغم أن لديّ مهمّات أنجزها. وهناك موعد مع الإدارة لبحث بعض الأمور. نزلتُ من سريري. أعددت القهوة وجلستُ أقرأ الصحف وأشاهد التلفزيون. ستعقد الحكومة الإسرائيلية جلسة وعلى جدول أعمالها بند صفقة التبادل مع حزب الله. طمأنينتي بأن الحكومة ستوافق على الصفقة مقيّدة. أحسستُ أن اليوم الذي نُقلتُ فيه إلى سجن الجلمة، قبل نحو أربعة أعوام، هو لحظات من طمأنينتي اليوم، يومها رأيت البحر والسماء

وكنت متّجهاً شمالاً صوب لبنان. عاودني مشهد البحر كاملاً، وسمعتُ هديره الذي لم يصل إليّ يومها، كما لو أنني الآن في صدَفةٍ يقرّبها طفلٌ من أذنه ليسمع هدير الأمواج.

خرجتُ إلى الممر هرباً من الارتهان للأخبار ومتابعة جلسة الحكومة. أحسستُ أن رفاقي يعيشون معي لحظات الترقّب. نظراتهم القلقة الصامتة العميقة تفصح عن ذلك، كما لو أنهم يعرفون أنني صاحب ورقة اليانصيب الوحيدة في هذا السحب. رحتُ أهرب من هذا كأني أدعوهم إلى الانشغال بأمورٍ أخرى.

قصدتُ مكتب ضابط القسم بحثاً عن تعامل روتيني خالٍ من القلق عليّ والتعاطف معي. فكّرت أن هذا أفضل لي الآن، ويبعدني عن المشاعر التي يرسلها إليّ رفاقي وتتولّد لديّ. أحسست أنني أخفي صورة أحبائي كي لا أفكّر فيهم.

تذكّر الضابط حين رآني أن الحكومة ستقرّر اليوم في شأن الصفقة وما إذا كانت ستطلق سراحي أم لا. نظر إليّ كما لو أنه استغرب وجودي أمامه. لعلّه حسبَ أنّ عليّ أن أجلس في مواجهة التلفزيون وأضع خدي في كفّي.

لم يقل أيّ كلمة عن هذا. لم يُبدِ أيّ تعبير رافض أو مؤيّد. هذا أفضل، قلت في نفسي. فلو اعترض كنتُ سأواجهه. تحدّثنا في بعض أمور السجن.

أمضيتُ الوقت في الممر. حرصتُ على أن تبقى أحاديثي مع رفاقي في شؤوننا اليوميّة. وهم جاروني في ذلك، لا سيما أن اجتماع الحكومة مستمر. خرجنا إلى الممر في الفترة الصباحيّة. بقيتُ مع مروان. فالاختلاط بالرفاق ربما يجعل هذا أو ذاك منهم يسألني ماذا قرّرت الحكومة، أو يفتح موضوع صفقة التبادل. قلت حتى لو تطرّق مروان إلى الموضوع يمكنني أن أتناقش معه، أو يتناول الموضوع سياسيّاً ويحلّل المعلومات. وقد فاجأني وأراحني جزمه بأن الحكومة الإسرائيلية ستوافق على الصفقة. لم أرتَح اطمئناناً إلى خروجي بل استئناساً بالحوار بيني وبينه. شعرتُ بأنه في مرحلة ما بعد الحيرة والقلق اللذين أراهما في نظرات رفاقي الآخرين وفي تعاملهم المتعاطف معي.

انضمّ إلينا أحمد سعدات. لطفه ودماثته لا يمكن أن يزعجا. صافحني وملامحه المتواضعة على الموجة ذاتها مع مروان. كان على عتبة المباركة لي. وفي لحظة شعرتُ بأنه سيطلق كلمة مبروك أو يؤجّلها حتى إعلان موافقة الحكومة ليس إلاّ.

قال أحمد:

– «اليوم محطة إضافيّة تؤكد انتصار المقاومة على إسرائيل».

هزّ مروان رأسه. مدّ يده نحوي وربّت كتفي:

– «سنفتقدك شخصيّاً، وستفتقدك الحركة الأسيرة».

ابتسمت:

– «انتظر قليلاً، لماذا «تفاول» عليّ».

ضحكنا.

رفعتُ رأسي نحو أحمد. رأيته ينحني قليلاً وينظر إليّ بحزن. حاجباه الكثّان وعيناه البريئتان المحاطتان بهالة معتِمة أكثر ما يعبّر عن تواضعه. ابتسمت له كأنْ لأطرد حزنه القديم الذي لا يبدو طارئاً أو عابراً. لم يتغيّر شيء في وجهه، لكني أحسستُ أنه أرسل ابتسامة برقيّة، كأني سمعت صوتها.

مساءً، كنتُ في اجتماعٍ مع ضابط القسم. دخل إلينا رفيقي محمد المصري وأعطاني ورقة. فتحتها وقرأتُ: أقرّت الحكومة صفقة التبادل مع حزب الله، اثنان وعشرون وزيراً وافقوا مقابل ثلاثة اعترضوا.

– «ما هذه الرسالة؟»، سألني الضابط.

أخبرته.

احتارت ملامحه. قمعها. برّدها.

مشيتُ نحو زنزانتي. الرفاق يطلّون عبر أبواب زنازينهم. أصابع أيديهم تخرج من بين القضبان كعصافير مكبّلة.

«مبروك، مبروك لنا جميعاً»، قال غير واحدٍ منهم. وأنا أبتسم عاجزاً عن الكلام. أنا سأخرج ورفاقي سيبقون. هؤلاء قيودي حين أتحرّر. هؤلاء قيود كل حرّ في هذا الكوكب.

شاهدت المؤتمر الصحافي للسيّد نصر الله، في ١/ ٧/ ٢٠٠٨:

«الأسرى اللبنانيون الذين تشملهم عملية التبادل، هم: الأخ سمير القنطار عميد الأسرى العرب واللبنانيين في السجون الإسرائيلية، ماهر كوراني، حسين سليمان،

خضر زيدان، محمد سرور. وهؤلاء تبيّن الشاشات أنهم موجودون وأحياء عند العدو الإسرائيلي. هنا جئنا إلى موضوع الأخ يحيى سكاف. الإسرائيلي يصر على أن الأخ يحيى استشهد في عملية المقاومة دلال مغربي. في المرة الماضية قيل لنا هذا الكلام، قلنا حسناً نريد جثته لكي نتأكد من أنه شهيد ونسلمها إلى أهله. في التبادل السابق رفض الإسرائيلي أن يسلم الجثة، لكن في هذا التبادل المجموعة كلها أي مجموعة الشهيدة دلال المغربي ويحيى سكاف، وهم خمسة، الذين قيل إن أجسادهم موجودة وستُسلّم جثث هؤلاء الشهداء. وطبعاً، فحص dna هو الذي يحسم أن يحيى بين الشهداء أم سوف يبقى في عداد المفقودين لأن الإسرائيلي ينكر بشكل مطلق وجوده على قيد الحياة. وشهداء عملية الوعد الصادق موافق على إطلاقهم، ووافق على إعادة أجساد الشهداء منذ ما قبل عام ١٩٨٢ الى ما بعده. أي باللوائح التي عندنا هناك شهداء من عام ١٩٧٨، لبنانيون وفلسطينيون وعرب، وكل المقاومين الذين دخلوا الى لبنان او من مخيمات لبنان أو عبروا من خلال لبنان. (. . .) ومن المفترض أن يتسلّم الوسيط الأممي الذي هو ألماني تقريراً أخيراً من الإسرائيليين حول مصير الدبلوماسيين الإيرانيين الأربعة الذين نعتقد أن القوات اللبنانية قامت بتسليمهم إلى القوات الاسرائيلية. ونحن أطلعنا في الأيام السابقة الوسيط الأممي على تقريرنا المرتبط بالطيار رون أراد وأعتقد أنه بين اليوم وغد يأتي الوسيط ويتسلم التقرير الخطي مع الوثائق المتوافرة، وفي موضوع الطيار الاسرائيلي رون أراد أقول إنه بعد التبادل الأخير السابق (٢٠٠٤) نحن اشتغلنا على موضوع أراد بشكل جدي وليس له سابقة ولأن الاسرائيلي في ذلك الوقت ربط مصير الأخ سمير القنطار برون أراد، في نفس الوقت كنا نشتغل على خطين: كشف مصير رون أراد ما أمكن، وخط القيام بعملية أسر. وإذا وصلنا الى موضوع أراد بشكل قاطع ونهائي سابقاً فهذا قد يغنينا عن عملية الاسر. (. . .) بالنسبة إلى الجزء الأخير من المفاوضات، عندما حلت عقدة الأخ سمير القنطار، بقيت العقدة الأخيرة في التفاوض، وهي مبدأ إطلاق سراح أسرى فلسطينيين وعرب قبل أن نصل للنقاش والأسماء بالأعداد. في الحقيقة كانت هذه النقطة الأصعب بالتفاوض. كان الاسرائيلي يقول إذا أردت أن أعطي الفلسطيني فهذا بالنسبة إلي له تداعيات معنوية خطيرة، أضف إلى أن (الإسرائيلي يقول) أنا لدي مفاوضات مع حماس بشكل غير مباشر حول شاليط ولدي تبادل معها سأقوم به، ومن ناحية أخرى عندي مفاوضات

حول التسوية مع السيد أبو مازن ويطالبني أبو مازن بأسرى، (كلام الإسرائيلي)، أنا مع الفلسطيني عندي مشكلة كيف أعطيك يا حزب الله أسرى فلسطينيين؟ كذلك بالموضوع العربي كان عنده مشكلة هي أنه عندما أطالبه بالأسرى الأردنيين وهو (الإسرائيلي) موقّع اتفاق سلام مع الأردنيين لا يقدر أن يعطي الأسرى الأردنيين لحزب الله مهما كان موجوداً عند حزب الله! وهذا كان واضحاً وصريحاً. كذلك بالنسبة إلى الأسرى السوريين فبينه وبين سوريا مشكلة الجولان ويمكن أن يذهب إلى مفاوضات، وذلك يعني أن الأسرى السوريين هم جزء من التفاوض الإسرائيلي والسوري. الإسرائيلي لا يريد أن يكرّس حزب الله كمفاوض في موضوع الاسرى بالنيابة عن جميع الاقطار العربية. (. . .) في موضوع العرب هناك التزام من الأمين العام للأمم المتحدة ما دام الموضوع دولياً بهذا الشكل، بأنه سوف يبذل جهداً خاصاً مع حكومة العدو في ما يتعلق بالأسرى الأردنيين والسوريين».

انتحيتُ ورفيقي عمار مرضي، في الزنزانة، جانباً:
— «الهاتف الذي أخبئه يبقى بعد خروجي بعهدتك، انتبه كي لا ينفضح أمره. لا تفصحا عنه لأحد، ولا تدعا أحداً يتكلّم عبره، خصوصاً مَن له علاقات في الخارج مع أشخاص يمكن أن تكون خطوط هواتفهم مراقبة. أرجّح أن ينقلوني فجأةً ويمنعوني من أخذ أغراضي. تحفظها وترسلها مع أسرتيك، لتُرسَل إليّ في ما بعد إلى لبنان».

قلت له هذا متذكّراً أنه حين تمّت عملية تبادل ٢٠٠٤ نقلوا رفاقي في نفحة ولم يسمحوا لهم بأخذ أغراضهم.

طلبتُ إلى المنسّق بيني وبين السيّد نصر الله، عبر الهاتف، أن ينقل رغبتي في أن تحمل عملية التبادل اسماً. وأوّل محطّة نقصدها بعد وصولنا إلى لبنان هي ضريح الشهيد عماد مغنيّة، وأن أخرج من هنا بثيابٍ عسكريّة. صحيح أنني لم آتِ إلى فلسطين بثيابٍ عسكريّة كي لا يميّزوا بيننا وبين الرهائن، إلاّ أن ارتدائي ثياباً عسكريّة مع خروجي من السجن يعني أنني مستمر في مواقفي. أردتُ كسر صورة الأسير الذي يخرج على نحو مختلف عن دخوله السجن التي كرّستها إسرائيل. فأنا دخلتُ بثيابٍ مدنيّة وأخرج بثيابٍ عسكريّة.

بعدما ارتحت في سريري وأفرغتُ رأسي من التفكير، فتحتُ الكتاب عن حرب تموز ٢٠٠٦، واستأنفتُ القراءة بحماسة وخوف من أن أفقد الكتاب قبل أن أنتهي منه.

صباحاً، قصدتُ مروان في زنزانته. وقفتُ خارجها:

— «مَن تعتقد أنه مناسب ليحلّ بدلاً مني في مهمّة ممثّل الأسرى؟».

فكّر قليلاً:

— «ناصر أبو سرور، كفء ومقدام ويتقن العبريّة».

— «أنا أيضاً أثق به، لكنه يحتاج إلى التجربة».

— «يتعلّم، وقادر على الإمساك بالأمور بسرعة».

— «سنناقش الأمر في اللجنة الوطنية، ومتى نحصل على موافقة الإخوان نخبر الإدارة ويرافقني في اجتماعاتي معها ليطّلع على الملفات كلّها ويرى كيف نتصرّف».

نقلت إلى أعضاء اللجنة الوطنية ترشيحي ومروان ناصر أبو سرور. وافقوا. توجّهت إلى ناصر وأخبرته بما جرى ورحتُ أشرح له المهمّة:

— «ممثّل الأسرى كمَن يمشي على خيطٍ رفيع، وأيّ حركة غير مدروسة تطيح الأسرى والمكتسبات. الثقة تنالها من الأسرى لا من الإدارة. هناك ممثّلو أسرى يساومون الإدارات ليبقوا في منصبهم، بينما ممثّل الأسرى الأمين والناجح هو مَن ينال ثقة الأسرى ويجعلهم جيشاً خلفه. لا يمكن ممثّل الأسرى أن يحقّق مطلباً أو ينتزع حقّاً إذا أحسَّت الإدارة أن الأسرى ليسوا داعمين له موحَّدين معه».

أنهيتُ كلامي في المبادئ وغادرته لأُطلع الإدارة على قرارنا.

قلت للمدير:

— «ناصر أبو سرور سيغدو ممثّل الأسرى، وسيرافقني في اجتماعاتي معكم وفي مهمّاتي مع الأسرى حتى أخرج من هنا».

مشى ناصر معي للقاء ضابط القسم. قلت له:

— «أنت ستسمع. افتح أذنيك جيّداً، لتعرف كيف يجري الحوار مع ضابط القسم، متى تشدّ ومتى ترخي، ولتعرف ما هي المواضيع التي تُبحث مع ضابط القسم، وفق صلاحيّاته، فلكل ضابط ومسؤول مواضيع محدّدة تُبحث معه، ولتعرف ما هي حقوقنا التي يقرّ بها السجّان والأخرى التي يحاول التملّص منها. هذا مهمّ،

انتبه لكل كلمة، كي لا يُقال لك حين أغادر إن هذا لم يكن متّفقاً عليه، أو إن ذاك لا علم لنا به. لا تنسَ حقّاً للأسرى. التنازل يبدأ بملعقة، ومتى أخذوا حقّاً صغيراً أخذوا حقوقاً كبيرة».

قلت للضابط:

— «ناصر يعرف كل شيء. اطّلع على تقاريرنا التي تتضمّن حقوقنا كلّها، فلا تتحاذق عليه».

ردّ الضابط مرتبكاً محاولاً نفي التهمة عن نفسه:

— «ولماذا أتحاذق؟ علينا أن نعمل معاً لهدوء القسم».

اتّفقت مع الضابط على لائحة الأسرى الذين سيتناوبون على العمل في الممر، وغادرنا المكتب، وبقينا في الممر نتنقّل بين الزنازين وقد عرف الأسرى جميعاً بمهمّة ناصر وبأسباب مرافقته لي.

حان موعد وجبة الغداء. اقتربتُ من العربة لأعرف ما سيوزّع. وجدت أن لا فاكهة. نظرتُ إلى ناصر داعياً إيّاه أن يراقب ما يجري. سألت الضابط:

— «أين الفاكهة؟».

— «لا يوجد».

— «ماذا يعني لا يوجد؟».

— «قَسَماً بأولادي أن لا فاكهة في المخزن».

— «لا يعنيني هذا. أوقف التوزيع».

بدا الضابط صادقاً في كلامه، لكن عليّ أن أُفهِمَ ناصر ألاّ يؤخذ بهذا وبالكلام الحَسَن. فإذا ضعف أمام هذا خسر أمام السّجان الذي يأخذ ولا يعطي، ويقبل بأن يتنازل الأسرى ولا يتنازل هو. وإذا كان هذا الضابط صادقاً الآن فربّما هو نفسه سيكذب غداً ويُنقص من الوجبات ويسحب حقوقاً أخرى.

— «ماذا أفعل»، سألني الضابط متوسّلاً أن أسمح له بتوزيع الوجبة.

— «خذ صندوقاً واذهب إلى البساتين المحيطة واقطف فاكهة وعد، نحن في انتظارك».

ابتسم متردّداً محاولاً أن يجعل كلامي مزاحاً.

— «أعني ما أقوله. لن نتسلم الوجبة من دون فاكهة»، قلت له واثقاً بأن أي أسير لن يعترض.

— «أعوّض عليكم غداً».
— «الآن».
— «لا فاكهة لدينا».
— «ماذا لديك بدلاً منها؟»، سألته فاتحاً الباب لمقايضة.
— «لديّ ألبان وأجبان».
— «إذاً، آتنا بها بدلاً من الفاكهة».
غادر الضابط ونظري موزّع بينه وبين ناصر المبتسم. هزّ رأسه مومئاً أنه فهم الدرس.
همستُ له:
— «الأهمّ من معرفة متى تستخدم القوّة والضغط ومتى تنضج الأمور لإجراء مقايضة أو تحقيق هدف، هو أن تكون حجّتك متينة وجيشك يثق بأنك لن تتنازل عن حقوقه، فيساندك».
ليلاً، سألتُ المنسّق عن الثياب العسكريّة وأطلعني أنه يجري البحث عن تسمية لعمليّة التبادل من وحي الشهيد عماد مغنيّة. قلت بعفوية:
— «أجنحة العماد».
— «متى يُتوقَّع أن تتم العمليّة؟».
— «قريباً، السيّد حريص على ألاّ يُحدّد موعد كي لا يلعب الإسرائيليون ليوحوا بأن السيّد يقول كلاماً غير دقيق. انتظر وسأُطلعك متى يتم التوصّل إلى ذلك وبإذن السيّد».

عاد أحد الرفاق من المستشفى. لم يرحمه الحرّاس. تشدّدوا في تفتيشه عارياً خوفاً من أن يكون حاملاً رسائل أو أشياء لتهريبها. جاء وأخبرني. سألته عن الشرطي الذي فعل ذلك. أشرتُ إلى ناصر بالاقتراب مني. طلبتُ إلى ضابط القسم أن يستدعي الشرطي الذي فتّش الأسير.
— «لماذا؟»، أجابني ضابط القسم مستفسراً محاولاً موازاتي بالغضب.
— «لنسأله لماذا فتّشه وأتعبه وهو يعرف أنه مريض».

— «نسأله في ما بعد». وأشار بيده ما يوحي بتأجيل هذا الأمر التافه.

— «استدعِ الشرطي، وإلاّ فسأقفل القسم».

نظر إليّ كأنّه بدأ يسمع ما أقوله ويشعر بجديّة الأمر.

مشى نحو مكتبه. بقينا أنا وناصر والأسير المريض في مكاننا بالممر.

رجع ضابط القسم:

— «سيأتي حالاً».

نظرتُ إلى ناصر كدعوة إلى فهم ما يجري والانتباه إلى ما سيحصل.

أتى الشرطي الذي فتّش الأسير. ملامحه متردّدة بين الرغبة في الدفاع عن نفسه والتبرير. عاجلته:

— «لماذا فتّشته وهو مريض متعب؟».

— «هذه أوامر».

التفتُّ غاضباً إلى الضابط:

— «أيّ أوامر، هل هناك أوامر لا نعرف بها؟».

ارتبك الضابط. أدرك أن الشرطي بالغ وتصرّف بعدائيّة من تلقاء نفسه:

— «مَن أصدر لك هذه الأوامر؟»، سأل الضابط الشرطي.

بقي الشرطي صامتاً. انكمش على نفسه.

أضاف الضابط:

— «هذا التصرّف ممنوع، ممنوع أن يتكرّر!»، وأمره بالمغادرة إلى حيث يعمل.

استقبلتُ نظرةَ الضابط وأنا أهمس لناصر أنَّ علينا معرفة ما إذا كان هناك أوامر في هذا الصدد.

ابتعد الضابط، فسألني ناصر:

— «كيف نعرف؟».

— «نسأل المدير، وإذا نفى وجودها تعتبِر ذلك اتّفاقاً وقاعدة».

طلبتُ إلى مروان، ونحن في الباحة، ألاّ يستعمل الهاتف:

— «أيّ شيء تريده اطلبه من عمار مرضي. أنت ستتحدّث مع رفاقك في فتح وعدد منهم مطلوبون، وخطوطهم مراقبة».

هزّ رأسه مثل طفل مشاكس يهادن كي يفعل ما يشاء حين يستطيع.

قلت له:

— «حتى زوجتك فدوى ممنوع الاتصال بها، خطّها أكيد مراقب».

التفتَ نحوي متفاجئاً كما لو أني اكتشفتُ أنه كان يفكّر في محادثتها. ابتسم.

— «في اليوم الذي ستستعمل فيه الهاتف سيفتّشون زنزانتك والقسم ولن يغادروا قبل العثور عليه».

— «خلص، أنا لا أتكلم مع ابني القسام هكذا». وضحك.

دعاني إلى تقريب رأسي من رأسه. همس:

— «عندما تخرج من هنا، تزوّج وأنجب أولاداً، وتكلّم معهم كما كنت تكلّمني...».

أرجع رأسه قليلاً. وقف مستقيماً:

— «آه، والله ليفرجوك الويل. وعندها ستقول ابني مروان كان أكثر ولد مطيع».

— «سأفتقدك، سأفتقد روحك المرحة، حتى في الأوقات الصعبة».

فجأةً بدا جديّاً:

— «أرجوك، احمل سلامي إلى السيّد حسن نصر الله. أنا أحترمه، صادق ويقود مقاومة جديّة عرَفتْ كيف تطوّر نفسها وعملها».

كرّرتُ للمنسّق بين وبين السيّد نصر الله سؤالي عن الثياب العسكريّة.

رد:

— «مشي الحال».

— «أريد تأكيداً».

استمهلني بعض الوقت.

جلستُ أقرأ.

أضاء الهاتف. وضعتُ السماعة في أذني:

— «كن أكيداً». وضحك.

سألته عن أسباب ضحكه. ضبط نفسه:

— «لكثرة ما سألت السيّد عن موضوع الثياب العسكريّة ملَّ وقال لو لم يكن سمير عنيداً هذا العناد لما بقي حيّاً ثلاثين سنة في السجن والتعذيب ومواجهة العدو».

— «هذا بفضل الله عزَّ وجلّ»، رددتُ بعدما ضحكت سعيداً بهذه الشهادة. وسألته:

— «أكيد، يعني أكيد؟».

— «وجّه إلينا أمراً بتجهيز الثياب، وعليك أن تعطينا مقاساتك».

تخيّلتُ نفسي أرتديها وكل سياسي وعسكري وأمني في إسرائيل يراني.

حدّثت شقيقي بسّام. اقترح عليّ إعداد الكلمة التي سألقيها في الاستقبال الذي سيقام لي ببيروت. رفضت:

— «سأحكي ما أشعر به في تلك اللحظة».

قرأتُ في الصحف العبريّة أن المحكمة العليا رفضت الطلب الثاني لعائلة الشرطي إلياهو منع إخلاء سبيلي. تفاءلت رغم هامشيّة هذا الأمر، إذ اعتبرتُ أنه إشارة إلى استمرار الحكومة في الصفقة. لكن بقي أمامنا قرار الحكومة بعد دراسة التقرير الذي قدّمته المقاومة في شأن رون أراد، فإذا رأت أنه غير وافٍ وغير مفيد، فقد توقف الصفقة.

نسيتُ هذا كلّه وأنا أتابع، يرافقني ناصر، مسألة امرأة أتت من الضفة الغربية ومُنعت من زيارة ابنها الموجود معنا. وقد استطاعت تلك الأم المنتظرة في الخارج إيصال الخبر لابنها مع أسرة التقت ابنها وعاد إلى القسم.

قصدنا، أنا وناصر، ضابط القسم. عرض علينا معالجة الأمر مع الضابط المسؤول عن الزيارات.

ردّ علينا هذا:

— «المرأة لا تحمل إذناً بالدخول».

— «كيف أتت من الضفّة؟»، سألته.

— «حمل تصريحاً من الجيش».

— «وهذا التصريح يسمح لها بدخول السجن»، قلت له ليبدو الأمر بديهيّاً.
سكت متفاجئاً، وانسحب من بيننا لمراجعة المدير عبر الهاتف.
عاد:
— «التصريح لا يخوّلها دخول السجن».
— «إذاً، لماذا التصريح، لتتنزّه حول السجن، لتأتي وتفجّر نفسها بباص. التصريح لتأتي إلى هنا وتزور ابنها».
غادر مجدداً. سألني ناصر:
— «ما رأيك إذا لم يسمحوا للمرأة بلقاء ابنها أن نطلب إلى الأسرى وأُسرهم وقف الزيارات حتى يُسمح لها بذلك».
— «ممتاز، هذا هو القرار الصائب، التالي». وفكّرت أنه إذا جاء الضابط بالرفض فسأطلب من ناصر أن يدعو الأسرى وأُسرهم إلى وقف الزيارة.
عاد الضابط موافقاً على دخول الأم قاعة الزيارات. رجعنا إلى القسم وأخبر ناصر الأسير أنه سيلتقي أمه اليوم.

الأحد، ١٣ تموز/يوليو ٢٠٠٨، نقل إليَّ المنسّق رسالة من السيّد أن العمليّة ستتم يوم الأربعاء المقبل.
أعجز عن التعبير عن فرحتي. انسحبت إلى سريري وقرأت في القرآن. استلقيت. هذا أجمل سرٍّ احتفظت به في حياتي. ضحكت كثيراً وحدي. تذكّرت كثيرين أحب أن يرافقوني في هذه اللحظة.
ظهر اليوم التالي، جاؤوا بأسير من سجن الرملة. أخبرني أنه علم بوصول أسرى حزب الله إلى السجن وأخذوهم إلى غرفة الانتظار المجاورة للأقسام. قلت سننطلق جميعاً من هنا. دفق من الماء البارد انهمر في روحي.
طلب إليّ الشباب أن ننظّم احتفالاً وداعياً. سألتهم إعفائي من هذا:
— «عندما أخرج افعلوا ما تشاؤون».
— «لماذا؟ نريد أن نفرح لك!».
— «أرجوكم. أنا أخرج من هنا سعيداً لنفسي وحزيناً لأجلكم. لا يمكنني أن أكون سعيداً فقط».

أصررت على موقفي.

— «كونوا موحَّدين وادعموا ناصر».

بعد النزهة في الباحة فاجأني مدير السجن بالمجيء إلى باب زنزانتي:

— «لا نعرف في أيّ لحظة يُطلَق سراحك، ابدأ توديع رفاقك لأنك ستخرج فجأة».

ضحكت منه، وكيف أن القدر جعل السجّان لا يعرف موعدَ خروج السجين، بينما السجين يعرف.

خرجتُ مبتهجاً من زنزانتي. جلتُ على الزنازين كلّها. بيني وبين كل أسير قصص وأخبار كثيرة. راح البعض يستعيد من الذاكرة كلاماً أو إيماءات وإيحاءات وملامح. لا أصدقاء لي في هذا العالم إلاّ الأسرى. لا عالم لي في هذا العالم إلاّ السجن. كأني ولدتُ هنا، وولدت لأحمل حديداً في يدي، بندقية أو أغلالاً.

عدت إلى زنزانتي. اتّصلت بشقيقي بسّام:

— «إذا لم أُجِب على الهاتف غداً يعني أنني في طريقي إليكم».

صباح الثلاثاء، ١٣ تموز/يوليو، يفصلني يومان أو ثلاثة عن الموعد التقريبي الذي ضربه السيّد. أعددتُ القهوة وجلست. قبل أن أنهي فنجاني الأوّل جاءني شرطي وطلب إليّ التوجّه إلى مكاتب الإدارة. ككثير من المرّات قلت له فلينتظروني حتى أنتهي من شرب القهوة وأستعيد مزاج التواصل مع الآخرين. غادر ثم عاد وكرّر دعوته. وكرّرت له أنني أشرب القهوة وسأوافي مَن ينتظرني بعدما أنتهي منها. لكنه أصرّ وقال إنهم أمروه بألاّ يعود إليهم إلاّ وأنا برفقته. أمهلته قليلاً حتى احتسيتُ قهوتي ومشيت. خرجت إليه ببطء. مشينا ومشينا في الطبقة الثانية. توجّهنا إلى بابٍ عادةً ما يبقى مقفلاً، يطلق عليه اسم باب أمني. عبرته، وأقفلوه خلفي.

قال لي الضابط المنتظر:

— «لن تعود إلى القسم».

— «أغراضي، أريد أن آتي بها».

— «لن تحمل أيّ شيء من هنا. ستخرج بثيابك التي ترتديها فقط».

— «هناك رفيقان لي لم أتمكن من وداعهما».

— «الأوامر صادرة من جهات عليا. وأغراضك ستُرسل عبر الصليب الأحمر».

لم أتوقّع أن أُخرج من القسم في الصباح، توقّعت أن ينقلوني ليلاً، أو مساءً.

شعرتُ بأن هذه أقسى لحظات أسري. لا يسيطرون على مجريات أيّامي وحسب، بل يبترونها. حتى في خروجي يريدون أن يتحكّموا في كل شيء ويجعلوني أشعر بذلك وبأنني مخطوف وسليب الإرادة. فكّرت أنّ حركتهم هذه أكثر من إجراء روتيني، هي دلالة، إشارة إلى أنه حتى ماضيَّ في هذا المكان ومع رفاقي لا يمكنني أن أواصله، وكأنه ليس لي، وكأنهم يريدونني أن أكون شخصاً آخر غير الذي اعتُقل وأمضى هذه السنوات هنا. واحتجازهم أغراضي احتجاز معنوي لي، يريدون لي أن أخرج من هنا ناقصاً أغراضي، وإذ يبقونها لديهم ليوجعوني، لا ليذكروني بالماضي والسنوات والحزن على أشياء قليلة صغيرة، بل لأشعر بأنني لم أخرج حرّاً. لكن هذا لن يحصل. أغراضي التي يعرفونها باتت لدى رفاقي، وستتحرّر، وستصل إليّ، بطريقتنا لا بطريقة السجّان. وأغراضي التي يجهلونها، هاتفي خصوصاً، سيكون صلة وصل بين كثيرين في السجن وكثيرين خارجه. سيواصل مهمّته التي لا يمكن للسجّان قطعها.

اصطحبوني إلى الطبقة الأرضية، نحو غرفة الانتظار. تعرّفت هناك إلى أسرى الحزب، حسين سليمان ومحمد سرور وماهر كوراني وخضر زيدان. سبق أن شاهدتهم على التلفزيون أثناء محاكماتهم بتهمة الانتماء لحزب معادٍ وإطلاق النار على جيش الاحتلال. تحدّثنا عن حرب تموز/ يوليو التي اعتُقلوا فيها وعن السجن حيث كانوا، أشمورت.

أحسستُ أننا في كواليس مسرح ننتظر خروجنا إلى الخشبة. معنويات الجميع مرتفعة حتى الضحك في كل دقيقة.

قطع وفد الصليب الأحمر الدولي علينا مرحنا. أخرجونا لمقابلته واحداً واحداً.

أخبرتني عضوة الوفد بعربيّة تعلّمَتْها خلال عملها في الأراضي المحتلّة وتعاملها مع الفلسطينيين، أنه سيطلق سراحي، وسألتني إنْ كنتُ موافقاً على أن أُرسل إلى لبنان. استغربتُ السؤال.

أجبتها متعجّباً:

— «ما هذا السؤال؟».

— «نوجّهه إلى كل مَن سيفرج عنه».

قلت ضاحكاً:

— «أكيد إلى لبنان».

— «أتريد قول شيء».

— «لا شيء».

قابل وفد الصليب الأحمر الأسرى الأربعة الآخرين.

خضر زيدان طفل كبير، وقد زادت سمنته في السجن، أعلن وهو يأكل من الصحون كلّها التي أُحضِرَت لنا على صينية صغيرة، أنه لن يقترب من الطعام إلاّ متى وصلنا إلى لبنان.

— «انتبه أن توسّخ ثيابك»، مازحه الشباب وهم يسألونه أن يترك لنا شيئاً من الطعام.

— «أنتم شبعانون»، قال بفمٍ مليء. ووعد نفسه بصحن مجدّرة ولحمة مدقوقة، وتذكّر الملوخيّة والكفتة.

عصراً، أحضروا لنا ثياباً تشبه ملابس راقصي الباليه.

سألت الضابط الذي يرافق الشرطي حاملها:

— «ما هذا؟».

— «هناك أوامر من جهات عليا أن ترتدوها عند إطلاق سراحكم».

— «احملها وامشِ».

— «جرّبوها».

— «اذهب، جرّبها أنت».

— «ستلبسونها وسترى يا سمير». توعّد الضابط.

— «عد من حيث أتيت».

غادرا.

ضحكنا. وراح خضر يسخر من الثياب، تارةً يقول إنهم ظنوا أننا راقصو بالي، وأخرى يتذكّر أنها تشبه الثياب الداخلية. اتّفقنا على رفض ارتدائها.

أضحكنا خضر.

حتى رحنا نرجوه أن يتركنا ننام قليلاً، لأننا سنوقَظ باكراً لنتوجه إلى لبنان.

تركنا ننام. وفجأةً قال إن الطعام لم يكن طيّباً. ضحكنا ورجوناه أن يتركنا ننام. خمس دقائق ثم نهض وسأل مقلّداً موفدةَ الصليب الأحمر:

– «هل تريد العودة إلى لبنان؟».

كرّر مزاحه حتى هدّدناه بالهجوم عليه وضربه حتى يغفو.

نام.

عند الواحدة والنصف فجر الأربعاء ١٦ تموز/ يوليو ٢٠٠٨، فتحوا باب الغرفة وطلبوا خروجنا واحداً واحداً. أشعلنا الضوء. أثناء خروجنا أنا وحسين سليمان، أكّد كلٌ منّا على الآخر أننا لن نرتدي تلك الثياب.

مدَّ الضابط الثياب لنرتديها.

قلت جازماً:

– «لن يلبسها أحد منّا». ونظرت إليه بثبات، لعلّه يفهم، وهو درزي، أننا لن نقبل أن نفعل ما يهيننا.

لم يجب. قلت له:

– «اذهب وليأتِ الضابط الأرفع منك».

جاء الضابط الأعلى رتبة، كرّر طلبه وكرّرتُ رفضنا ارتداء السراويل وموافقتنا على القمصان القطنية العلوية. أكّد أنها أوامر صادرة من جهات عليا، فرددتُ عليه بأن ينقل إلى تلك الجهات أن الصفقة لاغية وأننا لن نخرج بتلك الثياب وعليهم إعادة كلٍّ منّا إلى زنزانته.

غادر الضابط وجاء أرفع منه. ثم غادر وجاء الأرفع منه، حتى جاء مسؤول المنطقة، وبعده نائب مدير السجون. قال لي:

– «أمضيتَ ثلاثين سنة في السجن ولا تريد أن ترتدي هذا البنطلون حتى تصل إلى رأس الناقورة؟ مرِّرها هذه المرّة».

– «أمضيتُ ثلاثين سنة في السجن محافظاً على كرامتي ولم أسمح لأحد منكم بإهانتي، ولن أسمح لكم في آخر نصف ساعة لي في السجن بإهانتي».

حسين على بعد ثلاثة أمتار منّي، يهزّ رأسه، إذ تعلّم بعض العبريّة في السنتين الماضيتين.

غابوا نحو ربع ساعة وعاد نائب مدير السجون ومدير السجن. أعلنا أنهما حادثا وزير الأمن الداخلي، آفي دختر، ووافق على أن نرتدي القمصان القطنية الرمادية، ونبقى بالبناطيل التي نلبسها.

عندما خرجنا مكبّلي الأيدي والأرجل من المكتب حيث جرت المفاوضات، بدأت تلمع كاميرات الصحافيين. أكملنا طريقنا. كانوا يريدون أن نرتدي تلك السراويل لهذه اللحظة، ليصوّرونا بها ويسخروا منّا في الإعلام. هذه هي الحيلة الوحيدة التي سعوا إلى إلهاء الرأي العام بها. وقد ظنوا أننا سنوافق متهافتين على الخروج. لم نمنحهم الفرصة.

وقّعنا في أوراق خروجنا من السجن أمام الكاميرات، وسرنا نحو الخارج. أدخلوني عبر باب في مؤخّرة السيّارة إلى قفص في داخله مقعدان. أغلقوا القفص وجلس بيني وبين الباب شرطيّان، أحسستُ أن واحداً منهما خائف وينظر إليّ بودّ. بيني وبين السائق طاقة صغيرة، تخوّلني رؤية بعض الطريق.

أخذوا رفاقي الأربعة معاً بسيّارة أخرى.

انطلقنا برفقة سيارات عدّة ودرّاجات ناريّة، أمامنا وخلفنا.

أضواء الطرقات والأبنية ناعسة في أوّل الفجر. الشوارع خالية بلا أصوات وضجيج. فلسطين كلّها متوقّفة، لنا، في هذه الأثناء. الصمت الوداعي يملأ رأسي، والمكان كلّه. لم يخرج صوت من فم الشرطيين الأربعة. حواسي كلّها خارج القفص. بدأنا نقترب من نهاريا. سكانها الإسرائيليون رفضوا أن نعبر منها. اعتمد الموكب طريقاً إلى الشرق منها. لحظات عبورنا بجانبها، هي لجهة اليسار، أضحكتني، فلو مررنا بها لما كنتُ رأيتها كلّها من مكان أرفع منها. رأيت البحر أيضاً. كأني رأيتُ زورقنا الراسي هناك. تابعنا سيرنا. اقترابنا من لبنان يترافق مع شروق الشمس، هي ترتفع ونحن نقترب.

وصلنا بسرعة إلى رأس الناقورة. نظرت إلى الساعة في يدي: الخامسة والنصف. تذكّرتُ الساعة التي كانت في يدي حين أتيت إلى فلسطين المحتلّة. وقد سبقتني إلى لبنان، عام ١٩٨٣، حين طلبوا من كل أسير له أمانات لديهم أن يتسلمها، وكنت في سجن بئر السبع، ففعلت وأرسلتها إلى أهلي، إذ كان ممنوعاً علينا حمل الساعات. بعدها بسنتين سُمح لنا.

أبقونا داخل السيارتين. كنتُ أتوقّع أن تحصل عملية التبادل عند التاسعة صباحاً.

مرّت التاسعة، العاشرة، الحادية عشرة، لم يحصل شيء. سألوني إنْ كنتُ أريد تناول الطعام، رفضت. أحضروا لي قنينة ماء.

مرّ وقت آخر. طلبت الذهاب إلى الحمّام. سمحوا لي. وجدتُ حمّاماً ارتجاليّاً، ولم يفكّوا قيودي. عدتُ إلى السيارة. فتح شرطي باب السيارة صوّب بندقية M-16 على رأسي. نظرتُ إليه. تراجع. عاود فعلته. ثَبّتّ نظري عليه، تراجع، مرّة اثنتين، ثلاثاً. قلت له:

– «استعمل هذه البندقيّة أو اغرب عن وجهي».

غادر.

مرّ وقت آخر. فكّرت أنهم يريدون تنغيص فرحتنا، ولن يتركونا قبل الليل، حتى تملّ الجماهير المنتظرة في الناقورة وتعود إلى بيوتها.

مللت. شعرتُ بالنعاس.

تقدّم في اتجاه السيّارة رجل ضخم الجثّة، على كتفيه سيفٌ وغصن زيتون متقاطعان، إشارة رتبة العميد، أعلى رتبة في الشرطة العسكريّة. فتح باب السيّارة وراح ينظر إليّ بحقد. أدركتُ أن الجنديين الأسيرين ميّتان.

أغلق الباب بعنف، وغادر.

شغّل الشرطي بجانب السائق الراديو:

– «وضع الجثتين صعب، لذلك ستتأخّر عمليّة التبادل».

أوقف الشرطي الراديو بسرعة.

تأكّد حدسي. هيّأتُ نفسي لإلغاء الصفقة والعودة إلى السجن... أو قتلي وإعادتي جثّة إلى لبنان.

أخرجني من هذا التفكير أناشيد المقاومة التي بدأتُ أسمعها آتية من الناقورة. سألت نفسي لماذا يفعلون هذا ونحن ما زلنا هنا؟ ثم انتبهت إلى أنني لم أسمعها قبل أن أفتح زجاج الشبّاك بجانبي طرداً للحرّ. التصقتُ بالشبك المثبَّت على الشبّاك لأسمع أوضح.

عند الخامسة والنصف عصراً تحرّكت سيّارتنا ببطء. رأيت من الطاقة الصغيرة بيننا وبين السائق السيّارةَ التي تقلّ الشباب تسير أمامنا. سألتُ الشرطي الخائف ذا النظرة الودودة:

– «إلى أين نتّجه؟».

– «إلى معبر الناقورة».

مررنا بصحافيين وأُناس وجنود.

دخلنا المعبر. ثم توقّفنا. أُنزل الشباب من السيّارة. رأيت عوفر ديكل رئيس طاقم المفاوضات في شأن عملية التبادل يتحدّث مع مندوبين من الصليب الأحمر الدولي.

بعد نحو أربع دقائق أشار ديكل إلى السيّارة حيث أنا. ركض شرطي وفتح الباب، فكّ الكلبشة من قدميّ وطلب إليّ الترجُّل. تبادلنا أنا وديكل النظرات. نظرته نظرات كثيرين. لا أدري بماذا يفكّر، لعلّه تذكّر قولي له إنني سأخرج، سأتحرّر، أو يأسف كيف أُطلق سراحي. ملامحه تشي بالأسى. حافظت على عادتي بعدم المبادرة إلى مد يدي، وهو لم يمدّ يده للمصافحة.

طلب ديكل إلى الشرطي فكّ الكلبشة من يدي. جمد الشرطي كأنه لم يسمع أو يسمع ويأبى. كرّر عليه ديكل الأمر. امتثل. قالت لي مندوبة الصليب الأحمر بلهجة خائفة:

— «اركض يا سمير بسرعة إلى سيّارة الصليب الأحمر الموجودة هناك».

لم أركض، قرّرت ألا أركض. لم أجد الركض فعلاً لائقاً. رحت أنظر يميناً ويساراً. لفتتني امرأة تقف على أحد الأبنية وتصوّر بكاميرا فيديو.

وصلت إلى السيّارة. جلستُ بمحاذاة الشباك خلف السائق. رأيت صحافيين شرعوا يرحّبون بي ويهنئون بالسلامة، باللغة العربيّة. سألوني عن رأيي بالحريّة، وعن قصّة الإفراج عنّي. لا رغبة لدي في الإجابة. ألحّوا.

قلت:

— «الفضل للمقاومة في هذه اللحظات من الحريّة».

سألت السائق:

— «أين نحن؟».

— «في لبنان».

ورأيت بحراً. شعرت بأنني أراه للمرّة الأولى من هذه المسافة القريبة، كأنني أرى صورة.

أمتار قليلة ووقفنا. تقدّم وفيق صفا في اتجاهنا وصعد إلى السيّارة. تصافحنا وقبّلني وهمس في أذني بأن السيّد يبلغني بأن لا أنطق بأي كلمة في شأن تشيّعي. وطلب إلى الشباب ألا يتحدّث أحد غيري إلى الصحافيّين.

نقلوني إلى سيّارة جيب، انطلقت بسرعة حتى وصلنا إلى بيت. أدّى لنا مقاومون التحيّة. وشرعت طبيبة بإجراء فحوص طبيّة لي وللشباب، وسألتنا إذا ما كنا نعاني أمراضاً. ثم حضر فريق طبّي لإجراء فحص كيميائي.

لحق بي مصوّر «المنار»، علي شعيب، أينما مشيت في المنزل. طاردني بكاميراه إلى الحمّام. برّر لي أن ما يصوّره ليس للنشر. أبعدته.

تركت المياه تنساب عليّ كما لو أني تحت شلال، أو كما لو أني أثأر من الحمّام الأوّل في معتقلي الأوّل، ١٣٩١، الصرفند. اغتسلت استعداداً للصلاة.

ارتديتُ بذلتي العسكريّة. لجهة القلب علم لبنان، وللجهة اليمنى اسمي. فضفاضة قليلاً. لا بأس، قلت. تجعلني حرّاً في حركتي. استعدتُ حلمي القديم بارتداء ثياب عسكريّة. هذه البدلة سلاحي الآن، وقد كان سجني سلاحي. حاربت به وبقيت صامداً به.

خرجت من الغرفة إلى المنتظرين. وجدت رفاقي الأسرى بثيابهم العسكريّة أيضاً.

تحدّثت قليلاً إلى مراسل «المنار».

فوجئت في الناقورة بالحشود ما زالت تنتظر في الحرّ تحت الشمس منذ الصباح. أُناسٌ مصرّون على الانتصار والفرح. ابتهجت. شعرتُ بأن ملامحي ضاحكة، وأنني أسير بقوّة دفع لا أسيطر عليها. أتصبّب عرقاً كأنني جنين يولد الآن.

ارتقينا المنصّة. صافحتُ أيادي وقبّلتُ وجوهاً أعرفها، رأيتها كثيراً وأحفظ أسماء بعض أصحابها.

الأناشيد متواصلة تتوقّف مع كلمات الترحيب والاحتفاء. كيف أُكافئ هؤلاء، كيف أشكرهم، وبعضهم ولد قبلي وبعضهم ولد في سنوات سجني؟ عليّ أن أستجمع قواي. أتذكّر أننا انطلقنا في الزورق نحو فلسطين من هنا، وإلى المكان نفسه عدت. ثلاثون سنة مرّت وكأنها الآن روزنامة واحدة، وورقة واحدة من روزنامة تتجدّد الآن.

طرنا بهليكوبتر للجيش اللبناني، مع وفيق صفا، والمدير العام للأمن العام وفيق جزّيني ممثل رئيس الجمهوريّة، نحو بيروت، عكس اتجاه الطائرة التي أقلّتني قبل

ثلاثين عاماً، من نهاريا نحو الصرفند. أحلّق فوق لبنان، لستُ في طائرة إسرائيليّة معادية تغير وتقصف. أرى جبالاً ومدناً وقرى كبرت وتوسّعت في غيابي. يا الله، حياةٌ كاملة تواصلت هنا، استمرّت، قاومت وأصرّت على البقاء.

— «هذا مخيم الرشيدية»، قال وفيق صفا.

هذه صور ما زالت في مكانها تقتحم البحر. ضجيج مروحة الطائرة يحرّض رغبتي في أن أطأ الأرض. استعجالي للوصول إلى بيروت جعلني لا أندم على اختصار هذه المسافات عبر الطائرة. وكنت أرغب في أن أمرّ بها لا أن أراها من فوق.

في المطار طابور طويل من السياسيين عليّ أن أصافح مَن أحبّه ومَن لا أحترمه. جميعهم أتوا إلى هنا، مَن يدعم المقاومة ومَن يناصبها العداء. لماذا أتى مَن اعتبر أن المقاومة غامرت بالحرب وسبّبت دمار لبنان، ومن قال إنني مسؤول عن الحرب ودمار لبنان؟ سألت نفسي وفكّرت كم هي السياسة كاذبة في لبنان. لماذا أتوا، حقّاً لا أعرف، ليفرحوا معنا، مع المقاومة، أم ليتقاسموا الانتصار.

تململ رفاقي الأسرى المحرّرون. عبّر بعضهم عن رغبته في عدم مصافحة عدد من السياسيّين. التزموا بأوامر السيد: مصافحة الجميع.

صافحني السياسيّون كافّة مبتسمين، وقبّلوني أيضاً. مصوّرون فاتهم التقاط صورة تجمعني والرئيس سعد الحريري، طلبوا إلينا إعادة المصافحة، قبّلني مرّة أخرى.

أنهيتُ هذا الواجب، وبعضه قصاص.

فجأة:

— «يا سمير، يا سمير، ذكّر المسؤولين بالمفقودين. قل لهم كي يفهموا ما معنى الأسر والإخفاء والتغييب».

صرخت لي امرأة وأنا متّجه إلى الصالون حيث أهلي والأسر الأخرى.

لم أستطع الاقتراب منها لأسألها من تكون. أبعدوني بسرعة عنها.

حان موعد أسرتي وأُسر رفاقي. مشينا إلى القاعة حيث ينتظرون. عانقت أمّي وإخوتي وأبناءهم. لا أعرف كيف تتطاير الكلمات، من أين تستأنف. آلمني أن أبي وشقيقتي سناء ليسا من الحاضرين. لن أراهما. الحزن عميق يختبئ خلف وجهي.

في السجن عرفت بغيابهما، حزنت لفقدهما، لكني الآن لمستُ ذلك، كما لو أنهما رحلا الآن.

نظرتُ في وجوه أطفال إخوتي. لمسوا وجهي كأنهم يلصقون عليه ضحكة أو يشغّلون لعبة لتنطق أو تضحك.

إخوتي وأخواتي غير مصدّقين أنني بينهم. سميرة تضحك وتبكي. أحسست بأن اللحظة هي الصورة الواقعية لحديثنا للمرّة الأولى عبر الهاتف.

خطفني برنامج الاحتفال من أسرتي. مشيت من بينهم على وعد أن يبدأ الكلام في ما بعد.

آلاف المستقبلين اصطفّوا على جانبي طريق المطار. لم أتخيّل ذلك. شباب، فتيات، رجال، نساء، أطفال، يرحّبون بنا.

فجأةً، ونحن نصعد إلى منصّة الاحتفال الشعبي بحريّتنا، سمعت عبر المايكروفونات الضخمة الموزّعة في المكان، صوتاً ينادي عبر جهاز اللاسلكي:

— «مئة وواحد، مئة وواحد، عمليّات، عمليّات، من ينادي؟».

فكّرت أن خطأً تقنيّاً أوصل صوت أحد شباب الأمن إلى تلك المايكروفونات.

ابتسم وفيق صفا بجانبي بعدما أوقفني ورفاقي الأسرى في طابور، وطُلب إليّ أن أتقدّم وأكسر القضبان المنصوبة فوق المنصّة كأنها قضبان سجن وأنا ورفاقي نخرج من بينها.

ثم سمعت:

— «أنا سمير القنطار رجعت ومعي الشباب».

تبعت ذلك موسيقى. وعلت هتافات الحشود. تقدّمت وكسرت القضبان، ومشينا على الخشبة. أمامنا الآلاف محتشدين. رفعنا أيدينا لملاقاة أكفّهم المهلّلة.

جلسنا على كنبات في مواجهة المحتشدين. سمعت عريف الاحتفال الواقف خلفي يقول:

— «وأبى إلا أن يشارككم هذه اللحظة... سماحة السيد حسن نصر الله».

وثارت الجماهير. نظرت خلفي فإذا بالسيد يتّجه نحونا. يا للمفاجأة. لم

أصدّق. لم يُقل لي إنه سيحضر شخصيّاً لاستقبالنا. فالظروف الأمنية تمنعه من الخروج علناً منذ الاحتفال بالنصر بعد حرب تموز/ يوليو ٢٠٠٦.

لا أدري كيف مشيت نحوه. قال مبتسماً:

— «الحمد لله على سلامتك».

لم أستطع الكلام. احتضنته طويلاً.

وقفت بجانبه. أحد حرّاسه المستنفرين أزاحني ليقف في النقطة التي كنت فيها. بحث السيّد عنّي. وجدني بعيداً منه. المايكروفون في يده، قال:

— «وين رحت يا سمير، عملنا الحرب كرمالك؟ تعا وقّف هون».

لحظة تساوي ثلاثين سنة. لا أستخفّ بأيّام السجن ولا أُبالغ في وصف حضور السيّد لاستقبالنا مخاطراً بنفسه. لكني شعرت بأن تاجاً وُضع فوق ثلاثين عاماً.

أدركتُ في لحظتها أنني عدت إلى لبنان.

وقفت خلف المايكروفون. نظرت إلى الحشود. من أين آتي بالكلام. لم أستعدّ لهذه اللحظة. نطقت بما أفكّر فيه:

— «صدّقوني لم أعد إلى هنا إلاّ لأعود إلى فلسطين. عدت لأعود...».

روزنامة سمير القنطار في السجون الإسرائيلية

- ١٣٩١ الصرفند: ٢٢/ ٤/ ١٩٧٩ حتى تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٩.
- الجلمة: خلال تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٩.
- عكا (مركز الشرطة): خلال تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٩.
- الرملة (مركز التوقيف - نيتسان): من ٦/ ١١/ ١٩٧٩ حتى ٢٩/ ١/ ١٩٨٠ (جرت المحاكمة خلالها).
- الرملة (قسم العزل - أيالون): من ٢٩/ ١/ ١٩٨٠ حتى شهر تموز/ يوليو ١٩٨١.
- بئر السبع: أسبوع من تموز/ يوليو ١٩٨١.
- عسقلان: من تموز/ يوليو ١٩٨٠ حتى آب/ أغسطس ١٩٨١.
- بئر السبع: من آب/ أغسطس ١٩٨١ حتى تموز/ يوليو ١٩٨٤.
- جنيد: من تموز/ يوليو ١٩٨٤ حتى آب/ أغسطس ١٩٨٤.
- عسقلان: من آب/ أغسطس ١٩٨٤ حتى تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٤.
- نفحة: من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٤ حتى تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٥.
- عسقلان: من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٥ حتى كانون الأول/ أكتوبر ١٩٨٥.
- نفحة: من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٥ حتى نيسان/ أبريل ١٩٨٧.
- عسقلان: من نيسان/ أبريل ١٩٨٧ حتى حزيران/ يونيو ١٩٨٧.
- نفحة: من حزيران/ يونيو ١٩٨٧ حتى حزيران/ يونيو ١٩٩١.
- بئر السبع: من حزيران/ يونيو ١٩٩١ حتى كانون الثاني/ ١٩٩٢.

— نفحة: من الشهر الأول ١٩٩٢ حتى حزيران/ يونيو ١٩٩٢.
— بئر السبع: من حزيران/ يونيو ١٩٩٢ حتى تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٢.
— نفحة: من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٢ حتى تموز/ يوليو ١٩٩٤.
— بئر السبع: من تموز/ يوليو ١٩٩٤ حتى حزيران/ يونيو ١٩٩٦.
— نفحة: من حزيران/ يونيو ١٩٩٦ حتى تموز/ يوليو ٢٠٠٤.
— هداريم: من تموز/ يوليو ٢٠٠٤ حتى ١٦/ ٧/ ٢٠٠٨، تخلّلتها فترات عزل في سجني هشارون والجلمة.

فهرس الأعلام

ـ أ ـ

- ت -

- ث -

- ج -

- ح -

- خ -

- د -

- ك -

- ل -

- م -

- ن -

- هـ -

- و -

- ي -

فهرس الأماكن

- أ -

- ب -